العلاقات العربية اليهودية
حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين

تأليف
الدكتور صالح موسى دراذكه
رئيس قسم التاريخ في الجامعة الاردنية



الأهلية للنشر والتوزيع

العلاقات العربية اليهودية

حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

عمـان

٩٥٦,٠٣

صـال صالح مؤنس درادكـة

العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين/

صالح مؤنس درادكة .ـ عمان. الأهلية للنشر والتوزيع. ١٩٩٢ .

(٥٦٠) ص.

ر.أ (١٤٤/٤/١٩٨٧).

١ـ التاريخ الإسلامي أ ـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

رقم الإيداع: ١٤٤/٤/١٩٨٧

العلاقات العربية اليهودية

حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين

تأليف

الدكتور صالح موسى درادكه

رئيس قسم التاريخ في الجامعة الاردنية

الأهلية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

- الى روحيْ والديَّ اللذين تعهداني صغيرا ودعوا ربهما ليحفظني كبيراً.
- إلى زوجتي وأولادي الـذين قاسوا وصبروا، وشدوا أزري عبر رحلتي الطويلة في تأليف هذا الكتاب.
- الى أرواح الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن الحق في فلسطين.
- الى طلبة العلم وعشاق الحقيقة. اليهم جميعاً أهدي كتابي هذا.

« المؤلـف »

المقدمة

أحمد الله الذي لا اله الا هو، وأشكره شكر الطائعين المخلصين، وأعوذ به مما لا يرضيه، وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعلني ممن يسمعون الكلم ويتبعون أحسنه، والصلاة وأفضل التسليم على سيدنا محمد وآله أجمعين وبعد.

فمنذ بدأتُ دراسة التاريخ، كنت أشعر بالرغبة في الاطلاع على أسباب الصراع العربي اليهودي، وكانت هذه الرغبة تزداد سنة بعد سنة.

وفي مرحلة الدراسات العليا كنت أشعر بعوامل متعددة تدفعني إلى الاطلاع على التاريخ اليهودي للوقوف على بداية العلاقات العربية اليهودية. ولما أصبحت أمام اختيار موضوع رسالة الدكتوراه، رأيت أن حوافزي على وشك أن تقترب من غايتها. فسجلت موضوع «العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين». ومن أبرز الحوافز التي حملتني على اختيار هذا الموضوع هو افتخاري العميق بالانتماء للأمة العربية، وإيماني بقدرة هذه الأمة على تخطي العقبات إذا حزمت أمرها وتبينت طريقها.

وأرى أن الأمة العربية عبر تاريخها الطويل لم تواجه عقبة استنفذت من طاقاتها ما استنفذت وأكلت من شبابها ما أكلت، واستعصرت من أفكار كتابها ومؤرخيها ما استعصرت، كالمعضلة اليهودية، على الرغم من كثرة المعضلات والنكبات التي اعترضت مسيرة امتنا عبر تاريخها الطويل. وانا كواحد من ابناء هذا الجيل الذين عاشوا النكبة العربية بفلسطين وما زالوا يعايشون اخطار الصهيونية العالمية واطماعها في الوطن العربي. ولا يكاد يمر يوم دون ان يهتز الانسان العربي لما يسمعه أو يقرؤه أو يراه، من متابعة الصهيونية العالمية لمخططاتها وإصرارها على مواصلة عدوانها بأساليب غاية في المكر والدهاء.

وعلى كثرة ما كتب في هذا الموضوع الخطير. فلا زالت المكتبة العربية والاسلامية بحاجة الى دراسة علمية وموضوعية ومتكاملة لبداية العلاقات العربية اليهودية وخصوصا في الفترة التي اخترت البحث فيها، لأن مثل هذه الدراسة من شأنها أن تكشف عن طبيعة العلاقات

العربية اليهودية في مراحلها الأولى لأن هذا الكشف ضروري لمعالجة العلاقات العربية اليهودية المعاصرة وتحليلها تحليلاً موضوعيا يمكنٌ من القدرة على اتخاذ الوسائل الناجعة في التغلب على هذه المعضلة المستعصية.

وإنني إذ أعترف بأن المكتبة التاريخية غنية بالابحاث الوافية عن التاريخ اليهودي القديم وعن الحركة الصهيونية المعاصرة، فما زلت أشعر بمسيس الحاجة إلى سد هذه الثغرة الهامة والخطيرة في تسلسل العلاقات العربية اليهودية، وآمل أن يكون هذا البحث تنبيها متواضعا لمؤرخينا إلى أهمية هذه الفترة فيمنحونها عنايتهم ويكشفون بدراساتهم عن الأسباب الحقيقة للتناقضات العربية اليهودية، فتحصل بذلك المنفعة وتدرك الغاية.

وأرى أن أنبه في هذه الدراسة إلى ملاحظتين جديرتين بالاعتبار هما:

١ - إن الدراسات التي تناولت تاريخ اليهود القديم تأثرت كثيرا بما ورد في التوراه، ولذلك جاءت هذه الدراسة لتخدم كتاب التاريخ اليهودي وتتبنى أفكارهم دون مراعاة لشروط النزاهة والحياد في كتابة التاريخ.

والكتّاب الذين اندفعوا بهذا الاتجاه فريقان: الاول رجال الدين المتعصبون للتوراة، من يهود ومسيحيين وهم الأكثرية وفريق آخر من العلماء والكتاب الذين انخرطوا في سلكهم لتقصي الحقائق التاريخية، فأصبح أكثرهم عن قصد أو عن غير قصد دعاة لليهود قبل أن يكونوا رواد علم وحقائق[١]

ويقتضي الانصاف بأن ننوه ببعض المؤرخين الغربيين الذين خرجوا عن هذا الطوق وكشفوا عن بعض حقائق التاريخ اليهودي، ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسي الكبير غوستاف لوبون في مؤلفه: «اليهود في تاريخ الحضارات الأولى»[٢]

كما أشار «ول. ديورانت» إلى بعض جوانب التاريخ اليهودي، وذلك في سفره الكبير «قصة الحضارة»[٣]

---

(١) انظر، احمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ**، مطبعة وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٢م المقدمة ص ـ ل.
(٢) ترجم هذا الكتاب الى العربية عادل زعيتر، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٥٠م.
(٣) انظر **قصة الحضارة**، م١ حـ٢، ترجمة محمد بدران ـ ط٢ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦م.

٢ ـ إن معظم الذين تعرضوا لدراسة الحركة الصهيونية الحديثة تناولوها بشكل مستقل ومنفصل عن التاريخ اليهودي العام، واعتبروها وليدة الاستعمار الحديث، وهذا ما تنفيه وقائع التاريخ اليهودي في عصور ما قبل الاستعمار.

وعلى الرغم من صعوبة الحياد في مثل هذه الدراسة التي تتناول الصراع بين جانبين احدهما محق لا محالة، فقد حرصت أن يكون ميلي مع الحقيقة التاريخية التي تقررها الوثائق والمستندات.

لقد كان اختياري لهذا البحث صعبا، ذلك أن الدعاية الصهيونية المضللة قد عملت على تزييف الحقائق التاريخية بما تملكه من وسائل الاعلام، وما تملكه من نفوذ في أوساط المال والسياسة في العالم. وقد أَقْحَمَت الصهيونية التاريخ اليهودي في الصراع العربي الاسرائيلي، بعد أن جعلت هذا التاريخ في صورة تخدم أغراضها.

ولهذه الأسباب فالمكتبة العربية خالية من أية دراسة علمية تتسم بالحياد التام والحرص على إظهار الحقائق التاريخية بدون التعصب لهذه الجهة أو تلك، فالمؤرخون المسلمون الأوائل تأثروا بقصص التوراة في كتاباتهم عن التاريخ اليهودي القديم، ومؤرخونا المحدثون تناولوا التاريخ اليهودي من وجهات نظر متعددة، كلها تعكس أفكارهم ومعتقداتهم الخاصة فحمّلوا الحوادث التاريخية فوق طاقتها وعللوها بتعليلات بعدت بها عن الحقيقة في أحيان كثيرة.

ولهذا فما زالت المكتبة العربية بحاجة لدراسة للعلاقات العربية اليهودية تحفظ تسلسل هذه العلاقات وتكشف عن دوافع اليهود الحقيقة، وتبين الأساليب التي اتبعها الطرفان العربي واليهودي في تعاملهما معا، ثم تكشف علاقة الصهيونية الحديثة بالفكر اليهودي القديم. وأرى أن في مثل هذه الدراسة فائدة كبرى في معرفة الوسائل الناجعة التي يمكن استخدامها في الصراع الحالي لصالح الحق العربي.

تعالج هذه الدراسة فترتين متميزتين، الاولى توغل في القدم حتى عصر ابراهيم الخليل وتمتد حتى ظهور الاسلام. والثانية تشمل الفترة الاسلامية في العهد النبوي والخلافه الراشده. وكما اسلفنا فان الفتره الاولى تعتبر مدخلا للفترة الثانية، وتهدف دراسة الفترتين معا، الى رسم الهيكل الكلي للعلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين.

وليس المقصود من الرجوع الى العهود القديمة دراسة احداث هذه الفترة الطويلة، والوقوف على تفاصيلها الدقيقة، لان الهدف انما يكمن في جمع الحوادث البارزة ذات العلاقة بموضوع الدراسة، اعتمادا على ما اوردته المصادر اليهودية في الدرجة الاولى. وفي حوادث العهد النبوي انتهج البحث استخلاص ما روته المصادر العربية الاولية، وما روته المصادر الاخرى اي اليهودية والاستشراقية، وعقد البحث مناقشة علمية وموضوعية بين الاراء المختلفة، لاقرار الرأي الذي تصل اليه المناقشة العلمية والمنطقية على ضوء المنهجية التاريخية. ويلاحظ الدارس لهذا البحث ان الباحث أولى عناية خاصة للفترة الاسلامية، فوقف عند دقائقها، واستقصى رواياتها، وذلك يعود الى ان هذه الفترة هي المقصودة بالدراسة اصلا، كما ان طبيعة البحث في العصر الاسلامي بعامه والمبكر منه بخاصة، تقتضي مثل هذه المنهجية، لوفرة المصادر، وكثرة الاراء وتعدد الاهواء كما هو معروف عند المؤرخين.

لعل في الاراء التي أوردتها عذرا في تبرير التوسع في الدراسة التي تجمع في ذاتها خصائص البحث الفكري العام والتخصص الدقيق. وعلى اي حال فموضوع الدراسة ليس واسعا فحسب، وإنما هو معقد ايضا، والاحاطة بابعاده وأسراره، متعذره، ولذلك اسباب كثيرة: ندرة المصادر اليهودية عن الفترة الاسلامية بشكل خاص، ومنها غموض التأثيرات اللغوية والفكرية والدينية، والطقوس، والتأثيرات الاجتماعية، ومن ثم العلاقات السياسية والتأثيرات الدولية فيها.

وادراكا من الباحث بضرورة المحاولة لدراسة هذا الموضوع الهام، عقد العزم على القيام بهذه المحاولة وهو يدرك ما يحف بها من اخطار.

ولا يفوت الباحث ان يكرر القول بان الغاية من تفصيل الاحداث الاسلامية الاولى تهدف الى غرض ابراز الوضع الفكري والديني والسياسي للمجتمع العربي قبيل الاسلام، وفي الفترة المبكره من الدعوة الاسلامية وذلك لوصل الخط التاريخي للأمة العربية، وابراز المكونات الحقيقية لشخصية الامة العربية وفكرها، ومن ثم ليصار الى تقدير اهمية الاثر اليهودي بموضوعية ونزاهة. لهذا السبب كان لا بد من استكمال صورة المجتمع العربي في بدايات تكوينه، ما له وما عليه، والتعرف على خصائص حركته التاريخية بنظرة فاحصة وشمولية.

ونظرا لطول الفترة التي تتناولها الدراسة، يصعب استعراض المصادر التي استفادت منها بشكل مفصل. ففي فترة التاريخ القديم، كان لا بد من الاستفادة من الابحاث العربية والعالمية، سواء كان ذلك صادراً عن الدوائر المعنية في الدراسات الاثرية او الاكاديمية. ويجدر التنويه بمؤلف الدكتور جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» فهو اوسع دراسة نشرت حتى الآن عن تاريخ العرب قبل الاسلام، اذ جاء في عشرة مجلدات كبيرة، تتراوح صفحات الواحد منها ما بين ٦٦٠ ـ ٩٠٠.

وقد حشد المؤلف في هذا السفر الضخم معظم ما قيل في المصادر العربية والاجنبية، عن عرب قبل الاسلام حتى تاريخ نشره: ونظرا للماده الغنية التي احتواها كتاب الدكتور جواد علي، فقد سميته طبري عصور ما قبل الاسلام.

وكذلك اعتمد البحث في هذه الفترة القديمة على التوراة، اذ تعتبر تاريخ اليهود واليهودية، وتعكس في نصوصها معاناة الشعب اليهودي، كما تعكس تطلعاته الى المستقبل. ويستطيع الدارس ان يستخلص كثيرا من النتائج حول ما قالته التوراه عن قصة الشعب اليهودي، وبالاضافة الى ما تقدم فقد ذكرت التوراه الكثير من اخبار العرب، وبخاصة أخبار الكيانات الآرامية والآشورية، وبشكل اكثر تفصيلاً النبطية والعهد المكابي.

ويعتبر كتاب يوسيفوس في التاريخ ذا قيمة، لان يوسيفوس كان معاصراً لاحداث القرن الاول الميلادي، وتتناول حروب بني اسرائيل في هذه الفترة وما سبقها، مع الرومان والعرب.

ولا يستغني الباحث في هذه الفترة عن الدوريات الآثرية والتاريخية، والروايات في المصادر العربية التاريخية والادبية والدينية، ولا يتيسر المجال في هذه المقدمة لاستعراضها.

وفي الفترة الاسلامية من هذه الدراسة، اعتمد البحث على القرآن الكريم، بشكل خاص، فهو كما هو معروف كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ، فهو علاوة على تصويره الصادق للموقف الاسلامي، يعتبر مصدرا معاصرا للاحداث. لذلك استفاد البحث كثيرا من المقارنات التي عقدت بين ما جاء في القرآن وكتب التفسير والحديث، وما جاء في التوراه والتلمود والمدراس. وفي الفترة الاسلامية المبكره ـ عهد النبوه ـ لا يستغنى عن سيرة ابن هشام (١٥١ هـ) ومغازي الواقدي (٢٠٧) والطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٠ هـ).

فهذه المصادر الثلاثة، تتعاون في استجلاء الخبر التاريخي في فترة النبوة، وقد اعتمد البحث ايضا على المؤلفات التاريخية الأولية التي تعود إلى القرنين الثالث والرابع بشكل خاص، وأنوّه في هذا المجال: بمؤلفات البلاذري (٢٧٩هـ)، وابن خياط (٢٤٠هـ)، واليعقوبي (٢٩٢هـ) وابو حنيفة الدينوري (٢٨٢هـ) وابن قتيبة (٢٧٦هـ) وأخيراً مؤلف شيخ المؤرخين، ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ).

لا يتوقف البحث في اعتماده على مصادر هذه الفترة المبكرة، بل استفاد من المصادر التاريخية المتأخرة، كما استفاد من المصادر الأدبية، ككتاب الأغاني للأصفهاني، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبدربه، بالاضافة إلى الدواوين والمجموعات الشعرية.

ولم يفت الباحث ان يستفيد من الكتب الجغرافية العربية، ككتب المسالك والممالك، والبلدان، وكتب الرحلات واخص منها: رحلة ابن فضلان، التي انفرد صاحبها بالحديث عن بلاد الخزر.

ان طبيعة البحث تقتضي احيانا ان تتعامل مع المراجع الحديثة، بنفس روح التعامل مع المصادر الأولية، ذلك أن كثيراً من هذه المراجع هي مصادر البحث عن فترة العلاقات العربية اليهودية في العصور القديمة كما هي مصادرنا في دراسة هذه العلاقات في العصور الحديثة، وسيجد الدارس الاشارات إلى بعض المراجع عند الحديث عن فصول الدراسة. ويبرر ما ذهبنا إليه كون هذه الدراسة التاريخ بطوله، والغرض منها كما اسلفنا وصل العلاقات في الفترة الإسلامية المبكرة بالماضي، ليجد الدارس تفسيراً لكثير من الحوادث، التي لا يمكن تفسيرها إلا على ضوء العوامل التي كونت الشخصية اليهودية، وهي لا شك تعود إلى بدايات التاريخ اليهودي السياسي والديني والاجتماعي، وكان لا بد للباحث من ايراد بعض الحوادث التاريخية المعاصرة من الصراع العربي اليهودي، ليحقق للقاريء رؤيا كلية متناسقة لهذه العلاقات التي بدأت على الأرض العربية في لحظة زمنية موغلة في القدم ولم تنته. انها التراجيديا، التي لا تنته فصولها على مسرح الزمان، يؤدي الأدوار فيها الآباء والأبناء وأحفاد الأحفاد.

ويفترض الباحث انه وأن اختلفت الآراء في جزئيات القسم الأول من الدراسة، لا يعتقد بان ذلك يحدث بنفس الدرجة للصورة الكلية التي خلص البحث إلى تصورها لموضوع الدراسة.

وقد اضطرتني هذه الدراسة إلى استقصاء الروايات التاريخية وتحقيقها على مدى خمس سنوات متواصلة، لأنني وجدت نفسي مضطرا للبحث في المصادر الدينية على اختلافها والرجوع إلى تفسير نصوصها واستجلاء غوامضها، سواء في ذلك كتب اليهود او النصارى أو المسلمين.

وكذلك اقتضاني البحث أن أرجع إلى كتب الأدب شعره ونثره وإلى معاجم اللغة، وإلى المراجع الأجنبية المترجمة وغير المترجمة بالاضافة إلى مصادر التاريخ القديم والحديث.

وتحقيقا لغاية البحث كنت مضطرا لزيارة المكتبات العربية ومقابلة المتخصصين والمهتمين بالتاريخ اليهودي في البلاد العربية، فزرت معظم اقطار الوطن العربي من المغرب الأقصى وحتى العراق، وراسلت امناء المكتبات في عدد من الدول الأجنبية، وأمدني بعض المتخصصين في التاريخ العربي في هذه البلدان بآرائهم وببعض المراجع المفقودة أو النادرة في بلادنا، سواء منها المخطوط باللغة العربية او المطبوع باللغة الانجليزية.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد أمدتني مكتبة الامبروزيانا بإيطاليا بصورة لرسالة مخطوطة بعنوان «التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب ـ للشيخ العلامة صارم الدين بن عبدالقادر بن أحمد، كتبت في المحرم من سنة ١٢١٩هـ، بدون رقم»، وحصلت على بعض المخطوطات من جامعة مدريد، وزودني الاستاذ يعقوب فايرستون الذي يعمل في مركز دراسات الشرق الاوسط التابع لجامعة هارفارد في الولايات المتحدة ببعض المراجع مثل:

«العلاقات العربية الاسرائيلية قبل الاسلام ـ لمارجيلوث»

Margoliouth D.S.: «The Relations Between Arabs and Israelets prior to the Rise OF Islam, London 1924.

كما أرسل بعض المقالات والمقتبسات من مؤلفات «الزليجتنشادر»

«العلاقات الحضارية بين اليهود والعرب في العصور الوسطى»

Lichten standter. Ilse: Cultural Relations Between jews and Arabs in the Middle Ages.

New York 1948.

ومقتطفات من مؤلف المؤرخ اليهودي «غويته» اليهود والعرب.

Golteln, S.B.: Jews and Arabs, New Yourk 1964.

وبعض المطبوعات الأخرى، كمازودني بآرائه وآراءزملائه المتخصصين بتاريخ شعوب الشرق الاوسط. وإنني أغتنم هذه المناسبة لأسجل له شكري وامتناني على خدماته الجليلة.

وفي سبيل هذه الغاية قابلت كلا من الأساتذة، الدكتور جواد علي، والدكتور صالح العلي، والسيد أكرم العمري، وجميعهم في جامعة بغداد، وقد استفدت من نصائحهم وإرشاداتهم القيمة، فجزاهم الله عني خيرا، كما قابلت الدكتور عبدالعزيز الدوري في الجامعة الاردنية وأخذت شاكرا بنصائحه وإرشاداته. وخلال تجوالي في البلاد العربية زرت مكتبات بغداد ودمشق وبيروت والقاهرة والمغرب العربي بالاضافة إلى المكتبات الاردنية العامة والخاصة، واطلعت على المصادر المخطوطة والمطبوعة.

ولا أملك إلا أن أتوجه بالشكر والثناء لكل المؤسسات والهيئات العربية والأجنبية التي تفضلت فأمدتني بما توفر لديها من مطبوعات أو معلومات تتعلق ببحثي، وإلى الأساتذة والباحثين وأمناء المكتبات أيا كانت جنسيتهم ـ وهم كثر ـ فهم جديرون بالتنويه والشكر على إعانتهم لي سواء بالتوجيه والارشاد أو بالامداد بالمطبوعات، وأرجو من الله لهم حسن الثواب. وأخص بالشكر الاستاذ الدكتور عبدالفتاح شحاته الذي تفضل مشكورا بالاشراف على هذا البحث.

وقد نهجت في بحثي أسلوباً خاصاً يقوم على جمع الروايات التاريخية إذا توافرت، لتخدم الحقيقة التاريخية التي أسعى إلى بلوغها، كما عمدت إلى الرد على بعض الآراء التي تبناها بعض المؤرخين والمستشرقين معززا ردودي بالأدلة التاريخية ومحكماً العقل والمنطق في بعض المواقف.

هذا ولم أذهب في تعليل الحوادث التاريخية وفق مذهب معين، لاعتقادي بأن الحوادث التاريخية على اختلافها هي وليدة عوامل متعددة، فلو كان الأمر غير ذلك لتشابهت هذه الحوادث وتكررت، وهذا ما لا يراه الباحث المنصف.

ولم أعمد في بعض المواقف إلى الادلاء برأيي إذا كانت الأدلة التاريخية لا تسمح بإعطاء

رأي، ففضلت ترك الروايات المتوافرة لفكر القاريء يرى فيها ما يشاء، ريثما تظهر أدلة جديدة تزيد مثل هذه الحوادث وضوحا.

وقد قسمت بحثي إلى مقدمة وثمانية فصول وثلاثة ملاحق وخاتمة.

ففي المقدمة: أشرت إلى أهمية البحث والأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع والصعوبات التي واجهتها خلال العمل..

وفي الفصل الأول: «أصل اليهود وبداية تاريخهم» عرضت إلى الخطأ الذي وقع فيه معظم من كتبوا في التاريخ اليهودي لاعتمادهم على التوراة كمصدر مسلم به، كما تناولت التسميات التي أطلقها كتبة التوراة على أتباع التوراه وهي «العبرانيون» و «إسرائيل أو بنو اسرائيل» و «الموسويون أو أتباع موسى» و «اليهود» بالبحث والتحقيق.

وقد اعتمدت على الشواهد التاريخية واللغوية والدينية في إثبات ان التوراة هي سجلات لكتبة مختلفين يمثلون أزمانا مختلفة. وأوضحت أن التسمية العبرانية ليست علما على شعب بعينه وانما هي تسمية عامة تشير الى حياة البداوة التي مرت بها شعوب كثيرة في منطقة الشرق الأدنى القديم. وذهبت إلى أن العربي والعبري ذات دلالة مشتركة في التاريخ القديم، فقد أصبح مسلماً ان جزيرة العرب هي المهد الأول لهذه الشهوب، وأن الاصول المشتركة لها، جعلت لها ملامح متشابهة بما في ذلك اللهجات والمسميات.

وبعد مناقشة العبرانية وأصلها تعرضت إلى قضية التوحيد عند اليهود وأوضحت قدم عقيدة التوحيد عند الشعوب السامية السابقة للتوراة. ثم أشرت إلى أثر المعتقدات الوثنية الكنعانية والبابلية واليمنية وغيرها في العقيدة التوراتية المتأخرة عن عهد موسى عليه السلام.

وقد خلصت إلى أن كتبة التوراة كانوا يهدفون إلى خلق عقيدة «الشعب المختار والارض الموعودة» وتثبيتها في أذهان اتباع التوراة وغيرهم. وقد جاء الفكر التوراتي كحصيلة لحياة التشرد والتشتت التي عاشها اليهود كغرباء مضطهدين فقدوا التوارة التي انزلت على سيدنا موسى، كما فقدوا الوطن الذي حفظوا له في انفسهم اجمل الذكريات. لهذا جاءت شريعتهم الجديدة تلبي رغباتهم السياسية وتعكس قلقهم الاجتماعي والديني، فوجدت جموع اليهود في هذه الشريعة طريقا للخلاص من الأوضاع المزرية التي أردتهم اليها حياة

الشتات والاضطهاد، فتمسكوا بها كبرنامج عمل يضمن لهم العودة الى الفردوس المفقود.

ولنفس الغاية ربط اليهود نسبهم بابراهيم الخليل مع انه يمثل عصرا مستقلا في التاريخ سواء من ناحية الزمن او اللغة او الدين، عن عصور التسميات التي اطلقها كتبة التاريخ اليهودي على اليهود.

ثم تناولت تسمية «اسرائيل» التي اطلقت على يعقوب بن اسحاق واستعملها كتبة التوراة كعلم على الشعب اليهودي، فأوضحت ان عصر يعقوب هو نفس عصر ابراهيم، وانه ورث دينه ولغته، وان لا علاقة لهذا العصر بعصر موسى الذي نزلت عليه التوراة، وأشرت الى ان تسمية اسرائيل ويعقوب وابراهيم ليست جديدة في التاريخ وانما هي تسميات متوارثة استخدمتها الشعوب قبل مطلع هؤلاء على التاريخ. واوضحت القصد من وراء تعلق اليهود بهذه الأسماء المقدسة.

وفي الحديث عن الموسوية ناقشت الآراء المختلفة التي تعرضت لسيدنا موسى سواء من حيث اصله او دينه او لغته، وعلاقة ذلك باليهود، كما أشرت الى اختلاف الجموع التي قادها سواء من حيث السلالة او العقيدة. واعتبرت الخروج من مصر بداية للتاريخ اليهودي.

وبعد ذلك عرضت للتسمية الرابعة «اليهود» واوضحت اصل هذه التسمية وعلاقتها بيهوذا، وفي نهاية هذا الفصل اوضحت ان لا علاقة بين يهود اليوم والمسميات القديمة التي عرضنا لها.

ولا يفوتني ان اذكر انني افدت في هذا الفصل من مؤلف «الدكتور احمد سوسة» ـ العرب واليهود في التاريخ ـ الذي نشرته وزارة الاعلام العراقية سنة ١٩٧٢م. فقد اعتمد المؤلف في هذا الكتاب القيم على الوثائق والحفريات في تدعيم آرائه. ورغم ان هذا الكتاب يتناول تاريخ العرب واليهود في العصر الاسلامي وما بعده بايجاز شديد، الا ان الباحث في تاريخ العرب واليهود في الفترة السابقة لميلاد المسيح يجد فيه ما ينفعه.

كما أذكر من بين هذه المراجع «اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة» لابكار السقاف، عالم الكتب، ط ١، القاهرة ١٩٦٧م.

ومن بين مراجع هذا الفصل «القبيلة الثالثة عشرة ـ أو امبراطورية الخزر اليهودية للكاتب اليهودي المجري «آرثر كويزلر» الذي صدر عن دار هتشنسن بلندن عام ١٩٧٦م، ونشرت بعض الصحف العربية تعليقات حوله.

فقد اوضح هذا الكتاب زيف الدعوى العنصرية الصهيونية، وأورد اخبار مملكة الخزر المغولية اليهودية، واوضح ان يهود الخزر انتشروا في اوروبا بعد انهيار امبراطوريتهم وجلهم ارتحل الى فلسطين بعد اغتصابها، وفنّد دعوى اليهود ةالقائلة بانهم اسباط يعقوب.

وفي الفصل الثاني: «العلاقات العربيبة اليهودية خارج الجزيرة العربية» عرضت لأول ذكر صريح للعرب في النصوص الاشورية وأثرهم في بعض أسفار التوراة وعلاقة العرب بمملكة سليمان، وناقشت قصة سليمان وبلقيس وخلصت من هذه القصة الى الصلات الوثيقة التي كانت تربط الجزيرة العربية بفلسطين.

ثم اشرت الى انقسام المملكة اليهودية بعد سليمان، ثم علاقة العرب بهاتين المملكتين.

ثم عرضت لعلاقة الانباط العرب باليهود وتتبعت هذه العلاقة في اسفار التوراة ورددت على بعض المؤرخين اليهود في هذا الصدد، كما عرضت لعلاقة اليهود بتدمر وناقشت قضية تهود الزباء ملكة تدمر واوضحت عهد التسامح الديني الذي عاشته مختلف الطوائف في تدمر في عهد ملكتها الزباء «زنوبيا».

وقد أفدت في هذا الفصل من مؤلف الدكتور جواد علي «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» الذي سبقت الاشارة إليه.

واعتمدت في هذا الفصل اعتمادا كبيرا على التوراة وبعض المؤلفات المتعلقة بتوضيح نصوصها مثل «قاموس الكتاب المقدس» لجورج بوست ـ المطبعة الاميركانية ـ بيروت ١٨٩٤م.

وكذلك مؤلف جورجي زيدان «تاريخ العرب قبل الاسلام» طبع دار الهلال. ومؤلف مارجليوث «العلاقات بين العرب والاسرائيليين قبل الاسلام» طبع لندن سنة ١٩٢٤م.

D.S. Margoliouth: The relations Between Arabs And Israelits priorto the Rise Of Islam, London 1924.

وعلى الرغم من ان مارجليوث يتظاهر الحرص في الكثير من ابحاثه على التمسك بالتحليل العلمي والموضوعي، الا انه لا يلتزم الموضوعية كما هو واضح في مؤلفه السابق.

وفي الفصل الثالث: «اليهود في الجزيرة العربية» عرضت لتاريخ دخول اليهود جزيرة العرب، واوضحت علاقتهم بفلسطين وباليهود خارج الجزيرة العربية. وقد ميزت بين احوال اليهود الدينية قبل السبي البابلي وبعده، وأثر هذا التحول الفكري في تطلع اليهود لاقامة كيان مستقل خاص بهم، ثم عرضت لمواطن اليهود في شمال الجزيرة العربية واسباب اختيار هذه الاماكن من قبلهم، وناقشت الوجود اليهودي في مكة واستبعدت وجود جالية يهودية ذات شأن فيها.

وانتقلت الى الحديث عن يهود يثرب فأشرت الى تاريخ هذه المدينة وتاريخ سكن اليهود بها، وكذلك عرضت لاقامة اليهود في تيماء وفدك ووادي القرى وخيبر وغيرها، ووضحت هذه الاماكن بخارطة خاصة.

وبعد ذلك ناقشت اصول البطون اليهودية في هذه المستوطنات وفيما اذا كانت عربية ام يهودية.

وفي الحديث عن اليهودية في بلاد اليمن ناقشت آراء المؤرخين في ذلك وأوضحت العلاقة بين يهود اليمن ويهود الحجاز مبينا حجج اليهود بقدم وجودهم في اليمن اعتمادا على بعض النقوش والكتابات وأوضحت رأيي فيها.

وقد عرضت لاسباب تحول بعض أقيال حمير من الوثنية الى اليهودية وناقشت الاراء التي تعرضت لذلك، كما بينت علاقة كل من الاحباش والبيزنطيين والفرس باليمن، والصراع الذي احتدم بين النصرانية واليهودية في هذه البلاد، وموقف العرب الوثنيين من هذا الصراع.

وفي الحديث عن مذبحة نجران ونتائجها، ناقشت آراء المؤرخين في علاقة كل من الحبشة وبيزنطة في الحملة على اليمن، ثم عرضت لأعمال الأحباش في اليمن ومحاولة تنصير سكانها، ثم أوضحت دخول الفرس الى اليمن وبقاءهم بها حتى ظهور الاسلام.

ومن بين المراجع التي أفدت منها في هذا الفصل مؤلف الدكتور «اسرائيل ولفنسون»

«تـاريخ اليهـود في بلاد العـرب في الجاهلية وصدر الاسلام» مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٢٧م ـ وهو البحث الذي تقدم به لنيل درجة الدكتوراه تحت اشراف الدكتور طه حسين وقـد ظهـرت النـزعة اليهودية واضحة في هذا البحث، ولكنه رغم ذلك اثار كثيرا من الملاحظات والآراء الجديدة بالاهتمام. وكذلك افدت من مؤلف الباتريرك اغناطيوس يعقوب الثالث «الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية» طبع ـ بيروت. فقد اورد المؤلف آراء جديدة حول العلاقات البيزنطية الحبشية اليمنية.

ومن بين مراجع هذا الفصل كتاب المؤرخ اليهودي «غوتيه» ـ اليهود والعرب.

S.D.Goitien, Jews And Arabs «Newyork 1964

هذا بالاضافة الى العديد من المراجع العربية والاسلامية.

وفي **الفصل الرابع**: «بين العرب واليهود في يثرب» عرضت لاصل البطون العربية التي استوطنت يثرب واوضحت طبيعة العلاقات بين البطون اليهودية في يثرب قبل قدوم الاوس والخزرج، ثم استعرضت الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في هذه المدينة. وقد تتبعت تطور العـلاقات العربية اليهودية في يثرب حتى تمكن الأوس والخزرج من انتزاع السيادة في هذه المـدينـة من اليهـود. وبعد ذلك عرضت للعلاقات بين الأوس والخزرج أنفسهم،. ودور اليهـود في افساد هذه العلاقات حتى نشب القتال بين هذين الحيين من العرب. ثم تعرضت لاثر اليهود في احوال يثرب الاقتصادية والفكرية وقارنتها بنتاج العرب، وخلصت الى أن تأثير العرب العقلي في اليهود ـ وخاصة في ميدان اللغة والأدب ـ كان أكثر وضوحاً، واعتبرت ذلك دليلا على أن البيئة العربية قد صهرت الأقلية اليهودية في بوتقتها.

وقد ناقشت ما قيل عن اثر اليهود بالنسيء والنسأة عند العرب، وكذلك ما قيل عن أثرهم في عادة الختان، واوضحت ان هذه العادات القبلية قديمة وجاءت تؤدي اغراضا خاصة لا علاقة لليهود بها.

وفي هذا الفصل أفدت من عدد من المصادر اللغوية والأدبية مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني، طبع دار الكتب المصرية «وطبعات اخرى ذكرت في الهوامش» و «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي طبع دار المعارف بمصر، و «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٦٦، وطبعات اخرى ذكرت في الهوامش،

والمصادر الاولية التاريخية كالسير، وكتب الحوليات، وكتب التاريخ العام وكلها تناولت هذا الموضوع واوردت فيه روايات شتى.

ومن بين المراجع التي افدت منها في هذا الفصل «اليهود في تاريخ الحضارات الأولى» لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة الحلبي في القاهرة. وكذلك مؤلف «احمد ابراهيم الشريف» مكة والمدينة، دار الفكر العربي، ط ٢ - القاهرة، وبين مراجع هذا الفصل «الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية للخزاعي» وهو مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية - تاريخ تيمور، رقم ١٩٣٨.

هذا علاوة على العديد من المراجع في ميادين اللغة والأدب والدين والتاريخ وغيرها.

وفي الفصل الخامس: «العرب واليهود ازاء الدعوة الاسلامية»، عرضت لموقف قريش من الدعوة الاسلامية وعوامل نجاح هذه الدعوة من خلال ثلاثة اعتبارات:

الاول: مركز مكة الاقتصادي والاجتماعي والديني في بلاد العرب.

الثاني: دور العصبية القبلية في مقاومة الدعوة الاسلامية ومساندتها.

الثالث: مركز الرسول في مكة.

وخلال هذا الاستعراض أوضحت الحالة الاجتماعية لاتباع الرسول ولاعدائهم، وهجرة المسلمين الاول الى الحبشة وآراء بعض المستشرقين في هذه الهجرة، ثم اوضحت موقف اليهود من الدعوة الاسلامية والآمال التي كانوا يعلقونها على هذه الدعوة في بداية الامر.

ونظرا لأهمية بيعة العقبة الكبرى في نجاح الدعوة الاسلامية فقد أوليتها عناية خاصة وبينت موقف كل من قريش واليهود من هذه البيعة التي ترتبت عليها نتائج هامة، توقف عليها مصير الجماعة الاسلامية فيما بعد.

وفي هذا الفصل أفدت من مصادر ومراجع متعددة ومتنوعة ذكرت بعضها وأذكر من بينها كتاب «محمد في مكة» للمستشرق مونتقمري وات.

Montogemery, Watt, Muhammad At Mekka, Oxford 1956.

هذا الكتاب وان اثقل بالافتراضات والاستنتاجات الخاطئة فلا تخل دراسته من فائدة.

وفي **الفصل السادس**: «محمد ﷺ في المدينة»، تعرضت لموقف الاسلام من اليهود على ضوء النص القرآني، وأشرت الى المنزلة الرفيعة للكتابيين في القرآن وكيف ان القرآن أقام نفسه حجة على الكتابيين والزمهم باتباع الاسلام، مؤيدا هذا الالزام بما ورد على لسان موسى وعيسى عليهما السلام.

وفي مجال السلوك بينت كيف ارشد القرآن المسلمين الى أمثل الطرق في معاملة أهل الكتاب ومجادلتهم بالحسنى، بينما وقف موقفاً لا يعرف المهادنة من الوثنية. لذلك حرص الرسول ﷺ على اقامة افضل الروابط والصلات مع يهود المدينة انسجاما مع المنهج القرآني. وفي هذا الصدد المحت الى الفكر اليهودي القلق ـ الذي انتجته حياة الشتات ـ وانعكاساته على سلوك اليهود، وأثره في عزلتهم. لهذا عرضت لانحرافات الكتابيين عامة واليهود خاصة، وأوضحت هذه الانحرافات على ضوء ما أشارت اليه آيات القرآن المدنية. ومن هذا المنطلق نظر اليهود إلى هجرة الرسول ﷺ نظرة فيها خيفة في البداية، ثم اعتبروها حلفا مع الأوس والخزرج.

وفي مجال عرض أعمال الرسول في المدينة وقفت وقفة طويلة عند الوثيقة او الصحيفة التي كتبت بين المسلمين واليهود، واعتبرت اقدم دستور في الاسلام، وقد استقصيت هذه الوثيقة في المصادر التاريخية ومدى صحتها واهميتها في التاريخ الاسلامي، ثم أشرت الى تاريخ الوثيقة واقسامها وناقشت آراء المؤرخين في ذلك، وأثبت مضمون هذه الوثيقة من خلال استعراض موادها ثم أشرت الى موقف اليهود بعد هذه الوثيقة، واوضحت كيف ان اليهود يظهرون عداءهم للمسلمين كلما ازداد المسلمون منعة وقوة.

وقد ذكرت الاساليب التي اتبعها اليهود في محاربة المسلمين، وتتبعت تطور هذه الاساليب حتى انفجار الصراع المسلح بين الجانبين.

وقد اعتمدت في هذا الفصل على مصادر ومراجع متعددة، وأجد من الواجب ان انوه بمؤلف الدكتور «محمد سيد طنطاوي» بنو اسرائيل في القرآن والسنة بغداد طبعة ١٩٦٨م.

(١) ترجم هذا الكتاب الى العربية، شعبان بركات ـ المكتبة العصرية ـ صيدا وبيروت.

وقد جاء بحث السيد الطنطاوي في جزءين عالج فيهما المؤلف تاريخ اليهود من خلال التصور الاسلامي، وعزز تصوره بالحجج العقلية والمنطقية التي استخلصها من الكتاب والسنة، مما جعل هذا الكتاب من المصادر الهامة في دراسة اليهود خلال عهد النبوة(١).

وخلال فترة تحضيري لهذا البحث ظهر مؤلف قيم للدكتور حسين مؤنس، وهو «عالم الاسلام» طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٣م. ورغم ان هذا الكتاب جامع لتاريخ الجماعة الاسلامية في مختلف العصور والأمصار، فقد وقف عند بعض الحوادث التاريخية ليعللها تعليلا من وجهة نظر جديدة تستحق التنويه، وخاصة موقفه من الوثيقة التي كتبت بين المسلمين واليهود. كما أجد من الواجب التنويه بمقال للسيد «أكرم العمري» المدرس في قسم التاريخ في كلية الاداب في جامعة بغداد. بعنوان «اول دستور اعلنه الاسلام» وذلك في العدد الاول من مجلة كلية الامام الأعظم في عام ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م بغداد. ومن بين مراجع هذا الفصل «كتاب محمد في المدينة» مونتقمري وات(٢).

Montogemery, Watt, «Muhammad At Medina, Oxford 1966.

وقد أخذنا ببعض آراء هذا المستشرق ورددنا على بعضها الآخر.

وفي الفصل السابع: «الصراع المسلح بين اليهود والمسلمين في العهد النبوي».

عرضت لهذه المرحلة الهامة من مراحل تطور العلاقات العربية اليهودية، فأبرزت أسباب هذا الصراع وأهدافه ونتائجه. لذلك ناقشت غزوة بني قينقاع ثم غزوة بني النضير، ودور هؤلاء في تحزيب العرب واليهود للثأر من المسلمين. وقد عرضت لغزوة الاحزاب موضحا اسبابها الحقيقية واحداثها البارزة، ودور اليهود فيها، ثم أشرت الى علاقة بني قريظة بالمسلمين والعهد الذي كان بين الطرفين ونكث بني قريظة لهذا العهد في أقسى الظروف التي مرت بالمسلمين لذلك عرضت لغزوة بني قريظة مبينا اسبابها ووقائعها ونتائجها، وناقشت آراء المؤرخين، وخاصة المستشرقين الذين اعتبروا معاملة الرسول ﷺ ليهود بني قريظة قسوة لا مبرر لها. ثم عرضت للحالة الاقتصادية في المدينة بعد جلاء اليهود عنها.

---

(١) نال المؤلف بموجب هذا البحث درجة الدكتوراة من كلية اصول الدين في جامعة الازهر.

(٢) ترجم هذا الكتاب ايضا الى العربية شعبان بركات، المكتبة العصرية - صيدا وبيروت.

وقد أشرت في هذا الفصل الى أهم الاحداث بين جلاء بني قريظة عن المدينة وغزوة خيبر، وأوضحت الهدف من تحركات المسلمين في هذه الفترة، وبينت ان مقتل عدد من الشخصيات اليهودية مثل «أبي رافع سلام بن أبي الحقيق» و «أسير بن زارم» كانت من جملة الاستعدادات لدخول مكة.

وفي مجال هذه الاستعدادات عقد الرسول ﷺ مع قريش صلح الحديبية الذي اعتبر تمهيداً لدخول مكة، ذلك ان هذا الصلح جعل يهود خيبر وحدهم امام مواجهة المسلمين وبذلك سهل على الرسول التغلب عليهم والتفرغ لغزو مكة وقد أوضحت موقف قريش من انتصار المسلمين على يهود شمال الحجاز وخيبة املهم في هزيمة اليهود.

وقد بينت اسباب غزوة خيبر وأهم حوادثها والنتائج التي حصل عليها المسلمون في خيبر، كما أوضحت احوال اليهود بعد هذه الغزوة التي وضعت حدا للوجود الاجتماعي والسياسي لليهود في الجزيرة العربية، وأشرت الى موقف المستوطنات اليهودية في شمال الحجاز، وتعرضت لعقود الصلح التي ابرمت بين الرسول وهذه المستوطنات.

وقد أفدت في هذا الفصل من مصادر ومراجع عديدة، وأرى من الواجب التنويه ببعض المصادر التي كشفت الغموض عن بعض الحوادث التاريخية التي اشتمل عليها هذا الفصل مثل الجزء الرابع من «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» تأليف الحافظ المحدث شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢هـ وهو مخطوط محفوظ في خزانة القرويين في مدينة فاس برقم ٧٥٨/٤٠.

وتاريخ في المغازي والفتوح، لمؤلف مجهول، مخطوطة مصورة في معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية برقم ١٤٥٥.

وكذلك لا يسعني الا التنويه بمؤلف الدكتور محمد حميد الله «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» دار الارشاد بيروت ط ٣ ١٩٦٩م فقد اشتمل هذا الكتاب القيم على المعاهدات والرسائل المتبادلة بين الرسول والخلفاء الراشدين من جهة وبين طوائف العرب والأعاجم من جهة اخرى.

وفي الفصل الثامن: «العرب واليهود في عهد الخلفاء الراشدين» تناولت احوال اليهود في عهد الخليفة الاول أبي بكر، وتساءلت فيها اذا كان لهم دور في حوادث الردة، فأوضحت

الأسلوب الذي اتبعوه خلال هذه الحوادث الخطيرة دون ان ينتبه اليهم احد. كما بينت التزام ابي بكر في تنفيذ عهود الآمان التي اعطاها الرسول لليهود.

اما عن العلاقات العربية اليهودية في عهد عمر بن الخطاب فقد بحثت مراحل هذه العلاقات ابتداء بعهد التسامح والأمان الذي اتسمت به الفترة الاولى, من خلافة عمر، وانتهاء باخراج اليهود من بلاد الحجاز. وقد اوضحت الاسباب التي حملت عمر على هذا التصرف وناقشت الآراء المختلفة التي تعرضت لهذه القضية، وأثبت ملحقا قيما يعالج سبب اخراج اليهود من بلاد الحجاز وعدم اخراجهم من بلاد اليمن.

وهـذا الملحق هو رسالة مخطوطة بعنوان «التنبيه على ما وجب من اخراج اليهود من جزيرة العرب» للشيخ العلامة صارم الدين بن عبدالقادر بن احمد وهي محفوظة في مكتبة الامبروزيانا بايطاليا، وكتبت في المحرم من عام ١٣١٩ هـ[١] وتمتاز هذه الرسالة بانها تعالج موضوع اخراج عمر لليهود من بلاد الحجاز وسبب عدم اخراجهم من بلاد اليمن وذلك من الناحية اللغوية والفقهية والتاريخية، وبعد ذلك عرضت لعلاقة اليهود بمقتل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما تعرضت للسبئية وناقشت أصولها ودورها في الاحداث التي وقعت في عهد الخليفتين عثمان وعلي رضي الله عنهما، وكذلك صلة الفكر السبئي بالفكر اليهودي.

وفي ختـام هذا الفصـل عرضت للاسرائيليات ودخـولهـا الى بعض مصـادر الفكـر الاسلامي، ونبهت الى خطورتها، كمخطط يهودي يرمي الى نسف العقيدة الاسلامية من الداخل بعد ان فشل اليهود في نسفها بالسلاح والمؤامرات. ومن بين المراجع الكثيرة التي افدت منها أنوه بكتاب «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» مطبعة الفرات، ط ١ ـ بغداد ١٩٢٤م. فقـد ذكـر المؤلف علاقـة يهود العراق ببقية اليهود في بلاد العرب وكشـف عن احـوالهم الاقتصـادية والاجتماعية. كما أفـدت من كتـاب «السيادة العـربية والشيعـة والاسرائيليات في عهـد بني امية» لفـان فلوتن، ترجمـة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابـراهيم، مكتبـة النهضة المصرية ـ ط ٢، ١٩٦٥م. لقد كشف هذا المؤلف عن جذور الاسرائيليات في الفكر العربي منذ عهد الراشدين.

---

(١) المخطوطة بلا رقم.

وفي الملاحق: أثبت ثلاثة ملاحق الاول يبحث في مضمون كتاب أرثر كوستلر «امبراطورية الخزر وميراثها، القبيلة الثالثة عشرة».[1]

والملحق الثاني يتضمن نصوص الوثيقة او الدستور الذي عقده الرسول مع باقي سكان المدينة بعد الهجرة.

والملحق الثالث يتضمن رسالة الشيخ صارم الدين «التنبيه على ما وجب من اخراج اليهود من جزيرة العرب»

وفي الخاتمة: أوجزت النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث وعرضت للاراء الجديدة التي توصلت اليها في بعض المواقف، وأشرت الى موافقتي لبعض الآراء والمواقف من بعض الحوادث التاريخية، والترجيح والتساؤل عند بعضها الآخر. كما أشرت الى الغموض في بعض المواقف بسبب فقدان المادة التاريخية مما يفتح المجال للمنقبين والاثريين والمؤرخين في مواصلة العمل لاستجلاء هذا الغموض وكشف اسراره.

وفي ختام هذه المقدمة الموجزة اجد من الواجب علي ان اعترف بانني لم ابلغ الكمال في بحثي، ذلك ان الكمال لله وحده، ولكن حسبي هذا الجهد المبذول في هذا البحث الذي يتضمن عهودا تاريخية مختلفة، والذي ارجو أن يكون اشارة بدء لمجموعة من البحوث الجادة في هذه الفترة التاريخية، حتى ينتفع منها الاسلام والمسلمون. فان كنت أدركت الغاية ببحثي هذا فذلك ما كنت اجدّ في طلبه واسعى في بلوغه، دون ان ادخر وسعا او أكلّ سعيا، وان حالت الصعوبات الكبيرة، في عدم بلوغي الغاية التي قصدتها فحسبي اني لم آل جهدا أو أدخر وسعا في سبيل بلوغها خدمة للأمة التي أنتمي اليها، والتاريخ الذي اعتز به.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه

صدق الله العظيم

صالح موسى درادكه

---

(١) قامت لجنة الدراسات الفلسطينية، بنقل هذا الكتاب الى العربية بعد سنوات من اعداد هذا البحث، وقام بالترجمة حمدي [illegible]لي مصطفى صالح. منشورات: فلسطين المحتلة. (دون تاريخ).

الفصل الأول

اليهود وبداية تاريخهم

- التوراة كمصدر للتاريخ.
- من هم العبرانيون.
- ابراهيم الخليل في التاريخ.
- هجرته عليه السلام إلى مصر.
- الاسرائيليون أو «بنو اسرائيل».
- اليهـــود.

الفصل الاول

اليهود وبداية تاريخهم

التوراة كمصدر للتاريخ:

يعود الفضل لكتبة التوراة الذين أضفوا هذه الصورة على التاريخ اليهودي، فقد ظلت التوراة حتى عهد قريب المرجع الوحيد لمن يكتبون عن تاريخ الشرق القديم، وذلك قبل الاكتشافات الاثرية في بلاد الرافدين وسوريا ومصر[1]

ومن يطالع اسفار التوراة يلاحظ حرص كتبتها على تثبيت قصة الارض الموعودة بالعهد الذي قطعه اله اسرائيل مع آباء اليهودية. وحرص كتاب التوراة ايضا على التركيز بان هؤلاء الآباء المقدسين هم من سلالة ابراهيم الخليل عليه السلام الذي اكتسب شهرة مقدسة في أوساط الشعوب التي عاصرته. ولا يخفى المغزى الذي رمى اليه هؤلاء الكتبة على ذي عقل، وهو تبرير غزو الجموع التي خرجت من مصر بقيادة موسى التوراتي[2] لفلسطين وما قامت به هذه الجموع من اعمال وحشية وسفك لدماء الامنين من سكان فلسطين الابرياء بحجة ان هذه الارض وعدها الله لشعبه المختار!

ويرى الباحث انه قد آن الاوان لوضع التوراة موضع البحث العلمي وتمحيص رواياتها والكشف هن اهداف كتبتها على ضوء المكتشفات العلمية وعلى ضوء الموازين العقلية التي لم تعد تقبل الأمور على علاتها.

---

(١) نشطت البعثات الاثرية في حفرياتها منذ اواخر القرن الماضي ولا تزال عملية الكشف عن آثار الماضين مستمرة وخاصة في بلاد العراق ومصر وبلاد الشام وغيرها، وعثر على مكتشفات هامة في عدد كبير من الاماكن في هذه البلدان منها ما كشف في «ماري» و «نمرود» في العراق، ومكتشفات «رأس شمرا» و«أغاريت» و«الالاخ» و«أريحا والبحر الميت» في سوريا وفلسطين ومكتشفات تل العمارنة والبرديات وغيرها في مصر.

(٢) اطلقنا اسم «موسى التوراتي» على الاسم الوارد في التوراة.

وأول فرية يصادفها الباحث في التوراة نسبتها الى سيدنا موسى عليه السلام وهو منها براء. ولا يكلفنا كتبة التوراة عناء البحث لتبرئة سيدنا موسى مما الصقوه به من نعوت تعالت عنها صفات الرجال العاديين وليس الرسل والأنبياء. فقد تضمنت التوراة شواهد لا يتطرق اليها الشك بأن هذه الاسفار التي بين ايدينا ليست لموسى عليه السلام، فقد جاء فيها «وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض»[١]. وفيها أيضاً «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في ارض مؤاب مقابل «بيت فغور» ولم يعرف انسان قبره إلى هذا اليوم»[٢]. وهناك شواهد جغرافية واسماء مدن وردت في التوراة وأماكن لم تكن ظاهرة ولا معروفة في زمن موسى عليه السلام، وإنما عرفت بعده بزمن طويل[٣].

وحسب ما جاء في التوراة فان سيدنا موسى تلقى شريعة ربه على جبل سيناء «وهي من صنع الله ومنقوشة على لوحي حجر مكتوبين على جانبيهما باصبع الله، وقد كتبها الله بيده مرة ثانية بعد ان القى موسى بهما على الأرض وكسرهما بسبب غضبه لما شاهد قومه يعبدون العجل ويرقصون حوله»[٤]. ولكن أصل الشريعة التي كتبت على لوحي الحجر اختفت ولم يبق لها وجود، وما جاء في لوحي الحجر يمكن أن تتضمنه بضع صحائف من كتاب، ولا يحتاج إلى مثل هذه الاسفار المطوّلة.

أما لغة شريعة الألواح فيرجح انها كانت اللغة المصرية، وهي لغة قوم موسى، وقد كتبت بالهيروغليفية التي كان موسى قد شب عليها في البلاط الفرعوني[٥].

ويرى بعض الباحثين ان أسفار العهد القديم جمعت أول مرة في بابل وظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد، وأن الأسر البابلي قد غير في الشعب اليهودي فحولهم الى شعب متحضر ومتحد بعد ان كانوا همجا لا توجد بينهم الا قلة تعرف الكتابة والقراءة.[٦]

---

(١) سفر العدد، ١٢*٣، الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس، المطبعة الجامعية، كمبرج - بريطانيا. ١٩٥٢م.
(٢) التثنية، ٣٤: ٥.
(٣) انظر فؤاد حسنين علي، «التوراة الهيروغليفية» دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ص ٤٢-٤٣.
(٤) سفر الخروج، ٣١: ١٨، ٣٢: ١٥ - ١٦، ١٩، ٣٤: ١.
* يشير الرقم الأول بعد اسم السفر إلى: رقم الإصحاح والرقم من بعده لفقرات الإصحاح.
(٥) انظر فؤاد حسنين علي، المرجع السابق.
(٦) انظر: Wills, Ashort history of the world. p 89

ولم يظهر في تاريخهم قط أن أسفاراً كانت تقرأ قبل السبي البابلي، ولكن السبي مدّنهم ووحدهم وأبرز حاجتهم الى جمع تاريخهم ورسم تقاليدهم وتنميتها فبدأوا يدونون الاسفار من المصادر المختلفة لهدف واحد هو خدمة مستقبلهم، فلما عادوا من الاسر كانوا شعبا يختلف اختلافا عظيما عن الشعب الذي خرج، مما يصدق عليهم ما يقوله بعض المؤرخين «إن التوراة هي التي صنعت اليهود وليس اليهود هم الذين صنعوا التوراة»(١)

ويقول ول ديورانت: «إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من اسفار التوراة هما القصتان اللتان تتحدث احداهما عن الخالق باسم يهوه، والاخرى التي تتحدث عنه باسم «الوهيم»، ويعتقد هؤلاء العلماء ان القصص الخاصة بيهوه كتبت في يهوذا(٢)، وان القصص الخاصة بالوهيم كتبت في إفرايم، وأن هذه وتلك قد امتزجتا في قصة واحدة بعد سقوط السامرة»(٣)

ولم يكن كاتب اسفار العهد القديم واحدا، ويظهر هذا واضحا بمقارنة سفر التثنية ببقية اسفار القسم الأول من التوراة «أي أسفار التكوين والخروج والعدد» كما ان هناك فصولا اضافها الكهنة الى سفر الشريعة الذي اذاعه «عزرا»(٤) ويذهب ديورانت إلى أن هذه

---

(١) Wills, O.P. Cit, pp 90-96

(٢) انقسمت المملكة اليهودية بعد سليمان خلال القرن العاشر قبل الميلاد الى مملكتين شمالية وعاصمتها السامرة «سبسطية حاليا» وسميت بمملكة إفرايم، وأخرى جنوبية وعاصمتها «اورشليم» القدس، وسميت بمملكة يهوذا نسبة الى سبط يهودا الذي اسس هذه المملكة بعد ان اسس الأسباط العشرة مملكة إفرايم الشمالية مفضلة الانفصال عن ملك آل سليمان وكانت الأسباط تسمى بأسماء آبائها من ابناء يعقوب على رأي كتبة التوراة. «انظر قيام المملكتين وخصومتهما، سفر الملوك الأول وسفر الملوك الثاني من التوراة».

(٣) انظر **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية م١ حـ٢ ص٣٦٧، ومحمود نعناعة، **المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل**، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢ حـ١ ص ٥٢.

(٤) ورد في القرآن الكريم اسم «عزير» الذي اوردته التوراة باسم «عزرا» وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ التوبة آية: ٣٠. وذهب بعض المفسرين الى أن اليهود جعلوا العزير ابن الله لأنه رد لهم التوراة بعد ضياعها، ويقول الفخر الرازي «لعل هذا المذهب اي القول بالعزير ابن الله، كان فاشيا فيهم ثم انقطع فحكى الله ذلك عنهم ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك».

انظر «التفسير الكبير للفخر الرازي حـ ١٦، المطبعة البهية المصرية مطبعة عبدالرحمن محمد ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م ص٣٢ تفسير سورة التوبة، انظر كذلك «أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي المتوفي ١٢٧٠هـ» في تفسيره «**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**» حـ ١٠ إدارة المطبعة المنيرية ص ٨٠ من تفسير سورة التوبة».

أنظر ايضا، أحمد شلبي، «**مقارنة اديان ـ اليهودية**» مكتبة النهضة المصرية ط٢، ١٩٦٧م ص ٢٣٩.

الاسفار الاربعة اتخذت صورتها الحاضرة حوالي عام ٣٠٠ ق.م[١].

ويحتل «عزرا» مكانة هامة في التاريخ، فاليه أوكل «أرتخشتا» الملك الفارسي مهمة كتابة وصايا الرب كما ان عزرا هو الذي تزعم اليهود في العودة من السبي وتجديد بناء الهيكل، ويبدو انه بسبب دعوى الالهام هذه سمى اليهود عزرا «ابن الله».

وقد تعرضت التوراة الحالية الى النقد حتى من اناس يعطفون على النصرانية، كما أنكر «مارتن لوثر» سفر «استير» وهاجم بعض النبؤات والأناشيد، وغيرها كثير[٢].

ويستفاد من التوراة ان اليهود تأثروا بالمعتقدات الوثنية البابلية والكنعانية والمؤابية والعمونية والصيدونية، ولدينا ترانيم ومزامير غفران مستمدة من الشعر الغنائي الذي نشأ في أرض الرافدين تشابه مزامير داود. كما ان الأمم السابقة على ظهور اليهود تركت حكما وأمثالا، ربما ان ما جاء في التوراة مستمد من هذه المخلفات، كما نلمح قصة سومرية قديمة تداولها البابليون والأشوريون شبيهة بقصة أيوب الواردة في التوراة، وحتى قصة الخلق التي جاءت بها التوراة شبيهة بقصة الخلق البابلية.[٣]

وقد رسم اسم «دانيال» في قصيدة «أقهت»[٤] الأوغارتيه قبل كتابة التوراة بقرون. وتعتبر فترة السبي البابلي فترة خصب للفكر اليهودي حيث اختتم الحاخامون بعد مدارسات طويلة خطوط فكرهم العريضة بعد ان اطلعوا على الثقافات المصرية والبابلية والكنعانية، وعرفوا الخطوط الهيروغليفية والآرامية والمسمارية.[٥]

ويتصور البعض ان كهنة اليهود جلسوا وأمامهم الاكداس من الرقم الطينية في شتى المواضيع في مختلف اللغات والخطوط، وفي مقدمتها المواضيع الدينية التي كانت تشغل حيزا

---

(١) انظر **قصة الحضارة** م١ حـ٢، ص ٣٦٨.

(٢) انظر فؤاد حسنين علي، **التوراة الهيروغليفية**، ص ٥٤.

(٣) انظر موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة الدكتور يعقوب بكر، لندن ١٩٥٧م، ص ١٣١.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

(٥) «ربما كان بحوزتهم نسخة من وصايا موسى الأصلية بالخط الهيروغليفي».
انظر احمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ**، مطبعة وزارة الاعلام العراقية، ١٩٧٢م ص١٥٨. انظر كذلك موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ص ١٣١.

كبيرا من تفكير أقوام تلك العصور، ويبدو لأول وهلة عندما نستعرض مدونات التوراة، ان الهدف الاول الذي يهدف اليه هؤلاء الحاخامون هو تمجيد تاريخ الزمرة اليهودية.(1)

ولا بد ان مدونات هؤلاء الحاخامين قد خضعت لحالتهم النفسيّة القلقة في تلك الفترة من التاريخ اليهودي الحرج. حيث كان اليهود يعيشون حياة الاسر والتشرد المريرتين. لذلك رأوا ان يربطوا تاريخهم بابراهيم الخليل عليه السلام ليستفيدوا من قدسيته من ناحية وليثبّتوا في الأذهان عقيدة الارض الموعودة من ناحية اخرى، وقد زادت الغربة اليهود تمسكا بهذه العقيدة فبدت واضحة في كل سفر من اسفار التوراة.

وهناك شواهد كثيرة على براءة سيدنا موسى من توراة اليهود هذه، فقد وقع كاتبوها في أخطاء جسيمة فأهملوا التسلسل الزمني للحوادث التاريخية واطلقوا اسم بني اسرائيل على انفسهم قبل ان يخلق يعقوب الملقب «باسرائيل» كما ادخلوا في سلسلة النسب الشعوب التي ارادوها سامية وأبعدوا منها شعوبا معادية لهم، وذلك وفق أهوائهم وبتأثير من عواطفهم ونزعاتهم دون مراعاة للصدق والأمانة(2). وقد أغفل كتبة التوراة ما لا يوافق اهواءهم من حوادث تاريخية، والا فكيف نفسر مثلا عدم ذكر «يهو بن عمري» ملك اسرائيل وهو يقدم الطاعة والولاء ويجلب الهدايا للملك الاشوري؟! مع العلم بان هذه الحادثة منحوتة على مسلة شلمناصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق. م)(3). لقد أغفلت التوراة هذه الحادثة مع انها ذكرت حوادث عن علاقة الاشوريين الحربية باليهود.

وهكذا نرى ان التوراة كتبت بعد عهد ابراهيم الخليل بالف وثلاثمائة عام تقريبا وبعد عهد موسى بأكثر من سبعة قرون، وهي حصيلة ازمان متفاوتة وكتاب مختلفين كما تشير الى ذلك نصوص التوراة نفسها والكشوف الاثرية المعاصرة لذات الحوادث التاريخية.

وخلاصة القول، فان هذه التوراة المتداولة اليوم ليست كتاب الله المنزل على رسوله الامـين موسى عليه السلام، ولذلك فلم تعد حجة في البحث التاريخي، والواجب على

---

(1) انظر احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ١٥٨.

(2) ورد نسب الشعوب السامية في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، وقد أقصي الكنعانيون ـ وهم من الساميين ـ من هذا النسب، وادخل فيه اللوديون والعيلاميون وهم ليسوا ساميين.

(3) انـظر ادوارد كييرا، كتبـوا على الطين، ترجمة الدكتور محمود حسين الأمين، مكتبة المثنى ط٢ ـ بغداد ١٩٦٤، ص ١٣٦.

الباحث ان يتناول رواياتها بعين ناقدة والا يطمئن الى اخبارها الا بعد تمحيصها. ويكفي اثباتا لزيفها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[2].

وبناء على ما سبق من اراء سنتعرض لبداية التاريخ اليهودي كما ورد في التوراة ومقارنته بالكشوف الاثرية وتمحيصه وذلك لمعرفة البداية الحقيقية لتاريخ اليهود.

وأول مشكلة تواجه الباحث في التاريخ اليهودي هذه التسميات المتعددة التي أرادها كتبة التوراة لمسمى واحد هو «اليهود». وهذه التسميات حسب تسلسلها الزمني هي: «العبرانيون ـ أو العبريون» و «بنو اسرائيل أو الاسرائيليون» و «قوم موسى او الموسويون». و «اليهود او شعب يهوذا». فهل هذه التسميات حقيقة لمسمى واحد؟ وما هي نوع العلاقة بين هذه التسميات ومن هم اليهود حقا؟ ومتى بدأ تاريخهم الحقيقي؟

سنحاول الاجابة على هذه التساؤلات على ضوء المصادر المتوفرة لدينا حتى الوقت الحاضر، مفضلين تناول هذه التسميات الواحدة بعد الاخرى.

١ ـ من هم العبرانيون «العبيرو او الخابيرو»؟

ظل عدد من الكتاب ممن بحثوا في تاريخ اليهود يستعملون مصطلح عبراني او عبري في غير المعنى الذي تشير اليه الوثائق القديمة في مصر وبلاد ما بين النهرين وسوريا، اذ ان هذه الوثائق استعملت هذه التسميات لقبائل بدوية كانت منتشرة في شمال الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين في نحو الالف الثانية قبل الميلاد، وقد استعملت هذه التسميات في نفس المعنى الذي افادته الكلمات «الابري» و «الهبيري» و «الخابيرو» و «العبيرو» في المصادر المسمارية والفرعونية[3]، ولم يكن لليهود ذكر في هذه المرحلة الموغلة في القدم. ويستفاد من التوراة ان اليهود يعتبرون «العبرية» لسان كنعان «شفة كنعان»، ثم انطوت العبرية الكنعانية في الآرامية التي انتشرت في الشرق الادنى القديم وخاصة بلاد الشام قبل ان يكون لليهود

---

(١) سورة النساء، آية ٤٦.
(٢) سورة الجمعة، آية: ٥.
(٣) انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٤٣.

وجود[1]. لهذا فمن الخير لنا ان نحجم عن استعمال هذا المصطلح للدلالة على اليهود وذلك لتجنب الالتباس فيما يتعلق بتاريخ فلسطين القديم اي في الفترة ما قبل سيدنا موسى عليه السلام، لأن هذه الفترة مستقلة وليس لها صلة بدور موسى وذلك كما يقتضي التسلسل الزمني[2].

وقد لعبت شعوب الخابيرو او «العبيرو» البدوية دورا خطيرا في تاريخ منطقة الشرق الاوسط نتيجة تحركاتهم وهجراتهم المستمرة في جميع انحاء الهلال الخصب، ولذلك اعطت الاقوام القديمة اهتماما كبيرا لهؤلاء «الخابيرو» او «العبيرو» ويتجلى هذا الاهتمام في الكتابات القديمة السابقة لعهد موسى بعشرات القرون، فكان السومريون يسمونهم «سا ـ كاز» منذ عهد «اور» الثالثة «اواخر الالف الثالث قبل الميلاد».

وقد ورد ذكرهم ايضا في نصوص «بابل» و «توزي» و «ماري» و «أغاريت» كما ورد ذكر العبيرو في وثائق «تل العمارنة» المصرية التي بعث بها ملوك كنعان الى الملك امنحوتب الثالث والملك اخناتون والتي تعود الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. وتشير بعض النصوص التاريخية الى ان «العبيرو» تمكنوا من احتلال مدينة «اريحا» قبل عهد موسى بحوالي قرنين من الزمان.[3]

وقد ظل تعبير «العبيرو» شائعا في الاحداث التاريخية حتى أواخر الالف الثانية قبل الميلاد اي بعد ظهور موسى واتباعه في المنطقة وقد اصبح مفهوما الان ان الفاظ «العبيرو» و «العبري» و «الخابيرو» تشير الى القبائل البدوية النازحة من الجزيرة العربية فهي تدل على حالة البداوة من تنقل وترحال وعبور وليس على امة بعينها كما كان سائدا من قبل، كما لم يعد مقبولا القول بان «العبراني» صفة سيدنا ابراهيم الخليل لعبوره النهر أو لنسبته الى عابر الذي قالت التوراة انه احد اجداده.

والتوراة تتحدث عن العبرانيين بصفتهم غرباء عن الاسرائيليين وليسوا منهم، فقد ورد

---

(١) انظر إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٢٩م مطبعة الاعتماد، ص (ص. ز).

(٢) انظر احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٤٣.

(٣) انظر عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧م ص ٩٤، وأحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٣٤-٢٤٤.

في الأحكام التي وضعها سيدنا موسى امام اتباعه ما يفيد «ان الاسرائيلي بمعنى اليهودي اذا اشترى عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا مجانا»[1] . ثم تقول التوراة بان العبيد ليسوا من بني اسرائيل[2]. فلنستمع الى نصوص التوراة على لسان الرب مكلما موسى، «لانهم - أي بني اسرائيل - عبيدي الذين اخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد. . . واما عبيدك واماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيدا وإماء. وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم يلدونهم في ارضكم فيكونون ملكا لكم. . . تستعبدونهم الى الدهر. واما اخوتكم بنو اسرائيل فلا يتسلط انسان على اخيه بعنف. واذا طالت يد غريب او نزيل عندك وافتقر اخوك عنده وبيع للغريب المستوطن عندك او لنسل عشيرة الغريب فبعد بيعه يكون له فكاك يفكه واحد من اخوته»[3].

وهذا دليل واضح تقدمه التوراة بان العبراني هو غير اليهودي. يستعمل السامريون[4] لغة قديمة في صلاتهم يقولون انها اللغة العبرانية القديمة الحقيقية التي نزلت فيها الشريعة على موسى وهي غير اللغة العبرية التي يستعملها يهود اليوم ويزعمون انها العبرانية القديمة، ولعل لغة السامريين التي أشرنا اليها هي إحدى اللهجات التي اقتبسها اليهود من الكنعانيين. ويحتفظ السامريون بخمسة اسفار من التوراة يقولون انها اسفار موسى الخمسة، وهي محفوظة في وعاء نحاسي مكتوبة بالخط السامري واللغة السامرية، وهي كل ما يعترفون به من التوراة. [5].

ويذكر «درايفر» في مقالته بدائرة المعارف البريطانية: «ان التوراة عندما تحدثت عن لغة الموسويين لم تقل لغة العبرانيين، بل اطلقت عليها اسم «شفة كنعان» اي لغة كنعان ثم «يهوديت» و «لسون حقوديس» اي اللسان المقدس. اما كلمة عبري «عبريت» و «عبراني»

(١) سفر الخروج، الإصحاح، ٢١:٢.
(٢) نلاحظ هناك ان كتبة التوراة لا يراعون التسلسل الزمني فيطلقون تسمية بني إسرائيل قبل خلق يعقوب الملقب بإسرائيل، كما تسمي التوراة اتباع موسى الذين نزحوا بعد يعقوب بحوالي ستماية سنة «بني إسرائيل» ايضا. لذلك يجب التفريق بين اتباع موسى وبين بني إسرائيل لأن كلا ظهر في مرحلة تاريخية مميزة عن الأخرى.
انظر احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٤٥.
(٣) سفر اللاويين، الإصحاح، ٢٥:٤٢، ٤٤-٤٨.
(٤) السامريون: إحدى الطوائف اليهودية لا تعترف إلا بخمسة اسفار من أسفار التوراة وتقول عن هذه الأسفار انها وحدها اسفار موسى عليه السلام، وتستوطن هذه الطائفة مدينة نابلس من فلسطين في الوقت الحاضر.
(٥) انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٤٦.

بالآرامية فقد صاغها حاخامو فلسطين في وقت لاحق.[1] ومما يدلنا على ان العبرانية لم تكن علما على بني اسرائيل واليهود، ان العرب في عهد محمد ﷺ لم يستعملوا هذه التسمية للدلالة على اليهود، ولو كانت هذه التسمية دالة على بني اسرائيل واليهود لذكرها القرآن الكريم، فقد أورد القرآن ذكر بني اسرائيل ويهود «الذين هادوا» و «قوم موسى» ولم يذكر العبرانيين. وكذلك لم يرد ذكر لليهود في النقوش القديمة باسم العبرانيين، فعندما دون سنحاريب (٧٠٦ - ٦٨١ق.م) تفاصيل حملته على مملكة يهوذا سمّى حزقيا ملك يهوذا «حزقيا اليهودي» ولم يستعمل كلمة عبري او عبراني.[2].

يرى بعض الباحثين ان لفظتي (عبري) و (عربي) لهما معنى واحد، فكلتاهما تدل على حياة البداوة والتنقل، وأغلب الظن ان كلمة «عربي» حرفت عن «عبري» لان ذكر كلمة «العبيرو» و «الخبيرو» و «الهبري» و «العبري» يرجع الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد حيث وردت هذه الالفاظ في رسائل تل العمارنة، وكان يقصد بها عرب البادية او البدو الرحل، واما «عريبي» و «اريبو» و «اربي» «عربي» فأول ذكر لها ورد في الكتابات الاشورية حيث وردت في نقش للملك الأشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤) ق.م.

ويشيد هذا النص بانتصار الاشوريين على تحالف ملوك الدويلات السورية في معركة «كركر» وكان بين المتحالفين اسم زعيم عربي سمته النصوص الاشورية «جندب العربي» او «الأريبي»[3]. ولما كانت النصوص القديمة لا تضبط التسميات بقواعد تحفظها من التحريف، فأغلب الظن ان هذه التسميات كلها ذات معنى واحد، فقد تكون الكلمة الواحدة تحريف للاخرى فكلتاهما موغلتان في القدم.

وهكذا نجد ان نظرية احبار اليهود القدماء، بأن ابراهيم انما عرف بالعبري لانه عبر النهر لم يعد لها اساس تعتمد عليه، ذلك ان هذه النظرية استندت على ما جاء في التوراة «فأخذت ابراهيم اباكم من عبر النهر وسرت به في كل ارض كنعان»[4] ومن يمعن النظر في جدول انساب عابر الى عهد ابراهيم يجد ان اغلب الامم التي اصطلح على تسميتها بالسامية منسوب اليه، فكيف اختص اليهود بهذه التسمية من بين جميع الامم؟!

(١) G.R.D. Driver, "Hebrew Language" Briti. 1965 Ed. (1) vol 2, p 279

(٢) انظر احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٤٧.

(٣) أنظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، حـ١ ص ٥٧٤.

(٤) سفر يشوع، الاصحاح، ٢٤: ٣. سفر التكوين، ١٠: ٢٥-٣٢، حيث ورد ذكر عابر وما تسلسل من بنيه.

ويرى الباحث اليهودي «اسرائيل ولفنسون» ان كلمتي عبري وعربي انما يدلان على حالة من البداوة ولا تشيران الى حادثة بعينها او شخص بعينه، ويستدل على ذلك من المعنى اللغوي للفعل الثلاثي «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق او عبر الوادي او النهر من عبره الى عبره او عبر السبيل شقها. . . ويقول بان كل هذه المعاني نجدها في هذا الفصل سواء في العربية او العبرية وهي في مجملها تدل على التجول والتنقل الذي هو من اخص ما يتصف به سكان الصحراء واهل البادية، فكلمة «عبري» مثل كلمة «بدوي» اي ساكن الصحراء والبادية. . ويقول ولفنسون «ان بني اسرائيل بعد ان تمدنوا وعرفوا حياة الحضارة وصاروا ينفرون من كلمة عبري التي كانت تذكرهم بحياة البداوة والخشونة»[1].

وينطبق هذا على العرب فهم ينفرون ايضا من كلمة اعرابي التي تدل على البداوة وحياة التنقل والترحال.

وخلاصة القول ان الشعوب القديمة كانت تسمي القبائل البدوية المتنقلة على اطراف الصحراء بالعبري او العربي. وهذه التسمية عامة يقصد بها بعض القبائل البدوية دون غيرها.

وبنفس الحجج العلمية والمنطقية يمكننا دحض آراء كتبة التوراة الذين يعتبرون ابراهيم عليه السلام ابا لليهود.

ابراهيم الخليل في التاريخ:

ان تسمية ابراهيم بالعبراني كما ورد في التوراة[2] انما اريد منها نسبه الى احدى القبائل البدوية التي كان الشرق الادنى القديم كله مسرحا لتحركاتها. وتكاد تجمع معظم المصادر التاريخية على ان عصر ابراهيم يعود الى حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد[3]، حيث

---

(١) انظر تاريخ اللغات السامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر مطبعة الاعتماد مصر ١٩١٤م. ص ٧٨.

(٢) سفر يشوع، الإصحاح ٢٤ : ٣.

(٣)، انظر المسعودي «التنبيه والإشراف» طبعة مصر ١٩٣٨م ص ١٧١. «يذكر المسعودي أن الفترة الممتدة بين عهد إبراهيم الخليل وعهد موسى زمن الخروج بحوالي خمسماية وسبع وستين سنة، ولما كان قد اصبح معروفا الآن ان زمن الخروج حدد بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد فيكون زمن إبراهيم الخليل هو القرن التاسع عشر» ق.م.

انظر تاريخ خروج موسى من مصر في قصة الحضارة ـ ديورانت م١، حـ٢ ص٣٢٥.

انظر احمد سوسة ـ العرب واليهود في التاريخ ص ٢٥١.

كانت الاحوال السياسية والدينية في بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر بعيدة عن الاستقرار. فقد كان التاريخ السياسي لهذه المنطقة متقطعا تماما بسبب التغيرات السياسية المستمرة والصراعات بين الاقوام المختلفة على الحكم والسيطرة. ان هذه التغيرات تجعل من الصعب على الباحث ان يتمسك بخيط متين يتابع معه تسلسل احداث القبائل البدوية التي كانت تغمر المنطقة على اتساعها. ولكن مما لا ريب فيه ان القبائل الارامية والعمورية والكاشية والحثية كان لها النصيب الاكبر في احداث العراق في الفترة التي يظهر فيها ابراهيم الخليل على التاريخ. ويستفاد من المدونات التاريخية القديمة التي عثر عليها المنقبون ان قصة ابراهيم حقيقية لا مجال للشك فيها.

والذي لا مجال للشك فيه ايضا ان شخصية ابراهيم كانت رفيعة المقام بحيث اكتسبت اهمية خاصة واحتراما كبيرا بين الشعوب التي كانت تقطن ما بين دجلة والنيل. ولا شك ان منبع هذه الأهمية انما أتى من الدور الديني الذي اضطلع به ابراهيم، ذلك ان شهرة الانسان قديما وحديثا انما ترتكز على اساس من اثنين، هما: الشهرة السياسية او الشهرة الدينية او كليهما معا. ولما كنا لا نجد احدا من حكام تلك الفترة قد احتل مكانة تضاهي في اهميتها مكانة ابراهيم فيصبح من السهل على الباحث ان يرجح ان مكانة ابراهيم انما اتت من الدور الديني الذي اضطلع به، ولا بد ان يكون هذا الدور جديدا ومخالفا للافكار الدينية التي تعارف عليها اقوام ذلك الزمن.

ونظرا لهذه الأهمية التي اختص بها ابراهيم نجد كتبة التوراة يحرصون على ربط تاريخ اليهود بهذه الشخصية المقدسة لاضفاء طابع القدسية على السلالة اليهودية من ناحية وللوصول الى هدفهم الاخير بالاستحواذ على فلسطين «ارض الميعاد» بعقد الهي من ناحية ثانية.

لقد الصقت التوراة بابراهيم صفات ونعوتا برأه الله منها، كما برأه من اليهودية، فقد ورد في الانجيل خطاب لبني اسرائيل: «متى رأيتم ابراهيم واسحق ويعقوب وجميع الانبياء في ملكوت الله وانتم مطروحون خارجا، ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ويتكئون في ملكوت الله»[1]. وقد حسم القرآن الكريم الجدل حول حقيقة ابراهيم

---

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح ١٣: ٢٨-٢٩، إنجيل متى، الإصحاح ٨: ١١-١٢.

الخليل بقوله: ﴿يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده افلا تعقلون﴾ وقوله: ﴿ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾[1].

ويفهم من هاتين الآيتين ان اليهودية تختلف عن الديانة التي دعى اليها ابراهيم الخليل عليه السلام، كما يفهم كذلك ان زمن التوراة والانجيل زمن منفصل ومستقل عن عهد ابراهيم[2].

واذا كانت هذه الشخصية الرفيعة المقام وذات الرسالة الدينية الهامة ليست يهودية ولا نصرانية، فما هي هذه الشخصية؟

تشير الوثائق المكتشفة الى وقوع نزاعات دينية في العراق حوالي الفترة التي هاجر فيها ابراهيم الخليل من موطنه العراق، وان النزاع كان يدور حول مكانة اله القبائل البدوية النازحة من جزيرة العرب اله القمر «سين» حيث كانت كلا من «اور ـ وحاران»[3] في القديم مركزا لعبادة الاله «سين» اله القمر.

ويغلب على الظن ان هذه العبادة اتت من بلاد اليمن حيث حملها المهاجرون الى العراق ثم نقلتها القبائل المهاجرة الى مصر، فقد ذكر اسم هذا المعبود في شبه جزيرة سيناء[4].

وفي خضم هذه الاحداث برز رسول الله ابراهيم يدعو الى دين الله ويحذر قومه من عواقب عبادة الاوثان. قال تعالى: ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. إذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين﴾[5].

---

(١) سورة ال عمران، الآيتان: ٦٥، ٦٧.
(٢) انظر احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٥٠.
(٣) أور مدينة قديمة في جنوب العراق، وحاران هي «حران» الحالية قرب نهر البليخ في سوريا.
(٤) انظر عباس محمود العقاد، إبراهيم ابو الأنبياء، ص ٩٨، وأحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ ص ٢٦١.
(٥) سورة الأنبياء الآيات: ٥١-٥٦.

وهكذا دخلت وحدانية ابراهيم في خضم الصراع الديني في جنوب العراق. فحاربته الوثنية واضطرته الى الخروج من بلاده. ويقول احد الباحثين في هذا الصدد: «ان الساميين الجنوبيين (ويقصد القبائل العربية التي هاجرت من اليمن) نقلوا معهم الى بابل الاله القمر الذي كانوا يعبدونه. وقد احتل هذا الاله مكانة رفيعة بين مجموعة الالهة ولم ينافسه الا الاله القمر الذي كان يعبده الآريون الشماليون، وقد انبثقت من هذا النزاع الحساس بذرة فكرة الخالق الأوحد العظيم الذي يسيّر جميع هذا الكون، وهي تعد اعظم ما اقتبسته الانسانية في تاريخ العالم. وتنسب الاقوال المتواترة هذه المرحلة من التفكير الانساني الى الاب ابراهام الذي كان حامل لواء النظرية الجديدة، ويظهر ان هذه الفكرة الجديدة قد حازت اقبالا وتقبلا من الوثنيين. ففي بعض الالواح التي عثر عليها المنقبون في منطقة بابل ما يوضح جليا ان هناك ثلاثة ملوك يؤلفون سلالة بابلية سامية قد حكموا ما يقرب من قرن كامل في المنطقة الجنوبية من بابل، وهؤلاء نادوا وجاهروا بعقيدة التوحيد، الا ان الوثنيين اسقطوا الملك الثالث ونفوه من البلاد، ولو فحصنا بدقة ما ورد في المدونات البابلية وفي كتابات التوراة لوجدنا ادلة كافية على ان هذا الملك ان هو إلا ابراهام الذي غادر بابل وتوجه الى فلسطين، وذلك بعد سقوط السلالة السامية الموحدة المذكورة.(١)

ويذكر فلبي ان اسماء هؤلاء الملوك الثلاثة هي اسماء عربية سامية ذات صلة بالاله الواحد، ويقول ان اسم الاول «ايلوما ـ ايلوم» (Eluma - Elum) ومعناه كما ترجمه العلامة «دوتي Doughty) اله الواحد صديق له» وهو كما ورد اسم النبي ابراهيم الخليل في الكتابات الاسلامية، الى ابراهيم الخليل».

ويمضي فلبي في اظهار صلة ابراهيم الخليل بعقيدة التوحيد قائلا: «ومما لا شك فيه ان ابراهيم لعب دورا رئيسيا في تاريخ العالم السامي بتأسيسه ديانة التوحيد وقد انتصر اخيرا في كفاحه ضد وثنية الجزيرة العربية القديمة. . ولا نرانا بحاجة للتأكيد على ان ابراهيم كان شخصية ذات مكانة مرموقة، ويشير السير «وولي» الى انه النبي الوحيد من الأنبياء الذي سمي بـ «خليل الله»(٢)

---

(١) (H.st.J.B. philby) Theback ground of Islam-Bleng asketch of arabian Historlnn Pre Islamic Times, Alexandria, 1947, pp 10-11.

(٢) انظر أبكار السقاف «إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة» ص ٨١.

ومما تقدم يتضح لنا ان هذه الشخصية العظيمة تنتمي الى احدى المجموعات السامية التي خرجت من الجزيرة العربية واستوطنت جنوب العراق وليست لها اية صلة بعهد موسى واليهود لان الفاصل الزمني بين العهدين يزيد على سبعة قرون.(١).

واذا ما عدنا الى اوضاع العراق السياسية في أوائل الالف الثانية قبل الميلاد - اي فترة ابراهيم - نجد ان الشعوب الامورية قد بسطت نفوذها واثبتت وجودها في فلسطين وسوريا والعراق، وأسسوا سلسلة من الدول. منها «ماري» على الفرات الاوسط «وايسين» Isin ولارسا Larsa «سنكو الان» في جنوب العراق. وقد استطاعت احداها احتلال مركز الصدارة بين هذه الدويلات وهي التي تسمى الدولة البابلية الاولى (حوالي ١٨٣٠ - ١٥٣٠ق.م)(٢).

وقد عثر على كتابات في مدينة «ماري» تؤيد صحة ما ورد في التوراة والقرآن الكريم حول شخصية ابـراهيم الخليل باعتبارها حقيقة واقعية. وقد ذهب الخبراء الأثريون إلى تعيين زمن هجرة ابراهيم الخليل بحوالي سنة ١٩٠٠ق.م أي في القرن التاسع عشر قبل الميلاد(٣)

وفي حوالي ١٩٢٥ ق.م دالت دولة الاموريين امام الزحف الحثي فسقطت بابل وسقط معها الملك الأموري «سمشو - ديتانا» أي «شمس الدين» آخر ملوك هذه الاسرة العمورية. وقد أعقب الغزو الحثي لبلاد الرافدين (والذي يقابل منتصف حكم الاسرة الثانية عشرة المصرية) فترة غير مستقـرة غرقت فيهـا شعـوب بلاد ما بين النهرين في لجة من الفوضى استمـرت زهـاء قرن ونصف قرن، اضطربت خلالها احوال القبائل البدوية السامية مما اضطرهم الى الفرار نحو فلسطين ومصر ثم اتجه بعض هذه القبائل مع وادي النيل جنوبا. وقد كشف في بلدة بني حسن بمصر الوسطى قبر يعود تاريخه الى السنة السادسة من حكم اسرة سنوسرت الثاني حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م، أي بعد خمس وعشرين سنة على تلك الغزوة الحثية او بالاحرى على سقوط بابل(٤). وقد كشف في هذا القبر على صورة لعائلة مهاجرة

---

(١) انظر احمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ» ص٢٦٢. ظهر عام ١٩٨٥ بحث للدكتور كمال الصليبي، ذهب فيه الى ان التوراة واباتها جاءوا من غرب الجزيرة العربية واعتمد البحث على ما دعاه الباحث «مطابقات لغوية لاسماء اماكن توراتية واسماء لاماكن في غرب الجزيرة العربية».

(٢) انظر موسكاتي «الحضارات السامية القديمة» ص ٦٨.

(٣) انظر احمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ» ص ٢٦٢، انظر ايضا ص ٣٨ من هذا الفصل.

(٤) انظر ابكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، ص ٧٩.

من الساميين نحو وادي النيل، ويغلب على الظن ان هذه العائلة السامية هي احدى العائلات ذات الرياسة المهاجرة من بلاد الرافدين الى مصر.

وقد عثر على الواح صلصالية كثيرة في منطقة بابل ذكرت فيها تسمية ابراهام او ابرام بصيغة «أباراما» و «أبام راما»، كما ورد اسم ابرام في وثائق مصرية ترجع الى عهد شيشنق الاول (٩٤٧ - ٩٤٥ ق.م) حيث ورد فيها ذكر مزرعة باسم «مزرعة ابرام» في جنوبي فلسطين لعلها تقع في جوار «حبرون» الخليل[١] كما ورد اسم «أبرامو» أو «ابرام» في كتابات اشورية تعود الى عهد اسر - حدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م). وعثر في «لارسا» جنوب العراق على كتابة تعود الى عهد حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) ظهر فيها اسم شخص يدعى «أهوبا ابن اسماعيل» بصفته احد الشهود في بعض العقود، كما عثر في «ماري» على مدينة اسمها «ناحور» وهو نفس اسم اخي ابراهيم الخليل، وعلى مدن تحمل اسماء افراد عائلة ابراهيم مثل «تورا حكي»، يشبه اسم والده «تارح» ومدينة «سروج» وهي اسم جده[٢] حسبما ورد في التوراة.

ويؤخذ من المحاجة التي دارت بين ابراهيم وأبيه - كما يحكيها القرآن الكريم - ان والد ابراهيم كان متمسكا بعبادة الأوثان، كما نجد ابراهيم عليه السلام حريصا على هداية والده وقومه، وربما كان والد ابراهيم ذا مكانة رفيعة بين قومه، وهذا يتفق وما أشارت اليه النصوص التاريخية المكتشفة والمتعلقة بابراهيم الخليل[٣] ولما فشل ابراهيم الخليل في هداية والده وقومه ارتحل عنهم من فدان ارام في شمال سوريا الى اور في جنوب العراق ثم الى حاران شمال سوريا[٤]. وقد آمن مع ابراهيم جماعة من الناس منهم بعض اقاربه آثروا الهجرة معه الى حاران ثم الى فلسطين ومصر.

---

(١) G. A. Barbon (Archacology & the Bible), New Yourk 5 th ed. 1927, pp 316-319.

A.T. Olmested, History of palestine & syria, New yourk 1931. P.83.

انظر كذلك المراجع التالية:

أبكار السقاف، المرجع السابق ص ٧٨ وما بعدها.

مجلة العربي، العدد ١٤٣ تشرين اول «اكتوبر» ١٩٧٠ م. ص ٨٨

أحمد سوسة، المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٢) ذهب بعض الباحثين إلى أن ابراهيم الخليل كان حاكماً في أور، انظر أبكار السقاف، المرجع السابق، ص ٨٤.

(٣) انظر محاجة إبراهيم لأبيه، سورة الصافات الآيات: ٨٤-٩٩. مريم، الآيات ٤١-٤٨، التوبة، آية: ١١٤، الشعراء، الآيات: ٦٩-٨٩.

(٤) انظر المواقع المذكورة والتي وردت في التوراة في الخارطة رقم (١).

* هجرته عليه السلام إلى مصر:

هجر إبراهيم بلاد الرافدين واتجه إلى فلسطين ماراً بحاران «حران الحالية» وغادر حران إلى دمشق بطريق تدمر ومنها الى فلسطين، وكانت مع ابراهيم الخليل جماعته وممتلكاته من قطعان الأغنام والماعز والحمير والجمال، وكانت رحلته تشبه رحلات القبائل البدوية التي تهتم بالماء والكلأ اثناء تحركاتها.

وكان إبراهيم عليه السلام غريباً في ارض فلسطين، كما كانت فلسطين ارض غربة بالنسبة إلى ابراهيم، والتوراة تتحدث عن آل إبراهيم بصفتهم وافدين طارئين على فلسطين وغرباء بين اهلها الأصليين «الكنعانيين»[1] ذلك لان إبراهيم من القبائل الآرامية ووطنه الاصلي هو «فدان أرام» أو أرض حران قرب منابع نهر بليخ احد روافد الفرات في شمال سوريا. فقد ورد في التوراة «تغرب إبراهيم في ارض الفلسطينيين»[2] و«انتقل ابراهيم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار»[3]ولما اشترى إبراهيم مغارة المكفيلة من الحثيين في حبرون «الخليل» قال لهم: «أنا غريب ونزيل عندكم اعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي»[4].

وفي هذه الأقوال دليل على ان فلسطين ليست الوطن الاصلي لابراهيم الخليل عليه السلام وهذا يهدم اساس الدعوى اليهودية القائمة على اعتبار فلسطين وطن إبراهيم. وإذا عرفنا ان بني اسرائيل «اولاد يعقوب» هم من الآراميين فيلزم ان يكون وطنهم الاصلي حاران ايضا.

وجاء في التوراة ان ابراهيم رحل عن وطنه الاصلي ومعه والده تارح، وهذا لا يتفق وسياق الحوادث التاريخية التي تقول بأن ابراهيم هجر قومه لتمسكهم بعبادة الاوثان، ووالده كان ممن تشبث بالاوثان وقاوم إبراهيم، ومصداق ذلك ما ورد في القرآن الكريم. فقد جاء

(١) سفر التكوين، الاصحاحات، ٢٤: ٧، ٣٨، ٤٠، ٢٨: ٤، ٣٥: ٢٧، ٣٦: ٧، ٣٧: ١، ٤٧: ٩.
(٢) سفر التكوين الاصحاح، ٢١: ٣٤.
(٣) سفر التكوين الاصحاح، ٢٠: ١، جرار: من اراضي جنوب فلسطين - انظر الخارطة (١) ص ٤٦
(٤) سفر التكوين: الإصحاح ٢٣: ٤.

في سورة مريم على لسان والد ابراهيم: ﴿قال اراغب انت عن الهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيًا، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾[1].

ومن فلسطين هاجر ابراهيم إلى مصر على أثر جدب أصاب أرض فلسطين، وكانت الاحوال السياسية في مصر مستقرة ومزدهرة في ظل المملكة الموحدة في عهد السلالة الثانية عشرة، في عهد الفراعنة «سنوسرت الثاني ١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق.م» و«سنوسرت الثالث ١٨٧٢ - ١٨٤٣ ق.م»[2] فقد تمكنت مصر في هذا الدور من بسط نفوذها على بلاد كنعان على اثر حملة قام بها الفرعون سنوسرت الثالث حوالي ١٨٥٠ ق.م. لذلك يعتبر تحرك إبراهيم عليه السلام من كنعان الى مصر امرا طبيعيا بعد ان توطدت الصلات بين مصر وفلسطين، فكانت مصر موئلا يتجه اليه الكنعانيون في حالات المحل والقحط فيها[3]. ولم يطل المقام بإبراهيم في مصر بل سرعان ما عاد الى ارض كنعان واستقر فيها.

وجاء في سفر التكوين من التوراة ان إبراهيم الخليل خرج مطرودا من مصر، وذلك لان إبراهيم اخبر أن سارة اخته وليست زوجته وان فرعون اراد ان يتخذها زوجة له، فلما علم انها ذات بعل، طرد إبراهيم وزوجته من مصر بعد ان انعم عليهما بنعم كثيرة[4]. والذي أميل اليه ان خروج ابراهيم من فلسطين ودخوله الى مصر ثم خروجه منها انما كان جريا على العادات البدوية في التنقل والارتحال طلبا للماء والعشب.

٢ - الاسرائيليون أو «بنو إسرائيل»

أطلقت التوراة لقب اسرائيل على يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل، وتقول التوراة ان هذا اللقب حصل عليه يعقوب بعد مصارعة مع الله استمرت ليلة بطولها انتهت بانتصار يعقوب وحصوله على اللقب (إسرائيل). وتقول التوراة «... فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعة معه. وقال اطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا اطلقك ان لم

(١) الآيات: ٤٦ - ٤٨.
(٢) انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٦٥.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) سفر التكوين، الإصحاح ١٢: ١٤-٢٠.

هجرة ابراهيم الخليل عليه السلام

من العراق الى مصر

١٩٠٠ — ١٨٥٠ ق.م

خارطة رقم - ١ - نقلاً عن احمد سوسة / العرب واليهود في التاريخ «بتصرف»
ص: ٢٥٨ .

تباركني. فقال له ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال اخبرني ما اسمك، فقال لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك»[1].

وكما هو واضح من قصة التوراة هذه وما بعدها ان كتبة التوراة حريصون على غرس فكرة الأرض الموعودة في الاذهان حرصهم على ربط سلالتهم بأسماء لها قدسيتها في التاريخ.

وإسرائيل كلمة سامية قديمة تتكون من مقطعين «إسر» بمعنى عبد، والآخر «إيل» بمعنى الله «الإله» فيكون معنى إسرائيل «عبدالله»[2]. . وهذا الاسم ليس جديدا على التاريخ، فقد كان شائعا عند الامم القديمة شأنه شأن ابراهام وابرام، ويوسف ويعقوب وغيرهم. اذ ان كل هذه الاسماء روحانية مقدسة في البلاد منذ عهد قديم. وقد ذهب البعض إلى أن هذه الاسماء كنعانية بل عربية اصيلة ترجع الى ما قبل الالف الثانية قبل الميلاد، وكانت تطلق على الاشخاص والاماكن تبركا بها كما هو متبع عندنا حاليا تماما، فقد ورد اسم ابرام في المصادر البابلية والمصرية للدلالة على اشخاص واماكن بهذا الاسم، كما ورد في الكتابات المصرية اسما يعقوب ويوسف مقرونين بالإله «ايل» أي «يعقوب ـ ايل» و«يوسف ـ ايل» ومعنى ذلك «ليحم الإله ايل يعقوب» و«ليحم الإله إيل يوسف» والإله ايل هو «الإله العلي العظيم» عند الكنعانيين والاراميين وهو نفس الإله «إيل» الوارد في التوراة والمقرون بعهد إبراهيم الخليل، وهو غير الإله «يهوه» إله اليهود الذي اختلقه كتبة التوراة كإله خاص بهم، وقد جاء اسما «يعقوب إيل» و«يوسف إيل» بين اسماء المدن التي احتلها الفرعون «تحوتمس الثالث» احد فراعنة السلالة الثامنة عشرة «١٤٧٩-١٤٤٧ ق.م» كما ورد اسم اسرائيل في الكتابات المصرية ايضا بصفة اسم منطقة تقع في جنوب فلسطين كان قد اخضعها «مرنفتاح» احد فراعنة السلالة التاسعة عشرة» في حوالي ١٢٣٠ ق.م[3]، وقد كان اسم «ايل» شائعا عند امم اليمن فقد ظهر هذا الاسم مع اسماء ملوك الطبقة الاولى لملوك الدولة المعينية التي كشفت في نقوش اليمن كاسم «وقهي ايل صدوق» كما ورد هذا الاسم ملحقا بأسماء ملوك الطبقتين الثانية والثالثة[4] كما يظهر هذا الاسم في الدولة السبئية ثم

(١) سفر التكوين، الإصحاح، ٣٢: ٢٥-٢٩.
(٢) انظر أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، ص ١٣٣.
(٣) انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٣٣.
(٤) انظر التاريخ العربي القديم، تأليف ديتلف نيسلن، وفرتز هومل، وورود وكاناكيس وأدولف جرومان، ترجمه

يظهـر عند الحميريين، وهذا يبعث على الظن ان هذا الاسم يشير إلى معبودات الاقوام السامية القديمة التي سكنت بلاد اليمن، وربما ان المهاجرين من هذه البلاد حملوه معهم الى سوريا وبلاد الرافدين ثم الى مصر، واذا صح هذا الرأي فيكون سكان الجزيرة العربية قد عرفوا الإله قبل الشعوب البابلية والمصرية.

ومما تقدم نرى ان كلمة اسرائيل لا تدل على امة بعينها كما اشاع كتبة التوراة، وإنما هي تسمية عادية كانت منتشرة عند كافة الشعوب في الشرق القديم. ثم ان يعقوب الملقب باسرائيل هو حفيد ابراهيم ومن نفس العشيرة الآرامية التي ينتمي إليها إبراهيم، ولذلك فهو ينتمي إلى عهد إبراهيم ولا صلة له بالعهود التاريخية المتأخرة التي ظهر فيها سيدنا موسى بعد حوالي اربعة قرون، وذلك لأن جماعة يعقوب المسماة بني اسرائيل تركت وطنه الاصلي حاران وارتحلت الى مصر من ارض غربتها فلسطين في حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد. ولم تكن هجرة يعقوب وبنيه الى مصر هي الأولى من نوعها، فقد استقبل وادي النيل هجرات متوالية قدمت من الجزيرة العربية وبلاد الشام. ويرجع بعض الباحثين تاريخ هذه الهجرات الى الالف الرابعة قبل الميلاد. ويذهبون الى ان هؤلاء المهاجرين حملوا معهم الى مصر فن التحنيط والكتابة الهيروغليفية واستعمال المعادن وخاصة النحاس، كما حملوا معهم الديانة الوثنية، ويستدلون من النقوش المصرية ان المهاجرين عمموا لغتهم في مصر مع بعض التغيير والتبديل الذي حصل نتيجة الاختلاط بالسكان المحليين مع مرور الزمن[١].

وليس غريبا ان تتوالى هذه الهجرات وخاصة عن طريق برزخ السويس لان فلسطين وبلاد الشام والجزيرة العربية ما هي الا امتداد جغرافي للبلاد المصرية سيما وان القبائل المهاجرة الى مصر كانت تطمع بخيرات هذه البلاد التي عرفت الاستقرار السياسي والاقتصادي منذ عهد حكم السلالات القديمة.

وقد تعرضت مصر خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد الى غزوة كبيرة قادمة من شبه جزيرة سيناء من قبل اقوام اطلق عليهم اسم «الهكسوس»[٢]. اي الرعاه. واستطاع هؤلاء

= واستكمله د. فؤاد حسنين علي، راجع الترجمة الدكتور زكي محمد حسن. مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٨م، ص ٦٥.

(١) انظر الدكتور محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٦٢م، جـ١ ص٢٦. جـ٢ ص١١.

(٢) انظر أبكار السقاف، «إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة» ص ١٣٧، وأحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ ص ٧٤.

استغلال فترة الفوضى التي نتجت عن انقسام مصر الى مملكتين متنازعتين، واحتلوا شمال مصر واقاموا حكما استمر من ١٧٨٥-١٥٨٠ ق.م وكان المصريون يسمون الهكسوس «شاسو» اي البدو وعرفت دولتهم بدولة البدو.

ويعتبر كثير من الباحثين ان الهكسوس[1] من الشعوب السامية وعلى ذلك فهناك صلة قربى بينهم وبين القبائل التي سبقتهم في الهجرة من الجزيرة العربية إلى مصر. ولا يستبعد الباحث ان يكون المهاجرون الاولون قد امدوا الهكسوس بمساعدتهم في احتلال مصر، كما لا يستبعد ان يكون الهكسوس قد اعتمدوا على هؤلاء المهاجرين في تثبيت حكمهم لمصر.

ولعل سيطرة الهكسوس على مصر هي التي مهدت لهجرة يعقوب وبنيه، حيث وجدوا الحماية في ظل الحكام الجدد[2]. وقد اصبح هؤلاء الرعاة ملوكا في مصر السفلى وشكلوا سلالات حاكمة، وتشير سجلات تحوتمس الثالث الى ان بين اسماء هؤلاء الملوك ما يحمل اسم «يعقوب - إيلو» او «يعقوب - إيل» و«يوسف - ايل» و«يعقوب - بعل» كما وردت كلمة «يعقوب - إيل» ايضا بصيغة اسم لمكان في الكتابات المصرية[3]. مما يدلنا على ان اسم يعقوب كان شائعا بين الأقوام المهاجرة إلى مصر وخاصة بين الهكسوس انفسهم.

ويستفاد من رواية سفر التكوين ان العلاقات بين فلسطين ومصر في عهد الهكسوس كانت حسنة وان الحدود المصرية الفلسطينية كانت مفتوحة للمهاجرين، ويستفاد من السفر نفسه ان يوسف بن يعقوب احتل مكانة هامة في جهاز الحكم المصري، وان والده وإخوته تملكوا في مصر واثمروا[4].

ويستفاد من التوراة[5] ان آل يعقوب مكثوا في مصر زهاء اربعمائة وثلاثين عاما، وكان عددهم يوم دخولهم الى مصر سبعين نفسا[6]. وقد اقاموا في ارض عوشن (جاسان) التي

---

(١) السامية أو الساميون: «اصطلاح اطلق على لغات مجموعة الشعوب التي كانت لهجاتها متقاربة وتستوطن منطقة الشرق الادنى والأوسط، كالأقوام الأرامية والكنعانية والعبرية والعربية، ثم اصبح الباحثون يطلقون على مجموعة الشعوب نفسها واول من استعمل هذا الاصطلاح هو المستشرق النمساوي شلوتسر، ١٨٧٠م.
انظر «ولفنسون - تاريخ اللغات السامية ص٢».

(٢) انظر ول ديورانت «قصة الحضارة» حـ٢، م١ ص٣٢٤.

(٣) انظر ابكار السقار «إسرائيل وعقيدة الارض الموعودة» ص١٣٨، وأحمد سوسة العرب واليهود في التاريخ. ص٧٥.

(٤) انظر الإصحاحات ٤١: ٤١ - ٤٧.

(٥) سفر الخروج الإصحاح ١٢: ٤٠.

(٦) سفر التكوين ٤٦: ٢٧.

يغلب على الظن انها كانت موطن القبائل السامية التي لم تنقطع هجراتها من جهة فلسطين. إن الناظر في احوال هذه المنطقة في تلك الفترة من الزمن يرى انه لا بد وان تكون اسرة يعقوب هذه قد ذابت في الموطن الجديد، واختلطت مع غيرها بفعل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والبشرية. فقد تزوج يوسف «بأسنات بنت فوطي فارع كاهن اون»[1] المصرية وولدت له منسى وافرايم[2] ولا يستبعد ان غيره من اولاد يعقوب وبنيهم قد تزوجوا بالمصريات واختلطوا بالشعب المصري، سيما وقد قربهم ملك مصر واشركهم بالسلطة. ولا بد ان يكون عدد غير قليل من المصريين وغيرهم قد شايعوا يعقوب وبنيه في دعوته الى الأله الواحد، وخاصة بين اولئك المهاجرين الذين ينتسبون إلى الارومة السامية التي ينتسب اليها يعقوب، ولا بد ان وجد هؤلاء الساميون الحماية والعون والمساعدة وحصلوا على بعض الامتيازات في عصر الهكسوس وخلال مشاركة يوسف للحكم في مصر.

لهذا كان هؤلاء ينظرون نظرة تجلّة وإعظام الى بيت يعقوب، فهذه طبيعة اجتماعية نلحظها في مختلف الأمم وعبر العصور. وإذا اخذنا بهذا الاتجاه فتكون دعوة يعقوب ويوسف إلى التوحيد قد خلقت المناخ الملائم لدعوة سيدنا موسى في التربة المصرية.

٣ ـ الموسويون

هي التسمية التي تطلق على اتباع سيدنا موسى عليه السلام الذين خرجوا معه من مصر. وقد اختلفت الآراء حول شخصية موسى الذي اخرج اليهود من العبودية المصرية ـ على رأي التوراة ـ فالتوراة تقول بأنه ابن عمرام»[3] بن قاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام. وينقل لنا ديورانت عن جار ستانج «عضو بعثة مارستن التابعة لجامعة ليفربول» خبر اكتشاف الأخير في مقابر اريحا الملكية ادلة تثبت ان موسى انجبته الأميرة حتشبسوت» «الملكة حتشبسوت فيما بعد» في عام ١٥٢٧ قبل الميلاد، وانه تربى في بلاطها بين حاشيتها وانه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحوتمس الثالث[4]. وقد ذهب الباحث اليهودي المشهور «فرويد» الى ابعد مما ذهب اليه جارستانج، فزعم ان موسى كان قائدا

---

(١) سفر التكوين ٤١ : ٤٥.
(٢) سفر التكوين ٤١ : ٥١.
(٣)، انظر سفر الخروج، الإصحاح ٢ : ١.
(٤)، قصة الحضارة م١ حـ٢ ص٣٢٦.

مصرياً في جيش اخناتون ولم يكن من اللاويين كما جاء في التوراة. ويعتبره فرويد من اتباع اخناتون حمل دعوة التوحيد من بعده، وتبعه قوم سمتهم التوراة «بني اسرائيل» لا ينتمون بأي صلة للجماعة السامية التي انجبت ابراهيم الخليل وحفيده يعقوب قبل مئات السنين. وقد ردّ على فرويد(1) في حينه بعض الكتاب واستدلوا بما ورد في التوراة ان موسى عليه السلام هو من سلالة ابراهيم الخليل ويصلون بعد ذلك الى انه يهودي قام مع اخيه هارون يناصر اخوانه اليهود ضد رعمسيس الى ان اخرجهم من مصر.

وقد هاجم الصهيونيون هذا الكتاب وحاولوا التقليل من اهميته التاريخية والعلمية واعتبروه دون المستوى الذي اعتاد فرويد ان يقدمه للناس فوصفه بعضهم «بأنه نتاج عقل زحفت عليه الشيخوخة فأفسدت احكامه» وروجوا من قبيل التكريم لفرويد فيما زعموا لو مضى الكتاب دون ان ينتبه إليه احد. فقال بعضهم تعقيبا على الكتاب انه لو لم يكن من تأليف فرويد لكان الأرجح الا يجد ناشرا يقبل نشره. وهاجمه موريس كوهن احد فقهاء التلمود قائلا: «لو ان شخصا آخر كتب هذا الكتاب لكان خليقا ان نعده كتابا لأفاق مكابر» ثم يمضي ويقول: «صحيح ان هذا الكتاب الذي يفتقر إلى الأسس السليمة لن يضل اي باحث جاد في اليهودية، ولكن يخشى ان يتأثر به جمهور القراء فيعدونه مساهمة ذات قيمة من التحليل النفسي في فهم التاريخ اليهودي(2).

والذي اراه ان الذين ذهبوا الى القول بمصرية موسى اعتمدوا على البيانات التالية:

١ - وجود هذا الاسم بين الأسماء المصرية مثل «احمس» اي «اح - موسى» و«تحوتمس» اي «تحوت - موسى» و«رعمسيس» اي «رع - موسى»، كما نجد هذا الاسم في «مقبرة موسى» كاتب الخزانة والمشرف على ضياع «تي»، لذلك نرى ان هذا الاسم كان شائعا في عصر الامبراطورية المصرية وان به قد عرف اكثر من واحد من ابناء ذلك العصر الذي عاش في غضونه موسى عليه السلام(3)

---

(1) اشارت جريدة الاهرام المصرية بعددها الخاص الصادر في ١٠ مايو سنة ١٩٣٩م الى كتاب سيجمند فرويد «موسى والتوحيد» الذي ظهر بالطبعة الألمانية والذي قال فيه ان النبي موسى لم يكن يهودياً بل كا مصرياً من اتباع اخناتون وقد ردّ عليه بعض الكتاب بردود ضعيفة اعتمدوا فيها على ما جاء في التوراة.
انظر عبد الوهاب النجار «قصص الأنبياء» ص ١٥٥.

(2) د. صبري جرجس «التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي» القاهرة عام ١٩٧٠م. ص٢٩٧.

(3) انظر ابكار السقاف «إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة» ص ١٥٤. وأحمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ» ص ٢٧٥.

٢ ـ تربية موسى عليه السلام في البلاط الفرعوني كما يستفاد من التوراة[1] والقرآن الكريم[2] وثقافته المصرية، وربما تحمل بعض المسؤوليات التي اناطه بها القصر الفرعوني لكونه من افراد الاسرة المالكة ـ رغم انه ابن بالتبني[3].

٣ ـ الصورة التي رسمها كتبة التوراة لهذا النبي الكريم والتي لا شك انها صورة محرّفه شوهت بعناصر وثنية تعود جذورها إلى جزيرة العرب وبلاد ما بين النهرين ومصر.

ذهب بعض الباحثين الى ان الاتفاقات اللغوية والدينية التي عثر عليها حتى اليوم تدلنا على انه يجب ان لا يقتصر بحثنا في الجزيرة العربية على اصل العبريين فحسب، بل على اصل الديانة العبرية ايضا، اذ ان الشريان الرئيسي للديانة العبرية يتصل حقيقة ببلاد العرب القديمة. وقد يكون من سبق الحوادث ان نقول ان هناك اثرا كبيرا جدا من سبأ ومعين وقتبان، كما يعتقد بعضهم. اذ الواقع هو ان وطن القبائل العبرية والديانة العبرية يجب ان يبحث عنه في شمال غرب الجزيرة العربية وفي منطقة كانت مركزا من مراكز الثقافة العربية القديمة[4].

ولسنا بحاجة الى سرد امثلة من التوراة عن الطقوس الدينية اليهودية التي تشابه مثيلتها الوثنية عند الاقوام القديمة مثل السومريين والبابليين[5]. وقد مال الموسويون «اتباع موسى» الى الوثنية وسيدنا موسى لم يزلِ حيا وخاطبهم قائلا: «انا عارف تمردكم . . . هوذا وانا بعد حي معكم اليوم، اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي. . . لأني

---

(١) سفر الخروج، الإصحاح، ٢: ١٠.
(٢) سورة القصص الآية: ٩، الشعراء الآية: ١٨.
(٣) ذكر المؤرخ اليهودي الشهير فلافيوس يوسفوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي اي قبل حوالي الفين من السنين «أن موسى كان حاكماً أو كاهناً، وقد كان قائداً كبيراً بالجيش المصري خلال الحملة المصرية على الحبشة التي حقق فيها نصراً كبيراً، وقد تزوج هناك من «تربيس» بنت ملك الحبشة، وقد اوردت التوراة زواج النبي موسى من كوشية «حبشية».
أنظر سفر العدد ١٢: ١، أحمد شلبي «مقارنة أديان ـ اليهودية» ص٤٣، أحمد سوسة «العرب واليهود في التاريخ» ص٢٧٤ـ٢٧٥.
(٤) انظر التاريخ العربي القديم، مرجع سابق، ص ٢٣٦.
(٥) انظر سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ٢٥ ـ ٢٨، سفر الملوك، الإصحاح ١٢: ١٨، سفر حزقيال ٨: ١٠ «كان اليهود يعظمون (بعل) ويعبدون الأفعى، وعبد بعضهم الصخور والماشية، ويستدل من تاريخهم انهم كانوا يعبدون آلهة متعددة، انظر ديورانت قصة الحضارة، م١ جـ٢ ص ٣٣٨ـ٣٣٩.

عارف انكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي اوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام»[1].

ومما تقدم نرى ان سيدنا موسى كان مصري البيئة والثقافة وان المخالفات الدينية التي اظهرها اتباعه لا تقوم حجة على نكران رسالته ودعوته التوحيدية. ولو اخذنا برأي التوراة القائل بأن موسى عليه السلام يمت بالنسب الى يعقوب وإبراهيم فهذا لا يعني انه يهودي يمت بالنسب الى يهود اليوم ذلك اننا ذكرنا ان إبراهيم ويعقوب يمتان الى السلالة الآرامية[2] التي تفرعت منها شعوب كثيرة.

والذي اميل اليه ما ذكره بعض الباحثين: ان القبائل السامية التي دخلت مصر واستوطنت في معبرها الشمالي الشرقي لم تسلم من الاختلاط بشعوب اخرى بعضها من السلالات الهندية الاوروبية القادمة من وراء مرتفعات العراق[3]. كما لم تسلم من الاختلاط بالشعوب الكوشية والسامية الأخرى بالاضافة الى استقرارها بين المصريين وفي البيئة المصرية.

في مثل هذا الوضع الاجتماعي المتداخل يصبح الحديث عن سلالات نقية ضربا من الخيال[4].

والذي اراه ان سيدنا موسى رسول دعا الى دين الله اقواما كانت متمايزة عرقياً قبل دخولها مصر، وفي مصر قَلت فوارقها وشكلت شعبا متحداً في المصالح والأهداف، اوكل اليه الهكسوس بعض مصالح الادارة المصرية واسبغ عليه من الامتيازات بحكم صلة القربى ووحدة الهدف ما جعل المصريين ينظرون الى هذا الشعب نظرة عداء.

وبعد ان طرد المصريون الهكسوس الدخلاء تبعهم من هذه الاقوام من تبعهم ومن بقي عندهم وقع تحت الحكم المصري، فساموهم سوء العذاب وسلطوا عليهم نير العبودية واوكلوا اليهم القيام بالاعمال الشاقة. كل ذلك ثأراً لانفسهم من تسلطهم ايام الهكسوس

(١) سفر التثنية، الاصحاح، ٣١: ٢٧ - ٣٠.
(٢) انظر ص ٣٥ من هذا الفصل.
(٣) انظر موسكاتي «الحضارات السامية القديمة» ص ١٢٦، ص ١٤٠.
(٤) انظر ول، ديورانت، «قصة الحضارة» م ١، جـ ٢ ص ٣٢٨.

واستئثارهم بمصالح مصر وخيراتها، وقد اشارت التوراة كما اشار القرآن الكريم الى الحالة السيئة التي كان يعانيها الموسويون بعد رحيل الهكسوس من مصر[1].

قاد سيدنا موسى جموع المستضعفين وخرج بهم من مصر هاربا بدينه من حكام مصر الذين انقلبوا على الهكسوس وعلى ديانة التوحيد التي اعلنها اخناتون «امنحوتب الرابع»، ونظروا الى كل دعوة توحيد نظرة عدائية واعتبروها اجنبية. وهرب مع سيدنا موسى هؤلاء المستضعفون ومنهم من استجاب لدعوته الدينية ومنهم من لم يستجب وقصدوا بلادا ينعمون بها بالعز الذي افتقدوه في مصر.

وتعتبر حركة الخروج هذه من مصر بداية لتاريخ هذه الجماعات التي عرفت فيما بعد باسم «اليهود» ذلك ان هذه الجماعات استطاعت دخول بلاد كنعان «ارض فلسطين» وحكمت اجزاء من فلسطين في عهد خلفاء موسى عليه السلام.

٤ - اليهود[2]:

أما تسمية «يهود» فيغلب على الظن انها اشتقت من يهوذا اسم مملكة الجنوب التي كانت عاصمتها اورشليم «القدس» بعد انقسام المملكة اليهودية الموحدة في اعقاب موت سليمان ثاني ملوك اليهود «٩٦٠-٩٢٥ ق.م» وقد احتل نبوخذ نصر الكلداني مملكة يهوذا ودخل عاصمتها وسبى سكانها الى بابل في القرن السادس قبل الميلاد. وكان الآشوريون قد دخلوا المملكة الأخرى المسماة اسرائيل في شمال فلسطين ودمروا عاصمتها السامرة وسبوا سكانها الى بلاد اشور ايضا وذلك في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد استفادت الجماعات الموسوية من سكناها في فلسطين فأخذت اللهجة الكنعانية واستعملتها بعد ان كانت تستعمل اللهجة المصرية، كما اقتبست كثيرا من العادات والتقاليد

---

(١) انظر سفر الخروج ١: ٨-١٢، انظر كذلك الآيات الكريمة في السور التالية:
البقرة آية: ٤٩. الاعراف آية: ١٤١.
إبراهيم آية: ٦. القصص الآيات: ٣-٦.

(٢) ويقال لهم «هوداً» والذين «هادوا» أي بمعنى تابوا ورجعوا، ولكن تغلبت تسمية «هيود» عليهم واصلها من «يهوذا» وهم سبط من أسباط بني إسرائيل سموا بهذا الاسم تمييزاً لهم عن الأسباط العشرة الذين سموا «إسرائيل» إلى أن تشتت الأسباط وسبي شعب «يهودا» بعد هجوم الآشوريين على إسرائيل وهجوم الكلدانيين على «يهوذا»، ثم دعوا جميعاً باليهود.
انظر عفيف طبارة «اليهود في القرآن». دار الكتاب - ط ٢ بيروت ١٩٦٦م ص ١٥.

الكنعانية وتأثرت بالطقوس الدينية الكنعانية، ولم تظهر اللغة العبرية المقتبسة من الآرامية إلا قبيل تدوين التوراة التي يكاد يجمع الباحثون على ان زمن تدوينها يعود الى فترة السبي البابلي(١) وما بعدها.

وتكتسب فترة السبي البابلي اهمية كبرى في تاريخ اليهود، ففيها كتب الحاخامون الشريعة الجديدة للشعب اليهودي، وتجلت في هذه الشريعة مطامع رجال الدين اليهود السياسية والاجتماعية الهادفة الى اعادة غرس عقيدة الشعب المختار والأرض الموعودة.

ولا شك ان هذه الشريعة تختلف كل الاختلاف عن الشريعة التي انزلت على سيدنا موسى عليه السلام. ولا نحتاج الى كبير عناء لاثبات ذلك، لأن كتبة التوراة انفسهم تولوا كشف هذه الحقيقة التي لا يجد عناء في تبيانها كل من يطالع اسفار التوراة ونخص منها اسفار التكوين والخروج والملوك وعزرا(٢).

لقد عاد اليهود الى فلسطين في القرن العشرين تحت حماية حراب الدول الاستعمارية الكبرى في العالم، وفي غيبة وحدة العرب والمسلمين. فما هي صلة يهود اليوم بأولئك الذين دخلوا فلسطين اول مرة تحت قيادة يوشع؟ وهل حقاً يحتفظون بالنقاء العنصري الذي يميزهم دون شعوب العالم؟.

في الاجابة على هذا التساؤل علينا ان نتذكر مجموعة من الحقائق التي كنا قد عرضنا لبعضها. وفي مقدمتها انقطاع عصر سيدنا إبراهيم الذي يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد عن عصر سيدنا موسى، ذلك لان عصر سيدنا ابراهيم قائم بذاته وله كيانه اللغوي والديني والقومي، ولا صلة له بعصر سيدنا موسى الذي يأتي في وقت لاحق لعصر سيدنا إبراهيم بحوالي سبعمائة عام. فعصر سيدنا ابراهيم يمثل حضارة بلاد ما بين النهرين الممزوجة بتأثيرات الجزيرة العربية وتأثير شعوب شرق العراق، وديانته ووحدانية لا تشرك مع الله إلها آخر، بينما عصر سيدنا موسى يمثل البيئة المصرية وحضارتها المزيجة من حضارات امم شتى، وينتمي الى مجموعة من البشر متعددة الانتماء جمعتها مصلحتها المشتركة في

---

(١) انظر ول ديورانت «قصة الحضارة» م ١ جـ٢ ص ٣٦٦ Wills, Ashort History of the world , P.89 ، أحمد سوسة «العرب واليهـ ي التاريخ» ص ١٥٨.

(٢) راجع ص ٣٠ من هذا الفصل.

الخـروج تحت قيادة سيدنا موسى، ولم تكن هذه الجماعات في غالبيتها تدين بدين سيدنا موسى الذي كان يدعو لرسالة سماوية كريمة.

وقـد حمل المـوسويون معهم من مصر الثقافة المصرية الى بلاد كنعان حيث كانت الحضـارة الكنعانية قد ترسخت اصولها في فلسطين منذ مئات السنين. وفي فلسطين بدأ الموسويون عملية تحول إلى الكنعانية تمثلت في مظاهر اللغة الكنعانية والديانة الكنعانية الى جانب التأثير الاجتماعي والاقتصادي والتحول في العادات والتقاليد. وهذه الفترة استمرت منذ حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى القرن السادس قبل الميلاد ـ اي بدأت بدخول الموسويين الى فلسطين وانتهت بالسبي البابلي ٥٨٦ ق.م تقريبا.

وهذه الفترة التي استمرت حوالي ثمانمائة سنة كادت تقضي تماما على كل ما حفظته ذاكرة الموسويين من قبل.

وأمـا عصر اليهود فهو عصر مستقل بنفسه ايضا عن عصر سيدنا ابراهيم وسيدنا موسى ذلك ان هذا العصر يبدأ في القرن السادس قبل الميلاد في اعقاب السبي البابلي، وهو عصر يهودي بحت له ثقافته ولغته وديانته، ويمثل بداية اليهودية الحالية بكتابة التوراة على يد الكهنة في الأسر البابلي وما بعد الأسر باللغة التي صارت تعرف بالعبرية «ارامية التوراة» وهذه التوراة تختلف عن التوراة التي نزلت على سيدنا موسى باللغة المصرية قبل حوالي ثمانمائة عام من عصر اليهود[(١)]

وتمثل فترة السبي البابلي مرحلة هامة في تاريخ اليهود، فاليها يعود الفضل في صوغ العقيدة الجديدة التي التف حولها اليهود معتقدين انها طريق خلاصهم من الاسر البابلي واملهم في العودة الى ارض فلسطين.

إن المحن التي تعرضت لها هذه الجماعات التي اطلق عليها اسم «اليهود» هي التي خلقت القومية اليهودية المتمثلة بالديانة التوراتية المُحرفة. ذلك أن عبوديتهم في مصر وهربهم منها تحت قيادة موحدة اوحى لهم بالهجوم على بلاد كنعان لتعويض مجدهم التليد في مصر ايام حكم الهكسـوس وكذلك كان نفيهم الى بابل وآشور سبباً لجمع صفوفهم وتعلقهم بتعاليم كهنتهم السياسية المغلّفة برداء ديني، أملاً في عودة مماثلة الى بلاد الخيرات.

(١) انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص: ت من المقدمة.

ونفس الشيء يقال عن المصالح التي جمعت ما يسمى يهود اليوم لاحتلال فلسطين بعد ان تركها اليهود القدامى بحوالي تسعة عشر قرناً .

يزعم يهود اليوم بأنهم يشكلون جماعة متميزة بنقائها العنصري وانهم سلالة واحدة احتفظت بمميزاتها عبر العصور التاريخية المختلفة ، كل ذلك لتبرير الشعار الذي رفعه كهنة التوراة ومؤداه تمسك اليهود بفكرة شعب الله المختار، وعهد الله لهم بأرض الميعاد .

إن دعوى اليهود هذه لا تقوم على اساس علمي ، فقد رفضها علماء الأجناس البشرية ، كما تؤكد الوقائع التاريخية ، زيفها وكذبها، إن الشعب اليهودي بالمعنى السياسي والطائفي ليس له وجود وإنما يقصد به الناحية الروحانية فقط .

وإذا أخذنا بالأسس العلمية التي يعتمدها علماء علم الانسان «الانثروبولوجيا» في تصنيف السلالات البشرية لوجدنا ان الجماعات اليهودية تختلف فيما بينها بلون البشرة ولون العيون وشكلها وشكل الوجه وطول القامة وشكل الرأس والأنف وفصائل الدم والسحنة العامة . وليس من المعقول ان ينتمي اليهودي الزنجي الأسود واليهودي الأصفر واليهودي القوقازي الى سلالة واحدة، لأن كلا من هؤلاء ينتمي الى جنس بشري رئيسي له صفاته ومميزاته الجسدية .

لقد لفتت الدعوى العنصرية اليهودية انظار كثير من الباحثين، واطالوا في التعرض لهذه الظاهرة اليهودية ووصلوا الى ان اليهود يعودون الى طائفة دينية وهيئة اجتماعية دخلتها عناصر من أجناس متباينة لصقوا انفسهم بهم وأتى هؤلاء المتهودون من كل السلالات البشرية كفلاشا الحبشة والألمان الجرمانيين والتامل - اليهود السود - واليهود الخزر والأتراك ، ولا يعقل ان يكون اليهود ذوي الشعر الاشقر أو الكستنائي والعيون الصافية اللون ، الذين تلقاهم كثيرا في اوروبا ينتمون بصلة القرابة - قرابة الدم - إلى اولئك الاسرائيليين القدماء الذين كانوا يعيشون بجوار الاردن .[1] وقد قام الدكتور جمال حمدان بدراسة علمية

---

(١) ذهبّ هذا المذهب عدد كبير من الباحثين . نذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر د.ج.هـ: برستد «العصور القديمة» ترجمة داوود قربان ط٢ المطبعة الأمريكانية ، بيروت ١٩٣٠ ص ١٧٨ .
ول ديورانت - قصة الحضارة، م١ حـ٢ ص ٣٢٨، محمد رشيد الفيل، اليهود وعلم الأجناس، مطبعة شفيق - بغداد ص ٤٩-٥٠ .
هامرتون، تاريخ العالم، ترجمة ادارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية، مكتبة النهضة المصرية م٢ ص ١٠٥ .
Encyllopedia: Britannica, vol, 13 Jew.

للانثروبولوجيا اليهودية، ابطل فيها بالشواهد العلمية الدعوى العنصرية اليهودية. وأكد على أن المسحة اليهودية التي تظهر على وجه اليهودي ليست دليلا على وحدة سلالتهم وإنما هي مجرد إرث الاضطهاد الديني[1].

وفي التاريخ اليهودي شواهد كثيرة على انهم ادخلوا في دينهم شعوبا مختلفة، فقد نجحوا في حمل كثير من الأنطاكيين على اعتناق ديانتهم. ومن الشعوب المتهودة قبائل الخزر[2]، وهم من الأتراك المغول، الذين كانوا يسكنون بلاد الخزر الواقعة في جنوب روسيا في جوار مصب نهر الفلجا في بحر الخزر «بحر قزوين». فقد اعتنق هؤلاء الديانة اليهودية في العصور الوسطى بعد اعتناق أميرهم «بولان» اليهودية. وظلت هذه الديانة تمارس بحرية هناك حتى اواخر القرن العاشر الميلادي. واقدم معلومات عن انتشار اليهودية بين الخزر وصلتنا من الرحالة العربي «ابن فضلان» الذي اوفده الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة ٣٠٩هـ (٩٢١م) في بعثة الى ملك البلغار. ففي طريق عودته مرّ ببلاد الخزر وبعاصمتها «اتل»، ووصف ما شاهده في هذه المملكة اليهودية، وذكر ان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعة ملك الخزر ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة[3].

إن في ما تقدم بياناً لما يخالف الزعم اليهودي من ان دينهم قاصر على الاسرائيليين، وانهم غير مكلفين بدعوة غير بني اسرائيل اليه، غير ان الدين اليهودي انتشر في جهات العالم القديم. وورد في القرآن الكريم ما يشير بوضوح الى دخول جماعات من غير بني اسرائيل في الديانة اليهودية، ودعوة بلقيس ملكة سبأ خير شاهد على ذلك ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[4].

ويزعم بعض الباحثين اليهود ان الامة الاسرائيلية لا تميل بوجه عام الى إرغام الأمم الأخرى على اعتناق دينها، وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود[5].

محمد عوض محمد، المسألة الصهيونية في نظر العلم، القاهرة ١٩٤٧م ص ٦.
محمد السيد غلاب، تطور الجنس البشري، مكتبة الأنجلو المصرية ط٤ ١٩٧٠م ص ١٩٢.
أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٣٤٠ وما بعدها.

(١) انظر دراسة في سلسلة المكتبة الثقافية من دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، تحت رقم ١٦٩ بعنوان «اليهود أنثروبولوجيا، ١٩٦٧».

(٢) انظر الملحق رقم (١).

(٣) انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٣٣٥

(٤) سورة النمل آية: ٤٤.

(٥) انظر إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٧٢.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عدة تشير إلى أن الدين اليهودي دين تبشيري وان اليهود قاموا بالتبشير به، قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني اسرائيل، وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[2]. وجاء في سورة يونس: ﴿واوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾[3].

والذي أميل إليه أن اليهود خلال تشتتهم كانوا أمام اختيارين اثنين، الأول، ان ينخرطوا في المجتمعات الجديدة ولا يكون هذا إلا بالتخلي عن ديانتهم والعودة إلى الوثنية، والثاني أن يحافظوا على دينهم، وفي هذه الحالة سيعيشون في حالة عزلة تامة مع الشعوب التي تساكنهم. لذلك كان اليهود في حالة تحولهم عن الدين يفقدون كيانهم الديني، ويصبحون جزءاً مكملا للأمة التي يعيشون بين ظهرانيها. وفي حالة تمسكهم بمعتقداتهم كانوا لا يتزاوجون من الأمم الوثنية الا في حال اعتناق هؤلاء ديانتهم.

وتؤكد سيرتهم التاريخية انهم لم يتمسكوا بدينهم ولا بكيانهم العرقي ولم يبق لهم من سمتهم القديمة الا هذه السحنة المشتركة التي تراها في وجوههم وتعكس ما حفظته ذاكرتهم من آلام الماضي وما تخفيه من تطلع للمستقبل، فمن الثابت ان اليهود كانوا يستخدمون ابناء المسيحية في العصور الوسطى كإماء وعبيد في بيوتهم، وكان بعض اليهود يتزوجون بالمسيحيات، وحدثت زيجات كثيرة من هذا القبيل مما اضطر بعض الممالك الكنسية الى اصدار قرارات تمنع التزوج باليهوديات، وهذا يدل على مدى الخطورة التي وصل اليها مثل هذا الزواج في نظر رجال الكنيسة.

واذا تذكرنا حالة اليهود في إسبانيا قبيل الفتح الاسلامي خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين في ظل حكم القوط الغربيين الذين استعبدوا اليهود وارغموهم في مرات كثيرة على التخلي عن دينهم والتزاوج مع غيرهم لصهر الأقليات في اسبانيا في البوتقة القوطية، ادركنا اكذوبة النقاوة العنصرية اليهودية. وخلال الحكم الاسلامي في اسبانيا

(١) سورة السجدة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة الاعراف، آية: ١٥٩.
(٣) اية: ٨٧.

مارس اليهود حق المواطنة وتساووا مع المسلمين في الحقوق والواجبات المدنية، وحدث تزاوج منهم مع المسلمين. وهذا التزاوج جعل اليهود يستوعبون دماء غريبة غير دمائهم. ان نظرة بسيطة الى المجتمعات الاوروبية والامريكية تكفي للدلالة على ان اليهود الذين تسللوا الى هذه المجتمعات الاوروبية يصعب تمييزهم من غيرهم، واذا اضفنا الى كل ما تقدم كون اليهود لم يمارسوا حكما زمنيا قائما على مبدأ الجنس والقومية، منذ ايام موسى عليه السلام وحتى قيام الكيان الاسرائيلي الحالي[1]. وان كل السلطة بيد الكهنة وفي احيان كثيرة كان زمام السلطة بيد الأنبياء كما هو الحال في عهد القضاة والملوك.

ويتضح لنا أن كل ما حافظ عليه اليهود هو هذه العقيدة اليهودية الممزوجة بالأهداف السياسية الغربية، ولولا هذه الرابطة لانقرضت اليهودية كما انقرضت اقوام شتى ظهرت بعد بني إسرائيل كأقوام العرب البائدة، ومن الخير ان يقال: ان القوم قد بادوا، وبقيت هذه التعاليم المنسوبة اليهم، يحملها اناس جمعتهم معهم المصلحة ولا شيء غيرها.

ويستفاد من بعض نصوص التوراة ان اليهود. كانوا لا يتقبلون خلال تاريخهم الا حكم الكهنة الذين كانوا بدورهم وسيطا بين الشعب والإله يضعون أحد الطرفين في خدمة الآخر حسب المصلحة والظروف. وكان اليهود يَحْتَمون وراء رجال الدين اذا ما داهمهم الخطر. وتظهرهم التوراة جبناء لا يثقون بأنفسهم ويحتمون بأنبيائهم ويطلبون منهم تحقيق المعجزات لصالحهم. فقد رفض اليهود دخول فلسطين بقيادة سيدنا موسى خوفا من الكنعانيين واجابوا سيدنا موسى عندما طلب اليهم ذلك بالقول: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾[2].

وربما كان مبعث هذا الذل والخوف الذي اتسم به اليهود خلال نشأتهم الدينية ثم القومية يعود الى حياة الذل والعبودية التي عاشوها في مصر وبلاد العراق، كما ان عدم انسجام اليهود في السلالة والمعتقد جعل هذا الخوف مظهراً من مظاهرهم بعد الخروج من مصر. ولهذا وجد اليهود ان من الخير لهم تسليم مقاليد امورهم الى الكهنة ورجال الدين

---

(١) يعاني الكيان الإسرائيلي الحالي من مشكلة تعريف اليهودي، ومن هو اليهودي يختلف تعريفه من حزب إلى آخر ومن طائفة الى أخرى، وكثيراً ما سببت هذه المشكلة فضائح للحكم الإسرائيلي، كما سببت أزمات سياسية ادت في بعض الأحيان الى استقالة الحكومة. ولا زالت هذه المشكلة تقلق تفكير رجال السياسة ورجال الدين في إسرائيل.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

والاختفاء خلفهم خوفا من المشاركة المباشرة في الاحداث التي تتطلب شجاعة وتضحية، سيما وان انبياءهم حملوا عنهم هذه المهمات ونجحوا في حملها. فهاهم قد انجاهم الله من فرعون وجنوده بقيادة موسى عليه السلام الذي شق لهم البحر بعصاه، وأنزل عليهم الرب المن والسلوى طعاما. ولهذا لم يكن اليهود ليتقبلوا حكما يضع عليهم الواجبات ويجعلهم وجها لوجه مع الاحداث التي توجب المشقة والتضحية، ففي التوراة: «الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون»(١) و«الرب يحارب عن إسرائيل»(٢).

وقد ثارت ثائرة اليهود عندما سَمّى بعض الكهنة انفسهم ملوكا في اواخر عهد المكابيين وحكموا على اساس سلطة زمنية. ولما قدم بومبي القائد الروماني الى اورشليم عام ٦٣ق.م طلب إليه اليهود ان يلغي الملكية ويعين لهم كهنة وليس ملوكا. وأجابهم بومبي الى طلبهم وعين «هركانوس» الثاني المكابي حاكما عليهم تحت لقب «الكاهن الأعظم»(٣). غير ان الكاهن لم تكن له إلا السلطة الدينية لأن الأمور الدنيوية كان يمارسها الحكام الرومان.

ويرى بعض الباحثين «ان السر يكمن في بقاء اليهودية طوال عشرات القرون حتى يومنا هذا في كونها غير مرتبطة باعتبارات جغرافية او جنسية او لغوية او قومية او سياسية لأن الكيان الزمني والسياسي عرضة لتقلبات الدهر والزوال. لذلك فقد استطاعت اليهودية كدين ان تستمر وتبقى على الرغم من جميع التقلبات، وخير مثال لذلك هو فشل الكنيسة في محاولتها ان تجعل من كيانها سلطة زمنية، وذلك بشن حروبها الصليبية، وبقيت المسيحية، وكذلك ستلقى دولة اسرائيل بوضعها الشاذ الحالي نفس المصير عاجلا ام آجلاً(٤).

وخلاصة القول ان اليهودية الحديثة تمثل مرحلة مستقلة ومتميزة لا صلة لها بعهد يهوذا ولا بالموسويين ومن قبلهم. ذلك ان التوراة التي طبعت هذا الكيان الحديث بطابعها انها كُتبت بعد يهوذا. هذا مع العلم بأن يهود اليوم علمانيون ولا يقيمون وزناً إلا لما يخدم اهدافهم السياسية المتمثلة بالحركة الصهيونية(٥).

---

(١) سفر الخروج، الاصحاح ١٤: ١٤.

(٢) سفر يشوع، الاصحاح ١٠: ١٤، وفي التوراة أمثلة كثيرة عن تولي الرب القتال عن بني إسرائيل وسفك دماء الأعداء بلا رحمة، انظر سفري الخروج والملوك.

(٣) احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٣٤٢.

(٤) نفس المصدر ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٥) اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ٣٣٧٩ بتاريخ - ١٠ نوفمبر «تشرين الثاني» ١٩٧٥م، قررت فيه ان الصهيونية شكل من اشكال العنصرية والتمييز العنصري، وهكذا فقد وضع المنتظم الدولي بقراره هذا حداً للمزاعم الصهيونية، وكشف عن حقيقتها.

الفصـل الثانـي

* العلاقات العربية اليهودية القديمة خارج الجزيرة العربية *

* العرب في المرويات القديمة.
* العرب واليهود في زمن سليمان.
* سليمان وبلقيس.
* العرب يقاومون تجديد بناء الهيكل.
* العلاقات بين الأنباط واليهود.
* أثر الأنباط في ديانة اليهود ولغتهم.
* اليهـود في تدمـر.

الفصل الثاني

العلاقات العربية اليهودية القديمة خارج الجزيرة العربية

العرب في المرويات القديمة:

ورد اول ذكر صريح للعرب على لسان الملك الاشوري شلمناصر الثالث عام ٨٥٣ أو ٨٥٤ق. م، بعد ان تغلّب هذا الملك على تحالف ضم هدد عازر صاحب آرام دمشق، وزعيم عربي اسماه جنديبو «جندب العربي»، وأخآب ملك إسرائيل في معركة مشهورة في التاريخ القديم، هي معركة قرقر، وقد نقش شلمناصر نتائج هذه المعركة تخليدا لانتصاره على هذا التحالف، وجاء في النقش ان جنديبو العربي، شارك في هذا التحالف بالف جمل، بينما كانت مشاركة هدد عازر بـ١٢٠٠ مركبة و١٢٠٠ فارس و٢٠,٠٠٠ جندي[١].

ويعجب بعض المؤرخين من هذه المصادفة التي تجمع بين اول ذكر للعرب وبين الجمل حيوان الصحراء الذي يعتبره البعض حيوان الجزيرة العربية، دخل منها بلاد الشام[٢].

والمعنى الذي كانت تؤديه لفظة عرب عند الساميين القدامى بما فيهم الآشوريين، إنما كانت تدل على البدو «الاعراب»، ولم تكن تعني الحضر، كما ان العرب لم يكونوا جميعا من البدو بدليل قوله تعالى: ﴿الأعراب اشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم﴾[٣]. ففي هذه الآية إشارة الى ان لفظة اعراب، ليست علما على امة مميزة، وانما هي تسمية لحالة بدوية.

---

(١) انظر فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ط٤ ١٩٦٥م، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت حـ١ ص٤٥.

انظر كذلك، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٨ حـ١ ص١٦.

(٢) انظر، حتي، المرجع السابق، حـ١ ص٢٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ٩٧.

ويستفاد من الإشارات القديمة لكيانات عربية، ان هذه الكيانات، لم تكن ممالك بالمعنى المعروف، وإنما مشيخات، خضعت لزعامة رجل أو إمرأة عربية.

إن ما يلفت النظر في نقش شلمناصر الثالث السابق، إنما هو تحالف جندب العربي وأخاب الاسرائيلي مع صاحب آرام دمشق في وجه الغزو الآشوري لسوريا. فهل كان هذا التحالف نتيجة الشعور بالقرابة ووحدة المصير بين هذه الشعوب المشتركة في هذا التحالف، أم انها تحالفات مصلحية لردّ عدو مشترك؟

إن الردّ على هذا التساؤل يكمن في كون دول سوريا هذه كانت متأثرة بسياسات الدول المجاورة القوية، اشور في الشرق ومصر في الجنوب، وتبعا لذلك كانت علاقات هذه الدول مع بعضها ومع القوى الكبرى المحيطة بها غير ثابتة، والتحالف في معركة قرقر جاء نتيجة مساعي الدولة المصرية. واذا ما اخذنا بتاريخ هذا التحالف بين جندب العربي وأخاب الاسرائيلي، يمكننا القول بقدم التأثيرات المشتركة بين الأصول العربية واليهودية، ذلك ان شعوب الشرق الأدنى القديم كانت على اتصال دائم، غير ان الفترة الموغلة في القدم لا تعنينا بدراستنا هذه، لعدم بروز كيان يهودي وآخر عربي، بشكل يسمح بتتبع العلاقات بين هذه الكيانات. ولذلك سأكتفي بالاشارة الى بعض التأثيرات العربية الاصل في الجماعة اليهودية التي استوطنت فلسطين ثم تشتت منها.

يرى بعض علماء التوراة ان «ايوب» صاحب السفر المشهور باسمه في التوراة، هو رجل عربي، لأن من اصحاب أيوب بِلْدَدْ الشوحي، وهو من ولد شوح بن إبراهيم وأليغاز التيماني، وهو من ولد تيمان بن عيسو. أما موطنه ارض «عوص»، فيعتقد انها في بلاد العرب في نجد، او في بلاد الشام في «حوران» او في «اللجاه» في سوريا، أو على حدود آدوم، أو في العربية الغربية في شمال غربي المدينة. وعلى هذا يكون موطن ايوب، حسب رأي هؤلاء العلماء لا يخرج عن الأرض العربية[1] وسبب اختلاف العلماء في تعيين موقع ارض عوص، هو ان هذا المكان ورد في التوراة دون تحديد، واعتمد في تحديده على الحوادث المذكورة في سفر أيوب، كهجوم (أهل سبأ) على مَلْكِ أيوب، واستياق بقر له كانت تحرث الأرض وأتن

(١) انظر المجلد الثاني من الكتاب المقدس، هوامش سفر أيوب، الطبعة اليسوعية - بيروت. انظر كذلك، جورج بوست، قاموس الكتاب المقدس، المطبعة الأميركانية بيروت ١٨٩٤م ١/٨٨، ٢/١٢٦. أنظر ايضاً، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، حـ١ ص ٦٣١.

ترعى[1]. وهذا يشجع الظن بأن ارض عوص لا بد ان تكون قريبة من بلاد السبئيين. وجاء في نفس السفر، ان ثلاث فرق من الكلدانيين، هاجمت إبل أيوب، وهذا يشير إلى أن بلاد عوص كانت قريبة من الكلدانيين اي في البادية القريبة من نهر الفرات.

واغلب الظن ان بلاد عوص كانت بقرب نجد، وعلى الأرجح شمال نجد، ذلك لأن نفوذ السبئيين امتد نحو الشمال الى خارج الجزيرة العربية، وكذلك امتد نفوذ الكلدانيين نحو الجنوب، والحوادث الواردة في السفر تشير الى ان عوص كانت وسطا بين ارض الكلدانيين والسبئيين، وهذا يرجح الرأي السابق، ويعزز وجهة النظر القائلة بعروبة ايوب، لأن ارض عوص في هذه الحالة تصبح من اراضي الجزيرة العربية.

ويستفاد من سفر إرميا «٢٥ :٢٠» ومراثي إرميا «٤ : ٢١» ان عوص هذه لم تكن على وفاق مع الدولة اليهودية، وانما كانت على علاقة مع فلسطين وآدوم ومؤاب وبني عمون وددان وتيماء وبوز «يوز» وصيدا وصور، وما جاء في مراثي إرميا «٤ : ٢١»: «اطربي وافرحي يا بنت آدوم يا ساكنة عوص»، يفيد ان نفوذ عوص ربما شمل الارض التي عرفت باسم آدوم فيما بعد، وذلك لأن زمن سلطان عوص سابق على زمان آدوم، كما يستفاد من التوراة التي تجعل زمن ايوب قبل زمن سيدنا موسى عليه السلام[2].

ويعتمد علماء التوراة في استدلالهم على عروبة ايوب، من نعت اصحاب ايوب بالتيماني والنعماتي، وتيما معروفة بآدوم، ونعمة في جنوب سبط يهوذا. وأما شوح، وبوز المنسوب إليهما بلدد وأليهو، بلدان عربيان، وهكذا يكون اصحاب ايوب فريق من الأدوميين وفريق من العرب. ويدل السفر على غنى ومكانة ايوب. ويرى هؤلاء العلماء ان اصح ما قيل في كاتب سفر ايوب هو ان ايوب نفسه هو الذي كتبه وقيل ايضا ان سيدنا موسى اتصل به عند يثرو زعيم مَدْيَن، حيث ترجم السفر ودفعه الى بني اسرائيل ليكون لهم سلوى في مصائبهم امام مصيبة ايوب[3].

---

(١) سفر أيوب، صح ١ : ١٤ وما بعدها

(٢) انظر الكتاب المقدس، المطبعة اليسوعية ـ بيروت، حـ٢، هوامش سفر أيوب.
أنظر أيضاً D.S. Margollouth: The Relations between Arabs & Israeiets prior to the rise of Islam London 1924, P.32.

(٣) راجع Marogollouth, Relations..... P. 32

ومن العلماء الذين قالوا بوجود اثر للعروبة في سفر ايوب، العالم اليهودي ابن عزرا «بن عزرة» من رجال القرن الثاني عشر الميلادي، وقد تبعه في ذلك جماعة من الباحثين وجدوا في الكلمات والتعابير والاسماء الواردة في ذلك السفر ما يثبت وجود الأثر العربي عليه، حتى ذهب بعضهم الى القول بأن السفر الحالي هو ترجمة لاصل عربي مفقود[1].

ويعتبر علماء التوراة ان اقدم إشارة وردت للعرب في التوراة، هي ذكر قصة سيدنا يوسف وبيع اخوته له إلى تجار من الاسماعيليين ـ على اعتبار ان الاسماعليين عرب ـ واشارت التوراة اثناء حديثها عن الملك داوود، إلى رجل من شجعان العرب وابطالهم الذين كان يتباهى بهم داوود، اسمه ابيل العربي، وكان من بيت عرابة «عربة» في تيه يهوذا[2] ويدل لقبه هذا والموضع الذي ذكر بلدته انه عربي، كما اشارت التوراة الى رجل آخر ذكرت انه كان على جمال داوود، دعته بأوبيل الاسماعيلي[3].

والذي جعل العلماء يعتبرون اوبيل عربيا هو كونه اوكل اليه امر الإبل، وهي حرفة من صميم عمل اعراب البادية.

العرب واليهود في زمن سليمان:

توسعت الدولة اليهودية في عهد الملك سليمان، واستتب الأمن، وجلب له الملوك والحكام الهدايا والهبات. ويعتبر عصر سليمان ازهى عصور التاريخ اليهودي على الإطلاق. اهتم الملك سليمان بالعمـران ولذلك اقام علاقات سلمية مع جيرانه ليتمكن من إنجاز مشاريعه بهدوء وسلام، ونشطت الحركة التجارية وخاصة في اتجاه الشمال إلى صور، حيث الأرز وإلى الجنوب حيث الأطاييب ولم يكن سكان الجنوب سوى العرب.

أنشأ سليمان ميناء (عصيون جابر) على خليج العقبة وبنى به اسطولا تجاريا بمعاونة ملك صور (احيرام الفنيقي)، وذلـك لجهل اليهود آنذاك بصناعة السفن. كما استعان سليمان برجال من الفنيقيين في تدريب بحارته وقيادة سفنه، وهكذا استطاع الأسطول الذي

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص ٦٣٤.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) سفر أخبار الأيام الأول، صح ٢٧ : ٣٠.

أنشأه سليمان ان يصل الى ميناء «أوفير» وأن يحصل على ذهب زنته اربع مئة وعشرون وزنة عادوا بها إلى سليمان(١).

وتذكر التوراة ملوك العرب في عداد الذين قدموا الذهب الى الملك سليمان(٢).

ويغلب الظن أن أوفير التي ذكرتها التوراة كميناء بحري جلب منه الذهب، إنما هي ظفار من اعمال عُمان(٣).

وفي زمن سليمان الذي اهتم بالتجارة والعمران، نشطت القوافل التجارية بين الجزيرة العربية وفلسطين. ومع مرور الزمن، اصبحت غزة ميناء عربيا لكثرة واردات وصادرات الأنباط من هذا الميناء الواقع في جنوب الساحل الفلسطيني. ولعل الإشارات الواردة في بعض اشعار العرب إلى خمور التجار اليهود هي دليل النشاط التجاري الذي بدأ ينمو منذ عهد سليمان(٤).

---

(١) سفر الملوك الأول، صح ٩: ٢٦ وما بعدها.
(٢) سفر الملوك الأول، صح ١٠: ١٦.
(٣) فيليب حتى، **تاريخ العرب المطول** حـ١ ص ٥٢.
(٤) ومثالا على اشعار العرب التي تشير الى صلات اليهود التجارية ببلاد العرب، ما جاء في ديوان اعشى قيس.
قال اعشى قيس:

وصهباء طاف يهوديها ... وأبرزها وعليها ختم

وقال:

وقد طفت للمال آفاقه ... عمان فحمص فاورشليم
أتيت النجاشي في ارضه ... وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير ... فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذلك إلى حضرموت ... فأوفيت همي وحينا أهم

وقال يصف خمّاره بأوصاف شبيهة بوصف اليهودي:

تَنَخَّلها من بكار القطاف ... أزيرق آمن اكسادها

ويمدح خمر فلسطين بقوله:

متى تسق من أنيابها بعد هجعة ... من الليل شربا حين مالت طلاتها
تخله فلسطيا إذا ذقت طعمه ... على ربذات النبي حمس لثاتها

وقال يمدح خمر عانة الشآمية بقوله:

واسفنط عانة بعد الرقا ... د ساق الرصاف إليها غديرا

سليمان وبلقيس :

نظر بعض المؤرخين الى زيارة بلقيس ملكة سبأ إلى سليمان ملك الدولة اليهودية ، من وجهـات نظر متعددة، واحدثت هذه القصة ضجة كبرى عندهم . فمنهم من انكر هذه القصة واعتبرها ضربا من الخيال واسطورة من الاساطير، وحجتهم في ذلك ان تاريخ اليمن يخلو من الملكات ، وان الملكية في اليمن لا تعود إلى ما قبل (٨٠٠ق . م) بينما فترة حكم الملك سليمان تمتد من سنة ٩٧٣-٩٣٣ق . م على مايذكره اغلب المؤرخين . ويذهب هؤلاء إلى أن هذه الرواية تؤيدها نقوش معاصرة ، ويرون انه لو كانت بلقيس هذه موجودة حقا في ذلك التاريخ لأشار إليها يوسفوس في تاريخه ، إلى غير ذلك من الحجج[1] .

لقد ورد ذِكرٌ لملكات عربيات في التاريخ ، فقد سمعنا عن الملكة شمس Samsi وزبيبة Zabibe في عهد الآشوريين «٧٤٥-٧٢٧ق . م»[2] .

وقد اكتشف اخيرا اسم ملكة بين ملوك مملكة لحيان[3] ، وعلى هذا لا يمكن القول بانعدام وجود ملكات في الممالك العربية القديمة ، وليس القول بعدم وجود ملكات في تاريخ اليمن حجة لان ما اكتشف من اسماء الاسر التي حكمت في الماضي قليل من كثير. ويقول مارجليوث بعد تشككه في صحة قصة بلقيس : «علينا ان لا نتجاهل هذه القصة لوجود ملكـات حكمن بحـزم لم نكن نتوقعه ، واليهود انفسهم في فترة من فترات حكم الأسرة الأشمـونية ، خضعـوا لحكم الملكـة ألكسنـدرلا ، وكذلك المسلمون في الهند ، وفي مصر خضعوا في بعض الأوقات لحكم نساء»[4] . وإذا كان بعض الباحثين المحدثين ينكر زيارة بلقيس لسليمان ، فانه لا يوجد احد يشك في علاقة السبئيين التجارية في فلسطين منذ قيام الدولة السبئية ، وهذا بديهي لان دول اليمن القديمة كانت على اتصال بمعظم جهات العالم المعروف يومذاك بحكم موقعها ودورها في التجارة العالمية .

= أنـظر ديوان الأعشى الكبير، ميمـون بن قيس، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين، نشر مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، انظر المقدمة والقصائد، ٤، ٨، ١٠، ١٢ .

(١) انظر محمود كامل المحامي ، اليمن شماله وجنوبه ، تاريخه وعلاقاته الدولية ـ دار بيروت للطباعة والنشر . ١٩٦٨م ص ٩٨ .

(٢) انظر موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة ص ٣٥٥ .
انظر ايضا Margoliouth, Relations...P. 49

(٣) I bid, P.49

(٤) I bid, P. 49

إن هذه العلاقة تجعل أمر اتصال ملوك سبأ بملوك فلسطين أمرا طبيعيا ولا يمكن تجاهل هذه الحادثة التي اوردتها التوراة ثم اشار اليها القرآن بقوله: ﴿قالت إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[1].

ويهمنا من هذه العلاقة، انها إثبات على ان اليهود والعرب في الجزيرة العربية، اقاموا علاقات تجارية وطيدة، وأن قوافل التجار السوريين كانت تصل الى اليمن، ويؤخذ من هذه القصة ان حكومة سبأ كانت على جانب من الثراء العظيم بفضل التجارة، وهذا ما يستفاد من حمل بلقيس الهدايا الثمينة والنادرة الى بلاط سليمان. وبلقيس اسم توراتي استعمله بعض المؤرخين، إذ لم يذكر القرآن اسم ملكة سبأ التي اتصلت بسليمان. وذهب بعض المؤرخين إلى أن مملكة سبأ إنما كانت في تلك الحقبة من الزمن في شمال الجزيرة العربية، ولم تكن في جنوبها على اعتبار ان السبئيين اقاموا في شمال الجزيرة، ثم عادوا الى اليمن نتيجة الضغط عليهم من دول الشمال[2]. وهذا رأي يمكن للعقل ان يأنس به، ذلك لقرب شمال الجزيرة من مدينة القدس التي زارتها ملكة سبأ، وطبيعي ان يكون شمال الجزيرة العربية على صلة وطيدة مع الدويلات السورية فقد كانت طريق القوافل الغربية من اليمن الى الشام عبر الحجاز من اهم عوامل هذه الصلات، وهذا لا يعارض ما ورد في القرآن الكريم، لأن القرآن لم يحدد مكان سبأ، وإنما سرد قصة ملكة سبأ وعظمة ملكها، وكيف اسلمت على يد سليمان. ويظن ان إحدى الموجات العربية القديمة هاجرت من بلاد اليمن في الوقت الذي بدأت تبرز فيه دولة سبأ للعيان، وأقامت هذه الجماعة المهاجرة على حدود الجزيرة العربية في الشمال واستطاعت ان تقيم شكلا من التنظيم كما هو الحال في الامارات العربية العديدة التي ذكرها الأثريون مثل، ددان، ومسا، وحِطى، وخيابا أو حجابا وبطنة وأدب إيل وعويده وبسطة وغيرها كثير. واستطاعت هذه الامارة ان تزدهر في ظل احدى ملكاتها التي عاصرت الملك سليمان واتصلت به واعلنت إسلامها على يديه. وبين هذه الامارات او الممالك الصغيرة التي ذكرت، وردت أسماء بعض الملكات لها في النقوش الآشورية، فقد ورد في نقش للملك الآشوري سنحاريب اسم Jatie يطيعه ملكة اريبي وتلخونو Telhunu ملكة اريبي أيضا، وربما كانت اسماء عويده وبسطه التي سبق ذكرها هي اسماء ملكات وليست اسماء مناطق[3].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٤.

(٢) Margoliouth, Relations. P. 50

(٣) انظر محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، حـ١ ص١٠٩.

ويستفاد من التوراة ان الملك سليمان اتصل بميناء بحري آخر غير «اوفير»، وهو ميناء «ترشيش» الذي كان يحصل منه اليهود على الذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس[1]. وهذا الأسطول بني كسابقه، بمساعدة الملك الفنيقي حيرام، وكان البحارة الفنيقيون يشرفون على تدريب البحارة اليهود ويرافقونهم في رحلاتهم البحرية، وكان هذا الاسطول يبحر إلى ترشيش مرة كل ثلاث سنوات[2].

ولم يتفق العلماء حتى الآن على تعيين موقع ترشيش، واختلفوا اختلافا بينا في تعيين الجهة او الساحل الذي كانت تقع عليه، فبعضهم يرى انها على السواحل الأسبانية، والبعض الآخر يرى انها على السواحل الجنوبية لآسيا، وآخرون يرون انها في إفريقيا[3].

وحيثما كانت هذه الموانىء فقد حصل الاسطول اليهودي منها على سلع وفيرة وحقق التجار اليهود منها الارباح الطائلة كما يؤخذ من روايات التوراة.

وبعد وفاة سليمان نحو ٩٣٧ق. م انقسمت الدولة اليهودية الى مملكتين شمالية وكانت عاصمتها السامرة، وسميت إسرائيل، وجنوبية اتخذت القدس عاصمة لها واطلق عليها اسم يهوذا[4]. وبهذا الانقسام بدأ الضعف يغزو الكيانات اليهودية كما انعكس على الوضع الاقتصادي في المنطقة، ويظهر هذا جليا في محاولة «يهو شافاط» بن الملك «أسّا» الذي كان يحكم يهوذا بناء اسطول جديد في عصيون جابر بالاتفاق مع احزيا ملك اسرائيل للحصول على سلع ترشيش القيمة، غير أن هذا الأمل لم يتحقق لأن الأسطول تكسّر في عرض البحر قبل ان يصل إلى ترشيش[5].

ويغلب على الظن ان الأسطول تحطم بهذه السرعة لغياب الأيدي العاملة الفنيقية الماهرة في صناعة السفن بعد ان تبدلت العلاقات بين ملك صور والممالك اليهودية. ولم يكن اليهود يتقنون الملاحة البحرية وصناعة السفن بدليل اعتمادهم على البحارة الفنيقيين في عهد الملك سليمان.

---

(١) سفر الملوك الاول، صح ١٠: ٢٢ فما بعدها.
(٢) انظر جواد علي، المفصل، المرجع السابق حـ١ ص٦٤٠.
(٣) انظر نفس المرجع السابق. ص ٦٤٠.
(٤) انظر ص ٢٠ من الفصل الاول من هذا البحث.
(٥) سفر أخبار الملوك الثاني صح ٢٠: ٣٥.

ولم تنجح محاولات ملوك اليهود في احياء الاسطول البحري الذي كان يجلب لهم الخيرات من اوفير وترشيش، واكتفى اليهود بسفن صغيرة لا تستطيع الابحار إلى مسافات بعيدة كتلك التي بناها المكابيون في حيفا[1].

وقد انصرف (يهوشافاط) إلى تحقيق الأمن في أطراف الدولة، ولذلك عمل على الاتفاق مع (أخاب) ملك إسرائيل، ومع الممالك المجاورة مما ادى الى فترة من الهدوء والسلام[2]. وقد رأينا ان التحالفات قد توسعت في هذه الفترة، حتى بلغت اوجها في التحالف الذي ضم زعماء كل دول سوريا في وجه الزحف الآشوري الذي قاده شلمناصر الثالث.

لقد سمحت فترة الهدوء التي شملت فلسطين في عهد «يهوشافاط» لنشاط ديني مارسه العلماء اليهود في تعليم احكام دينهم اثناء تجوالهم بين المدن الفلسطينية كما تشير التوراة الى ان عهد يهوشافاط شهد خضوع الفلسطينيين والعرب، فكلاهما حمل الذهب والفضة والماشية للملك اليهودي. فقد ورد ان الفلسطينيين قدموا الهدايا من الفضة، وكذلك قدم العرب (٧٧٠٠) كبش و(٧٧٠٠) تيس[3]. وقد يكون المقصود بهؤلاء العرب الذين ذكرتهم التوراة، انما هم الأعراب الذين كانوا يتجرون مع اليهود، ويتنقلون بماشيتهم في اطراف فلسطين بدليل ان تقدمتهم كانت كباشا وتيوسا، لأن الأعراب كانوا يحترفون الرعي بالدرجة الاولى.

تولى الملك بعد يهوشافاط يهورام ابنه، وحسب رواية التوراة لم يكن يحكم وفق اسلوب ابيه، فارتكب الظلم وتردت الأحوال. وجزاء هذا العقوق من يهورام ابتلاه الله بأوخم العواقب وسلّط عليه الأقوام المجاورة، وذكرت التوراة العرب بين هذه الأقوام التي هاجمت القدس وحددت مكانهم بجانب الكوشيين[4].

ويستفاد من هذه الرواية ان الأقوام المهاجمة استطاعت دخول القدس ونهب ممتلكاتها وسبي نسائها. إن هذا الهجوم الكاسح الذي تعرضت له عاصمة يهوذا جاء دليلا على

---

(١) انظر جورج بوست، قاموس الكتاب المقدس، ١ / ٢٨٤ وما بعدها.
(٢) سفر أخبار الأيام الثاني صح ١٧ : ١١.
(٣) سفر أخبار الأيام الثاني ١٧ : ١١.
(٤) سفر أخبار الأيام الثاني ٢١ : ١٧.

ضعف الـدولة اليهودية، واضطراب حبل الأمن فيها نتيجة الصراع على الحكم. وتقول التـوراة بأن يهورام بدأ حكمـه بقتـل جميع اخوته بالسيف[1]. وهذا لا يكون الا في جو مشحون بالمؤامرات والدسائس من أجل الوصول إلى السلطة.

لقد اختلفت الآراء في تعيين المكان الذي انطلق منه العرب مع بقية الاقوام المجاورة لاحتلال القدس، فمارغليوث يرى ان المراد بهؤلاء العرب الجنوبيين (عرب جنوب الجزيرة العـربية) الذين كانوا يسكنون السواحل الجنوبية بقرب الكوشيين «الأحباش» لا يفصل بينهم إلا مضيق باب المنـدب، الـذي لا يزيد عرضـه على خمسـة عشر ميلا. ويتخيل مارغليوث ان هذا الغزو ربما حصل بطريق البحر بدليل انضمام الفلسطينيين الذين كانوا يسكنون الساحل الجنوبي من فلسطين، وعودة العرب بالغنائم دون المكوث في القدس او محاولة توسيع الهجوم على يهوذا[2].

ويرى باحثون آخرون ان العرب الذين بجانب الكوشيين هم العرب النازلون في الأقسام الغربية من طور سيناء على حدود مصر، او أولئك الذين يسكنون في جنوب سيناء على مقربة من خليج العقبة، ويستدلون على ذلك من كون سيناء موطنا قديما من مواطن العرب. وقد اشارت الكتابات المسمارية إلى ملوك عرب، حكموا هذه المناطق[3].

والـذي يراه البـاحث ان هؤلاء العرب هم الاعراب الذين كانوا يسكنون جنوب فلسطين، والذين ذكرتهم التوراة في جملة من قدموا الماشية الى الملك يهوشافاط والد يهورام الذي حدث الهجوم في زمنه، وربما قصد بالكوشيين بعض القبائل الحامية التي ربما سكنت في غربي سيناء، أو أنها من بقايا القبائل الكاشية التي هاجمت جنوب العراق في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام[4]،

وتذكر التوراة انه في عهد الملك يهوذا عزيا (٧٧٩-٧٤٠ق.م) تم قهر الفلسطينيين وهـدم سور «جت» وسور «يبنه» وسور «أشدود» وبنى مدنا في ارض اشدود الفلسطينية

(١) سفر أخبار الأيام الثاني ٢١: ٢.
(٢) Relations ... P. 52
(٣) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** جـ١ ص٦٤٣.
(٤) أبكار السقاف، **إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة**، ص ٧٨.

بدلها. وتقول التوراة ان عزيا تمكن من التغلب على الفلسطينيين والعرب الساكنين في جور بعل والمعونيين[1].

ويستفاد من هذه الروايات ان الفلسطينيين والعرب كانوا متفقين في عدائهم ليهوذا وانهم شكلوا تحالفا لهذه الغاية، وهذا يخالف رأي مارغليوت في ان العرب الذين هاجموا القدس، إنما هم عرب جنوب الجزيرة العربية، وانهم هاجموا يهوذا بحرا.

ويفهم ايضا أن عزيا تمكن من الأنتقام وأنزل ضـربة قاصمة بالمدن الفلسطينية، جت وسور يبنه وسور اشدود وبنى مدنا مكانها. وتقع هذه المدن في الشريط الساحلي لجنوب فلسطين اي على حواف النقب في تخوم دان[2].

وفي جت ولد البطل الفلسطيني جليات، وجت من المدن الفلسطينية الخمس التي استطاعت الحفاظ على استقلالها في زمن الملك داوود في عهد ملكها اخيش[3]. ومن المدن الفلسطينية هذه مازال يحتفظ باسمه حتى وقتنا الحاضر مثل اشدود ويبنه التي تقع على بعد اثني عشر ميلا جنوب يافا وثلاثة اميال شرق البحر وربما هي يمنه الحالية الواقعة جنوبي طبريا على بعد سبعة اميال[4].

وأما تحديد جور بعل التي وردت في التوراة كمسكن لهؤلاء العرب الذين سبق ذكرهم لازال موضع اختلاف العلماء. ولكن ما يستفاد من ورود اسم العرب مقرونا مع الفلسطينيين والمعونيين كجيران يهوذا، يجعل هذا الاقليم احد اقاليم الحواف الشمالية للجزيرة العربية، وهو الرأي الذي كنا المحنا اليه من قبل. وأما المعونيون فقد اختلف الباحثون ايضا في هويتهم وفي موطنهم، فبعض علماء التوراة يرى انهم بعض القبائل المعينية الذين كانوا قد استقروا في «ديدان» وكونوا مملكة معينية شمالية[5].

ومن المعروف ان المعينيين الذين كونوا مملكتهم في جنوب الجزيرة العربية قبل

---

(١) سفر أخبار الأيام الثاني، ٢٦ : ٦-٨.
(٢) انظر جواد علي، **المفصل**، حـ١ ص ٦٤٤.
(٣) سفر صمويل الأول، ٢١ : ١٠، ٢٧ : ١.
(٤) انظر جواد علي، **المفصل** . . . حـ١ ص ٦٤٤.
(٥) Margoliouth, Relations...P. 51.

قيام الدولة السبئية، واتخذوا مدينة «قرنا» عاصمة لهم، امتد نفوذهم حتى شمل كل شمال الجزيرة العربية وجنوب سوريا.

بنى عزيا ميناء ايله بعد ان استعاده من الاعداء، وبقي هذا الميناء في حوزة يهوذا حتى استولى عليه ملك ارام[1]. وقد يكون هدف عزيا من هذا الميناء هو إحياء النفوذ البحري الذي عرفه عصر سليمان الذي بنى ميناء عصيون جابر المجاور لايله. ولم يتحقق هدف يهوذا هذا لأنها كانت هدفا للغارات المتوالية ولم تعط الوقت الكافي لتنفيذ هذه المشاريع. والنتيجة التي يمكن الوصول إليها من محاولة بناء ميناء أيلة، هو التأكد من عدم صلاحية ميناء عصيون جابر لسبب من الاسباب، فلو كان هذا الميناء صالحا، او يمكن تجديده، لما حاول عزيا بناء ميناء جديد.

ونستنتج ايضا ان اهمالا كبيرا اصاب الحركة التجارية اليهودية بعد سليمان حتى خربت الموانىء وانعدمت السفن.

وقد ورد ان سنحاريب الآشوري وجد الأعراب «الأريبي» اثناء حملته التاسعة يدافعون عن القدس «اورشليم»[2]. وهؤلاء الأعراب هم انفسهم الذين ذكرناهم من قبل، وهذه الرواية تفيد ان حزقيا استطاع كسب العرب المجاورين الى جانبه وبذلك استخدمهم في صد الهجوم الآشوري وحملهم مسؤولية الدفاع عن العاصمة.

ومما سبق نرى ان قوة المملكة اليهودية كانت تعتمد على العناصر الأخرى، غير اليهودية، فالتقدم التجاري والصناعي اعتمد على نشاط ومساعدة الفنيقيين. وصمود اورشليم في وجه الغزاة من الخارج اعتمد على المدافعين العرب في فترات من عهد خلفاء سليمان.

---

(١) انظر سفر أخبار الأيام الثاني، ٢٦ : ٢، وسفر الملوك الثاني ١٤ : ٢٢.
(٢) انظر جواد علي، المفصل . . . حـ١ ص ٦٤٥.

العرب يقاومون تجديد بناء الهيكل:

عنـدمـا كان اليهود في الأسر البابلي، استطاع احد رؤسائهم المدعو نحميا ان يتقرب من الملك الفارسي «ارتحشتا» وأن يصبح نديمه. ويستفاد من التوراة ان نحميا استطاع في إحدى جلسات شراب الملك ان يحصل على موافقته وموافقة زوجته بالعودة الى اورشليم «القدس» وتجديد بناء سورها وهيكلها.

ولما وصل نحميا الى اورشليم ادهشه الخراب الذي اصاب السور والأبواب، وبعد ان تفـرس نحميا احوال المدينة ابلغ الولاة إرادة الملك الفارسي، كما طلب من يهود القدس مساعدته في إصلاح ما تهدم في المدينة. غير ان مشروع نحميا لم ينفذ دون معـارضـة، فقـد وقفت في طريقه معارضة قوية، اتت من تحالف ثلاثي ضم «سنبلط الحوروني» و«طوبيا العموني» و«جشم العربي»، ثم انضم الى هذا التحالف الأشدوديون عندما رأوا أسوار القدس بدأت ترتفع.

ويؤخذ من سفر نحميا ان هذا التحالف هدّد بالزحف على اورشليم ولما لم يبق من السور سوى الأبواب تلقى نحميا دعوة من سنبلط وجشم للاجتماع معا في إحدى القرى، إلا ان نحميا تخوف من هذا الاجتماع ورفض هذه المحاولات للاجتماع به اربع مرات، وفي المرة الخامسة تلقى رسالة من سنبلط جاء فيها: «قد سمع بين الأمم وجشم يقول انك انت واليهود تفكرون ان تتمردوا لذلك انت تبني السور لتكون لهم ملكا حسب هذه الامور. وقد اقمت ايضا انبياء لينادوا بك في اورشليم قائلين في يهوذا ملك. والآن يخبر الملك بهذا الكلام، فهلم الآن نتشاور معا»[1]. وقد رفض نحميا هذا العرض واعتبره وسيلة لتثبيط الهمم. ولما لم ينجح المتحالفون في القاء القبض على نحميا بالوسيلة المتقـدمة، لجأوا إلى وسيلة اخرى للخلاص منه. فقد تراسل سنبلط وطوبيا مع احد رؤساء القدس المدعو «شمعيا بن دلايا» ليساعدهما في القضاء على نحميا وايقاعه في شرك يسقط هيبته بين اليهود. وذلك باقناع نحميا ان يبيت في الهيكل خوفا من سنبلط وطوبيا، وبهذه الطريقة يفقد اليهود ثقتهم في هذا القائد، ولا يستطيع بعد ذلك تنفيذ اهدافه[2].

---

(١) سفر نحميا صح ٦: ٦-٨، انظر كذلك الاصحاحات ٤، ٥، ٦ من هذا السفر.
(٢) انظر سفر نحميا صح ٦: ١٠-١٤.

عرف نحميا ما يريده به اعداؤه فرفض كل المحاولات التي قام بها طوبيا مع بعض الاسر اليهودية التي كانت موالية له، كما لم تخف نحميا رسائل تهديده كما يقول[1].

ويؤخذ من اقوال نحميا انه تمكن من بناء السور واقامة المصاريع وتنظيم أمور المدينة وجمع شتات اليهود المسبيين اليها.

وجشم العربي كان من بين المعارضين المتحمسين، وقد رأينا في رسالة طوبيا الى نحميا قوله: «جشم يقول انك انت واليهود تفكرون ان تتمردوا لذلك انت تبني السور لتكون لهم ملكا حسب هذه الأمور». وهكذا تكون مخاوف جشم العربي لها ما يبررها، لأن مصلحة العرب والأقوام الأخرى المجاورة تكمن في عدم قيام دولة يهودية قوية تطردهم من ارض فلسطين وتغزوهم في ديارهم وتجبرهم على دفع الهدايا والهبات كما كان الحال في عهد يهوشافاط. بل تريد الأقوام المجاورة التي غزت القدس واحتلتها مرات عديدة ان تبقى الحال هكذا خوفا من الوقوع من جديد تحت حكم اليهود.

وجشم اسم من الأسماء العربية، وفي القبائل العربية قبيلة يقال لها «جشم» وهي من قبائل «بني سعد»، وهو من اسماء الرجال ايضا[2]. وربما ان هذا الاسم هو اللفظ القديم لجاسم، ويرد بصورة «جسمو» في الكتابات النبطية[3]. لم يذكر نحميا موطن جشم العربي، وذهب بعض علماء التوراة إلى انه من اهل السامرة، وذهب بعض آخر إلى انه من أهالي منطقة يهوذا في جنوب فلسطين، وكان زعيم إحدى القبائل هناك[4].

وربما ان جشم هذا هو زعيم الأعراب الذين كانوا يؤدون الجزية لشافاط، ثم هاجموا القدس، واحتلوها بعده، أو هو احد رؤساء قبائلهم الذين كانوا يسكنون الحواف الشمالية للجزيرة العربية على حدود فلسطين الجنوبية. وهذا الرأي يوافق ما ذهب اليه بعض الباحثين الذين قالوا ان (جشم بن شهروا) او (جشم بن شهر) هو جسم المذكور في التوراة، وهو احد ملوك قبيلة (قيدار او قدار) وهو الذي عارض (نحميا في سنة

---

(١) انظر سفر نحميا صح ٦: ١٥-١٩.

(٢) ابن دريد، ابي بكر محمد بن الحسن (٢٢٣-٣٢١هـ)، الاشتقاق، تحقيق وشرح، عبدالسلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، مصر ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م، ص٢٥٢ - ٢٥٣، ٣٣٦، ٣٣٩، ٤٠٥.

(٣) جواد علي، المفصل . . . جـ١ ص ٦٤٧.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

«٤٤٤ ق.م» في إعادة بناء سور أورشليم. وقد كانت قيدار مملكة تسيطر على المنطقة الممتدة من حدود يهوذا الجنوبية إلى مشارف «دلتا النيل» مشتملة على بعض الاجزاء الشمالية من الحجاز، والأجزاء الغربية من البادية(١).

ويرى البعض ان الاناء الذي عثر عليه بمصر في موضع يقع على مسافة اثني عشر ميلا غرب الاسماعيلية، وجد منقوشا عليه اسم شخص يدعى (قينو بن جسم ملك قيدار، هو ابن جسم المعاصر لنحميا. وعلى ذلك يكون احد ملوك قيدار(٢).

وربما ان هذا الرأي يعكس الآراء الأخرى التي تعرضنا لها وذلك لأن منطقة طور سيناء، كانت على الدوام مأهولة بقبائل عربية، ودليلنا على ذلك ان (القديس بولس) جعل سيناء في ديار العرب، كما جاء في رسالته الى اهل اغلاطية، وتذكر هذه الرسالة ان طور سيناء موطن ابناء هاجر، أي العرب(٣). كما نجد ان النقب ووادي عربة من مواطن الاعراب ايضا. وكانت الاعراب تحل وترحل في هذا المعبر الصحراوي، تغير على يهوذا اذا ما واتتها فرصة سانحة، وتنسحب الى الوراء نحو الصحراء موطنها الاول اذا وجدت امامها قوة تهددها، وهذه حال اعراب جشم الذي ورد ذكره في التوراة.

ذكرنا ان الحركة التجارية قد نشطت بين فلسطين والجزيرة العربية في عهد الملك سليمان. ومنذ ذلك التاريخ وهي في تقدم حتى ارتبطت دويلات جنوب الجزيرة العربية مع فلسطين، وقد عثر على مواد كثيرة ومتعددة في فلسطين تؤيد هذا، كما عثر في حضرموت على مواد استوردت من فلسطين وبلاد الشام، ولا غرو في ذلك لأن حاصلات فلسطين وبلاد الشام كانت مطلوبة لسكان الجزيرة العربية يستهلكون قسما منها، وقسما ينقلونه عبر مضيق باب المندب الى افريقيا. وكذلك كانت سلع العربية الجنوبية من اهم السلع التي يطلبها سكان فلسطين وبلاد الشام.

وكانت القوافل البرية ذاهبة آيبة بين المدن الفلسطينية ومدن العربية الجنوبية، ومن الجدير بالذكر ان اليهود في فترة نحميا ـ اي اواسط القرن الخامس قبل الميلاد ـ اخذوا

---

(١) جواد علي، المفصل .. حـ١ ص ٦٤٧.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية صح ٤ : ٣٤.

ينظرون نظرة عداء نحو العرب[1]. وقد يكون مبعث هذا العداء ما لمسه اليهود من تهديد العرب الفعلي لدولتهم، فقد تمكنوا مع الاقوام الأخرى من احتلال القدس «عاصمة يهوذا» في بعض الهجمات كما هدّدوا القدس في عهد نحميا بالتحالف مع الحوريين والعمونيين والاشدوديين «الفلسطينيين». وهكذا اصبح موقف العرب واضحا في مقاومة بعث الدولة اليهودية من جديد.

العلاقات بين الأنباط واليهود:

يرى معظم الباحثين ان الأنباط من العرب، فقد ذكرهم مؤرخو اليونان بين العرب، كما ان أسماء ملوكهم عربية، ولا عبرة لما وجد منقوشا على آثارهم باللغة الآرامية، لأن الآرامية كانت لغة الكتابة في ذلك العهد مثل اللغة الفصحى في ايامنا. ومن اسماء ملوكهم، الحارث، وعبادة، ومالك وجميله ثم إن اللهجة التي تكلموها هي اقرب إلى العربية منها إلى أية لغة أخرى، كما عاشوا في منطقة كانت موئلا للقبائل العربية التي كنا تحدثنا عنها، وتميزت بعلاقات متذبذبة مع دولة يهوذا، وكانت (العربية الحجرية) موطنهم ويقال ان بعض فروعهم عاشت في مدينة تدمر[2].

ويذهب البعض إلى أن النبط اقرب الى قريش وإلى القبائل الحجازية التي ادركت الإسلام، من العرب الذين عرفوا باسم «العرب الجنوبيين» وذلك لأن الأنباط يشاركون قريشا في اكثر اسماء الأشخاص، كما يشاركونهم في عبادة اكثر الأصنام، وخط النبط قريب جدا من خط كتبة الوحي. ويرى هؤلاء ان قلمنا الحالي مأخوذ من قلم النبط، كما يرجحون عروبتهم بوجود كثير من الكلمات العربية في النصوص النبطية المدونة بالآرامية، وهذه الكلمات عربية خالصة من نوع القرآن الكريم. لهذا السبب اعتبر النبط اقرب إلى قريش وإلى العدنانيين على حد تعبير النسابين من العرب الجنوبيين الذين تبتعد اسماءهم وأسماء اصنامهم بعدا كبيرا عن اسماء الأشخاص والأصنام عند قريش وبقية العدنانيين، اضف إلى هذا ما ورد في التوراة وما عند أهل الأخبار من أن نبايوت،

---

(١) Margoliouth, Relations..P. 48

(٢) انظر جورجي زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام، طبعة دار الهلال ص ٩٢-٩٣.
انظر كذلك جواد علي، المفصل . . . جـ٣ ص ١٤٠.

وهو نابت، هو الابن الأكبر لإسماعيل، وإسماعيل في عرف النسابين هو جد العرب العدنانيين.

ولو استعمل الأنباط لهجتهم العربية في الكتابة ولم يستعملوا الآرامية لكان بالإمكان تتبع تطور اللهجات العربية القديمة حتى اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم ولاستطعنا معرفة المراحل التي مرت بها اللهجات العربية التي لا نملك من نصوصها المدونة سوى بضعة نصوص.

وقد برزت دولة الأنباط في المنطقة التي قلنا إنها موطن الأعراب الذين هددوا القدس عاصمة يهوذا. وقد شملت مملكة الأنباط منطقة واسعة يقال إنها وصلت دمشق والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران وآدوم ومدين وحتى سواحل البحر الأحمر. وثبت ان بعض قبائل الأنباط استوطنت الأقسام الشرقية لدلتا نهر النيل وتركت لنا بعض الكتابات[١].

ولما تولى يهوذا المكابي الحكم في بلاد اليهود (١٦٦-١٦١ ق.م) حارب التيموتاس زعيم العمونيين الذي استعان في حرب اليهود بجيش من الغرباء كان بينهم العرب. ورغم هذه الجموع فقد تمكن يهوذا من الانتصار في جميع المعارك كما يقول سفر المكابيين[٢].

وقد تحدث سفر المكابيين الثاني عن حروب الدولة اليهودية مع العمونيين فقال: (ثم ساروا «اي اليهود» من هناك زاحفين على تيموتاس فتصدى لهم قوم من العرب يبلغون خمسة آلاف، ومعهم خمسمائة فارس، فاقتتلوا قتالا شديدا وكان الفوز لأصحاب يهوذا بنصرة الله، فانكسر عرب البادية وسألوا يهوذا ان يعاقدهم على ان يؤدوا إليهم مواشي ويمدوهم بمنافع أخرى)[٣].

ولعل العرب المذكورين في هذا النص والذي استعان بهم تيموتاس العموني هم نفس الأعراب الذين تصدوا للزحف اليهودي على ربة عمون[٤]. وعلى ما يظهر ان هؤلاء

---

(١) جواد علي، المفصل... جـ٣ ص ١٥.
(٢) سفر المكابيين الاول، صح ٥: ٦ وما بعدها، المكابيون الثاني صح ٨: ٣٠ صح ٩: ٣ صح ١٠: ٣٤ وما بعدها.
(٣) الإصحاح ١٢: ١٠ وما بعدها.
(٤) هي عَمّان الحالية عاصمة المملكة الاردنية، وكانت عاصمة العمونيين من قبل.

هم مجموعة قبائل بدوية كانت تجوب البادية، وذكر سفر المكابيين الأول اسم شيخ قبيلة عربية يدعى زبدائيل او (زبدايل) وكان يسكن في ديار العرب، وقد ورد في هذا الاسم اثناء حديث السفر عن فرار (إسكندر بالس) إلى ديار العرب على اثر الهزيمة التي اوقعها به (بطليموس) عمه والد زوجته. وكان قد تخاصم معه فلما وصل (إسكندر بالس) إلى ديار العرب قبض عليه زبدايل وقطع رأسه وأرسله الى بطليموس[1].

وقيل ان موطن زبدائيل هذا هو (بادية الشام) وهي المقصودة بلفظة «ديار العرب» الواردة في سفر المكابيين، ذلك لأن هذه المنطقة هي التي اطلق عليها الآشوريون بلاد «اريبي» Aribi ، وهي موطن آمن لمن يصل اليه، اذ يصعب على الجيوش النظامية ان تقاتل فيه. وقد كان زبدائيل من رؤساء البادية في هذا الزمن، اي حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وكان معاصرا لحكم «يوناتان» في بلاد اليهود[2]. ويستفاد من سفر المكـابيين ان «تـريغـون» احد قواد «إسكندر بالس» ذهب إلى رجل عربي يدعى «إيملكو إيل» وكان مربيا «لأنطيوخس بن الإسكندر» فألح عليه ان يسلمه إليه ليملكه مكان أبيه، ومكث عنده اياما. وقد تمكن عربي رغم الحقد اليهودي على العرب أن يصل إلى حكم اليهود وأن يؤسس أسرة حاكمة حكمتهم مدة من الزمن. وهذا الرجل هو (انتيباتر الأدومي) نسبة إلى ادوم، وهم سكان جبال سعير «جبال الشراة»[3].

وقد تمكن هذا الرجل بفضل المواهب التي تجمعت فيه ان يسيطر على ادوم ثم يبسط سلطانه على بلاد اليهودية حوالي سنة ٣٣ ق. م. ويقال بأن يوليوس قيصر اعترف به على اليهودية حوالي سنة ٤٧ ق. م[4].

وعندما وقعت الحرب بين يوناتان المكابي (١٦١-١٤٣ ق م) وديمتيريوس الثاني، هاجم يوناتان الأعراب من اتباع زبدائيل، وأخذ منهم غنائم كثيرة[5]. ويستفاد من التوراة ان هذه القبيلة التي كان يتزعمها زبديئيل او زبدائيل، كانت تنزل في موضع شمال غربي

---

(١) سفر المكابيين الأول، ١١: ١٥ وما بعدها.
(٢) جواد علي، المفصل . . . جـ١ ص ٦٥٠.
(٣) سفر المكابيين الاول، الاصحاح، ١١.
(٤) انظر جواد علي، المفصل . . . جـ١ ص ٦٥٠.
(٥) سفر المكابيين الثاني صح ١٢: ٣١ وما بعدها.

دمشق. ويظن بأن هناك علاقة بين اسم هذه القبيلة واسم الزبداني ـ المكان المعروف في ضاحية دمشق الغربية ـ المصيف المشهور بمياهه العذبة غرب دمشق.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن موضع هذه الأعراب ربما كانت حول خربة زبد الحالية الواقعة على الطريق بين قنسرين ونهر الفرات. وقد اشتهرت هذه الخربة بالكتابة التي عثر عليها المستشرقون في هذا الموضع، وقد كُتبت باليونانية والسريانية والعربية، ويرجع تاريخها إلى سنة (٥١١م) وقد ادخلهم يوسفوس في عداد النبط[١].

وقد اورد سفر المكابيين اسم الزعيم العربي «ارتاس» وهو الذي طرد «ياسون» من بلاده عندما التجأ اليه من الملك «انطيوخس»، وأرتاس هذا هو نفسه «الحارث» أو «الحارثة» احد ملوك الأنباط[٢].

وفي ايام «سترابون» كان العرب من جملة سكان فلسطين، وقد ذكروا في القدس ويافا والجليل. وذكر سترابون ان الأدوميين كانوا يقطنون الأقسام العربية من «اليهودية» وهم على حد قوله من النبط. ويستفاد من رواية سترابون المنقولة عن مصادر اقدم، ان العرب كانوا يقطنون فلسطين منذ الأزمان القديمة السابقة للميلاد[٣].

ويستفاد من سفر اعمال الرسل ان العرب كانوا في القدس يوم مرور الخمسين يوما على المسيح. وقد ذكر العرب في جملة سكان القدس آنذاك مع خليط من معظم شعوب العالم المعروف[٤].

وقد أورد يوسفوس أخبارا مطابقة لتلك الواردة في سفري المكابيين عن هرناكوس المكابي الذي خضع للسلوقيين وساعدهم على حرب الفرس. ولما قتل القائد السلوقي ديمتريوس عاد هركانوس ادراجه الى بلاد الشام. ويقول يوسفوس ان هركانوس فتح حلب ثم دخل فلسطين من الشمال وحاصر السامرة، ففتح نابلسن وخرب الهيكل الذي كان سنبلط السامري بناه في (طور تربل) وهدمه بعد مضي مئتي سنة على بنائه، وقتل كذلك كهنته. ثم مضى هركانوس إلى بلاد آدوم التي هي جبال الشراه، ففتح بعض حصونها

(١) انظر جواد علي، المفصل... حـ١ ص ٦٥١.
(٢) سفر المكابيين الثاني صح ٥: ٥ فما بعدها.
(٣) انظر جواد علي، المفصل... حـ١ ص ٦٥١.
(٤) سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثاني فقرة ٩ وما بعدها.

وأخربها، ولم يرفع هركانوس القتل عن سكانها إلا بعد ان طلبوا الأمان وامنهم مقابل دفع جزية قبلها هركانوس، كما الزمهم بالاختتان والتمسك بما شرعته التوراة، ويقول يوسفوس انهم قبلوا هذه الالتزامات وظلوا متمسكين بها حتى خربت القدس وتفرق العبرانيون[١].

ومن اخبار يوسفوس نرى ان اليهود كانوا لازالوا يطلقون اسم ادوم على جنوب الاردن الحالي حتى في عهد مملكة الأنباط التي ازدهرت في هذه المنطقة، وكانت تحت سيطرتها طيلة الاربعة قرون قبل الميلاد. وقد يكون اسم هريمة محرفا عن هريته بالنسخ، وهريته لفظة اعجمية لحارثة او الحارث[٢].

ولما عاد بومبيوس الى روما، قدم هركانوس وانتبطرس وشكاروس قائد الحامية الرومانية الى العرب ليدعوهم الى طاعة الرومان. وفي هذه الاثناء تمكن ابن ثالث لارسطو بولس «اسمه إسكندر» من دخول مدينة «القدس» وإعلان نفسه ملكا عليها. ولما عاد هركانوس ومن معه الى القدس هزمهم اسكندر وقتل منهم خلقا كثيرا. غير ان حكمه لم يطل لأن القائد الرومانى حاصره واضطره إلى الاستسلام والخضوع للرومان[٣].

استعان الرومان بالحارث النبطي في عهد اغسطس للقضاء على ثورات اليهود، وكان الرومان يطلقون عليه اسم ملك العرب[٤].

لم تكن علاقة الانباط العرب مع الدولة اليهودية علاقة عداء دائما، بل كانت تسود فترات سلمية، ازدهر فيها التبادل التجاري بين الجانبين، كما توطنت جاليات تجارية نبطية في مدن فلسطين الساحلية، فقد وجد العرب في غزة وشارك هؤلاء العرب في صد هجوم الاسكندر المكدوني على المدينة وهو في طريقه الى مصر، واضطر الاسكندر ان يلقي بكل ما لديه من عدة وعتاد لتخليص جيشه من هجوم العرب على مواقعه، كما لم ينج نفسه من إصابته بالجراح[٥].

---

(١) انظر تاريخ يوسفوس اليهودي، بيروت، المكتبة العمومية، المطبعة العلمية ليوسف ابراهيم صادر ص ٩٠. ومن الجدير بالذكر أن يوسفوس من مؤرخي القرن الاول الميلادي وشارك في حوادث المكابيين.

(٢) انظر جورجي زيدان، تاريخ العرب قبل الاسلام، ص ٦٨ وما بعدها.

(٣) محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من اسفارهم، نشر المكتبة العصرية للطباعة والنشر ـ صيدا ـ بيروت ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٤) انظر محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص ٣٤٦.

(٥) انظر جواد علي، المفصل . . . جـ٢ ص ٨.

وقد استمر العرب يقاومون حملة الاسكندر مدة طويلة تزيد على خمسة اشهر من عام ٣٣٢ ق.م. ويذكر بعض المؤرخين ان العرب كانوا يشغلون المنطقة من غزة حتى موضع جينوسوس Jenysus ، ويرون بأن هؤلاء العرب كانوا على اتصال دائم بعرب طور سيناء منذ القديم، وقد خضعوا لحكم ملكي[1]. وقد استوطن العرب غزة منذ اقدم الأزمنة واشتركوا مع الفلسطينيين في محاربة العبرانيين ثم استقروا فيها بوصفها تشكل نهاية طرق القوافل التجارية البرية التي كان يسلكها التجار العرب وينقلون عبرها منتوجات الحبشة واليمن والحجاز ومواضع اخرى، وبذلك كانت غزة المركز الرئيسي للتجار العرب على البحر الابيض المتوسط واليها تنتهي المحاصيل العربية، ومنها يحمل التجار العرب المنتوجات التي تصلها بحرا من الموانىء الاخرى.

وقد يتبادر الى الذهن من رواية يوسفوس ان هركانوس اخضع بلاد الأنباط وهم في اوج قوتهم، ومعلوم ان دولة الانباط ازدهرت منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وسيطرت على منطقة واسعة من جزيرة سيناء غربا وحتى حدود العراق شرقا، ومن جنوب دمشق وحتى وادي القرى جنوبا. والذي يطمئن اليه الباحث ان هجوم هركانوس على ادوم انما كان في الحقيقة، اخضاع بعض القبائل التي كانت تستوطن جبال الشراه ـ وبينها قبائل يهودية ـ ونستبعد خضوع الأنباط إذا ما علمنا ان الأنباط هدّدوا القدس عدة مرات كما ان هركانوس ابن اسكندر بن هركانوس الكبير لجأ الى الملك العربي «الحارث» ملك الأنباط وذلك على اثر دسيسة انتيبطرس وتآمره على ارسطو بولس اخ هركانوس والذي كان يكرهه إنتيبطرس، فقد اوحى انتيبطرس لهركانوس ان أرسطو ـ بولوس اخاه يتآمر على حياته ليفوز بالملك دونه، ورغّب إليه اللجوء إلى ملك الأعراب «هريمه» ليأمن على نفسه من اخيه اذا بعد عنه. وقد استجاب هركانوس لأنتبطرس الذي كان يرى فيه صديقا حميما وناصحا حكيما، وسارا ليلا إلى ملك الأعراب «هريمه» الذي تلقاهما بالإكرام. ونشط انتبطرس في تحـريض ملك الأعـراب لمحاربة ارسطوبولوس ومعاونة اخيه هركانوس على اخذ الملك، فرفض ملك الأعراب في البداية هذا العرض. ثم عاد واستجاب لغواية انتبطرس بعـد ان اشتـرط على هركانوس اعادة جميع الضياع التي كان ابوه اسكندر قد استولى

---

(١) انظر جواد علي، المفصل . . . حـ٢ ص ٨.

عليها[1]. وقبل هركانوس هذا التعهد وعاهد على تنفيذه، ثم سار هريمه العربي مع هركانوس ومعهم جيش كبير لمحاربة ارسطوبولوس الذي لاقاهم بجيش كبير ايضا، وعند اللقاء انضم معظم جند ارسطو بولوس الى جيش هركانوس حتى لم يبق معه الا القليل. ولما رأى ارسطو بولوس ذلك هرب ليلا من المعسكر وعاد إلى أورشليم وتحصن فيها. وتبعه هركانوس وملك الأعراب إلى أورشليم وحاصراها بعسكرهما ومن انضم اليهما من عسكر ارسطو بولوس، وكانت غاية معظم سكان القدس مع هركانوس، واشتد القتال وعمت الفوضى والفتن في هذه الفترة حتى آثر اكثر الناس الذين يطلبون الأمن والاستقرار إلى الهجرة إلى مصر. وقد استمر حصار المدينة حتى رفع بمساعدة القائد الروماني بمبيوس[2].

وقد يكون هريمه الاعرابي هو الحارث النبطي، الذي عاصر بمبيوس وكان ملكا عزيز الجانب احتفظ باستقلاله ودفع بمبيوس عنه بالحسنى.

وتشير بعض الروايات الى ان الاسكندر وجد في غزة بعد فتحها مقادير كبيرة من اللبان والمر والبخور وحاصلات اخرى من العربية الجنوبية، وبسقوط غزة في ايدي المكدونيين خسر العرب خسارة كبرى[3].

وقد ذكرت مدينة اسمها «جرها Gerha» تقع بقرب الخليج العربي اشتهرت بتجارة الطيب والمر والبخور[4]. ويمكن القول بأن هذه المدينة كانت مركزا تجاريا استعمله التجار العرب في تجارتهم البرية على الطريق الشرقي المحاذي للخليج العربي. ومن هذا المركز كان التجار يوزعون سلعهم نحو الشمال الى بلاد الرافدين، ومن ثم إلى الشرق نحو بلاد فارس ونحو الغرب إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وكانت القبائل الجرهمانية تتاجر مع النبط بإرسال القوافل عبر الصحارى مارة

---

(١) ربما كانت هذه الضياع تقع في ايدي اليهود من وقت لآخر لقربها من حدود فلسطين، وقد يكونوا هم الذين هددهم هركانوس، ومنهم كرسوس الأدومي الذي تزوج من أخت هيرودس وعين والياً على أدوم. انظر يوسفوس، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) انظر يوسفوس، ص ١١٥ وما بعدها. انظر كذلك شاهين مكاريوس تاريخ الاسرائيليين، مطبعة المقتطف، ص ٥٩.

(٣) انظر جواد علي، المفصل ... جـ٢ ص ٨.

(٤) انظر جواد علي، المفصل ... جـ٢ ص ١٤.

بمواضع الماء والآبار إلى دومة الجندل Dumatha ومنها إلى بطرا عاصمة النبط، والنبط كباقي العرب تجار ماهرون. وفي بطرا كان التجار يتبادلون السلع او يأخذون قسطا من الراحة ويواصلون سيرهم الى مختلف الجهات، وخاصة الى الشمال فيعبرون فلسطين الى غزة او يتجهون الى بصرى وبقية بلاد الشام، وقد كان لنشاط مدينة جرها وباقي المراكز التجارية اثر في تعريف العالم بغنى البلاد العربية مما اثر عليها اطماع اليونان والرومان بعد ذلك.

لقد كان للعلاقات التجارية وعوامل الجوار بين الانباط العرب واليهود اثارا واضحة تجلت في الجانب اليهودي اكثر منها في الجانب النبطي كما تأثروا بلغة الأنباط الآرامية.

اثر الأنباط في ديانة اليهود ولغتهم:

كان ذو الشرى واللات هما الآلهة الكبرى عند الأنباط، وكان الأنباط يجسدون ذا الشرى بحجر اسود مستطيل(١). بينما كانوا يقرنون اللات بالخصوبة والينابيع والماء(٢).

وكلمة «دوشارا» مشتقة من اللفظة العربية «ذو الشرى» والشراه هي سلسلة الجبال التي تقع بقرب البتراء ولا تزال هذه الجبال تحتفظ بهذا الاسم حتى اليوم. وتسمي التوراة هذه الجبال باسم «جبال سعير» وتصف التوراة (يهوه) بأنه اشرق من سعير انه دوشارا نفسه. وكان يهوه يقيم في بيت من الحجر(٣) يدعى احيانا ببيت إيل - بيت الله - وكانت هذه البيوت تقام على اماكن مرتفعة شبيهة بتلك التي اقيمت عليها معابد دوشارا(٤). أما كيف انتقلت عبادة دوشارا الى اليهود فيرجح ان ذلك يعود الى ان الانباط كانوا في الاصل قبيلة عربية تسكن في شمال الجزيرة العربية على طريق القوافل التجارية في الوقت الذي كان فيه اليهود يحاولون العبور الى فلسطين، فتأثروا بآلهة الأنباط، ونقلت صفات دوشارا وطقوس عبادته مع اليهود، ولم يكن يهوه إلا مثيلا لدوشارا «ذو الشرى».

لم يكن لليهودية تأثير على عبادة الأنباط والأقوام المجاورة في تلك الفترة، لاننا

---

(١) انظر فيليب حتي، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** حـ١، ترجمة الدكتور جورج حداد، عبد الكريم رافق، دار الثقافة - بيروت ص ٤٢٨.
(٢) لانكستر هاردنج، **آثار الاردن**، تعريب سليمان موسى، منشورات وزارة السياحة الاردنية ص ١٤١.
(٣) ذلك حسب رأي التوراة.
(٤) هاردنج، **آثار الاردن**، المرجع السابق، ص ١٤١.

نلاحظ ان اليهود بدلا من ان يعملوا على نشر الديانة اليهودية، اقتبسوا الطقوس الدينية للأمم الأخرى الوثنية.

اليهود في تدمر:

استدل الباحثون على عروبة سكان تدمر بأدلة مماثلة لتلك الأدلة التي ساقوها تدليلا على عروبة الأنباط[1]. وتدمر من المدن القديمة، وقد نسبت الروايات القديمة بناءها الى جن سيدنا سليمان وعنها نقل الأخباريون العرب هذه الروايات حتى تداولها الناس في الجاهلية. وقد ذكر النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي ما يفيد ذلك:

إلا سليمان إذ قال الأله له   قم في البرية فاحددها عن الفند[2]
وجيش الجن إني قد امرتهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد[3]

وربما يكون سبب هذه الروايات هو ضخامة آثار تدمر الباقية وكبر الحجارة التي بنيت منها فنسبوا بناءها الى الجن الذين اعتادوا ان ينسبوا اليهم المعجزات والأعمال الكبيرة.

ولا يفوتنا ان نذكر ان الروايات اليهودية بالغت في عصر سليمان، ومبعث هذه المبالغة هو ان حكم سليمان كان اطول من حكم اي ملك يهودي في تلك الفترة من الحكم الموحّد اليهودي، كما ان الدولة اليهودية توسعت في زمنه وانجزت من العمران اكثر من اية فترة اخرى، وقد تناقل الرواة العرب هذه الروايات على علاتها. غير ان الروايات العربية لا يُعَول عليها لأنها متأخرة فضلا عن كونها متأثرة بروايات اهل الكتاب، ومن اشهر الذين ذهبوا هذا المذهب المؤرخ اليهودي يوسفوس، الذي نسب بناء مدينة تدمر الى «جن سليمان». وقد اخذ يوسفيوس روايته هذه من التوراة.

وقد تأثرت هذه الروايات بضخامة البناء، كما لا ننسى دور المبالغة الذي مارسه الرواة اليهود المتعصبون.

---

(١) انظر ص ٨٠ من هذا الفصل.
(٢) الفند: الكفر بالنعمة والكذب ـ القاموس.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، كتاب التحرير ١٩٦٦م، حـ٢ ص ٢١٤.

وبين الإخبـاريين من ينسب بناء مدينة تدمر الى «تدمر بنت حسان بن اذينه بن السميدع بن يزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح» وذكر الرواة انه عثر على قبر «تدمر بنت حسان»(١).

لقـد اثارت بقايا تدمر دهشة العربي شأن ابن الصحراء مع كل بنيان كبير او اثر عظيم، فقال الشعر في وصفها، غير ان مثل هذا الشعر يعبر عن احاسيس الشاعر اكثر من تعبيره عن حقيقة الموصوف.

اطلق اليونـان اسم «بلميرا Palmyra» على مدينة تدمر، وقد جعل الباحثون هذا اللفظ مشتقـا من «النخيل»، ويذهبون الى ان الاسكندر المكدوني لما تغلب عليها، اطلق عليها هذا الاسم متأثرا بما شاهده من اشجار النخيل حول وداخل المدينة.

غير ان بعض الباحثين لم يأخذ بهذا الرأي، لأن رواية الإسكندر هذه تحتاج الى سند، بالاضافة الى اننا لا نملك حجة دامغة تثبت وجود النخل في تدمر في تلك الفترة، بشكل يستلزم تسمية تدمر بمدينة النخل أو «النخيل»(٢).

وقد اشارت التوراة الى اسم موضع اطلقت عليه «تامار» كحد لملك إسرائيل من الجنوب الشرقي. ويعتقد ان هذا الموضع يقع في جنوب شرق البحر الميت(٣). وذهب من اخذ بهذا الرأي الى أن «بلميرا Palmyra» هي ترجمة لكلمة «تمار» و«تمارا» وان كتّاب سفر اخبار الايام الأول التبس عليهم الأمر، فذكروا تدمر بدلا من تامار، وقالوا ان سليمان هو بانيها(٤).

وقد ورد ذكر تدمر لأول مرة حوالي عام ١٨٠٠ق.م، وكذلك ورد ذكرها في نقوش، تجلات بلازر Tiglath-pileser التي دون فيها اخبار حملته ضد العموريين حوالي ١١٠٠ق.م في رُقُم باسم «تدمر أو أمورو»(٥).

---

(١) انظر جواد علي، المفصل . . . حـ٣ ص ٧٩.
(٢) انظر جواد علي، المرجع السابق والصفحة.
(٣) سفر حزقيا صح ٤٧ : ١٩.
(٤) سفر الملوك الاول صح ٩: ١٨.
(٥) انظر نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، طبعة جامعة دمشق ص ١٢٦.

لقد ورثت تدمر مكانة بترا التجارية، وفاقتها في النشاط التجاري واكسب ذلك موقعها مكانة هامة بين القوتين العظيمتين في ذلك الزمان، الفرس في الشرق والروم في الغرب. وهذه المكانة التجارية اقتضت اهل تدمر ان ينشطوا في مجال التجارة وان يقيموا العلاقات التي يفرضها موقع مدينتهم وتقتضيها طبيعة مصالحهم التجارية.

وقد عثر على مدافن في احدى مقابر مدينة القدس عليها كتابات تدمرية تشير الى اصحاب هذه القبور. ويظن ان هؤلاء هم من جنود تدمر الذين التحقوا في الجيش الروماني اثناء حصار القدس، كما يجوز ان يكون بعضهم من التجار الذين اقاموا في هذه المدينة لخدمة اغراضهم التجارية(١).

سكنت في تدمر جاليات يونانية ورومانية ويهودية بين سكانها العرب الذين كانوا يتكلمون الآرامية، ومع الزمن اصبحت هذه الجاليات وكأنها من سكان المدينة الأصليين.

ويتعذر على الباحث تحديد الزمن الذي وجدت فيه الجاليات اليهودية في تدمر. واغلب الظن ان هذا التواجد كان قديما وتزايد مع تزايد اهمية المدينة التجارية.

ويرى البعض ان اليهود الذين اقاموا في تدمر ممن نزح عن فلسطين بعد استيلاء الرومان عليها وتدمير القدس عاصمة يهوذا على يد نبوخذنصر الكلداني.

ومهما يكن الزمن الذي نزل فيه اليهود على تدمر، فلم تكن المدينة يهودية وان نسبة بنائها الى سليمان لتخليد ذكرى انتصار والده على جوليات الفلسطيني(٢) إنما هي اسطورة كباقي الأساطير، لأن وجود تدمر سابق لزمن سيدنا سليمان، ويؤيد ذلك على الاقل نقش تجلات بلاسر الآشوري الذي جاء قبل سليمان بحوالي قرن من الزمان(٣).

لقد قامت الجالية اليهودية بالتبشير بدينها في تدمر، ولم تنجح في تهويد سكان تدمر الوثنيين. وقد اشرنا الى تأثير الأنباط الديني في معتقدات اليهود وعلى ذلك يصعب علينا ان نوافق اولئك الذين يعتقدون ان الجالية اليهودية في تدمر نجحت على الاقل في

---

(١) انظر جواد علي، المفصل ... حـ٣ ص ٨٢.

(٢) Wills, Ashort history of the world. P. 89

(٣) انظر جواد علي، المفصل ... حـ٣ ص ٨٥.

جعل التدمريين يُجلون التوحيد عن طريق آلهتهم[1]. وقد استفادت الجالية اليهودية من الحرية الدينية في عهد الملكة الزباء، فمارست شعائرها الدينية وحصلت على حقوق المـواطنة التي كانت للتدمريين، فنشطت في اعمالها التجارية وحصلت على الارباح الطائلة واستحوذت على مكانة هامة في تدمر جعلت مجلس المدينة والشعب يقيم سنة ٢٥٧ ميلادية تمثالا ليهودي يدعى (يوليوس اوريوس شلميط). قائد القافلة، وانفق عليها من ماله[2].

ونـظرا للمكـانة الهامة التي وصل اليها اليهود في تدمر في عهد الزباء، اختلف المؤرخون في تقدير عدد افراد الجالية اليهودية في المدينة، فبعضهم ذهب الى ان اليهود كانوا يشكلون نصف عدد السكان. وذهب القديس «اثناسيوس» الى القول ان ملكة تدمر كانت تدين باليهودية، ولو انها لم تبن لليهود الكنس واماكن العبادة. وقيل ان الذي هوّد الملكـة هو «بـولس السميساطي» وهو اسقف كان مقربا الى الزباء وله حظوة عندها. والجدير بالذكر ان هذا الأسقف حوكم من قبل مجمع انطاكية الذي انعقد سنة ٢٦٤، بتهمـة خروجـه على الكنيسـة بآرائـه وتعـاليمه المخالفة لآراء وتعاليم الكنيسة، فحرّم المجمع اراءه وعزله عن أسقفيته، ولم تنفذ الزباء قرار المجمع بحق هذا الاسقف وتركته على حاله[3].

وقد اختلف الباحثون في قضية تهود الزباء، فمنهم من ايد الرواية السابقة مثل المؤرخ فوتيوس ومنهم من لم يؤيدها، وهذا الفريق من المؤرخين المحدثين الذين يرون ان هذه الرواية من نسيج رجال الكنيسة الذين ارادوا الإساءة الى القديس بولس[4]. غير ان الأمر لا يحتاج الى كثير من الجدل فلو كانت الزباء يهودية حقا لعثر على ما يؤيد ذلك في خرائب تدمر بينما نجد ان المعابد المكتشفة تؤيد وثنية اهل تدمر، والناس على دين ملوكهم.

لذلك لا يعقل تصديق الرواية القائلة ان القديس بولس تأثر بأفكار الملكة الزباء لقربه منها، لأنه من غير الممكن ان يخفي مثل هذا الرجل عقيدته لو آمن باليهودية حقا،

(١) المرجع السابق والصفحة.
(٢) انظر جواد علي، المفصل ... جـ٣ ص ١٠٩.
(٣) انظر جواد علي، المفصل ... حـ٣ ص ١٠٩.
(٤) انظر جواد علي، المرجع السابق والصفحة.

وعلى ذلك من المستبعد ان يقوم مسيحي بتهويد وثني لأن المعقول ان يدعو الإنسان إلى دينه ومعتقده.

وربما كان لتسامح الزباء مع اصحاب الديانات المختلفة اثر على انتشار هذه الرواية التي يكذبها الواقع. وهذا الأمر يحدث في كل زمان ومكان، فكل اصحاب العقائد يعملون على ان تكون عقيدتهم هي السائدة وينحون باللائمة في حالة فشلهم بالوصول الى سدة السيادة على الحكام والملوك. وقد يكون هذا شأن الزباء. وقد اشارت كتب اليهود الدينية المعاصرة اشارات غير مباشرة الى تسامح الزباء معهم، فقد جاء في التلمود ما يفيد حماية الزباء للاحبار[1]. كما ورد في التلمود ما يفيد ان اليهود لم يكونوا دائما راضين عن تدمر. فقد وردت بعض العبارات التي تدل على حقدهم على تدمر، وكانوا يرجون الله ان يطيل في اعمارهم ليروا نهاية تدمر. وهذا الحبر «يوحنان» رئيس اكاديمية «طبرية» والذي عاصر حكم اذينه والزباء كان يقول «مخلد وسعيد من يدرك نهاية تدمر» هذا بالاضافة الى أن هناك بعض الأخبار التي تفيد ان كثيراً من أحبار اليهود كانوا ناقمين على تدمر والزباء لأن الأخيرة اضطهدتهم. وهذه الإشارات المتضاربة في التلمود إنما تعكس وجهات نظر متباينة خاضعة لظروف الأشخاص الذين رووا هذه الأخبار، وللزمن الذي رويت فيه، وهي على كل حال لا تفيد تهود الزباء.

لم يكن اليهود الذين استوطنوا العراق راضين عن تدمر، فهذا الحبر «يهوذا تلميذ الحبر(صموئيل)» يتحدث عن تدمر ويقول: «سيحتفل الإسرائيليون في احد الأيام، بعيد، إنه عيد هلاك ترمود، إنها ستهلك كما هلكت ثمود، وقد هلكت» وورد ان الحبر «آشه» ذكر ترمود فقال: «ترمود مثل ثمود إنهما شيئان لأمر واحد، اذا هللت احدهما قام الثاني مقامه». ويراد بترمود مدينة تدمر[2].

أشار بعض الباحثين إلى اشتراك اليهود في صفوف اعداء الزباء، سواء كانوا من الفرس او الرومان، كما قبض على عدد من الاحبار بتهمة التحريض ضد الملكة وباقي التدمريين[3].

---

(١) انظر جواد علي، المرجع السابق حـ٣ ص ١١٠.
(٢) انظر جواد علي، المفصل . . . حـ٣ ص ١١١.
(٣) انظر جواد علي، المرجع السابق والصفحة.

وقد يكون لكراهية اليهود للتدمريين اسباب غير التي ذكرناها، منها ما قيل عن آراء الزباء الفلسفية وتشجيعها الفلاسفة والكتاب مما كان له أثره على المعتقدات اليهودية في تدمر، وربما كان لهذه الآراء اثرها في طريقة التفكير عند اليهود في تدمر، فأحدث هذا التفكير استنكار الأحبار التقليديين وخاصة بين جموع يهود العراق المتدينين، فصبوا جام غضبهم على تدمر والتدمريين ووصموهم بتهمة نشر الأفكار الإلحادية.

ونتيجة لسياسة التسامح التي اتبعها ملوك تدمر انتشر الزواج المختلط بين الطوائف المختلفة بما في ذلك الطائفة اليهودية مما أوجد جيلا جديدا لم يتقيد بتقاليد اليهود وديانتهم وادّى بالتالي الى حقد المتدينين من اليهود[1]. ويمكن ان نضيف العامل القومي الى مجموعة الأسباب التي جعلت يهود العراق يكرهون اهل تدمر. فقد كره العراقيون الموالون للفرس تحالف التدمريين مع الرومان وساءهم هذا الموقف، وكان كذلك موقف التدمريين من أهل العراق لتحالفهم مع الفرس الذين اسروا القيصر فالريانوس قيصر الروم حلفاء تدمر. وقد لحق الجاليات اليهودية ضررا نتيجة هجوم الملك اذينه على العراق بمساعدة الروم، سيما اولئك الذين كانوا يقيمون على الفرات في طريق القوافل التجارية، وكان اليهود يعتمدون على التجارة في تحصيل رزقهم والاضطرابات السياسية كانت تعطل عليهم مشاريعهم التجارية وتحد من ارباحهم التي اعتادوا أن يجنوها من تجارتهم بين الفرس والروم في العراق وبلاد الشام، وفقدت الجاليات اليهودية استقلالها الذي تمتعت به إبان ازدهارها التجاري، لا سيما عندما استولى اذينه بن السميدع على شواطىء الفرات[2].

وهناك خلاف في تحديد الاتجاهات الدينية للملكة الزباء، فبينما يرى البعض انها نصرانية على دين المسيح ذهب بعض آخر الى انها لم تكن نصرانية ولا يهودية وانما كانت بين بين، وقال آخرون إنها متدينة ترى الله والكون كما يراهما الفيلسوف[3].

وكما اختلف المؤرخون في تحديد الاتجاهات الدينية للملكة الزباء، اختلفوا في

---

(١) انظر جواد علي، **المفصل** . . . حـ٣ ص ١١١.
(٢) المرجع السابق نفسه والصفحة.
(٣) المرجع السابق والصفحة.

تحديد اصل الزباء، فذهب البعض الى انها رومية الاصل تتكلم العربية[1] وذهب فريق آخـر إلى انهـا مصرية، وبعض آخر قال إنها من العماليق، وربما كان هؤلاء متأثرين بالمصادر العربية. ويقول عنها المؤرخ اليهودي «كريتس» انها ادومية من نسل «هيرودس» وانها على دين يهود. ورأى آخرون انها من أب عربي ولكنها من دم مصري من ناحية الأم، غير ان اكثريتهم يرون انها عربية[2].

والـذي اراه ان سبب الاختلاف في تحديد جنسية الزباء واتجاهاتها، يعود لفقر الأدلـة التـاريخية التي يمكنها وحدها حسم هذ الخلاف. وحتى تكتشف هذا الوثائق ستبقى هذه الآراء متضاربة.

---

(١) انظر المسعودي، مروج الذهب حـ١ ص ٢٥٩.
(٢) انظر جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٠١.
أنظر كذلك جواد علي، المفصل . . . حـ٣ ص ١١٢.

الفصل الثالث:

اليهود في جزيرة العرب

- ★ بداية الوجود اليهودي في جزيرة العرب.
- ★ مواطن اليهود في شمال الجزيرة العربية.
- ★ اليهود في يثرب.
- ★ اليهود في تيماء وفدك ووادي القرى وخيبر.
- ★ البطون اليهودية في بلاد الحجاز.
- ★ اليهود في اليمن.
- ★ مذبحة نجران وآثارها.

الفصل الثالث

اليهود في جزيرة العرب

بداية الوجود اليهودي في جزيرة العرب :

تتبـاين آراء البـاحثين في تحديد بداية الوجود اليهودي في الجزيرة العربية وتبعا لهذا التباين، فقد رأى بعضهم ـ من المحدثين ـ تقسيم تاريخ اليهود في جزيرة العرب الى فترتين أو دورين[١] .

الدور الأول : لا تحديد لبداية هذا الدور، انما ينتهي بالقرن الخامس قبل الميلاد، ومن مميزات هذا الدور ضعف العقيدة الدينية عند اليهود بدليل عدم سيطرتها على الحياة العامة في المجتمع اليهودي ، وتبدل معبودات اليهود بين الحين والآخر.

الدور الثاني : وهي الفترة بعد السبي البابلي وحتى خروج اليهود من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ويتميز هذا الدور ببروز العقيدة الدينية الى المقام الاول في التفكير اليهودي وامتزاج الفكر الديني بالشعور القومي والسياسي.

ويرى باحثون آخرون تقسيم تاريخ اليهود في جزيرة العرب تبعا للمادة التاريخية المتعلقة بهم، فيرون تقسيم تاريخهم الى ثلاث فترات[٢] .

الفترة الأولى : وهي الفترة القديمة التي تعود الى ما قبل التاريخ ، والحديث عن هذه الفترة مستمد من بعض الاشارات الواردة في موضوعات من الصعب اثباتها علميا.

---

(١) انظر إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١ .
(٢) Margolioth, "relations..." P.1

الفترة الثانية : وهي الفترة التي خلف بها اليهود بعض الآثار الكتابية ابتداء بالتوراة كتاب اليهود المقدس وانتهاء باعمال المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي .

الفترة الثالثة : وهي الفترة التي تتناولها المصادر الاسلامية وتروي احداثها ابتداء من العهد الجاهلي ، وهذه الفترة غنية بمصادرها . وهي الحقبة الوحيدة التي يكون الحديث عنها حديثا تاريخيا . ذلك ان اليهود عاشوا هذه الفترة مع العرب جنبا الى جنب فسهل على الباحثين تتبع اخبارهم .

على الرغم من صعوبة الحديث عن تاريخ اليهود في جزيرة العرب حديثا علميا كلما اوغلنا في القدم ، الا انه يمكن القول بقدم علاقاتهم بالجزيرة العربية للأسباب التالية :

١ - يستبعد الباحث ان تبقى الجموع التي قادها سيدنا موسى وخلفاؤه من مصر الى فلسطين موحدة ومتماسكة ، فلا بد من وجود جماعات من هؤلاء كرهت الحرب التي قادها موسى واتباعه في طريقه الى فلسطين وسئمت الصعوبات والعذاب وفضلت الانفصال عن هذه الجموع والبحث عن مكان آمن تجد فيه بعض الراحة ، سيما وان شمال الجزيرة كان مسرحا لتحركات جموع سيدنا موسى عليه السلام . ويعزز هذا الرأي كون هذه الجموع اخلاطا مختلفة الجنس هاربة من ظلم الفراعنة . باحثة عن مكان تعيش فيه بسلام . وشمال الجزيرة تتوفر فيه شروط الراحة التي يبحثون عنها .

٢ - عدم تأثر غالبية هذه الجموع الزاحفة خارج مصر بالديانة الموسوية بدليل تبديل هذه الجموع معبوداتها بين الحين والآخر ومخالفاتها المستمرة لسيدنا موسى وأخيه هارون . ذلك لان الديانة اليهودية لم تحتل المكانة الاولى في الفكر اليهودي الا بعد السبي البابلي ، حيث اصبح هذا الفكر العامل الحاسم في تكوين القومية اليهودية على اساس ديني . كما امتزج الدين اليهودي بالعوامل الوطنية والسياسية .

٣ - تأييد الاخباريين العرب لوجود يهود في جزيرة العرب منذ عهود قديمة ترجع الى زمن موسى عليه السلام . لقد ذكر الاخباريون العرب رواية ملخصها ان سيدنا موسى ارسل جيشا لتأديب العمالقة الذين كانوا يسيطرون على شمال الجزيرة العربية بما فيها موضع المدينة ومكة ، وأمر الجيش ان لا يبقى من العماليق ذكرا بلغ الحلم ، وقد نفذ

الجيش الوصية، ولم يبق من العماليق الا ولدا للأرقم بن ابي الارقم ملك العماليق، استحسنه قادة الجيش لجمال صورته وحسن اخلاقه، وقدموا به على سيدنا موسى، غير ان موسى عليه السلام توفي قبل وصولهم اليه. ولما علم اتباع موسى ان الجيش قد خالف الاوامر وأبقى على حياة احد العماليق، رفض السماح للجيش العائد بالسكن في بلادهم. ولما عجز قادة الجيش في اقناع هؤلاء بالعيش بينهم، فضل الجيش العودة الى البلاد التي أتوا منها، اي بلاد الحجاز، وكانت اذ ذاك «أشجر بلاد الله وأكثرها ماء» وكان أفراد الجيش الموسوي قد استطاب الحياة فيها. وتقول الرواية ان هذا التاريخ هو اقدم تاريخ لوجود اليهود في بلاد الحجاز[1].

وعلى الرغم من ان هذه الرواية ومثيلاتها أقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة فلا بأس من التعرض لها، لان الحقيقة التاريخية قد تختلط بالخرافة في كثير من الأحيان. وأمامنا عدة احتمالات لأصل هذه الرواية.

الاحتمال الأول : ان تكون الرواية تناقلها الرواة منذ ايام سيدنا موسى وفيها شيء من الصحة.

الاحتمال الثاني: أن يكون اليهود قد دسوها فيما بعد لتبرير دعواهم بقدم سكناهم الجزيرة العربية من جهة وانتسابهم الى الأنبياء من جهة أخرى[2].

لم يكن سكن جماعات في شمال الجزيرة العربية بين الحين والآخر حدثا فريدا، وذلك لأن هذه المنطقة استقبلت في مرات كثيرة اناسا توجهوا نحو الجنوب نتيجة ضغط الشمال منذ عهد الامبراطوريات القديمة، من بابلية وأشورية وآرامية وكنعانية وغيرها، وكانت هذه الدول تتطاحن فيما بينها تارة وتارة اخرى تسيطر دولة على سوريا والعراق وتغزو الامبراطورية المصرية. كما ان المصريين كانوا يغزون بلاد الشام كلما شعروا بالقوة. وكان شمال الجزيرة العربية قريبا من مسرح الاحداث ولا بد ان تستقر فيه بعض الجماعات.

---

(١) انظر ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني، طبعة دار الكتب المصرية حـ ١٩ ص ٩٤.
أنظر كذلك ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، طبعة الخانجي حـ ٧ ص ٤٢٧. السمهودي، **وفاء الوفاء بأخبار المصطفى**، تحقيق محي الدين عبدالحميد دار احياء التراث العربي - بيروت حـ١ ص ١٥٩. الحافظ الشيخ محمد بن محمود بن النجار، **الدرة الثمينة في تاريخ المدينة** - ملحق بكتاب **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، طبعة البابي الحلبي ١٩٥٦م ص ٣٢٤.
(٢) انظر جواد علي، **المفصل** . . . حـ٦ ص ٥١٧.

كان سكن جماعات من الأخلاط الذين قادهم سيدنا موسى من هذا القبيل، ولذلك لم تخلف هذه الجماعات اي أثر يدل عليها. وذهب بعض الباحثين الى اعتبار هذه الجماعات بائدة كقوم عاد وثمود. ويعزز هذا الرأي ان الجماعات المشار اليها لم تكن تحمل في تفكيرها عقيدة دينية راسخة وليس لها اغراض قومية او سياسية او اقتصادية. لهذا انصهرت هذه الجماعات في البيئة العربية القبلية واندثرت معها.

وبناء على ما تقدم نرى ان الرواية السابقة متأخرة عن عهد سيدنا موسى ومن ابتداع الكيانات التي برزت في شمال الجزيرة العربية بعد القرون الأولى الميلادية. وذلك لربط نسبهم بسيدنا موسى من جهة، ولربط صلة هذه الكيانات بتاريخ الجزيرة العربية من جهة اخرى، كما يمكن ان يكونوا قد قصدوا ابراز تضحياتهم وشجاعتهم في سبيل عقيدتهم.

وهذه الاستنتاجات تساير المفاهيم التي سادت الكيانات اليهودية سواء كان ذلك لخدمة الأغراض الدينية او الاقتصادية او القومية وعلى أي حال لم يكن لهذه الاقوام اي أثر في شمال الجزيرة العربية وأغلب الظن ان هذه الجماعة قد ذابت في محيط البداوة العربية. ولو كان الامر غير ذلك لورد لها ذكر عند المؤرخين الرومان او اليونان او ذكرها المؤرخون القدامى امثال فيلون المصري[(١)] ويوسفوس اليهودي[(٢)] ولما أغفلها كتاب التلمود.

ذهب بعض المؤرخين الى القول بوجود هجرات مستمرة بين فلسطين والجزيرة العربية مستندين في آرائهم على ما ورد في التوراة من اشارات متعددة حول وجود صلات تجارية ابان قيام الدولة اليهودية في فلسطين وقبل السبي البابلي ٥٨٦ ق.م. [(٣)]

لقد المحنا الى هذه الصلات في الفصل السابق، وأتينا على تبيان العلاقات الاقتصادية بين الدولة اليهودية في فلسطين والاقوام العربية المجاورة، وخاصة في عهد الملك سليمان بن داوود.

ويهمنا من هذه الملاحظات الواردة في الكتاب المقدس تلك الاشارات المتعلقة ببطون بني شمعون والتي اتخذت دليلا على وجود هجرات يهودية قديمة الى جزيرة العرب[(٤)].

---

(١) من مؤرخي القرن الثالث قبل الميلاد.

(٢) من مؤرخي القرن الاول الميلادي.

(٣) انظر سفر حزقيا، ٢٧ : ٢١-٢٤، الملوك الاول ٩ : ٢٦-٢٨، صموئيل الاول ١٥، وقد وردت اشارات متعددة في الكتاب المقدس لأماكن عربية، يستفاد منها قدم الصلات بين فلسطين وبلاد والعرب.

(٤) سفر أخبار الأيام الأول ٤ : ٣٨-٤٣، قضاه ١ : ٣، يوشع ١٩ : ١-٩ أخبار الأيام الأول ٤ : ٢٨.

يستفاد من الاصحاحات التي أتت على ذكر بني شمعون أنهم استوطنوا جنوب فلسطين في منطقة بئر السبع، ويظهر ان هذه الأقوام كانت تملك المواشي وترتحل من مكان الى آخر طلبا للماء والعشب كما هي عادة القبائل البدوية. وقد ذكرت هذه الاصحاحات بعض المدن التي قيل انها لبني شمعون.

ان رواية الكتاب المقدس هذه نوقشت من قبل بعض الباحثين الذين تعرضوا لتاريخ اليهود القديم في بلاد العرب، وتباينوا في الآراء، فبعضهم ينكر وجود بني شمعون جملة وتفصيلا، وذلك لعدم ورود ما يؤيد رواية العهد القديم في مصادر اخرى.[١]

ويستبعد ولفنسون هجرة البطون الشمعونية الى سيناء وبلاد معين وذلك لان هذه الاماكن قاحلة، ولا تصلح مستقرا للرعاة، وحتى لو تمت هذه الهجرة فلا يمكن ان تكون كافية لان يقطع الشمعونيون علاقاتهم مع فلسطين ولا يعودون اليها مرة اخرى. ويمضي ولفنسون فيقول «انه في حالة افتراض صحة وقوع هذه الهجرة كما تحدث عنها العهد القديم فلا بد ان يكون تاريخ حدوثها حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد، اي بعيد دخول اليهود كنعان بمدة وجيزة حين كان اليهود على بداوتهم ولا يهتمون بتسجيل حوادث تاريخهم»[٢].

واذا كان ولفنسون يتشكك في حدوث الهجرة الشمعونية فهو لا ينكر وجود بطون بني شمعون ذات المدن المتعددة في جنوب فلسطين[٣].

والذي أراه ان كتّاب العهد القديم التبس عليهم الأمر فخلطوا في حديثهم بين بني شمعون والأشمونيين، ولذلك وقعوا في تناقض يجعل الباحث يشك في هذه الرواية للأسباب الآتية:

١ - قيل إن بطون بني شمعون هاجرت طلبا للمرعى، كما قيل ان هذه البطون كانت لها اثنتا عشرة مدينة في جنوب فلسطين[٤]. فكيف يمكن التوفيق بين بداوة هذه الأقوام وتملكها المدن؟

---

(١) انظر ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العرب**، ص ٤ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) المرجع السابق.
(٤) سفر يوشع بن نون ١٩ : ١-٩، أخبار الأيام الأول ٤ : ٢٨.

٢ ـ لم يذكر الاخباريون العرب شيئا من اخبار هذه البطون مع العلم ان المؤرخين الغربيين بشكل عام يعتمدون هذه الروايات للتدليل على قدم علاقة اليهود ببلاد العرب(١).

٣ ـ نسب العهد القديم الى هذه البطون تغلبها على المعينين وهذا القول لا يمكن التسليم به، لان المعينيين وصل نفوذهم دمشق ولا يمكن لقبائل بدوية ان تقهر هذه الدولة بالسهولة التي رواها كتاب العهد القديم، هذا من جهة، ومن جهة اخرى لا يمكن القضـاء على الدولة المعينية الا باحتلال عاصمتها قرنا في اليمن. وهذا لم يذكر في العهد القديم.

وبنـاء على ما تقدم فان رواية العهد القديم هذه حول الشمعونين انما هي لا تعدو الاشارة إلى علاقة القبائل الأشمونية في يهوذا مع القبائل البدوية العربية التي تسكن في جبال الشراة «جبال سعير» على حدود مملكة يهوذا وكانت المناوشات بينهما لا تنقطع أبدا.

ويعزز هذا الرأي، ان المؤرخين الرومان واليهود القدامى لم يشيروا الى هذه الحادثة، بل نجد أن «بلينوس» يقول عن أهل معان أنهم على جانب عظيم من القوة والبطش(٢).

وقد ورد ذكر أمة المعونيين في أقدم آثار بابل بين أخبار نارام سن ٣٧٥٠ ق. م على نصب عليه نقوش مسمارية جاء فيها ان نارام سن حمل على معان «في جزيرة سيناء» وقهر ملكها معنيوم Manulm «والميم للتنوين في البابلية» وأنه اقتطع حجارة من جبالها حملها إلى مدينة أكاد، ونحت حجرا منها نقش عليه خبر هذا الفتح(٣).

وقد يتبادر الى الذهن ان علاقة البطون الشمعونية كانت مع هذه الأقوام المعونية في سيناء، وهذا أقرب للعقل وموافق لما ورد في العهد القديم من دخول الشمعونيين سيناء، غير أن الصعوبة التي تقف في طريق تصديق هذه الرواية انها قديمة، فأخبار نارام سن تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، بينما أخبار بني اسرائيل في هذه المنطقة لا تعدو الألف الثاني قبل الميلاد على أبعد تقدير.

(١) لقد استشهد بهذه الروايات معظم المؤرخين الغربيين من امثال، مارجليوث في مصنفه «**العلاقات بين العرب واليهود قبيل الاسلام**»، وغوتة في كتابه «**العرب واليهود**»، وبارون ـ المؤرخ اليهودي ـ في كتابه **تاريخ اليهود الاجتماعي والديني**، وكذلك فعل دوزي وجلازر ونولدكه وجولد زيهر وديورانت وغيرهم.

(٢) Margoliouth, Relations.. P.51

(٣) انظر جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٣٣.

يرى المستشرق مارجليوث ان المعينيين أقاموا لهم بعض المستعمرات في شمال الجزيرة العربية واتخذت هذه المستعمرات ملوكا لها، ويعتقد ان هجوم القبائل الشمعونية كان على هذه المستعمرات، ويرجح أن ذلك وقع في عهد حزقيا الذي حكم يهوذا من سنة ٧١٧ ـ ٦٩٠ ق.م[١].

لم يرد أي ذكر لهذه الحادثة في النقوش الكثيرة التي عثر عليها «هاليفي» و «جلازر» في بلاد اليمن، ولذلك ستبقى هذه الحادثة غامضة ما لم تجلوها مكتشفات جديدة. وحتى لو صح دخول بطون شمعون شبه جزيرة سيناء فان هذا لا يعني هجرات يهودية الى جزيرة العرب كما هو واضح.

إن الهجرات اليهودية من فلسطين الى خارجها كانت تتوقف على أوضاعها السياسية والأمنية، وتبعا لذلك كانت جماعات اليهود تخرج من فلسطين الخصيبة والتي تفيض لبنا وعسلا في حالة هجوم عدو خارجي عليهم لا يستطيعون ردّه، أو في حالة حدوث فتنة داخلية وحروب أهلية تضطر البعض الى طلب النجاه والفوز بالأمن والطمأنينة في بلاد غير فلسطين.

وهناك من يربط بين وجود اليهود في جزيرة العرب بحادث هجوم نبوخذ ـ نصر على فلسطين وسبي يهوذا في القرن السادس قبل الميلاد.

وهذه الحادثة التاريخية جديرة بالاهتمام، وذلك لأن يهود السبي الذين حملهم نبوخذ نصر الى بابل كانوا على جانب عظيم من النشاط، ونجحوا في انشاء بعض المراكز العلمية والاجتماعية في بلاد العراق.

وقد تسرب بعض هؤلاء اليهود البابليين الى العربية الشرقية واستقروا على سواحل الخليج العربي وأقاموا في البحرين، وتاجروا مع سكان هذه المنطقة وامتدت تجارتهم الى داخل الجزيرة العربية.

ونتيجة لهجوم نبوخذ نصر هذا لجأ بعض اليهود الى بلاد الحجاز القريبة، وأقاموا فيها. وقد ذكرت بعض الروايات العربية ان اليهود نزلوا في نواحي الحجاز في وادي

---

(١) Margoliouth, Relations...P. 51.

القرى وتيماء وخيبر ويثرب وكان فيها قوم من جرهم[1] وهذه الرواية مقبولة تعززها احوال اليهود بعد حوادث السبي وما أصيبوا فيها من فزع ورعب دفعهم الى طلب السلامة في أقرب أرض، وبلاد الحجاز قريبة آمنة عرفها اليهود في تجارتهم، وربما سبقتهم إليها بعض الجاليات اليهودية التي تعمل بالتجارة.

ويهمنا ان نتذكر أن هؤلاء اليهود الهاربين من نبوخذ نصر يختلفون عن سابقيهم، أولئك الذين ذكرتهم الروايات السابقة في معرض ذكر استيطان اليهود جزيرة العرب، نظرا لأن هؤلاء مواطنون يهود حقا. فهم يمثلون اليهود دينيا واجتماعيا بحكم عيشهم المشترك في ظل حكم واحد وتشريع واحد منذ خلفاء سيدنا موسى وحتى حوادث السبي. واذا اضفنا الى ما تقدم ما احرزته فلسطين من تقدم حضاري منذ عهد الكنعانيين، والرخاء الاقتصادي والجمال الطبيعي الذي تمتعت به فلسطين منذ أقدم الأزمنة ونعم به اليهود فترة من الزمن ليست بالقصيرة، اذا تذكرنا كل هذا نجد التفسير للتعصب الديني والوطني عند يهود السبي.

إن علينا أن نتذكر هذه الملاحظة جيدا لأنها ستفسر لنا العقلية اليهودية المتبدية في التوراة والتلمود والمدراش، كما ستساعدنا على فهم كثير من المواقف اليهودية فيما بعد.

وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين الى القول بأن اليهود كانوا في جملة من كان في جيش «نبونيد» يوم جاء إلى تيماء، فأقاموا فيها وفي مواضع اخرى من الحجاز بما في ذلك يثرب. وقد استوطن اليهود منذ ذلك التاريخ هذه البلاد وانتشروا الى وادي القرى وأماكن اخرى الى مجيء الاسلام. والضعف في قول هؤلاء الباحثين هو أن نبونيد لم يشر في اخباره المدونة الى وجود اليهود في جيشه، كما لم يشر إلى إسكان يهود في هذه المناطق كما أننا لم نعثر على كتابات تتحدث عن هذا العهد او عن العهد الذي سبقه او الذي يليه، ولذلك لا نستطيع تعزيز هذا الكلام بدون نصوص وكتابات[2].

---

(١) انـظر البلاذري، فتوح البلدان، مطبعة السعادة ١٩٥٩م، ص ٢٩. انظر ايضاً الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق ابي الفضل ابراهيم، دار المعارف، حـ١ ص ٥٣٩. الأصفهاني، الأغاني، ١٩/٩٤. ابن الأثير «أبو الحسن علي بن ابي الكرم»، الكامل في التاريخ، دار الفكر ـ بيروت حـ١ ص ٤٠١. ابو الفدا «عماد الدين إسماعيل»، المختصر في اخبار البشر، دار المعارف ـ بيروت حـ١ ص ١٢٣. ابن خلدون، تاريخ، دار الكتاب اللبناني، حـ٢ ص ٥٩٤.

(٢) انظر جواد علي، المفصل حـ٦ ص ٥١٣.

غير أن هذا لا ينفي احتمال وجود يهود في هذه الديار وفي هذه الفترة او قبلها كما أسلفنا، وانما قصدنا عرض الروايات المختلفة للاخباريين، لاننا لا نملك الأدلة العلمية الدامغة على وجود يهود في الفترة التي وجد فيها نبونيد أو نبوخذ نصر وما قبلها. ولا شك في ان التوراة والقصص اليهودية التي تناقلها اليهود عن قصد أو عن غير قصد هي مصادر روايات الاخباريين وذلك لان مؤرخي العرب لم تكن لهم كتب لمتقدميهم في ذلك، وإنما عولوا في أخبارهم المتعلقة بالتاريخ اليهودي وبالعلاقات بين العرب والاسرائيليين على ما ورد في أسفار الكتاب المقدس، ونخص بها تلك الاشارات الواردة في سفر العدد والتي تتحدث عن حروب بني اسرائيل والمديانيين والأموريين وغيرهم ويتوسعون في ذلك الى أرض الحجاز ويخلطوا اخبارهم بشيء من الخيال العربي دونما سلطان أتاهم(١).

ويستفاد من الروايات اليهودية حرص اليهود على اثبات قدمهم بأرض الجزيرة العربية. فهذا شاعر بني يفيف اليهودي يقول:

ولو نطقت يوما قباء لخبرت ... بأنا نزلنا قبل عاد وتبع
وآطامنا عادية مشمخرة ... تلوح فتنعى من يعادي ويمنع(٢)

ومن هذين البيتين يتضح ان اليهود يدّعون وجودهم في الجزيرة قبل عاد وثمود، أي قبل التاريخ، ولا شك ان مصادر الاخباريين اليهود هي نفسها مصادر الاخباريين العرب مع فارق ان اليهود كانوا يدركون اهدافهم وأطماعهم بينما كان الاخباريون العرب يروون اخبارهم بسذاجة وبساطة وبراءة، وخاصة في حديثهم عن اليهودية وتاريخها.

إننا لا نجد مصدرا يتحدث عن وجود اليهود في الجزيرة العربية في الفترة بين السبي البابلي ٥٨٦ ق.م وبين خراب القدس في زمن الرومان، اللهم الا بعض الاشارات الواردة عن علاقة المكابيين بالأنباط والأقوام العربية المحيطة بفلسطين، وقد تحدث عن هذه العلاقات المؤرخ اليهودي يوسفوس ولم يذكر شيئا عن وجود يهود في جزيرة العرب.

---

(١) انظر الأغاني، حـ١١ ص ٩٤.
(٢) ابن خلدون، تاريخ، طبعة المغرب ـ فاس ١٩٣٦م، حـ٢ ص ٣٢.

واعتمادا على آراء المؤرخين العرب، يمكننا القول بأن هجرات يهودية قدمت الى شمال الجزيرة العربية بعد القرن الأول الميلادي على أثر تخريب الرومان لأورشليم.

يقول المؤرخ اليهودي شاهين مكاريوس: «بعد خراب اورشليم انتهى تاريخ الاسرائيليين كافّة، فانهم بعد هذا الخراب تفرقوا في جميع بلاد الله وتاريخهم في ما بقي من العصور ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوها او نزلوا فيها»[1]. ويضع ولفنسون[2] مجموعة من الأسباب لهجرة اليهود من فلسطين الى جزيرة العرب، ومن هذه الأسباب.

١ ـ ازدياد سكان فلسطين الذي زاد على أربعة ملايين ولم تعد البلاد قادرة على استيعاب المزيد، فخرج اليهود طلبا للعمل في ما حولهم من بلاد كمصر والعراق والجزيرة العربية.

٢ ـ الغزو الروماني وما تبعه من اضطهاد لسكان فلسطين وما نتج عنه من حروب وثورات داخلية متعددة.

إن سكان فلسطين كانوا على اتصال بالبلاد التي تجاورهم وأقاموا معهم العلاقات التجارية وتأثروا بهم وأثروا فيهم. ولا يستبعد ان تكون بعض الجاليات التجارية اليهودية قد أقامت في المراكز التجارية خارج فلسطين. وذلك لان هذه الاقامة تلائم طبيعة العمل التجاري، وهو أمر شاهدناه عند الأمم التجارية على مر العصور. واما قول ولفنسون بان عدد سكان فلسطين قد بلغ اربعة ملايين فقول يفتقرالى الدليل، اذ لم تكن هجرة اليهود في اعقاب تدمير القدس هجرة طبيعية وانما كانت هروبا من القتل والاضطهاد. كما ان الاقتصاد الفلسطيني كان احسن حالا من الاقتصاد في البلدان المجاورة بما فيها الجزيرة العربية. ويظهر هذا جليا من وصف اخبار الملوك في التوراة للحالة الاقتصادية في زمن سليمان ومن أتى بعده.

وعلى ذلك لا يمكن اعتبار الضغط السكاني سببا من اسباب هجرة اليهود، بل الصحيح ما كنا ذكرناه من ان هجرات اليهود لها علاقة باوضاع فلسطين السياسية في

---

(١) تاريخ الإسرائيليين، مطبعة المقتطف ص ٧٧.
(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٠.

عهدهم. ومن الجدير بالذكر ان الاسرائيليين لم يعرفوا الاستقرار السياسي، كما فشلوا في اقامة علاقات تجارية مع جيرانهم. وبهذا المعنى يقول غوستاف لوبون: «فقد أسفرت غرائزهم في النهب والسلب، وقد أسفر تعصبهم عن عدم احتمال جيرانهم لهم. فلم يشق على هؤلاء الجيران ان يستعبدوهم، ثم إن اليهود عاشوا عيش الفوضى الهائلة على الدوام تقريبا، ولم يكن تاريخهم الكئيب غير قصة لضروب المنكرات»[1].

ويجب ان لا يغرب عن البال ان هجرة اليهود من فلسطين لا تقارن بهجرة الشعوب السامية من الجزيرة العربية مثلا. وذلك لأن الهجرة الى خارج الجزيرة العربية كانت طبيعية بعد تعرض البلاد للقحط والجفاف واحتياج المهاجرين الى بلاد فيها العشب والماء، بعد ان كاد سكان الجزيرة العربية يفتقدون هذه المواد الاساسية في حياتهم نتيجة الزحف الصحراوي وتغير المناخ. كما ان هذه الهجرات لا ترتبط بسنة بعينها بل كانت مستمرة دون انقطاع.

لذلك فان سبب اتجاه بعض اليهود الى شمال الجزيرة العربية يعود الى كونها قريبة من يهوذا التي هاجمها الرومان من الشمال، فكان من الطبيعي ان تتجه جموع اليهود الهاربة من وجه الجيوش الرومانية نحو الجنوب، فعبر قسم من هذه الجموع الى مصر واستقر بعضها الآخر في مواضع متعددة من شمال الجزيرة.

وهذا الرأي لا ينفي وجود علاقات سابقة لليهود بهذه المراكز التي أقاموا فيها كما لا يمنع من وجود بعض جاليات يهودية فيها وعلى أي حال لا يمكن ان يعتبر وجود هذه الجاليات في هذه المواضع السبب الأول الذي جعل الجموع اليهودية تتجه إليها.

---

(١) **اليهود في تاريخ الحضارات الاولى**، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة البابي الحلبي، ص ٢١.

مواطن اليهود في شمال الجزيرة العربية :

استوطن اليهود في الأماكن الواقعة على الطرق التجارية والمشهورة بمياهها وخصوبة ارضها في شمال غرب شبه جزيرة العرب. فقد امتدت اقامتهم من «جربا» الواقعة في الشمال الشرقي من «أيله» «العقبة» نحو الجنوب حيث نجد جماعة منهم استوطنت «مقنا» بقرب أيلة باتجاه الجنوب الشرقي، ثم نجد مستوطناتهم تمتد نحو الجنوب الى تيماء وفدك ووادي القرى وخيبر، وأخيرا نجد أن أكبر تجمع لهم كان في يثرب(١). وانتشرت جماعات يهودية أخرى في أماكن متفرقة من الجزيرة العربية.

اليهود في مكة :

لم يشر أهل الأخبار الى وجود يهود في مكة كما كان الحال في يثرب ويتساءل الباحث من عدم وجود جاليات يهودية في هذه المدينة التي كانت تعتبر قلب الجزيرة العربية النابض بالحركة التجارية. إن ابتعادهم عن مكة يجعلنا نشك في قدرتهم على مسايرة قريش في مجال التجارة فآثروا السكن في أماكن أخرى لم يشتهر أهلها بالبراعة التجارية. كما لا يستبعد ان يكونوا قد آثروا عدم الاحتكاك مع السكان المحليين.

وقد وردت بعض الروايات عند المؤرخين العرب تفيد بان زعماء قريش لم يكونوا ليسمحوا لغير بني مدينتهم بالاتجار في مكة، وإذا حدث ان قدم غريب بتجارة إليهم كانوا يمطلونه حقه(٢). وربما لجأت قريش الى هذا الاسلوب في تعاملها للحفاظ على زعامتها التجارية في بلاد العرب.

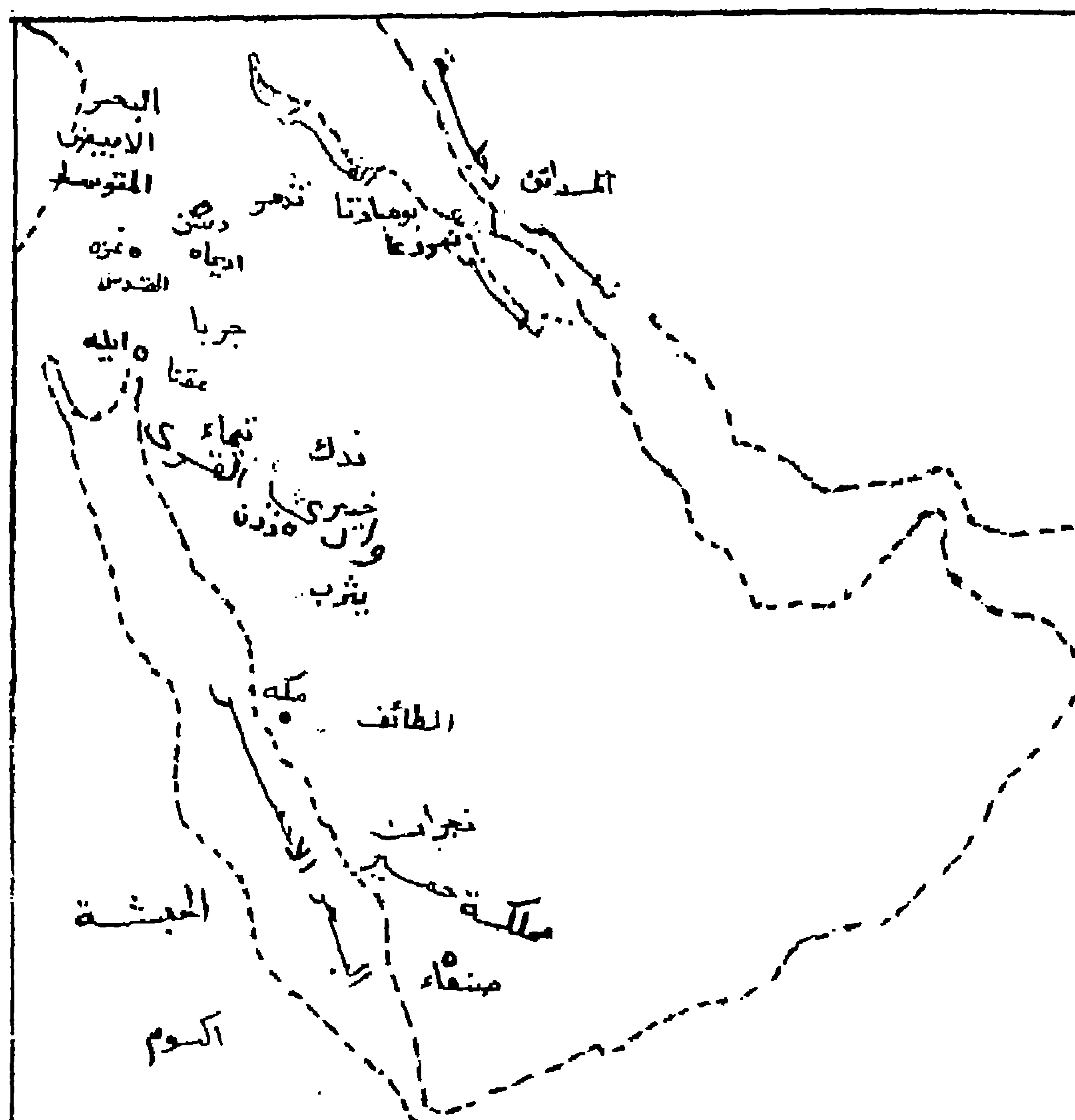
كانت علاقة قريش مع يهود شمال الجزيرة ويهود فلسطين من قبل عادية وحسنة بدليل ان التجار القرشيين كانوا يمرون بالمدينة وخيبر وفدك وتيماء في طريقهم الى أيلة وفلسطين حيث كانت غزة على البحر الأبيض المتوسط من المرافىء الهامة التي كانوا يستخدمونها، ومن غزة يذهب بعض التجار الى بصرى والى بيت المقدس(٣). على ان هذا

---

(١) انظر مواطن اليهود في الخريطة رقم - ٢ - ص ١٠٩

(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، عبدالحفيظ شلبي، طبعة البابي الحلبي، ط٢ المجلد الاول ص ٣٨٩.

(٣) انظر صحيح البخاري، مطبعة الفجالة الجديدة ١٣٧٦هـ حـ١٠ ص ٤. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، حـ٢ ص ١٠. أحمد أمين، فجر الإسلام ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥م ص ١٥.



خارطة رقم -٢-

المواطن اليهودية في جزيرة العرب في عهد محمد صلى الله عليه وسلم.

لا يمنع وجود جاليات اجنبية في مكة وبينها افراد من اليهود، ذلك لأن القرآن الكريم أشار في السور المكية بآيات متعددة تتحدث عن أهل الكتاب وعن أخبار سيدنا موسى وفرعون وأحداث بني اسرائيل مما يدل على أن رسالة سيدنا موسى كانت موضع جدل بين مشركي مكة من جهة وبين النبي من جهة اخرى. وهذا يدل على صلات وثيقة بين اليهود والمكيين. قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾(١).

وجاء في سورة الشورى: ﴿وما تفرقوا الا من بعد ما جاء هم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾(٣).

وقد ذهب ولفنسون إلى القول إن الآيات التي أنزلت قبل الهجرة الى يثرب كانت موافقة لمباديء التوراة الجوهرية ويستدل من ذلك ان العرب كانوا ينظرون بإجلال وتعظيم الى تعاليم التوراة ومبادئها، ويضرب مثلا على ذلك ما جاء في سورة الأعلى ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى﴾(٤). ولكن إشارات القرآن إلى صحف سيدنا موسى قصد منها ذلك الكتاب المنزل على رسول الله موسى عليه السلام قبل ان تصيبه يد التحريف والتبديل، لأن القرآن أشار إشارات صريحة إلى هذا التحريف. . ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه(٥)﴾

وسنرى خلال بحثنا ان العرب لم ينظروا بهذا الاجلال والتعظيم الى اليهودية ومبادئها

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٢) الآيتان: ١٤، ١٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٤) الآيتان: ١٨، ١٩. انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٩٥.
(٥) سورة النساء: آية ٤٦.

كما يتصور ولفنسون، ودليلنا على ذلك ضعف تأثير اليهودية بين العرب وانعزال اليهود عن المجتمعات العربية سواء كان ذلك داخل آطامهم وحصونهم أو عيشهم في أحياء خاصة بهم.

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى القول بوجود جالية يهودية في مكة، وعارضهم ولفنسون بدعوى ان اليهود لو وجدوا في مكة قبل الاسلام لكان لهم حي خاص بهم، ولكان لهم معبد يقيمون فيه صلواتهم ويمارسون فيه طقوسهم الدينية.[١]

وجاء في مغازي الواقدي، ان عبدا من اليهود كان يسكن مدينة مكة، وهو عبدالدار ابن جبر، دخل في ذمة الرسول بعد ان سمع منه سورة يوسف فكان لها وقع شديد في نفسه. ولما علم بأمره مشركو مكة، أهانوه واعتدوا عليه. ولما فتح الرسول مكة أنعم على عبد الدار هذا بمبلغ من المال وزوجه بامرأة شريفة من بنات مكة[٢].

وجاءت كتب السير والتراجم بأخبار تفيد صلة بعض اليهود بالمكيين ومحالفتهم لهم وإقامتهم بمكة للاتجار[٣]. ويستخلص الباحث من الروايات ان اليهود الموجودين في مكة لم يشكلوا جالية ذات بال، ولو كان الأمر غير ذلك لذكرهم القرآن المكي وجاء على مجادلاتهم وطقوسهم بمكة كما حدث في يثرب، ولوجدنالهم آثارا في الأحداث التاريخية التي وقعت في بداية العهد الاسلامي. ومع وجود عدد كبير من الأجانب في مكة الا أنهم لم يؤلفوا كيانا مكتملا ذا أثر ايجابي واسع في مكة، والظاهر ان معظم هؤلاء الأجانب إنما كانوا من العبيد والغلمان الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة، وأوضاعهم لم تكن لتساعد على تكوين كيان مكتمل ومستقل[٤].

وعلى ذلك كانت العلاقات بين المكيين واليهود سواء كانوا في مكة أو خارجها، علاقات تمليها المصالح المتبادلة وذلك أن اليهود اشتغلوا بالصناعات ومنها صناعة الحلي والزينة التي لم يمارسها المكيون.

---

(١) انظر ولفنسون، **تاريخ اليهود**، المرجع السابق ص ٩٤.
(٢) انظر الواقدي، ابو عبدالله محمد بن عمر، **المغازي**، تحقيق مارسيدن جونز القاهرة وكمبرج حـ١ ص ٣٤٩.
(٣) انظر ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار بيروت ودار صادر ١٩٥٧، حـ١ ص ١٤٤. انظر ايضا البلاذري، **انساب الاشراف**، تحقيق د. محمد حميدالله، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، حـ١ ص٧٢، ٧٣، انظر كذلك ابن كثير، **البداية والنهاية**، بيروت والرياض ١٩٦٦ ط١ حـ٢ ص٢٦٧.
(٤) انظر محمد عزة دروزة، **عصر النبي وبيئته**، بيروت ١٩٦٤م، ص١٠٣.

وكانت المكيات والمكيون يذهبون إلى خيبر والمدينة ليجلبوا منها هذه الحلي التي اشتهرت بها عائلة آل أبي الحقيق وغيرهم(١). كما لم تكن مكة لتخلوا من اليهود الذين يقدمون اليها لأغراض تجارية أو صناعية بين وقت وآخر.

اليهود في يثرب:

تقع يثرب «المدينة» على طريق القوافل التجارية بين بلاد العربية الجنوبية وبلاد الشام. وهي واحة خصيبة جذبت اليها السكان منذ أزمنة سحيقة في القدم. فقد ورد ذكرها في الكتابات المعينية ويعتقد ان المعينيين استعمروها فيما استعمروا من مواقع في وادي القرى وشمال الجزيرة العربية(٢).

وقد عثر في سنة ١٩٥٦م على كتابة في حران دونها الملك نبونيد البابلي، وكانت مدفونة في خرائب جامع حران الكبير. ومما جاء في هذه الكتابة اسماء بعض المدن في شمال الجزيرة العربية ومن بينها يثرب وتيماء وخيبر وغيرها(٣).

ويعود تاريخ هذا النص الى سنة ٥٥١ ـ ٥٥٢ ق.م، وعلى ذلك يكون أقدم نص ذكرت فيه يثرب وهو أقدم من جغرافية بطليموس التي ذكرت فيها مدينة يثرب(٤). وقد اختلف في سبب تسميتها «يثرب». فالاخباريون العرب يقولون انها سميت بهذا الاسم نسبة الى «يثرب بن قاين بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح» الذي كان أول من نزلها(٥).

وقد ذكر السمهودي لهذه المدينة اربعة وتسعون اسما(٦). ويعتقد ان معظم هذه الاسماء اكتسبتها المدينة في العهد الاسلامي.

وقد سميت يثرب بعد الهجرة باسم «المدينة» ولا زال هذا الاسم علما عليها حتى الان.

---

(١) الواقدي، المغازي جـ١ ص ٢٧٧.
(٢) انظر احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة، دار الفكر العربي، ط٢ ص٢٩٠.
(٣) انظر جواد علي، المفصل ... جـ٢١ ص ٦١٤.
(٤) انظر المرجع السابق والصفحة.
(٥) انظر المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٢ ص ١٤٨. ابن خلدون، تاريخ جـ٢ ص٨١. السمهودي، وفاء الوفاء، دار التراث - بيروت، جـ١ ص٨.
(٦) انظر وفاء الوفاء جـ١ ص ٨-٢٧.

ولا شك ان هذه المدينة قد توسعت عبر الزمن واصابتها عوامل الازدهار كما لا بد ان حلّ بها الدمار حسب مقتضيات نواميس الطبيعة.

ولذلك نجد بعض الباحثين يذهبون الى القول بان اسم يثرب كان يدل على حي بعينه من المدينة ثم استعمل للدلالة على المدينة كلها من باب اطلاق اسم الجزء على الكل[1].

وكانت ليثرب ضواحي منها «زهره» وهي من اعظم قرى المدينة وقد سكنها ثلاثمائة صانع من اليهود. [2]

وعند قدوم الرسول ﷺ كانت يثرب منقسمة الى عدة دوائر تبعا للبطون التي كانت تسكن كل دائرة من دوائرها.

ويستفاد من نص حران السابق الذكر ان صلحا قد تم بين الملك البابلي «نبونيد» وبين اعراب المناطق الشمالية من العربية بما في ذلك تيماء وفدك وخيبر وغيرها[3].

ويستدل من هذا الصلح ان شمال الجزيرة العربية لم يشكل وحدة سياسية، بل كانت المدن شبه مستقلة عن بعضها البعض وأشبه ما يكون نظام الحكم فيها بالحكومات المدينية التي عرفت عند اليونان. ويؤيد هذا الرأي ما ورد في النص السابق عن نعت حاكم تيماء بالملك، وبالسهولة التي استطاع بها نبونيد من السيطرة على الاقسام الشمالية من الجزيرة العربية.

ويستفاد من النص الحراني ايضا ان نبونيد احضر معه جماعات من سكان بابل وأسكنهم في الاماكن التي اخضعها من الجزيرة العربية، وتمتد هذه الاماكن حتى يثرب جنوبا[4].

واذا اضفنا الجاليات اليهودية الى سكان هذه النواحي ادركنا اختلاف اجناس السكان في مدن العربية الشمالية. وهذا يوافق ما نعرفه عن عزوف العربي آنذاك عن العمل في الزراعة والصناعة، ولذلك اصبحت هذه المراكز الخصيبة هدفا لاولئك الراغبين في الأعمال

---

(١) انظر احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة ص ٢٩٢.
(٢) انظر، ابن النجار «الدرة الثمينة في تاريخ المدينة» على هامش شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ٣٢٣.
(٣) انظر جواد علي، المفصل . . . جـ١ ص ٦١٥.
(٤) انظر المرجع السابق والصفحة.

الـزراعية نظرا لخصوبة التربة ووفرة المياه، كما قصدها التجار للمزايا التي تتمتع بها هذه المواقع على طريق القوافل التجارية بين اليمن وبلاد الشام.

وترجع بعض الروايات استيطان اليهود في منطقة يثرب الى عهد موسى عليه السلام الذي كان جيشه اول من أقام فيها[1]. غير انه لا يعول على هذه الرواية لان سيدنا موسى لم يدخل فلسطين ولم يتملك مدنا ببلاد الشام، بل توفي قبل دخول فلسطين، كما ان بني اسرائيل في عهده كانوا مشغولين بدخول فلسطين ولم يكونوا من القوه بحيث يغزون منطقة يثرب. وهناك رواية اخرى يذكرها الاخباريون تفيد ان سيدنا موسى حج مع اناس من بني اسرائيل، فلما كان انصرافهم اتوا على المدينة، فرأوا موضعها صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراه بأنه خاتم النبيين، فارتأت طائفة منهم ان يتخلفوا بها، فنزلوا في موضع سوق بني قينقاع، ثم تآلفت اليهم جماعة العرب فرجعوا على دينهم، فكانوا اول من سكن موضع المدينة[2] وفي رواية اخرى ان سكناهم كانت في تيماء وخيبر وفي مجتمع السيول من يثرب، كما أقام بعضهم في «زهره» واماكن متفرقة من يثرب[3].

وعلى أي حال فان جماعات من اليهود وجدت في اماكن متعددة من الحجاز في القرون الاولى الميلادية، وكان اكبر تجمع لهم في مدينة يثرب.

اليهود في تيماء وفدك ووادي القرى وخيبر:

من المراكز التي استوطنها اليهود في بلاد الحجاز تيماء، وتقع هذه البلدة الى الشمال من وادي القرى على طريق الشام، واشتهرت بالابلق الفرد حصن السموءل بن عادياء اليهودي ولذلك كان يقال لها في بعض الأحيان تيماء اليهودي[4].

وتيماء مركز مهم ولها تاريخ عريق، ويدل على أهميتها ان الملك نبونيد اتخذها عاصمة له في منتصف القرن السادس قبل الميلاد كما المحنا من قبل.

---

(١) انظر ص ٩٨ من هذا الفصل.
(٢) انظر السمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص ١٥٧.
(٣) انظر ابن النجار «الدرة الثمينة في تاريخ المدينة» - الملحق بكتاب شفاء الغرام - ص ٣٢٤ - ٣٢٥.
(٤) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مطبعة السعادة بمصر، ط١ حـ٢ ص٤٤٢.

وقد ورد ذكر هذا البلد في نصوص الاشوريين، كما ذكرت في التوراة، وذكرها جاء كناية عن أحد ابناء اسماعيل، مما يدل على علاقة الاسماعيليين بهذه المدينة.

وتوجد في تيماء عين غزيرة المياه اعتبرها بعض المؤرخين أشهر عين ماء في جزيرة العرب[1]. وعلى مقربة من تيماء خربة ذات آثار عثر فيها على حجر مكتوب بلغة بني إرم يرجع تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد جاء في هذه الكتابة، أن أحد الكهان استورد صنما جديدا الى تيماء، وبنى له معبدا، وعين له كهانا توارثوا خدمة «صلم هجم». (وصلم) بمعنى صنم. وقد مثل (صنم هجم) في زي اشوري، وظهر في اسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد ذلك النصب. وقد نشرت ترجمة الكتابة الآرامية. وقيل ان تاريخها يرجع الى أيام «نبونيد» فلعله صنع في ذلك الزمن بتأثير البابليين[2].

ونظرا لعلاقة «نبونيد» بتيماء ظن البعض ان المقصود هو تيماء أخرى غير تيماء الحجاز. وهي تلك المنزل الكبير النخل على طريق العراق، اي غير تيماء السموأل[3] وقد بدد شكوك العلماء نقش حران الذي أكد ان تيماء التي نزل بها نبونيد هي نفسها تيماء الحجاز.

واما فدك التي اشتهرت ايضا بين مساكن اليهود فتقع في الجهة الجنوبية الشرقية من تيماء، ولم تشتهر فدك في التاريخ القديم شهرة تيماء، ومبعث هذا عدم اكتشاف شيء يدل على تاريخها القديم، وقد يكتشف بها في المستقبل ما يجعلها في مصاف تيماء من الناحية التاريخية.

وتقع في شمال وادي القرى وجنوب فدك خيبر التي اشتهرت كمركز هام من مراكز يهود الحجاز، كما اشتهرت بمياهها ونخيلها وجودة تمورها، وكانت تمر منها القوافل التجارية المتجهة الى الشمال والجنوب عبر بلاد الحجاز.

واستوطن اليهود في جهات الحجاز مواضع متعددة مثل وادي القرى والطائف ومقنا وجربا وغيرها[4].

---

(١) انظر سفر ارميا ٤٩ : ٧، سفر عوبيديا : ٩، سفر عاموس ١ : ٢، سفر حبقوق ٣ : ٣.
انظر جواد علي، المفصل . . . حـ١ ص ٦١٢.

(٢) انظر جواد علي، المفصل . . حـ١ ص ٦١٣.

(٣) انظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب، طبعة ليدن، ص ١٧٨.

(٤) اكتفينا بالتعريف بهذه المواطن اليهودية وسنعود للحديث عن علاقة سكانها اليهود مع العرب والمسلمين في الفصول القادمة.

البطون اليهودية في بلاد الحجاز :

دأب الباحثون على التساؤل، فيما اذا كان يهود الحجاز بشكل خاص ويهود الجزيرة بشكل عام من أصول يهودية، أو هم عرب تهودوا؟. فبينما يعتقد جمهرة المؤرخين ان بني قريظة وبني النضير - أشهر البطون اليهودية - هم من أصول يهودية أتت من فلسطين، يرى اليعقوبي ان بني النضير وبني قريظة فرعان من قبلية جذام العربية، تهودوا وسموا بالمكان الذي نزلوا فيه «فبنو النضير فخذ من جذام، إلا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به، وبنو قريظة فخذ من جذام إخوة النضير، ويقال ان تهودهم كان في أيام السموأل، ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه[1].

لقد أورد الاخباريون العرب اسماء قبائل يهودية متعددة سكنت يثرب والمناطق المجاورة لها، ومن هذه القبائل، بنو النضير الذين اقاموا بالعوالي في جنوب شرقي المدينة قريبا من وادي مذينيب واقام بنو قريظة الى الشمال من مواقع بني النضير على وادي مهزور. أما بنو قينقاع فأقاموا في بطحان مما يلي العاليه، وأصبح لهم سوق في هذا المكان عرف باسمهم. وانتشرت بقية البطون اليهودية في اماكن اخرى متعددة من المناطق الغنية في يثرب والمواقع القريبة منها، فسكن بنو بهدل وبنو عوف بجوار بني قريظة ونزل بنو القصيص وبنو ناغصة بقباء، وكان بنو مزيد وبنو معاوية وبنو ماسكة في شمال وادي مهزور، وبنو زعوراء في منطقة العوالي عند المكان المعروف بمشربة ام ابراهيم، وكان بنو عكرمة «عكوه» وبنو مراية على طرف حرة واقم من ناحية الشمال في يماني وشمالي منازل بني حارثة الأوسيين. بينما كان بنو ثعلبة وجماعات غيرهم من اليهود بقرية زهره بناحية العريض، وكانت من اعظم قرى المدينة، وسكنت شمال المدينة بقرب أحد جماعات من اليهود[2].

وكانت تقيم بمقنا عند ظهور الاسلام قبيلة تدعى «بنو جنبه» وقد كتب اليهم الرسول

(١) تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف ١٩٦٤م جـ٢ ص٤٠، ٤٥.

(٢) انظر السمهودي. وفاء الوفاء جـ١ ص ١٦١ - ١٦٥، جواد علي، المفصل جـ٦ ص٥١٩. احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينه، ص ١٦٥، ٥٩٦.

يدعوهم الى الاسلام او دفع الجزية[1]. وكتب إلى قوم من يهود اسمهم «بنو غاديا»[2]. والى قوم آخرين اسمهم «بنو عريض»[3].

ويرى بعض المؤرخين الافرنج انه بالامكان معرفة الاصول اليهودية في الحجاز بالاستدلال اللغوي، وذلك أنهم يرون ان بعض أسماء القبائل اليهودية لها اشتقاق عبري وكذلك بعض المواطن اليهودية[4]. غير ان ولفنسون يعارض هذا الرأي ويقول أن أكثر الطوائف اليهودية اتخذت لها اسماء عربية حسب المواقع التي نزلت بها مع انها يهودية الاصل ويقول ان اليهود قبل القرن الخامس قبل الميلاد كانوا ينتسبون الى قبائلهم «أسباطهم» لانهم في طور البداوة، بينما تقدموا في الحضارة بعد ذلك وانمحت عصبيتهم واصبحوا ينسبون الى مدنهم، فيقال فلان الأورشليمي وفلان الحبروني[5]. غير ان رأي ولفنسون هذا لا يصح بالنسبة ليهود الجزيرة العربية حيث كان أحدهم ينسب إلى عشيرته كما هو الحال عند العرب.

وينقل ولفنسون عن التلمود ان انساب اليهود ضاعت وسبب ضياعها ان هيرودس أحرق كتب الأنساب[6]. وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي استوطنت الحجاز من الجماعات اليهودية التي قدمت من فلسطين في عهد القائد الروماني «تيطس» أو «هدريان» أو قبل أيامهما أو بعدهما. ولكن بعضا آخر من هذه القبائل لم يكن من أصل يهودي وإنما كانت قبائل عربية اعتنقت الديانة اليهودية، ولا سيما القبائل المسماه بأسماء عربية أصيلة، ولبعض هذه الاسماء صلة بالوثنية تشير الى انها كانت على الوثنية قبل دخولها في الدين اليهودي[7].

وقد استأثر اليهود بالموارد الاقتصادية في شمال الجزيرة العربية وأصبحوا سادة اقتصاد الحجاز في الوقت الذي كانت فيه أقليات عربية هنا وهناك بين المستوطنات

---

(1) انظر ابن سعد، **الطبقات الكبرى** حـ1 ص ٢٧٦.
(2) انظر ابن سعد، **الطبقات الكبرى** حـ1 ص ٢٧٩.
(3) انظر ابن سعد، **الطبقات الكبرى** حـ1 ص ٢٧٩.
(4) انظر ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العرب**، ص ١٥.
(5) المرجع السابق نفسه.
(6) انظر المرجع السابق ص ١٦، انظر كذلك بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي** ترجمة عبدالحليم النجار، طبعة دار المعارف حـ1 ص ١٢١.
(7) انظر Margollouth, Relations...PP. 60-61.

اليهودية. والأرجح ان هذه المجموعات العربية القليلة الأهمية هي التي تهودت للحصول على مكاسب معاشية. وقد ذكر ان «بني جشنه بن عكارمه»، وهم من بلي قتلوا نفرا من بني الربعه، ثم لحقوا بتيماء «فأبت يهود ان يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم، فتهـودوا، فأدخلوهم المـدينـة فكانوا معهم زمانا ثم خرج نفر الى المدينة، فأظهر الله الاسلام وبقية من أولادهم بها»[1].

وليس من المستغرب ان تتهود بعض القبائل العربية الأصل نتيجة النشاط التبشيري بينما بقيت معظم البطون العربية على دين آبائها القديم ولم تعتنق اليهودية على الرغم من انها عاشت زمنا طويلا مع اليهود اصحاب الثروة والنفوذ.

لم يذكر النسابون العرب احدى القبائل اليهودية ضمن الانساب العربية[2]. كما لم يذكر اليهود قبيلة عربية في النسب اليهودي. وكان اليهود يفخرون بربط انسابهم بأبناء يعقـوب «الأسبـاط». وكـان بنـو قينقـاع يدعـون انهم من نسـل يوسف الصديق عليه السلام[3]. ويدعي بنو النضير وبنو قريظة أنهم «الكوهنان» من نسل هارون[4].

وقد ذكر النسابون العرب اسماء القبائل العربية التي تهودت في اليمن وتلك التي تنصرت في الشام، ذلك لأن العرب مشهورون بالحفاظ على انسابهم، فكانوا يفخرون بهـا ويحفـظونهـا عن ظهـر قلب، وليس هذا الأمـر عجيبا فقد بلغ من إهتمام العرب بالانساب انهم كانوا يحفظون انساب خيولهم. وكان اليهود يأنفون ان يدعوا بغير اسمائهم وانسابهم، وجاء في القرآن الكريم: ﴿ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾[5].

وربما كان لشعورهم «بأنهم شعب الله المختار» ونظرتهم العنصرية الى باقي البشر اثر في عدم انتسابهم الى السلالات العربية. ولم تكن القبيلة اليهودية مجتمعة في مكان واحد من مستوطناتهم في جميع الأحوال بل كانت القبيلة الواحدة تتوزع تبعا لرغباتها وحاجاتها.

---

(١) جواد علي، المفصل . . . حـ٦ ص ٥٢٥.
(٢) انظر الاصفهاني، الاغاني، حـ٢ ص ١١٦.
(٣) انظر السمهودي، وفاء الوفاء حـ١ ص ١١٥.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة م١ ص٢٠٢، حـ١ ص١٦، حـ٣ ص٢٦٠
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

ويستدل على وجود صلات قربى بين جماعات يهود الحجاز، من ان التجار الذين حملوا سليمان الفارسي من بني كلب باعوه الى يهودي في وادي القرى ثم باعه اليهودي الى ابن عم له من بني قريظة يسكن المدينة[١].

ومن بين القبائل اليهودية التي ذكرها الأخباريون قبيلة واحدة لاسمها مظهر عبراني وهي قبيلة «بني زقورا»[٢]، ومن بين الأماكن التي استوطنها اليهود خيبر التي يظن البعض ان اسمها مأخوذ من العبرية[٣].

وقد اورد بعض المؤرخين روايات تفيد ان عربا تهودوا، وقالوا ان اليهودية، وجدت لها سبيلا بين العرب، وقالوا ان بعض ملوك مملكة «حدياب» كانوا قد دخلوا فيها. ويذكر بعض هؤلاء المؤرخين ان اليهود كانوا ينظرون الى العرب الساكنين شرق الحد العربي على انهم من نسل اسماعيل وبذلك تربطهم بهم صلة قربى يرجون ان تدفعهم الى اعتناق الديانة اليهودية دين ابراهيم جد اليهود والعرب على زعمهم[٤].

وفي المرويات التلمودية ذكر لنفر من العرب قدموا الى احبار اليهود، وتهودوا امامهم. وهذا تأييد لأهل الأخبار الذين ذكروا تهويد حمير وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكنده وغسان. وذهب بعضهم الى القول بتهود اليمن بأسرها[٥].

وقد ذكر اهل الاخبار ان «جبل بن جوال بن صفوان» الثعلبي من بني ثعلبة بن سعد ابن ذبيان كان يهوديا فأسلم فهو عربي، يظهر انه أو أهله قبله قد تهودوا، فكان على دين يهود، وعاش مع بني قريظة حتى اعتنق الإسلام[٦].

---

(١) انظر الشيخ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، السيرة الحلبية، المطبعة الازهرية ط٣، ١٣٥١هـ، ١٩٣٢م، ص٢٢١.

(٢) انظر Margoliouth, Relations...P. 69.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان. حـ٣ ص٤٩٥. البكري، معجم ما استعجم حـ٢ ص ٥٢١، ابو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ص ٨٩/١، تاج العروس للزبيدي مادة «خبر».

(٤) انظر جواد علي، المفصل ... جـ ٦ ص٥١٤

(٥) انظر ابن قتيبة الدنيوري، المعارف، دار إحياء التراث العربي - بيروت ص ٢٦٦ وابن رستة، الاعلاق النفيسة، طبعة ليدن ١٨٩١م ص ٢١٧.

(٦) انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة بمصر «الرقم ١٠٧١»، جـ ١ ص ٢٣٢ وما بعدها.

إنني لا ارى ضرورة لإطالة النقاش حول هذه المسألة، لان من الواضح ان الهجرات اليهودية التي اتخذت شكل جماعات استمرت من فلسطين الى الجزيرة العربية بعد كل حدث سياسي يقع على فلسطين. وكانت الاحداث من حروب وفتن داخلية تتوالى على اليهود فيها فيضطرون الى النزوح عن فلسطين. وهذا لا يناقض ما كنا قلناه من قبل من عزوف بعض اليهود عن المغامرات وطلبهم الراحة والاستقرار دفعهم الى استيطان الجزيرة العربية بعيدا عن الاحداث المزعجة والحروب المستمرة في عهد سيدنا موسى وخلفائه. كما لا يمنع من القول ان هجرات فردية كانت تقع بين الحين والآخر حسب مقتضيات حرفية او اقتصادية او غيرها. وعلينا ان ندرك ان الهجرات التي من هذا النوع لم يكن يعنيها شيىء من امر اليهود واليهودية المتأخرة فقد خضعت لمفاهيم دينية وسياسية، ولكنها لم تتمسك بها بالشكل الذي يرضي اليهود خارج الجزيرة العربية، فقطع هؤلاء علاقاتهم معهم واتهموهم بالخروج على القوانين التلمودية[1].

وبناء على ما تقدم نرى أن مواطن يهودية هامة كانت في شمال الجزيرة العربية قبيل الاسلام اهمها؛ يثرب وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء واماكن اخرى اقل اهمية.

اليهود في اليمن:

لقد وجد اليهود في البلاد العربيةالجنوبية قبل الاسلام، والصعوبة التي تعترض الباحث تكمن في معرفة كيفية انتشار اليهودية في هذه الارجاء من الجزيرة العربية وتاريخ هذا الانتشار، ومعرفة فيما اذا كان هؤلاء اليهود يهودا مهاجرين حقا ام انهم عرب تهودوا؟.

ذكرنا ان المستوطنات اليهودية في شمال الجزيرة العربية انتشرت على الطريق التجاري الذي يربط الجزيرة العربية ببلاد الشام، وكانت القوافل التجارية من اليمن تمر في هذه المراكز اليهودية في ذهابها وإيابها. وكان اليهود يستغلون موقعهم هذا فيعرضون بضائعهم ويتعاملون مع التجار سواء كانوا من الجنوب او الشمال. ونتيجة لهذه العلاقات الطويلة والمتبادلة بين عرب الجنوب الوثنيين ويهود الشمال المتدينين لا بد انه حدث تبادل بالأفكار ادى الى تسرب اليهودية الى العربية الجنوبية. ولا يستبعد ان تكون جاليات

---

(١) انظر إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، مطبعة النظام ط القاهرة ١٩٣٤ ص ٢٩٩ـ٣٠٠.

يهودية قد استوطنت في اليمن في زمن سابق لأن مثل هذه الجاليات وجد في العربية الشرقية وفي ظفار في اقصى جنوب الجزيرة العربية.

إن تساؤلاتنا ستبقى قائمة حول تاريخ دخول اليهودية اليمن وكيف كان ذلك ما لم تكتشف وثائق جديدة تضع حداً لهذه التساؤلات، ولذلك لا بد من الاعتماد على الأخبار التي اوردها المؤرخون المسلمون، وبعض النقوش التي عثر عليها في اليمن، وخاصة تلك التي عثر عليها المستشرق النمساوي جلازر.

تقول الرواية العربية التي نقلها ابن هشام حول تاريخ وكيفية دخول اليهودية اليمن ما ملخصه، ان تبع اسعد ابا كرب ملك اليمن اودع احد اولاده في يثرب في احدى غزواته، وان هذا الغلام قتل، فهاجم ابو كرب يثرب انتقاما لولده وعزم على خراب المدينة لولا تحذير الأحبار اليهود الذين انذروه سوء العاقبة إذا أقدم على ما عزم عليه، لأن هذه المدينة سيخرج منها نبي آخر الزمان، فأعجب الملك الحميري بكلام الأحبار وتبع دينهم واصطحبهم إلى اليمن. وكان هذا اصل اليهودية في بلاد اليمن[1].

---

(١) نص الرواية كما اوردها ابن هشام.

«إن تبع أسعد أبا كرب الذي استولى على ملك اليمن غزا المشرق ومرّ في طريقه بالمدينة وفيها ترك له ولداً فقتل هذا الغلام غيلة فأثار هذا القتل التبع أبا كرب أسعد فقدم المدينة وهو مجمع على خرابها واستئصال اهلها وقطع نخلها. ولما علم سكان المدينة ما يراد بهم اجتمعوا الى رئيسهم عمرو بن طلّة أخو بني النجار وآخر من بني عمرو بن مبذول. وقد احتدم القتال بين الفريقين، وكان سكان المدينة يقاتلون تُبّعاً بالنهار ويُقرونه ليلاً. فأعجبه ذلك منهم وكان يقول: «والله إن قومنا لكرام». وفي أثناء القتال قدم الى تبع حبران من احبار اليهود من بني قريظة، وكانا عالمين واسعين في العلم سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: «ايها الملك لا تفعل فانك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: «ولم ذلك؟» فقالا: «هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره».

أعجب تبع كلام الحبرين وانصرف عن المدينة ومعه الحبران وتوجه الجميع الى مكة بعد ان مال تبع الى دين اليهود، ولما كان تبع بين عسفان وامج اتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس من مضر وقالوا له: «أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر اغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى، قالوا: بيت بمكة يعبده اهله، ويصلون عنده. وانما اراد الهذليون هلاكه بذلك كما عرفوا من هلاك من اراده من الملوك وبغى عنده. ولما اجمع أمره على ما قالوا، ارسل الى الحبرين يسألهما عن هذا الامر، فأخبراه أن الهذليين ما ارادوا الا اهلاك تبع وقومه لأن هذا البيت بيت ابراهيم عليه السلام.

وبناء على نصيحة الحبرين عظم البيت وحلق رأسه وطاف حوله وكساه بالخصف (وهو ما ينسج من خوص النخل - القاموس) وبذلك يكون تبع هذا اول من كسا البيت، وكان يلي مكة في هذه الفترة قبيلة جرهم، ثم خرج متوجهاً إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين حتى اذا دخل اليمن دعا قومه للدخول في دين اليهودية، فأبوا عليه حتى يحاكموه الى النار، وكانت في اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون به على زعمهم - التي تأكل الظالم ولا تضر المظلوم - فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم، وخرج الحبران بمصاحفهما في اعناقهما

إن الرواية تشير الى انتشار اليهودية في اليمن على زمن الملك الحميري الذي تولى الحكم قبل ذي نواس.

ومن هذه الرواية نستطيع ان نلمح علاقة يهود الحجاز بانتشار اليهودية في جنوب الجزيرة، ومنها ايضا نستطيع ان نستنتج ان تبان اسعد ابا كرب هو اول ملك اتخذ اليهودية دينا له ولدولته.

إن انتشار اليهودية في اليمن واعتناق الملوك لها حقيقة تؤكدها الروايات القديمة والبحوث الحديثة، وفي سورة البروج من القرآن الكريم إشارة لتهود بعض ملوك اليمن. والجدير بالذكر ان اليهودية في اليمن اعتمدت على السكان المحليين بعكس يهودية شمال الجزيرة العربية التي يغلب الظن على انها اعتمدت على اليهود المهاجرين من فلسطين. ذكر ابن الكلبي اسماء بعض القبائل العربية التي تخلت عن عبادة الأوثان في اليمن وانحازت لليهودية. ومن هذه القبائل ذكر بني همدان الذين هجروا وثنهم يعوق واعتنقوا اليهودية، وكذلك الحميريين الذين هجروا صنمهم نسر وغيره واعتنقوا اليهودية(1).

وقد اكتسبت اليهودية في الجنوب ميزة على يهودية الشمال لاعتناق الحكام لها واعتمادها على العرب سكان البلاد الأصليين وهذا اكسبها قوة وامتيازا.

وجاء في بعض النقوش المكتشفة في بلاد اليمن والمكتوبة بالمسند بعض العبارات جعلت بعض الباحثين يتخذونها دليلا على حقيقة اليهودية في اليمن، ووردت في هذا النص المكتشف كلمة «يسرائيل» و«رب يهوذا». عثر على هذا النقش المستشرق جلازر ونشره المستشرق ونكلر وهذا هو نصه كما ورد باللهجة اليمنية «تبرك سم رحمن ذ

=متقلديهما حتى قصدوا النار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النار اليهم فأكلت الاوثان وما قربوا معها وخرج الحبران بمصاحفهما في اعناقهما لم تضرهما النار. فاجتمعت حمير عند ذلك على دينه. وهذه الحادثة حسب الرواية اصل اليهودية في اليمن».

السيرة النبوية، حـ١ ص ١٩ وما بعدها، انظر كذلك المصادر التالية: اليعقوبي، تاريخ، حـ١ ص ١٧١ وما بعدها، الطبري، تاريخ حـ١ ص٥٦٦، حـ٢ ص١٠٥ وما بعدها. التيجان في ملوك حمير - رواية وهب بن منبه ط١ ١٣٤٧هـ ص٢٩٤ وما بعدها، الأصفهاني، الأغاني، حـ١ ص١٠٩ وما بعدها.

(1) الأصنام، تحقيق احمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م ص١٠، ١١.

يسمين (سمن) ويسـرال والهمـو رب يهـود. ذهـرد عبـد همـو. وشحرم وامهويم(؟) وحشكهتو شمسم واولد همو ذمم(؟) وابشعر ومار وكل ابهه»[١].

ومعنى هذا النص «مبارك اسم الرحمن الذي في السماء وإسرائيل والهه رب يهود الذي ساعد عبده شحراً وامه بم(؟) وزوجته شمسا وأولاده ذمم(؟) وأبشعر ومثارا وكل اهل (بيته)»[٢].

يشك مارجليوث بصحة هذا النص لأن جلازر عرض احتمال عدم نسخه بدقة عن الأصـل[٣]. وينسبـه «هـالفي» إلى وثني أراد أن يجعله معقـولا فأدخـل فيه اسـرائيل ويهود[٤]. استدل بعض الباحثين على تهود (شرحبيل يعفر بن ابي كرب) بنص دونه على سد مأرب وردت فيه جملة «بعل سمن وأرض» اي «رب السماء والأرض» وذلك لان هذه الجملة تشير الى عقيدة التوحيد الخالصة، وعقيدة التوحيد الخالصة تعني اليهودية[٥]. غير ان الضعف ظاهر في هذا النص الذي ذكرت فيه كلمة (بعل)، ذلك ان «بعل» يدل على الوثنية اكثر من دلالته على التوحيد، كما ان اسم الرحمن كان مرادفا لاسم الله في جنوب الجزيرة العربية، ذلك ان النصارى الحميريين كانوا يرددونه كقولهم «المسيح ابن الرحمن»[٦].

وقد كشف في حفريات اجريت في بلدة «بيت شعاريم» في الجنوب الشرقي من حيفا، اكتشفت بواسطة «بنيامين مزار» الذي عثر على هذه االنقوش في بعض المقابر التي يعود تاريخها الى حوالي ٢٠٠م. وجاء في هذا النقش «منحم قولن حميرت» اي «مناحيم قيل حمير»، وقد وجدت معها كتابات اخرى تشير الى اسماء احبار معروفين قبروا في هذه المقبرة «مقبرة كُبار الأحبار». لذلك فإن (مناحيم قيل حمير) هو يهودي قد جاء فلسطين

---

(١) جواد علي، المفصل . . . حـ٦ ص ٥٤١.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) Margollouth, Relations...P. 68.
(٤) Ibid, P. 68.
(٥) انظر ديتلف نيلسن، الديانة العربية القديمة «التاريخ العربي القديم» ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م ص ٢٣٣-٢٤٤، جواد علي المفصل . . . حـ٦ ص ٥٣٩.
(٦) انظر اغناطيوس يعقوب الثالث «الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية»، بيروت. ص ٨٣.

للزيارة او للاتصال بعلماء اليهود الذين كانوا قد تجمعوا في «بيت شعاريم» فمرض ومات هناك ودفن في هذه المقبرة[1]

وهناك بعض الاشارات الواردة في التلمود وفي رسائل بعض اليهود تفيد ان يهود اليمن كانوا على اتصال مع غيرهم من يهود العالم.

فقد ورد في التلمود ان رابي (حبر) يسمى «عاقبة» أو «عقيبه»Rabbi-Aqiba حوالي سنة ١٣٠م انه زار ملكا عربيا كوشيا (مليخ عرابم) وكانت زوجته كوشية ايضا.

والمقصود بالكوش الأحباش، غير ان بعضهم كان يقصد بها العربية الجنوبية كذلك ـ ولا يستبعد ان يكون مراد الحبر بذلك اليمن او منطقة اخرى من العربية الجنوبية كان الحبش قد استولوا عليها[2] ـ وقد تكون منطقة على ساحل الحبشة تخضع لملك عربي في تلك الفترة.

وهذه الرحلة للحبر اليهودي تدل على وجود يهود في اليمن في ذلك التاريخ واذا كان هذا الاستنتاج صحيحا فمعنى ذلك ان اليهود استمروا في عيشهم في اليمن منذ حكم الأقيال الحميريين. وقبل هذا التاريخ وفي عهد الدولة الحميرية حاول إيليوس غالوس سنة ٢٤ ق.م غزو اليمن، ويستفاد من رواية المؤرخ سترابو ان غالوس اصطحب معه في جيشه عددا من العرب واليهود.

ويحتمل ان قسماً من اليهود استوطن اليمن وفضل البقاء بها بعد ان تحمل المصاعب الشديدة في قطع الصحاري والمفاوز حتى وصل اليمن بعد ان هلك معظم جيش غالوس من وعورة الطريق وشدة الجوع والعطش[3].

وهناك نص منسوب تذوينه الى (شرحبيل يعفر بن أبي كرب اسعد) وجد على سد مأرب وردت فيه جملة (بعل سمن وارض) اي (رب السماء والارض) اخذت حجة على

---

(١) S.D. Goitien, Jews & Arabs, Newyourk, 1964, P.47

(٢) انظر جواد علي، المفصل ... جـ٦ ص ٥٣٨. انظر كذلك اغناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحميريون، ص ٥.

(٣) انظر جواد علي، المفصل .... حـ٢ ص ٥٢. انظر كذلك نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص ٩٩ـ١٠٠.

تهوده. إن هذه العبارة تشير الى التوحيد الحالص، والتوحيد الخالص هو عقيدة يهود[1].

وأرى أن هذا النص فيه ضعف كسابقه ولنفس السبب، ومن الخطأ الظن ان لفظ الله وألوهيم، وإل ورب السماء لم تكن معروفة قبل اليهودية، فقد استعملت الشعوب السامية هذه الألفاظ قبل ظهور اليهودية، وأما يهود اليمن الحاليون فيدعون انهم من نسل اولئك اليهود الذين عاصروا نبوخذ نصر وهجروا فلسطين إلى اليمن واستقروا فيها[2].

وقد ذكر المؤرخ النصراني (فيلوستورجيوس) حوالي سنة ٤٢٥م أن أهل سبأ كانوا يتبعـون في السبت سنـة إبـراهيم ثم ذكر بعد ذلك انهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات اخرى، وان بعضهم كان يدين باليهودية وقاوم هؤلاء رسالة «ثيوفيليس» الذي ارسله القيصر قسطنطين (٣٤٩-٣٦١م) للتبشير بين الحميريين. ويقول المؤرخ (ثيودور ـ لكتور) وهو من رجال النصف الاول للقرن السادس الميلادي ان الحميريين كانوا في بادىء امرهم علي دين يهود دخلوا فيه في ايام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان بدعوتها اياهم الى هذا الدين، ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا الى الوثنية، ثم دخلوا بعدئذ في النصرانية في ايام قيصر (أنسطاس)Anastasius (٤٩١-٥١٨م) ولم يشر هذا المؤرخ الى وجود اليهودية بين الحميريين. كما انه لم يشر الى تهود احد من ملوك حمير[3].

ولم يكن يهود اليمن في معـزل عن يهود البلاد الأخرى وخاصة فلسطين فقد كان احبـار طبريا يرسلون رجالهم الى اليمن ومعهم الأموال والهدايا لليهود ولملوك ووجهاء اليمن لكسب تأييدهم وتـوثيق الصلات بهم ولتحريضهم على نصارى اليمن والانتقام منهم. جاء هذا في رسالة مقتبسة عن راهب نصراني يدعى (شمعون) عن تعذيب نصارى نجران وجاء في هذه الرسالة.

«إن يهود طبرية يوفدون الى بلاد حمير كهنة في كل عام وفي كل موسم، ويثيرون الفتن ضد المسيحيين الحميريين. فإذا كان الأسـاقفـة مسيحيين حقـا ويريدون بقـاء المسيحية وليسوا شركاء لليهود، ليلتمسوا من الملك «القيصر» وعظمائه لإلقاء القبض

---

(١) Margollouth, Relations...P. 68.

(٢) انظر جواد علي، المفصل . . . جـ٦ ص ٥٣٨.

(٣) Margollouth, Relations...P. 63.

على رؤساء كهنة طبريا «اليهود» وغيرها من المدن، وطرحهم في السجن ولا نقول بأن يقابل الشر بالشر، بل ان يقدموا كفلاء بأنهم لن ينفذوا من بعد رسائل ولا رسلا الى ملك الحميريين الذي ارتكب كل الجرائم المذكورة اعلاه في حق المسيحيين الحميريين»[1].

وجاء في اخبار الشهداء الحميريين: «أن أحبار من فلسطين» من طبريا كانوا قد جاءوا إلى إخوانهم في الدين يهود اليمن وسكنوا معهم[2].

وقد استمرت صلات يهود اليمن بغيرهم بعد ذلك لأن حكماء اليهود اهتموا بيهود اليمن اهتماما زائدا على الرغم من اننا لم نلمس نبوغ شخصيات يهودية في اليمن. وربما كان منبع هذا الاهتمام هو موقع اليمن الهام وأمل اليهودية في ان تتمكن من إقامة مملكة لها هناك بدل ملكها الذي ضاع في فلسطين. وبقي يهود اليمن على اتصال بغيرهم حتى القرن الثاني عشر الميلادي[3] وما بعده. واذا كانت الصلات بين يهود اليمن ويهود فلسطين مستمرة، فمن غير المعقول ان لا يكون هناك صلات اوثق بين يهود الحجاز ويهود اليمن، وذلك لقرب الحجاز من اليمن ولوقوعها على الطريق الى بلاد الشام.

وهناك من يعتقد ان تسلل اليهودية الى اليمن انما كان باعثه سياسيا اكثر منه ديني، وذلك رغبة من الدولة البيزنطية في السيطرة على مناطق الجزيرة الداخلية بعد ان تمت لها السيطرة على اطرافها المجاورة. وقد مهد البيزنطيون لهذه السيطرة بإرسال بعثات من الرهبان والقسس لدعوة السكان المحليين الى الديانة المسيحية، وكان هذا دافعا للملوك الحميريين لاعتناق اليهودية لمحاربة ديانة التوحيد النصرانية بديانة اخرى توحيدية. ويرى ولفنسون ان الملوك الحميريين قد اصابوا بهذا الأجراء لأنهم قضوا على الحجج التي تتذرع بها الدولة الرومانية للسيطرة عليهم، حيث انهم ابطلوا الوسيلة التي كانوا بها يتوسلون للتأثير في عقول افراد الشعب وجماعاته، ويضيف ولفنسون الى عوامل انتشار اليهودية في اليمن عاملين جديدين هما:

أولاً : ان الملوك الحميريين لم يخشوا على انفسهم من اعتناق اليهودية ان تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ولم يكن لليهودية في ذلك العصر دولة سياسية في حين ان النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في فتح بلادهم.

ثانياً : ان تعاليم اليهودية اقرب الى عقلية العرب من الديانة المسيحية التي كانت تستمد بعض تعاليمها يومئذ من الفلسفة اليونانية[1]

لقد وجدت اليهودية في اليمن قبل المسيحية وعندما دخلت النصرانية البلاد اصطدمت بالديانة اليهودية، وخاضت معها نضالا مريرا كان من آثاره ضعف الوثنية وتفسخها من جهة، وتدخل الأحباش من جهة اخرى. ويستفاد من بعض الأخبار السريانية، أن ابطال الدعوة المسيحية في اليمن كانوا على المذهب الارثوذكسي، فالقديس «ماراحسنويو» المدعو فيلوكسينوس اسقف منبج، هو الذي رسم مار بولس ومار توما أول وثاني اساقفة نجران. ومار فيلو كسينوس المنبجي هو أحد ابطال الارثوذكسية المغاوير، الذي نفاه في سبيل عقيدته، القيصر يوسطينوس الاول الخليقدوني في خريف سنة ٥١٨م، إلى عنفرا في بفلاغونية، حيث قضى خنقا بالدخان سنة ٥٢٣م. وقد كان اهالي حمير جميعا على هذا المذهب الذي انتشر ايضا في حضرموت[2].

وإذا اضفنا الى ما تقدم ان ذو نواس هو من ام يهودية من نصيبين ادركنا ان ذو نواس تربى على اليهودية ورضعها من لبان امه ولم يتهود هكذا فجأة ليسد الطريق على دعوى النصرانية.

مما تقدم ندرك ضعف الرأي القائل بأن تهود ملوك حمير إنما كان سياسيا لا دينيا. والافضل ان يقال ان الأحباش استغلوا التنافس الديني بين اليهودية والمسيحية لصالحهم. ويخطىء ولفنسون الحقيقة حينما يدّعي ان اليهودية اقرب الى العقل العربي من المسيحية، ولذلك نجدها تتغلب على النفوس العربية، وذلك ان العربي كان ينظر لهاتين الديانتين بنفس المنظار، ولم يكن ينظر الى المعتقدات الدينية هذه نظرة

(١) و لفنسون تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٣٦ وما بعدها.
(٢) ـ غناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية ص ٩٢.

الفيلسوف. وقد كان انتشار المسيحية أو اليهودية يعتمد على مدى ما لهذه او تلك من سلطة. ورغم قدم اليهودية على المسيحية فلم تستطع تهويد جزيرة العرب وفشلت في ان تكـون الـديانـة الأقـوى بين العرب. وظلت الوثنية ديانة العرب الاولى حتى ظهور الإسلام. كما أن كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم واعتنقوا النصرانية. ولا يضعف هذا الرأي تهود بعض البطون العربية.

ولا يزال تهود الحميريين في اليمن موضع جدل عنيف بين المؤرخين فبينما يرى البعض ان دولة حمير اليهودية ظهرت في القرن الاول قبل الميلاد. يرى آخرون انه لو كان هذا صحيحا لذكرها المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي ارخ لهذه الفترة وما سبقها. فقد ذكـر ظهـور دولة آرامية متهودة على اطراف نهر الفرات البعيدة عن فلسطين وهي دولة حديب [1]. ويرى فريق ثالث ان ظهـور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثاني بعد الميلاد ويعززون رأيهم بالقول: «لو وجدت هناك دولة يهودية في القرن الثاني بعد الميلاد لكان التلمود يملأ صحائف غير قليلة بذكر اخبارها وسرد الاساطير عنها، فسكوت التلمود عن هذه الظاهرة التاريخية يدل دلالة قاطعة على عدم وجودها في زمن تأليفه» ـ ختام التلمود في القرن الرابع بعد الميلاد ـ [2].

وقد خرج بارون Baron برأي ناقض فيه اقوال من سبقه من العلماء وقال ان دولة حمير لم تظهر الا في القرن الخامس بعد الميلاد، ويستدل بما ذكره الطبري في هذا المجال ويقول ان احيحه الذي قاتل تبان اسعد ابا كرب لأهالي يثرب إنما كانت حوالي نهاية القرن الخامس بعد الميلاد. ثم ما ذكره الطبري من انه كان لتبان اسعد بنون ثلاثة، حسن وعمرو وزرعه، ويعتقد ان هذا الأخير على حسب رواية ابن هشام هو نفسه ذو نواس آخر ملوك حمير [3].

---

(١) انظر ولفنسون.اليهود في بلاد العرب ص ٣٨.
(٢) انظر ولفنسون.تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٣٨.
(٣) انظر الطبري، تاريخ . . جـ٢، ص ١١٩.
انظر كذلك: Salow-Baron, Asocial and religious history of the Jews, 2 Ed, vol 3, Newyourk, 1957 PP.66-67.

ومهما كانت الآراء حول تاريخ ظهور اليهودية في اليمن، فعلينا ان نفرق بين ظهور اليهودية كدين بين سكان اليمن وبين اعتناق الملوك لها واتخاذها دينا للدولة. ومن الطبيعي ان يكون تسرب الديانة اليهودية الى بلاد اليمن قد حدث اولا وفي ازمنة سابقة قبل ان يعتنقها الملوك الحميريون.

وإذا اخذنا بالروايات العربية فيكون اقدم ملك حميري اعتنق اليهودية هو تبان أسعد أبو كرب، وتملك بعده ابنه عمرو بن تبان اسعد ثم اغتصب المُلك لخنيعة ينوف ذو شناتر، ثم عاد الملك الى نفس العائلة المالكة السابقة، وتملك ذو النواس «زرعه» الذي انتهى ملكه سنة ٥٢٥م[١]. وبناء على ذلك لم تصبح اليهودية دين الدولة في اليمن قبل القرن الخامس الميلادي على ابعد تقدير[٢].

وقد اثبت العالم «جلازر» وجود اليهود في اليمن وحضرموت منذ عصور كثيرة قبل الاسلام، ويعتقد بأن هؤلاء المهاجرين الأول هم الذين هيأوا النفوس في جنوب العربية لقبول ديانة اليهود. وربما لهم الفضل ايضا في جذب بعض البطون العربية نحو الديانة المسيحية «التوحيدية» التي غزت بلاد اليمن بعد اليهودية. وقد كانت هناك قبائل عربية متهودة من كنانة وبني الحارث من كعب وبني كندة[٣]. غير ان هذه القبائل لم تكن جميعها يهودية، فقد ذكرت بعض الموارد النصرانية ان بني الحارث بن كعب اعتنقوا المسيحية كما اعتنقتها قبيلة عربية اخرى هي قبيلة جو[٤].

لم يكن حكم الأسرة اليهودية في اليمن مستتبا، فقد تعرضت هذه الاسرة لأخطار داخلية واخرى خارجية. وقد استدل بعض الباحثين من قصة اغتصاب عمرو بن تبان اسعد الملك من اخيه حسان بن تبان، على وجود خلافات دينية علاوة على الخلافات السياسية. وتقول القصة التي نقلتها لنا الروايات العربية ان حسان تبان اسعد ابا كرب

---

(١) انظر الطبري، تاريخ . . . جـ٢، ص ١١٦.

(٢) ذهب البعض إلى أن اليهودية كانت ديانة اليمن الرسمية منذ عهد بلقيس ملكة سبأ، وقد أوضحنا علاقة سليمان ببلقيس في الفصل الثاني من هذا البحث.

(٣) انظر ولفنسون، **تاريخ اليهود** . ص ٤٠.

(٤) انظر أغناطيوس يعقوب الثالث، **الشهداء الحميريون** . ص ٣٤.

سار بأهل اليمن يريد ان يفتح بهم ارض العرب والعجم، كما كانت التبابعة قبله تفعل حتى اذا كان ببعض ارض العراق. كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه، وارادوا العودة الى ديارهم واهلهم فكلموا اخا له كان معهم اسمه عمرو. فقالوا له: «اقتل اخاك حسان نملكك علينا مكانه، وترجع بنا الى بلادنا»، فتابعهم على ذلك، فأجمع عمرو ومن معه من حمير وقبائل اليمن على قتل حسان، الا ما كان من ذي رعين الحميري، فقد نهاه عن ذلك، واوضح له سوء عواقب فعلته، فلم يقبل منه عمرو فقال ذو رعين.

ألا من يشتري سهرا بنوم سعيد من يبيت قرير عين
فأما حمير غدرت وخانت فمعذرة الإله لذي رعين

ثم كتبها في رقعة وختم عليها وأتى بها عمراً، وقال له: «ضع لي عندك هذا الكتاب فان لي فيه بغية وحاجة ففعل». فلما علم حسان ما اجمع عليه اخوه عمرو وحمير وقبائل اليمن من قتله قال لعمرو:

يا عمرو لا تعجل عليّ منيتي فالملك تأخذه بغير حشود

فأبى إلا قتله فقتله ثم رجع بمن معه من جموع الى اليمن، فلما نزل عمرو بن تبان اسعد اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر، فلما اجهد ذلك الاطباء والحزاة من الكهان والعرافين عما به. فقال له قائل منهم إنه والله ما قتل رجل قط اخاه بغيا على مثل ما قتلت اخاك عليه الا ذهب نومه وسلط عليه السهر. فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من كان أمره بقتل اخيه حسان من اشراف حمير وقبائل اليمن. حتى خلص الى ذي رعين، فلما اراد قتله قال: إن لي عندك براءة مما تريد ان تصنع بي، قال له، وما براءتك عندي؟ قال: اخرج الكتاب الذي كنت استودعتكه ووضعته عندك، فأخرج له الكتاب فإذا فيه ذانك البيتان من الشعر فتركه وهلك عمرو . . . فمرج بعد ذلك أمر حمير وتفرقوا فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة منهم يقال له لخنيعة ينوف ذوشناتر(1)، فملكهم وقتل خيارهم وعبث ببيوت اهل المملكة منهم، وكان لخنيعة ينوف ذوشناتر امرءا فاسقاً

(1) شناتر: الأصابع بلغة حمير، ابن هشام، السيرة، م1 ص30، حا: 1.

يزعمون انه كان يعمل عمل قوم لوط مع الذين بلغوا سن الحلم من ابناء الملوك حتى لا يملكوا بعد ذلك. ولما استدعى ذو نواس ليفعل به ما كان يفعله مع ابناء الملوك احتال عليه ذو نواس وقتله واحتز رأسه، فملكته حمير عليها جزاء إراحتهم من الخبيث لخنيعة[1].

ويؤخذ من الرواية السابقة ان البيت المالك الحميري لم يسلم من حوادث التحاسد والتنافس ومؤامرات القصور، وهذه الحوادث مألوفة ولا علاقة للدين بها كما اننا لا نعرف مدى تأثيرها على الحالة الدينية في البلاد. وما يلفت النظر في الرواية ايضا، هو وثوب لخنيعة وسيطرته على الملك وهو من غير ابناء البيت المالك. فهل كان لخنيعة يقود شعبا اضطهده ملوك حمير من بيت تبان اسعد ابا كرب، ولم يبق امامه سوى الثورة؟ أم أن لخنيعة هذا كان نصرانيا او وثنيا انتصر لدينه؟ ام ان لخنيعة كان صنيعة للأحباش اغتصب الملك بمساعدتهم ؟.

وفي إجابتنا على هذه التساؤلات علينا ان نعرف ان الشعب اليمني كان موزعا في معتقده بين الوثنية واليهودية والنصرانية. وكان التنافس شديدا بين طوائف الشعب المختلفة وخاصة بين اليهود والنصرانية. غير اننا لا نملك دليلا قاطعا على اضطهاد البيت المالك لأحدى هذه الطوائف قبل حكم ذي نواس. وإذا اضفنا لهذا ان اليمن كانت تتمتع بموقع هام على الطريق التجاري اكسبها اهمية اقتصادية، ادركنا ان ثورة لخنيعة ربما كانت ثورة شعبية لرفع الاضطهاد الاقتصادي او السياسي او الاجتماعي، ولكن لا نملك الدليل لذلك. اما القول بأن لخنيعة انتصر لدينه من حكم يهودي، فهو قول لا نملك له دليلا ايضا. غير ان الروايات النصرانية تفيد انه في حدود سنة ٣٥٤م بعث القيصر قسطنطيوس الأريوسي الى البلاط الحميري، وفدا برئاسة تاوفيلس السيلاني الهندي فنصّر الملك, وبنى ثلاث بيع، كما اكد المؤرخ فيلوسترجيوس. وقد شهد مؤرخوا العرب بتنصر بعض ملوك اليمن، منهم عبد كلال بن مثوب الذي ولي الملك بسن وتجربة

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ح١ ص٢٨ وما بعدها.
انظر كذلك ابو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمر الهاشمي البغدادي، أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام وأسماء من قتل من الشعراء، ومن غلبت كنيته على اسمه، مخطوط مصور في معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية رقم ٣٥ ص ٤، ٥. انظر ايضا الطبري، تاريخ، ح٢ ص ١١٥ وما بعدها.

وسياسة حسنة، وذلك بتأييد الغساسنة[١] . غير ان حكمهم لم يستمر بل استطاع ابناء تبان اسعد ملكيكرب من إعادته إليهم[٢] . اما لخنيعة فلم يكن مسيحيا بدليل عدم ذكر المراجع النصرانية له، كما انه لم يكن يهوديا بدليل إشاعة الروايات السيئة عنه من قبل اليهود على نحو ما جاء في الرواية السابقة عن افعاله المنكرة مع ابناء الملوك.

والذي اراه ان لخنيعة هذا كان وثنيا ثار بتأييد من الخارج، ويرجح هذا الرأي ما جاء في بعض المراجع اليونانية، من ان ثورة وثنية ثارت ضد ذي نواس[٣] . وعلى ذلك فأنا استبعد ما نسب الى لخنيعة من سوء الخلق واعتقد ان مبعث هذه الروايات انما هو الخصومة السياسية.

ملك بعد لخنيعة ذو نواس «زرعة في المصادر العربية» و«مسروق في المصادر النصرانية» واخبار هذا الملك مبثوثة في المصادر اليونانية والنصرانية والإسلامية.

ويرى مارجليوث ان ذو نواس، هو الملك اليهودي الأوحد[٤]، ويرى آخرون ان ذو نواس ارتقى العرش ما بين ٥٢٠-٥٣٠م[٥]، بينما ذهب آخرون ايضا الى ان حكمه امتد من سنة ٤٩٠-٥٢٥م. ويؤكد بارون انه حكم بعد عام ٥١٦م، ويقول بأنه تسمى ايضا مرثد عيلان - إحسان، وإنه من ابناء معد كرب يعفر او أنه قريبه، كما جاء في إحدى النقوش المكتشفة والتي يعود تاريخها الى سنة ٥١٦م. ومما جاء في هذا النقش «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وعرب تود وتهامات»[٦] .

وقد ذكرنا انه من ام يهودية من نصيبين وعلى ذلك فقد تشرب اليهودية وهو مازال يافعا. وإذا كانت امه يهودية فقد يكون ابوه يهوديا او ميالا لليهودية بتأثير زوجته، إن لم يكن قد تهود من قبل. وعليه فلم يكن ذو نواس صاحب الفضل الاول والاخير في تهويد بلاده. وسيبقى حديثنا معتمدا على الروايات والاساطير ما لم يعثر على وثائق تكشف النقاب عن آثار الدولة اليهودية في اليمن. إذ حتى الآن لم يعثر علماء البحث والتنقيب

---

(١) انظر الطبري، تاريخ . . . ح٢ ص ٨٩.

(٢) انظر الطبري، تاريخ . . . ح٢ ص ٨٩ وكذلك أغناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحمريون. . . ص ٦.

(٣) انظر ولفنستون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص٤٤.

(٤) Relations ... P.65.

(٥) انظر ولفنسون، المرجع السابق ص ٤٤.

(٦) Baron, Asocial history... PP - 66-67

على اي شيء من هذا القبيل. ويعزو بعض المؤرخين هذا الى احد امرين: اولهما ان هذه الدولة لم تجد الوقت الكافي الذي يساعدها على ابراز نواحي العظمة في عمرانها او ما يدل الأجيال اللاحقة على ما كان لها من قوة وبأس وسلطان، وثانيهما ان دولة الاحباش قضت على كل آثار الحميريين حتى لا تدع لهم شيئا يتفاخرون به وذلك نتيجة للعداء الديني والحروب المتواصلة بينهم[1]. وقد بلغت العداوة اشدها بين اليهودية والنصرانية في حادثة نجران المشهورة في التاريخ باسم «مذبحة نجران».

بين النصرانية واليهودية في اليمن:

لقد روى بعض القسس والرهبان ان الخصيّ الذي عمّده الشماس فيليبس المبشر بالذات (اعمال الرسل ٨: ٢٧) كان وزيرا لقندافه ملكة سبأ لا الحبشة، اي كان حميريا وليس حبشيا، ويقول بعض المؤرخين ان «برتولماي» الرسول كان اول من دعا الى النصرانية فيها وفي الحجاز وقد نصّر خلقا من سكانها وخاصة من اليهود الذين ترك لهم نسخة من إنجيل متىّ باللغة السريانية الفلسطينية التي عرفت بالعبرية، فوجدها لديهم الفيلسوف الإسكندري القس بنتينوس استاذ المدرسة الاسكندرية اللاهوتية الذي توغل في تلك البلاد في اواخر القرن الثاني مبشرا بالإنجيل[2].

وفي القرن الثالث ضمّت نجران واليمامة الى ابرشية «اسقفية» انشئت في قطر[3] ثم انشئت بعد ذلك في قطر اديرة اكتظت بالرهبان من طائفة السريان. وفي حدود عام ٣٥٤م تنصّر الملك الحميري كما ذكرنا سابقا، وفي اوائل القرن الخامس عرف في نجران تاجر وثني اسمه «حيان» تنصر على ايدي نصارى الحيرة وعاد الى نجران يدعو قومه الى النصرانية فتبعه خلق كثير من بني قومه ومن أهالي نجران وجميع البلاد الحميرية الأخرى المتاخمة للحبشة ايضا[4]. وحيان هذا هو الذي تدعوه المصادر العربية فيميون واليه يعود الفضل في نشر النصرانية في بلاد اليمن عامة ونجران خاصة[5].

---

(١) انظر ولفنستون، تاريخ اليهود . . . ص ٤٤.
(٢) انظر اوسابيوس القيسري، التاريخ الكنسي ج٥ ص ١٠.
(٣) البطريرك إفرام الأول، الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة، المجلد الأول ص ٣٩٠
(٤) انظر أغناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحميريون . . . ص ٧
(٥) انظر ابن هشام، السيرة النبوية ج١ ص ٣٢.

وقد انتشرت الكنائس في البلاد الحميرية ولا سيما في نجران وظفار ومأرب والهجران «هجر» وحضرموت وأصبحت نجران كرسيا أسقفيا في العقد الثاني من القرن السادس[1] وهكذا انتشرت المسيحية في بلاد الحميرية وما جاورها من البلاد في جنوب الجزيرة العربية واعتنقها الكثير من أهالي البلاد ممن يدينون بالوثنية والشرك أو يدينون باليهودية[2].

وبدخول المسيحية بلاد اليمن وقفت ديانتان توحيديتان وجهاً لوجه في صراع مرير جلب على اليمن وسكانها الويلات والنكبات وسلّط عليها حكم الاجانب حينا من الدهر.

مذبحة نجران وآثارها:

كان أهل نجران يعبدون الأوثان وكان في قرية من قرى نجران ساحر يعلم غلمان القرية السحر، فلما نزلها فيميون «حيان» ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر. فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر فبعث إليه التامر ابنه عبدالله مع غلمان اهل القرية، فمال هذا إلى صاحب الخيمة واعجبته صلاته وصيامه وعبادته فجعل يجلس إليه ويستمع منه حتى أسلم ووحّد الله وعبده. وكان التامر أبو عبدالله لا يظن إلا ان ابنه يختلف إلى الساحر، ولما بلغ عبدالله درجة رفيعة من العلم أخذ يدعو إلى النصرانية في نجران. وكان يدعو الواحد الى النصرانيه ويدعو الله له فيعافيه من البلاء إذا كان مريضا. وهكذا ذاع صيت هذا الرجل وانتشرت النصرانية في نجران. ولما علم به ملك نجران أراد الانتقام منه، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع على الأرض ليس به شيء، ويرميه في البحر فلا يغرق، فلما غلبه قال له عبدالله: «إنك والله لن تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به فإنك إن فعلت ذلك سلطت علي فقتلتني». قال: فوحّد الله تعالى ذلك الملك، وشهد شهادة عبدالله بن التامر، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله ثم هلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبدالله بن التامر، فمن هناك كان اصل النصرانية بنجران[3].

---

(١) انظر اغناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحميريون . . . ص ٨.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة ج١ ص ٣٤.

يؤخذ من هذه الرواية أن النصرانية انتشرت في بلاد اليمن انتشارا سريعا مما جعلها خطرا على اليهودية فسارع ذو نواس للقضاء على المسيحية وسيّر جيشا إلى نجران ودعا اهلها إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل، فخد لهم الأخدود وحرق منهم من حرق وقتل منهم من قتل ومثل بمن مثل. وتبالغ الرواية العربية فتجعل عدد الذين قتلوا في هذه المذبحة قرابة عشرين ألفا(١). وقد تكون هناك علاقة لهذه الحادثة بأصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله في سورة البروج على رأي بعض المفسرين(٢)وجاء في هذه السورة قوله تعالى: ﴿قتل اصحاب الأخدود النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾(٣).

أسباب المذبحة:

تناول المؤرخون بالبحث والتحليل الدوافع التي حدت بذي نواس أن يرتكب هذه المجزرة بحق المسيحيين وحتى الآن لم يجمع المؤرخون على سبب بعينه لهذه الحادثة. وقبل ان نناقش آراء المؤرخين بهذه الحادثة أرى أن ألفت النظر إلى المبالغة الكبيرة في أعداد ضحايا هذه المذبحة، فمن غير المعقول أن يبلغ عدد القتلى في نجران العشرين الفا كما يقول ابن هشام لأن سكان القرية بكاملها لا يصلون إلى هذا العدد ولا حتى نصفه أو ربعه. ويعزز هذا الرأي ما جاء في ترنيمة ليوحنا بسالتي(٤) يعتقد أنها معاصرة للأحداث وهي مترجمة من اليونانية إلى السريانية، أن عدد القتلى يربو على المئتين وهذا قريب من المعقول.

ويؤخذ من المصادر اليونانية أن أسباب المذبحة التي ارتكبها ذو نواس إنما هي انتقام لليهود الذين تضطهدهم الدولة الرومانية في ديارها(٥).

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة ح١ ص ٣٥.

(٢) هناك خلاف بين المفسرين حول هذه القضية. انظر تفسير الرازي ح ٣١ تفسير سورة البروج. انظر كذلك تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ط ٥ مطابع الشعب ص ٤٦. انظر ايضا، احمد امين، فجر الإسلام، ص٢٦.

(٣) سورة البروج، الآيات ٤-٨.

(٤) انظر عبدالمجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي القاهرة ص ٥١.

(٥) انظر Graetz H. History of the Jews, philadelphia, Vol, 2,P. 88.

ويروي المؤرخ اليوناني يوحنا من مدينة افزوس خبرا آخر لم تذكره المراجع العربية وهو ان دومينوس «ذو نواس الحميري» قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم واستمر يعامل تجار الروم، بالقسوة والعنف ويضطهدهم اضطهادا شديدا كلما مر احدهم في بلاده، مما جعل الاسواق الحبشية تصاب بالكساد والركود فضعفت فيها الحركة وقل منها الصادر وإليها الوارد، فكانت تصدر الحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية ومما يرد اليها من حاصلات البلاد الاخرى المجاورة، وكانت الثغور اليمنية هي الواسطة التي تربط أسواق الحبشة بأسواق الهند والأصقاع الشرقية، فكانت أسواقها كذلك شديدة الحركة كثيرة المصروفات وملتقى تجار كل هذه الجهات.

لم يكن من الممكن ان يرضى اليمنيون بهذه الحالة وهم يرون ان حركتهم التجارية وعماد اقتصادهم تتوقف. لذلك تقدم «إيدوح» قيل من أقيال اليمن الوثنيين الى ذي نواس وقال له: «إن أعمالك القاسية ستؤدي إلى نقل الحركة التجارية من ثغورنا الى ثغور أعدائنا، فأجابه ذو نواس بقوله: إن إخواني اليهود في بلاد الروم يذوقون ألوانا شتى من الأهوال والتعذيب، فأنا أريد ان أكف أيدي الروم عن اقتراف الاثم بالأبرار، بمعاملتي لتجارهم هذه المعاملة السيئة»[1].

وتقول نفس الرواية اليونانية ان إيدوح لم يرضه جواب ذو نواس ولم يوافق على سياسته فاتفق مع باقي اقيال اليمن الوثنيين وقاتل بهم «ذو نواس» حتى تغلب عليه وقتله ثم اعتنق إيدوج النصرانية[2].

ويلاحظ ان هذه الرواية تخالف رواية المراجع العربية المألوفة والتي تقول بأن جيوش الحبشة هي التي أطاحت بدولة ذو نواس اليهودية. ولم ينكر أغلب المؤرخين غزو الاحباش لليمن وهم الذين غزوا مكة بعد اليمن وأنزل الله بحقهم سورة الفيل ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾.

ولدينا رواية لقائد روماني كان يحارب في العراق ضد الفرس أثناء وقوع حوادث

---

(١) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٤٦، ٤٧.
(٢) انظر Graetz H. History of the Jews, philadelphia, Vol, 3 PP. 408-409.
ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٤٧.

اليمن هذه، وهـو يرويهـا بأسلوب لا يتعـارض مع رواية ابن هشام، واسم هذا القائد «بروكوب Brokop » .

يقول بروكوب: «وقد استعد ملك الحبشة «هلستيوس Hilistiaus الذي كان يغالي في دينه لمحاربة ذو نواس لأنه كان يأخذ الأموال من تجار النصارى بغيا. ثم جاء بجيش عظيم إلى باب المندب وشن الغارة على سواحل بلاد حمير فسار ذو نواس اليه ولكن انهزم هزيمة منكرة وهلك»[1].

والذي يراه الباحث انه لا يمكن فصل عامل التجارة من مجموع العوامل التي أدت الى فساد العلاقات بين الحميرين والأحباش، كما أنها لم تكن العامل الوحيد في وقوع الحرب بين الطرفين.

وقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن مذبحة نجران كانت نتيجة للشعور الوطني عند ذو نواس، ذلك أنه رأى في النصرانية خطرا يهدد بلاده بالوقوع تحت حكم دول أجنبية. فصمم على أن يمحق النصـارى حتى لا يترك مبررا للأحباش أو الرومان للتدخل في بلاده. والواقع ان هناك أكثر من سبب لحادثة نجران، فالمتتبع للعلاقات بين الحبشة واليمن يجد انها ساءت منذ القرن الثالث الميلادي، اي من تاريخ دخول النصرانية بلاد اليمن، ولم تكن حملة الأحباش بين سنتي ٥٢٣ ـ ٥٢٤ م هي أولى الحملات. فقد سبق ان قامت الحبشة بغزو اليمن مرات ومرات منذ القرن الرابع الميلادي[2].

وعندما لا يكون هناك غزو عسكري حبشي لليمن يكون هناك غزو تبشيري. فقد كان بين الذين قتلهم ذو نواس عدد كبير من الرهبان والقسس الأحباش[3].

واذا تجاوزنا تفاصيل حادثة نجران، يمكننا القول بأن ذو نواس وجد المسيحية في بلاده عدوا يهدد استقلالها. فقد كان هؤلاء يقومون بنشاط لصالح دولة الأحباش سواء في السلم أو الحرب. وكان الأحباش يتدخلون في شؤون اليمن بحجة رفع الظلم عن هؤلاء النصـارى ولـذلـك كانت حملة الأحباش على اليمن سنة ٥١٠ م. ويؤخذ من الوثائق

---

(١) Graetz H. History of the Jews, philadelphia, Vol, 3 P. 409.

(٢) انظر موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ص ٣٣٤ وما بعدها. انظر كذلك اغناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحميريون، ص ٩٢.

(٣) انظر اغناطيوس المرجع السابق، ص ٥٩، ٦٣.

السريانية ان شخصا يدعى «مارتوما» ذهب الى الحبشة يستنجد ملكها على اليهود لأنهم يضطهدون النصارى في بلاد حمير. كما تخبرنا نفس الوثائق ان هذا كان كافيا للقيام بهذه الحملة[1].

ويغلب على الظن ان الحروب الأهلية وحملات الأحباش استمرت ما بين عام ٥١٩ م وعام ٥٢٤، بدليل وجود معارك سابقة بين النصارى واليهود الحميرين[2]. وذهب بعض الباحثين الى القول بأن حملات الحبشة على اليمن تعود الى القرن الأول قبل الميلاد مستندين في اتجاههم هذا إلى بعض النقوش السبئية التي عثر عليها في بلاد اليمن[3].

وهناك قضية اخرى ثار حولها الجدل، وهي اختلافهم في الدولة التي استنجد بها المسيحيون بعد مذبحة نجران، اهي دولة الروم الشرقيين ام دولة الاحباش؟.

ويؤخذ من المصادر العربية ان شخصا يدعى «دوس ذو ثعلبان» أفلت من القتل يوم نجران، وقدم الى قيصر الروم واستنصره على ذو نواس وجنده، فكتب قيصر بذلك الى ملك الحبشة طالبا اليه نصرة نصارى اليمن. وهكذا ارسل ملك الحبشة حملته المشهورة في التاريخ بقيادة أرياط الحبشي، وتمكن أبرهه خليفة أرياط من إخضاع اليمن والقضاء على ذو نواس آخر الملوك الحميريين المتهودين[4]. غير أن المصادر المسيحية الأرثوذكسية لا ترى هذا الرأي، وتستبعد الاستنجاد بقيصر الروم الذي اضطهدهم من قبل لاختلافهم في المذهب. وتقول ان الاستنصار كان بملك الحبشة الارثوذكسي كالب.
وتدل الوثائق السريانية الثلاث المتعلقة بشهداء نجران ان القيصر الروماني يوستينوس لا علاقة له باحداث الحميريين سواء كان ذلك قبل اضطهاد ذو نواس ام بعده. وتقول هذه الوثائق ان شمعون الأرشمي كتب الى شمعون رئيس دير الجبول في سوريا الشمالية ليتصل بالأساقفة القديسين الهاربين من المسيح الى مصر وبواسطتهم برئيس اساقفة

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٩٠.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظر عبدالمجيد عابدين، **بين الحبشة والعرب**، ص ٢٢.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٣٧، الطبري، تاريخ، حـ٢ ص١٢٤ «يعتقد بعض الباحثين ان ارياط قام بثورة للانفصال عن الحبشة فقتله ابرهة الذي اعلن تبعيته لملك الحبشة مقابل تنصيبه ملكا على اليمن» انظر عبدالمجيد عابدين، المرجع السابق ص ٥٩.

الاسكندرية ليكتب بدوره الى ملك الحبشة وأساقفتها لينجدوا الحميرين فورا[1]. وقدم هذا طلبا بذلك الى كالب ملك الحبشة والى ابروبيوس أسقف الأحباش، وكان هذا المعروض مقدما باسم كنيسة بلاد حمير، وقد حمل هذا الطلب الشريف أمين النجراني الذي شخص بنفسه الى الحبشة من اجل هذا الأمر. وكان هذا الأسلوب معروفا منذ سنة ٥١٩ م حين رحل مارتوما أسقف نجران الثاني الى الحبشة وأخبرهم باضطهاد الحميريين للمسيحيين كما جاء في الوثيقة الثالثة[2].

ومما يرجح الرأي الأرثوذكسي السابق ان سيف بن ذي يزن استنصر بقيصر الروم لطرد الأحباش من بلاده.

واعتمادا على ما تقدم نرى انه كان للأحباش الدور الأكبر في القضاء على دولة ذور نواس، ولم تكن حملة عام ٥٢٤ م هي الأولى من نوعهــا، فالعـلاقـات بين البلدين المتجاورين كانت عبارة عن سلسلة متصلة من الحروب والغزوات، كما كان تاريخ اليمن منذ القرن الرابع الميلادي سلسلة من الحروب والفتن الداخلية ومجالا لتدخل الدول الأجنبية.

ومما يؤكد تغلغل الأحباش في اليمن ما جاء في رسالة ذو نواس الى ملك الحيرة آنذاك «ان الملك الذي كان قد نصبه الأحباش في بلادهم مات وأدرك الشقاء، ولم يقدر الأحباش أن يخرجوا الى بلادهم لينصبوا ملكا مسيحيا كما اعتادوا، فتملك هو على سائر بلاد حمير»[3]. ومن هذه الرسالة نستخلص ان بعض الأحباش من بقايا حملة عام ٥١٩ م لا زالوا في ظفار من بلاد الحميرين. ويقول المؤرخ اليهودي المشهور كريتز GRAETZ أن يوسطين قيصر الروم اشترك اشتراكا فعليا في فتح اليمن لانه أرسل اسطول مصر البحري مشحونا بالمؤن والأسلحة الى الثغور اليمنية. ويرجح بعض المؤرخين ان جيوش يوسطين كانت عازمة على احتلال اليمن بعد أن فتحتها الحبشة ولكن قوات الفرس أقلقت راحتها على حدود سوريا فمنعتها من ذلك[4].

---

(١) أغناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحميريون، ص ١١٣.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) المرجع السابق والصفحة.
(٤) Graetz H. History of the Jews, philadelphia, Vol, 3 P. 88.

ولم تستتب الأحوال في اليمن للأحباش بل كانت هناك مقاومة داخلية من اليهودية وربما الوثنية. يتضح هذا من ان ثلاثة وفود وصلت في كانون الثاني «يناير» من عام ٥٢٤م الى مدينة الحيرة لزيارة عاهلها المنذر اللخمي. ومن بين هذه الوفود الثلاث وفد أرسله الملك الحميري المسيحي الذي كان قد نصبه الأحباش[١]. وربما أن مهمة الوفد كانت الاستنصار بالمنذر اللخمي على الأحباش الذين استثقلوا ظله.

بعد ان تم للأحباش بسط سلطانهم على اليمن وقضوا على قوة اليهود فيها، اتجهت جهودهم نحو تنصير سكان اليمن الوثنيين، وذلك ليحفظوا استمرار سيطرتهم على الشعب الحميري الذي كانت غالبيته لا زالت تدين بالوثنيه. وكان من مجهوداتهم في هذا السبيل بناء كنيسة «القليس» المشهورة في صنعاء في عهد أبرهة الأشرم، وذلك ليصرف إليها حج العرب[٢].

غير أن النسأة وهم رؤساء الديانة الوثنية لم يوافقوه على عمله ووقفوا في وجهه سدا منيعا، فعزم أبرهة على تنفيذ رغبته بالقوة معتقدا انه بهدم الكعبة التي يحج اليها الوثنيون يتخلص من الوثنية في جزيرة العرب. ولذلك خرج بجيش كثيف إلى مكة يريد هدم الكعبة. غير ان حملته هذه أصيبت بالفشل الذريع وعاد أبرهة يجر أذيال الخيبة من حملته المشهورة والتي أرخ العرب بها، وأطلقوا على السنة التي حدثت بها «عام الفيل».

ويعلق ولفنسون على أثار غزو الأحباش لليمن بقوله: «وكان لانكسار الدولة الحميرية امام الحبشة رنة أسى شديدة في قلوب اليهود، فظهرت مع الزمن أقاصيص كثيرة وأساطير خرافية عن أبطال حمير، من ذلك ما قيل ان أصل هؤلاء من بقايا اسباط بني اسرائيل البائدة وان هذه الجيوش لم تغلب على امرها بل رجعت على اعقابها الى داخل البلاد الرملية وأنها كونت في تلك الارجاء دولة عظيمة يظهر بطشها في اليوم الذي تباح لها فيه النضال ويؤذن لها بخوض المعارك، وقد كانت هذه الاقاصيص سببا في أن شرع جماعة من اليهود في القرون الوسطى يرسلون الى بلاد العرب ليبحثوا عن تلك الجيوش التي توارت عن العيون»[٣].

---

(١) أغناطيوس يعقوب الثالث، الشهداء الحميريون، ص ٨٣ وما بعدها.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص٣٧ وما بعدها.
(٣) ولفنسون، تاريخ اليهود، ص ٤٩.

لم يقعد العرب اليمنيون عن الكفاح ضد الغاصب الأجنبي ، بل استمرت المقاومة حتى تمكن أخيرا اليمنيون بزعامة سيف بن ذي يزن من تحرير وطنهم بمساعدة من الفرس الذين ظلوا في اليمن حتى حررها الاسلام في عهد محمد عليه السلام .

الفصل الرابع

بين العرب واليهود في يثرب

— اشهر البطون العربية في يثرب .
— العلاقات بين القبائل اليهودية .
— بين العرب واليهود .
— العلاقات بين الأوس والخزرج ودور اليهود فيها .
— أثـر اليهود في الجزيرة العربية .
— الحياة الفكرية ليهود الجزيرة العربية .
— النسيىء والنسأة .
— الصوفـة والصوفـان .
— الختـــان .

- بين العرب واليهود في يثرب.
- أشهر البطون العربية في يثرب.

نزلت على اليهودفي يثرب بعض القبائل العربية واتخذوا المنازل والآطام واشتغلوا بالأموال. ومن هذه القبائل بنو «انيف» وهم حي من (بلي)، ويقال أنهم بقية من العماليق، وبنو مريد أو «مزيد أو مرثد» وهم من «بلي» أيضا، وبنو معاوية ابن الحارث بن بهته بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفه بن قيس بن عيلان، وبنو الجدمي «الجدمان» حي من اليمن. وينتسب بنو «بلى» هؤلاء الى قضاعه التي كانت تعيش قبائلها في الجزيرة العربية، ثم ارتحلت بعض فروعها الى شمال جزيرة العرب وبعضها استوطن سهل يثرب قبل قدوم الأوس والخزرج. وكان القضاعيون في يثرب تحت سيطرة اليهود الاقتصادية والاجتماعية حتى قدوم الأوس والخزرج وتعاونهم معهم في قهر اليهود وتسلم زمام السيطرة منهم في يثرب، ويظهر ان الأوس والخزرج لم يحسنوا معاملة القضاعيين بعد ذلك فبدلا من مكافئتهم استخدموهم في الفلاحة وحرموهم من المشاركة في سيادة يثرب. ويغلب على الظن ان قسما كبيرا من قضاعة قد اختلط مع الأوس ونشأ منهم فرع يعد من اقوى فروع القضاعيين، وهو فرع بني سماك بن عتيك، ومنه أسيد بن حضير الصحابي الباسل المعروف. ولكن هذا الاختلاط بالأوس لم يرفع مكانة القضاعيين فظلوا على وضعهم في اسفل السلم الاجتماعي لسكان يثرب[1].

وقد اقتبست القبائل العربية التي استوطنت يثرب، بناء الآطام من اليهود يتحصنون فيها من عدوهم عند الحاجة وذلك قبل قدوم الأوس والخزرج[2].

وتعتبر قبيلتا الاوس والخزرج ـ الأنصار فيما بعد ـ امنع القبائل العربية التي استوطنت يثرب قبيل الاسلام، وكان لها الكلمة العليا عند ظهوره.

---

(١) انظر حسين مؤنس، عالم الإسلام، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م، ص ١٢٢-١٢٥.
(٢) انظر ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص ٦٢، وجواد علي، المفصل ... حـ٤ ص١٢٩.

ويقول اصحاب الانساب ان الأوس والخزرج أخوان من قبيلة الأزد اليمنية[1] وكانت كل من القبيلتين تنقسم الى بطون أصغر حتى زادت البطون المعروفة من القبيلتين عن أربعين بطنا، عدا العشائر العربية الاخرى التي عاشت معها واتصلت بها برابطة الولاء[2].

تربط الروايات المختلفة بين هجرة البطون الأزدية، وبين خراب سد مأرب «سيل العرم» في اليمن، وتناقل الرواة الاخبار المختلفة عن سبب خراب هذا السد وبالغوا في آثار خرابه مبالغة كبيرة. قالوا: «إن سبب خروج الأوس والخزرج من اليمن ان عمرو بن عامر رأى جرذا يحفر سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم، فأدرك انه لا بقاء للسد بعد ذلك فاعتزم على النقلة من اليمن، فأراد ان يحتال حتى يتمكن من بيع أموال قومه باحسن الاسعار. فأمر أصغر ولده او ولد اخيه أن يلطمه اذا أغلظ له القول في مجلس من القوم، ففعل الولد ما أمر به. فقال عمرو: «لا اقيم ببلد لطم وجهي فيه» وقال أشراف قومه: «سنرتحل معك حيث ترتحل» وعرض امواله واموال قومه، فقال اشراف اليمن: «اغتنموا غضبة عمرو، فاشتروا منه امواله، وانتقل بالازد يرتادون البلدان، ونزلوا بأرض (عك)[3] فحاربهم أهلها وكانت الحرب سجالاً ثم ارتحلوا عنهم وتفرقوا في البلدان، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الاوس والخزرج بيثرب ونزلت خزاعة مرًا . . ، ثم أرسل الله تعالى على السد سيل العرم فهدمه»[4].

وقد اختلفت الروايات في من بنى السد، والراجح ان السبئين هم الذين باشروا بناءه، ونسب هذا السد الى سبأ بن يسجب بن يعرب بن قحطان، وهو جد السبئين[5]. ويعتقد الآن ان انفجار السد حدث حوالي منتصف القرن السادس الميلادي اي حوالي ٥٤٢ـ٥٤٣، فقد نشر جلازر، رقما من رقم الجنوب التي كشفها يعود تاريخه الى هذه

---

(١) انظر ابن حزم، جمهرة انساب العرب، طبعة بروفنسال، دار المعارف بمصر، ص ٣٣١. والسهيلي، الروض الأنف، حـ١ ص٢١.

(٢) انظر أحمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة، ص ٣٠٩.

(٣) عك، مخلاف باليمن، انظر معجم البلدان، لياقوت الحموي.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص١٣ وما بعدها. انظر كذلك ياقوت الحموي، معجم البلدان حـ٧ ص٣٥٥ وما بعدها. والسمهودي وفاء الوفاء، حـ١ ص١٦٦.

(٥) انظر المسعودي، مروج الذهب، طبعة دار الاندلس حـ٢ ص١٦١. ياقوت الحموي، معجم البلدان حـ٧ ص ٣٥٤. السمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص ١٦٦.

الفترة، وهو لأبرهة الأشرم وفيه ذكر لخراب احد السدود[1]. وقد ذكر ياقوت الحموي[2] ان خراب السد حدث في عهد ملوك الحبشان وهذا يوافق ما جاء في رقم جلازر.

ومن غريب المصادفات ان يحدث خراب السد في الوقت الذي تعرضت فيه اليمن لكوارث سياسية لا تقل أهمية عن الكوارث الطبيعية. وقد تعاونت الأحداث كلها على تهجير سكان اليمن، فارتحلت غسان الى الشام وذهبت الازد الى عمان وخزاعة الى تهامه. وأقامت الأوس والخزرج في المدينة.

لقد سبق تصدع سد مأرب الاخير ـ الذي ذكر في القرآن ـ تصدع آخر في عام ٤٥٠م تقريبا، تسبب في انفجار المياه من السد، غير ان هذا الخراب اصلح بعد ذلك. وقد أثبتت البحوث التي اجراها العالم جلازر عام ١٨٩٦م, واستند فيها على منقوشات جلبها من أرض اليمن، ان السيل قد حدث فعلا ولكن لم يحدث في مدة واحدة، بل تكررت تصدعاته[3]. ثم أهمل السد العظيم وانشغل الناس في الفتن الداخلية والحروب الخارجية، وعملت الطبيعة عملها في تفتيت بنيانه حتى كانت نهايته. واذا اخذنا بالروايات العربية التي تقول بأن السكان في اليمن تفرقوا أيدي سبأ إثر خراب السد، فاننا نهمل اسباب هجرات الشعوب السامية من الجزيرة العربية الى خارجها.ان هجرة بعض البطون اليمنية الى أطراف الجزيرة لم تكن حدثا فريدا من نوعه، بل سبق لقبائل ان هاجرت من بلاد اليمن نحو بلاد الشام والعراق. غير اننا لا نقلل بهذا من حادث خراب السد الذي كان له ولا شك أثر سيء على الحالة الاقتصادية في المناطق المجاورة له، فهو من ناحية اعظم انجاز عمراني زراعي في تلك الفترة، ومن ناحية اخرى دليل على التقدم الاقتصادي الذي احرزته اليمن في تلك الفترة.

لقد تضافرت عوامل اخرى مع خراب السد ونتجت عنها هذه الهجرات، ومن هذه الأسباب اكتشاف الرومان للطرق التجارية البحرية وتحول هذه الطرق عن اليمن، والقلاقل والفتن التي عصفت باليمن وجعلت السكان يهملون الزراعة والصناعة، ثم الحروب المستمرة بين اليمن والأحباش.

---

(١) انظر فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، حـ١ ص ٨٤.
(٢) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، حـ٧ ص ٣٥٥.
(٣) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٥٣. انظر كذلك فيليب حتي، تاريخ العرب المطول حـ١ ص٨٤.

وجاء في القرآن الكريم: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل﴾[1].

وذكر المسعودي[2]: «أن أهل مأرب كانوا يعبدون الشمس، فبعث الله اليهم رسلا يدعونهم الى الله، يزجرونهم عما هم عليه، ويذكرونهم آلاء الله ونعمته عليهم، فجحدوا قولهم، وردوا كلامهم، وأنكروا أن يكون لله عليهم نعمه وقالوا لهم: إن كنتم رسلا فادعوا الله ان يسلبنا ما أنعم به علينا ويذهب عنا ما اعطانا» وفي ذلك تقول امرأة منهم:

إن كان ما نصبح في ظلاله من ربكم فلينطلق بما له
إليه عنا وإلى عياله

فأجابتها امرأة مؤمنة، فقالت:

لولا الإله لم يكن عيالنا ولم يسع عيالنا أموالنا
هو الذي يجيبنا سؤالنا ويكشف الغمّ اذا ما هالنا

فدعت عليهم الرسل، فأرسل الله عليهم سيل العرم[3].

والخطاب على ما أظن موجه إلى سكان مدينة مأرب أو سبأ وهي التي تأثرت بخراب السد، حيث زالت خضرة الأرض وأقفرت بفعل انفجار السد، وذلك لأن هذا السد كما دلت الأبحاث لم يكن يروي إلا بقعة محددة من الأرض لم تكن تسكنها جميع بطون الأزد[4].

ويظهر ان القبائل العربية نزحت عن اليمن في أزمان مختلفة، وربما نزح الأوس والخزرج قبل خراب سد مأرب لأن الأوس والخزرج أقاموا زمنا طويلا في المدينة قبل الاسلام كما تدل على ذلك أخبارهم. فمن غير المعقول ان يهجروا اليمن في منتصف القرن السادس الميلادي ويقيموا في الحجاز ثم تكون بينهم هذه الأيام العديدة من

(١) سورة سبأ، الآيات: ١٥، ١٦.
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ٢ ص ١٧٤.
(٣) انظر المسعودي، المرجع السابق والصفحة.
(٤) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٥٤.

الحروب بعد أزمان الوفاق، كل ذلك في حوالي نصف قرن. وإذا كان لخراب السد من أثر على هجرتهم فيجب ان يكون هذا قد حدث في زمن أقدم من الخراب الأخير.

ويتعذر علينا ان نعين زمن قدوم الأوس والخزرج الى جهات يثرب، وكل ما نستطيع قوله اعتمادا على أقوال القدماء، هو ان الأوس والخزرج خرجوا من اليمن وأقاموا في يثرب مع البطون اليهودية التي وجدوها قد سبقتهم في هذه الجهات.

العلاقات بين القبائل اليهودية :

قبل أن نعرض للعلاقات التي قامت بين اليهود من جهة والأوس والخزرج من جهة أخرى علينا ان نتعرض لنوع العلاقات التي كانت قائمة بين اليهود أنفسهم.

كانت القبائل اليهودية التي استوطنت بلاد الحجاز كثيرة ومتعددة وأشهرها القبائل الثلاث قريظة والنضير وقينقاع. لم تحدثنا المرويات عن طبيعة العلاقات التي سادت بين البطون اليهودية في الفترة الاولى من وجودهم ببلاد الحجاز. ويظهر ان العلاقات فيما بينهم كانت طيبة في بداية الأمر، ذلك لأن مصلحتهم المشتركة كانت تملي عليهم مثل هذه العلاقة، فهم طارئون على بلاد غريبة بالنسبة إليهم، وهاربون من الخوف والاضطهاد، فلا بد والحالة هذه ان يدفعهم الشعور بالمحنة المشتركة الى التعاون، وتقديم المساعدات الى القادمين الجدد ليكثر عددهم ويشتد ساعدهم ويقوموا على حماية أنفسهم في بيئتهم الجديدة.

وكان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤساء منهم، يؤدون لهم ما هو مفروض عليهم من مال خلال العام. وهؤلاء السادة هم أصحاب الأطام والحصون والأرض. وكان على الفلاح اليهودي ان يعمل في الارض ويسدد ما عليه لصاحبها مقابل استغلاله لها. اعتنى اليهود بزراعة النخيل بشكل خاص، وكانت الاراضي المزروعة به تعرف بـ (الصورين) «الصورا»[1] ولا بد ان مزارع اليهود كانت تتعرض للغارات من الخارج. ولم يكن يحميها سوى حراس هم أنفسهم المشتغلون بها وقت إثمارها. وكانت هذه الغلة عزيزة على اليهود الذين كانوا يرون فيها مورد رزقهم. ولهذا شق عليهم كثيرا، وانهارت مقاومتهم عندما امر الرسول ﷺ بقطع النخيل وتحريقه أثناء محاصرته لهم.

---

(١) انظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ٢ ص ٩٥، أنظر كذلك الروض الأنف للسهيلي، مكتبة الكليات الأزهرية حـ٢ ص١٩٤.

وحين استقرت امورهم وتم لهم الغلب بدأ تضامنهم يضعف، ولم تعد الروح الجامعة بينهم لها فعاليتها. بل اخذت الروح القبلية تحل محلها، وكان من مظاهر هذا ان برزت العصبية القبلية وظهر الانفصال بين الجماعة اليهودية. ويبدو ان احداثا وحروبا وقعت بين طوائفهم كان من نتيجتها ذلك التفكك الذي ظهر واضحا بينهم حين وقع النزاع بينهم وبين الاوس والخزرج، فقد فشلوا في جمع صفوفهم في وجه الأوس والخزرج واستمر انقسامهم حتى بعد انقسام الأوس والخزرج ووقوع الحرب بينهم. فتحالف بعضهم مع الأوس كما تحالف آخرون مع الخزرج[1]وكانوا في القتال اقسى على بني جنسهم من العرب، فقد قسا بنو النضير وقريظة على بني قينقاع وأثخنوا فيهم، ومزقوا شملهم في حرب بعاث التي وقعت بين الأوس والخزرج، مما جعل احد شعراء اليهود من بني النضير يتألم لهذه الحالة.[2]

ولا نجد تفسيرا لهذه القسوة الا القول بان القبائل اليهودية قد استحكم بينها العداء وخاصة بين بني قينقاع وبين بني النضير وقريظة. كما اننا نجد في هذه القسوة دليلا على ان اليهود كانت تسود بينهم الروح القبلية، شأنهم في هذا شأن العرب. وقد استفاد الرسول ﷺ من هذا الانقسام اذ سهل عليه مجابهة البطون اليهودية متفرقة لا متحدة. وكان لاتحاد بني قريظة وبني النضير أثر على بني قينقاع الذين هجروا الزراعة واقتصروا على الصناعة لأنه من غير المعقول ان يميل جميع بني قينقاع الى الصناعة دون الزراعة هكذا، وهم من البطون اليهودية الكبيرة.

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه العلاقات السيئة التي كانت بين اليهود بقوله :

﴿واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم، ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب﴾.[3]

---

(١) الأغاني حـ٣ ص ٢٤.
(٢) انظر الأغاني حـ ١٩ ص ٩٥. انظر كذلك ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٦٩.
(٣) سورة البقرة: الآيتان ٨٤، ٨٥. انظر تفسير الطبري حـ٢ ص ٣٠٥.

وهكذا كانت القبائل اليهودية وقت الهجرة النبوية في حالة واضحة من التفكك حتى ان خطر المسلمين عليهم لم يكن كافيا لتوحيد صفوفهم وما أحسن ما وصفهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾[1].

بين اليهود والعرب في يثرب :

لم تذكر المصادر التاريخية شيئا عن موقف العرب الذين كانوا يسكنون بلاد الحجاز عند قدوم أول المهاجرين اليهود. وربما أن أحداثا وقعت بين المهاجرين اليهود وسكان البلاد المحليين بدليل اتخاذ اليهود الأطام والحصون لتحميهم من غارات جيرانهم من العرب. وربما كانت الاشارات الواردة في التوراة عما بين العرب المعانيين والبطون اليهودية، تزيدنا يقينا ان السكان الاصليين في يثرب وفدك ووادي القرى وخيبر، لم يستقبلوا المهاجرين اليهود بترحاب. الا أنه علينا أن لا نبالغ في هذه الاستنتاجات الى حد كبير لان مثل هذه الحوادث لم تكن على درجة كبيرة من الأهمية والا لما سكتت عنها المرويات، ذلك لان اليهود استوطنوا هذه البقاع في ازمان مختلفة وعلى فترات متقطعة لم تثر حفيظة السكان العرب، وتدفعهم الى الاتحاد والوقوف يدا واحدة في وجه الخطر الداهم، كما يجب ان لا ننسى ان تهود بعض العرب مهد السبيل لدخول اليهود الى البلاد العربية دون مقاومة تذكر.

وفي أول الأمر بدأت علاقات سلم وجوار بين الأوس والخزرج وبين اليهود. فقد قدم هؤلاء العرب على قوم مستقرين في ديارهم، وبيدهم الاموال والآطام والعدد والقوة، فكان طبيعيا ان يكون أقصى ما يطمح اليه الأوس والخزرج هو ان يسمح لهم اليهود بالاقامة بجوارهم والعيش معهم. ولعل هؤلاء العرب كانوا قليلي العدد والعدة بعد ان تفرقت البطون الأزدية في كل الجهات. ولذلك لم يخشَ اليهود عاديتهم بل ربما فكروا بالاستفادة منهم في الأعمال الزراعية، وهم ذو خبرة في هذا المجال كسبوها في اقامتهم باليمن. وهكذا اتخذ اليهود منهم عمالا زراعيين في مزارعهم او مساعدين لهم في أعمالهم الصناعية والتجارية. ورضي الأوس والخزرج بهذا ونزلوا بجوار اليهود او بينهم. ولما لم يكن للعرب من الأوس والخزرج ثروة او سلطان فقد عاشوا في ضنك من العيش

---

(١) سورة الحشر، الآية ١٤.

ولم يكونوا اهل نعم وشاء لأن المدينة لم تكن بلاد مرعى ولا نخل لهم ولا زرع الا اليسير اليسير والمزرعة يستخرجها من الموات، والأموال لليهود.[1]

وأقام اليهود والعرب في وفاق ووئام حتى صار عرب المدينة يعرفون بموالي اليهود[2]. ويظهر ان الأوس والخزرج لم تكن لهم اطماع في أكثر من العيش بسلام مع جيرانهم اليهود، لذلك سألوا اليهود ان يعقدوا بينهم جوارا وحلفا يأمن به بعضهم من بعض، ويمتنعون به ممن سواهم، فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا، فلم يزالوا على ذلك زمانا طويلا[3].

ولما رأت قريظة والنضير أن الأوس والخزرج صار لهم عدد وعدة، خافوهم ان يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم، وكانت قريظة والنضير أعد وأكثر، وكان يقال لهما الكاهنان، وبنو الصريح، وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم مثنيا عليهم :

كنا إذا رامنا قوم بمظلمة	شدت لنا الكاهنان الخيل واعتزموا
نسوا الرهون فآسونا بأنفسهم	بنو الصريح فقد عفوا وقد كرموا[4]

ونستنتج من هذه الرواية ان اليهود لم يكونوا يخشون العرب وهم قليلون في العدد والعدة، وكانوا يرون فيهم خير وسيلة على تحصيل الثروة، ولا نستطيع على ضوء المعلومات التي بين أيدينا أن نتبين وجود نية مسبقة عند الأوس والخزرج لقطع الحلف الذي بينهم وبين اليهود، والراجح أن اليهود عندما رأوا ثروة العرب وعددهم قد نما وتزايد، شعروا بان الحلف انما يسير الى مصلحة جيرانهم، فخافوا ان يتطور الأمر الى أن يغلبوهم على دورهم فغيروا مسلكهم نحوهم وأساءوا معاملتهم وانتهوا الى قطع الحلف الذي بينهم.

---

(١) انظر الأغاني جـ١٩ ص ٩٦. ابن خلدون، تاريخ، جـ٢ ص٨٣، «طبعة ارسلان» السمهودي،وفاء الوفاء جـ١ ص١٧٧.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١ ص ٤٢٨.
(٣) انظر السمهودي، وفاء الوفاء، جـ١ ص ١٧٨.
(٤) انظر السمهودي ، المرجع السابق جـ١ ص١٧٨.

وقبل أن نسترسل في أسباب الخلاف بين الطرفين، أرى أن أعرض لمشكلة تعرض لها بعض الباحثين دون ان يقطعوا برأي فيها، وهذه المشكلة تتلخص في معرفة ما اذا كان لليهود دولة أو مملكة في شمال الجزيرة العربية أم لا؟.

إن الحالة التي وجد عليها اليهود زمن قدوم الأوس والخزرج اليهم ممثلة فيما هم فيه من عز وسلطان، وما آل اليه حال القادمين الجدد في ظل السيطرة اليهودية. وكل هذه المظاهر تبعث على الاعتقاد بوجود نوع من التنظيم السياسي يخضع له اليهود. ويعزز هذا الاعتقاد الرواية العربية التي تقول «بان الفطيون» أو «الفيطوان» ملك اليهود بيثرب، وكانت لا تهدى عروس بيثرب من الحيين الأوس والخزرج حتى تدخل عليه فيكون هو الذي يدخل بها قبل زواجها»[1].

ويستفاد من هذه الرواية ان اليهود كان لهم مملكة في الحجاز على غرار الممالك التي قامت على أطراف الجزيرة العربية وعلى حدود فلسطين، وجاءت التوراة على ذكر معظمها، ولا يعقل ان تكون جموع اليهود في الحجاز دون تنظيم يخضع له الجميع، سيما وهم أصحاب دين وخرجوا من بلاد متقدمة في الحضارة واستوطنوا بلادا جديدة غريبة تحيط بهم المخاوف، ولا سبيل لدرء هذه المخاوف إلا بالخضوع لنظام يؤمن مصالحهم ويكفل الدفاع عنهم.

ويظهر من استعراض اسماء الشخصيات اليهودية التي كان لها الزعامة عند ظهور الاسلام، ان تنظيم المجتمع اليهودي الحجازي كان يخضع الى مجموعة من العوامل ابرزها العامل القبلي. فنحن نجد ان الصفات التي يجب أن تتجمع في رئيس القبيلة العربية لا بد من توفر معظمها في رئيس المجموعة اليهودية. والعامل الثاني هو العامل الديني، ونجد تأثير هذا العامل في ترديد الزعماء اليهود لقصص التوراة والتلمود وأخبار الكتب اليهودية. ان دراسة احوال الزعماء اليهود في فجر الاسلام تؤكد صحة ما ذهبنا اليه.

لقد أنكر ولفنسون[2] قصة الملك اليهودي «الفطيون» واستبعد حدوثها بحجة كون اليهود أصحاب دين سماوي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغي، ويستطرد فيقول:

---

(١) انظر السمهودي، المرجع السابق حـ١ ص ١٧٨.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٥٦.

«ليس من المعقول ان يرتكب مثل هذه الجرائم ملك يهودي لان في هذا الفعل مخالفة لروح التوراة، وتخالف الايمان بإله موسى دون ان يجد مقاومة عنيفة وإنكارا شديدا من شعبه وأبناء جلدته».

ويعزو ولفنسون سبب إيراد هذه القصة فيقول: «إن الباعث على اختلاق هذه القصة وتلفيقها انما هو محاولة إخفاء الحقيقة في حادثة غدر ابن العجلان بجيرانه وسفكه لدماء الابرار كما سيأتي تفصيل ذلك»[1].

لقد أوردت الروايات العربية قصة فعل لخنيعة ينوف ذوشناتر الذي اغتصب الملك في اليمن وأسندت اليه ما كان يفعله قوم لوط. ويغلب على الظن ان اليهود في اليمن او خارج اليمن هم اصحاب هذه الرواية. وقصدهم منها اضعاف خصمهم وتقوية دعوتهم للتمكن من الاستئثار بالملك مرة أخرى. وربما قصدوا أيضاً تمجيد عهد ذي نواس. ان الشيء الملفت للنظر هو سكوت ولفنسون عن هذه الرواية وعدم التعرض لها، بينما نجده ثائرا على الرواية العربية التي أوردت خبر الفطيون، وجاء في الرواية السابقة ان أخت مالك بن العجلان تزوجت رجلا من قومها، فبينما مالك في نادي قومه، اذ خرجت اخته فضلا، فنظر اليها أهل المجلس، فشق ذلك على مالك ودخل فعنفها وأنبها فقالت: «ما يصنع بي غدا أعظم من ذلك، أهدى الى غير زوجي» فلما امسى مالك اشتمل على السيف ودخل على الفطيون متنكرا مع النساء، فلما خف من عنده عدا عليه فقتله وانصرف الى دار قومه. ثم بعث هو وجماعة من قومه الى من وقع بالشام من قومهم يخبرونهم بحالهم ويشكون اليهم غلبة اليهود[2].

وقومهم هؤلاء هم بنو غسان وملكهم هو أبو جبيلة الغساني ولما اطلع الملك الغساني على حال بني قومه من الأوس والخزرج في يثرب خرج في جمع كبير لنصرتهم. وتظاهر ابو جبيلة بانه يريد اليمن حتى يأخذ اليهود على حين غرة، ولما قدم المدينة اقام بذي حرض وأرسل الى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا اليه فوصلهم وأعطاهم. ثم ارسل الى بني اسرائيل، يعني اليهود، وقال: «من أراد الحباء من الملك فليخرج اليه، وانما فعل ذلك خيفة ان يتحصنوا في الحصون فلا يقدر عليهم، فخرج اليه اشراف بني

(١). المرجع السابق ص ٥٧.
(٢) انظر ولفنسون. تاريخ اليهود... ص ١٧٨، ١٧٩.

اسرائيل بخواصهم وحشمهم، فأمر لهم بطعام، حتى اجتمعوا فقتلهم عن آخرهم. وقال للأوس والخزرج «إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم» ثم عاد إلى الشام. وبعد هذه الحادثة صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة فتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها يتبوأون منها حيث شاءوا، واتخذوا الديار والأمول والآطام»[1].

إن احتمال استنصار الأوس والخزرج بالغساسنة امر اقرب الى الاطمئنان، والغساسنة والأوس والخزرج تربطهم رابطة النسب فهم جميعا من فرع الأزد - اي انهم ابناء عمومة كما هم ابناء خؤولة، فقد كانت الأوس والخزرج تعرف بأبناء قيلة، وقيلة امهما وهي من الغساسنة كما يقرر النسابون - وكان الغساسنة قد قوي امرهم في الشام وكونوا مملكة لهم.

ويعزز هذاا الرأي احتمال وقوع احداث يثرب قبل تهود ملوك اليمن، فقد ذكرت بعض المصادر رواية تفيد ان ابا جبيلة لما فرغ من نصر اهل المدينة رجع الى الشام، فأقبل تبع الأخير - كرب حسان بن أسعد الحميري[2] - الذي ملك اليمن قبل ذي نواس. ويظهر ان اليهود حاولوا الانتقام من مالك بن العجلان وقومه انتقاما لمقتلة ابي جبيلة فقال مالك بن العجلان: «والله ما ثخنا اليهود غلبة كما نريد فهل لكم ان اصنع لهم طعاما ثم ارسل في مائة من اشراف من بقي من اليهود، فإذا جاؤوني فاقتلوهم جميعا، فقالوا نفعل، فلما جاءهم رسول مالك قالوا والله لا نأتيهم ابدا وقد قتل ابو جبيلة منا من قتل . . . ثم استطاع مالك ان ينجح في مكيدته وان يستقدم عددا من اشرافهم ويقضي عليهم، فذلّوا وقل امتناعهم وخافوا خوفا شديدا، واضطرت بعض البطون الصغيرة منهم ان تدخل في احلاف مع جيرانهم من الاوس والخزرج، ولم يبق الا بنو النضير وقريظة، اذ اعتمدوا على قوتهم وكثرة عددهم ومناعة حصونهم[3]. بعد ذلك قوي بأس العرب وجعل اليهود كلما هاجمهم احد من الاوس والخزرج بشيء يكرهونه، فيلتجئون الى بطون الأوس

---

(١) انظر الأصفهاني، الاغاني جـ ١٩ ص ٥٦، ٥٧.
انظر كذلك، ابن الاثير، الكامل في التاريخ حـ١ ص ٤٢٦، ٤٢٧. ابن خلدون، تاريخ . . . حـ٢ ص٨٤. السمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص ١٧٩، ١٨٠.

(٢) انظر اليعقوبي، تاريخ حـ١ ص ١٧١، ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ٧ ص ٤٢٩. السمهودي، وفاء الوفاء حـ١ ص ١٨٦.

(٣) انظر الأغاني، حـ٣ ص٢٤، حـ١٩ ص٩٧،

والخزرج يشكون حالهم بعد ان كانوا يستنصرون ببعضهم، وهكذا اصبح اليهود يتعززون بالعرب[1].

وإذا أخذنا بهذه الرواية العربية نجد ان تاريخ سيطرة الأوس والخزرج على المدينة، واخذهم امرها بيدهم انما يجب ان يكون في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي اي قبل الاسلام بفترة ليست طويلة، لأننا نجد ان احد أبناء مالك بن العجلان «عثمان» في عداد المسلمين الذين شهدوا بدراً، كما نجد جملة رجال من بني العجلان قد شهدوا بدراً ومشاهد أخرى إسلامية[2].

غير ان هذا الرأي في تحديد زمن استيلاء الأوس والخزرج على مقاليد الامور في المدينة يتعارض مع ما نعرفه من العلاقات التي قامت بين الأوس والخزرج انفسهم بعد قضائهم على السيطرة اليهودية، لأن الأوس والخزرج عاشوا فترة من الوفاق ثم تلتها فترة خلافات وحروب امتدت زمنا ليس بالقليل، ولا يعقل ان تكون كل هذه الامور قد تمت خلال نصف قرن اي حتى ظهور الاسلام.

يحدد «سيديو» سيادة الأوس والخزرج على المدينة بسنة ٤٩٢م[3] ويقول ان الأوس والخزرج قاوموا غارات تابعة اليمن بعد ذلك ثم دبَّ الضعف في القبيلتين بسبب الحروب التي نشبت بينهما في السنوات ٤٦٧، و٥٢٠، و٥٨٣، ٦١٥م ثم سادهما الوئام بعد خمس سنوات فاتصلتا بمحمد[4].

يرى بعض المؤرخين وخاصة المؤرخين اليهود ان حوادث اليمن وقعت قبل حوادث يثرب ويربطون بعض احداث الحجاز بين العرب واليهود وبين الصراع العام الممثل بالصراع الديني والسياسي الذي ساد المنطقة وكان من نتائجه ما حدث في اليمن في السنوات ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥م. ويرى بعضهم ان الأوس والخزرج لم تصرحا بعدائها لليهود الا بعد ان حلت النكبة بالدولة اليهودية في اليمن. وهم لا يتصورون ان يحل الاضهاد بيهود الحجاز في وقت فيه ملوك اليمن المشهورون المتعصبون ليهوديتهم، لأن

---

(١) انظر احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة ص ٣٢٢.

(٢) انظر ابن دريد، **الاشتقاق** ص ٤٥٨.

(٣) انظر **تاريخ العرب العام** ترجمة عادل زعيتر، دار احياء التراث العربي - بيروت ١٩٤٨ ص٥١.

(٤) انظر المرجع السابق والصفحة.

هؤلاء لا يمكن أن يسكنوا دون نصرة اخوانهم يهود الحجاز[1]. وهكذا نجد أن هذا الفريق من الباحثين يربطون سبب نكبة يهود الحجاز بالنكبة التي حلت بيهود اليمن، ويحملون العناصر النصرانية نتائج ما حدث ليهود الجزيرة العربية، ويذهبون الى الاستنتاج أن هذه النكبات التي توالت على اليهود بعثت الحماس في الجانب النصراني الآخر للمضي في مخططه الرامي لهدم الكيان اليهودي واقتلاع جذوره من الجزيرة العربية وترك أموال اليهود ومستعمراتهم ومزارعهم تحت رحمة العرب. ويدلل ولفنسون على هذا الرأي بالأدلة التالية:

أولاً : ان ابا جبيلة الذي دعته المصادر العربية ملكا، لم يكن من سلالة ملوك غسان الذين كانوا من ابناء جفنة، ويستشهد ولفنسون على ذلك بقوله ان ابن خلدون يذكر ان ابا جبيلة والحارث الأعرج هما الملكان الوحيدان من غير بني جفنة ملّكهما الروم عرش الشام، ولم يكن الاعرج ملكا بل قائدا ولم يذكر ابا جبيلة[2].

ويتساءل ولفنسون عن الاسباب التي حملت قياصرة الروم على تولية ملكين من غير سلالة ال جفنة ثم ارجاع العرش الى هذه الأسرة.

ثانياً : لأن آخر ملوك غسان هو جبيلة بن الايهم وهو من ابناء جفنة ـ اعلن هذا اسلامه في عهد عمر بن الخطاب ثم عاد الى النصرانية ـ من هاتين الدلالتين يخلص ولفنسون الى ان ابا جبيلة لم يكن من ملوك غسان وانما قائدا هاجم يثرب بناء على رأي سيده البيزنطي، او ان الأوس والخزرج عقدوا حلفا مع الغساسنة بعد ان فشل حلفهم مع اليهود، وولّدت عندهم المطامح والآمال[3].

ويعزز ولفنسون آراءه هذه بما أورده بعض مؤرخي العرب من أن شمال الحجاز كان في شبه تبعية لليمن في عصر دولة حمير اليهودية وان واحدا من الأسرة المالكة في اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة في شمال الحجاز. ويقول «وقد بقيت البطون العربية عصورا طويلة على موالاة ومناصرة لليهود دون ان يظهر عليهم شيء يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل، الى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكائد وتحرض عليهم

(١) انظر ولفنسون، **تاريخ اليهود** ص ٦١.
(٢) انظر المرجع السابق ص ٥٩.
(٣) انظر ولفنسون المرجع السابق ص ٥٩.

زعماء الأوس والخزرج ليفتكوا بهم. والظاهر ان دولة غسان لم تفعل هذا الا بالايعاز من الدولة الرومانية الشرقية التي ارسلت اسطولها لمساعدة الحبشة في كفاحهما ضد اليهود في اليمن، والتي كانت سياستها واضحة كل الوضوح في الجزيرة العربية اثناء القرن الخامس والسادس بعد الميلاد»[1].

ويرى باحثون آخرون ان الكفاح بين النصرانية واليهودية في بلاد الحجاز كان عنيفا جدا وان غارات الدولة الفارسية على حدود البلاد الرومانية اوقفت الملحمة الفاصلة لزمن ما، ولولا ظهور الاسلام لأصبحت بلاد الجزيرة من الوجهة الدينية منقسمة بأجمعها الى قسمين يهودية ونصرانية[2]. واری ان اعترض على ما سبق من آراء بالملاحظات التالية:

أولاً: إن حوادث يثرب يرجح حدوثها قبل حوادث اليمن كما اسلفنا، ولم يغير مجراها غارات التبابعة الحميريين سواء اكانوا يهوداً أو وثنيين.

ثانياً: لو افترضنا صحة سبق نكبة اليهود في اليمن لاحداث الحجاز فلم تورد المصادر التاريخية اي خبر عن موقف يهود الحجاز ازاء ما حل بإخوانهم يهود اليمن.

ثالثا: من الثابت تقريبا ان سقوط ذي نواس كان بين سنتي ٥٢٤ـ٥٢٥م وان ابرهة الأشرم الذي غزا اليمن هو نفسه الذي غزا مكة عام الفيل وهو العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ. بينما تذكر المصادر التاريخية انه بعد تغلب الأوس والخزرج على اليهود في المدينة دخلوا في حروب استمرت مائة وعشرين سنة الى الإسلام[3].

وهكذا نستبعد وقوع احداث اليمن قبل احداث الحجاز، بل على الاقل ربما ان احداث الحجاز واحداث اليمن وقعت في وقت واحد مما اشغل الطوائف اليهودية كل في محنته.

رابعا: إن الروايات العربية تذكر استنجاد الأوس والخزرج بأبي جبيلة الغساني وهذا يدل على ان الغساسنة لم تكن لديهم فكرة الهجوم على المدينة بدافع الحماس

---

(١) انظر ولفنسون المرجع السابق ص ٦١.
(٢) انظر المرجع السابق ص ٦٢.
(٣) انظر السمهودي، وفاء الوفاء حـ١ ص ٢١٥.

الديني. إذ لو كانت العصبية الدينية هي المحرك لهذه الغارة، لما سلمت منها مواقع يهودية في شمال الحجاز مثل تيماء وفدك ووادي القرى وخيبر وغيرها. ويؤيد هذا ان الغساسنة لم يمكثوا طويلا في المدينة، كما لم تذكر المصادر التاريخية ان الأوس والخزرج كانوا من النصارى.

خامساً: ذكرت المصادر المسيحية الارثوذكسية المعاصرة ان الصراع بين طوائف النصرانية نفسها كان يفوق الصراع بينها وبين اليهودية، كما ذكرت ان النصارى الارثوذكس اضطهدوا على يد الامبراطور الروماني قبل ان يضطهدهم يهود اليمن. وانكر نصارى نجران ما قيل من تقديم الامبراطور الروماني مساعدات للأحباش في غزوهم اليمن(١). واذا اضفنا الى الملاحظات السابقة ما سبق وقلناه في فصل سابق من ان اليهود الذين سكنوا الحجاز في البداية، إنما هم جماعة طلبت الأمن والراحة والبعد عن الصراعات الدينية والسياسية، كما لم يكن عندها تعصب ديني او ميل لنشر هذا الدين. وهذا المذهب يؤيده اليهود كما يؤيده المؤرخ ولفنسون نفسه بترديده اقوال رجال الدين اليهود الذين اعتبروا يهود الحجاز خارجين على التلمود ولذلك اهملوهم ولم يحاولوا اقامة علاقات طيبة معهم(٢).

مما تقدم نستطيع القول أن الجماعة اليهودية في الحجاز كانت مشغولة عن الصراعات الدينية والسياسية في المنطقة بانصرافها الى الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية. ولم تكن تهتم بالأمور الدينية وبتعاليم التلمود. واذا كان هذا الرأي لا يصدق على تاريخ اليهود في شمال الجزيرة العربية في العهد الجاهلي كله فهو يصدق على الفترة الاولى على الاقل. ولو كانت الديانة المسيحية متغلغلة في نفوس العرب لما تركوها وسارعوا الى الدخول في الاسلام في فترة وجيزة من الزمن.

إن ما يقال عن يهود الحجاز في الطور الأول لا يصدق على يهود اليمن الذين كانوا على اتصال بالطوائف اليهودية، ولهم نشاط ديني وسياسي في المنطقة، ولا بد ان الفرس الذين احسنوا الى اليهود منذ ايام كورش استغلوا اليهود في مقاومة النفوذ الروماني.

(١) راجع مقتبساتنا السابقة من الوثائق السريانية المتعلقة بشهداء نجران، تأليف أغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك انطاكية، وسائر المشرق، وخاصة الصفحات ٩٣-٩٥.
(٢) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ٧٣.

لقد اهمل المؤرخون عاملا هاماً في اسباب ثورة عرب المدينة على اليهود ولم يشيروا الى السبب الاقتصادي الذي كان العامل الحاسم في مجريات الأمور. لقد عاش العرب في فقر وحرمان، يعملون في الدوائر الزراعية والتجارية والصناعية التي يمتلكها اليهود ولابد انهم عاشوا في اكواخ حقيرة بجانب القصور اليهودية «الأطم والحصون».

وإذا تذكرنا ما جبلت عليه النفسية اليهودية منذ القدم من حب الاحتكار والاستغلال ادركنا السبب الجوهري الذي دعا الأوس والخزرج الى طلب النصرة على اليهود.

وهـذا ما تفسره الرواية التالية؛ قالوا: «ان عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه بياضة: إن عامرا قد انزلكم منزل سوء بين سبخة ومفازة، وإنه والله لا يمس رأسي غسل حتى انزلكم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل»[1]. وورد ان الوفد الـذي توجـه الى طلب نصـرة الغسـاسنة بالشام اخبر القوم بحالهم وشكوا اليهم غلبة اليهود[2]. وأرى أن الاستنصار بالغساسنة إنما كان جريا على العصبية المألوفة عند العرب في جاهليتهم ولم تكن خلفها الدوافع الدينية النصرانية المزعومة.

وعلى اي حال فإننا نرى ان اقحام النزاع بين الأوس والخزرج وسائر عرب المدينة وبين اليهود في مجال الصراع الدولي وربطها بالصراع بين اليهودية والنصرانية امر لا محل له، والافضل القول بأنه كان نزاعا محليا اوجدته ظروف يثرب الاقتصادية واعتماد السكان فيها على استعمار الاراضي الزراعية ويتضح ذلك من توزيع السكان واشتراك طوائف المدينة كلها فيه تبعا للمصالح الاقتصادية الخاصة بهذه الطوائف. ويزيد من تعزيز هذا الرأي ما فطر عليه العرب من حب الحرية والاستقلال وعدم السكوت على الذل والاضطهاد.

وأما علاقات المدينة مع الأقوام التي تقطن سوريا بما فيهم الغساسنة فكانت حسنة ولم يرد في المصادر التاريخية ان هذه العلاقات كانت تتذبذب تبعا للعلاقات الدولية او الدينية. فقد كانت القوافل التجارية تنتقل بأمان بين الاطراف المختلفة[3].

---

(١) انظر الأصفهاني، الأغاني حـ١٥ ص ١٥٥-١٥٩، «طبعة مصر». ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الفكر - بيروت حـ١ ص٤٤٢. السمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص ٢١٧.

(٢) انظر السمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص ١٧٩.

(٣) انظر الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، الخميس في احوال انفس نفيس، المطبعة الوهبية حـ٢ ص١٢.

وهذه العلاقات الحسنة طبيعية املتها المصالح التجارية المشتركة بين اهل المدينة والغساسنة. وقد عبر شاعر المدينة حسان بن ثابت عن حسن العلاقات مع الغساسنة بقوله:

لله در عصابة نادمتهم	يوما بجلق في الزمان الاول
اولاد جفنة حول قبر ابيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم	بردى يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم	شم الأنوف من الطراز الأول(١)

العلاقات بين الأوس والخزرج ودور اليهود فيها:

بعد ان تغلب الاوس والخزرج على يهود المدينة تفرقوا في عاليتها وسافلتها فكان منهم من جاء الى القرى العامرة فأقام مع اهلها قاهرا لهم ومنهم من بنى القصور والآطام في الأرض الخالية وامتلكوا الأموال(٢). وخلاصة القول انهم اصبحوا سادة المدينة وبيدهم مقاليدها وان الغنى والثروة حلت محل الفقر والحرمان. ويفصح الرمق بن زيد بن غنم بن مالك بن سالم بن عوف بن الخزرج عن حال الأوس والخزرج بعد غلبتهم اليهود بهذه الابيات التي يمدح فيها ابا جبيلة:

لم تقض دينك من حسا	ن وقد عنيت وعنينا
الراشقات المرشقا	ت الجازيات بما جزينا
اشباه غزلان الصرا	ئم يأتزرن ويرتدينا
الربط والديباج والـ	حلي المضاعف والبرينا
وأبو جبيلة خير من	يمشي واوفاهم يمينا
وابرهم برا واعـ	لمهم بفضل الصالحينا
أبقت لنا الأيام والـ	حرب المهمة تعترينا

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الأندلس، قافية اللام ص ٣٦٤-٣٦٦.
(٢) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان حـ٧ ص ٤٣٠.

كبشا له زر يغـ ـلّ متونها الذكر السمينا
ومعاقلا شما وأسـ ـيافا يقمن وينحنينا
ومحلـــــة زوراء تجحف بالرجال الظالمينا[1]

وقد عبر اليهود عن سخطهم على مالك بن العجلان بأن لعنوه في كنائسهم وبيوت عبادتهم فبلغه ذلك فقال:

تحايا اليهود بتلعانها تحايا الحمير بأبوالها[2]
وماذا علي بأن يغضبوا وتأتي المنايا بإذلالها[3]

وقد قيلت بعض الاشعار في رثاء قتلى اليهود بذي حرض لامكان لذكرها هنا. لم تقو روابط صلة الرحم بين الأوس والخزرج على منع عوامل الخلاف بين الحيين العربيين فيما بعد.

لقد تسبب النزاع الاقتصادي بين العرب واليهود الى الحرب بينهم، وتغلب العرب على اليهود. وعندما انتقلت السلطة الى ايدي العرب انتشروا في منطقة يثرب يتبوأون منها حيث شاءوا. غير ان توزيع مساكن الأوس والخزرج في منطقة يثرب يجعلنا ندرك ان التفاوت الاقتصادي بين البطون العربية ظل موجودا، فعندما انتشر العرب في المنطقة لم يستقروا في ارجائها وفق خطة مدروسة تراعي المساواة في توزيع الاراضي الزراعية، وإنما حل كل بطن فيما شاء من الارض، فحدث ان احتل الأوس بقاعا اخصب واغنى من الجهات التي نزلها الخزرج، ولذلك كان حتما ان يقع الخلاف بينهم وان يتنافسوا لنفس الاسباب التي نافسوا فيها اليهود.

ولما كانت اليهود قد فقدت القدرة على مواجهة العرب بالسلاح، ووجدت ان المصلحة تقتضي العمل السريع على افساد العلاقات العربية فيما بينها، لجأوا الى

(١) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ حـ١ ص٤٢٧، وياقوت الحموي، معجم البلدان، حـ٧ ص ٤٢٩. والسمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص ١٨١.
(٢) ذكر ابن خلدون (تحايا) وذكرها السمهودي «تحامي» كما ان هناك اختلافات في بعض الالفاظ في المصادر المذكورة.
(٣) انظر ياقوت الحموي معجم البلدان، حـ٧ ص ٤٢٩. السمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص١٨٢.

اسلوب الوقيعة والدسيسة بين الاوس والخزرج فوسعوا الشقة واججوا العداوة. وقد ادرك العرب منهم ذلك ولقبوهم «بالثعالب» لما عرفوا فيهم من مكر ودهاء وخداع.

وقد استعمل اليهود هذا السلاح الخبيث حتى وقعت الحرب بين الاوس والخزرج وهلك فيها خلق كثير من الطرفين.

حـرب سُمَيـر:

واول حرب وقعت بين الأوس والخزرج هي حرب «سُمَيْر» على ما يذكره الإخباريون. وسبب هذه الحرب ان سميراً - وهو من بني عمرو من الأوس - قتل رجلا كان حليفا لمالك بن العجلان واسم الرجل كعب وهو من بني ثعلبة. فثارت الثائرة بين الأوس والخزرج بسبب هذا القتل وبسبب الدية، إذ طالب مالك بن العجلان زعيم الخزرج بدية الصّريح لحليفه، بينما المتعارف عليه، ان دية الحليف هي نصف دية الصّريح، ووقعت الحرب بينهما ولم تنته الا بعد ان اتفقوا على ان يحكم بينهم «المنذر ابن حرام النجاري الخزرجي». وهو جد حسان بن ثابت، فحكم بينهم بأن يؤدوا لكعب دية الصريح، ثم يعودوا الى سنتهم القديمة، وهي دفع نصف الدية عن الحليف. فرضوا وتفرقوا، ولكن بعد ان تمكنت العداوة والبغضاء بين الطرفين[1].

ومما يجدر ذكره ان الشرارة الاولى لهذه الحرب انطلقت من سوق بني قينقاع في يثرب[2] ثم تجددت الحروب بين الأوس والخزرج وكانت تقع هذه الحروب لأتفه الأسباب، وما كانت لتقع لولا ما اسلفنا من اسباب ادت الى اثارة العصبية الضيقة بين الطرفين، يثيرها في اغلب الاحيان افراد مغمورون من رجال او نساء، ومن هذه الحروب حرب كعب بن عمرو المازني، وحرب الحصين بن الأسلت، وحرب ربيع الظفري وحرب فارع وحرب حاطب ويوم الربيع وحرب الفجار الاولى، وهي ليست بفجار كنانة وقيس، ثم حرب الفجار الثاني ثم يوم بعاث، وكان هذا اليوم آخر الأيام المشهورة التي وقعت بين الأوس والخزرج[3]. وفي هذه الحرب الأخيرة يتضح دور اليهود وتنكشف

(١) انظر الاصفهاني، الأغاني حـ٣ ص ١٨ وما بعدها ،.ابن الاثير الكامل في التاريخ، حـ١ ص ٤٢٨. ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٦٤. البلخي، البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد ١٨٩٩م، حـ٣ ص ١٣٠

(٢) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حـ١ ص٤٢٨ ،محمد احمد جاد المولى. علي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم أيام العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، ط٤ ص ٦٢.

(٣) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حـ١ ص ٤٢٩ وما بعدها. محمد احمد جاد المولى وزميليه، أيام العرب في الجاهلية وصدر الاسلام حـ١ ص ٦٩ وما بعدها.

نواياهم اكثر من اية حرب سبقتها، فلم يكتف اليهود بالدس الخفي بل نجدهم يباشرون القتال بأنفسهم مع الأوس كما سيأتي تفصيله.

يــوم بعــاث:

وكان سبب حرب بعاث ـ كما ذكر اهل الأخبار ـ ان الخزرج ظفروا على الأوس في الحروب المتقدمة، وعلم الخزرج ان اليهود من بني قريظة والنضير عزمت على محالفة الأوس فأرسلت الخزرج الى اليهود تقول: «إن الأوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا، ولن يعجزنا ان نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب، فإن ظفرنا بكم فذاك ما تكرهون، ويشغلكم من شأننا ما انتم الآن منه خالون، وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا».

«فلما سمعوا ذلك علموا انه الحق، فأرسلوا الى الخزرج: انه قد كان الذي بلغكم والتمست الأوس نصرنا، وما كنا لننصرهم عليكم ابدا، فقالت لهم الخزرج: فإن كان ذلك كذلك فابعثوا الينا برهائن تكون في ايدينا، فبعثوا اليهم بأربعين غلاما منهم، ففرّقهم الخزرج في دورهم ومكثوا بذلك مدة»[1].

وكان زعيم الخزرج في هذه الحرب عمرو بن النعمان بن صلاءة بن عمرو بن امية ابن عامر بن بياضه، وكان على الأوس يومئذ حضير الكتائب بن سماك بن عتيك بن امريء القيس بن زيد بن عبد الأشهل. وكان حلفاء الخزرج يومئذ أشجع من غطفان، وجهينة من قضاعه، وحلفاء الأوس مزينه من أحياء طلحة بن إياس، وقريظة والنضير من يهود[2]. وقد كان هذا اليوم عبوسا قاسيا على جميع البطون التي في يثرب لما لحقها من خسائر، وفي النهاية انهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلاح، فصاح صائح يا معشر الأوس احسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار «الثعالب»، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم قريظة والنضير[3].

---

(١) انظر الاصفهاني، الأغاني، حـ١٥ ص ١٥٤ وما بعدها، السمهودي وفاء الوفاء حـ١ ص ٢١٦.
(٢) انظر ابن خلدون، تاريخ ... حـ٢ ص ٨٨.
(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ حـ١ ص ٤٤٤.

ونستخلص من هذه الحرب جملة نتائج جديرة بالاهتمام.

الأولى : أن القبائل اليهودية الكبرى حالفت الأوس ولم تحالف الخزرج. وكان الخزرج هم أصحاب الجاه والسلطان عند مقدم العرب الى يثرب، وزعيمهم مالك بن العجلان هو الذي تسبب في إذلال اليهود وخضد شوكتهم في المدينة، ولذلك أراد اليهود ان يذلوا الخزرج ويقضوا على قوتهم أولا ثم يصبح القضاء على الأوس ممكنا. وقصد اليهود ايضا من تحالفهم تأجيج الحرب وزيادة شدة القتال ليكون الجرح بين الحيين العربيين عميقا يصعب شفاؤه.

الثانية : ان العقلاء من الأوس والخزرج أدركوا ما رمى اليه اليهود، وربما كان إدراكهم متأخرا، فصاح صائحهم الأوسي لوقف القتال والحفاظ على صلة القربى وحسن الجوار لان جوار الخزرج أخوة الأوس خير من جوار الثعالب «اليهود».

إن وصف اليهود بالثعالب من قبل حلفائهم وهم لا زالوا يقاتلون معهم له دلالته. فلا شك انهم سمعوا منهم ما يكشف بعض نواياهم البعيدة. كما رأوا قسوة اليهود على إخوانهم الخزرج وحرصهم على إبادتهم ونهب ممتلكاتهم ولذلك لم يسلبوها وإنما سلبهم قريظة والنضير. إن إدراك العرب في يثرب لنوايا اليهود ودسائسهم هو الذي جعل من بعاث آخر يوم من أيام حروبهم، لأنه من المفروض ان تشتد الحروب بعد سيل الدماء الذي جرى بين الطرفين، فقد أصبح لكل بطن ثارات يطالب بها من البطن الآخر. وعلى الرغم من كل ذلك لم تحدث حرب بين الطرفين.

الثالثة : ان مقولة عمرو بن النعمان البياضي - زعيم الخزرج - الأنفة الذكر، تأكيد لما ذهبنا اليه من أثر العامل الاقتصادي في افساد العلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة، كما يؤكد ان الخزرج اصحاب الجاه والسلطان لم يفوزوا بارض خصيبة وانما كان سكناهم بين سبخة ومفازة, بينما احتل اخوانهم الأوس الأقل منهم شأنا، أرضا أخصب، فكان لهذا أثره على العلاقات بين الحيين العربيين،

فلربما تطلع الاوسيون الى السيادة والتفوق على الخزرج بعد أن تفوقوا عليهم في الثروة، وكانت الثروة ولا زالت من مقومات الرياسة الاساسية.

إذا أخذنا بهذه الملاحظات نجد ان التنازع بين الأوس والخزرج ـ بحسب ما ذكرنا من روايات ـ اتخذ طابعا قبليا ظاهره التنافس على الرياسة واحتلال مركز الصدارة في يثرب. ولما كان انتصار العرب على اليهود قد جاء على يد رجل من الخزرج اصبح له الذكر والشرف عليهم، كان طبيعيا ان يعمل الخزرج على الاحتفاظ بمركز الصدارة في المدينة

غير أن الأوس أثار في انفسهم أن يروا أبناء عمومتهم لهم الجاه والسلطان من دونهم، وهم الذين يملكون البقاع الزراعية ويتمتعون بمركز اقتصادي افضل من مركز الخزرج.

وقد أكد جاه مالك بن العجلان الخزرجي، الغطفاني الذي كان يقود فرسه في سوق بني قينقاع ويقول: «ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب، وأعطاها لمالك»(1) وكانت سببا في حرب يوم سُمَيْر.

وقد قيل إن بني قينقاع حالفوا الخزرج مقابل تحالف بني النضير وقريظة للأوس، غير أن بني قينقاع لم يكن لهم تأثير في مجريات الحرب كما كان للقبيلتين الأخريتين. وقد أظهر الربيع بن الحقيق ـ وهو من زعماء اليهود وشاعر بني النضير ـ استياءه الشديد مما دعاه المعاملة القاسية لبني قينقاع، وذكر معايب بني النضير وقريظة، وكان ابن الحقيق هذا من رؤساء اليهود يوم بعاث وكان حليفا للخزرج هو وقومه فقال:

سئمت وأمسيت رهن الفرا ... ش من جرم قومي ومن مغرم
ومن سفيه الرأي بعد النهى ... وعيب الرشاد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحلـ ... ـيم لم يتعدوا ولم يظلم
فأودى السفيه برأي الحليـ ... ـم وانتشر الأمر لم يبرم(2)

---

(1) انظر ص ١٦٣ من هذا الفصل.

(2) الأصفهاني، الأغاني، حـ٢١ ص ٦٢. وابن سلام الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء هو الذي يقول ان ابن ابي الحقيق من بني النضير وليس من بني قريظة.
أنظر طبقات فحول الشعراء، طبعة دار المعارف ص ٢٣٧.

وهذا الموقف شبيه بموقف الأوس من الخزرج حين انتصروا عليهم، وهذه تدل على رابطة الدم التي تجمع الأطراف المتعددة في يثرب وهي الرابطة التي يعول عليها كل طرف اذا ما جد الجد في نهاية الأمر.

من كل ما تقدم نرى ان العامل الاقتصادي كان هو العامل المتحكم في توجيه العلاقات العامة بين السكان في يثرب. وحتى بين بطون القبيلة الواحدة، ولم تستطع رابطة الدم ان تتغلب على الدوافع الاقتصادية، التي كان من السهل استغلالها للايقاع بين الأوس والخزرج أو بين بطون هاتين القبيلتين، لأن هذه البطون كانت تفضل الوقوف على الحياد لان مصلحتها الاقتصادية تدعو الى ذلك. وكانت بعض البطون تحاول الاستيلاء على ما في ايدي البطون الاخرى من أراضي ودور كما حدث بين بني حارثة وبني عبد الأشهل وهما بطنان من فرع واحد من الأوس وهو النبيت، كانا متجاورين في منازلهما، فتقاتلا حتى أجلى بنو حارثة اخوانهم بني عبد الاشهل حتى ألحقوهم بأرض بني سليم، ثم عاد هؤلاء بحلفائهم من بني سليم فهزموا بني حارثة واجلوهم الى خيبر فأقاموا بها قريبا من سنة حتى تم الصلح بينهما(١). وكما حدث بين بني بياضة وبني زريق وهما بطنان من فرع واحد من الخزرج اذ اقتتلوا وأجلى الأولون الآخرين من منازلهم(٢).

وهكذا حدث يوم بعاث ومجتمع يثرب في حالة من الغليان واضطراب المصالح لم يشهدها من قبل، وهو في نفس الوقت وضع حدا للحروب اللاحقة كما سبق وأسلفنا. فقد قتل في هذه الحروب عدد كبير من أفراد القبائل المتقاتلة. بينهم سروات القوم ورؤساؤهم ولم يبق من هؤلاء إلا القليل. وأصيبت الممتلكات بالاضرار الفادحة نتيجة التقطيع والتحريق الذي أصاب الأشجار المثمرة. كل هذه الحوادث جعلت العرب يفتحون عيونهم الى ما يراد بهم فأخذوا يفكرون في وضع حد لهذه المنازعات فبدأت الأفكار تتجه الى إيجاد جو من السلام ينصرف فيه الى أعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناء العيش، وبخاصة البطون الصغيرة التي لم يكن من صالحها الاشتراك في هذه النزاعات وكان همها ان تعمل لتحصيل معاشها بسلام.

لذلك تنادى زعماء القوم من الطرفين الرئيسيين للأخذ على يد من تسول له نفسه

---

(١) انظر السمهودي ، وفاء الوفاء، حـ١ ص١٩٢ وما بعدها.
(٢) انظر المرجع السابق والصفحة.

إثارة الفتن وإيقاد نار العداوة من جديد. وقد خفت نار الحقد بين الأوس والخزرج حتى فكر الحيان بالاتحاد وانتخاب ملك يحكمهما. وقيل ان الرأي اتفق على ان يكون أول ملك عليهما عبدالله بن أبيّ بن سلول احد زعماء الخزرج المشهورين. وتقول الروايات انه لم يكن يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله على رجل من أحد الفريقين، فكان الخزرج قد نظموا له الخرز ليتوجوه ملكا على يثرب. فجاءهم الله برسوله ﷺ وهم على وشك تتويجه فلحق قومه الاسلام. ولما رأى أن القوم دخلوا في الاسلام وأبوا إلا الاسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغينة[١].

ولما سئم الحيان الكبيران الحرب في يثرب، وأحس الجميع بالحاجة الى التخلي عن العداوة والجفاء والانصراف الى العمل المجدي في الزراعة والتجارة تظاهر اليهود بانهم كباقي الأحياء العربية يتطلعون الى السّلام، بينما ظلوا يعملون سرا للايقاع بين الأوس والخزرج بعد ما غاظهم ما شاهدوه من الفتهم وجماعتهم وصلاح ذات البين بفضل إسلامهم. وتتضح نيتهم هذه عندما ارسل «شاس بن قيس» فتى يهوديا كان معه إلى ناد من نوادي الأوس والخزرج، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار يوم بعاث، حتى كاد القوم يتنازعون ورسول الله ﷺ بين أظهرهم[٢].

أثر اليهود في الجزيرة العربية:

أقام اليهود لهم ملكا في فلسطين لفترة من الوقت، غير ان هذه الدولة لم تنتج شيئا للحضارة. «إذ لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في شيد المعارف البشرية. كما انهم لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ»[٣].

لقد قدم الفنيقيون للحضارة الانسانية الكثير من المنجزات التي يحق لهم الافتخار بها، ولكن فلسطين عاشت بعدهم فراغا طويلا، ولم تعاود رسالتها الانسانية الا بعد ان غمرها الاسلام.

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٥٨٤ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، حـ١ ص ٥٥٥ سنعود الى تفصيل هذه الرواية عند الحديث عن العلاقات العربية اليهودية في عهد الرسول ﷺ.

(٣) غوستاف لوبون، اليهود في الحضارات الاولى، ص٥.

قد يرى البعض أن تاريخ اليهود في جزيرة العرب كتب من وجهة النظر العربية نظرا لان المصادر العربية والاسلامية هي التي أوردت اخبار يهود جزيرة العرب عامة ويهود الشمال خاصة. ويحمل هذا الادعاء الشك في ان العرب المسلمين قضوا على كل مخلفات اليهود بعد ان اشتد العداء بينهم. وهذه الدعوى ضعيفة كما هو واضح لانه لا يمكن لأمة أن تطمس على حضارة امة أخرى مهما بلغ بينهما من عداء، وأمامنا في التاريخ أمثلة كثيرة لا تحصى. وكان بامكان اليهود ان يحملوا بعض منتجاتهم الحضارية الى الشعوب المجاورة لو كانت لهم حضارة. ولم يكتب يهود الجزيرة تاريخهم، ولم يعثر المنقبون على شيء يدل على ان اليهود نقلوا خلال تاريخهم في الجزيرة العربية شيئا عن وصف حياتهم فيها.

ولذلك فإن الحديث عن يهود الجزيرة انما هو حديث عن قطاع عادي من سكان الجزيرة العربية منحته البيئة بعض الخصائص الاقتصادية. وسنرى ذلك في حديثنا عن جوانب حياتهم المختلفة.

الحالة الاقتصادية :

كانت الحالة الاقتصادية في مدينة يثرب متعددة الجوانب، نظرا لأن سكانها مارسوا جميع المهن المعروفة آنذاك، غير ان اشتغالهم بالزراعة فاق كل اعمالهم، ذلك لان المدينة تقع في منطقة خصيبة تسيل فيها الوديان وتغذيها الينابيع الغزيرة. وقد قام السكان بحفر الكثير من الآبار لري مزروعاتهم وشرب المياه النقية منها. ويظهر ان المياه الجوفية في هذه المنطقة قريبة من سطح الارض، تدل على ذلك الآبار الكثيرة المحفورة فيها. وقد وردت آيات في القرآن الكريم تشير الى جنات النخيل والأعشاب والزروع الاخرى من بينها الحبوب والبقول[1]، وتدل الآيات ايضا على ان السكان كانوا يتعاملون بالثمار وبأثمانه كانوا يقضون حاجاتهم. وأكثر الأشجار ذكرا هي شجرة النخيل ولا غرو فهي شجرة الصحراء المشهورة، وكانت عماد غذاء أهل البادية.

---

(١) انظر سورة البقرة، الآيات: ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦. سورة الانعام الآيات ٩٩، ١٤١، سورة الكهف الآيات: ٣٣-٣٤. سورة المؤمنون، آية: ٩، سورة ياسين الآيات: ٣٣-٣٤، سورة ق، الآيات: ٧-١١.

ليس هناك علاقة بين الزراعة في الجزيرة العربية وبين سكن اليهود فيها وذلك لان الزروع والنخيل في يثرب عرفت منذ عهد العمالقة(١).

وقد استوطن اليهود هذه الواحات الخصبية وتابعوا العمل الزراعي فيها، وهي لا تصلح لغير الزراعة، فكان لا بد ان يشتهر اليهود بالزراعة بصفتهم يسكنون أخصب الاراضي الزراعية تحيط بهم القبائل البدوية التي احترفت المهنة الرعوية. ولذلك لم تكن هناك فوارق تذكر بين السكان العاملين في الزراعة سواء اكانوا من العرب ام من اليهود اللهم الا في المعتقدات الدينية، وربما ان هذه الملاحظة هي التي جعلت بعض المستشرقين يذهبون الى القول: «ان اولئك اليهود لو كانوا يهودا حقا هاجروا من فلسطين الى هذه المواضع لكانت حالتهم وأوضاعهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها. اذ لا يعقل وصول جماعة الى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه اليهود في الجزيرة العربية لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني ارقى من مستوى من هم دونهم كثيرا في شؤون الحياة،ومستوى الحياة في جميع نواحيها في فلسطين أرقى وأرفع من مستواها في الاماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب. فهم عرب متهودون لا يهود مهاجرون»(٢).

إن هذا الرأي فيه تحامل على العرب الذين استقروا في المدن الرئيسية في الجزيرة العربية، ويكفي ان نتذكر انجازات اهل اليمن في ميدان الاقتصاد والعمران لندرك ان المستوى الاجتماعي لسكان اليمن ومكة والمدينة واماكن الاستقرار الاخرى كان لا يقل عن مستوى اليهود.

ثم ما هو التفاوت الحضاري بين سكان المدينة وبين سكان فلسطين ايام الحكم اليهودي؟ انني أرى انه ليس هناك أي تفاوت في المستوى الاجتماعي والاقتصادي بينهما، مع ان يهود المدينة اقل عددا من يهود فلسطين، كما انهم لم يخضعوا لحكم ينظم شؤونهم كما هو الحال في فلسطين.

لقد ذكرنا من قبل ان الجماعات اليهودية التي سكنت في المحيط العربي كان دافعها الاساسي هو العيش بسلام ولذلك لم تحافظ على خصائصها اليهودية وسرعان ما اكتسبت خصائص المجتمع الجديد، ولم تبد من النشاط ما ابدته الجماعات اليهودية

(١) انظر ابن خلدون، تاريخ ... حـ٢ ص ١٢.
(٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، حـ٦ ص ٥٣١، نقلا عن ونكلر.

التي استقرت في امـاكن اخـرى كالعراق مثلا. ولذلك نجد ان معظم اسماء القبائل والبطون والاشخاص هي اسماء عربية كما ان شعرهم وفكرهم يحمل الطابع العربي. ولهذا السبب لم يجد البعض تبريرا لهذا الواقع الا بوصم يهودية الجزيرة العربية والادعاء بان لها صفة خاصة، «كانت يهودية في اساسها ولكن غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي»[1]. ولقد اشتغل اليهود بالزراعة حسبما تقتضي طبيعة المنطقة التي حلوا فيها، كما انهم لم يكونوا يجيدون غير هذه الحرفة، ولذلك نجدهم ابتعدوا عن المجتمع التجاري في مكة وأقاموا في منطقة تكثر فيها السيول التي تتجمع في الحرات الشرقية والجنوبية في فترات مختلفة من السنة، فتسيل الى الغرب والشمال حتى تتجمع آخر الأمر في شمال غرب المدينة عند مجتمع الأسيال حيث تنصب في وادي اضم الذي يسيل شمال غربي احد، وهذه الأودية كانت تروي كل منطقة المدينة وتسيل مياهها من شراج الحرة الشرقية في مياه قليلة احيانا وأحيانا أخرى تفيض حتى تغمر النخيل حتى أنصاف سيقانه[2] وعندما كانت تشح مياه السيول كان مزارعو المدينة يعمدون الى ري أشجارهم من مياه الآبار القريبة، أو يحضرون لها الماء على ظهور الجمال[3].

كان أهل المدينة يهتمون بشجرة النخيل ويزرعونها بأعداد كبيرة، وكانوا يحوطونها فيجعلون من هذه الحوطات الحدائق، وكانت ارض المدينة صالحة لزراعة النخيل حتى ليقال ان وديّة النخل تثمر بعد عام من زرعها. وعلى انتاج النخيل كان يعتمد السكان فهو طعامهم وبه يتعاملون، فتدفع منه الأجور وتسدد الديون[4]. وكان أهل المدينة ينتفعون من جميع أجزاء النخلة فيأكلون جمارها، ويستخدمون جريدها في سقوف منازلهم ويعملون من خوصها المكاتل والقفف[5]. ويستخدمون سيقانها اعمدة لبيوتهم وحمالات لسقوفها ويستعملون أجزاءها الشائكة وأغصانها اليابسة في الوقود، واستخدموا

---

(١) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود، ص ١٣.
(٢) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، حـ٥ ص ٢٥٠.
(٣) انظر الأصفهاني، الأغاني، حـ١٣ ص ١٨.
(٤) انظر صحيح البخاري، حـ٣ ص ٦٣، ٦٨، باب البيوع.
(٥) انظر الخزاعي «ابو الحسن علي بن ذي الوزارتين محمد بن احمد بن موسى» الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية - دار الكتب، تاريخ تيمور رقم ١٩٣٨ ص٦٣٨.

النوى علفا لابلهم بعد تكسيرها فالنخلة من أكرم الأشجار عليهم حتى شبه النبي المؤمن بالنخلة كل ما فيه خير[١].

وللنخـل أنواع متعددة وتبعا لذلك فأثمارها متعددة الأصناف ومتفاوتة في الجودة والطعم. وقد كان ليهود بني النضير نوع فاخر من التمر يقال له «اللوز» أصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحمة[٢]. لقد أوردت الروايات اشتغال اليهود بالزراعة واشتهارهم بها، ويذكر ولفنسون لنا رواية تقول بان اليهود أدخلوا أنواعا جديدة من الأشجار وطرقا جديدة للحراثة والزراعة بالآلات حتى عدوا من أجل هذا أساتذة الحجاز[٣].

إن جميع أصحاب المهن يحسنون من وسائل عملهم وأساليبهم مع الزمن فهذا شيء طبيعي يتفق والطبيعة الانسانية. ولا بد للذين يعملون بالزراعة من العمل على تربية المـواشي والـطيور الداجنة وهكذا كان حال يهود المدينة، فقد اشتغلوا بتربية الماشية والدجاج وصيد الاسماك[٤].

ويعتبر الشعير من المحاصيل التي اهتم بها اليهود والعرب على السواء في يثرب، فقـد زرعـوه في الحقـول وتحت أشجار النخيل[٥]، ومبعث اهتمامهم بها ليكون علفا لمـاشيتهم، وكـان يزرع القمح والعنب وبعض الأنواع من الفاكهة مثل الرمان والموز والليمون والخضار والفواكه والبقول[٦].

وقـد أجـاد سكـان يثـرب فن الـزراعة نظرا لحاجتهم إليها، فجلهم كان يعمل بالزراعة، ومنهم من كان يملك الارض الواسعة يزرعها لحسابه او يزارع عليها أو يكريها «يؤجرها» ومنهم من كان يملك قدرا يقوم على زراعته بنفسه[٧].

---

(١) انظر صحيح البخاري حـ٣، كتاب البيوع «الطبعة السعودية» ص ٦٩.
(٢) انظر المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ٦٧.
(٤) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ١٧.
(٥) انظر المقريزي، إمتاع الأسماع، لجنة التأليف والترجمة والنشر، حـ١ ص ١٨٢، ٣٢٨.
(٦) انظر صحيح البخاري حـ٣ باب المزارعة ص ٩٠.
أنـظر كذلك الدلالات السمعية، المرجع السابق ص ٦٥٦، انظر البتنوني الرحلة الحجازية ط٢ ١٣٢٩هـ، المطبعة الجمالية بمصر ص ٢٥٨.
(٧) انظر احمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة ص ٣٥٨.

ولم تكن المنتوجات الزراعية كافية لتموين سكان المدينة، فكانوا يستوردون ما يسد حاجتهم من الخارج، من بلاد الشام، وكانوا يسلفون انباط الشام الحنطة والشعير والزبيب عند الحاجة الى أجل مسمى قد يمتد الى سنة أو سنتين حتى يضمنوا ان يحصلوا على حاجتهم منه.

وكانت منطقة العوالي من أخصب مناطق المدينة، وكان سكانها من اليهود والعرب أغنياء، ونظرا لهذا الغنى، فقد استغل هؤلاء حاجة الفقراء من سكان المدينة وأدانوهم الأموال والطعام لقاء الرهن[1]. وقد يضطرونهم إلى بيع عقاراتهم وثمار اشجارهم ومحاصيلهم. وهكذا ازدادت ثروة الاغنياء بينما ازداد الفقير بؤسا واضطرّ صاحب الارض القليلة ان يتخلى عنها. ولهذا اتسعت الهوة بين الاغنياء الذين كانوا في الاغلب من اليهود وبين الفقراء وجلهم من العرب. وهذا التفاوت في الحياة الاقتصادية يؤدي في الغالب الى التنازع والقلاقل، وكان هذا التفاوت من أهم العوامل التي أثارت الحرب بين العرب واليهود في يثرب، ولم تسلم اشجار النخيل والاشجار المثمرة الاخرى من الحروب، فقد كانت تقطع الاشجار وتحرق، وكانت هذه الاشجار تؤثر في موقف من يملكها في الحرب[2]. وقد نتج عن التفاوت في الرزق بين السكان الى اشتغال الاغنياء بالربا، وقد مارسها عرب الجزيرة منذ القدم، وكان لها أسوأ الأثر على التركيب الاجتماعي لمجتمعات الجزيرة العربية قبل الاسلام.

وقد عمل اليهود بالصناعة، فكانوا يصنعون بعض الآلات التي تلزمهم في الزراعة، ورغم بساطة هذه الصناعة، فقد تفوقت المدينة على مكة في نشاطها الصناعي كما تفوقت عليها في نشاطها الزراعي. ولكن لم تبلغ الصناعة في المدينة شهرتها في بلاد الفينيقيين مما يدل على ان الشعب اليهودي لم يجاوز طبائع امم الزراع والرعاة الا قليلا جدا[3]. وذلك لأن الصناعة التي قامت في المدينة كانت من مستلزمات الحياة الضرورية للمجتمع المدني، ورغم تطور الزمن لم تبلغ هذه الصناعة مرحلة التصدير، فقد ظلت المنتوجات الزراعية تحتل المرتبة الأولى بين صادرات وواردات المدينة. ولا

---

(١) انظر صحيح البخاري، حـ٣ كتاب السلم ص ٧٦.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة حـ١ ص١٩١. صحيح البخاري، كتاب المزارعة حـ٣ ص٩١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ حـ٢ ص١١٣.

(٣) انظر غوستاف لوبون، تاريخ اليهود في الحضارات الاولى، ص٤٣.

يعني هذا القول التقليل من أثر الصناعة على حياة سكان المدينة من الناحية الاقتصادية، بل نقول بان الصناعة التي مارسها صناع المدينة كان لها أثر كبير على تنشيط الحركة الاقتصادية في المدينة، وكان اليهود هم أكثر المستفيدين من كل هذا نظرا لأن أكثر الصناع هم منهم. وكان العرب يأنفون من العمل في الزراعة والصناعة ويعتبرونها اعمالا وضيعة لا تليق بهم مما أدى الى احتكار اليهود لهذه الحرفة. ومن الصناعات التي قامت في المدينة واشتهر بها اليهود، صناعة الخمر من التمر والبسر وكانوا يسمونها الفضيخ[1]. وكانوا يشربونها ويتاجرون بها. وكان العرب واليهود يختزنون الخمر بالجرار.

ومن الآيات المتعددة الواردة في القرآن الكريم حول الخمر نستدل ان الخمر كان معروفا وموجودا بكثرة عند عرب الجاهلية. وكان اليهود يصنعون القفف والمكاتل «المقاطف» من سعف النخيل.

وكانت هذه تستخدم في أعمال الزراعة والبناء، وقد استعار الرسول ﷺ مثل هذه الأدوات من اليهود يوم الخندق لاستعمالها في الحفر ونقل التراب[2]. وكذلك عمل اليهود في التجارة فكانوا يصنعون الأبواب والنوافذ والأثاث، واستعمل المدنيون الكراسي المصنوعة من الخشب والحديد[3]. ومما ساعد على قيام الصناعات الخشبية وجود شجر الطرفاء والأثل في منطقة الغابة في شمال غربي المدينة[4]. وكانت الحدادة من الصناعات التي مارسها اليهود، بل هي أول صنعة بدت مستقلة عند بني اسرائيل في فلسطين ورغم ذلك ظل اليهود يستعملون الأدوات الحجرية والخشبية، فبالمقلاع قتل داود جليات[5]. وفي المدينة كانت هناك علاقة بين الحدادة وبين المتطلبات الزراعية، لأن الزراعة تحتاج الى فؤوس «كرازين» ومحاريث ومساح ومكاتل «قفف» ومناجل للحصد وغير ذلك مما يستعمله المزارعون في أعمالهم، وهذه الآلات كان يصنعها العرب واليهود والموالي على السواء، وان كان الموالي والعبيد أكثر احترافا لها[6].

---

(١) الفضيخ: شراب يتخذ من البسر وحده من غير ان تمسه النار «مختار الصحاح مادة فضح» انظر البخاري حـ٧ ص٩٤ «كتاب الأشربة».
(٢) انظر الواقدي، المغازي حـ٢ ص٤٤٥.
(٣) انظر الخزاعي، الدلالات السمعية، المرجع السابق ص ١١٥-١١٦.
(٤) انظر صحيح البخاري حـ٣ ص٥٤. كذلك ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة جمعية المعارف بمصر حـ١ ص٤٣. الدلالات السمعية، المرجع السابق ص٦٥٧-٦٥٨.
(٥) انظر غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الاولى، ص ٤٣.
(٦) انظر احمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة، ص ٣٧٧.

وقد اشتهر بنو قينقاع بصناعة الصياغة، وكان لهم في يثرب حي خاص يعرف بحي بني قينقاع[1]. وكانوا يصنعون انواعا كثيرة من الحلي من الذهب منها الاساور والدمالج والخلاخيل والأقرطة والخواتم والعقود من الذهب أو من الجوهر والزمرد أو من الجزع الظفاري وهو خرز ثمين به الوان بيضاء وسوداء، وكانوا يبيعون هذه الحلي في سوقهم الذي كانت تأتيه النساء من اهل المدينة، يشترين ما يلزمهن منها. ويقدم الناس إلى هذه السوق لأخذ حاجات نسائهم وفتياتهم سواء في ذلك أهل المدينة وأهل البادية أو من المدن الأخرى في الحجاز. وكان اليهود يمتلكون كميات كبيرة من هذه الحلي[2].

وكانت صناعة الاسلحة والدروع رائجة في المدينة، ومعظم صناعها من اليهود الذين اشتهروا بصناعة الدروع المسرودة، ويقولون بأنهم ورثوا هذه الصناعة عن النبي داود[3] الذي منحه الله القدرة على ثني الحديد وفتله دون إدخاله في النار، قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوّبي معه والطيور وألنّا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدر في السّرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير﴾[4].

وكانت السيوف والنبال من مصنوعات المدينة، واشتهرت يثرب بنبالها وكان في المدينة صناع متخصصون بجلاء الاسلحة وصقل السيوف[5]. ثم كانت هناك أدوات الصيد يصنعونها من فخاخ وشباك وأشراك من الحديد وغير ذلك[6].

وقد عملت النساء ببعض الصناعات الخفيفة مثل نسيج الثياب وتطريزها وخياطتها، كما اشتغل بعض الناس بدباغة الجلود وصنع الطوب من التراب لغرض البناء، كما كان هناك صناعات لآنية المنازل وأدواتها من نحاس وفخار لأغراض الأكل والشرب وما إلى ذلك من مصنوعات هي مستعملات الناس وحاجاتهم.

وهكذا نجد ان المدينة كانت مزدهرة بالحركة الصناعية اذا ما قورنت بمدن الجزيرة

---

(١) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ١٩.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ٣ ص٣٣٦-٣٣٧.
(٣) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ١٩.
(٤) سورة سبأ، الآيات: ١٠، ١١. انظر تفسير ابن كثير، طبعة الحلبي حـ٢ ص٢٢٦.
(٥) انظر الخزاعي، الدلالات السمعية، ص ٤٠٠.
(٦) انظر الدلالات السمعية، المرجع السابق ص ٦٧٦، ٦٧٧.

العربية الاخرى في تلك الحقبة من الزمن. وقد ساهم في هذه الحركة الصناعية العرب والموالي الى جانب اليهود.

وقد شجع ازدهار المدينة الاقتصادي الناس على القدوم اليها والاقامة بها. لذلك كثـر في يثرب الروم والقبط والفرس والأحباش، وهم إما من المواليأوالعبيد يمارسون العمل لأنفسهم أو لأسيادهم، ولو توفر للمجتمع المدني الاستقرار والتعاون لكان للمدينة شأن أهم في منطقة الحجاز.

الحالة التجارية :

إن اشتغال سكان يثرب بالزراعة والصناعة يلزمهم الاشتغال بالتجارة ايضا فطبيعة الاستقرار وتبادل المنافع يولدان العمل التجاري. ولم تكن المدينة منعزلة عما يحيط بها من قرى آهلة بالسكان أو قبائل تتردد عليها بين الحين والآخر لتتزود منها بما يحتاج اليه من منتوجات زراعية او صناعية. ان هذه الشروط التي من شأنها تنشيط الحركة التجارية كانت متـوفـرة في المـدينـة. وفي القـرآن الكريم آيات مدنية كثيرة فيها بعض الأوامر والنواهي، والتشريعات التي تكشف النقاب عن وجود حركة تجارية ناشطة قبل الاسلام[(١)].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾[(٢)].

وفي مجال النشاط الداخلي كان في المدينة أسواق في الجاهلية مثل سوق بني قينقاع عند جسر وادي بطحان وسوق اخرى بزباله من الناحية التي تدعى يثرب وسوق بالصفاصف بالقصبة، وسوق يقوم في موضع بزقاق آخر كان يقال له «مزاحم» كانت تقوم في الجاهلية وأول الاسلام.

---

(١) انظر سورة البقرة، الآية ٢٨٣. النساء، الآية ٢٩. الجمعة، الآيات: ٩-١١.
(٢) سورة الحج، الآيات: ٢٧-٢٨.

وقـد اتسعت سوق زبـالـه بعـد ان فسدت العلاقات بين المسلمين واليهود لان المسلمين اتخذواها سوقا لهم. وهناك أسواق أخرى مماثلة لا ضرورة لذكرها(١).

ولما جاء الاسلام لم يحرم العمل في هذه الأسواق وخاصة في مواسم الحج ﴿ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم﴾(٢).

وكان لهذه الاسواق ضجة شبيهة بالضجة التي نسمعها في أيامنها الحاضرة، وقد اشتهر سوق بني قينقاع اكثر من غيره في الأخذ والعطاء والتعامل. وكانت تعرض في هذه الاسواق الابل والخيل والغنم والصوف والوبر والسمن والاقط وغير ذلك مما تنتجه مواشي أهـل البـادية. كما كانت تعرض في الاسواق المنتوجات الصناعية كالأسلحة وأدوات الـزراعـة، بالاضـافـة الى الحلي والصياغة حيث كانت يثرب تمون المدن الحجازية بحـاجتهـا من هذه الحلي.(٣) وكان التجار يضعون بضائعهم في السوق حيث شاؤوا والمكان لمن سبق(٤).
ويقول السمهودي: «إن الراكب كان ينزل بسوق المدينة فيضع رحله ثم يطوف بالسوق ورحله بعينه يبصره ولا يغيبه عنه شيء»(٥).

وكـان يبـاع في هذه الاسـواق التمر والشعير والطعام «الحنطة» والخمر، وحتى الحطب كان يجلبه الحطابون من أشجار المدينة أو من الغابة أو من البادية. وفي هذه الاسواق كانت تعرض منتوجات البلدان المجاورة كالنبيذ والزيت والحنطة والمنسوجات القطنية والحريرية، والنمارق الملونة والمرسومة يبتاعها الأغنياء. كما كان هناك عطارون يتاجرون في انواع العطارة والمسك والروائح العطرية. وكان لكل طائفة من الباعة موضع معلوم في السوق(٦).

وكـانت أعمال الصيرفة معروفة عند أهل الجاهلية ويعملون بها كنوع من انواع التجـارة. وقـد أشارت احاديث كثيرة الى بيع الذهب بالذهب. وبيع الفضة بالفضة،

---

(١) انظر السمهودي، وفاء الوفاء حـ٢ ص ٧٤٦، ٧٤٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨. انظر كذلك صحيح البخاري حـ٣ ص٤٦، ففيه تفاصيل عن حركة البيع.
(٣) انظر السمهودي، وفاء الوفاء، حـ٢ ص ٧٥٤-٧٥٥.
(٤) انظر السمهودي، المرجع السابق حـ١ ص ٧٤٧-٧٥٧. وأحمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة. ص ٣٦٥.
(٥) وفاء الوفاء، حـ ٢ ص ٧٤٩.
(٦) انظر السمهودي، وفاء الوفاء، حـ١ ص ٧٤٧-٧٥٧. أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة ص ٣٦٥.

والورق بالورق، والدينار بالدينار، والورق بالذهب أو الذهب بالورق. وهذا يشير الى ان عمليات تبادل العملات كانت تحصل في اسواق المدينة[1]. وكانت السمسرة حرفة يحترفها بعض الناس، فيتولون البيع نيابة عن اصحاب البضائع وبخاصة من اهل البادية. وكثيرا ما كان هؤلاء السماسرة يستغلون جهل أهل البادية في الأمور التجارية ويستغلونهم بالتلاعب بالأسعار فيخسرونهم،[2] وكانت السوق تخضع لقانون العرف والعادة، فأصحاب كل حرفة كانت لهم سنتهم في البيوع والاجاره والمكيال والوزن[3]. وعلى ذلك لم تكن هناك رقابة مفروضة على أعمال السوق، لان المدينة كانت تحيا حياة قبلية تامة. وفي مثل هذه الاحوال لا بد ان يقع بعض السذج من الناس فريسة للمحتالين والغشاشين، فقد ذكرت بعض الروايات وجود غش في حالات البيع[4].

وكان البيع يتم بعض الأحيان بالنسيئة «تأجيل الثمن» وبالرهن. كل ذلك لتصريف المنتوجات المعروضة للبيع وتحقيق الارباح. وقد كان الربا مظهرا من مظاهر الحياة الاقتصادية في مجتمع الجزيرة العربية عامة ومجتمع المدينة خاصة. وفي القرآن الكريم آيات تندد باليهود وتنعي عليهم اخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾[5]. ولم يكن اليهود وحدهم العاملين بالربا. بل نجد بعض العرب كانوا يتعاملون بالربا مع قومهم، ومنهم «أحيحة» بن الجلاج، أحد زعماء الأوس، وكاد هذا يحيط بأموال قومه.[6] وقد لعب الربا دورا خطيرا في حياة الناس حتى ان الاسلام قضى عليه بالتدريج لصعوبة ابطاله والقضاء عليه دفعة واحدة. فقد تدرج القرآن في ابطال التعامل به، فبدأ بالنهي عن الربا الفاحش ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[7]. ثم حرمه تحريما كاملا موضحا أضراره ومساوئه ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى

---

(١) انظر صحيح البخاري حـ٣ ص ٦٥-٦٦.
(٢) انظر الخزاعي، الدلالات السمعية، ص ٦٥٣.
(٣) انظر صحيح البخاري حـ٣ ص ٦٩.
(٤) انظر السمهودي، وفاء الوفاء حـ٢ ص ٧٥٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٦١.
(٦) انظر الأصفهاني، الأغاني حـ١٣ ص ١١٨.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الرِّبىٰ ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾[1].

ونظرا لوقوع المدينة على الطرق التجارية المؤدية الى الشام في الشمال واليمن والحبشة في الجنوب، فقد لعبت دورها في ميدان التجارة الخارجية التي برع بها أهل مكة. ولا يعقل ان لا يكون سكان المدينة قد قاموا برحلاتهم التجارية الى الخارج، وان لا يكونوا قد ضربوا بسهم وافر في هذا الميدان التجاري لان الربح فيه اوفر. وقد اشتهر اليهودي «أبو رافع» بتسيير القوافل التجارية الى بلاد الشام وجلب منتوجاتها من الأقمشة والخمور والزيت[2].

وتحدثنا الاخبار عن يهودي آخر برع في التجارة في بلاد الحجاز حتى لقد احنق عليه القرشيين انفسهم وهم ما هم عليه من براعة وخبرة تجارية، فقتلوه ليتخلصوا من منافسته[3].

وقد استورد تجار المدينة العطور والمسك من البحرين التي كان يصلها المسك من الهند[4]. وجلبت خامات الذهب والحديد وغيره من مستلزمات الصناعة في المدينة من الخـارج. وكان التجار من الأنباط يأتون الى المدينة بقوافلهم وهي تحمل الحنطة والزبيب والزيت[5]. وكثيرا ما كان اهل يثرب يدفعون اليهم مقدما ثمن البضائع ليضمنوا ورودها[6]. وربما كان المدنيون انفسهم يرحلون مع القوافل لجلب حاجاتهم من الشمال او الجنوب بالطرق البرية او البحرية، وكان قرب المدينة من البحر الاحمر يساعد على السفر البحري، فكان لها ميناء صغيرة ترسو فيها السفن تدعى الجار، كما كانت أيله والجار تستقبل السفن القادمة من الحبشة وعدن والصين ومصر وسائر بلاد الهند، وكانت ميناء هاما حتى لقد سمّي هذا الجزء من البحر الأحمر من جدة الى أيلة «الجار»[7]. ولا بد ان يكون أهل المدينة قد استفادوا من هذا المرفأ التجاري الهام. والى جانب هذه

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٧٥-٢٧٦.
٢) انظر الديار بكري، **الخميس في أحوال انفس نفيس**، حـ٢ ص١٣.
(٣) انظر البلاذري، **انساب الاشراف** حـ١ ص ٧٣.
(٤) انظر الخزاعي، **الدلالات السمعية**، ص ٦٤٣.
(٥) انظر احمد ابراهيم الشريف، **مكة والمدينة**، ص ٣٧٢.
(٦) المرجع السابق نفسه والصفحة.
(٧) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، حـ٤ ص ٣٤.

العناصر المكونة للحياة الاقتصادية مارس سكان المدينة الاتجار بالرقيق وبقي قسم من السكان يمتهن الحياة الرعوية. وكان قسم آخر من السكان يمتهن الصيد، وكانت هذه الحرفة وسيلة من وسائل المعيشة عند بعض الناس. فكان الصيادون سواء من سكان المدينة او من سكان البادية يصطادون الحمر الوحشية والغزلان والارانب والضباري يطاردونها بالخيل ويرمونها بالرماح او بالسهام، واستخدموا الكلاب المعلمة والبزاة للقبض على الصيد[1]. كانت الحياة في تيماء وفدك ووادي القرى وخيبر نماذج مصغرة للحياة في مدينة يثرب، سواء كان ذلك في المجالات الاقتصادية او الاجتماعية.

وفي مجال العمران لم يخلف اليهود أثراً واحداً يمكن ان يدل على انهم كان لهم طابع خاص بهم، أو أنهم ابتكروا فنا معماريا مميزا. وهذا شأنهم عبر تاريخهم، وقد ذكرنا من قبل ان الفضل في بناء هيكل سليمان وتزيينه انما يعود للصوريين وليس لليهود.

وكان سليمان يعطي حيرام في كل عام عشرين الف كر من الحنطة وعشرين الف كر من الزيت، ويدل هذا بما فيه الكفاية على اي شيء كانت تقوم ثروة بني اسرائيل[2].

وقد جاء في التوراة ما يفيد ان العمال المهرة انما أتوا من فنيقية، وهذا حيرام ملك صور يصف احد العمال المهرة الذين ارسلهم لسليمان: «والآن أرسلت رجلا حكيما صاحب فهم حورام ابي ابن امرأة من بنات دان وأبوه رجل صوري ماهر في صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجارة والخشب والأرجوان والاسمانجوني والكتان والقرمز ونقش كل نوع من النقش واختراع كل اختراع يلقى عليه...»[3]. وأشرف هذا العامل على صهر مازين به الهيكل من الأعمدة والآنية النحاسية ووضعها[4].

ويقول غوستاف لوبون: «واذا لم تخرج الصناعة في بلاد اليهودية عن أدنى الأطوار البدائية أمكننا ان نبصر من ذلك حال الفنون في تلك البلاد، او عدم وجود هذه الفنون

---

(١) انظر صحيح البخاري، حـ٧ ص٧٥. مسلم، الجامع الصحيح، طبعة القاهرة ١٣٨٤هـ حـ٥ ص ٣٥-٣٧.
(٢) انظر السمهودي، وفاء الوفاء، حـ٢ ص ٧٥٤، غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الاولى، ص٣٤.
(٣) سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢: ١٣-١٥.
(٤) انظر غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الاولى ص٤٣.

فيها على الأصح»[1]. وهكذا نجد ان اليهود الذين عجزوا عن ابداء اي نوع حضاري في فلسطين الأم لا يتوقع منهم ان ينبغوا في مهاجرهم في الجزيرة العربية.

وليس صحيحا ما يقال ان البيئة الجديدة التي حل بها اليهود في جزيرة العرب هي التي شلت قواهم الروحانية وغلبت عليهم العقلية البدوية، لان اليهود استوطنوا المدن الخصيبة في بلاد الحجاز ولم يستوطنوا البوادي وعاشوا حياة الاستقرار، ومارسوا المهن الحضرية، ورغم ذلك عجزوا عن صنع فن او حضارة تنافس حتى الحضارة النبطية او اليمنية. لقد استطاع المسلمون في مدة وجيزة من الهجرة ان يجعلوا المدينة سيدة الجزيرة العربية، وهو ما عجز عن عمله اليهود في مئات السنين[2].

الحياة الفكرية ليهود الجزيرة:

تكلم اليهود اللغة العربية في الجزيرة، ويقول ولفنسون بأنها كانت مشوبة بالرطانة العبرية[3]. وكانت القراءة والكتابة في بلاد الحجاز نادرة، فقليل من الأوس والخزرج كان قد تعلم الكتابة العربية، كما ان القليل من اليهود تعلم العربية، وكان صبيان من المدينة قد تعلموا الكتابة العربية في الزمن الاول[4].

ويقسّم ولفنسون يهود الحجاز إلى قسمين: أحبار وجهلة أميون وذلك تبعا للآية الكريمة: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[5]. غير أن تسميتهم بالأميين هنا لجحودهم كتب الله ورسله[6]، لأنهم لا يجهلون الكتابة بل الويل والهلاك لهم مما كتبت ايديهم من تزوير على الله[7]. والأحبار هم العلماء[8]. ويقول ولفنسون بأن حبر تعني الرفيق وهي عبرية

---

(١) المرجع السابق والصفحة.

(٢) يذهب الباحث اليهودي ولفنسون الى القول بأثر البيئة الجديدة على جمود يهود اهل الحجاز.
انظر تاريخ اليهود في بلاد العرب . . . ص٢٠، وما بعدها.

(٣) انظر تاريخ اليهود في بلاد العرب . . . ص٢٠.

(٤) انظر البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٩.

(٥) سورة البقرة، الآيايتان: ٧٨-٧٩.

(٦) انظر تفسير ابن كثير جـ١ ص١١٦.

(٧) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت جـ١ ص١١٠.

(٨) احبار: جمع حبر والحبر العالم. القاموس.

الأصل، وكانت تطلق في العصور الأولى قبل الميلاد على كل عضو من اعضاء الشيعة اليهودية الدينية «الفروشيم» ثم لما تغلبت تعاليم هذه الفئة اصبح كل متعلم من اليهود يلقب بلقب حبر ولذلك كان الأحبار موضع الاحترام العظيم[١]. ومما يدلنا على مكانة الأحبار عند اليهود قول جماعة من اليهود للرسول ﷺ، عندما سألهم عن مكانة عبدالله بن سلام: «سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا»[٢] وكان الأحبار يتولون امر القضاء والفصل في الخصومات كما يقول القرآن الكريم ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الأثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾[٣]. ويظهر ان فئة الأحبار كانت هي الفئة المتعلمة في المجتمع اليهودي، كما كان لها سلطان على اليهود. وقد تولت هذه امر تحريف الديانة اليهودية وحجاج الرسول محمد ﷺ، كما يفهم من قوله تعالى الآنف الذكر. كما لم يكونوا يحكمون بالحق بين الناس، وكانوا يحابون ويتحيزيون ويحكمون بالباطل ويأكلون «السحت» اي الرشاء جزاء حكمهم بالباطل. وكانوا يتساهلون في تطبيق الشريعة مع الشريف لشرفه، ويتشددون في تطبيقها مع الدنيىء فقير الحال[٤].

لم يخلف اليهود ادبا مكتوبا لهم في الجزيرة العربية، وكل الذي خلفوه بعض الشعر الذي يدلنا على ان اليهود تعربوا واخذوا يتكلمون العربية، وامتزجت عاداتهم بعادات العرب وتخلقوا بأخلاقهم ونزلوا عن كثير من مصطلحاتهم ومواصفاتهم، واصبحوا يفاخرون كالعرب بالشجاعة وعلو الهمة وإكرام الضيف، يوقدون النار في الليل ليرشدوا السائرين ويدعوهم الى الضيافة على عادة العرب، وينظمون الشعر في هذه الأغراض الكثيرة. ولولا أن اليهود تأثروا بالبيئة العربية منذ القديم واصبحوا لا يميزون عن العرب إلا بالدين، لما استطاع بعضهم ان يسترسل بالشعر استرسالا لا يشك معه المرء بأن هذا الشعر إنما هو شعر عربي أملته نفسية عربية. وبالإجمال كان كل ما يحرك نفس العربي ويدعوه الى قرض الشعر من تهديد في الجاهلية ويدعوهم الى ان يخوضوا فيه بالقول الفصل والشعر المتين[٥]. ويعزو ولفنسون قلة ما وصلنا من شعر يهود الجاهلية الى

---

(١) انظر تاريخ اليهود في بلاد العرب . . . ص ٢٠، ٢١.
(٢) انظر ابن هشام، السير النبوية، حـ١ ص٥١٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٣.
(٤) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام حـ٦ ص٥٣٥.
(٥) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ٢٣.

الحوادث الكثيرة ويقول بأن هذه الحوادث افقدتنا اكثر تلك الثروة الادبية[1].

ولكننا لا نفهم كيف ان هذه الحوادث التي يشير اليها ولفنسون استطاعت ان تفقدنا ثروة اليهود الادبية، مع ان اشعار الجاهليين وصلتنا بطريقة الرواية، ولم تكن مكتوبة على الرقاع او غيره حتى يقال بأن ما كتبت عليه الأشعار قد اتلف؟! . ومن الأفضل القول إن الحوادث المشار اليها كانت حافزا على حفظ ما يقوله اليهود ونقله من جيل الى جيل تماشيا مع الطبيعة البشرية التي تحرص على حفظ تراثها. وقد يقبل الأنسان ما يقال عن تأثير اليهود في بعض جوانب الحياة لعرب الحجاز قبل الاسلام، ولكن كيف يقبل القول بأن هؤلاء اثّروا على الشعر العربي ودفعوه الى الأمام، والشعر من مميزات العرب وبه امتازوا على غيرهم من الشعوب. وفي هذا المعنى قال احد الباحثين في معرض رده على الذين يبالغون بأثر اليهود على الادب العربي: «اخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما وصل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم الى الفرات والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي، ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم واباء. يقولون الشعر في مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم في لغة هي لغة اهل الحجاز، نزل اولئك اليهود في اوطانهم الجديدة فأثروا في ابناء ملتهم تأثيرا قويا . . . ولم يقف اثر العرب والعربية في اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية الأدبية الى عربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله. وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد في عصورهم القديمة حتى في فلسطين وإبان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة، وقد حببت هذه الظاهرة الى اليهود اقتفاء اثر العرب ومجاراتهم في طريقة دراسة القرآن الكريم، وحاول اليهود الحرص على نطق اسفار العهد القديم نطقا صحيحا، فدفعهم هذا الى التفكير في إعجام اسفارهم وإعرابها مقلدين العرب وناقلين عنهم.

وتأثر اليهود بالعرب ايضا فأوجدوا ما يعرف في الأدب العبري بالشعر العبري الحديث او «البيوتيم» فهذا الفن صورة من الشعر العربي وزنا وقافية [2].

---

(١) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ٢٣ . انظر كذلك طه حسين مجلة الجامعة المصرية، السنة الثالثة، العدد الأول ص٧٨.

(٢) الدكتور فؤاد حسنين علي، من مقدمة كتاب شمس الله على الغرب، للدكتورة سيجرد هونكه، دار النهضة العربية، بمصر ترجم الكتاب وحققه وعلق عليه، الدكتور فؤاد حسنين علي.

وقد افرد محمد بن سلام الجمحي في مصنفة «طبقات فحول الشعراء» طبقة باسم «طبقة شعراء يهود» اورد في هذه الطبقة اخبار ثمانية من شعراء يهود المدينة وما حولها وقال: «في يهود المدينة واكنافها شعر جيد»(١). واخبار الشعراء اليهوذ مستقاة من المصادر الأسلامية لأننا لا نعرف نصا جاهليا جاء فيه خبر عن شعر او شعراء يهود، وكذلك لم تتحدث المصادر العبرانية عن شيء من هذا. وسكوت المصادر العبرية عن اخبار يهود بلاد العرب دليل آخر على عزلة يهودية بلاد العرب وابتعادها عن اليهودية الأصلية، وتأقلمها بالاقليم العربي. ولو كان عند يهود الحجاز ادب يعتد به لتناقلته الألسن ولحفظه الرواة، سيما وأن الحجاز على طريق التجارة وصلة الوصل بين اليمن في الجنوب والشام في الشمال، وكان اليهود يهاجرون باستمرار من الجزيرة العربية نحو بلاد الشام. ومن يقرأ شعر اليهود لا يجد فيه اثرا لليهودية، فهو خلو من قصص التوراة او التلمود الدينية الأخرى او اي شيء له صلة بالعقيدة اليهودية. فهل هذه الظاهرة عند شعراء اليهود تدل على انهم افتقدوا الشعور الديني ولم يعد يحرك فيهم عاطفة؟! أم ان المصادر الاسلامية لم تحمل لنا من شعر اليهود إلا ما راق لها، وحذفت كل شعر تحدث بأمور الدين اليهودي؟.

ويذهب ولفنسون الى تعليل قلة ما وصلنا من شعراء اليهود في الجاهلية الى ضعف اقبال اليهود على اعتناق الاسلام ومن تناسل منهم تخليدا لما كان لأجدادهم من مجد اثيل وشرف عظيم(٢).

وينقل ولفنسون عن طه حسين قوله: «إن اليهود قالوا كثيراً من الشعر فى الدين وهجاء العرب وإنهم انتحلوا وصنعوا شعرا لاثبات وجود لهم في الشعر فنسبوه الى شعراء يهود، ولكن الرواة العرب لم يحفلوا به فضاع»(٣).

وإذا كان الرواة العرب لم ينقلوا شعر اليهود، فمن اين نعرف شعر اليهود المزعوم؟ . . . .

إن شعراء الجاهلية من العرب قد قرضوا الشعر في جميع الاغراض ومع ذلك حفظت لهم المصادر الاسلامية ما وصلها من روايات. ويكفي هذه المصادر فخراً انها

(١) طبقات فحول الشعراء، طبعة دار المعارف ص ٢٣٥ وما بعدها.
(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب . . . ص ٢٥.
(٣) المرجع السابق والصفحة.

وحدها التي حفظت ما ينسب لشعراء الحجاز من اليهود من شعر. إذ لولا هذه المصادر لما عرفنا ان اليهود كان لهم شعراؤهم بالعربية، وعلى كل حال فقد وصلتنا بعض الأشعار من يهود الجاهلية، ولا بد ان شيئا من الشعر اليهودي قد ضاع دون قصد شأنه في ذلك شأن الكثير من الاشعار العربية التي لم تصل الينا، لبعد العهد بين زمان شعراء الجاهلية وبين عهد التدوين والكتابة.

واشهر شعراء اليهود الذي تُردّد الروايات العربية ذكره، هو «السموءل بن عاديا» صاحب الحصن المشهـور «الأبلق» بتيماء وقد اختلف في نسبه «عاديا» أو «عادياء»، فقالوا: «عادياء بن حباء» وقالوا «عادياء بن رفاعه بن جفنة، وقالوا: انه من ولد الكاهن ابن هارون بن عمران»[1]. وقالوا: «إنه من بني غسان» ونسبه «دارم بن عقال» الى رفاعه ابن كعب بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء» وهو نسب انكره «ابو الفرج الاصفهاني» حيث قال: «وهـذا عندي محال لأن الأعشى ادرك شريح بن السموأل وأدرك الاسلام. وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز ان يكون بينه وبين السموءل ثلاثة اباء ولا عشرة ولا اكثر... وقد قيل إن أمه كانت من غسان»[2]. ونسب السموءل ايضا الى الأزد[3].

وذكر ابن دريد ان السموءل من «كعب بن عمرو بن عامر» ولكنه ذكر ايضا انه كان يهودياً[4]. ونسبه «محمد بن حبيب» إلى غسان كذلك ولم يشر إلى تهوده[5]. وجعله ابن قتيبة ملكا على تيماء[6].

والسموءل جد «صفية بنت حيي بن اخطب اليهودية» لأمها، وقد تزوجها الرسول ﷺ، وقد نسبها «ابن عبد البر» على هذه الصورة «صفية بنت حيي بن اخطب بن شعبه ابن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بي ابي حبيب بن النضير بن النحام بن تخوم[7]

(١) انظر الشيخ عبدالرحيم بن احمد العباسي، معاهد التنصيص... تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٧هـ ١٩٤٧م حـ١ ص ٣١٨. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام حـ٩ ص ٧٧.
(٢) انظر الأغاني حـ١٩ ص ٩٨.
(٣) انظر جواد علي، المفصل... حـ٩ ص٧٧١.
(٤) الإشتقاق... ص ٤٣٦.
(٥) انظر المحبر... ص ٣٤٩.
(٦) الشعر والشعراء، تحقيق احمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٦م، حـ١ ص ٦٠، ٦١.
(٧) انظر ابن هشام، السيرة النبوية حـ٢ ص ٦٤٦. الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق البجاوي، مكتبة نهضة مصر حـ٤ رقم ١٨٧١ (٤٠٠٥)

من بني اسرائيل من سبط هارون بن عمران وأمها برّه بنت سموءل. وكانت عند سلام بن مشكم، وكان شاعرا، ثم خلفة عليها كنانه بي ابي الحقيق، وهو شاعر، فقتل يوم خيبر، وتزوجها رسول الله في سنة سبع من الهجرة(١).

ويستدل من الاخبار المتعلقة بالسموءل انه كان ذائع الشهرة بعيد الصيت، ومبعث هذه الشهرة انما هو عائد لوفائه وكرمه وثروته اكثر مما هو عائد لشعره. واشتهر السموءل بقصـره ايضا فقد ضرب به المثل بالضخامة والجسامة، وهو الأبلق بتيماء، أو على مقربة منهـا. وزعم اهل الأخبار انه من ابنية «سليمان بن داوود» بناه بتيماء واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر نسبوه للأعشى جاء فيه.

ولا عاديا لم يمنع الموت ما له　　　وورد بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داوود حقبة　　　له أزج حم وطي موثّق(٢)

ويذكر اهل الأخبار ان الزباء «ملكة تدمر» عجزت عن فتح الحصن الأبلق، وهذا يشير الى قدم هذا الحصن وانه يعود الى زمان اقدم من زمان السموءل. ولكن ليس من المستبعد ان يكون هذا البناء قديما فقد اتخذ «نبونيد» البابلي تيماء عاصمة له، وربما كان هذا البناء من بقايا ابنية البابليين او قبلهم(٣). ويقول السموءل بأن عاديا والده هو الذي بنى له الحصن.

بنى لي عاديا حصنا حصينا　　　وماء كلما شئت استقيت
رفيعا تنزلق العقبان عنه　　　اذا ما نابني ضيم ابيت
واوصى عاديا ـ قدما بأن لا　　　تهدم يا سموءل ما بنيت
وفيت بأدرع الكندي إني　　　اذا ما خان اقوام وفيت(٤)

وقد بني على رابية تشرف على تيماء بين الحجاز والشام وفيه آثار من ابنية من تراب لا تدل على ما يحكي عنها من العظمة والحصانة(٥). وقد ضربت العرب المثل بوفاء

---

(١) انظر ابن عبد البر، المرجع السابق والصفحة.
(٢) الأزج: ضرب من الأبنية يبنى طولا، وأزج البناء علاه، وطوى البئر يطويها طيا: عرشها بالحجارة والآجر. أنظر ديوان الأعشى، القصيدة رقم ٣٣.
(٣) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام حـ٩ ص ٧٧٤.
(٤) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان حـ١ ص ٨٧.
(٥) انظر ياقوت الحموي، المرجع السابق حـ١ ص ٨٧.

السموءل ورددوا قصة وفائه مع الشاعر امرىء القيس بن حجر الكندي الذي مر بالأبلق وهو في طريقه يريد قيصر ليستنجده على قتلة ابيه وكان معه ادراع فأودعها السموءل ومضى، فبلغ خبرها ملك غسان، وقيل ان الحارث بن ظالم، ويقال «الحارث ابن ابي شمر الغساني» فسار نحو الأبلق ليأخذ الأدرع فتحصن منه السموءل في حصنه. وكان للسموءل ولد قد خرج للصيد، فصادفه الحارث في عودته واتخذه رهينة عنده. وخيرٌ السموءل بين ان يدفع اليه وديعة امرىء القيس او يقتل ابنه، فأصر على إبائه فقتل الحارث ولده الذي عنده وأدّى السموأل الوديعة الى أهل امرىء القيس.

وقد اشتهرت هذه القصة واوردها معظم المؤرخين العرب القدامى مع اختلافات بسيطة في بعض تفاصيل القصة[1]. وقد رواها الاعشى الشاعر شعراً في سياق مدحه لشريح بن حصين بن عمران بن السموءل بن عاديا وكان الأعشى قد وقع اسيرا بيد رجل من بني كلب مع اسرى آخرين من قومه وحملهم الكلبي هذا ونزل بهم شريح بن السموءل بن عادياء اليهودي صاحب تيماء وهو بحصنه الأبلق فمر شريح بالأعشى فناداه الأعشى بقصيدة يمدحه فيها ويذكر كرم السموءل ووفائه ومطلعها:

شريح لا تتركنّي بعدما علقت حبالك اليوم بعد القدّ أظفاري

وجاء في نهايتها:

وقال لا اشتر عارا بمكرمة فاختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديما شيمة خلق وزنده في الوفاء الثاقب الواري[2]

---

(١) انظر الأصفهاني، الأغاني حـ١٩ ص ٩٨ . ياقوت الحموي، معجم البلدان حـ١ ص ٨٧.
(٢) وجاء فيها ايضاً:-

قد طفت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترحالي وتسياري
فكان أوفاهم عهداً وأمنعهم جاراً أبوك بعرف غير إنكاري
كالغيث ما استمطروه جاد وابله وعند ذمته المستأسد الضاري
كن كالسموأل إذ سار الهمام له في جحفل كسواد الليل جرّار
جار ابن حيّا لمن نالته ذمته أوفى وأمنع من جار ابن عمّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار
إذ سامه خطتي خسف فقال له مهما تقله فإني سامع جار
فقال ثكل وغدر أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير قليل ثم قال له اذبح هديك إني مانع جاري

إن هذه القصيدة وقصة «دارم بن عقال» هما الموردان الرئيسيان لقصة السموأل ووفائه. ودارم بن عقال هو من ولد السموأل، ولا يستبعد ان تكون القصة هي من وضع اناس آخرين رووا عن دارم، لأن دارم هذا هو راوي قصة الوفاء واشعار امرىء القيس المتعلقة بهذا الموضوع(١). وقد اشار الى ذلك مؤلف كتاب الأغاني في معرض حديثه عن قصيدة لامرىء القيس مطلعها:

طرقتك هند بعد طول تجنُّب وهناً ولم تك قبل ذلك تطْرُقِ

فقال الأصفهاني: «وهي قصيدة طويلة، واظنها منحولة لأنها لا تشاكل كلام امرىء القيس، والتوليد فيها ظاهر، وما دوّنها في ديوانه احد الثقات، وأحسبها مما صنعه «دارم»، لأنه من ولد السموأل، ومما صنعه من روى عنه من ذلك فلم تكتب هنا»(٢).

وقد جمع بعضهم ما نسب الى السموأل من شعر في ديوان مستقل باسم السموأل، وقد طبع الأب «لويس شيخو» ديوان السموأل برواية «نفطويه» (ت ٣٢٣هـ) وقد ترجم ابن النديم لنفطويه هذا وذكر كتبه، ولم يذكر له اي كتاب في الشعر والشعراء(٣)، كما جمع آخرون بعض القصائد المنسوبة للمسوأل في ديوان اطلق عليه «شعر السموأل»(٤) وديوان الأب شيخو اوفى من غيره تعريفا بالسمؤال وشعره وله الفضل في إبراز شخصية السموأل الشاعر، ويرى بركلمان احتمال كون الشعر المرقم (١-٦) من الديوان من الشعر الأصيل. اي من شعر السموأل، أما الشعر الباقي المنشور في الديوان فهو لشعراء يهود متأخرين(٥).

ويرى بروكلمان ان قصيدتين اصيليتين فقط في الديوان وما تبقى من قصائد

أنظر **ديوان الأعشى**، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع - بيروت قصيدة رقم ٢٥.

(١) انظر جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، حـ٩ ص٧٧٧.

(٢) انظر **الاغاني**، حـ٨ ص ٧٠.

(٣) انظر **الفهرست**، مكتبة خياط (ص ٨١). شيخو، **ديوان السموأل**، بيروت ١٩٠٩م.

(٤) انظر عيسى سابا، **شعر السموأل**، مكتبة صادر بيروت.

(٥) انظر بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، حـ١ ص ١٢٢. جواد علي، **المفصل**... حـ٩ ص ٧٧٧.

منتحلة. وذكر بعضهم ان القصيدة رقم (٧) ليست للسموأل، وإنما لأحد يهود المدينة[١].

وقد تعرض المستشرقون لشعر السموأل ولهم فيه آراء، فمنهم من قال بأصالة معظمه، ومنهم من لا يعترف الا بأصالة القليل منه[٢] ويرى آخرون ان قصة وفاء السموأل هي اسطورة استمدت مادتها من اسفار «صموئيل الأول» في التوراة، ومن الأساطير العربية القديمة، نظمت على هذه الصورة فَجُعِلَ بطلها شخصان هما، السموأل، وامرىء القيس[٣].

وقد زعم الأب شيخو الذي طبع ديوان السموأل ان السموأل من الشعراء النصارى مستندا بذلك على بعض الروايات التي تربط نسب السموأل بقبيلة غسان، وبما ان هذه القبيلة نصرانية فلا بد ان يكون السموأل على رأي شيخو نصرانيا ايضا. والدليل الثاني الذي يعتمد عليه الأب شيخو لاثبات نصرانية السموأل ان السموأل في بعض الأبيات المنسوبة إليه ذكر السيد المسيح والحواريين، وقد وردت هذه الأبيات في ديوان الحماسة «لأبي تمام» في آخر اللامية المشهورة للسموأل:

فان بني الديان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

وهذا البيت من قصيدة طويلة تنسب الى السموأل في الفخر والحماسة ومطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

وجاء فيها:

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعزُّ على من رامَه ويطولُ

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبدالحليم النجار، دار المعارف بمصر، حـ١ ص ١٢٢.
(٢) Margolioth, "Relations..." P. 12.
(٣) انظر جواد علي، المفصل حـ٩ ص ٧٧٦.
Ibid, P. 12.

وبناء على ما جاء في البيت الأول فقد اعتبر الأب شيخو بني الديان من نصارى نجـران[١]، وينكـر التبريزي نسبة هذا البيت للسموأل ويقول إنه لعبد الله المازني[٢]. وحجة شيخو في إثبات نصرانية السموأل ضعيفة، وقد فندها ولفنسون ودلل على ضعفها قائلا: إن الغيرة الدينية وحدها هي التي دفعت الأب شيخو الى القول بنصرانية السموأل الذي لا سبيل الى إنكار يهوديته[٣].

وأمام هذه الروايات المتقدمة ارى ان معظم المصادر التي ذكرت نسب السموأل لم تنكر يهوديته وان اختلفت هذه المصادر في ضبط لفظ والده، «عاديا» أو «عادياء»، او في اسم والده الحقيقي فبعضها يقول بأنه السموأل بن غريض اليهودي[٤]، وآخر يقول بأنه ابن اوفى، أو أنه ولد الكاهن هارون بن عمران الى غير ذلك من الاختلافات التي لا تغيِّر من حقيقة يهودية السموأل[٥]. ويظهر ان لفظة السموأل حرفت عن صمويل وبذلك يكون اصل كلمة السموأل مشتق من العبرية.

وربما اختلط على صاحب الأغاني «الذي ذكر ان السموأل بن غريض، اسم أخ السموأل او ابنه الغريض الشاعر، لأنه يذكر في رواية ثانية ان السموأل ابن عاديا[٦]. وقد ارتبط اسم السموأل بالأبلق وتيماء واليهودية ارتباطا وثيقا، بحيث لا يصح معه القول بنصرانية السموأل كما ان الأب شيخو يقر بيهودية سعية أخ السموأل الأصغر مما لا يجعل مجالا لإنكار يهودية الاخ الأكبر السموأل، كما ان اسم الديّان من الأسماء المشهورة عند اليهـود، وهي تطلق على الأسر التي تتولى القضاء الشرعي عند اليهود، فهم يطلقون عليهـا «آل الـديان»، ومن المحتمـل ان يكـون السمـوأل من عائلة اشتغلت بالقضاء اليهودي[٧]. وإذا صح هذا تصبح الروايات السابقة القائلة بأن السموأل من ولد الكوهن او «الكاهن» قريبة من الصحة.

---

(١) راجع مقدمة الأب شيخو لديوان السموأل، انظر كذلك ولفنسون، تاريخ اليهود ص ٢٦.
(٢) انظر ديوان الحماسة، لأبي تمام، طبعة الرافعي ص ٣١.
(٣) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود ص ٢٧.
(٤) انظر الأغاني حـ٣ ص ١٢.
(٥) انظر تاج العروس «للزبيدي» طبع مصر حـ٧ ص٣٨٢. معاهد التنصيص، المرجع السابق ص ٢٨.
(٦) الأغاني، حـ ١٩ ص ١٢.
(٧) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ٢٨.

وهذه بعض الأبيات الشعرية المنسوبة الى السمـوأل، يذكر فيها الأنبياء والأسباط:

وأتتنى الأنباء عن ملك داوود فقرت عيني به ورضيت
وسليمان والحواري يحيى ومتىّ يوسف كأني وليت
وبقايا الأسباط أسباط يعـ ـقوب دارس التوراة والتابوت[١]

يقـول فيهـا:

إنّ حلمي إذا تغيّب عني فاعلمي انني عظيما رزيت[٢]

وتركيب القصيدة يدل على انها مجموعة ابيات شعرية من قصائد مختلفة قيلت بمناسبات مختلفة ايضا. فالأبيات الأولى من هذه القصيدة تتحدث عن نشاط الإنسان وحياته ولقبه بعد موته، والأبيات الأخيرة تتحدث عن القناعة في الرزق وبعض الأمور التـاريخية، وقـد ذهب البعض إلى القول بأنها موضوعة[٣]. وإزاء ما تقدم فإن ديوان السموأل لنفـطويه «طبع شيخو» هي مجموعة من الاشعار المليحة والقبيحة والسمينة والغثة انتجته قرائح مختلفة، فمن شاعر متين إلى آخر سخيف ومن شاعر مطبوع إلى آخر متكلف واغلبها مزور مدسوس على السموأل[٤].

وقد ذكر ابن سلام عدداً آخر من شعراء اليهود منهم شريح بن عمران، ويعتقد انه من آل عاديا وهو الذي خلّص الأعشى من الأسر، ومنهم الشاعر سعيد بن الغريض أخو السموأل، كما ذكر اسم «شعبة»، «سعيه» حفيد السموأل[٥]. وهناك خلاف في مدى قرابة سعيه هذا للسموأل كما اختلفوا في صلة الغريض بالسموأل[٦].

(١) انـظر ديوان **السمـوأل** للأب شيخـو، كذلـك **شعر السموأل**، لعيسى سابا ص ٢٧، ٢٨. وانظر كذلك، ولفنسون، **تاريخ اليهود** . . . ص ٢٩.
(٢) انظر ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء** ص ٢٣٦.
(٣) انظر الأصمعي، **الاصمعيات**، طبع دار المعارف ص ٨٢. الجاحظ، **البيان والتبيين** حـ٣ ص ١٢٧.
(٤) انظر ولفنسون، **تاريخ اليهود** . . . ص ٣٠.
(٥) انظر **طبقات فحول الشعراء** ص ٢٣٩ وما بعدها، بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي** حـ١ ص ١٢٢.
(٦) انظر جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، حـ٩ ص ٧٧٩.

وقد نسب ابن سلام شعرا لشعبه او سعيه . . منه . .

يا ليت شعري حين اندب هالكا ماذا تُرَثِّين به أنواحي[1]

وروى اهل الأخبار أن شعبه هذا عاش وادرك معاوية وكانت له مساجلة مع معاوية يستفاد منها ان الشاعر اليهودي كان متعلقا بآل علي ويعتبر معاوية متسلطا[2].

ويذهب البعض الى ان اسم شعبه هو تصحيف «سيعه» وهو من اسماء يهود[3].

ومن شعراء اليهود كعب بن الأشرف ، وهو من طي وأمه من بني النضير، وكان سيداً في اخواله وهو الذي بكى قتلى بدر وشبّب بنساء المسلمين فأمر الرسول ﷺ ، محمد بن مسلمه ورهطا من الأنصار بقتله فقتلوه وهو يقول في كلمة له مطلعها :

رب خال لي لو أبصرته سَبْطِ المشية أباء أنِف[4]

ومن شعره في رثاء قتلى بدر قصيدة مشهورة مطلعها :

طحنت رحى بدر لمهلك اهله ولمثل بدر تُستهلُّ وتدمعُ
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرَّعُ[5]

ويشك ولفنسون في صحة نسبة هذه القصيدة الى كعب الاشرف ويقول بأنه لا يصح الاعتماد على كل ما سرد في كتاب السيرة، لأن كثيراً من القصائد ينسبها ابن هشام لبطون حمير في حين تدل لغتها على ان قائلها من قريش[6].

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٢٤١ ، وما بعدها.
(٢) انظر جواد علي، المفصل . . . حـ٩ ص ٧٨٠.
(٣) انظر المرجع السابق حـ٩ ص ٧٨٢.
(٤) انظر ابو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمر الهاشمي البغدادي، أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية وصدر الإسلام، وأسماء من قتل من الشعراء وقد غلبت كنيته على اسمه، مخطوط مصور معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ص ٩.
أنظر كذلك ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٨. انظر الاغاني حـ١٩ ص ١٠٥.
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، حـ٢ ص ٥٢.
(٦) انظر تاريخ اليهود . . . ص ٣٣.

غير ان ما جاء في هذه الأبيات يلائم الحياة السياسية التي كان عليها اليهود في المدينة إثر معركة بدر، مما يرجع نسبته لشاعر يهودي عزّ عليه ان يرى ساعد المسلمين يقوى، ويشتد، ثم إن اللغة المضرية غزت اليمن وتغلغلت فيها ولم يعد المضري والحميري يحتاجان الى من يترجم بينهما. ويتضح ذلك في بعثة معاذ بن جبل وعلي بن ابي طالب الى اليمن، فلم يحتاجا لمترجم يترجم لهما كلام من أرسلوا إليهم[١].

ومنهم الربيع بن ابي الحقيق من بني النضير على رأي «ابن هشام» و«الجمحي» ومن بني قريظة على رأي صاحب الأغاني[٢].

وذكر الأصفهاني ان الربيع بن ابي الحقيق هو أحد رؤساء حرب بعاث، وكان حليفاً للخزرج، وقد التقى مع النابغة وتسابقا في نظم الشعر[٣]. ومن جيد شعره قصيدة مطلعها:

سئمت وأمسيت رهن الفراش   من جرم قومي ومن مغرمي[٤]

والملاحظ ان ابياتا من هذه القصيدة نسبت من قبل الى الشاعر اليهودي شعبه بن الغريض الذي تقدم ذكره[٥].

ومن الشعراء الذين ذكرهم الأخباريون - من اليهود - اوس بن دبي القرظي، وشريح بن عمران وابو قيس بن رفاعه وأبو الذيّال وسماك اليهودي، ومرحب الفارس الخيبري وغيرهم[٦].

ومن ينعم النظر في الاشعار المنسوبة للشعراء اليهود لا يجد فرقا بينه وبين الشعر العربي المعاصر، ولذلك صعب تمييز الشعراء حسب اجناسهم من خلال شعرهم. ويستفاد من هذا ان دوافع الشعر ولغته وخصائصه للشعراء اليهود لا تختلف عن دوافع الشعر العربي ولغته وخصائصه، وهذا يبعث على القول ان الشعراء اليهود تشربوا الثقافة

---

(١) انظر ولفنسون، **تاريخ اليهود** ... ص ٣٣.
(٢) انظر ابن هشام، **السيرة النبوية**، حـ٢ ص ٢٧٣. ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء** ص ٢٣٧.
(٣) انظر **الاغاني** حـ ٢١ ص ٦١.
(٤) انظر **الأغاني**، حـ٢١ ص ٦١.
(٥) انظر شعر شعبة بن القريض عند ابن سلام الجمحي.
(٦) انظر ابن هشام حـ٢ ص ١٩٨، ٣٣٣. ابن سلام الجمحي، المرجع السابق والصفحة.

العربية، حتى صعب على رواة الشعر التفريق بين اشعار تتساوى في الفاظها وتعابيرها واغراضها فوقع الخلط في نسبة الشعر لهذا الشاعر العربي وذاك اليهودي، وهذا ما نلحظه مثلا في نسبة البيت التالي :

رب خال لي لو رأيته سبط المشية في اليوم الحضر

فقد نسب الجاحظ هذا البيت بهذه القافية لحسان بن ثابت[1]، بينما نسبه ابن سلام الجمحي وجماعة آخرون لكعب بن الأشرف على الصورة التالية :

رب خال لي لو أبصرته سبط المشية أبّاءٍ انف[2]

(١) انظر الجاحظ، البيان والتبيين حـ٢ ص ٦.
(٢) انظر ابن سلام الجمحي، المرجع السابق ص ٢٣٨. انظر السهيلي، الروض الأنف حـ٢، ص١٤٦. أنظر كذلك ولفنسون، تاريخ اليهود . . . ص ٣٢. جواد علي، المفصل . . . حـ٩ ص ٧٨٤.

النسيء والنسأة

النسيء هو تأخير بعض الأشهر الحرم الى شهر آخر، والأشهر الحرم هي رجب - وذو القعدة - وذو الحجة - والمحرم. والمراد بالنسيء تأخير المحرم الى صفر[1].

وكان اول من نسأ الشهور على العرب، فأحلت منها ما احل وحرمت منها ما حرم «القَلمَّس»، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي من بني كنانة، ثم قام بنوه من بعده على هذا الأمر[2].

وكانت العرب اذا فرغت من الحج وارادت الانصراف اجتمعت اليه فيقوم فيهم ويقول: «اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين، الصفر الأول، وأنسأت الآخر للعام المقبل»[3]. وكانت العرب تحرم القتال في اربعة اشهر من السنة ليتسنى لهم الحج ومزاولة التجارة بأمن وسلام، ثم كانت - بعد ذلك - تعرض حاجات لبعض القبائل العربية تتعارض مع تحريم هذه الأشهر، فيقوم من ينسيء من كنانة باستحلال احد الاشهر الحرم عن طريق تأخيره في عام وتقديمه في عام آخر، فتكون عدة الأشهر المحرمة اربعة، ولكن اعيان هذه الأشهر تتبدل، ولذلك كان الحج يتبدل من شهر الى شهر. فقد كان حج ابي بكر رضي الله عنه في ذي القعدة. ولما حج الرسول ﷺ حجته التي حج، فوافق ذا الحجة، فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[4].

ويرى البعض أن العرب كانت تؤخر الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية فكانوا يؤخرونه في كل عام احد عشر يوماً أو أكثر قليلا، حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة، فيعود الى وقته[5].

---

(١) انظر «نسأ» في القاموس.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٤٤. السهيلي، الروض الأنف، حـ١ ص ٦٣.
(٣) ابن هشام، المرجع السابق حـ١ ص ٤٤، والمسعودي، مروج الذهب، حـ٢ ص٣١.
(٤) انظر تفسير الطبري حـ١٠ ص ٩٢ وما بعدها. تفسير النسفي، حـ٢ ص ١٢٥ وما بعدها. كذلك سيد قطب، في ظلال القرآن حـ٤ ص ٢١٧ وما بعدها.
(٥) انظر السهيلي، الروض الأنف، حـ١ ص ٦٤.

وقد حرم الله النسيء بقوله: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض، منها اربعة حرم، ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن انفسكم، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين. إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله. زين لهم سوء اعمالهم، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[1].

ويذهب البعض الى ان النسيء والناسيء من الالفاظ المعربة عن اللغة العبرانية، وقد دخلت الى العربية بتأثير يهود يثرب. والناسيء عند اليهود هو الرئيس الديني يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والصيام ويعلن النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة[2] والناسيء يقابل رئيس قبيلة عند بني إسرائيل[3].

وكان النسيء يعطي معنى الكبس، وهو اضافة الفرق الذي يقع بين السنة الشمسية والسنة القمرية الى الشهور القمرية لتلافي النقص الكائن بين السنتين، ولتكون الشهور القمرية بذلك ثابتة لا تتغير، تكون في مواسمها المعينة، فلا يقع حادث في شهر من شهورها في الشتاء، ثم يتحول بمرور السنين فيقع بعد أمد في الصيف او في الربيع، كما يقع ذلك في الشهور القمرية الصرفة المستعملة في الاسلام[4].

وقد كانت شهور اليهود، وهي شهور قمرية تساوي «٣٥٤» يوما وست ساعات فهي لذلك انقص بأحد عشر يوما عن السنة الرومانية، فادخلوا شهرا ثالث عشر في كل ثلاث سنوات، سموه (فيادارا) أو (آذار الثاني)، وبهذه الطريقة جعلوا السنة القمرية مساوية للسنة الشمسية[5].

ويعتقد ولفنسون بأن هناك علاقة بين النسيء عند العرب وبين اليهود، ويعزز رأيه بالملاحظات التالية:

١ - رواية ابن هشامن (حـ ١ ص ٤٤) والتي تقول بأن اول من نسأ الشهور على العرب

(١) سورة التوبة، الآيات: ٣٦-٣٧.
(٢) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٨١.
(٣) انظر سفر الخروج، الإصحاح ٣٤: ٣١. سفر العدد، الاصحاح ٧: ٣٢. ولفنسون، المرجع السابق ص ٨١.
(٤) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام حـ٨ ص ٤٩٢.
(٥) انظر جورج بوست، قاموس الكتاب المقدس، حـ١ ص ٦٣٩. وجواد علي، المرجع السابق حـ٨ ص ٤٩٣.

فأحلت منها ما احل وحرمت منها ما حرم «القَلَمّس» وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدى بنى عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة، ثم قام بعده على ذلك «ابنه عباد بن حذيفة» ثم قام بعد عباد، قلع بن عباد، ثم قام بعد قلع، أمية بن قلع ثم قام بعد أمية، عوف بن أمية، ثم قام بعد عوف ابو ثمامه، جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الأسلام. ويستخلص ولفنسون من اقوال ابن هشام هذه، ان وظيفة النسأة ادخلت على العرب في عصر غير بعيد من ظهور الاسلام.

٢ ـ ان وجود هذه الوظيفة في بني كنانة يوحي بأن هذه الوظيفة ربما اتت من بطون كنانة المتهوّدة والتي كانت تسكن جنوب مكة.

٣ ـ احتمال وجود علاقة للنسأة باليهودية لانهم هم الذين تزعموا مقاومة النصرانية في اليمن والنجاشي الذي قضى على ذي نواس دون الزعماء الوثنيين[١]

ويغلب على الظن ان النسيء والكبس انما هما مظهران من مظاهر اختلاط التقويم الشمسي والقمري على عرب الحجاز. وذلك إن الجاهليين اعتبروا السنة ثلاثة عشر شهرا او اربعة عشر شهرا[٢]. لذلك نجد ان العرب اعتمدوا على التقويم الشمسي في مواسمهم الزراعية، بينما ظل الاعتماد في الأمور الدينية، مثل الحج والصوم والأعياد، على الشهور القمرية[٣]. والنسيء كما هو واضح حاجة قبيلة املتها ضرورات الغزو والغارة والأخذ بالثأر، ولا ارى ان هناك علاقة لها بالامور الدينية، بل كانت انتهاكا للعرف الديني المتوارث بتحريم القتال في الأشهر الحرم.

أما يهود جزيرة العرب، فقد كانوا يسلكون طريقتهم الخاصة فى التوقيت ويسلكون منهجهم في تعيين الشهور، كما يتأيد ذلك من الاخبار التي نجدها عنهم عند الأخباريين[٤]. وأما النصارى العرب فكانوا يتبعون التقاويم الشرقية ويسيرون على الشهور السريانية المعروفة وفقا لشعائر الكنيسة، وكذلك احتفلوا بأعيادهم وفقا لما ثبت عندهم في كنيستهم وقد اشير اليها في بعض الشعر الجاهلي وفي كتب الأخباريين[٥].

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٨١، ٨٢.
(٢) انظر الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب، دار الكتاب العربي، جـ٣ ص ٧١.
(٣) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، حـ٨ ص ٥٠٤.
(٤) انظر المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٥) نفس المرجع السابق والصفحة.

وكذلك يظن بأن للتوراة اثراً على تسمية ايام الاسبوع عند العرب، فلم تكن العرب تعطي ايام الاسبوع صبغة عددية كما نحن عليه اليوم، فكانت العرب تسمى الاحد، اول، والأثنين اهون، والثلاثاء جيار، والاربعاء دبار، والخميس مؤنس، والجمعة عروبة، والسبت شيار، قال شاعرهم:

أؤمل أن أعيش وأن يومي بأول أو بأهون أو جيار
أو المردى دبار فإن أفته فمؤنس او عروبة او شيار[1]

ويقول ولفنسون بأن لفظ عروبة شائع عند اليهود يطلقونه على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد[2].

الصوفة والصوفان:

أطلق العرب اسم صوفة او صوفان على بعض الذين كانوا يلون شيئا من المناسك من غير اهل البيت وسموا صوفه وصوفان لأنه بمنزلة الصوف فيهم القصير والطويل والاسود والاحمر ليسوا من قبيلة واحدة[3].

وكانت صوفة تدفع بالناس منن عرفة، وتجيز بهم إذا نفروا من منى فإذا كان يوم النفير اتوا (لرمي الجمار ورجل من صوفة يرمي للناس، لا يرمون حتى يرمي. وكان اصحاب الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له: «قم فارم حتى نرمي معك فيقول: لا والله حتى تميل الشمس»، فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له: ويلك! قم فارم، فيأبى عليهم، حتى اذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه[4]. ويرى ولفنسون ان لهذه الوظيفة جذوراً في اليهودية لأن صوفة بالعبرية تعني «الحارس» ويقول: «ان هذا المعنى يلائم ما جاء في قول ابن هشام عن الصوفة - اي الشخص الذي يبصر في الشؤون الدينية لأنه اصدر الأمر حين مسابقة الإفاضة وكان أول من رمى الجمار أو الحصى في وادي منى - ومنى هذا من الأصنام

---

(١) انظر المسعودي، مروج الذهب، حـ٢ ص ١٩١ «طبعة دار الأندلس».
(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٨٣.
(٣) انظر السهيلي، الروض الأنف، حـ١ ص ١٤٣.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ١٢٠.

المشهورة عند بني إسرائيل في عصور جاهليتها لأننا نعلم من آيات نبوءات اشعيا، أن منى كان إلهاً للخمرة»[1] .

والذي أميل اليه هو ان لا علاقة لليهودية بالصوفة ومنى، وذلك لأن هذه الطقوس والعادات انما نبتت في بلاد العرب، ومنها انتقلت مع الشعوب السامية الى مهاجرها الجديدة، شأنها في ذلك شأن الديانات القديمة، واذا كانت الديانة اليهودية قد تأثرت بمعتقدات السبئيين وثالوثهم الإلهي، وتقديس القمر فمن الأولى أن يكون اليهود قد نقلوا معهم ايضا مثل هذه العادات من موطنهم الاول في بلاد العرب. ويعزز هذا الاتجاه ان الإخباريين العرب لم يذكروا اية علاقة لمنى او «مناة» باليهود، كما لم يذكروا ان يهود الجزيرة العربية اتخذوا لهم صنما بهذا الاسم، وكل العلاقة هي في التشابه اللفظي الذي لا يفيد شيئا في الاستدلال على ان «مناة» إنما ورثها العرب عن اليهود، ومن الجدير ذكره ان «مناة» اقدم الأصنام التي اتخذها العرب بعد عمرو بن لحي[2] .

وبناء على ما سبق فجدير بنا عدم المبالغة في تصوير اثر اليهود على العقلية العربية، مع انه لا يستبعد ان يكون لهذه الديانات السماوية السابقة للإسلام تأثير فى إثارة بعض الأفكار ضد الوثنية وتهيئتها للوحدانية مما سهل لانتصار دين الإسلام في بلاد العرب.

الختـــان :

الختان عادة شائعة عند شعوب كثيرة في العالم، وتضرب هذه العادة في القدم حتى لا تعرف لها بداية. والعرب واليهود يجعلون لها علاقة بالأمور الدينية ويحرصون على التمسك بها. والختان لغة هو قطع الغرلة[3]. ويغلب على الظن ان الختان من التدابير الصحية في الأصل[4]، وقد ارتبط الختان عند اليهود بالقربان، فقد كان الإنسان نفسه يقدم القرابين البشرية، ثم اكتفت الآلهة بجزء من الإنسان، وهو ما يقتطع في عملية الختان وقد كان الختان سنة شائعة عند المصريين الأقدمين، وكان عندهم للوقاية الصحية

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٨٣.
(٢) انظر ابن الكلبي، الأصنام ص ١٣ .
(٣) انظر «ختن» في القاموس.
(٤) انظر غوستاف لوبون، اليهود في الحضارات الأولى، ص ٥٧ .

من الاقذار التي تتعرض لها الأعضاء التناسلية. وقد اقتبسه اليهود من المصريين وجعلوه مرتبطا بالقرابين والضحايا التي تقدم «للغفران وإرضاء الآلهة» ومع مرور الزمن اصبح الختان فريضة عند اليهود يحتمها الولاء للجنس فعلى اليهودي اي يختتن ليبرهن على انه يهودي. وقبل عهد المكابين كان الختان يجري للذكر والانثى بصورة بسيطة تمكن الشخص من الادعاء بأنه مختون ليتقي بذلك استهزاء غير اليهود وعدوانهم، ولما جاء المكابيون امر الكهنة بأن تزال الغلفة عن آخرها، حتى لا يحاول اليهودي الاندماج مع الشعوب الأخرى[1].

ويقول ولفنسون بأن عادة الختان لم تسر من اليهود الى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة في الجزيرة العربية منذ عصور غابرة، ويعتمد على باحث آخر في تعزيز رأيه، وذلك لوجود قبائل متوحشة حتى في افريقيا كانت تألف هذه العادة[2]. ورغم ان ولفنسون يشير الى شيوع هذه العادة ولا يراها وقفا على بني إسرائيل، يعود فيشير الى تأثير اليهود على العرب فى هذه العادة. ويرى ان هناك علاقة بين الاصطلاح «ملة ابراهيم حنيفا» وبين «ملّة» في اللغة العبرية وهي اسم العضو التناسلى بعد ختانه، واسمه قبل ختانه «غرله» ويقول ولفنسون: «بما ان الختان من اصول الدين الإسرائيلي فقد عبّر الناموس الديني عن كل من اختتن انه دخل في ذمة إبراهيم وعهد إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن هنا اطلق اليهود على كل من اختتن التعبير «ملة ابراهيم» واطلق اليهود على كل من يختتن دون ان يعتنق اليهودية اسم «حنيف»[3]. وبهذا الاشتقاق يحاول ولفنسون ان يوحي «ان التعبير ملّة ابراهيم حنيف» يعني الذي يختتن ولا يتمسك بشروط الدين اليهودي، وهو يريد بذلك البرهنة على ان عادة الختان انما سرت للعرب بتأثير اليهود، وولفنسون بهذا الاتجاه يريد ان يعيد الى الاذهان بطريق غير مباشر علاقة اليهود بإبراهيم الخليل عليه السلام، وهو ما يحرص على تثبيته في الاذهان كُتاب اليهود، ليصلوا الى غايتهم «ارض الميعاد».

غير ان استنتاجات ولفنسون بعيدة عن الصواب لأن التعبير «ملّة» ورد في القرآن الكريم في مواضع متعددة بمعنى الدين وهذه امثلة من القرآن الكريم، ﴿ومن يرغب عن

(١) انظر احمد شلبي، مقارنة اديان «اليهودية» ط ٢ ١٩٦٧ مكتبة النهضة المصرية ص ٢٨٠ وما بعدها.
(٢) انظر تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٧٨.
(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٧٩.

ملّة ابراهيم الا من سفه نفسه﴾[١] وقوله: ﴿قل بل ملّة إبراهيم حنيفا﴾[٢].. وجاء في سورة آل عمران: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا...﴾[٣]، وجاء في سورة النساء: ﴿ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملّة ابراهيم حنيفا..﴾[٤]، وجاء في سورة الانعام: ﴿قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملّة إبراهيم حنيفا...﴾[٥]. وفي سورة يوسف: ﴿إني تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون...﴾[٦]. وفي نفس السورة ﴿واتبعت ملّة آبائي إبراهيم واسحق ويعقوب...﴾[٧]، وفي سورة النحل: ﴿ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة إبراهيم حنيفا...﴾[٨] وفي سورة الحج: ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين...﴾[٩] وفي سورة ص: ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق...﴾[١٠].

وبناء على ما تقدم نجد ان تعبير «ملّة إبراهيم حنيفا» لم يستعمل ولو مرة واحدة للدلالة على ما ذهب اليه ولفنسون. لذلك ارى ان عادة الختان فطرية مارسها الانسان للحفاظ على صحته. وقد ورد عن الرسول ﷺ قوله: «إن الختان من خصال الفطرة»[١١].



(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.
(٣) الآية: ٩٥.
(٤) الآية: ١٢٥.
(٥) الآية: ١٦١.
(٦) الآية: ٣٧.
(٧) الآية: ٣٨.
(٨) الآية: ١٢٣.
(٩) الآية: ٧٨.
(١٠) الآية: ٧.
(١١) صحيح البخاري جـ٧، ص ٢٠٥. صحيح مسلم جـ١ ص ١٥٢.

الفصـل الخامس

العرب واليهود إزاء ظهور الدعوة الاسلامية

★ موقف قريش :
- مركز مكة في الجزيرة العربية .
- دور العصبية في موقف قريش من الدعوة الاسلامية .
- مركز الرسول ﷺ في مكة .

★ هجرة المسلمين الى الحبشة :
- موقف اليهود من الدعوة الاسلامية .
- الرسول يعرض نفسه في المواسم ـ بيعة العقبة ـ.
- موقف قريش من البيعة الكبرى .
- موقف اليهود من هذه البيعة .

الفصـــل الخامـس

العرب واليهود ازاء ظهور الدعوة الاسلامية

أ ـ موقف قريش :

جدير بنا التعرض للحديث في ثلاثة أمور عند البحث في موقف قريش من الدعوة الاسلامية. وأول هذه الأمور، مركز مكة في الجزيرة العربية وثانيها دور العصبية القبلية في الموقف من الدعوة الاسلامية، وثالثها مكانة الرسول ﷺ من قريش.

١ ـ مركز مكة في الجزيرة العربية :

كانت مكة حاضرة الجزيرة العربية، فقد تجاوز نشاطها التجاري حدود الجزيرة العربية وساهمت في النشاط التجاري العالمي، وأقامت لها الصلات مع الحيرة في العراق، ومع بلاد الشام، وحملت الى هذه الاسواق بضائع الهند وشرق القارة الافريقية وجنوب الجزيرة العربية. كما حملت من هذه الاسواق الحبوب والزيت والخمور والزبيب والمنسوجات والاصباغ والجواري. وقد استن القرشيون رحلة الشتاء والصيف. فكانت قوافلهم تتجه صيفا الى بلاد الشام بشكل عام والى سواحل فلسطين بشكل خاص، وكانت غزة التي توفي فيها هاشم جد الرسول من أهم المراكز، وكذلك كانت كل من أيلة وبصرى. وفي الشتاء كانت القوافل المكية تتجه الى اليمن حاملة معها منتوجات بلاد الشام، وتعود محملة بمنتوجات جنوب الجزيرة العربية وسواحل افريقيا الشرقية. وقد حافظت البطون المكية على علاقات حسنة فيما بينها وحرصت على ان يسود السلام مكة في الداخل. كما حرص المكيون على اقامة علاقات طيبة مع القبائل العربية الاخرى، كما اهتموا في اقامة علاقات متوازنة مع الشمال والجنوب، وكذلك الامبراطوريتين الكبيرتين، الفارسية والرومية. وكانت هاتان الامبراطوريتان تطمعان في نشر نفوذهما على بلاد العرب، وقد حاولت بيزنطة السيطرة على الجزيرة العربية، وأرسلت لهذا الغرض

حملة بقيادة «اليوس جاليوس» سنة ٢٤ ق.م. الا ان هذه الحملة لم يكتب لها النجاح لرفض القبائل العربية التعاون معها من جهة وصعوبة السير في أرض صحراوية صعبة المسالك من جهة اخرى.

وقد حاولت بيزنطة مد نفوذها الى مكة مرة اخرى في القرن السادس الميلادي بأسلوب آخر، وذلك عندما استغلت تمرد عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزّى القرشي على الوثنية وتنصره لدى القيصر(١) الذي وجد فيه ضالته، فملّكه على مكة وأعطاه كتبا لتبليغ قومه بهذه الارادة البيزنطية، كما حمّله تهديدا ووعيدا لأهل مكة بقطع سبل تجارتهم من بلاد الشام اذا خالفوه(٢). وتكشف لنا هذه الحادثة حرص بيزنطة في بسط نفوذها على مكة اعتمادا على سكانها الاصليين دون ان تتكلف بارسال الجيوش.

وقد فشلت هذه المحاولة لان مكة كانت حريصة على ان تظل بعيدة عن الصراعات الدولية حفاظا على مصالحها التجارية. واهتم المكيون بعقد المواثيق مع الدول المجاورة كالروم والغساسنة والحميريين والأحباش لتسهيل عمليات التجارة(٣).

وكانت صلات مكة بيهود يثرب والمراكز اليهودية الممتدة على طول طريق بلاد الشام ـ كوادي القرى وفدك وخيبر وتيماء ـ حسنة، وكان القرشيون ينظرون نظرة احترام لهؤلاء اليهود ويرون فيهم أهل علم بالكتاب الأول(٤). وبالمقابل كان اليهود يعاملون القرشيون بالاحترام والتكريم ويعتبرونهم سادة العرب(٥).

بهذه السياسة التي اتبعتها مكة تمكنت من الحفاظ على شخصيتها المستقلة في الجزيرة وأمنت لنفسها التفوق التجاري والمعنوي، حتى أنها تفوقت على صنعاء في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي وأصبحت العاصمة التي تتجه اليها انظار العرب في كل مكان يرون فيها محط آمالهم القومية، وبخاصة بعد ان فقدت اليمن استقلالها وضعفت مملكتا الحيرة وغسان(٦).

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية حـ١ ص ٢٢٤، والسهيلي، الروض الأنف حـ١ ص ٢٥٥.
(٢) انظر محمد بن حبيب، المحبر ص ١٧١.
(٣) انظر الطبري، تاريخ، حـ٢ ص ٢٥٢.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٣٠٠.
(٥) المرجع السابق والصفحة.
(٦) انظر احمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة ص ١٥٠.

ولم ترو لنا المصادر التاريخية ان حروبا ذات أثر كانت تقع بين بطون قريش، اللهم الا حرب الفجار التي حدثت بعد مولد الرسول محمد ﷺ. وعلى أثر هذه الحرب تنادت بطون قريش الى عقد حلف الفضول الذي قيل في سببه المباشر ان أحد القرشيين مطل تاجرا من زبيد ولم يعطه ثمن سلعته، فتنادت قريش الى اجتماع في دار عبدالله بن جدعان وتحالفوا وتعاهدوا على إنصاف المظلوم من الظالم.

وأرى هذا التحالف جاء متفقا مع سياسة مكة التجارية التي تهدف الى الحفاظ على سمعة طيبة في داخل الجزيرة العربية وخارجها، لانه بدون هذه السمعة لا يتيسر لقريش النجاح في اعمالها. كما يعتبر تأكيدا لعزوف قريش عن القتال ورفضها له، لأن القتال والفتن يضعفان مركزها بين العرب من ناحية ويشغلانها عن أعمالها التجارية من ناحية اخرى. واما مكانة مكة الاجتماعية والدينية فكانت تماثل مركزها التجاري ان لم تفقه، فالى مكة كان العرب يحجون من كل فج، ليطوفوا حول الكعبة وليؤدوا شعائرهم حول اربابهم التي نصبوها حول الكعبة بعدد أيام السنة. ولا يرضى العرب لغير قريش بالسيادة والزعامة فهم حماة الكعبة وحراس هذه الأصنام، وهم دون غيرهم ذوو السقاية والرفادة، ولا تقطع دونهم الأمور العظام. وكانت للعرب مواسم في مكة يجتمعون بها في ايام مخصصة من كل سنة يمتارون فيها ويتناشدون الأشعار ويتبادلون الخطب، وفي هذه المواسم وغيرها اطلع العرب على الثقافات الاجنبية من يهودية ونصرانية ويونانية، ذلك ان اليهود والنصارى نقلوا معهم الى جزيرة العرب الفلسفة اليونانية التي تشربوها ابان الحكم اليوناني والروماني. وقد تعلم بعض الأحبار اليهود الفلسفة اليونانية وتأدبوا بآدابها وساهم هؤلاء مع غيرهم بعملية تمازج الثقافات في منطقة الشرق الاوسط حتى قيل: «ان الشرق والغرب اختلطا في الاسكندرية وامتزجت آراء رومة واليونان والشام في المدنيّة والعلوم والدين بآراء الشرق الاقصى. فنشأت قضية جديدة عمل على ايجادها بحث الغرب والهام الشرق واتصل الدين بالفلسفة اتصالا وثيقا كان من نتائجه ظهور عقائد دينية لا هي من الفلسفة المحضة ولا هي من الدين الخالص وأخذت بطرف من كل. وجاء ذلك من عاملين: أحدهما ميل اليهود الى التوفيق بين معتقداتهم الدينية، والعلم الغربي الذي كان متأثرا بالعلم اليوناني، وثانيهما، ان المفكرين الذين استخدموا آراءهم من الفلسفة رأوا ان يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية والقضايا الدينية المحضة التي جاء بها

المشارقة. ومن أي الجهتين نظرنا رأينا أن النتيجة كانت فلسفة دينية لا هي فلسفة محضة ولا هي دين خالص»[1].

ولما انتقلت اليهودية الى بلاد العرب كانت تحمل في ثناياها شيئا من ذلك. وقد فشلت اليهودية في ان تصبح ديانة العرب مع انها اقدم ديانة توحيدية دخلت الجزيرة العربية، وربما ان ذلك عائد الى الغموض الفلسفي الذي اصاب الديانتين اليهودية والنصرانية، كما يمكن ان يكون لسلوك اليهود وعلاقتهم مع غيرهم أثر في فشل اليهودية بين العرب، لان هذا السلوك كان قائما على الشك والريبة والميل الى العزلة، وهي صفات ورثها اليهود بعد حوادث التشتت والمذابح التي تعرضوا لها طوال تاريخهم.

ولا يغيب عنا ان نذكر في هذا الصدد موقف العرب تجاه كل غريب عنهم، فاليهود غرباء طارئون على بلاد العرب، والعربي لا يطمئن لأجنبي سيما وأن الأجانب اليهود استأثروا باقتصاد الحجاز وتعاملوا مع العرب بالربا، وحفظ لهم العرب قصصا كثيرة في الجشع وعدم الرحمة بالفقراء أضف الى ذلك ما وقع بين اليهودية والنصرانية من جدل وخصومه وصلت حد الاقتتال. مما جعل العربي يتمسك بوثنيته.

لم يحارب العربي الديانات التوحيدية لأنها تقول بالتوحيد، فالعرب يعرفون الاله الواحد ويؤمنون به ولكنهم كانوا يشركون معه أوثانهم وأصنامهم، ويؤيد ما سبق ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله. .﴾[4].

وإنما حارب العرب اليهودية والنصرانية لانهم رأوا فيهما امتدادا للنشاط الاجنبي الممثل في أطماع الروم والفرس والأحباش في بلادهم.

---

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٥.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.
(٣) سورة المؤمنون، آية: ٨٤ ـ ٨٥. ذكر فيليب حتى، انه كان من المعبودات الكثيرة في الكعبة معبود باسم «الله» أو «الإله». واسم الله عريق في القدم اذ وجد في رقم معيني قديم جـ١ ص ١٤١.
(٤) سورة الزمر، آية: ٣٨.

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تدن بالنصرانية او اليهودية كما لم توافق المشركين على عبادتهم. وكانت هذه الطائفة تعتقد بالاله الواحد الذي لا شريك له، وعرفت هذه الجماعة بالاحناف، وهو دين ابراهيم الخليل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[1]. ان وجود هذه الجماعة يدل على ان العرب لم يكونوا بمعزل عن نماذج الثقافات اليونانية واليهودية والنصرانية. كما لم يكونوا بعيدين عن الصراع الفكري بين اليهودية والنصرانية، وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء الأحناف وبعض أقوالهم التي يؤخذ منها انها كانت متفقة مع مبادىء الاسلام. غير ان القليل الذي وصلنا من أخبار هؤلاء لا يوضح عقيدتهم ومنهجهم الديني، كما لا يكشف عن فلسفتهم الدينية ونشاطهم الذي مارسوه في سبيل نشر أفكارهم.

وقد تضاربت الأخبار حول حقيقة دين هؤلاء الذين وصفوا بالحنيفيّة، فبعض الباحثين يرون انهم شيع من النصرانية واعتبروهم نصارى عربا زهادا كيفوا النصرانية بعض التكيف، وربما ان هؤلاء الباحثين تأثروا بأخبار من تنصر من الأحناف، ومن الأشعار التي يفهم من بعضها ان هذه الطائفة من الطوائف النصرانية[2].

غير ان القرآن الكريم لم يترك مجالا للشك في حقيقة الحنيفيّة التي كان عليها ابراهيم الخليل عليه السلام فقال: ﴿ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما﴾[3]. وقد أدخل أهل الأخبار مع الأحناف اناسا من النصارى والرهبان مثل «بحيرا» الراهب وأبي عامر بن صيفي - المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح - وأرباب بن رئاب من عبد القيس وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى[4].

والذين ذكر الرواة اسماءهم من الحنفاء هم اناس عاشوا في الجاهلية قبيل الاسلام، ومنهم من أدرك الاسلام والتقى بالرسول ﷺ. وقد بالغ الرواة كعادتهم بطول

---

(١) سورة البقرة، اية: ١٣٥.

(٢) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام حـ٦ ص ٤٥٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

(٤) انظر ابن قتيبة الدينوري، المعارف، دار احياء التراث العربي، بيروت ط٢ ١٩٧٠ ص ٢٧.

أعمـارهم فعـدوا بعضهـا بمئـات السنين[1]. فمن عادة الاخباريين اطالة اعمار ابطال رواياتهم واحـاطتهـا بالجـلال والتعـظيم، وذلـك لتهيئـة النفوس لقبول ما ينسب لهذه الشخصيات من مواعظ وحكم. وهذه الظاهرة عامة وليست خاصة بالاخباريين العرب.

ويرى الدكتور جواد علي ان الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الاصنام وثارت عليها وعلى المثـل الاخـلاقية السائدة في ذلك الزمن، ونادت بأفكار إصلاحية تناولت فيها الجوانب المختلفة للمجتمع الجاهلي، فلم تقتصر دعوة هذه الجماعة على الاصلاح الـديني ومحـاربة الأوثان بل تعدتها الى محاربة العادات السيئة كشرب الخمرة ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة. وهكذا ارتفع صوتهم كما يرتفع صوت المصلحين في كل زمان ينادون بالاصلاح. وربما أثارت هذه الدعوة حفيظة اصحاب الجاه والسلطان والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة اصلاحية، ويجوز ان يكون من بين هؤلاء من مال الى النصرانية، غير اننا لا نستطيع ان نقول انهم كانوا نصارى او يهودا، إنما يمكن تشبيه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا الى عبادة الاله رب السماء (ذو سموي) او عبادة الرحمن في اليمن متأثرين بمباديء التوحيد التي حملتها اليهودية والنصرانية الى اليمن، ولكن لم يكونوا انفسهم يهودا او نصارى، انما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد[2].

مما تقدم نرى ان عرب الحجاز بعامة وسكان مكة بخاصة لم يكونوا بعيدين عما يحيط بهم من أفكار بل نجدهم يفتحون عقولهم لكل جديد، فقد اعتادوا على سماع الكثيرين ممن يمجدون دين الآباء والأجداد ويشهدون بالكرم والوفاء لهؤلاء الأجداد، كما سمعوا الى من يدعو الى مفارقة الأوثان واعتناق دين جديد، مثلما كانوا يسمعون الحكم والأمثال عن العذاب والحساب والجنة والنار وعن الله والرحمن، غير ان كل ما سمعوه لم يكون لدى الكثيرين منهم فكرة واضحة أو رأيا جديدا يريده هؤلاء الخطباء، ذلك ان أفكار هؤلاء المصلحين لم تكن واضحة مكتملة. ورغم هذه الآراء المتباينة وسط ضجيج الباعة

(١) على من اراد الاستزادة بأخبـار هؤلاء الأحناف فعليه الاطلاع على المصادر التالية: ابن هشام، السيرة النبـوية، حـ١ ص ٢٢٥ وما بعدها، المسعودي، مروج الذهب حـ١ ص ٧٨ ط دار الأندلس. الأصفهاني، الأغاني حـ٣ ص ١١٣ وما بعدها. الألوسي، بلوغ الأرب حـ٢ ص ٢٤٤. ابن كثير، البداية والنهاية، حـ٢ ص ٢٣٠ وما بعدها. ابن قتيبة الدينوري، المعارف ص ٢٧.

(٢) جواد علي، المفصل . . . حـ٦ ص ٤٦٢.

والشعـراء والخـطبـاء لـم يشك احد بزعامة مكة وزعامة قريش فيها، وكانت قريش قد ارتفعت فوق الأحداث واطمأنت إلى زعامتها التي حسبتها لا تزول.

لقد سمع العرب آراء اليهود والنصارى والأحناف والوثنيين في الأسواق والمراكز التجارية عبر الجزيرة وبلاد الشام، ولم يكن عربي يستغرب ان يسمع رأيا جديدا او دعوة جديدة تماما كما لم يكن يستغرب سماع خطبة جديدة او قصيدة جديدة.

ومن هذا المنطلق نظر القرشيون الى دعوة محمد في بداية الأمر، ولم يكترثوا بها، وكـل ظنهم أنهـا واحـدة من الدعوات التي اعتادوا سماعها وألفوا مثلها. ولم تثر دعوة الـرسول مخاوفهم الا بعد أن هاجم آلهتهم وعابها وسفه عقولهم وتبعه احداث الرجال وضعفاء الناس أعظموه وناكروه وأجمعوا عداوته.(١)

عندما أيقن زعماء قريش ان دعوة محمد تستهدف هدم ما ألفه المنحتمع العربي بعامة والمجتمع المكي على الاخص في الدين والاخلاق والاقتصاد والاجتماع وبناء مجتمع جديد، شعروا ان مركزهم في خطر، فهبوا للدفاع عن مصالحهم الممتازة بين العرب، وتظاهروا بحفاظهم على تراث الآباء والأجداد الذي مكن لهم هذه الامتيازات.

لقـد كان موقف قريش من الـدعـوة الاسـلامية متفاوتا بين الشدة والضعف تبعا لتفاوتهم في المكانة الاجتماعية والاقتصادية، فنحن قلما نرى الفقراء من قريش في قائمة اعداء محمد ﷺ، وانما تبرز اسماء سادة قريش في مقدمة الذين تصدوا لهذه الدعوة امثال أبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وابي بن خلف وغيرهم من اصحاب الجاه والثروة من قريش. وكـذلك تعرض المسلمون للعذاب والايذاء كل بمقدار مركزه الاجتماعي والاقتصادي والقبلي فكان الموالي والعبيد والفقراء من المسلمين هدفا لاشد انواع الاذى والتعذيب، ويكفي ان نتذكر ما لاقاه المستضعفون من المسلمين امثال آل ياسر وخباب ابن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبي فكيهة وعامر بن فهيرة وأشباههم(٢).

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٢٦٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، حـ١ ص ١٩٩. البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، حـ١ ص ١١٥ وما بعدها. الطبري تاريخ، حـ٢ ص ٣٥٢.

(٢) انظر البلاذري، أنساب الأشراف، حـ١ ص ١٥٦. صحيح البخاري حـ٥ ص٥٧ مطابع الشعب ١٣٧٨هـ. انظر كذلك تفسير الرازي حـ٣٠ ص ١٨٩.

٢ ـ دور العصبية في موقف قريش من الدعوة الاسلامية :

مضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه حتى اشتد التنافر بينه وبين سادة قريش وتذامروا منه وهم لا يستطيعون ان ينالوه بالاذى والتعذيب كما نالوا من الموالي والعبيد وضعاف المسلمين. فقد كان رسول الله في منعة من قومة بني هاشم، فقد أراد الله سبحانه وتعالى لهذا الدين ان يظهر فاختار رسوله من أعز بيوت العرب في الشرف والرفعة. فمحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، وعبدالمطلب هو زعيم قريش دون منازع واليه من بعد آبائه انتهت رياسة مكة. وكان الرسول في حمى عمه أبي طالب أحد سادات قريش، ومن يهج أبا طالب يهج معه بني هاشم وهم كثر وأعزاء في مكة. ولم يكن بنو هاشم ليسمحوا لأحد أن يمس محمدا بأذى بحكم العصبية القبلية. لهذا لم يجرؤ القرشيون على التعدي على شخص الرسول في حياة عمه أبي طالب. قال الرسول ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب»(١).

ومن أسباب حرص بعض بطون قريش على أذى الرسول ومن تبعه من المسلمين ما حدث من خلاف على السلطة في مكة بعد وفاة عبدالمطلب، فقد اصبح النزاع والتنافس واضحا بين بني هاشم وبني أمية، كل فريق يريد ان تكون فيه السيادة والرياسة، وقد أدى هذا النزاع الى انحلال السلطة في مكة وظهور الاحلاف بين بطون قريش نفسها تارة وبينها وبين القبائل العربية خارج مكة تارة اخرى. ومن نتائج هذا الصراع انا لم نعد نجد في قريش رجلا له مكانة قصي او هاشم أو عبدالمطلب، وأصبح لقريش مجموعة من الزعماء تتنازعهم الاهواء والمصالح. وكان هذا الاختلاف جديرا باسقاط هيبة قريش وانحلال سلطانهم لولا ان قيض الله لهم البيت العتيق الذي يحتفظ له العرب في نفوسهم بقدسية وتعظيم.

واذا كان هذا الانقسام وبالاً على القرشيين انفسهم فلم يكن كذلك بالنسبة الى باقي العرب، فقد أدى الى مزيد من حرية الناس في أفكارهم ونشر آرائهم، وتشجع اليهود والنصارى وغيرهم ممن لا يؤمنون بالوثنية على الطعن بعبادة الأوثان، ووجد هؤلاء فرصة أفضل من قبل في نشر افكارهم وتعاليمهم. وساهم هذا في انحلال الوثنية نفسها.

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٤١٦. الطبري، تاريخ حـ٢ ص ٣٤٤. ابن خلدون، تاريخ حـ٢ ص ١٧٦.

وفي غيبة السلطان الذي كان يدافع عن دين الآباء والأجداد في مكة، استطاع دعاة الأديان السماوية والموحدون من العرب اسقاط هيبة الأوثان لدرجة ان بعض أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم اجترأوا على ترك الوثنية علناً وتسفيهها والتماس دين أفضل منها، وهذه قريش وقد اجتمعت يوما في عيد من أعيادها عند صنم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما، فاجتمع نفر منهم وتناجوا سرا وقال بعضهم لبعض: «تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء»[1].

ومن الرجال الذين رفضوا الوثنية في الجاهلية وكان لفكرهم شأن بين العرب امية بن أبي الصلت. فقد قرأ الكتب المتقدمة ونبذ عبادة الأوثان وأخبر أن نبيا يخرج قد أظل زمانه، وكان يأمل ان يكون ذلك النبي المنتظر. فلما بلغه خروج محمد ﷺ، كفر به حسدا، ولما أنشد لرسول الله ﷺ شعر أمية قال عليه السلام: «آمن لسانه وكفر قلبه»[2] وقد اشتهر أمية بالشعر والترحال في البلدان. وتردد على أهل البيع والأديرة والكنائس من اليهود والنصارى وقرأ كتبهم[3]، ولبس مسوح الرهبان في بعض سفراته، وكان النصارى يجلونه ويحترمونه ويفتحون له أبواب كنائسهم[4]. وهكذا نجد أنفسنا امام رجل تيسرت له سبل المعرفة والاطلاع شأن عدد كبير من العرب ممن رفضوا الوثنية وعابوها وساهموا في تنبيه الأفكار نحو ديانة توحيدية، وأذاع مع غيره أفكارا عن الخالق والجنة والنار والفضيلة والرذيلة والمثل العليا، ونلمس ذلك في بعض الأشعار المنسوبة اليه كقوله:

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما[5]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية حـ١ ص ٢٢٢.
(٢) انظر ابن قتيبة الدينوري، المعارف ص ٢٨. والديار بكري، الخميس في أحوال أنفس نفيس حـ١ ص ٤١٢.
(٣) انظر المسعودي، مروج الذهب، حـ١ ص ٨٤.
(٤) انظر ابن كثير - البداية والنهاية، حـ٢ ص ٢٢٠ وما بعدها.
(٥) انظر المسعودي، المرجع السابق حـ١ ص ٨٤.

ومما ذكره الاخباريون ورواة شعر أمية نجد انه استعمل الكلام الغريب، فاستعمل «الساهور» للقمر، وهي كلمة لا يعرفها العرب، وذكر السلطيط اسما لله تعالى. ونظرا لولعه بهذا الغريب من الكلمات رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره [(١)]. وقد روى الأخباريون قصصا عن أمية وعن التقائه بالرهبان وتوسمهم فيه معالم النبوة، ورويت قصص عن شق صدره وتنظيف قلبه، وهي قصص مماثلة لما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول ﷺ. ورووا عنه أنه كان يفهم لغة الحيوان فيعرف ما تقوله وما تريده وأنه سخر الجن، وتنبأ بموته حينما نعب عليه غراب[(٢)].

وأغلب الظن أن هذه القصص موضوعة وظهرت متأخرة بعد الاسلام، وأنها من نسج أناس من ثقيف ممن يتعصبون لأمية بن أبي‌الصلت، ولا يستبعد ان تكون هذه القصص ظهرت في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي لان في عهده أنتج الوضاعون الشيء الكثير من الأخبار في قبيلة ثقيف، فلا غرو فالحجاج وأمية ثقفيان، وقد يؤيد ذلك قول الحجاج حين سئل عن شعر امية: «ذهب قوم يعرفون شعر أمية وكذلك اندراس الكلام»[(٣)].

وروي ان الرسول ﷺ كان يسمع شعر أمية، وأن «الشريد بن سويد او بن عمرو» الثقفي كان ينشد له شيئا من ذلك في أثناء احدى أسفاره، فكان كلما انشد له شيئا منه طلب منه المزيد، حتى قال الرسول: «كاد ليسلم، او كاد ليسلم في شعره»، وذكر أن الرسول قال في حديث له عنه «آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه»[(٤)].

وذكرت الروايات ان امية قابل الرسول في المدينة وسأل الرسول قائلا: «ما هذا الذي جئت به، فقال الرسول: الحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، فقال عليه الصلاة والسلام، لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها، فقال: «أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا، ثم خرج الى الشام وأرسل الى المنافقين ان استعدوا للسلاح، ثم أتى

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٤٧. الأصفهاني، الأغاني حـ٤ ص ١٢١. الأب شيخو، شعراء النصرانية حـ٢ ص ٢١٩. ديوان أمية بن أبي الصلت ـ فحول الشعراء، جمع بشير يموت ـ بيروت ١٩٣٤م ص ٥ وما بعدها.

(٢) انظر ابن كثير، البداية والنهاية، حـ٢ ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٣) انظر جواد علي، المفصل . . . حـ٦ ص ٤٨٣.

(٤) انظر ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص ٢٨. انظر ايضا صحيح مسلم حـ٧ ص ٤٨ وما بعدها.

قيصر وطلب منه جندا، ليخرج النبي من المدينة، فمات بالشام طريدا وحيدا، وهذه القصة ينسب وقوعها لأبي عامر الراهب(١).

وهكذا تجمعت في شخصية امية نوازع العصبية القبلية وكبرياء ابن البادية مع ما تجمع لابن ابي الصلت من أسباب المعرفة والاطلاع، فذهب به الغرور الى حد ادعاء النبوة او الطمع بها، فكان واعظا حكيما في شعره، مترددا في ايمانه، وهو بهذا التردد يعكس لنا تاريخ العرب في الجزيرة من الوجهة الفكرية في الفترة القصيرة السابقة لظهور الاسلام.

ونظرا لأن شعر أمية اشتمل على بعض الألفاظ والمعاني الواردة في القرآن الكريم، ذهب بعضهم(٢) إلى أن الرسول أخذ القرآن او بعضه عن أمية، غير ان هذا التصور لا يمكن إثباته، وذلك لأن احدا لم يقل بأن شعر أمية أقدم عهداً من القرآن الكريم ثم لو ان في هذا التصور شيئا من الصحة لما سكتت قريش عن اتهام الرسول به، وهم الذين اتهموه بانه يأخذ القرآن من نصراني في مكة. وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون، إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾(٣).

وقد أشار المفسرون الى اسم الغلام النصراني ولم يشيروا الى اسم أمية بن أبي الصلت(٤). ثم ان أمية بن أبي الصلت لم يكن على علاقة حسنة مع الرسول ﷺ كما يفهم من الروايات المتعددة، حتى يسكت عن الرسول وهو يأخذ عنه القرآن، فهو خصمه ومنافسه العنيد الذي اخذ منه النبوة على زعمه! ولو كان أمية يعرف مصدرا بشريا يأخذ محمد عنه القرآن لما سكت عنه، كما لو كان أمية والرسول يأخذان من منهل واحد لما سكتت قريش عنهما.

ولم يذكر أحد من خصوم محمد ﷺ ـ وهم كثر ـ اسم مصدر معين كان الرسول يأخذ القرآن عنه، ولم نسمع حتى في لجة حروب الردة ادعاء كهذا. ولم يتورع قوم في هذه الحرب عن الطعن في الاسلام والمسلمين والادعاء بالنبوة.

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة، حـ٢ ص ٣٠. ابن كثير، البداية والنهاية، حـ٢ ص ٢٢٦.

(٢) من أمثال كليمان هوار، وبور .Power، أنظر المقدمة الألمانية لديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق فردرش شولتيش، ص٧. وانظر بروكلمان، تاريخ الادب العربي ١١٣/١. جواد علي، المفصل جـ٦ ص ٤٩٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

(٤) انظر تفسير ابن كثير، حـ٢ ص ٥٨٦، تفسير سورة النحل، ذكر أن اسم الغلام النصراني الذي أشير اليه هو جبر.

إن التفسير الوحيد للمعاني الدينية الواردة في شعر أمية ومشابهتها لمثيلاتها في القرآن انما يعود الى أن ثقافة أمية بن أبي الصلت ثقافة دينية اعتمدت في الأصل الكتب الـدينية عنـد اليهود والنصارى، اطلع عليها امية في رحلاته الى الشام وتأثر بأحاديث الرهبان والقسس ورجال الدين لهاتين الديانتين، فاستفاد من الحكم والقصص الواردة في التوراة والانجيل، ثم أضاف الى اطلاعه هذا ما سمعه من قرآن وحديث في المدة بين البعثة وحتى السنة التاسعة للهجرة وهي سنة وفاته. هذا ان لم يكن الشعر الموافق للقرآن مدسـوسـا على أمية وفي عهـد الحجـاج كما أسلفنا، لان كثيرا من الوضاعين وضعوا الروايات للغض من شأن الحجاج وقبيلته ثقيف، فأراد هو ان يرفع من شأن نفسه وقبيلته فأضيفت هذه الأشعار الى امية لتكون ردا على خصوم الحجاج واعدائه، وأثر الوضع على بعض شعر امية واضح ظاهر لا يحتاج الى كبير جهد لاثبات وضعه، فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمن رب العبا ... د أنت المليك وأنت الحكم
محمدا أرسله بالهـــدى ... فعاش غنيا ولم يهتضم(١)

فهذه الأبيات كما هو واضح لا يمكن ان تكون الا من صنع مؤمن عميق الايمان بالاسلام وبمحمد ﷺ، وهذا ما لم ينطبق على شخص أميّة وقد نسبت قصائد من هذا القبيل لأمية بن أبي الصلت تفصح كلها عن أنها من نظم شعراء مسلمين متأخرين ولا يمكننا الاستدلال مما تقدم على ان عقلية العرب قبيل الاسلام بلغت من الرقي الديني حدا تساوت فيه مع تعاليم الاسلام، وإلا لما كانت هناك حاجة إلى الاسلام طالما النـاس قادرون على الهـدى بأنفسهم، ثم لما كانت بين الاسلام وأهل الجاهلية هذه الخصومة الشديدة والاقتتال الشديد.

والذي نراه أن أفكار أمية بن ابي الصلت وامثاله من العرب ساهمت الى جانب الديانتين اليهودية والنصرانية في اثارة افكار عرب الجزيرة وأوجدت عندهم حب الاطلاع وأضعفت من تمسكهم بالوثنية.

---

(١) انظر ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع بشير يموت ص ٥٣. جواد علي، المفصل . . . حـ٦ ص ٤٩٢ وما بعدها.

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى هيأ المناخ الملائم لنجاح الدعوة الاسلامية، فاختار لنجاحها الرجل المناسب والزمان المناسب ويسر لها عوامل النجاح، فمحمد عزيز في عصبيته ولم تعد قريش يدا واحدة خلف زعيم واحد، واعتنق الاسلام أناس من بطون مختلفة من قريش مما أضعف اجماع قريش على مقاومة الدعوة الاسلامية. فهذا ابو بكر من تيم، وعثمان بن عفان من بني امية والزبير بن العوام من أسد وعبدالرحمن بن عوف من كلاب، وسعد بن أبي وقاص من عبد مناف وغير هؤلاء من بطون مختلفة علاوة على من أسلم من الموالي والعبيد واصحاب الديانات الاخرى من يهودية ونصرانية[1].

لا يعني ما قلناه: إن قريشا لم تقاوم الدعوة الاسلامية ولم توقع اذى بالذين اسلموا، وانما نعني ان القوم لم يكونوا على رأي واحد تجاه محمد ورسالته، فقد كان قسم من قريش يرى في كلام محمد وقرآنه شيئا جديدا ما هو بالسحر ولا بالشعر او الكهانة، ولذلك كان رأي هذا الفريق ان تترك قريش محمدا وشأنه، لان محمدا سيكون له شأن عظيم، وهذا ما أفصح عنه عتيبة بن ربيعة بقوله مرة لبني قومه: «اتركوا محمدا وشأنه لان محمدا سيكون له شأن عظيم، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به»[2].

ويرى فريق آخر ضرورة مقاومة الدعوة الاسلامية والحفاظ على تراث الآباء والأجداد الذي بوأ مكة مركز السيادة في الحجاز. اما البطون الصغيرة من قريش وغيرها من البطون التي تسكن مكة فكأن الأمر لا يعنيها ولم تبد حماسا لمشروعات قريش المناهضة للحركة الاسلامية. ورغم العوامل المتقدمة فقد بقي التيار المعادي للاسلام في قريش هو الاقوى ولكنه لا يقدر على الايقاع بالرسول مباشرة، فكان لا بد لقريش والحالة هذه ان لا تغضب بني هاشم وتدخل معهم في حروب. فتوجه جماعة من زعماء قريش الى ابي طالب ومنهم عتبة وشيبة ابناء ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب بن امية، وغيرهم وقالوا له: «ان ابن اخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وظلل آباءنا، فاما ان تكفه عنا واما ان تخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافة فنكفيكه، فقال ابو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا، فانصرفوا»[3]. وفي لقاء

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية حـ١ ص ٢٥١. البلاذري أنساب الأشراف حـ١ ص١٩٨.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة، حـ١ ص ٢٧٠، ٢٩٤، ٣٠٠. البلاذري انساب الأشراف حـ١ ص ١٥١.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة، حـ١ ص ٢٦٥.

آخر مع ابي طالب عرض زعماء قريش على محمد امام عمه ابي طالب المال والجاه والسلطان الذي يريده مقابل تخليه عن دعوته. وكان جوابه عليه السلام حاسما: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان أترك هذا الامر ما تركته أو أهلك دونه»[1]. ولما يئس زعماء قريش من اغراء الرسول لجأوا الى محاولة ارضاء أبي طالب بعرض يتخلى بموجبه عن نصرة محمد، فقد عرضوا عليه هذه المرة فتى قريش «عمارة بن الوليد بن المغيرة» اجمل شباب قريش وانهدهم ليكون لابي طالب عقله ونصره مقابل تسليم محمد لهم ليقتلوه، وينتهوا ممن يسفه عبادتهم ويخالف دينهم، ويفرق جمعهم، وانما هو رجل برجل، فقال ابو طالب: «والله لبئس ما تسومونني! . أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا»[2].

وهكذا نجد أن أبا طالب الذي ظل على دين الوثنية حمى الرسول ﷺ من حقد قريش وحسدهم وسوء نياتهم، كل ذلك بفضل ما فطر عليه العرب من عصبية الدم. ولا يخفى ان بقاء أبي طالب على الوثنية خفف من نقمة قريش عليه لحمايته ابن اخيه، لان القوم كانوا يذكرون أن أبا طالب ما زال على دين آبائه وأجداده ولم يتبع محمدا.

ولم يكن الدين وتراث الآباء والأجداد هما الحافزان لبني أمية على مقاومة محمد ودعوته بقدر ما كان للعصبية القبلية، والتي من مظاهرها تنافس هذين البيتين من قريش على الزعامة والسيادة.

ويفصح عما تقدم ما جاء في بعض الروايات من أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل ابن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو، خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله وهو يصلي الليل في بيته، وكان كل واحد لا يعلم مكان صاحبه، وبعد ان فرغوا من استماعهم عادوا يريدون بيوتهم، فجمعتهم الطريق وقال بعضهم لبعض، لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا حتى كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل الى مجلسه يستمعون الى الرسول خفية، ثم جمعتهم الطريق مرة أخرى، وتواعدوا على ان لا يعودوا، حتى كانت الليلة الثالثة فعاد كل واحد الى مكانه للاستماع وجمعتهم الطريق في انصرافهم، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد الا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، وقال له:

(١) انظر ابن هشام، السيرة، حـ١ ص ٢٦٦.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة، حـ١ ص ٢٦٦.

«أخبرني يا ابا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والله الذي حلفت به لكذلك. ثم خرج الأخنس الى أبي جهل يسأله مثل الذي سأله لأبي سفيان، فقال أبو جهل: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى اذا تجاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه»(1).

من هذه القصة نرى ان زعماء قريش كانوا يتشوقون لسماع ما يقوله محمد من القرآن ويعرفون بعض ما يقول، ولا يمنع بعضهم من اتباع محمد الا خجلهم من بعضهم بعضا مرة وحسدهم بني هاشم مرة اخرى.

إن موقف بني امية هذا من دعوة محمد كان يقابله موقف مماثل من بني هاشم الا ما كان من ابي لهب عم الرسول ﷺ. وحتى أبو لهب الذي اشتهر بعدائه لدين محمد ومقاومته لدعوته اخذته العصبية وجعلته يقف حاميا لمحمد الذي كان يحاربه بالأمس، فبعد وفاة أبي طالب اشتد ايذاء قريش لمحمد، فلما بلغ ذلك ابا لهب جاء محمدا وقال له: «يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعا اذ كان ابو طالب حيا فاصنعه، لا واللات لا يوصل اليك حتى أموت، ولما أراد احد المشركين النيل من الرسول أقبل عليه أبو لهب ونال منه فولى وهو يصيح: يا معشر قريش صبأ أبو عتيبة فأقبلت قريش حتى وقفوا على ابي لهب، فقال: ما فارقت دين عبد المطلب ولكني امنع ابن أخي ان يضام حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم» ووقف ابو لهب موقفا مماثلا مع ابي طالب حينما استجار به بعض المسلمين(2). ولم يقف ابو لهب عن مظاهرة الرسول الا بعد ان علم ان محمدا يقول: ان عبد المطلب في النار مع الذين عبدوا الأوثان(3). ولما رأت قريش أن هاشما تناصر محمدا أعلنت مقاطعتها لبني هاشم فانحاز بنو هاشم مسلمهم وكافرهم الى الشعب تضامنا مع محمد ورغم تشديد قريش في امر الحصار ومقاطعة بني هاشم الا ان بعض قريش ممن تربطهم صلات رحم مع الهاشميين كانوا

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ1 ص ٣١٥.
(2) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١ ص ٢١١. انظر ابن هشام السيرة النبوية، جـ1 ص ٣٧١.
(3) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ1 ص ٢١١. انظر البلاذري، أنساب الأشراف جـ1 ص ١٢١.

يمدونهم بالقوت وبعض الحاجيات خفية وبمختلف الحيل والوسائل. وقد استطاع هذا النفر في النهاية من نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة[1].

٣ - مركز الرسول في مكة :

كان محمد ﷺ مؤهلاً لحمل الرسالة السماوية بما توفر في شخصه من صفات فجمال مظهره الذي يبعث الهيبة والوقار وسمو اخلاقه وما اشتهر به من حكمة وفطنة وأثرة وتفـان في سبيل العقيدة، كلهـا ساهمت في انجـاح دعـوته. فقد وصفه قومه بالامانة والصـدق والـوفـاء وسموه (الأمين) تارة والصادق تارة اخرى وحكموه في المعضل من مشاكلهم، فهو الذي جنبهم حربا ضروسا يوم حكموه في قصة الحجر الاسود، وجعل من خلافهم اتفاقا فزادت مكانته بين العرب ونظر الجميع اليه نظرة وقار واحترام.

ولقد سما القرآن بهذه الشخصية سموا عظيما فاحلها في مرتبة لم تبلغها شخصية انسانية اخرى فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. فتعززت هذه الشخصية وأصبح لا مجال للشك في نجاح دعوتها. وقد استطاع الرسول ﷺ بما تجمع في شخصه من مواهب وصفات ان يفرض احترامه وجلاله على أصحابه وان يبعث الخوف والوجل في نفوس اعدائه ومبغضيه. وقد أخذ حقوق من استجار به من العرب من الد اعدائه أبي جهل دون ان يستطيع هذا ان ينبس ببنت شفة[2].

وعندما أيقنت قريش ان دعوة محمد تشق طريقها نحو النجاح وان الرجل ماض بهمـة لا تعرف الكلل في تبليغ رسالة ربه، ذهب وفد من سادة قريش الى أبي طالب وخاطبه قائلا: «يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين[3]. من هذا يتبين ان قريشا كانت تعلم ان الاعتداء على شخص الرسول انما هو إيذان بحرب أهلية داخلية تهـدد قريشـا بالفناء، لذلك حاولت قريش بمختلف الوسائل ان ينسلخ ابو طالب عن

(١) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، جـ١ ص ٣٧٤ وما بعدها.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١ ص ٣٨٩ «الرجل الذي انصفه محمد ﷺ هو الأراشي من اراشة من خثعم مَطَله ابو جهل وطلب هذا من قريش أن ينصفوه فأشاروا الى محمد ﷺ استهزاء لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل، فأقبل الرسول فقام معه إلى دار أبي جهل وأخذ له حقه.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ج ١، ص ٢٦٥ وما بعدها.

حماية الرسول، غير ان قوم الرسول التفوا حول أبي طالب مانعين محمدا من ان يصيبه اذى قريش خلا أبا لهب الذي شذ عن قومه وناصر أعداء الرسول. ولم يُجد عرض قريش عمارة بن الوليد بن أبي المغيرة على أبي طالب ليتخذه ولدا مقابل التخلي عن محمد. امام هذا لم يجد القرشيون وسيلة للرد على دعوة محمد الا ايقاع الاذى بمحمد وأصحابه وجلب الاساءة لهم ولعقيدتهم.

اما اصحاب محمد ممن ليست لهم عشيرة تحميهم فقد استهدفوا للعذاب الشديد وبخاصة العبيد والموالي، وذلك لأن قريشا شعرت بالمهانة وهي ترى هؤلاء المستضعفين في الارض يرفعون أصواتهم بما يكرهه سادتهم، وأغضبهم ان يروا هذا الدين الجديد يدخل بيوتهم مع الموالي والعبيد الذين كان يعدهم السادة بعض متاعهم يتصرفون به حيث يشاؤون. ثم ان قريشا ازعجها أن يشجع محمد هذا الصنف من الناس على ابداء الرأي ورفض الواقع الاجتماعي الذي يعيشونه.

وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت تربط ايديهم وأرجلهم ويلقون على ظهورهم فوق الرمضاء المحرقة في الايام الحارة وتوضع فوق صدورهم الحجارة المحماة الثقيلة، وقد مات بعضهم تحت التعذيب مثل ياسر وزوجته سمية، وكان على المسلمين من الأحرار ان يفتدوا هؤلاء ليخلصوهم من العذاب بأبهظ الأثمان وأقسى الشروط وقد اشترى أغنياء المسلمين بعضهم. كان الاعتداء على الموالي والعبيد من المسلمين بداية حملة عامة من المشركين انتهت بالتعرض لكافة المسلمين عبيدا وأحرارا بالأذى والاساءة حتى أصابت في نهاية الشوط شخص الرسول نفسه.

إن شمول المسلمين بالأذى يدل على ان قريشا شعرت بخطر الدعوة الاسلامية بشكل أكبر من قبل لان اشرافا اخذوا ينضمون الى الدين الجديد، وعلى ذلك تعرض للأذى امجاد وسادة مثل أبي بكر وعثمان والزبير وأبي عبيدة، وقد تحمّل المسلمون كل صنوف العذاب بصبر وإيمان وكان بامكانهم ان يردوا على عدوان قريش وان يدافعوا عن انفسهم غير ان الاذن بالقتال لم يكن قد جاء بعد. ويمكن ان يقال: ان الأمجاد من قريش لم يتعرضوا لنفس الشدة من العذاب الذي تعرض له العبيد، كما ان الرسول حتى هذه المرحلة لم يمسه أذى يذكر بفضل عمه أبي طالب.

ولما توفي أبو طالب اشتدت غضبة قريش على المسلمين وبدأ الأذى يصل الى شخص الرسول ﷺ، ومما ساعد اعداء الرسول على المضي في التعرض له أن عمه أبا لهب كان ممن بدأوا الاساءة اليه. كان أبو لهب وزوجته ام جميل (حمالة الحطب) وجيرانه يلقون النجس امام بيت النبي فيزيله ويقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا»[1].

وأنزل الله سبحانه وتعالى سورة المسد بحق أبي لهب وزوجته ﴿تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد﴾.

وكانت امرأة ابي لهب توافق زوجها وتشاركه ايذاء الرسول كما تعرض الرسول عليه الصلاة والسلام لاذى ابي جهل وعقبة بن أبي معيط وجماعة ممن كانوا من سادة قريش، وكان هؤلاء يقيمون الأدلة لبعضهم على اخلاصهم للوثنية ونكرانهم للدين الجديد بالتعريض لمحمد وأصحابه. وقد أنزل الله الآيات والسور يعد هؤلاء بالعذاب الشديد ويكشف لهم سوء أعمالهم وينذرهم بسوء عواقبها.

هجرة المسلمين الى الحبشة :

ولما رأى الرسول ما يصيب أصحابه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه»[2].

ويتساءل كثير من الباحثين عن السبب او الاسباب التي حالت دون السماح بهجرة المسلمين الى إقليم من الأقاليم العربية أو إلى يهود يثرب القريبين من مكة أو إلى إحدى الحواضر النصرانية في بلاد الشام كالحيرة وبصرى. وأما الأقاليم العربية أو القبائل العربية داخل الجزيرة وعلى أطرافها كانت ترتبط برباط ود ومجاملة مع قبيلة قريش منذ أزمان طويلة، بحيث رأى الرسول بثاقب بصره ان المشركين من العرب لا يمكنهم منع قريش من الاعتداء على المسلمين وهو بالتالي لا يكون أمينا على وجود اتباعه بين

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١ ص ٣٥٤ وما بعدها.
(٢) ابن هشام السيرة النبوية ج ١ ص ٣٢١ وما بعدها.

ظهراني قوم يقرون سيادة قريش عليهم. وكذلك لم يفكر بالهجرة الى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى داخل الجزيرة العربية، لأن هذه الطوائف كانت تتنازع فيما بينها وكانت ضعيفة بحيث لا تملك القدرة على حماية الجماعة الاسلامية اولا ولا ترغب في نجاح هذه الدعوة ثانيا.

الدين وعلى هذا لا يمكن لهذه الطوائف ان تقبل منافسا ثالثا خصوصا اذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾[1].

ومن الأسباب التي منعت الهجرة الى يثرب علاوة على ما تقدم ان الأوس والخزرج فيها كانوا لا يزالون على الوثنية وكانت الحرب مستعرة بينهم. وأما اليمن فقد شهدت أحداثا من قبل أدت الى سيادة الفرس عليها، ولم يكونوا يدينون بدين سماوي، فلم يطمئن الرسول الى الهجرة اليها، وقد برهنت الأيام على بعد نظر الرسول، فقد كتب كسرى الى «باذان» عامله على اليمن: «ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتياني به»[2]. وأما الحيرة وبصرى فكانتا تحت النفوذ الرومي تارة والنفوذ الفارسي تارة اخرى، ولم تكن الاحوال ببلاد الشام تسمح لجماعة المسلمين بحرية نشر دينهم نظرا للاضطراب السياسي والديني في هذه المنطقة. هذا علاوة على بعد الشام عن مكة. وهناك امر هام ايضا منع الهجرة الى كل من اليمن ويثرب والحيرة والشام. ذلك ان هذه المراكز هامة لتجارة قريش، ولا يكاد القرشيون ينقطعون منها أبدا ولهم مع هذه الدويلات معاهدات واتفاقيات ربما يدفع الحفاظ عليها الى تسليم جماعة المسلمين الى قريش وهو ما لا يريده محمد ﷺ.

وبناء على ما تقدم لم تكن هجرة المسلمين الى الحبشة لكونها البيئة النصرانية التي لا يظلم بها مؤمن كما يرى بعض المتعصبين للنصرانية وذلك لان النصرانية كانت في داخل الجزيرة العربية. وقد حاول البطارقة ورجال الدين في الحبشة اقناع النجاشي بتسليم المهاجرين من المسلمين الى وفد قريش الذي ارسلته امعانا في اضطهاد المسلمين وإفساد أولي الأمر في الحبشة على من عندهم.

---

(١) انظر حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ط ٧ ١٩٦٤، مكتبة النهضة المصرية، حـ١ ص ٨٧ وما بعدها.

(٢) جاء هذا في جواب كسرى على رسالة محمد ﷺ حينما ارسل كتابه اليه يدعوه للإسلام.
أنظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ ٢ ص ٦٠٦. ابن سعد، الطبقات الكبرى، حـ١ ص ٢٥٩ وما بعدها.

وقد ناقش مونتقمري وات في كتابه «محمد في مكة»[1]. الاسباب التي دعت الرسول الى حث المسلمين على الهجرة الى الحبشة وأورد الملاحظات التالية :

١ - ان القول بهجرة المسلمين الى الحبشة كانت لتجنيبهم الاضطهاد والاذى وخوفا من افتتانهم عن دينهم هو قول ضعيف الاحتمال في نظر وات وذلك لان بعض المسلمين بقي في الحبشة حتى السنة السابعة للهجرة. ولم يعودوا مباشرة بعد ان اصبح الاسلام قادرا على حماية اتباعه بعد الهجرة، مع انه لم يذكر ان الرسول قد أمرهم بالبقاء هناك. غير ان تأخر بعض المسلمين في الحبشة يمكن تبريره بان هؤلاء الذين تأخروا ربما كانت لهم مصالح اقتصادية نشأت من طول اقامتهم هناك ولا بد لهذه المصالح من زمن لتصفيتها. ولما انهى هؤلاء هذه العلاقات التجارية عادوا الى وطنهم، ويقوي هذا الرأي ان الكثيرين من الذين هاجروا كانوا من اصحاب الخبرة في العمل التجاري ورافقوا القوافل التجارية مدة طويلة.

وأنا أتفق مع «وات» في ان الخوف على المسلمين من الفتنة والارتداد عن الدين كنتيجة اضطهاد وضغط قريش لم تكن السبب الوحيد في الهجرة الى الحبشة، وأعتقد ان هذه القضية لم تكن واردة بتاتا في ذهن الرسول ﷺ، لان احتمال الافتتان قد يكون في كل مكان، وقد يكون في الحبشة ايضا. والجماعة المهاجرة كانت تضم المسلمين الأوائل أصحاب الايمان القوي الذين لا يخشى ارتدادهم، ولم يكن الذين لم يهاجروا أقوى ايمانا منهم. ولهذا لا يعقل ان يكون الخوف على فتنة المسلمين عن دينهم وحده هو الذي دفع المسلمين الى الهجرة الى الحبشة.

ويورد «وات» فرضية غريبة لتفسير اسباب هجرة المسلمين الى الحبشة ويقول: ان الهجرة حدثت بسبب اختلاف كان قد نشب بين افراد الجماعة الاسلامية في مكة، ويدّعي ان المسلمين كانوا منقسمين على انفسهم قسمين، قسم يترأسه عثمان بن مظعون الجمحي، وقسم يترأسه أبو بكر، وان الفريق الأول الذي على رأسه عثمان بن مظعون كان يكره أبا بكر لمكانته الخاصة عند الرسول ﷺ، وكان من بين افراد هذا الفريق

— البلاذري، انساب الاشراف، حـ١ ص ٥٣١. الطبري، تاريخ حـ٢ ص ٦٥٤ وما بعدها. المقريزي، إمتاع الأسماع حـ١ ص ٣٠٩.

(١) انظر Muhammad at Mekka PP. 112-117

قام بترجمة هذا الكتاب الى العربية «شعبان بركات» المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، انظر من ١٨٥-١٨٧.

خالد بن سعيد بن العاص وهو من أوائل المسلمين وأبرزهم، وابن ابي أحيحه، .نعيم بن عبدالله النحام، وكلهم هاجروا الى الحبشة، وبعضهم تأخر فيها حتى السنة السادسة للهجرة كالنحام، وبعضهم تنصر وبقي هناك كعبدالله بن جحش»[1].

ان هذا الانقسام الذي تحدث عنه «وات» لا وجود له في هذه الفترة من تاريخ الدعوة الاسلامية وذلك للأمور البسيطة التالية:

١ - ان عثمان بن مظعون وأولاده اسلموا بدعوة من أبي بكر، فهم والحالة هذه كانوا يكنون الحب والاحترام لأبي بكر شأنهم في ذلك شأن عامة)المسلمين، كما يؤثر ان عثمان بن مظعون كان مشهورا بالتزهد والتبتل لدرجة ان الرسول طلب اليه ان يتأسى به ويجعل من وقته ما يريح جسده وأهله وقال له: «يا عثمان ان اللهلم يبعثني بالرهبانية مرتين او ثلاثا، وان خير الدين عند الله الحنيفية السمحة»[2]. ومن كان هذا شأنه لا يدخل في خلاف او مشاحنه.

٢ - ان موقف عثمان بن مظعون يوم رد جوار الوليد بن المغيرة يدل على ايمان لا يتزعزع ونفس لا تشوبها شائبة، ومثل هذه النفس وهذا الايمان لا يدخلهما حسد او بغضاء. ولم يكن لابي بكر في هذه الفترة من امر توجيه الاسلام والمسلمين ما يوجب إثارة الحسد او المنافسة لان توجيه الدعوة كان متعلقا بالوحي فقط الذي يأتي محمدا قائد الجماعة المسلمة التي تنتمي الى بطون متعددة من قريش.وغير قريش والى طبقات اجتماعية متفاوتة، ولم يكن بين هذه الجماعة اي وزن للمصالح الاقتصادية والاجتماعية مما يوحي بوجود سبب للانقسام.

٣ - لم تورد المصادر الاسلامية او غيرها نبأ مثل هذه الانقسامات المبكرة بين الجماعة الاسلامية، وقد عاد عثمان بن مظعون واولاده من الحبشة وجاهدوا تحت راية الاسلام زمن محمد وأبي بكر كأفضل ما يكون الجهاد.

وأرى أن هناك ثلاثة احتمالات توضح سبب اختيار الحبشة مكان هجرة للمسلمين.

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٦ و ما بعدها .. انظر الاصل الانجليزي PP. 112-117 .

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، حـ ٣ ص ٣٩٣.

الأول : أن الرسول ﷺ كان يعرف عن النجاشي عدله وتسامحه وربما إيمانه، فآثر الرسول هجرة أصحابه الى الحبشة طمعا في نجاح دعوتهم في هذه البلاد، وتخليصا لاصحابه من اضطهاد قريش وتعذيبها، ويعزز هذا الرأي ما قيل عن إسلام النجاشي عندما دعاه الرسول لذلك[1] .

الثاني: وهو سبب سياسي، ذلك ان الحبشة كانت تطمع بأجزاء من الجزيرة العربية منذ قديم الزمان، وكانت تراقب الأحوال في بلاد العرب باهتمام لاهتبال الفرص المواتية لتنفيذ اطماعها، ولذلك رأيناها تغزو اليمن مرات عديدة، كما حاولت غزو مكة في عهد ابرهة الحبشي، لهذا لم تكن العلاقات بين قريش وبين الأحباش حسنة، الأمر الذي جعل الأحباش يقبلون المهاجرين المسلمين ومن ثم يطمئن المسلمون الى ان يد قريش لن تصل إليهم في بلاد الحبشة، وقد يكون صحيحا القول بأن الأحباش رحبوا بهؤلاء المهاجرين لاستخدامهم فيما بعد لتحقيق اطماعهم السياسية في الجزيرة العربية، لأن الأحباش لم يكونوا يعرفون الدوافع الحقيقية في نفوس هؤلاء المهاجرين.

الثالث: وهو سبب اقتصادي وهو رغبة المسلمين في العمل والارتزاق بعد ان سدت مكة في وجههم سبل العيش ومنعتهم من العمل التجاري فقد ذكر ابن هشام ان: «أبا جهل كان حين يلقى مسلما لا يقبل الارتداد عن دينه والعودة الى عبادة الأوثان، كان يقول له: «والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك»[2]

وبناء على ما تقدم لا تخرج الأسباب التي أدت الى اختيار الحبشة مكانا لهجرة المسلمين الاوائل عن الاحتمالات الثلاثة التي ذكرناها مجتمعة أو متفرقة.

موقف اليهود من الدعوة الاسلامية :

لقد أشرنا سابقا إلى احتمال وجود طائفة قليلة العدد غير ذات شأن من اليهود في مكة، ولذلك لم تذكر المصادر شيئا عن اخبار هؤلاء خلال صراع الرسول ﷺ مع قريش.

---

(١) انظر ابن هشام . . السيرة النبوية، جـ٢ ص ٦٠٧. ابن سعد: الطبقات جـ١ ص ٢٥٨، الطبري: تاريخ، جـ٢ ص ٦٥٢. المقريزي: إمتاع الاسماع، جـ١ ص ٣٠٩.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١ ص ٣٢٠.

وحتى لو توفرت النية عند يهود مكة للمساهمة في مناهضة الدعوة الاسلامية فلم يكن باستطاعتهم ذلك لاستعار شدة العصبية بين القرشيين أنفسهم مما لا يسمح لهم بكشف ميولهم.

ونظرا لضآلة شأن هؤلاء في مكة، توجهت قريش الى يهود المدينة وأحبارها يسألونهم عن محمد. فقد ارسلت قريش النضر بن الحارث ومعه عقبة بن ابي معيط الى أحبار يهود المدينة وقالوا لهما: «سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبرا هم بقوله، فانهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا احبار اليهود عما جاءا من أجله، فقالت لهما أحبار اليهود: «سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم»[1].

ينفي بعضهم صحة هذه الرواية دون تعليل لهذا النفي يركن إليه، مع ان هذه القصة قد تكون سببا في نزول سورة الكهف احدى سور القرآن فكيف يمكننا نفيها، ثم إن التلمود يحوي قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف التي أشار اليها القرآن الكريم[2].

ومن جهة أخرى نجد ان هذه الرواية تكشف نوايا اليهود تجاه الدعوة الاسلامية، وهي كما نرى عدوانية، فاليهود الذين أنذروا بمبعث محمد ﷺ ووصفوه بكتبهم وأحاديثهم، ووصفوا مكان وزمان مبعثه يظاهرون قريش الوثنية ويمدونهم بأساليب الحجاج والجدل التي لا تعرفها قريش.

هذا الموقف من اليهود يفسر جميع مواقفهم مع الرسول بعد الهجرة حيث كشفوا عن عدائهم وخاصموا المسلمين في السر والعلن. ومن الجدير بالذكر ان اسلوب قريش في جدال محمد وأصحابه كان يتركز على طلب اتيان الخوارق والمعجزات... فما باله لا يحيل الصفا والمروة ذهبا ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطا من

---

(١) ابن هشام، السيرة، جـ١ ص ٣٠٠ وما بعدها.
(٢) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٩٨.

السماء، ولم لا يبدو لهم جبريل الذي يطول حديث محمد عنه، ولم لا يحيي الموتى ولا يسير الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها، ولم لا يفجر الينابيع ليسد حاجة مكة من الماء العذب، ولم لا يوحي اليه ربه بأثمان السلع حتى يربحوا بالمضاربة عليها في المستقبل، ولم لا يعيش محمد في الجنان وتخدمه الملائكة، ولم. . . ولم إلى آخر ما تفتقت عنه العقلية العربية الوثنية. ورد الله على تساؤلاتهم بقوله سبحانه وتعالى ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لأستكثرت من الخير وما مسّني السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾[١].

أراد اليهود إذن إحراج الرسول بهذه الألغاز التي لا تعرف العرب عنها شيئا، وبذلك سخروا معرفتهم لما في كتبهم لاعجاز الرسول، وهم يعلمون انه رسول حقا، ولكن من يقف ربه معه لا يعجزه بشر فأنزل الله جوابا على تساؤلاتهم[٢].

يختلف المؤرخون والمفسرون في ذي القرنين، فمنهم من يقول: إنه الاسكندر المكدوني ومنهم من يرى انه أحد ملوك اليمن. ويرى أبو الكلام أزاد أن المقصود بذي القرنين هو الملك الفارسي كورش، وذلك اعتمادا على ابحاثه في التوراة والقرآن والكشوف الأثرية.[٣].

كان الرسول ﷺ حريصا على دعوة قومه العرب اولا إلى الاسلام، ولذلك لم يبال في سبيل هدايتهم بكل ما نزل به وبأصحابه من أذى، ولما اصر القرشيون على الكفر رحل الرسول الى الطائف وعرض نفسه على بطونها وزعمائها يدعوهم الى الاسلام، فلم يقبلوا منه وخذلوه وأنكروه وأسمعوه بذيء الكلام، وأطلقوا عليه سفهاءهم وأولادهم يعتدون عليه، وكان مما قالوه له: «هو يمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك» وقالوا: «اما وجد الله احدا يرسله غيرك» وقال آخر: «والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لانت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك»[٤].

(١) سورة الاعراف، آية: ١٨٨.
(٢) انظر سورة الكهف الآية: ٩ وما بعدها انظر كذلك سورة الإسراء آية: ٨٥.
(٣) انظر مجلة العربي الكويتية، العدد ١٨٤ سنة ١٩٧٤م ص ١٢٨-١٣٤.
أنظر كذلك حياة مولانا ابو الكلام آزاد وبحوثه، عبدالمنعم النمر، مولانا ابو الكلام آزاد، رسالة دكتوراة مخطوطة في كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٤١٩.

وفي الطائف بلغ صبر الرسول أقصى درجات التحمل وتأبى نفسه الا أن يقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، انت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني؟ أم الى عدوٍّ ملكته أمري؟ ان لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من ان تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

★ **الرسول يعرض نفسه في المواسم :**

عاد الرسول من الطائف الى مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه الا قليلا مستضعفين ممن آمن به، ولم يبال الرسول بعدوان القبائل عليه، وهو بهذه المواقف انما يدلل على شخصيته « شخصية الرسول» لان ما تعرض له من مواقف صعبة، يسمع فيها قوارص الكلم من سفهاء القوم، ويتحمل من مشقة الجوع والعطش والسفر وهو لا يطمع الا برضاء ربه ونشر دعوته، إنما هذه مقدرة فائقة قلّ ان تتوفر عند كبار الأخيار من رجال التاريخ البشري.

مضى رسول الله في سبيله يدعو العرب الى الله بكل ما أوتي من وسيلة ولا يترك مناسبة الا ويستغلها مذكرا ومنذرا ومبلغا رسالة ربه وقريش تزداد في عدوانها. عندها فكر الرسول باستغلال المواسم ودعوة الحجيج الى الاسلام، لعل دعوته تجد آذانا صاغية من غير قريش وفيما هو يعرض نفسه فى احدى هذه المواسم وجدت دعوته قبولا لدى افراد من يثرب. وكان لهذا اللقاء أثره البالغ في تاريخ الدعوة الاسلامية.

فلما أراد الله عز وجل اظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ وانجاز موعده له، خرج الرسول في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة اذ لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا. فقال لهم من أنتم؟ قالوا، نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم الى الله عز وجل، وعرض عليهم الاسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم في الاسلام، أن يهودا كانوا

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٤٢٠.

معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم: ان نبيا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم الى الله، قال بعضهم لبعض: «يا قوم تعلموا والله أنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم اليه»، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بان صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى ان يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم الى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله فلا رجل أعز منك»[1] ثم رجع اليثربيون الى بلادهم بعد ان آمنوا وصدقوا.

ويعزو بعض المؤرخين سهولة انتشار الاسلام بين اليثربيين الى مجموعة من الأسباب أهمها:

أولا: تأثير الديانتين اليهودية والنصرانية في عقول اليثربيين مما ولد عندهم الاستعداد لقبول الدين الجديد وذلك بعكس العقلية المكية الجامدة التي لم يكن عندها أي استعداد للتصور الروحي.

ثانيا: الأحوال السياسية السائدة في يثرب كانت توجب ايجاد مخرج لهذه الأزمة السياسية المستحكمة بين الأوس والخزرج واليهود وتسببت في حروب بينهم. ولذلك وجد الأوس والخزرج في اعتناق الدين الجديد المنفذ الذي يخرجون منه ويتخلصون من هذه الأزمة القاتلة.

ومع تقديري لهذين السببين، أرى أن أضيف الى ما تقدم الملاحظات التالية:

أولا: لا يعقل أن لا يسمع اليثربيون بخبر الرسول ودعوته بعد مضي سنوات على مبعثه، وهم الذين لا ينقطع وجودهم من مكة او وجود المكيين بينهم، سواء لتجارة أو طلب حلف. فقد ذكر ابن هشام «ان وفدا من بني عبد الأشهل بزعامة أبي الحيسر، أنس بن رافع قدم الى مكة وفي الوفد اياس بن معاذ، وقد جاء هذا الوفد يلتمس حلفا من قريش على قومهم من الخزرج، وقد سمع بهم الرسول ﷺ وأتاهم وجلس اليهم وعرف مطلبهم

(١) ابن هشام، السيرة، جـ١ ص ٤٢٨.

ثم قال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: انا رسول الله بعثني الى العباد، أدعوهم الى ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأنزل علي الكتاب، ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم القرآن، فقال اياس بن معاذ: اي قوم هذا والله خير مما جئتم له. وقال أبو الحيسر: لقد جئنا لغير هذا وانصرفوا الى المدينة[1].

لقد وصلت أخبار نزاع قريش مع الرسول وأصحابه بلاد الحبشة ووردت الجزيرة العربية اخبار الرسول وما ينزل عليه من وحي، وتناقل الشعراء هذه الاخبار، فهذا أبو قيس بن الاسلت من بني وائل «ووائل، وواقف، وخطمه أخوة الأوس» يدافع عن الرسول وينهي قريش عن حرب المسلمين، ويطلب اليهم الكف عن التحزب ضد بني قومهم من هاشم، وذلك في مطلع الدعوة الاسلامية.

ويذكر ابن هشام أن أمر الرسول ﷺ انتشر بين العرب وبلغ البلدان ذكره، ولم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ حين ذكر، وقبل ان يذكر من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود وكانوا لهم حلفاء ومعهم في بلادهم[2].

ويؤخذ من الرواية السابقة ان العرب في المدينة كانوا على اطلاع تام على دعوة محمد ﷺ لصلتهم بقريش من جهة واتصالهم باليهود من جهة اخرى. وفي قصتي اسلام سلمان الفارسي ـ وعبدالله بن سلام اليهودي ـ ما يفيد ان الجو في يثرب كان مهيأ لقبول دعوة الاسلام، وأن يثرب لم تكن تخلو ممن يعتنق الاسلام أو يتصل بالمسلمين في مكة، ولا يستبعد ان يكون بعض المسلمين قد أقام في يثرب وساهم في تهيئة المناخ الملائم لنشر الدعوة الاسلامية التي وجدت فعلا هذا المناخ حتى دخل الاسلام كل بيت من بيوت الانصار في مدة لا تزيد على العام الواحد.

ثانيا: كانت العلاقات بين مكة والطائف جيدة وساعدت هذه العلاقة على ترسيخ قواعد زعامة قريش في مكة وسائر انحاء الحجاز. ولا بد ان يثرب لم تكن لترتاح لهذه الزعامة وتود مخلصة لو انها تتبوأ مكانا مماثلا، ولا يتيسر لها هذا المكان وهي على الوثنية لان مكة هي عاصمة الوثنية، أضف الى ذلك أن ما سمعه العرب من جيرانهم اليهود لم

(١) ابن هشام، السيرة حـ١ ص ٤٢٧ وما بعدها.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٢٨٢ وما بعدها.

يبق حججاً للدفاع عن هذه الوثنية. لذلك فكر عرب يثرب في اعتناق هذا الدين الجديد وجعل يثرب موئلا له يحج اليها المسلمون من جميع الجهات كما يحج المشركون الى مكة من جهاتها المختلفة، وهذا الرأي يتفق مع دوافع العقلية العربية في تلك الفترة.

واذا أضفنا الى ما تقدم من ملاحظات كون المجتمع اليثربي مجتمعا زراعيا على الغالب بعكس المجتمع المكي التجاري، وان هذا المجتمع الزراعي قد فقد وحدته بعد الحروب المنهكة بين الأوس والخزرج واليهود، وان هذا المجتمع اصبح مكشوفا امام الهجمات الصحراوية البدوية،، ادركنا الازمة الاقتصادية التي كانت تعانيها يثرب. وكانت النظم الاجتماعية في يثرب مشابهة للنظم السائدة في المجتمعات الصحراوية، وأساس هذه النظم يقوم على العصبية القبلية. وكانت حوادث الثأر والديه والصدامات المتكررة تقوي هذه العصبية، ويثرب دائما تكون هي الخاسرة في صداماتها مع القبائل البدوية بما تفقده من منتوجات زراعية سواء بالنهب أو بالتخريب او ما تخسره من قطعان الماشية بينما لا يخسر الغزاة شيئا.

ولم تكن تجمع بطون يثرب مصلحة واحدة مشتركة كما جمعت التجارة البطون المكية. لهذا كان التضامن القبلي في مكة اوضح منه في يثرب. ويمكن وصف يثرب قبل قدوم الرسول ﷺ بانها مدينة منقسمة على نفسها، تنخر الحزازات والأمراض جسمها الاجتماعي وتفقده عناصر النمو والاستمرار. ازاء هذا الوضع كان الجميع في يثرب يتطلعون الى منقذ يخلصهم من هذه الازمة القاتلة. واذا كانت الفرقة وانقسام الصف هما العامل الذي مهد الطريق امام هجرة محمد الى يثرب، فان الخوف من تصدع الصف المكي وتقسيم الناس الى فريقين متطاحنين كانا من أبرز العوامل التي دعت المكيين الى حرب الرسول ومقاومة دعوته.

وأضيف الى ما سبق انه اذا كان للمكيين مصالح مادية ومعنوية في الحفاظ على الوثنية والدفاع عنها، فانه لا شيء من هذه المصالح يجعل اليثربيين يحافظون على هذه الديانة أو يدافعون عنها.

وهكذا بعد تلك الشدائد والصعوبات والآلام التي نزلت بالرسول ﷺ بسبب عرضه دينه على العرب في مكة والطائف وتمسكهم الشديد بوثنيتهم القديمة، وهجومهم على

كل من يتعرض لدين آبائهم وأجدادهم، وجد أمامه بطونا من يثرب تدخل الاسلام دون مقاومة، وأخذ أفرادها ينظرون إليه نظرة تعظيم وإجلال.

ويرى ولفنسون: أن اليهود في يثرب ساهموا في نشر الاسلام بطريقة غير مباشرة، وذلك لاعتقادهم بمجيء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء. ويقول كان لهذا الاعتقاد أثره في ظهور النصرانية في فلسطين عند طائفة خاصة من اليهود. وكما كان سببا لظهور عدة أشخاص من اليهود في القرون الوسطى بمظهر الأنبياء والمرسلين حتى عرضوا على اخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لانفسهم دعوة المسيح المنتظر. ويقول «ان هذه القصة ملأت صحفا كثيرة من صحف الأدب الاسرائيلي القديم والحديث وكثيرا ما كانت سببا في نزول بلايا ورزايا كثيرة باليهود في أدوار مختلفة ولا تزال هذه العقيدة الى اليوم راسخة في نفوس الطبقات المتدينة من اليهود، وإذا قام شخص وادّعى انه المسيح المنتظر الذي يحنون اليه منذ أزمان طويلة انكروا ادعاءه وسفهوا قوله ورفضوا الاذعان لما يدعوهم اليه. وكأن الأمة الاسرائيلية كانت ترمي لهذه الفكرة الى غاية معنوية لا يريدون تحقيقها بوجه من الوجوه. ولكنها لعبت دورها بين العوامل التي أدت الى انتشار الاسلام. اذ كان العرب يسمعون من اليهود اثناء أوقات الشدائد والأزمات أن المسيح المنتظر سيأتي ليتغلب على أعداء الشعب المنتظر. فلما عرض النبي رسالته على أفراد من الخزرج تنبهوا الى أقوال اليهود فأقبلوا يعتنقون الاسلام ويؤمنون بدعوة الرسول. وهكذا ادت تلك المحادثة بين الرسول وبين النفر من الخزرج الى هذه النتيجة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري»[1]. وبناء على ما تقدم من عوامل ساعدت على دخول الاسلام يثرب، فان النفر الستة من الخزرج عادوا الى مدينتهم وأخذوا يحدثون الناس بما سمعوه من الرسول ودعوا اهل يثرب الى الاسلام، وأصبح حديث الرسول والاسلام يدور بين الناس وأصبحت هذه الاحاديث موضع جدال ونقاش.

يرى مونتقمري وات ان لقاء الرسول بوفد الخزرج تم عام ٦٢٠م[2] وعلى هذا تكون بيعة العقبة الأولى التي تمت في العام التالي لهذا الحادث سنة ٦٢١م.

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٠٢.

(٢) "Muhammad at Mekka" P. 145.

أنظر الترجمة العربية، شعبان بركات، المكتبة العصرية - بيروت ص ٢٢٩.

وفي العام الثاني لوفد الخزرج وافى الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا، فالتقوا برسول الله في مكان العقبة، وفي هذا المكان تمت أول بيعة في الاسلام سميت بيعة النساء، لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء، وهي هذه الآية: ﴿يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم﴾[1].

وبعد ان تمت هذه البيعة انصرف عنه القوم ومعهم مصعب بن عمير بن هاشم، بعثه الرسول وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين، وكان يسمى المقرىء بالمدينة. ونزل مصعب على اسعد بن زرارة بن عدس أبي امامه، وكان مصعب يصلي بالمسلمين ويؤمهم في يثرب لان الاوس والخزرج كره بعضهم ان يؤم بعضا[2]. وكان لإسلام هؤلاء النفر ومن سبقهم وذهاب مصعب معهم من الاسباب المهمة في دخول أشراف يثرب في الاسلام، فأسلم أسيد بن حضير الذي كان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث، وأسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل من الأوس الذي تسبب في اسلام قومه[3].

ولما حل موسم حج سنة ٦٢٢م توجهت جماعة من يثرب يبلغ تعداد افرادها ثلاثة وسبعين رجلا وثلاث نسوة الى مكة لأداء فريضة الحج. وقد اتفقت هذه الجماعة على لقاء الرسول ﷺ سرا في العقبة. ولما كان الموعد المضروب حضر الرسول الى الشعب بقرب العقبة ليلا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، وفي هذا اللقاء تمت بيعة العقبة الثانية وهي البيعة الكبرى. وقد حضر العباس ليستوثق من ان ابن اخيه في منعة ومأمن، وأنه سيصير الى قوم قادرين على حمايته. وقد تكلم العباس في الوفد وأوضح لهم ان محمدا عزيز في قومه، وطلب اليهم ان يدعوه اذا رأوا انهم غير مانعيه، ثم تكلم رسول الله ﷺ وتلا شيئا من القرآن وعرض شروطه على الوفد وضماناته حتى يترك مكة الى يثرب. وقد طلب الرسول منهم ان يبايعوه على ان يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم

(١) الآية: ١٢، أنظر أيضاً ابن هشام، السيرة حـ١ ص ٤٣٣ وما بعدها.
(٢) انظر ابن هشام، المرجع السابق حـ١ ص ٤٣٤ وما بعدها.
(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٣٥ وما بعدها.

وأبناءهم. وعند ذلك تقدم البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم فمد يده وقال: «بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر. وقبل ان يتم البراء كلامه اعترض أبو الهيثم ابن التيهان قائلا: «يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا، وانا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، انا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم» وهم القوم بالبيعة فاعترضهم العباس بن عبادة قائلا: «يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فان كنتم ترون انكم اذا نهكت اموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الاشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الاشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، ولما فرغوا من البيعة، قال لهم النبي: أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء، فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. فقال النبي لهؤلاء النقباء: انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي، وكانت بيعتهم الثانية هذه ان قالوا: «بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وان نقول الحق اينما كان لا نخاف في الله لومة لائم»(1)

ويستفاد من هذه البيعة ان يثرب كانت على جانب عظيم من القوة، فقد استعد اليثربيون لمواجهة عداوة العرب قاطبة مقابل دعوة الرسول ﷺ واحتضان الدعوة الاسلامية. ولو لم يكن الرسول ﷺ واثقا من قدرتهم على حمايته لما عزم على الهجرة الى يثرب. وقد يكون مبعث هذه القوة ان اهل يثرب قد تمرسوا في القتال من خلال علاقاتهم مع القبائل العربية المحيطة بمدينتهم والتي كانت تتربص الفرص في الاغارة

(1) انظر ابن هشام، السيرة حـ1 ص 438 وما بعدها. ابن سعد، الطبقات حـ1 ص 222 وما بعدها. البلاذري، أنساب الأشراف حـ1 ص 239 وما بعدها. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي حـ2 ص 30. الطبري، تاريخ حـ2 ص 355 وما بعدها، ابن الأثير، الكامل في التاريخ حـ2 ص 63 وما بعدها. طبعة دار الفكر - بيروت. ابن كثير، البداية والنهاية، حـ3 ص 158 وما بعدها. المقريزي، إمتاع الاسماع حـ1 ص 36 ومابعدها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، حـ6 ص 192. ابن تيمية، زاد المعاد في هدي خير العباد - محمد - المطبعة المصرية ومكتبتها حـ2 ص 50 وما بعدها.

على مدينتهم طمعا بخيراتها كلما واتت هذه القبائل فرصة للاغارة والقيام باعمال السلب والنهب. ولهذا لجأ سكان يثرب الى بناء الحصون والآطام، ولعل اليهود هم الذين جلبوا معهم فكرة بناء الحصون والآطام من فلسطين وانتقلت هذه العادة الى سائر المراكز الزراعية في الجزيرة العربية. وتشير هذه الحصون والقلاع الى أن يثرب كانت تتعرض للغارة بين آونة وأخرى، رغم ان المصادر لم تفصل لنا أخبارها. وقد جاء على لسان بعض الأنصار بعد الاسلام في حديث لهم مع الرسول ﷺ كيف كانوا يقيمون في مدينتهم عند طمع الأعراب بهم مطمئنين الى هذه الحصون التي تحيط بالمدينة من معظم جوانبها.[1]

وقد تمرس سكان يثرب في القتال وأصبحت لديهم الخبرة فيه من جراء حروبهم الداخلية والخارجية واستعدادهم الدائم للدفاع عن ارضهم وخيراتهم. ويظهر من خلال الأحداث التي عاشتها يثرب ان جميع بطونها وطوائفها كانت تشترك في رد العدو المشترك وبقي هذا الحال حتى فسدت العلاقات بين المسلمين واليهود وظاهر اليهود والمنافقون أعداء المسلمين. وكانت يثرب تملك القوة الحربية التي تستطيع ان تحمي نفسها بها. وليس لدينا احصاء عن عدد الأوس والخزرج، كما لا نملك معرفة اعداد اليهود الا من تحديد قوتهم يوم فتح مكة، ومن خلال حروب المسلمين واليهود، وكان سكان يثرب قد دخل معظمهم في الاسلام. وقد قدر عدد المسلمين يوم فتح مكة بعشرة آلاف مقاتل[2]. اما عدد اليهود فقد بلغ عدد الرجال البالغين من القبائل الثلاثة حوالي الالفين، هذا دون حساب اعداد البطون اليهودية الصغيرة[3].

ومما زاد في منعة أهل يثرب ان المدينة كانت موطن صناعة الاسلحة في بلاد الحجاز واشتهرت بصناعة السيوف والسهام والدروع التي اشتهرت باسم «الدروع الداوودية»، كما روج اليهود بأنهم ورثوا هذه الصناعة من زمن داوود النبي[4]

وسبب آخر زاد في منعة يثرب موقعها على الطريق التجاري الهام بين بلاد الشام

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية حـ٢ ص ٦٣ وما بعدها. الواقدي، المغازي، حـ١ ص ٢١٠ وما بعدها.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة، حـ٢ ص ٣٢٢.
(٣) انظر احمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة ص ٣٤٨.
(٤) انظر ابن سعد، الطبقات حـ١ ص ٢٢٢. المفضل الظبي، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر =

وجنوب الجزيرة العربية، وكانت بموقعها الهام هذا تتحكم بتجارة قريش وتبقيها تحت رحمتها. ثم ان علاقات البطون العربية في يثرب مع غيرها من بطون الأزد وبخاصة قبيلة غسان في بلاد الشام جعلها تطمئن الى نجدة هذه القبائل اذا دعت الضرورة لذلك. وهكذا اطمأنت يثرب الى قوتها ولم تتوسع في عقد التحالفات مع القبائل خارج يثرب، وربما ان سبب هذا يعود الى ان يثرب كانت تزاول اعمال الزراعة والتجارة والصناعة، وان اقتصادها كان يميل نحو الاكتفاء الذاتي، وشعر اهل يثرب أنهم في بحبوحة من العيش وسط الجزيرة، فعملوا على اقامة علاقاتهم مع غيرهم وفق المصالح التي تعود بالنفع على مدينتهم. وكان لا بد ليثرب من مثل هذه العلاقات الحسنة مع الجميع حتى يستطيع اليثربيون تصريف أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية.

وقد يذهب الباحث الى ابعد من هذا التفسير لطبيعة علاقات يثرب مع غيرها وذلك بعرض الرأي الثاني: «كان اليهود هم سادة يثرب قبل غلبة الأوس والخزرج عليهم، وربما ان اليهود ادركوا طبيعة العقلية العربية التي تحيط بهم وما فيها من حساسية العربي نحو حريته وعصبيته لقومه، لذلك رأى اليهود ان تكون علاقاتهم مع غيرهم مبنية على عدم اثارة حساسية العرب هذه. ويعزز هذا الرأي أن الأوس والخزرج عندما لمسوا نوايا اليهود تجاههم سارعوا الى طلب النجدة من بني قومهم «الغساسنة» والانتقام من اليهود الذين احتكروا اقتصاد المنطقة مدة من الزمن.

ويمكن وصف صلات يثرب بالممالك المجاورة انها كانت محدودة، فلم تذكر المصادر شيئا عن علاقات يثرب مع الفرس والروم، وقد يكون مبعث ذلك ان يثرب لم يكن لها ذلك النشاط التجاري الخارجي الذي يفرض نوعا من العلاقات مع الدول المجاورة.

وأما صلات يثرب مع اليمن فقديمه تعود الى ايام المعينين لان يثرب تقع على الطريق التجاري الذي تستخدمه القوافل التجارية بين اليمن والشام. كما أن الأوس والخزرج من القبائل الأزدية التي خرجت من اليمن. وتروي لنا المصادر أخبارا كثيرة عن

= وعبدالسلام هارون، ط دار المعارف ط ٢ ص ٥٩. انظر كذلك ديوان الأعشى، شرح محمد محمد حسين، القصيدتان رقم ١٦، ٥٨.

صلات اليمن مع المدينة مما لا حاجة لذكره في بحثنا هذا. واذا كانت العلاقات الخارجية ليثرب بهذه الصورة فلم تكن كذلك علاقاتها الداخلية لان العداء قد استحكم بين الأوس والخزرج من جهة وبين اليهود من جهة اخرى بعد حروبهما التي أفضت الى تسلم البطون العربية امور يثرب. ثم فسدت العلاقات بين الأوس والخزرج ونشب بينهما القتال، فأصبح في يثرب ثلاث قوى تكيد الواحدة للأخرى وهي الخزرج والأوس واليهود.

ومما تقدم نرى ان ما آلت اليه حالة المجتمع اليثربي كانت تستدعي تعاون البطون العربية على الخروج من الأزمة التي تردت فيها هذه البطون، فعزمت على استقدام الرسول ﷺ. وسنرى ما ترتب على هذه الخطوة الجريئة من مواقف لكل من قبيلة قريش في مكة واليهود في المدينة من هذه البيعة الخطيرة التي كانت مقدمة لهجرة الرسول، سيما وأن الزعيم الخزرجي ابن التيهان ذكر ان هذه البيعة ستؤدي الى قطع روابطهم مع اليهود في معرض بيعة أصحابه.

★ موقف قريش من البيعة الكبرى :

علمت قريش بهذه البيعة وأدركت انها أصبحت مهددة بعداء يثرب، وما ان أصبح الصباح حتى التقوا بوفود الخزرج التي حضرت من أجل الحج، ففاتحوهم «أن قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وأنه والله ما من حي من العرب أبغض الينا من أن تنشب بيننا وبينهم منكم»[(1)].

لقد جن جنون قريش عندما علمت بهذه البيعة وكانت حريصة على وأد الدين الجديد في المهد فها هو ذا الدين ينتشر في مدينة تنافس مدينتهم زعامة الحجاز بل زعامة الجزيرة العربية. لم يقف القرشيون على الحياد من هذه الأحداث وهم الذين حرصوا على ان لا ينتشر الاسلام في بلاد الحبشة وأرسلوا الى النجاشي وفودهم للظفر بهؤلاء النفر من المسلمين الذين لجأوا الى بلاده. ولم يترك القرشيون وسيلة لايقاد الفتنة ضد المسلمين الا لجأوا إليها، ورغم كل الوسائل وجد القرشيون في هذه البيعة ان الأمر يكاد يفلت زمامه من أيديهم. والقرشيون محقون ـ من وجهةنظر مصالحهم المادية ـ بتقدير أهمية الخطر الذي دهمهم بهذه البيعة، وذلك أنهم لا بد سمعوا بانتشار الاسلام في

(١) انظر ابن هشام، حـ ١ ص ٤٤٨. ابن تيمية، زاد المعاد حـ٢، ص ٥١.

يثرب وهالهم حجم الوفد الذي بايع محمدا على الحرب والنصرة وبعث في نفوسهم الخوف ان بين اعضاء هذا الوفد كان زعماء الأوس والخزرج وهم أولي امر يثرب. ولذلك قدروا ان محمدا سيجد الحماية والمنعة، وأنه أصبح يملك قوة تهدد مصالحهم وتشكك في زعامتهم وتسفه عبادتهم بين القبائل العربية. لذلك سارع زعماء قريش للاجتماع بدار الندوة وتدارك الموقف. وفي دار الندوة ناقش المجتمعون الامر من جميع جوانبه واستعرضوا مجهوداتهم التي بذلت في حرب محمد ابتداء من تعرضهم بالأذى والتعذيب لاصحابه وانتهاء بمحاصرة بني هاشم في الشعب مدة ثلاث سنوات، وخلال هذا الاستعراض تساءل المجتمعون عن أنجح الوسائل في انهاء حركة محمد هذه. ولا بد ان يكون اتصالهم بالحجيج من يثرب ومنا شدة هذا الحجيج الحفاظ على حسن العلاقات مع مكة جزءا من التدابير التي اتخذتها قريش لاتقاء خطر هذه البيعة وقد لاحقت قريش الانصار بعد ان غادروا مكة، ولم يلحقوا الا بسعد بن عباده والمنذر بن عمرو أخوي بني ساعده، وتمكن المنذر من الافلات منهم، وأما سعد فوقع في أيديهم وصبوا عليه نار حقدهم وغضبهم وأحضروه الى مكة وهم يضربونه ويعذبونه وكادوايقتلونه لولا استجارته بجبير بن مطعم الذي منعه وأجاره. وقد جاوز المجتمعون حدود الاساليب السلمية وفكروا باللجوء الى آخر ما في جعبتهم من وسائل، فاتفقوا على ان يأخذوا من كل قبيلة منهم شابا جلدا يجتمعون ومع كل شاب سيف صارم ويقفون امام دار محمد ﷺ حتى اذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد بسيوفهم وبذلك يتوزع دمه بين القبائل ولا يكون بوسع بني عبد مناف المطالبة بدمه من قبائل قريش[1].

★ موقف اليهود من هذه البيعة :

لم تذكر المصادر التاريخية شيئا عن موقف اليهود ازاء ظهور الاسلام بين الأنصار من جهة وازاء بيعة العقبة الكبرى من جهة ثانية. وقد كان موقف الآيات المكية من اليهود متسامحا بل بعضها أشادت ببني اسرائيل الذين اجتباهم ربهم على العالمين. ولم نسمع أن اليهود ظاهروا قريشا في عدائها لمحمد ودعوته الا بامداد قريش بالاسئلة بقصد إعجاز

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٤٨٠ وما بعدها، وابن سعد حـ١ ص ٢٢٧ وما بعدها. اليعقوبي، تاريخ حـ٢ ص ٣٢. الطبري، تاريخ حـ٢ ص ٣٧١. وابن الأثير، الكامل في التاريخ حـ٢ ص ٦٧. وابن تيمية، زاد المعاد في هدي خير العباد، حـ٢ ص ٥٢. والمقريزي، إمتاع الاسماع، حـ١ ص ٣٨. والخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، مطبعة الإستقامة ط ٧ ١٩٣٥م، ص ٧٨ وما بعدها. محمد رضا، محمد رسول الله، ص ١٦١.

الرسول ﷺ. وحتى أن الرسول لم يشر الى موقف اليهود هذا ولم تنزل آيات بهذه المناسبة تندد بموقفهم. وكانت الثقة بين اليهود وعرب يثرب شبة معدومة، وقد رأينا[١]، الأوس يوم بعاث يصفون حلفاءهم من بني النضير وبني قريظة «بالثعالب» مع أنهم كانوا يقاتلون الى جانبهم الخزرج.

وفي غمرة القتال كان الأوس ينادون قومهم بان جيرة ابناء عمومتهم الخزرج خير من جيرة هؤلاء الثعالب[٢] ولم يكن اليهود أنفسهم متحدين في ميولهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد وصل بينهم الانقسام الى درجة الاقتتال. ففي يوم بعاث كان بنو قينقاع حلفاء الأوس بينما كان بنو النضير وبنو قريظة حلفاء الخزرج، وفي القتال بالغ بنو قريظة والنضير في الشدة على بني قينقاع. وهذه العداوة قديمة يرى بعضهم انها تعود الى بداية تاريخهم في يثرب حينما أكره اليهود من بني النضير وقريظة بني قينقاع على ترك مزارعهم والخروج منها والاكتفاء بحيهم داخل المدينة، حيث كانوا تحت حماية الخزرج[٣].

غير ان مثل هذه الخلافات يمكن تسويتها سيما وان اليهود واجهوا من التحديات والصعاب ما يجعلهم يجتازون مثل هذه الخلافات بدافع المصلحة المشتركة. وهذا يوحي بالاستنتاج الى كون الخلافات بين قينقاع من جهة وبقية اليهود من جهة اخرى اعمق من الاسباب التي ذكرناها. وكانت علاقات اليهود مع قريش في غاية الصفاء، وهكذا نجد ان موقف اليهود كان دقيقا جدا املى عليهم ضرورة التصرف بحكمة ازاء الأحداث التي تفجرت في ساحتهم. لقد فرض الاسلام نفسه في مدينتهم واستطاع مصعب بن عمير أن يصطحب سادات الأوس والخزرج ليعلنوا اسلامهم امام محمد ويعاهدون على نصرته باموالهم وانفسهم، وهكذا سقطت كل توقعاتهم. فربما تخيل اليهود ان الاسلام اذا انتشر في الأوس ظاهرته الخزرج واذا ظهر في الخزرج ظاهرته الأوس وعندها يبقى الميدان مفتوحا لتدخلات اليهود، بل ربما ذهبوا الى ابعد من ذلك وظنوا ان الاسلام سيفرق الحيين من العرب الى الأبد وسيضمن لهم السيادة في يثرب من جديد دون جهد أو تضحية. ولكن لما سارت الرياح بعكس ما يشتهون آثروا السكوت

---

(١) انظر ص ؟ من هذا البحث.

(٢) انظر نفس الصفحة السابقة من هذا البحث.

(٣) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود ص ١٠٩.

حتى ينجلي الموقف واكتفوا باتصالاتهم الخفية بقريش لتدبر الأمر، هذه الاتصالات التي يكشف عنها اتساق الحوادث فيما بعد.

وهناك موقف البطون اليهودية الصغيرة في يثرب وخارجها، فلم نسمع عن موقفهم شيئا، حتى اننا نوافق من يقول: ان هذه البطون الصغيرة هي من بطون العرب المتهودة وانها آثرت ميولها القومية على ميولها الدينية فلم تشارك اليهود في صراعهم مع المسلمين. وفي هذا الجو من الحيرة الذي عاشته كل من قريش واليهود بدأت طلائع المهاجرين تصل الى يثرب إيذانا بمقدم الرسول الكريم ﷺ.

الفصل السادس

محمد ﷺ في المدينة

- الموقف بعد الهجرة.
- موقف المسلمين من اليهود كما يصوره القرآن الكريم.
- موقف اليهود من هجرة محمد الى المدينة.
- أعمال الرسول في المدينة.
- وثيقة الموادعة التي كتبها الرسول بين المهاجرين والأنصار واليهود.
  أ - الوثيقة في المصادر التاريخية.
  ب - أهمية الوثيقة ومدى صحتها.
  جـ - تاريخ الوثيقة.
  د - مضمون الوثيقة.
- ماذا كان موقف اليهود بعد الموادعة؟
- حرب الجدل والكلام بين المسلمين واليهود.
- تحالف اليهود مع المنافقين.
- تحالف اليهود مع المشركين.

الفصل السادس

محمد ﷺ في المدينة

- الموقف بعد الهجرة :

وصل رسول الله بصحبة أبي بكر إلى يثرب بعد رحلة مثيرة محفوفة بالمخاطر والصعاب، وفي مشارف يثرب التي دعيت بعدئذ مدينة النبي،[1] استقبل المسلمون رسولهم بالبهجة والسرور وعبّروا عن فرحتهم بالاناشيد والتهليل والتكبير.

وكان في المدينة أكبر تجمع لليهود، ولم يشترك هؤلاء ببيعتي العقبة الأولى والثانية، وأخذت تتنازعهم دوافع متضاربة. فهم يرون في داعية التوحيد الجديد نصرا لمعتقداتهم من جهة ويتوجسون خيفة من اجتماع الأوس والخزرج على هذا الدين، وربما ذهب بهم تصورهم الى اعتبار بيعة العقبة الكبرى حلفا بين محمد والخزرج، وأن الخزرج انما يهدفون الى القضاء على اليهود والتخلص من وجودهم والاستيلاء على ممتلكاتهم.

وجدير بنا ان نتعرف على موقف الاسلام من اليهود واليهودية، وهذا الموقف هو في الحقيقة انعكاس لنظرة الاسلام وتصوره لأهل الكتاب عامة واليهود او بني اسرائيل خاصة، وقد رسم القرآن في سوره المكية صورة واضحة لهؤلاء لا تدع مجالا للشك في صدق نية الرسول التعاون معهم بصدق وإخلاص.

★ موقف المسلمين من اليهود كما يصوره القرآن الكريم :

خاطب القرآن المكي أهل الكتاب بأسلوب يختلف عن خطابه لأهل الوثنية، فقد أحل الكتابيين درجة رفيعة مما يستدل منها ان الرسول ﷺ كان يأمل في ان يعتنق هؤلاء

(١) استبدل الرسول ﷺ اسم «يثرب» باسم «المدينة» وذكر ياقوت الحموي لها تسعة وعشرين اسما، وذكر غيره لها اسماء كثيرة. أنظر معجم البلدان جـ٧ ص ٤٢٥. السمهودي، وفاء الوفاء، جـ١ الباب الاول.

الاسلام، لأن مصدر الاسلام ودياناتهم واحد. ويفهم من بعض الآيات وجود توافق بين ما جاء في القرآن وما عند أهل الكتاب. فقد جاء في سورة المدثر هذه الآية: ﴿وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون..﴾[1] وهذه الآية من السور المكية التي نزلت مبكرة جدا ويعتقد بأن أول ذكر للكتابيين ورد فيها[2].
وفي هذه الآية مطابقة لما بأيدي الكتابيين من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبل محمد ﷺ، وتزداد هذه المطابقة وضوحا في قوله تعالى: ﴿ان هذا لفي الصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى...﴾[3] وفي قوله تعالى هذا تقرير لوحدة الهدف بين القرآن والكتب السماوية المنزلة قبله.

وقد ورد في سورة النجم آيات مماثلة كلها تفيد ان المبادىء الاسلامية تتفق وما ورد في صحف ابراهيم وموسى عليهما السلام، وسورتا الأعلى والنجم من السور المكية التي نزلت مبكرة، وفيها تصديق القرآن لما تقدمه من كتب سماوية مما ظل القرآن يردده في مختلف أدوار التنزيل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.﴾[4] وقد بين سبحانه وتعالى ان ما شرعه على لسان محمد ﷺ يوافق ولا يخالف ما جاء على لسان من سبقه من الأنبياء السابقين، وقد ورد ذكر هؤلاء الأنبياء في آيات كثيرة تظهر فضلهم ولا تفرق بينهم، قال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[6]، وقوله: ﴿وما

(١) الآية: ٣١. انظر تفسير الرازي حـ٣٠ ص ١٨٩ ـ تفسير سورة المدثر.
(٢) انظر صحيح البخاري ـ مطابع الشعب ١٣٧٨هـ حـ٦ بشأن سورة المدثر. انظر تفسير ابن كثير حـ٤ ص ٤٤.
(٣) سورة الاعلى، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٤) المائدة، الآية: ٤٨. انظر تفسير ابن كثير حـ٢ ص ٦٥، انظر محمد سيد طنطاوي، بنو اسرائيل في القرآن والسنة ط ١ بغداد ١٩٦٨ ص ١٢٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٦) سورة يوسف، الآية: ١١١.

كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾[1].

وقوله: ﴿والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه ان الله بعباده لخبير بصير﴾[2]. وقوله: ﴿وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا..﴾[3] وقوله: ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى..﴾[4].

وهذه الآيات المتقدمة تقيم الدليل بعد الدليل لتكون حجة قائمة وكافية على صدق الرسالة المحمدية التي جاءت متممة لما تقدمها من رسائل سماوية. وكما نرى التنزيل القرآني يقر الوحدة - وحدة المصدر - بينه وبين هذه الكتب السماوية، نراه ايضا يشير الى ان العرب كانوا على علم بما تناولته الكتب السماوية الأولى، وكانوا يرون في أصحابها انهم أهل كتاب وعلم. وقد أشرنا من قبل الى أشخاص من العرب كان لهم اشعار وخطب تدل على هذا الاطلاع[5]. وفي القرآن الكريم ما يقوم حجة قاطعة على علم بني اسرائيل بصحة ما ينزل على محمد من القرآن، وذلك احتجاجا بما في كتبهم وما نزل على انبيائهم من قبل، قال تعالى: ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل..﴾[6]. ولم يكتف القرآن بتقرير علم اليهود وأصحاب الكتاب بصدق ما جاء على لسان الرسول، بل اقامهم شهودا على ذلك - أي على صحة التنزيل - فقد جاء في سورة يونس: ﴿فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾[7].

وجاء في قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون..﴾[8]. وهذه الآية تفيد معرفة أهل الكتاب بصحة القرآن معرفة يقينية لا يتطرق الشك إليها وجاء في نفس المعنى: ﴿أبغير الله أبغي حكما وهو

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣١.
(٣) سورة الأحقاف الآية: ١٢.
(٤) سورة طـه الآية ١٣٣.
(٥) راجع ص٢١٣ من هذا البحث
(٦) سورة الشعراء، الآية, ١٩٧.
(٧) سورة يونس، الآية: ٩٤.
(٨) سورة الانعام، الآية: ٢٠.

الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ (١) . وفي نفس السورة تعريض بالأنبياء الذين سبقوا محمدا، ومنهم أنبياء اليهود والنصارى. قال تعالى: ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين،وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين. واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلافضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراطمستقيم. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ (٢).

وكما هو مبين فهذه الآيات تقرر احترام أنبياء الكتابيين وتؤكد وحدة المنبع والمصب لدعوات هؤلاء الأنبياء البررة ودعوة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

وهذه آيات تفيد نفس المعاني السابقة وتختص بسيدذنا موسى وقومه بني اسرائيل وبكتاب الله الذي أنزل اليه «التوراة». قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب. ﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (٥). وفي نفس السورة: ﴿ان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ (٦). وجاءت هذه الآية بعد سلسلة من قصص الأنبياء والخطاب موجه إليهم جميعا ويفيد وحدة طريقهم مع طريق النبي محمد ﷺ الذي جاءت هذه دلالة على وحدة المؤمنين، وتكرر هذا المعنى في

---

(١)، سورة الانعام، الآية: ١١٤.
(٢)، سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٩٠.
(٣) غافر «المؤمن» - الآيتان: ٥٣-٥٤.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣
(٥) سورة الأنبياء، آية: ٧.
(٦) سورة الأنبياء، آية: ٩٢.

سورة «المؤمنون» التي نزلت بعد سورة الأنبياء مما يؤكد الصلة اللاحمة بين ما نزل على محمد وما نزل على من سبقه من الأنبياء.

وهكذا نود أن نؤكد حقيقة مستخلصة من القرآن الذي تنزل في العهد المكي، وهذه الحقيقة هي نتيجة تقررها الآيات المكية التي ذكرنا بعضها، وخلاصتها، ان القرآن أكد على وحدة المصدر له وللكتب السماوية التي تقدمته، كما فرق القرآن بين الكتابيين وبين الكفار وسما بهم فوق عبدة الأوثان وأقامهم شهودا على صحة رسالة محمد وصدق ما يوحي اليه. والقرآن بدوره مصدق للكتب السماوية السابقة. وهكذا تقوم الكتب السماوية حجة بعضها على بعض، وأن غاية القرآن الالتقاء مع الكتابيين عند صيغة من صيغ التوحيد[1].

واذا استثنينا بعض الاشارات القرآنية الخفيفة الى انحراف الكتابيين عن النبع الصافي لدينهم ـ والتي سنذكر بعضها فيما بعد ـ فإن القرآن المكي مهد الطريق امام اليهود والنصارى لقبول الاسلام دونما تردد. والحقيقة الثانية التي يقودنا اليها القرآن الكريم هي. أن محمداً ﷺ صادق فيما دعا إليه وأنه هو الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، وهو الذي بشّرَ به أنبياؤهم من قبل، وقد استفتحوا به على الكفار ويوعدوهم به. وقد أشارت الآيات المكية الى من اهتدى وصدق بالقرآن بمجرد سماعه ودعوته الى الاسلام. وهذه الإشارات توحي بوجود كتابيين في مكة، وأن هؤلاء الكتابيين اعتنقوا الاسلام ولم يبقوا على دينهم. قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون﴾[2] والآية تفصح عن جماعة من اليهود والنصارى ممن كانوا في مكة ولما سمعوا بمحمد وبمبعثه وجدوا ان صفاته مطابقة لما في كتبهم ـ التوراة والانجيل ـ فآمنوا به واتبعوه ونصروه فاستحقوا التنويه الذي جاء في الآية الكريمة، وهذه آية أخرى تؤكد ما

---

(١) انظر محمد احمد خلف الله، محمد والقوى المضادة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٣م ص ١٦٥.
(٢) سورة الاعراف، آية: ١٥٧.

ذهبنا اليه: ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون﴾[1].

وهذه الآيات تقر واقعا مشاهدا، وهو استجابة الكتابيين في مكة، وهذه الاستجابة من الكتابيين تقرر حقيقة ما سبق واستخلصناه من وقائع يقررها القرآن وفي جملتها انه والتوراة والانجيل في الأصل من مصدر واحد.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية كالسير وكتب التراجم اسماء كثير من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة ـ وان هذه الاسماء تحمل طابع الاسماء النصرانية ـ كما ذكرت هذه المصادر قدوم وفد نصراني الى مكة، وان هذا الوفد قابل الرسول بعد بعثته وأعلن اسلامه. وكان صهيب الرومي وعداس الرومي وجابر أو «جبر» من هذه الأسماء التي أعلنت إسلامها وأخلصت في إيمانها[2]. وحتى تتضح الصورة أكثر لا بد من استعراض اختلاف اليهود والنصارى على ضوء ما تشير اليه الآيات المكية. جاء في سورة هود وفصلت آيتان متماثلتان في النص تؤديان المعنى الذي نريده وهما: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب﴾[3]. وفي هذا المعنى أيضا جاء في سورة الشورى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾[4].

وجاء في سورة الزخرف: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعوني ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم. فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾[5].

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٧.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة، حـ١ ص ٢٦١، ٣٩١، ٣٩٣، ٤٢١، أنظر أيضا محمد عزة دروزة، سيرة الرسول، البابي الحلبي وشركاه ط ٢ حـ ١ ص ٣٤٨.
(٣) سورة هود، آية: ١١٠، فصلت آية: ٤٥.
(٤) الآيات: ١٣، ١٤.
(٥) الآيات: ٦٣-٦٥.

وفي سورة الجاثية: ﴿ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[1].
وجاء في سورة السجدة: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني اسرائيل. وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[2].

تكشف هذه الآيات عن واقع اختلاف أهل الكتاب وانقسامهم شيعا وأحزابا، وتبين في سياق إنذار المشركين ضرورة التمسك بالكتب التي جاء بها الأنبياء والالتفاف حول مبادئها السامية، وأن لا تكون الأغراض الباغية سببا في اختلاف من جاءهم العلم والبينات، ثم نجد ان هذه الآيات تدحض حجة المشركين العرب باختلاف الكتابيين واتخاذهم ذلك وسيلة للتمسك بما عندهم والتبجح به أولا، وبسبيل تقرير كون القرآن قد جاء بالحق وأنه لم يبق حجة لمحتج ثانيا[3].

ونلمس في هذه الآيات دعوة للالتفاف حول محمد صلوات الله عليه واتباع ما جاء به من عند الله، من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، واحلال الطيبات وتحريم الخبائث، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم، والالتزام بنصرة الرسول وتأييده والتمسك بالقرآن الذي جاء فيه حسم لخلافاتهم المذهبية والنفسية، سيما وان هذه الآيات قد نزلت في مكة وسمعها الكتابيون فيها.

وهذا المطلب القرآني بعدم اختلاف أصحاب الكتاب امام المشركين فيه اشفاق على اصحاب الكتاب وحرص على تبليغ الرسالة السماوية التي اعاقتها هذه الاختلافات وعثرت مسيرتها نحو اهدافها السامية، وكان من الأولى ان يتكتل اصحاب الديانات السماوية في جبهة واحدة للقضاء على الشرك. ونحن في غنى عن استعراض التنافس والخلافات التي اصابت النصرانية واليهودية، وما كان لها من أثر سلبي على مشركي الجزيرة العربية. وفي القرآن آيات كثيرة تؤدي المعاني السابقة بصورة أوضح منها ما جاء

---

(١) الآيات: ١٦، ١٧.
(٢) الآيات: ٢٣-٢٥.
(٣) أنظر محمد عزة دروزة، سيرة الرسول، حـ١ ص ٣٥٢.

في سورة النمل، قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين، إن ربك يقضي بينهم بحكمة وهو العزيز العليم﴾[1] وجاء في سورة مريم: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾[2] والقرآن الذي يحرص على إزالة أسباب اختلاف أهل الكتاب، يعرض لهم كثيرا من القصص التي وردت في كتبهم من وجهة نظره السليمة الصادقة، وذلك ليصححوا معلوماتهم وليثير انتباههم ويشدهم بالايمان بما جاء به. ففي السور المكية نجد ان الله قد ذكر قصص أصحاب الأخدود ووصفهم بالايمان، وذكر بني اسرائيل، ويونس وهود ويوسف وأهل الكهف وسبأ ونوح وابراهيم وأخبار الروم وقصص أخرى كلها مذكورة في كتبهم ومعظمها يتصل بأنبيائهم.

ولم يشر القرآن المكي الى انحرافات الكتابيين في عقيدتهم إلا ما كان بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية[3]. وما ورد بشأن بني اسرائيل من انحرافات انما يعود الى عهد سيدنا موسى وأخيه هارون عندما تمردوا على أنبيائهم وعبدوا العجل وانحطت اخلاقهم وساءت أحوالهم الاجتماعية وتسلطت عليهم الكوارث والمصائب وحكمهم الأقوياء كما يبدو من قصصهم في سور الأعراف وطه والاسراء بصورة خاصة. وسنجد كيف ان القرآن المدني حمل عليهم حملة عنيفة بعد ان أعرضوا عن الاسلام، وحاكوا الدسائس والمؤامرات ضده. هذه الحملات لم تكن موجودة في العهد المكي، وربما لان الاسلام لم يعش تجربته الكبرى مع اليهود الا في العهد المدني، أو لأن اليهود في مكة كانوا أفرادا سارعوا الى اعتناق الاسلام بمجرد سماعهم به. واذا صح هذا الاتجاه فلا بد ان المسلمين توقعوا ان يستجيب لدعوتهم يهود المدينة بنفس السرعة.

وأما بشأن عقيدة النصارى فقد أورد القرآن فصلا مطولا من سورة مريم. وقد نفى القرآن الكريم بُنُوَّة عيسى لله تعالى تنزهت صفاته عن الاشراك. ، وقد ساق القرآن مقدمة للوصول الى غرضه. وهذه المقدمة هي قصة ولادة سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام. وهذه القصة مذكورة في الانجيل وهي تشبه قصة ولادة سيدنا عيسى المذكورة في القرآن.

---

(١) الآيات: ٧٦-٧٨.
(٢) الآيات: ٣٤-٣٦.
(٣) انظر محمد عزة دروزة، سيرة الرسول، حـ١ ص ٣٥٣.

ويهدف القرآن من ذكر قصة سيدنا يحيى التي يعتبرها المسيحيون معجزة ربانية، إلى أن الله الذي ضرب معجزة بولادة يحيى قادر على تكرار مثل هذه المعجزة بولادة سيدنا عيسى دون ان يتخذ ولدا كما لم يتخذ يحيى ولدا من قبل. فقد أجاب الله دعاء عبده زكريا بأن يرزقه وليا يرث نبوته وماله وذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا. قال رب أنّىٰ يكون لى غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا. قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا﴾[1].

ومن غريب المصادفة ان تأتي هذه القصة التي وردت في مطلع سورة مريم في مطلع انجيل لوقا، وقد جاء في نفس معنى الآيات السابقة:

«فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لان طلبتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا.. فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأني انا شيخ وامرأتي متقدمة في ايامها، فأجاب الملاك وقال له انا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا، وها أنت تكون صامتا ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته»[2].

وفي نفس السورة من القرآن الكريم حلقات من قصص النبيين ومن اهتدى بهم ومن خالفهم من الغـواة، ومصير هؤلاء وهؤلاء وتنتهي السورة التي يدور محورها حول التوحيد ونبذ الشرك الى اعلان الربوبية الواحدة التي تعبد الله وحده لا شريك له: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته، هل تعلم له سميا﴾[3].

وفي مجال السلوك أرشد القرآن الكريم المسلمين الى أمثل الطرق في محاجة أهل الكتـاب أسلوبا وموضوعا، فمن حيث الأسلوب أوصانا القرآن بان يكون جدالنا معهم يتسم بالهدوء والحسنى بعيدا عن كل تعنت او تزمت، ما داموا هم غير متعنتين ظالمين. ومن حيث الموضوع أوصانا بأن يكون هدفنا من جدالهم إقناعهم بان دين الله واحد وأن إلهنا وإلههم واحد، وأننا نريد لهم الخير، ولا نبغي منهم إلا ان يتبعوا الحق الذي اتبعناه.

(١) سورة مريم ، الآيات: ٧-١٠.
(٢) لوقا، الإصحاح الاول: ١٣، ١٩، ٢٠، ٢١.
(٣) سورة مريم ، آية: ٦٥.

وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾[1].

وفي هذه الآيات يتجلى تسامح الاسلام ورفقه بأهل الكتاب، ويأبى المسلمون صونا لتعاليم دينهم ان يغلظوا القول الا للظالمين من هؤلاء، وفيما عدا ذلك فهم مطالبون من ربهم بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هى أحسن. ومن يتتبع مواقف الاسلام من الوثنيين والمشركين ممن يجعلون مع الله إلها آخر يستطيع تقدير المكانة العظيمة التي أعطاها الاسلام لأهل الكتاب، فالاسلام يعلنها حربا شعواء على الوثنية بكل صراحة ووضوح، ويدعو الى احتقارهم ومقاطعتهم إذ حرّم ذبائحهم ومنع التزوج منهم او تزويجهم، ولم يسمح لهم بان يقيموا شعائر الوثنية في البيت الحرام او حوله وأن لا يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، وأعلمهم يوم الحج الأكبر ان الله بريء منهم، وأمهلهم مدة يتدبرون أمرهم ويراجعون أنفسهم ليعودوا الى حضيرة الاسلام، والا قتلهم المسلمون حيث يوجدون ويؤخذون ويحصرون ويقعد لهم كل مرصد، ولم يقبل منهم الجزية التي تتبعها الحماية لهم والاقرار باقامتهم وتأديتهم شعائر دينهم الوثني، ومع الوثنية ليس هناك الا السيف او الاسلام. وعندما دخل الرسول الكعبة يوم الفتح تجلى موقفه ﷺ من الوثنية حيث باشرها بالهدم والتقويض وهو يردد﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا﴾[2].

هذا هو موقف الاسلام من الوثنية واما موقفه من اهل الكتاب ففيه التسامح والعدل والدعوة الى الحق بالتي هي أحسن مع اقامة البرهان الساطع والدليل القاطع على صدق النبي ﷺ. وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس: «ان النبي ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي ﷺ رأسه»[3].

وأباح الاسلام طعام أهل الكتاب والتعامل معهم والزواج منهم، فعن عائشة رضي

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٦.
(٢) سورة الإسراء آية: ٨١، انظر ابن هشام، السيرة طبعة محمد علي صبيح، حـ ٢ ص ٢٧٦.
(٣) انظر صحيح البخاري، حـ ٥ ص ٦٠، «باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة».

الله عنها قالت: «اشتري رسول الله ﷺ من يهودي طعاما الى أجل ورهنه درعه»[1]. وعنها أنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير»[2].

وجاء في سورة المائدة تحليلا بأكل طعام أهل الكتاب والتزوج بنسائهم دون نساء المشركين عبدة الأوثان، قال تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان..﴾[3].

وقد تزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه «نائلة بنت الفرافصة الكلبية» وهي نصرانية، وتزوج حذيفة يهودية، كما تزوج طلحة يهودية من أهل الشام[4] ولم يتورع الاسلام عن اتباع بعض العادات الحسنة لأهل الكتاب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى الله بني اسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسىٰ منكم، فصامه وأمر بصيامه»[5].

وفي مجال تنظيم جماعة العقبة الكبرى، اتبع الرسول ﷺ نهج أخيه موسى عليه الصلاة والسلام في اختيار اثني عشر نقيبا منهم، وجاء في سورة المائدة: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا...﴾[6].

ومن النصوص المتقدمة يتبين لنا ان الرسول محمد ﷺ قدم المدينة في حالة نفسيّة وفكرية تهيئة للتعاون مع اليهود بصفتهم اصحاب كتاب، وذلك تمسكا بتوجيهات الله سبحانه وتعالى.

وننتقل الى التعرف الى موقف اليهود، وهم الطرف الثاني الذي يهمنا معرفة حقيقة

---

(١) انظر صحيح البخاري، حـ ٣ ص ١٢٤ كتاب الرهن في الحضر، باب من رهن درعه.
(٢) انظر صحيح البخاري، حـ ٤ ص ٣٣ «كتاب الوصايا».
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٤) انظر محمد سيد طنطاوي، بنو اسرائيل في القرآن والسنة، حـ ١ ص ١٦٣.
(٥) انظر صحيح البخاري حـ ٣ ص ٣٩، «كتاب الصوم ـ باب صيام يوم عاشوراء».
(٦) الآية: ١٢.

اتجاهاته وميوله ونواياه إزاء الاسلام والمسلمين، وذلك عند دخول الرسول ﷺ المدينة بعد حادث الهجرة التاريخي.

★ **موقف اليهود من هجرة محمد إلى المدينة :**

قبل الحديث عن هذا الموقف لا بد لنا من التعرض ولو قليلا لمنابع الفكر اليهودي في بلاد العرب، ذلك لاننا لا نصيب الحقيقة اذا فصلنا بين هذه المنابع وواقع الجماعات اليهودية، وكما رسمنا موقف الرسول ﷺ من خلال الآيات المتعلقة بأهل الكتاب عامة وبني اسرائيل خاصة، نجد أنفسنا ملزمين بتحديد معالم الفكر اليهودي الذي حدد بالتالي مواقفهم من الحركة الاسلامية.

ويأتي الدين في المقام الأول من حيث تغذيته الفكر اليهودي اولا وصوغه سلوكهم ثانيا.

والتوراة وأسفارها الخمسة المنسوبة الى سيدنا موسى، هي أقدم ما عرف عند اليهود من كتب دينية. غير أن المحدثين من الباحثين قد لاحظوا من خلال دراسة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله ان أسفار التوراة لم تكتب في وقت واحد، وأنها ألفت في عصور لاحقة لعصر سيدنا موسى. وقد ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث أن يد التحريف أصابت هذه الأسفار حتى بدلتها[1].

واذا تتبعنا تاريخ اليهود نجد ان حوادث النفي والتشرد التي تعرض لها هذا الشعب قد أثرت في فكرهم وسلوكهم، ويكفي ان نتذكر ان السبي البابلي قد انتج كتاب التلمود الذي يتمسك به اليهود اكثر من التوراة، واذا قارنا بين العهد القديم والتلمود نجد ان الديانة اليهودية قد تطورت بعيدا وخضعت اكثر فأكثر لأهواء الربانيين ورجال الدين من اليهود، حتى ان التعاليم التلمودية تخالف تعاليم التوراة أحيانا، وقد أدى هذا الى قيام الثورة الدينية الخطيرة التي انكرت قدسية التلمود وأنكرت مكانته، وقاد هذه الثورة الفرقة اليهودية التي عرفت باسم «القرائين»[2].

(١) راجع الفكر الديني اليهودي في الفصل الاول من هذا البحث. ص ؟ وما بعدها.
(٢) انظر فؤاد حسنين علي، المجتمع الإسرائيلي حتى تشريده، معهد الدراسات العربية العالية ص ١٣٨.

لقد كان لحياة التشرد أثرها السيء على الفكر اليهودي، ونحن لا ننكر ان الظلم الاجتماعي وقساوة الحياة تفعل فعلها في سلوك الانسان وتجعل لديه الميول الشريرة تجاه بني جنسه في المجتمع، واما بالنسبة لليهود فقد أصبحت هذه الميول، دستور حياة لهم ومصدر تشريع، ومنحوها من التقديس درجة رفيعة جدا.

وقد اتهم يهود الحجاز في فترة من تاريخهم بأنهم ليسوا يهودا حقا وذلك لعدم خضوعهم لكل ما يعرف بالقانون التلمودي[١] . غير ان هذا الاتهام لم يعد له وجود بعد ان تتالت الهجرات الى بلاد العرب ونشط احبار اليهود في ربط المستعمرات اليهودية في الحجاز واليمن والعراق وفلسطين ومصر ببعضها.

والذي أميل إليه أن تصرفات اليهود في كل مكان قد تأثرت بمعتقداتهم الفكرية التي وضع أسسها الربانيون والأحبار في حالة نفسية قلقة. ويكفي ان نتذكر ما لعقيدة «شعب الله المختار من أثر على علاقتهم مع غيرهم من الشعوب». ومع ان هذه العقيدة ولدت في العهد القديم فقد كرسها التلمود، ونقرأ هذه الفقرة من التلمود، «نحن شعب الله افي الارض وقد أوجب علينا ان يفرقنا لمنفعتنا ذلك أنه لأجل رحمته ورضاه عنا سخر لنا الحيوان الانساني، وهم كل الأمم والأجناس سخرهم لنا لأنه يعلم اننا نحتاج الى نوعين من الحيوان، نوع أخرس ـ كالدواب والأنعام والطير ـ ونوع ناطق، كالمسيحيين والمسلمين والبوذيين وسائر الأمم من أهل المشرق والمغرب، فسخرهم لنا ليكونوا مسخرين لخدمتنا وفرقنا في الأرض لنمتطي ظهورهم ونمسك بعنانهم ونستخرج فنونهم ونسخرهم لمنافعنا أجمعين»[٢].

ويعتقد اليهود بأنه لا يوجد في العالم دين غير دين بني اسرائيل ولا رسول غير موسى عليه السلام، ولذلك فهم ينكرون رسالة عيسى عليه السلام كما أنكروا رسالة محمد ﷺ فيما بعد.

---

(١) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٣.
(٢) انظر الشيخ طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات، طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط ٢ ١٣٥٠هـ، جـ٢ ص ١٢٨، انظر كذلك، محمد ابراهيم الجناتي، اليهود قديما وحديثا، مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٩٦٧م ص ١٤.

وهذا الاعتقاد نتيجة التعاليم التي وضعها علماؤهم في حياة السبي ، وقد نلتمس عذرا للجماعات اليهودية التي وجدت في العهد الاسلامي لأنها ورثت هذه المعتقدات منذ قرون طويلة ولم تعد قادرة على رفضها لان وطأها أصبح ثقيلا ثقل هذه القرون الطويلة. واذا أعذرنا هذه الجماعات في صعوبة تمييزها صحة معتقداتها فاننا لا نعذرها في سلوكها مع الآخرين من غير اليهود.

واذا كان رصيد اليهود من الفكر يحملهم على الاستعلاء على غيرهم من الشعوب ، ويمنحهم نظرة قاتمة لغيرهم لا تمكنهم بالتالي من اقامة علاقات حسنة معهم، فان رصيدهم من التجارب مع العقيدة النصرانية يزيد هذه النظرة حلوكا ويجعل شذوذهم أكثر من أي وقت مضى.

واليهود يرمون مريم العذراء بأقذع التهم ولا يقرون بولادة المسيح ، ولا يعترفون برسالته، ومن جراء نظرتهم هذه تعرضوا لأبشع أنواع الاضطهاد على أيدي الدولة المسيحية.

ولما لم تكن لهم تجربة مع الاسلام فقد اعتبروه كالمسيحية ولذلك أضاف ربانيوهم كلمة الاسلام والمسلمين في الأماكن التي ذكر بها المسيحيون والمسيحية في التلمود، وهذا يقف دليلا على ان التلمود ما هو الا سجل مذكرات لجماعة من رجال الدين اليهودي على مر العصور.

واذا كانت هذه هي منابع فكرهم الاساسية ، فان يهود الحجاز كانت لديهم بعض الأفكار الأخرى تجعل تعايشهم مع المسلمين مستحيلا.

ولا بد ان اليهود قد أثار مخاوفهم تحالف محمد والخزرج واعتبروا هذا التحالف موجها ضدهم وان غايته قتال يهود يثرب وهدم كيانهم[1]. وأصل هذه المخاوف نابع من عدم ادراكهم غاية الرسول من هذا التحالف، ولأنهم لا يؤمنون بديانة غير ديانتهم ولا برسول غير رسولهم.

ويقول ولفنسون: « إن اليهود لم يكن يدر في خلدهم ان سيحدث ما يوجه الحوادث في تيار مضاد لكيانهم ولو انهم تبينوا في مظاهر الخزرج ما يدل على شيء من

(١) ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٠٥.

ذلك لاعلنوا الحرب جهرا منظمين الى حلفائهم من البطون اليثربية او منضمين الى قريش»[1].

وهذا يدل على قصر نظر اليهود لأنهم بنوا نتائجهم على فهم دوافع الخزرج قبل الاسلام، ولم يكن لديهم الاستعداد لتقدير أبعاد النتائج الحاصلة من انصهار الأوس والخزرج في بوتقة الدين الاسلامي، وان الغايات الجديدة للانصهار تتلخص في الوقوف خلف الرسول ﷺ صفا واحدا لنشر هذا الدين وتطبيق تشريعاته. وربما صور لهم عقلهم ان دين محمد ما هو الا حركة جديدة، سيكون من السهل تسخيرها لصالحهم. وقد رسخ هذا التصور ما سمعوه من محمد وأصحابه وهم يدعون الى التوحيد، ويقصون بعض قصص التوراة ويمجدون الأنبياء الذين يعتبرهم اليهود آبائهم القدامى مثل ابراهيم ويعقوب واسحاق وموسى. وربما ذهب بهم تصورهم الى حد إمكان التأثير بهذا النبي حتى يدخل في دينهم ويحارب من أجل تحقيق أغراضهم[2]. . وهذه الدوافع المتضاربة هي التي أجلت انفجار الصراع بين المسلمين واليهود بعض الوقت.

وعندما انتشر الاسلام بين البطون العربية في يثرب انعدمت فرص اليهود في ايجاد محالفات مع بعض هذه البطون وذلك أن الأوس والخزرج وجدوا في الاسلام ضالتهم، فهو القادر على جمعهم بعد تفرق واشباع رغباتهم الروحية بعد ما أصاب الوثنية من انحلال. ويتضح هذا من قول رهط العقبة الأولى الخزرجي بعد إسلامهم «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم الى امرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»[3].

واما قول ولفنسون انه كان بامكانهم محالفة قريش فربما ان هذه الفكرة قد راودتهم فوجدوا في التغاضي عنها خيرا لهم لأنهم حبذوا إخفاء نواياهم الحقيقية عن المسلمين باظهار العداء، لعدم تأكدهم من مدى موافقة قريش لمشروعاتهم لان العرب كانوا يحذرون اليهود ويخشون أطماعهم، كما ان اليهود انفسهم كانوا يطمعون في تسخير

---

(١) المرجع السابق ص ١١.
(٢) انظر محمد والقوى المضادة، ص ١٦٦.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، حـ١ ص ٤٢٩.

الرسول وانصاره لتحقيق أهدافهم، وسلوكهم مع الأنبياء عبر تاريخهم في غنى عن التوضيح .

وهكذا فقد أصبح الآن امامنا فريقان لكل مكوناته الفكرية وأهدافه العملية، وفي مثل هذا الجو بدأ الرسول مشروعاته في المدينة .

★ أعمال الرسول في المدينة :

كان من أول أعمال الرسول المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وهذه الخطوة ضرورية لتشكيل وحدة متماسكة من الجماعة المسلمة التي تقع على عاتقها حماية الدعوة وتبليغها. واتساقا مع تعليمات القرآن لمحمد ﷺ واستنادا الى فكرة التسامح والتعاطف التي حملها الرسول معه من مكة نحو الكتابيين بشكل عام واليهود بشكل خاص في المدينة لعدم وجود طوائف من النصارى فيها، فقد سارع الى تنظيم العلاقات بين المسلمين واليهود. وذلك بعقد اتفاقية مكتوبة معهم، وهي أول دستور من هذا النوع في الاسلام. ونظرا لأهمية هذه الوثيقة أو «الصحيفة» سنوليها الاهتمام الزائد لما لها من مساس بموضوع دراستنا.

★ الوثيقة أو الصحيفة التي كتبها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ووادع فيها اليهود.

أ - الوثيقة في المصادر التاريخية .

أورد محمد بن إسحاق إمام أهل السيرة (ت ١٥٠هـ، ٧٦٧م) نص الوثيقة وأخذ المتأخرون من المؤرخين خبر هذه الصحيفة نقلا عن ابن إسحاق، وبما ان ابن اسحاق قد أورد هذه الوثيقة دون اسناد على غير عادته فقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أنها موضوعة[1]. ونقلها ابن سيد الناس عن ابن اسحاق[2]. كما صرح بنقلها عنه ابن كثير[3]، وقد أوردها ابن كثير دون اسناد كما هي في السيرة، بينما ذكر ابن سيد الناس ان

(١) مثل يوسف العش في إحدى حواشيه على كتاب الدولة العربية وسقوطها وهو الكتاب الذي نقله من الالمانية للمستشرق فلهاوزن ص ٢٠ حاشية رقم (٩).
(٢) عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس، تحقيق شوقي ضيف ـ مكتبة القدس القاهرة ١٣٥٦هـ حـ١ ص ١٩٨ . وما بعدها.
(٣) البداية والنهاية، حـ٣ ص ٢٢٤ .

ابن أبي خيثمة أورد الكتاب «الوثيقة» فأسنده هذا الاسناد (حدثنا احمد بن خباب ابو الوليد حدثنا عيسى بن يوسف حدثنا كثير بن عبدالله بن عمرو المزني عن ابيه عن جده: «ان رسول الله ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والانصار فذكر بنحوه - أي بنحو الكتاب الذي أورده ابن اسحاق-»[1]. وما وصلنا من روايات ابن أبي خيثمة تبعث على الاعتقاد بان أخبار هذه الصحيفة ظلت في القسم المفقود من تاريخه اذ لم يصل لناشيء منها عن طريقه، وقد أورد الوثيقة ابو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب الأموال باسناد آخر غير اسناد ابن سيد الناس وهو «حدثني يحيى بن عبدالله بن بكير وعبدالله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد قال حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب انه قال: بلغني ان رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب..»[2]. ثم أورد نصوص الكتاب وذكر محمد حميد الله في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» ان الوثيقة جاءت في كتاب الأموال لابن زنجويه من طريق ثالث وهو طريق الزهري، وهكذا فان الوثيقة التي بين أيدينا وردت من ثلاث روايات مختلفة الاسانيد، وقد وردت الوثيقة كاملة، والتطابق كبير بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير في العبارات او اختلاف بعض المفردات او زيادة بنود قليلة ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام[3].

ب - أهمية الوثيقة ومدى صحتها.

وللوثيقة أهمية بالغة من حيث انها تنظم العلاقات بين سائر سكان المدينة على أسس جديدة مكتوبة أشبه ما تكون بما يعرف اليوم «بالدستور» ويقول الدكتور حسين مؤنس: ان هذه الوثيقة تبين بصورة لا تدع مجالا للشك ان الجماعة الاسلامية الأولى أيام الرسول ﷺ كانت منظمة على أساس قانوني واضح، ويعزو سبب ضعف الجماعة الاسلامية بعد عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين الى اهمال هذه الناحية القانونية التي تبين الحدود للحاكم والمحكوم[4]. والوثيقة تعكس رغبة جميع الأطراف المشتركة فيها

---

(١) سيرة ابن سيد الناس، المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٨. انظر كذلك اكرم العمري، أول دستور أعلنه الإسلام، مجلة كلية الإمام الأعظم، العدد الأول ١٩٧٢م ص ٣٥-٦١.

(٢) أبو عبيد بن سلام، الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، رقم ٥١٧ ص ٢٩٠.

(٣) ذكر محمد حميد الله ان كتاب حميد بن زنجوية المتوفى سنة ٢٥١هـ مخطوط في بوردور بتركيا، انظر مجوعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، ط ٣ بيروت ١٩٦٩م ص ٣٩. وقد حقق هذا الكتاب ونشره مركز دراسات الملك فيصل - الرياض ١٩٨٦.

(٤) انظر عالم الإسلام، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م ص ١٤٢-١٤٣.

في أن يسود الأمن والهدوء مجتمعهم، وهي في نفس الوقت تشهد على اعتراف البطون المشتركة بهذه المعاهدة بالسلطة العليا للرسول ﷺ لأنها ترجع كل خلاف إليه ليكون فصله بيديه، كما أنها تدل على أن الرسول ﷺ يسير مع جماعته وفق أساس قانوني واضح ومكتوب لا يترك مجالا للمشتركين فيه التملص من التزاماتهم، وربما أتى هذا الاتفاق المكتوب تأكيدا لبيعة العقبة الثانية التي أوردها ابن اسحاق وابن سعد ولا نفهم منها إلا أن ممثلي المدينة بايعوا الرسول ﷺ على «حرب الأحمر والأسود»، ومن الواضح ان الاتفاق كان شفويا مجملا «اكتفي فيه بالاخلاص في النية من الجانبين» فاقتضى الأمر تثبيت ذلك في نص مكتوب ومفصل واضح بعد استقرار الرسول والجماعة الاسلامية في المدينة.

ولا بد ان يكون هذا الاتفاق قد تم بالتفاهم والتشاور والمناقشة بين الأطراف المشتركة فيه لأنه يمثل دستورها ويحدد الحقوق والواجبات لكل جماعة وبالتالي عليه يتوقف مستقبل المجتمع المدني، وعلى هذا لا يمكن ان يكون نص الوثيقة قد جاء غلى صورة امر صادر من جهة واحدة، وهذا يؤكد حرص الرسول ﷺ والجماعة الاسلامية الأولى على مبدأ الشورى وأهمية هذا المبدأ في حفظ كيان الجماعة الاسلامية[1].

ونظرا لهذه الأهمية التي تحتلها هذه الوثيقة فقد تناولتها الأقلام من زوايا مختلفة، واختلف الكتاب في مدى صحتها، وقد أنكر يوسف العش[2] صحة هذه الوثيقة بقوله: «إنها لم ترد في كتب الفقه والحديث الصحيح رغم اهميتها التشريعية، بل رواها ابن اسحاق بدون اسناد ونقلها عنه ابن سيد الناس واضاف ان كثير بن عبدالله بن عمرو المزني روى هذا الكتاب عن ابيه عن جده، وقد ذكر ابن حيان البشتي: «أن كثير المزني روى عن ابيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا الرواية عنها الا على جهة التعجب»[3]. ويرى العش ان ابن اسحاق اعتمد على رواية كثير لكنه حذف الاسناد. وقد أورد أبوعبيد القاسم بن سلام الوثيقة من طريق الزهري استاذ ابن اسحاق، ولذلك يكون أكبر الظن ان ابن اسحاق أورد الوثيقة من طريقه، وذلك أقرب للعقل من ايرادها من طريق كثير المزني. ويعتمد العش في رأيه على أن كتب الحديث لم تورد

(١) انظر حسين مؤنس، عالم الإسلام ص ١٤٤-١٤٥.
(٢) انظر ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر بيروت، ط ١ ١٣٢٧هـ حـ ٨ ص ٤٢١-٤٢٢.
(٣) الدولة العربية وسقوطها، حاشية رقم ٩ ص ٢٠.

هذه الوثيقة كاملة مع أهميتها في القضايا الفقهية، غير ان كتب الحديث ذكرت بعض فقراتها لتغطية حاجتها ولا يصح الاستنتاج بأن الوثيقة موضوعة لان كتب الحديث لم توردها كاملة. وبذلك تضعف حجة العش المعتمدة على تضعيف المزني.

ويورد حسين مؤنس عدة أسباب لانصراف المحدثين عن هذه الوثيقة، منها ان علماء الحديث في عصر ابن اسحاق لم يكونوا يحبونه وكانوا يتهمونه بقلة الأمانة، وكان الامام مالك بن أنس في خصومة معه، وكان لهذا أثره في موقف بقية المحدثين من نص الوثيقة.

وهنـاك سبب آخر هو أن النص الذي أتانا به ابن اسحاق اعتمد على أصلين مكتوبين: كان أحدهما عند محمد الباقر بن جعفر الصادق من أئمة الشيعة، وكان الآخر عند عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهذا الاخير هو الذي اعطاه لابن اسحاق، وكان ابن اسحاق شديد الاتصال به.

وفي عصر بني أمية وبني العباس من بعدهم لم يكن أهل السلطان يرحبون بأي وثيقة تصل عن طريق أهل البيت لأن غالبية المسلمين كانت ترى ان أهل البيت أولى بالخـلافـة، ويضيف حسين مؤنس سببا ثالثا سياسيا، ذلك ان الوثيقة تضمنت قواعد سياسية سامية لم يكن الأمويون، والعباسيون من بعدهم، يرحبون بها، لأنها كانت لا تناسب مصالحهم[1].

ومن الجدير بالذكر ان هذه الصحيفة ظهرت في العصر العباسي الأول حيث كانت السلطة فيه لا تقبل اي منازع في سلطانها المطلق. وهكذا نرى ان القول بوضع الوثيقة مجازفة ولو انها لا ترقى بمجموعها الى مرتبة الاحاديث الصحيحة، فابن اسحاق رواها دون اسناد مما يجعل روايته ضعيفة وابن خيثمة أوردها من طريق كثير بن عبدالله بن عمرو المزني وهو يروي الموضوعات، وأبو عبيد القاسم بن سلام رواها باسناد منقطع يقف عند الزهري وهو من صغار التابعين فلا يحتج بمراسيله. ولكن نصوصا من الوثيقة وردت في كتب الحديث بأسانيد متصلة أوردها البخاري ومسلم، فهذه النصوص هي من الحديث الصحيح وقد احتج بها الفقهاء وبنوا عليها احكامهم. كما أن بعضها ورد في مسند الامام

(١) عالم الاسلام ص ١٤٠.

احمد وسنن أبي داوود وابن ماجه والترمذي. وهذه النصوص جاءت من طرق مستقلة عن الطرق التي وردت منها الوثيقة. واذا كانت الوثيقة بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها في الأحكام الشرعية ـ سوى ما ورد منها في كتب الحديث الصحيح ـ فانها تصلح أساسا للدراسات التاريخية التي لا تتطلب درجة من الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية، خاصة وان الوثيقة وردت من طرق عديدة تتظافر في إكسابها القوة، كما وان الزهري علم كبير من الرواد الأوائل في كتابة السيرة النبوية. ثم ان أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود وكتابته بينه وبينهم كتابا(١)، كما ذكرت كتابته كتابا بين المهاجرين والأنصار أيضا.

كذلك فان اسلوب الوثيقة ينم عن اصالتها، فنصوصها مكونة من جمل قصيرة بسيطة وغير معقدة التركيب ويكثر فيها التكرار، وتستعمل كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت صعبة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فردا أو جماعة، أو تخص أحدا بالاطراء او الذم، لذلك يمكن القول بانها وثيقة أصيلة غير مزورة(٢). ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها دعما أكبر(٣). ومن يتمعن(٤) نصوص الوثيقة يجد انها تشتمل على قسمين يختص القسم الاول منها بتنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار، ويختص القسم الثاني بتنظيم العلاقات بين المسلمين واليهود. وهناك دلائل على ان كل قسم من أقسام الوثيقة كتب في تاريخ مستقل.

جـ ـ تاريخ الوثيقة.

هناك خلاف بين العلماء في تقسيم الوثيقة وتوقيتها، ولا يهمنا تقسيمها كثيرا طالما

---

(١) انظر البلاذري، أنساب الأشراف، جـ١ ص ٢٨٦، ٣٠٨، انظر كذلك الطبري، تاريخ جـ٢ ص ٤٧٩. كذلك ابن حزم، جوامع السيرة، تحقيق احسان عباس، وناصر الدين الأسد، دار المعارف ص ٩٥، والبلخي، كتاب البدء والتاريخ جـ ٤ ص ١٧٩. ابن عبد البر النمري، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٩٦٦م ص ١٥٠.
(٢) أنظر صالح العلي، تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ص ٤ـ٥.
(٣) انظر أكرم العمري، المرجع السابق، ص ٣٩ وما بعدها.
(٤) انظر الملحق رقم (٢).

أنه متفق على موادها بقدر ما يهمنا تاريخها، ولو أن للتقسيم علاقة بالتاريخ، ذلك لأن هذه الأمور اعتبارية.

لقد اثار موضوع تاريخ الوثيقة النقاش بين المستشرقين وما اذا كانت قد كتبت قبل معركة بدر أو بعدها، فالمستشرق فلها وزن[1]، يرى انها كتبت قبل بدر، ويخالفه في ذلك المستشرق «هيوبرت غريم» من مستشرقي القرن التاسع عشر، ويقول هذا بأن تاريخها يعود الى ما بعد معركة بدر ويسوق على ذلك الحجج التالية:

١ - ورد في المادتين ٢٣، ٣٦[1]، أنَّ محمدا ﷺ هو الحكم في الخلافات التي تقوم بين الأطراف المختلفة في المدينة وانه لا يسمح بالخروج من المدينة الا بإذنه، ويعتقد «غريم» ان هذا من الأدلة على مكانة الرسول الرفيعة في المدينة وأن هذه المكانة لم تحصل إلا بعد موقعة بدر.

٢ - يستنتج من المواد «١٧، ١٩، ٤٥» التي تحوي إشارات الى القتال في سبيل الله وفي سبيل الدين الى ان القتال قد بدأ قبل كتابة هذه الوثيقة، ويقول بأن الرسول لا يمكن أن يطلب من أهل المدينة ان يقفوا موقفا عدائيا من قريش الا إذا كانت قريش قد هاجمتهم واشتبكت معهم في قتال، ولم يحدث هذا الا بعد بدر. ويتفق المستشرق كايتاني مع فلهاوزن في كون الوثيقة سابقة لبدر لا تالية لها. وأما المستشرق مونتقمري وات فيعطي الموضوع اهتماما أكبر، فبعد ان ناقش آراء من تقدمه من المستشرقين يقرر ان الوثيقة لا ترجع الى تاريخ واحد وليست لها هذا الكل المتكامل الذي أورده ابن اسحاق. ويبنى وات (Watt) رأيه على أساس دراسة لغوية يقوم بها لمقاطعها وأجزائها المختلفة وما بين هذه المقاطع من تفاوت في اللغة والأسلوب (مؤمنون، مسلمون... الخ) كما يبني على أساس ما ورد عن اليهود فيها كاعتبارهم في موادها الأولى جزءا من الأمة أو الجماعة المدنية وهذا ما ينطبق على وضعهم في الفترة الأولى من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وفصلهم عن هذه (الأمة أو الجماعة) بعد بدء القتال بينه وبين قريش وتخصيص حقوق

---

(١) انظر تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة دكتور محمد عبدالهادي ابو ريدة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٨ ص ١١.

(٢) انظر نص الوثيقة، الملحق رقم (٢).

وواجبات للجماعات اليهودية المختلفة منفصلة عما يترتب على المسلمين، وذلك واضح في المواد الأخيرة وبعد كل هذا يصل وات Watt الى أن الوثيقة بشكلها الذي يورده ابن اسحاق لا تمت الى الوثيقة الأصلية بصلة، وأن ما ورد من مواد في وثيقة ابن اسحاق هو تجميع لشروط ومواثيق اخذها الرسول على الفئات المختلفة خلال مراحل عديدة تبدأ من بيعة العقبة وتمتد الى ما بعد بدر(١).

والـذي أراه أن من يقرأ الوثيقة «الصحيفة» يرى أن الأمر لا يحتاج الى كثير من النقاش حول تاريخها، وواضح ان النص لم يكتب مرة واحدة وإنما كتب الجزء الأول منه أول الأمر وترك النص مفتوحا لتضاف اليه المواد التي تدعو اليها الحاجة، وهذا لا يقلل من قيمة الوثيقة بل يزيد من أهميتها ذلك ان القائمين عليها كانوا يدركون ان التشريع مرتبط بالحياة وأن الحياة ليست جامـدة وإنمـا هي مستمرة وهذا يقتضي وضع تشريع يناسب كل جديد.

وكما اختلف المستشرقون في تاريخ الوثيقة اختلف المؤرخون العرب في تحديد تاريخها كذلك، فالمصادر التاريخية تصرح بأن موادعة اليهود تمت أول قدوم النبي ﷺ الى المـدينـة. فقـال أبو عبيد القاسم بن سلام «وإنما كان هذا الكتاب - فيما نرى - حدثان(٢). مقدم رسول الله ﷺ قبل أن يظهر الاسلام ويقوى، وقبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب»(٣).

وهكذا يكون جزء الوثيقة المتعلق بموادعة اليهود قد كتب قبل معركة بدر الكبرى(٤).

وقال البلاذري: «وكان رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة وادع يهودها، وكتب بينه وبينهم كتابا، واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه وأن ينصروه على من دهمه وأن لا يقاتل عن أهل الذمة، فلم يحارب احدا ولم يهجه ولم يبعث سرية حتى أنزل الله عز وجل

---

(١) M. Watt, "Muhammad At Medina" oxford 1956 PP. 225-228
أنظر كذلك الترجمة العربية للمرجع السابق، ص ٣٣٧-٣٤٧.
انظر كذلك نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ﷺ ص ٤٤٦.
(٢) أي إبان قدومه.
(٣) الأموال، رقم (٥١٨) ص ٢٩٧.
(٤) ذهب الدكتور صالح العلي الى أن الوثيقة كتبت بعد بدر، انظر تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ص ٦.

عليه: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير. . . إلى قوله. . ولله عاقبة الأمور﴾[1] فكان أول أيام عقده لواء حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه»[2]. وقول البلاذري يقرر ان موداعة اليهود «كتاب الوثيقة» تمت قبل إرسال السرايا الأولى. ومن المعلوم ان سرية حمزة كانت في رمضان من السنة الهجرية الأولى، أي قبل غزوة بدر بسنة وأيام[3]. ويقول البلاذري في موضع آخر وهو يتحدث عن غزوة قينقاع «كان سببها ان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وادعته يهود كلها وكتب بينه وبينها كتابا، فلما أصاب ﷺ أصحاب بدر وقدم المدينة سالما غانما موفورا بغت وقطعت العهد»[4] وهكذا يجزم البلاذري بأن الوثيقة كانت قبل بدر.

واما الطبري فيقول: «ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة منصرفه من بدر، وكان قد وادع حين قدوم المدينة يهودها، على ان لا يعينوا عليه أحدا، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه، فلما قتل رسول الله من قتل ببدر من مشركي قريش أظهروا له الحسد والبغي وقالوا: «لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال أحد، وأظهروا نقض العهد»[5] وهذا يؤيد ما ذهب اليه البلاذري من أن الموادعة كانت قبل بدر وعند قدومه ﷺ المدينة.

وأما القسم المتعلق بالمهاجرين والأنصار من الوثيقة فقد ذكره الطبري في حوادث السنة الثانية من الهجرة بقوله: «وقيل: إن في هذه السنة كتب رسول الله ﷺ المعاقل فكان معلقا بسيفه»[6] واسم سيفه هذا ذو الفقار وكان قد غنمه في غزوة بدر[7]. وذكر ابن سعد هذه الرواية: «أخبرنا عبيد الله بن موسى أخبرنا اسرائيل عن جابر عن عامر قال «قرأت في جفن سيف رسول الله ﷺ ذي الفقار: العقل على المؤمنين ولا يترك مفرح في الاسلام ولا يقتل مسلم بكافر»[8]. وقد احتفظ علي رضي الله عنه بالسيف بعد وفاة

---

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٩-٤١.

(٢) انظر أنساب الأشراف، حـ١ رقم ٦٤٧ ص ٢٨٦.

(٣) يذكر ابن اسحاق، سيرة ابن هشام حـ١ ص ٥٩٥ «ان أول راية في الاسلام كانت لعبيدة بن الحارث وبذلك لا تكون سرية حمزة هي الأولى عند ابن اسحاق.

(٤) انساب الأشراف، حـ١ رقم ٦٧٧ ص ٣٠٨.

(٥) تاريخ الطبري، حـ٢ ص ٤٧٩.

(٦) تاريخ الطبري، حـ٢ ص ٤٨٦، المقريزي، إمتاع الاسماع حـ١ ص ١٠٧.

(٧) انظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، حـ٢ ص ١٨. الطبري، تاريخ .. حـ٢ ص ٤٧٨. الامام احمد بن حنبل، المسند حـ١ ص ٢٧١.

(٨) الطبقات الكبرى حـ١ ص ٤٨٦، وعرّف ابن سعد المفرح «الذي يكون في القوم لا يعلم له مولى» وعند

الرسول وفيه الصحيفة، وقد سئل علي كرم الله وجهه عما في الصحيفة مرة من قبل أبي جحيفة[1] وثانية من قبل الأشتر[2]، فذكر بعض ما فيها لسائليه اما بالمعنى او نصا كما انه ذكر محتواها مجملا في احدى خطبه: «ما كتبنا عن النبي ﷺ الا القرآن وما في هذه الصحيفة ومن ذلك قوله، قال النبي ﷺ: «المدينة حرام ما بين عاير الى كذا فمن أحدث حدثا وآوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل منه عدل ولا صرف وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن اخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل. ومن والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل»[3]. كما ذكر ان في الصحيفة ايضا الجراحات وأسنان الابل[4] وأضاف مرة لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده»[5]. وقد قرأ أصحاب علي رضي الله عنه في الصحيفة المذكورة «ان ابراهيم حرم مكة واني أحرم المدينة حرام ما بين حرتيها وحماها كله لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها الا لمن أشاد بها ولا تقطع منها شجرة الا ان يعلف رجل بعيره ولا يحمل فيها السلاح لقتال»، وقد ذكر السمهودي حديثا مماثلا لهذا يفيد تحريم المدينة[6].

وهذه الفقرات تتفق نصا ومعنى مع فقرات من الوثيقة وخاصة تلك المتعلقة بالتزامات المسلمين من الانصار والمهاجرين تجاه بعضهم البعض، وعدم وجود فقرات من الجزء المتعلق بموادعة اليهود يرجح كون الوثيقة في الأصل وثيقتان جمعتا معا فيما بعد، كما ترجح هذه الفقرات التي في الصحيفة المشار اليها بسيف رسول الله ﷺ ثم صارت عند علي بن أبي طالب[7]، ثم عند محمد بن الحنفية[8] ثم وهبها هذا لعبد الملك بن مروان[9]. وتوجد نصوص تطابق ما ورد في الصحيفة وتتعلق بالمهاجرين

= غيره «الذي عليه دين وكثير العيال» ابن هشام حـ ١ ص ٣٠٢.

(١) صحيح البخاري حـ٩ ص ١٠.

(٢) مسند احمد، حـ١ ص ١١٩، ١٢٢.

(٣) انظر صحيح البخاري، حـ ٤ ص ٧٩، ٨١، حـ٩ ص ١٨، ١٩. وعاير: اسم جبل.

(٤) المصدر السابق حـ ٤ ص ٨٠.

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل حـ ١ ص ١١٩.

(٦) انظر السمهودي، وفاء الوفاء حـ ١ ص ٩١.

(٧) انظر أكرم العمري، مجلة كلية الإمام الأعظم، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٨) انظر ابن سعد حـ ٥ ص ١٠٥.

(٩) المرجع السابق حـ ٥ ص ١١٢، ١١٣.

والانصار، لكنها منسوبة الى كتب اخرى كتبها النبي ﷺ مثل رواية عمرو بن حزم «ان رسول الله ﷺ كتب الى أهل اليمن كتابا وكان في كتابه «ان من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود، الا ان يرضي أولياء المقتول»[1] وهذا الكتاب ارسل متأخرا عن وقت كتابة الوثيقة لان زمنه يعود الى وجود عمال المسلمين في اليمن، وحدث هذا بعد بدر، وصرحت بعض الروايات بان النبي ﷺ قال يوم فتح مكة «لا يقتل مؤمن بكافر»[2]. ولكن هذه النصوص التي حددت أزمانها بوقت متأخر عن الوقت الذي كتبت فيه الوثيقة لا تصلح دليلا على ان الوثيقة هي مجموعة من الكتب التي دونت في أوقات متباينة ثم دمجت في الوثيقة[3]، اذ لا مانع من ان يذكر النبي ﷺ بعض بنود الوثيقة في كتبه الأخرى[4].

ان عدم ورود نصوص تتعلق باليهود في الصحيفة التي تعني بشؤون المهاجرين والأنصار يرجح استقلال صحيفة الموادعة عن وثيقة الانصار والمهاجرين، ويؤيد هذا الرأي حديث انس بن مالك رضي الله عنه: «حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار انس بن مالك»[5]. ولم يذكر انس وجود اليهود في هذا الحلف، وكذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن النبي ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والانصار ان يعقلوا معاقلهم، وان يفدوا عانيهم بالمعروف والاصلاح بين المسلمين»[6]. ولم يذكر اليهود فيه.

ومما تقدم يتبين لنا ان الوثيقة التي نحن بصددها هي في الاصل وثيقتان جمع بينهما المتأخرون وجعلوا منهما وثيقة واحدة، بينما هما وثيقتان كتبت تلك المتعلقة باليهود قبل غزوة بدر بينما كتبت الاخرى بعد هذه الغزوة.

وقد أنكر بعض الباحثين المحدثين اشتراك القبائل اليهودية الثلاث بني قينقاع

---

(١) الشيخ محمد بن علي بن محمد الشوكاني، **نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار من حديث سيد الأخيار**، البابي الحلبي بمصر ط ٣ ١٣٨٠هـ ١٩٦١ حـ ٧ ص ٦١، يذكر محمد حميدالله ان هذا النص ليس من كتاب رسول الله الذي كتبه لعمرو بن حزم عامله على اليمن، انظر **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** ص ١٨٦.

(٢) انظر الشوكاني، **نيل الأوطار** حـ٧ ص ١٠.

(٣) انظر أكرم العمري، **مجلة كلية الإمام الأعظم**، مرجع سابق ص ٤٤، ٤٥.

(٤) انظر اكرم العمري ، **مجلة كلية الإمام الأعظم**، مرجع سابق ص ٤٤، ٤٥.

(٥) انظر ابن كثير، **البداية والنهاية** حـ ٣ ص ٢٢٤.

(٦) انظر المرجع السابق حـ ٣ ص ٢٢٤.

وبني النضير وبني قريظة في هذه الموادعة، وذهب بعضهم الى ان بعض موادها اضيفت بعد اجلاء بني قريظة عن المدينة (رجب ـ شعبان سنة ٦ هـ أواخر ٦٢٧م)، وذلك اعتمادا على عدم ذكر هذه القبائل بصراحة ضمن مواد الوثيقة(١).

لم يشر هؤلاء الى المصادر التي اعتمدوا عليها في نقل خبرهم هذا، اذ لم تصرح المصادر التاريخية الاسلامية التي أوردت الوثيقة بشيء من هذا، كما ان اتساق الحوادث يدل على ان جميع اليهود في يثرب وادعوا الرسول حين قدومه وان لم تذكر نصوص الوثيقة القبائل الثلاث بالاسم، فقد أشارت إليهم بالولاء الى القبائل العربية التي كانوا في حلف معها قبل قدوم الرسول.

كان بنو قينقاع حلفاء بني عوف قبيلة عبدالله بن ابي بن سلول من الخزرج، وأشارت اليهم الصحيفة صراحة في المادة (٢٥) «وأن يهود بني عوف امة مع المؤمنين» ثم تناولت الصحيفة ذكر بقية البطون اليهودية ملحقة اياهم بحلفائهم من الأوس والخزرج. وفي الصحيفة ذكر عام لليهود بالالتزام بما في الصحيفة، فقد جاء في المادة (٢٤) «وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» كما ساوت الصحيفة بالحقوق بين يهود الأوس وهم «بنو النضير وبنو قريظة» بيهود بني عوف وهم بنو قينقاع، كما جاء في المادة (٣٠) «وان ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف».

ومما يعزز القول باشتراك كافة اليهود بهذه الموادعة ما ورد في بعض المصادر التاريخية التي أوردت ذكر الوثيقة في اسباب غزوة بني قينقاع، انهم اول يهود نقضوا عهدهم مع الرسول بالموادعة(٢). وقد ذهبت الى مثل هذا معظم المصادر التاريخية الاسلامية التي يركن اليها، بل صرحت بعض هذه المصادر باشتراك كل اليهود في الموادعة(٣). ويستفاد من بعض الروايات ان سكان المدينة من غير المسلمين كانوا بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة اقسام، قسم وادعهم على ان لا يحاربوه، ولا يؤلبوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاث قريظة والنضير وبني قينقاع . . .(٤).

---

(١) انظر محمد حسين هيكل، حياة محمد ط ٨ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣م ص ٢٢٠، وحسين مؤنس، عالم الإسلام، ص ١٥٦.

(٢) انظر ص ٢٦٦ من هذا البحث.

(٣) انظر البلادري، انساب الاشراف، حـ١ رقم (٦٧٧) ص ٣٠٨، انظر ص ٢٦٦، من هذا البحث.

(٤) انظر احمد بن محمد بن ابي بكر الخطيب القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المطبعة الشرقية ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٧م حـ ١ ص ٨٨. انظر كذلك، الحافظ المحدث شمس الدين محمد بن يوسف بن=

والذي أراه ان هذه الاتفاقية شاملة لجميع البطون اليهودية، وكان الرسول ﷺ يعقد اتفاقيات منفصلة بعد هذه الاتفاقية العامة مع بعض البطون اليهودية، وخاصة القبائل الكبرى الثلاث تشتمل على تعهدات ومواثيق جديدة أكثر تحديدا من مواد الوثيقة العامة. وأغلب الظن ان الذين يقولون باستثناء القبائل اليهودية الكبرى من هذه الاتفاقية العامة انما تأثروا بمثل هذه الاتفاقيات الثنائية التي كانت تفرضها مواقف جديدة تحتاج الى تفصيل وبيان جديد. وهذه الاتفاقيات الثنائية لا تمنع من اشتراك القبائل اليهودية في الاتفاقية العامة.

لم يذكر ولفنسون الذي أرخ لليهود في الجزيرة العربية ان القبائل اليهودية الثلاث كانت مستثناة من هذا الدستور العام للمدينة، وكل ما ذكره ان صحيفة خاصة كانت بين الرسول وبين بني قريظة وبين يهود خيبر وتيماء ووادي القرى وغيرهم[1]. وربما قصد ولفنسون الاتفاقيات المتأخرة بعد جلاء بني قينقاع والنضير لان الرسول ﷺ عقد مع بني قريظة اتفاقية خاصة قبل غزوة الأحزاب أخذ اليهود على انفسهم بموجبها حماية المدينة من جهتهم، وهي في الواقع تأكيد للاتفاقية العامة السابقة. والرأي الذي يطمئن اليه الباحث ان كتاب الموادعة كان دستورا شاملا لسكان المدينة وان القبائل مشتركة فيها، فاليهود من غير هذه القبائل لم تكن لهم أهمية تذكر في المدينة، ولذلك كان يقصد بيهود المدينة، يهود القبائل الثلاث الكبرى هذه.

★ مضمون الوثيقة[2] :

سبق ان قلنا من قبل[3] ان الوثيقة تتألف من جزئين او «وثيقتين» كل واحدة مستقلة عن الاخرى في التاريخ والهدف، وقلنا ان الوثيقة التي تتحدث عن موادعة اليهود كتبت قبل وثيقة الانصار والمهاجرين، رغم ان المصادر أوردت نصوص الأخيرة أولا، لذلك سنبدأ بالحديث عن وثيقة موادعة اليهود. تتكون هذه الوثيقة من (٢٤) مادة أي من المادة

= علي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد حـ٤، الباب الثاني عشر «غزوة بني قينقاع»، مخطوط في خزانة القرويين ـ فاس ـ المغرب رقم ٧٥٨/٤٠ نشر هذا الكتاب في القاهرة.

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١١٥.

(٢) انظر نص الوثيقة في الملحق رقم (٢)

(٣) انظر ص ٢٦٦ من هذا البحث.

رقم (٢٤) وحتى المادة رقم (٤٧) في تسلسل مواد الوثيقة كما وردت في المصادر التاريخية.

والمادة الأولى التي تبدأ فيها وثيقة اليهود[١] تدل على ان اليهود التزموا بالاتفاق مع المسلمين في حالة الحرب، والمقصود بالحرب، الحرب الدفاعية عن المدينة في حالة مداهمة عدو خارجي لها، وقد ذهبت بعض الروايات الى أبعد من هذا التعاون الحربي وتجاوزته الى التزام اليهود بالمشاركة الحربية خارج المدينة واشراكهم في المغازي. قال أبو عبيد صاحب كتاب الأموال «ونرى انه انما كان يسهم لليهود اذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة ولولا هذا لم تكن لهم في غنائم المسلمين سهم»[٢] وذكر حديثا يعزز ما ذهب اليه وهو «حدثنا عبدالرحمن بن مهدي عن سفيان عن يزيد بن جابر عن الزهري قال: «كان اليهود يغزون مع رسول الله ﷺ فيسهم لهم»[٣]. ولا يحتج بهذا الحديث لأنه من مراسيل الزهري[٤]. غير ان هناك احاديث أخرى تقول باشتراك اليهود في الغزو مع المسلمين غير حديث الزهري، نذكر منها ستة احاديث بالاضافة الى الحديث الأول السابق.

(١) استعان رسول الله ﷺ بيهود بني قينقاع الذي ورد من طريق الحسن بن عماره، وقد خرّجه ابو يوسف والبيهقي، وذكر البيهقي ان الحسن بن عمارة متروك[٥]، ورغم ان الحسن بن عماره غير متفق على تضعيفه لكن جهابذة المحدثين يضعفونه حتى حكى السهيلي اجماعهم على ذلك[٦].

(٢) أن النبي ﷺ أسهم لقوم من اليهود قاتلوا معه، أخرجه الترمذي[٧] من طريق الزهري مرسلا وقال انه حديث حسن غريب، والقاعدة انه من مراسيل الزهري ولا يحتج بها[٨].

---

(١) انظر الملحق (٢)
(٢) ابو عبيد القاسم بن سلام، الأموال ص ٢٩٦.
(٣) المرجع السابق والصفحة.
(٤) انظر أكرم العمري، مجلة كلية الإمام الأعظم ص ٥٠.
(٥) أبو يوسف، الرد على سير الأوزاعي ص ٤٠.
(٦) العسقلاني، تهذيب التهذيب، الطبعة الهندية، ط ١ ١٣٢٥هـ جـ ٢ ص ٣٠٤-٣٠٨ رقم ٥٣٢.
(٧) الترمذي، سنن جـ ٧ ص ٤٩.
(٨) اكرم العمري، مجلة كلية الإمام الأعظم ص ٥٠.

(٣) «ان النبي ﷺ كان يغزو باليهود»[١]. وهو من مراسيل الزهري ولا يحتج به.

(٤) «أن الرسول ﷺ غزا بناس من اليهود» أخرجه البيهقي[٢]. وقال هذا منقطع وهو من مراسيل الزهري أيضا.

(٥) «خرج رسول الله ﷺ بعشرة من يهود المدينة غزا بهم خيبر» أورده الواقدي[٣] وهو ضعيف وعنه البيهقي[٤] والزيلعي[٥]

(٦) «أن النبي ﷺ قاتل معه قوم من اليهود في بعض حروبه، فأسهم لهم مع المسلمين» خرجه الخطيب البغدادي[٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه، لكن إسناده ضعيف سقط منه بعض الرواة. وبعد ان أوردنا هذه الطائفة من الأحاديث وبينا أوجه الاعتراض عليها نعرض لطائفة أخرى من الأحاديث التي تدل على منع النبي ﷺ اشتراك اليهود في الحروب مع المسلمين.

وهذه الأحاديث هي:

١ - أخرج أبو عبد الله الحاكم[٧] حديثا عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ حتى إذا خلف ثنية الوداع إذا كتيبة قال: من هؤلاء؟ قالوا: بنو قينقاع وهو رهط عبدالله بن سلام، قال: وأسلموا؟ قالوا: لا بل هم على دينهم، قال: قولو لهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين».

وقد رواه الحاكم كشاهد لحديث آخر، كما روى الحديث نفسه على انه في غزوة احد في حين ان رواية الحاكم تذكر انه في احدى غزواته دون تحديد للغزوة[٨]. وقد

---

(١) أبو محمد عبدالله بن يوسف الحنفي الزيلعي، نصب الراية لأحاديث الهداية، سلسلة مطبوعات «المجلس العلمي» بدابيل - سورت - الهند - مطبعة دار المأمون بشبرا، ط ١ ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م حـ٣ ص ٤٢٢.
(٢) البيهقي، سنن حـ ٩ ص ٥٣، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد - الدكن - الهند ط ١ ١٣٥٦هـ تم التصوير في مطابع دار صادر - بيروت.
(٣) الواقدي، المغازي حـ٢ ص ٦٨٤.
(٤) البيهقي، سنن حـ ٩ ص ٥٣، قال هذا منقطع وإسناده ضعيف.
(٥) الزيلعي، نصب الراية، حـ٣ ص ٤٢٢.
(٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٤٩هـ، ١٩٣١م حـ٤ ص ١٦٠.
(٧) المستدرك على الصحيحين، مكتبة مطابع النصر الحديثة - الرياض حـ٢ ص ١٢٢.
(٨) الزيلعي، نصب الراية حـ ٣ ص ٤٢٣.

أخرجه البيهقي عن ابي حميد الساعدي باسناد صحيح[1] وروى الواقدي وابن سعد انهم كانوا حلفاء عبدالله بن أبيّ بن سلول وان النبي ﷺ قال: «ولا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك[2]. الحديث الثالث: روى ابن اسحاق[3] والامام سحنون[4]. وابن القيم[5] كلهم من طريق الزهري «ان الأنصار قالت يوم احد نستعين بحلفائنا من يهود فقال ﷺ «لا حاجة لنا فيهم». وهكذا نستنتج ترجيح اشتراك اليهود بالحرب الدفاعية معتمدين على ما ورد في نص الوثيقة عن اشتراك اليهود في نفقات الحرب ولعل المادة رقم (٤٤) توضح ذلك «وإن بينهم النصر على من دهم يثرب». وهذا الرأي يوافق موقف اليهود يوم الخندق قبل نقضهم العهد، إذ أخذوا على عاتقهم حماية المدينة من وجهتهم. ولو اشترك اليهود في حروب المسلمين خارج المدينة وكان معظمها مع قريش لصعب عليهم تحزيب العرب على المسلمين. ولو اشتركوا فعلا لحفظ التاريخ لهم بعض هذه الحروب ولكانت خير شفيع لهم فيما حل بهم على أيدي المسلمين فيما بعد.

وربما تأثر أصحاب الاحاديث التي تقول باشتراكهم مع الرسول في حروبه، بتظاهراتهم مع حليفهم عبدالله بن أبي رأس المنافقين في المدينة، ومواقف هذا المنافق معروفة أثناء حروب المسلمين. فقد كان يتظاهر مع أتباعه وربما منهم حلفاؤه بنو قينقاع بالاشتراك مع المسلمين في القتال ثم لا يفتأ ان يعود من الطريق مع اتباعه بعد ان يكون قد عبّر عن حقده ونفث سمه وحسده لفتّ عضد المسلمين، وموقفه في معركة احد مشهور ومعروف، وسنرى كيف حرص على تخليص حلفائه بني قينقاع من القتل بعد ان نقضوا عهدهم مع المسلمين بعد بدر.

وهكذا نرى ان الوثيقة تقر مبدأ الدفاع المشترك عن المدينة وتبقي على علاقات القبائل مع بعضها ومع اليهود، غير ان الوثيقة توجه هذه التحالفات وجهة تخدم الأغراض الاسلامية وفي نفس الوقت تساير الميول العصبيّة لهذه البطون التي يتشكل منها مجتمع المدينة.

---

(١) البيهقي، سنن جـ ٩ ص ٣٧.
(٢) الواقدي، المغازي، جـ١ ص ٢١٥ - ٢١٦، وابن سعد، الطبقات جـ٢ ص ٢٧.
(٣) ابن هشام، السيرة جـ ٢ ص ٦٤.
(٤) مالك بن أنس، المدونة الكبرى جـ٣ ص ٤٠.
(٥) ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد في هدي خير العباد، ح٢ ص٩٢.

وفي المادة (٢٥) اعتراف بالحرية الدينية للمشتركين في الاتفاقية وهم في نظر هذه الاتفاقية سواء ـ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، واستثنت الافراد والجماعات. الذين يخرجون عن اهداف الوثيقة وحملتهم وأهل بيوتهم عواقب اثمهم وظلمهم فقط، ولم تجعل للعشيرة او القبيلة التي ينتمي اليها الآثم أي تبعة،وفي هذا تطور نحو الحياة المدنية. وتشمل المواد من (٢٥ ـ ٣٥) تحديد علاقة البطون اليهودية المتحالفة مع البطون الخزرجية والأوسية واعتبارها تشكل مع المسلمين أمة واحدة رغم اختلافها بالدين، «وإن يهود بني عوف امة مع المؤمنين» واستعمال كلمة أمة له دلالته الهامة، ففيه تجاوز لرابطة النسب «الدم» التي ظلت لا تعلو عليها رابطة في مجتمعات الجزيرة العربية، وفي نفس الوقت تكشف عن الالتزام الأمين لمباديء الاسلام من حيث المساواة بين المسلمين ومد يد التعاون للكتابيين. وهذا الاصطلاح الجديد «أمه» يشير الى ان عناصر تشكل الدولة الفتية قد وجدت. وأهم هذه العناصر وجود أرض مشتركة تقوم عليها جماعة من الناس، وهذه الارض هي أرض المدينة وقد حدد الرسول حدودها وحرم ما بين هذه الحدود، ومن العناصر وجود امة على هذه الارض، وهذه الأمة هي الجماعة المكونة للمجتمع المدني. ومن العناصر الأخرى وجود تشريع أو نظام يحدد علاقات الجميع، وقد وجد هذا بالوثيقة المستمدة من الاسلام، والعنصر الرابع وجود السلطة التي تقوم على رعاية النظام وتطبيق القانون. وقد اعترفت الوثيقة بهذه السلطة ممثلة بالرسول ﷺ وذلك في المادة (٢٣) «وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده الى الله وإلى محمد».

ولا بد لنا من التساؤل، هل كان اليهود ملزمين بالتقاضي وفق الشريعة الإسلامية بصفتهم مواطنين في الدولة الإسلامية التي تخضع لشريعة الله ويقوم على تنفيذها محمد ﷺ؟ ان هذا ما توحي اليه المادة (٤٢) ولكن هذا التفسير يتعارض مع ما منحتهم الوثيقة من حرية دينية، ولذلك كان على اليهود أن يرجعوا إلى السلطة في المدينة في القضايا العامة ذات الأثر الجمعي، وأما في قضاياهم الخاصة فهم مخيرون بالاحتكام فيها إلى رؤسائهم الدينيين أو إلى النبي محمد وهذا ما تفصح عنه الآية الكريمة: ﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو اعراض عنهم، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين﴾[1].

(١) سورة المائدة، الآيات: ٤٢، ٤٣.

وحفاظا على مصلحة الدولة العامة وحرصا على امنها وأمن مواطنيها حددت الوثيقة العلاقات الخارجية لليهود ومنعتهم من الخروج من المدينة الا باذن رئيس الدولة محمد ﷺ، وذلك بموجب المادة (٣٦) ثم أبقت الوثيقة عادة الجوار كما كانت من قبل بموجب المادتين، (٤٠) و (٤١)، فلكل فرد ان يجير شخصا غريبا ويلزم الجماعة كلها بحق حفظ الجوار. واستثنت المادة (٤٣) قريشا ومن نصرها من حق الجوار «وانه لاتجار قريش ولا من نصرها». وهكذا تحددت سياسة المدينة ازاء قريش وحلفائها نظرا لحالة العداء السائدة بين الطرفين.

وتجعل الوثيقة أمر الدفاع عن المدينة مسؤولية مشتركة بموجب المادة (٤٤) واذا أضفنا لهذه المادة المواد (٢٤) و (٣٧) و (٣٨) و (٤٥ ب) فإنه يتعين على جميع الموقعين على الوثيقة المساهمة في الحرب بالمال والأنفس لرد العدوان عن المدينة كل بحسب حصته التي توكل اليه «على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم».

ويهمنا من المواد المتعلقة بالأنصار والمهاجرين الأمور التالية:

١ - أعطت الوثيقة صفة الجماعة للمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، وتميزت هذه الجماعة بانها «أمة واحدة من دون الناس».

٢ - الاقرار بالروابط العشائرية لبطون المدينة، وإبقائها على عاداتها في أمور الديات وفداء الأسارى والعدل بين المؤمنين. ولا يفهم من هذا اقرار المسلمين بالعصبية القبلية وانما المقصود هو تكافل هذه العشائر في النفقات العامة التي فوق طاقة الفرد كدفع الديات وفداء الأسرى. وعلى الرغم من ابقاء الوثيقة للتشكيل الاجتماعي القبلي في المدينة فقد نزعت الجوانب السيئة من هذا التشكيل بان الزمت الجميع بالخضوع للرسول في حوادث الخلاف والاشتجار بين افراد الجماعة الاسلامية، وجعلت امر الدفاع عن المصالح العامة واجبا جماعيا، وعلى المؤمنين ان ينصر بعضهم بعضا «دون الناس، وهم يتعاقلون بينهم، ويدهم على من سواهم وهم على من بغى منهم»

٣ - كفلت وثيقة المهاجرين والأنصار نصرة اليهود وعدم ظلمهم او التناصر عليهم في حالة تبعيتهم للمسلمين، المادة (١٦).

٤ - تحريم منطقة المدينة بموجب المادة (٣٩)، وقد تحددت هذه المنطقة في احاديث متعددة عن الرسول ذكرنا بعضها[1] . ويستفاد من هذه الأحاديث ومن غيرها ان منطقة المدينة حددت بالجبال والحرات المحيطة بها[2] .

وهكذا وجد المدنيون من يؤلف بينهم وينقذهم من خلافاتهم الدموية ويوجد لهم السلطة الالهية التي تسهر على امنهم وتوجههم الوجهة التي فيها منفعتهم العامة، ومصلحتهم المشتركة في الدنيا والآخرة. وبذلك هيأ الرسول الأسباب لدخول اليهود في الدين الاسلامي وهم أهل الكتاب الأول وأعرف الناس بحقيقة محمد ودعوته. هذا ولم يكرههم على ذلك اكراها بل أقر لهم حريتهم الدينية وأخذ المسلمون على عاتقهم توفير جو الأمن والاستقرار لممارسة شعائرهم الدينية وتعهدوا بحمايتهم من أي عدوان يقع عليهم.

ويذهب المستشرق توماس أرنولد الى أبعد من ذلك فيقول: «وكان أول ما عني به محمد بعد أن دخل يثرب «المدينة» كما سميت منذ ذلك الحين - أي مدينة النبي - ان يبني مسجدا ليكون مقاما للصلاة ومجمعا عاما لاصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحد منهم، وكان المصلون قد تعودوا في العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود، وقد حاول محمد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ومنحهم الحرية التامة في اقامة شعائرهم الدينية، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية، ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية»[3] .

ومما تقدم نرى انه قد توافقت أعمال الرسول مع ما كنا أشرنا اليه من موقف الرسول والإسلام ازاء اليهود عند الهجرة.

---

(١) انظر ص ٢٦٨ من هذا البحث.
(٢) انظر صحيح البخاري، جـ٣ ص ١٨ وما بعدها، وياقوت الحموي، معجم البلدان جـ ٦ ص ٤٢٤ وما بعدها. ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية في العهد النبوي، ص ٤٧، ٤٨.
(٣) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين، واسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية ط ٣ ١٩٧٠ ص ٤٧.

★ ماذا كان موقف اليهود بعد الموادعة ؟

تزايدت شكوك اليهود بالمسلمين وأخذت تساورهم المخاوف باحتمالات نجاح محمد ودعوته، وكانت هذه المخاوف مبنية على الأسس التالية :

١ - نشاط المسلمين الاقتصادي، ما لبث المسلمون بعد هجرتهم من مكة ان مارسوا العمل التجاري في المدينة، وكانت لهم خبرة في هذا الميدان دونها خبرة اليهود، فلا غرو فهم من قريش، والقرشيّ مشهور ببراعته التجارية. وعلاوة على هذه الخبرة فقد نظموا سوق المدينة وأقاموا بينهم أسسا من التعامل وفق الدين الاسلامي وهكذا تمت تجارتهم وتوسعت علاقاتهم التجارية، مما أضعف اليهود وقضى على طرقهم المعوجة وحيلهم لكسب الربح بالباطل، وبذلك اصبح المستقبل ينذر بسيطرة المسلمين التجارية في منطقة المدينة، وقد تتوسع هذه السيطرة حتى تشمل الحجاز كلّه.

٢ - استطاع الرسول ان يكوّن من الأنصار والمهاجرين امة واحدة يصعب تفريقها، وجعل من الدين أوثق الروابط التي تشد هذه الأمة الجديدة بعضها الى بعض، وبذلك سادت روح المساواة والتعاون والتسامح بين أفراد الجماعة الاسلامية، كما ضعفت دوافع العصبية القبلية وضعفت معها تحالفات القبائل العربية في المدينة مع غير المسلمين لان الروابط الاسلامية احتلت في نفوسهم المكانة الاولى، وكان بين بعض البطون العربية وعديد من البطون اليهودية محالفات، وأصبحت هذه المحالفات موجهة لغير المسلمين، لأن المسلمين لا يمكن ان يناصروا تحالفاتهم على انفسهم ودينهم، وبذلك اصبحت هذه التحالفات التي حرص اليهود على تقويتها قبل الهجرة لا تخدم أغراضهم.

وقد زاد في اضعاف مركز اليهود في المدينة توالي هجرات الأفراد والجماعات من مكة ومن القبائل العربية المحيطة بالمدينة الى المدينة، وكان الرسول يهدف من وراء هذه الهجرة الى تعزيز الجماعة الاسلامية داخل المدينة اولا ولذلك حث المسلمين على هذه الهجرة بأحاديث كثيرة رغب فيها العيش بالمدينة ولم تقف هذه الهجرة الا بعد فتح مكة[1].

(١) انظر المقريزي، إمتاع الاسماع، حـ١ ص ٣٩١.

وقول الرسول بان المبايعة على الهجرة قد انقضى بعد فتح مكة[1] يدل على أن هدف الرسول بجمع المسلمين في مدينة واحدة قد تحقق، اذ أصبحت الدولة قوية وأصبح المسلمون خارج المدينة وداخلها يحملون لواء الاسلام، ولم تعد قريش الوثنية في عداد الأعداء.

كان الرسول يدرك ان قريشا لا يمكن ان تسلم بوجود قوة معادية على الطريق بينها وبين الشام، لأن هذا الطريق كان عصب الحياة الاقتصادية بالنسبة الى مكة، ولذلك شجع هجرة المسلمين الى المدينة حتى يكون المسلمون قادرين على رد اعتداءات قريش اذا ما سولت لهم انفسهم بالاعتداء. وفي نفس الوقت عمل الرسول على ربط جميع فئات السكان داخل المدينة بروابط متينة قصد منها إظهار المدينة كتلة واحدة في نظر الأعداء الخارجيين.. وقد خشي اليهود هذه القوة التي اخذت تعمل بجد ونشاط ويوحي عملها بان السيادة ستكون لها على هذا الطريق التجاري الهام، ومن ثم ستهدد منه مكة عاصمة الوثنية. غير ان هذا الطريق الهام كان سلاحا ذا حدين، فاقتصاديات المدينة تعتمد عليه الى حد كبير، ولذلك حرص الرسول ﷺ، على تأمينه فأخذت سراياه تستطلع هذا الطريق بين الفينة والفينة تخيف القبائل العربية المستوطنة على طوله تارة وتعقد معهم التحالفات تارة اخرى. ويدلنا على أهمية هذا الطريق بالنسبة لمكة القصة التالية: «كان أمية بن خلف صديقا لسعد بن معاذ، وكان أمية ينزل على سعد وهو في طريقه الى البشام. وفي إحدى سفرات امية رافقه سعد الى مكة يحميه جواره، وفي مكة طلب سعد الى امية ان يطوف بالكعبة، وبينما هو يطوف بها، لقيه أبو جهل وأراد الاعتداء عليه لولا جوار أمية بن خلف، ورد عليه سعد بقوله: «إن منعتني هذا لامنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك الى الشام»[2]. وقد وصلت سرايا الرسول الى دومة الجندل في مشارف الشام[3] اطمئنانا على سلامة الطريق.

٣ - تطور التشريع وتوالي نزول القرآن، وهذا التطور في التشريع الاسلامي الناتج من توالي السور المدنية بالنزول على رسول الله ﷺ بعث الثقة في نفوس المسلمين بشخصيتهم الاسلامية وتشريعها الخاص، فازدادوا تمسكا بالاسلام وتدارسا

---

(١) انظر المرجع السابق والصفحة.
(٢) انظر صحيح البخاري، جـ٥ ص ٦٠، ٦١ «مطابع الشعب ١٣٧٨هـ».
(٣) انظر المقريزي، إمتاع الاسماع، جـ١ ص ١٩٤.

لاحكـامـه وحفظا لآياته، حتى اصبحت الصحراء تردد تلاوة القرآن ،وتثير بلاغته اعجـاب أعـراب الجـزيرة، والحلقـات تعقـد للتفقه بالدين وتنعكس كل تعاليم الاسلام على اخلاق وسلوك المسلمين. ونتج عن ذلك اسلام عدد من اليهود كان أولهم حبرهم عبدالله بن سلام ومخيريق وغيرهم[1]. ثم توالى اسلام الناس زرافات ووحدانا.

لهذا أدرك اليهود بانهم لم يعودوا أهل الكتاب وأصحاب العلم الأول في الجزيرة العربية، وان المسلمين ماضون ليكونوا هم أصحاب هذا العلم، كما هم ماضون ليكونوا أصحاب السيادة الأولى في بلاد العرب.

ولما بدأ المسلمون بتطبيق احكام الاسلام وحرمت الخمر والربا والاحتكار، وحـاربوا الاستغلال ودعوا الى المساواة في الحقوق والواجبات بدأ اليهود يشعرون ان مصـالحهم المادية اخذت تهدد أكثر فأكثر. وكان التفكير المادي يحتل مكانة كبيرة وعظيمة تفوق اهتمامهم بشؤون الدين ولم يكونوا يعولون على نشر الدين كثيرا، وكانت بيوت العبادة عندهم «المدواس» تستعمل كأندية للقوم. ولم ترو المصادر التاريخية لهم أي نشاط تبشيري يذكر في المنطقة او خارجها، كما ان صلاتهم مع غيرهم من اليهود لم تكن قوية[2]. كما انهم كانوا يجهلون الكتابة والقراءة، وكانت المعرفة بهذه الأمور من نصيب الربانيين الذين أخضعوا اليهود الى نوع من السيطرة الاستبدادية[3]، ولهذا كانت عامة اليهود تقف ضد الاسلام بدافع الشعور القومي والمادي وليس بدافع الدين.

٤ - فشل اعتقادهم باتباع الرسول دينهم أو إبقائهم خارج مجال دعوته.

كان اليهود يأملون ان يجذبوا محمدا الى صفوفهم بعد ان رأوه يدعو الى التوحيد وينشر رسالة شبيهة برسالة التوراة، ولكنهم ما لبثوا ان وجدوا الأمور لا تسير حسب رغباتهم وآمالهم، اذ شتان بين التوحيد الذي يؤمن به اليهود وبين التوحيد الذي يدعو اليه محمد، فاليهود ربطوا رسالة التوحيد بجنسهم، فالله الواحد هو إله إسرائيل وهم شعبه المختار من دون الناس وهو إلههم المختار من دون الآلهة. وهكذا كانوا يشعرون بأنهم مميزون على

(١) انظر ابن هشام، السيرة، جـ١ ص ٥١٦، ٥١٨، وبرهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، جـ٢ ص ١٢١.
(٢) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٦ ص ٥٤٩.
(٣) المرجع السابق والصفحة.

العالمين. بينما كان الرسول يدعو الى عبادة إله واحد بعثه رسولا الى الناس أجمعين. لا فرق عنده بين عربي أو أعجمي الا بالتقوى، وانما يميز الناس عملهم الصالح، فهم في نظر الاله سواسيه. وجد اليهود في دعوة محمد هذه تهديدا خطيرا لمعتقداتهم فهم كانوا يستفتحون على الناس برسول ينفذ رغباتهم ويبالغ في منحهم الامتيازات، ويقتل الناس لصالح شعب اسرائيل قتل عاد وارم! ولذلك أنكروا نبوة المسيح وحاربوا دعوته وحاولوا قتله. ولن يكون موقفهم من محمد ودعوته يختلف عن موقفهم ازاء المسيح ودعوته.

وهكـذا وجـد اليهود ان الشكوك التي كانت تساورهم بنجاح دعوة محمد بدأت تتلاشى ويحل مكانها اليقين بنجاح هذه الدعوة، ومع تلاشي هذه الشكوك بدأت تتلاشى احلامهم في ان يكسبوا محمداً الى صفهم ويستعينوا به وبأتباعه وجلّهم من العرب في تشكيل قوة قادرة على الانتقام من الروم الذين كانوا يحتلون سوريا والذين تسببوا في تشتيت الشعب اليهودي والحاق الأذى والظلم به.

وهنا يجدر بنا ان نرد على بعض المستشرقين[1] الذين ذهب بهم الظن الى ان الرسول كان يكيفُ شعائر المسلمين وفق الديانة اليهودية لكسب اليهود الى جانبه متأثرين بصيام عاشوراء واتجاه المسلمين في صلاتهم بادىء الأمر الى بيت المقدس. وهو قبلة اليهود، وإباحة التزاوج معهم وتحليل وتحريم بعض ما حللوه وحرموه من الأطعمة. إن آراء هؤلاء أتت من كونهم ينظرون الى محمد نظرة انسان عادي تأتي تصرفاته وفقا لرغباته الشخصية وليدة الساعة، فهم لا يؤمنون به رسولا يتلقى وحيه من السماء. وعلى أساس هذا التصور لم يكونوا يدركون ان محمدا رسول يدعو الى دين سماوي جديد يجمع الناس جميعا تحت رايته بما فيهم النصارى واليهود، وأن تشابه بعض الأمور في الأديان الثلاث انما هو ناتج من كونها نبعت في الاصل من مصدر واحد، والاسلام وحده الذي اعترف برسالات السماء السابقة. لكل هذه المخاوف شعر اليهود بان عليهم ان يعملوا شيئا لوقف الخطر الداهم على كيانهم وكان اليهود قادرين على العمل فعلا ضد المسلمين لولا ان حلفاءهم من الأوس والخزرج قد أصبحوا هم القوة التي ترفع الراية الاسلامية، فقد تمكن الاسلام من جمع شملهم تحت لوائه، بينما ظلت الخلافات بين اليهود على

(١) انظر ر. ف. بودلي، الرسول ـ حياة محمد، ترجمة عبدالحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج، دار الكتاب العربي بمصر ص ١٠٩ وما بعدها. أنظر ايضاً بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط ٥ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨م، ص ٤٦.

أشدها، وقد كشفت الحروب بين المسلمين واليهود عن عمق هذه الخلافات، ورغم هذه الخلافات فقد اتبع اليهود اساليب متعددة في مقاومة الجماعة الاسلامية ومن هذه الأساليب:

١ - الحصار الاقتصادي: تعرض المسلمون في المدينة بعد الهجرة الى ضائقة اقتصادية شديدة وذلك لان المهاجرين تركوا اموالهم في مكة وقدموا الى المدينة في حالة من الضنك، فاستغل اليهود هذه الحالة وقاطعوا المسلمين مقاطعة سلبية وامتنعوا عن تقديم القروض للمسلمين، فقد ارسل النبي أبا بكر الى رؤساء يهود ليستقرض منهم مالا يستعين به على أموره موصيا اياه الا يشتط في كلامه، وألا يسيء اليهم اذا رفضوا اجابته. فلما دخل أبو بكر المدراس - وهو بيت عبادة اليهود - وجد يهودا مجتمعين الى أحد أحبارهم يدعى فنحاص فسلمه رسالة النبي وعرض عليه حاجته فقال فنحاص: احتاج ربكم ان نمده؟ فنزل الوحي الالهي[1] ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾[2].

ومن مظاهر حصارهم الاقتصادي ان اليهود امتنعوا عن تأدية ما عليهم من ديون وبيوع وأمانات لمن اعتنق الاسلام مدعين ان ما كان لهم من حق انما كان لهم قبل الاسلام، وان اسلامهم قد أبطل حقوقهم والى ذلك يشير القرآن ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[3].

وهكذا تجد ان اليهود وقفوا في باديء الأمر موقفا سلبيا من مساعدة المسلمين، وذلك قبل ان يجهروا بعدوانهم.

٢ - إثارة الأحقاد القديمة:

حاول اليهود تفتيت وحدة الأوس والخزرج بعد الاسلام، واستغلوا ما كان بين

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ١ ص ٥٥٨ وما بعدها، ابن كثير، التفسير، جـ١ ص ٤٣٤. عفيف طبارة، اليهود في القرآن ص ٢٨.
(٢) سورة آل عمران آية: ١٨١.
(٣) سورة آل عمران آية: ٧٥. أنظر تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٧٤. عفيف طبارة، اليهود في القرآن ص ٢٨.

الحيين من ثارات قديمة ونزعات عصبية، فقد ذكر ابن اسحاق «أن شاس بن قيس وكان شيخا قد عسا[1] عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من الفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الاسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيله[2] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من يهود كان معهم، فقال اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث، وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج . . قال ابن اسحاق: ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: ان شئتم رددناها الآن جذعه، فغضب الفريقان جميعا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة والظاهرة: الحرة، السلاح السلاح، فخرجوا اليها. فبلغ رسول الله ﷺ، فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وانا بين اظهركم بعد ان هداكم الله الى الاسلام. . وبقي الرسول يعظهم الى ان ذهب ما هم فيه وعادوا كما كانوا قد أطفأ الله عنهم كيد شاس بن قيس، فأنزل الله تعالى بحق شاس هذا وما صنع: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا، وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون﴾[3] وأنزل الله في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا مما ادخل عليهم شاس من امر الجاهلية: «يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردونكم بعد ايمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون. . . إلى قوله تعالى ـ وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[4].

---

(١) عسا: أسن وولّي ـ القاموس.
(٢) بني قيلة: الأوس والخزرج.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٩.
(٤) سورة آل عمران، الأيات: ١٠٠ـ١٠٥، انظر الرواية السابقة في ابن هشام، السيرة، جـ١ ص٥٥٥ وما بعدها.

وهذا الاسلوب الذي مارسه اليهود في تاريخهم القديم من الاساليب التي لا زال اليهود يحرصون على استعماله لتفتيت وحدة الأمة العربية والاسلامية، وما نشاهده في عصرنا الحاضر من دسائس يهودية خير مصداق على ذلك.

٣ ـ التشكيك بالاسلام.

وردت بعض الآيات الكريمة تشير الى مساعي اليهود في صد المسلمين عن الاسلام واضعاف ايمانهم بطرق شتى ومن ذلك قوله تعالى[١]: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم، قل ان الهدى هدى الله، ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم. قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

ويعلق محمد سيد طنطاوي على ما سبق بقوله: «ان هذه الآيات الكريمة قد حكت عن اليهود طريقة ماكرة لئيمة، هو تظاهرهم بالاسلام ليحسن الظن بهم من ليس خبيرا بمكرهم وخداعهم حتى اذا ما اطمأن الناس اليهم جاهروا بكفرهم، ورجعوا الى يهوديتهم، ليوهموا حديثي العهد بالاسلام، أو ضعاف الايمان، انهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنهم ليس عندهم أي عداء للنبي ﷺ وان الذي حصل منهم هو انهم بعد دخولهم الاسلام واتباعهم لمحمد ﷺ وجدوه دينا باطلاً، وأن محمدا ﷺ ليس هو النبي المرتقب، وأنهم ما عادوا الى يهوديتهم الا بعد الاختبار والفحص وامعان النظر في دين الاسلام».

«ولا شك ان هذه الطريقة التي سلكوها لصرف المسلمين عن دينهم من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطاني، لأن إعلانهم الكفر بالاسلام بعد إظهارهم الايمان به، من شأنه أن يدخل الشك في القلوب، ويوقع ضعاف العقول والايمان في حيرة واضطراب، خاصة وان العرب قوم أميون، ومنهم من كان يظن ان اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين، وأنهم ما ارتدوا عن الاسلام الا بعد اطلاعهم على نقص في تعاليمه»[٢].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٧٢-٧٤.
(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، جـ١ ص٢٧٣.

وهـذه الأسـاليب تدل على ان اليهـود لا يعولون كثيرا على شرف الوسائل التي توصلهم الى أهـدافهم، وتـدل أيضـا على أن قضية الايمـان لديهم ليست راسخـة، وسنجدهم يتعاونون مـع أصحاب الوثنية ضد اتباع الاسلام الذين يدعون الى التوحيد ويحاربون الكفر وهو ما نادت به ديانتهم من قبل.

وقد حلل المفسرون الآيات المتقدمة من زوايا مختلفة وعرضوا لأساليب اليهود وبينوا خبثهم ومكرهم مما لا مجال لذكره هنا[1].

ولم يمض وقت طويل حتى أظهر اليهود عدائهم للاسلام والمسلمين وكأنهم كانوا يرون ان الفـرصـة في حرب المسلمين تفوتهم ولذلك شنوا حربا كلامية وجدالا عنيفا قصدوا منه هدم الاسلام من أساسه لأنهم رأوا فيه قوة الجماعة الاسلامية، وقد كشف القرآن الكريم عن محاولاتهم هذه في سوره المدنية. وقد وقف الرسول من هذه الحرب الكلامية موقفا متسامحا محاولا ان لا يدخل معهم في مثل هذه الخلافات التي قد تؤدي الى اشعال نار الحرب بين الطرفين، وهذا الأمر كان لا يريده الرسول لانه كان يعد العدة لمنازلة خصمه الرئيسي «قريش» ولهذا كان يعمل جاهدا للحفاظ على وحدة المدينة، لذلك طلب من المسلمين مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ومنعهم من الاعتداء على اليهود وحرّضهم على التمسك بالمواثيق والمعاهدات معهم. وقد تمكن الرسول بهذه الوسائل من تأخير الاصطدام المسلح مع اليهود حتى معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون على قريش. وبعد هذه المعركة استعرت الحرب الكلامية وحرب الجدل بين المسلمين واليهود طيلة هذه الفترة التي سبقت الصراع المسلح مع اليهود.

★ **حرب الجدل والكلام بين المسلمين واليهود.**

كانت مواقف الحجاج اليهودية مقدمة للحرب الدموية التي انتهت باخراج اليهود من بلاد الحجاز. وقد اتخذت مواقف المجادلة والحجاج هذه مظاهر مختلفة منها.

١ - إنكارهم التنزيل وطعنهم في نبوة الرسول محمد ﷺ وتهجمهم على الذات الالهية وقد أظهروا هذا الانكار بسلوكهم الاستهزائي والتهكمي بشعائر المسلمين، وقال

---

(١) انظر محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار بمصر، ط٣ ١٣٦٧هـ جـ٣ ص٣٣٣. تفسير الطبري، طبعة بولاق ١٣٢٣هـ جـ٣ ص٢١١، وتفسير الرازي، المطبعة البهية المصرية، ط١، ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م جـ٨ ص١٠١.

تعالى في هذا المعنى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾(١).

ففي هذه الآية كما هو ظاهر خطاب للمؤمنين بعدم اتخاذ الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والمشركين أعوانا وأنصارا لأن هدفهم واحد في محاربة المسلمين والاستخفاف بدينهم. قال ابن اسحاق: «قال مسكين وعدي بن زيد: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى»(٢).

ومن مواقفهم الحجاجية، ما كان حول نبوة النبي ﷺ بسبب عروبته، فقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين. قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين﴾(٣).

ويستفاد من هذه الآيات أن فيها ردا على ادعاء اليهود بأن الله اختصهم بالنبوة من بين سائر البشر، وقولهم ان لا نبوة في غير بني اسرائيل، ثم حملت الآيات عليهم لعدم امتثالهم لما جاء في التوراة التي أخبرت ببعثة محمد وأثبتت أوصافه وأعرض اليهود عن رسالته حسدا وبغضا، وقالوا ان ليس هذا هو النبي المنتظر وأظهر الله كذبهم بقوله: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾(٤).

وفي مغرض حجاجهم طالبوا الرسول بأن يأتيهم بالمعجزات فقال تعالى: ﴿الذين

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٥٧ ـ ٥٨.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية جـ١ ص٥٦٢.
(٣) الآيات: ٢ ـ ٦.
(٤) سورة البقرة، آية: ٨٩.

قالوا ان الله عهد الينا ان لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين﴾[1].

والمراد ان الله أرسل نبيه عيسى بكثير من المعجزات ومع ذلك لم يؤمن به اليهود وحاربوه وحاولوا قتله. وطلبوا من الرسول ان يسأل ربه ليكلمهم حتى يسمعوا كلامه وذلك ليؤمنوا به فأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾[2].

وفي هذه الآية اشارة لطلب بني اسرائيل من موسى عليه السلام ان يجعل ربه يكلمهم مثلما طلبوا إليه أن يريهم الله جهرة، وهي أسئلة يقصد فيها الاستخفاف والتعجيز. ومن أمثلة طعنهم بنبوة الرسول وانكار نزول الوحي عليه ما أخرجه ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير قال: «جاء رجل من اليهود يقال له «مالك بن الصيف» فخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة ان الله يبغض الحبر السمين ـ وكان حبرا سمينا ـ فغضب وقال: «ما أنزل الله على بشر من شيء» فقال له أصحابه ويحك ولا على موسى؟ فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾[3].

وجاء في سورة النساء:

﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تظلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا، وكفى بالله نصيرا. من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا﴾[4].

وفي هذه الآيات صور من مواقف اليهود الساخرة تجاه النبي، فهم يلوون السنتهم بكلمة راعنا حتى تؤدي الى نعت الرسول بالرعونة[5]. ويجهرون بالعصيان بعد السماع

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٣.
(٢) سورة البقرة آية ١١٨.
(٣) انظر السيوطي، لباب النقول في اسباب النزول، على هامش تفسير الجلالين، ص٢٢٢.
(٤) الآيات: ٤٤-٤٦.
(٥) انظر محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ، جـ٢ ص١٤٥.

فهم يقولون سمعنا وعصينا بدل القول المشهور للمسلمين عند سماعهم القرآن «سمعنا وأطعنا» . ومن صور الاستهزاء انهم كانوا اذا كلموا الرسول قالوا «راعنا سمعك»[1] . وهي كلمة عبرانية فيها سبه .

وهذه آية يستفاد منها طلب اليهود من الرسول ان يتبع دينهم ، قال تعالى : ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[2] . وذكر ابن اسحاق ان عبدالله بن صوريا الأعور الفطيوني قال لرسول الله ﷺ «ما الهدى الا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد»[3] . وقد ذهب اليهود في جدلهم شأوا بعيدا حتى تهجموا على ذات الله . ذكر ابن اسحاق ان رهطا من اليهود أتى إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : «يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟!»[4] . وبهذه المناسبة نزل قوله تعالى : ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد﴾ .

٢ ـ جدل اليهود حول الأحكام الاسلامية . مثل النسخ وتحليل وتحريم الأطعمة وتحويل القبلة . ويظهر من التنزيل ان اليهود أثاروا جدلا شديدا حول هذه الأمور واعتبروا النسخ وتحويل القبلة ردة دينية وإجراءات شخصية أولته ظروف المخاصمة مع اليهود، وظنوا ان باستطاعتهم النيل من الاسلام بولوجهم هذا الباب وقالوا: الا ترون إلى محمد يأمر أصحابه ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول قولا ويرجع عنه غدا، ما هذا من شأن الأنبياء، وما هذا القرآن الا من كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضا[5] .

وقد تولى القرآن الرد على إثارتهم الشبهات حول الاسلام، ويقيم عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة يكشف عما في نفوسهم من حسد وحقد وما بينهم من خلاف وتشاحن، قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا: راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا، وللكافرين عذاب أليم . ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من

(١) انظر السيرة الحلبية جـ٢ ص ١٢٧ .
(٢) سورة البقرة، آية : ١٣٥ .
(٣) انظر ابن هشام ، السيرة جـ١ ص ٥٤٩ .
(٤) انظر ابن هشام ، السيرة جـ١ ص ٥٧١ .
(٥) انظر محمد سيد طنطاوي، بنو اسرائيل في القرآن والسنة، جـ١ ص٢٠٦، ٢٠٧ .

آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها. الم تعلم ان الله على كل شيء قدير؟ الم تعلم ان الله له ملك السماوات والأرض، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. ام تريدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل؟ ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ظل سواء السبيل. ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره. إن الله على كل شيء قدير، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، ان الله بما تعملون بصير. وقالوا: لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، بلى من أسلم وجهه لله، وهو محسن، فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيى وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها؟ أولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم﴾[1].

ويبدو أن اليهود تذرعوا بالنسخ وتحويل القبلة وتحريم بعض الأطعمة وتحليل بعضها الآخر للتشكيك في مصدر هذه الأوامر بالتكاليف، ويمكن الاستدلال على انهم ربما أثاروا الشك عند بعض المسلمين فأخذوا يسألون الرسول ﷺ عن هذه الأوامر وسبب اباحتها ثم تغييرها. ويطلبون الأدلة والبراهين على الحكم من هذه الأوامر وتلك المنسوخات، وسبب تغيير القبلة وتحريم بعض الأطعمة وتحليل بعضها الآخر، فنزل القرآن يبين لهم ان نسخ بعض الآيات انما هو حكمة إلهية اقتضتها ظروف معينة وأوجبت نسخها ظروف جديدة، وفي كل ذلك يختار الله الأحسن والأصلح لعباده لأنه بهم رؤوف رحيم. وفي نفس الوقت تنبه هذه الآيات الى أهداف اليهود الحقيقية التي يخفونها وراء حجاجهم وأسئلتهم ويقصدون منها تضليل المسلمين واضعاف ثقتهم وإيمانهم بعقيدتهم ويستتبع ذلك نزع ثقتهم برسولهم، وظن اليهود ان هذه الاساليب كفيلة بتصديع وحدة المسلمين وتشكيكهم بقيادتهم. وفي هذه الآيات يفند سبحانه وتعالى أماني اليهود

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٠٤ ـ ١١٥.

والنصارى في دعواهم في ان الجنة من حقهم وحدهم. ويكشف للملأ ان هذين الفريقين كل يدعي ان له الجنة، وهم على ما فيه من الخلاف والتنابذ في الأصول والجزئيات من دينهم. ثم يورد سبحانه وتعالى رده على تقولهم بتحويل القبلة مبينا ان المشرق والمغرب لله وأينما توجه المرء فثم وجه الله سبحانه وتعالى، ويمضي السياق ليكشف للمسلمين عن الأهداف الحقيقية لأهل الكتاب من يهود ونصارى، وأن هؤلاء لا يرضون من المسلمين ما لم يتبعوا دينهم. وهذه الحجج الكاذبة والجدل الباطل انما المقصود به هدم القواعد التي انتصب عليها الاسلام. ويبين الله سبحانه وتعالى انهم لا يريدون الاتجاه الى الكعبة بيت الله ومسجده الأول تمهيدا لهجر هذا البيت وانقطاع ذكر الله فيه بعد خرابه. ثم يختم السياق هذه الآيات ببيان ما ينتظر هؤلاء من عذاب جزاء افترائهم الكذب وهم يعلمون ذلك.

وقد جادل اليهود الرسول في أمر تحريم بعض الأطعمة وتحليل بعضها. وقد تولى الله سبحانه وتعالى الرد على هذه الشبهات التي كان مقصد اليهود من وراء إثارتها الطعن في نبوة سيدنا محمد وزعزعة ايمان المسلمين من حوله. قال تعالى: ﴿كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة، قل فأتوا بالتوراة فأتلوها ان كنتم صادقين، فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون، قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[1].

وفي الآيات التي تنزلت على محمد تحدٍّ لليهود بان ما جاء من تحريم بعض الأطعمة على لسان محمد قد جاء في التوراة مثله، وفي الأصل قبل نزول التوراة كان جميع أنواع الأطعمة حلا على بني اسرائيل الا شيئا واحدا كان محرما عليهم وهو ما حرمه اسرائيل على نفسه منها ثم حرمه بنو اسرائيل على أنفسهم اقتداء بأبيهم. ولما نزلت التوراة نزل فيها تحريم بعض الأطعمة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا او ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٩٣-٩٥، انظر كذلك محمد سيد طنطاوي بنو اسرائيل في القرآن والسنة جـ١ ص٤٤، ٢٤٥.

(٢) سورة الانعام، الآية: ١٤٦.

وجاء في الكشاف: «وحيث أرادوا جحود ما غاظهم واشمأزوا وامتعظوا مما نطق به القرآن من تحريم بعض الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم، فقالوا لسنا بأول، من حرمت عليه، وما هو الا تحريم قديم كانت ـ هذه الأشياء ـ محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني اسرائيل وهلم جرا، الى ان انتهى التحريم الينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله، وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم الله عليهم نوعا من الطيبات، عقوبة لهم»[1].

٣ ـ جدال اليهود بشأن ابراهيم عليه السلام والأنبياء من بعده.

اجتمعت وفود من نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا، وقالت النصارى من أهل نجران، ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما، وما كان من المشركين، ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾[2].

ومن المسائل التي احتدم فيها الجدل نبوة سيدنا عيسى عليه السلام فاليهود ينكرون نبوته جملة وتفصيلا، وقد تولى القرآن رد حججهم والدفاع عن سيدنا عيسى ونبوته، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود، فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع، وأزار بن أبي أزار وأشيع، فسألوه عمن تؤمن به من الرسل فتلا قوله تعالى ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون﴾[3]. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بمن آمن به وما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم

(١) انظر الزمخشري، الكشاف، البابي الحلبي، جـ٢ ص٤٤٥ ـ ٤٤٦.
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٦٥ ـ ٦٨. انظر ايضا ابن هشام، السيرة، جـ١ ص٥٥٣.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٨٤.

فأنزل الله فيهم: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾(١).

ولما لم يفلح اليهود في الوصول الى أغراضهم بالطعن بالدين الاسلامي، والمحاججة بالأصول والفروع لجأوا الى أسلوب أخبث، وذلك بمحاولتهم فتنة الرسول نفسه ليحكم في أمور حكما يخالف ما جاء في الاسلام، ومن ثم يتكشف الرسول امام المسلمين وغير المسلمين بهذه الصورة التي أرادوها. فقد ذكر ابن اسحاق ان كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبدالله بن صوريا، وشاس بن قيس - وهم من زعماء اليهود - قالوا لبعضهم بعضا «اذهبوا بنا الى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه فانما هو بشر، فأتوه، فقالوا له: يا محمد، انك قد عرفت انا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وانا ان اتبعناك اتبعتك يهود، ولم يخالفونا، وان بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فأنزل الله فيهم: ﴿وان أحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك، فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيرا من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾(٢).

ولم يدع اليهود مسلكا للنيل من النبي إلا واتبعوه فسألوه عن قيام الساعة، وعن الرجل الطواف وعن الروح، وعن تشبه المولود بأمه أو بأبيه، وكل قصدهم تعجيز الرسول، وكان الله يتولى الرد عليهم بالحجة والبينة والبرهان القاطع بالتي هي أحسن. وكان الرسول كما أسلفنا يحرص على عدم الاساءة إليهم أو إغضابهم في بداية الأمر آملا أن يعيدهم إلى الصواب وأن يدخلوا الاسلام دون إكراه. ويعتقد كثير من المستشرقين ان الخصومة الكلامية التي استمرت بين اليهود والمسلمين في المدينة، إنما كان سببها دعوة محمد لليهود للدخول في الاسلام. ان محمدا صلى الله عليه وسلم مكلف بدعوة جميع الناس الى الاسلام دين الفطرة البشرية. غير انه بدعوته اليهود الى ذلك لم يستعمل الشدة لاكراههم على اتباعه ودليلنا على ذلك انه اعترف لهم بدينهم وضمن لهم حريتهم الدينية عندما وادعهم بعد الهجرة. وظل اليهود في الجزيرة العربية وفي البلاد الاسلامية

(١) سورة المائدة، آية: ٥٩. انظر تفسير الطبري، جـ٦ ص١٩١-١٩٢. محمد سيد طنطاوي بنو اسرائيل في القرآن والسنة. جـ١ ص٢٠٥.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٩-٥٠. انظر ابن هشام، السيرة جـ١ ص٥٦٧.

يتمتعون بحريتهم الدينية أكثر من أي مكان آخر في العالم، بم تهيىء أمة لليهود الحرية الدينية كما هيأتها الدولة الاسلامية وحسبنا ان نتذكر موقف المسلمين من يهود اسبانيا بعد الفتح .[1].

ومن الجدير بالذكر ان كثيرا من اليهود قد أسلموا وأحسنوا في اسلامهم ومنهم عدة من الصحابيين والصحابيات ذكرت فضائلهم المصادر التاريخية الاسلامية[2].

وبينما كان اليهود يدفعون الأمور بالمدينة الى حافة الحرب والاقتتال،، كان الرسول والمسلمون يواصلون الرد عليهم بالبينة والكلام الحسن ويحرصون كل الحرص ان لا تفلت الامور من ايديهم ويدخلون معهم في حرب في ظروف هم أحوج فيها لوحدة كافة سكان المدينة كما أسلفنا.

ولما استعرت حملة اليهود ووصل ايذاءهم الرسول وإنكار التنزيل، ومحاولة فتنة المسلمين حذر الله المؤمنين مباطنتهم والسماع اليهم، كما حذر اليهود سوء سلوكهم وسوء المصير الذي ينتظرهم. وفي القرآن كثير من الآيات في هذه المعاني. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾[3]. وقال تعالى: ﴿واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[4]. ومن الآيات التي طلبت الى اليهود ان يتركوا جدلهم وعنادهم ويثوبوا الى رشدهم قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[5]. ومنها قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[6].

(١) Goitien, "Jews & Arabs" New Yourk 1964. P. 7.

(٢) انظر ابو عبدالله بن محمد بن زكري الفاسي، رشف الضرب في فضل بني إسرائيل والعرب، مخطوط في الخزانة الملكية ـ الرباط رقم ١٦٠١.

(٣) سورة الاحزاب، آية: ٦٩.

(٤) سورة الصف، آية: ٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٣٦.

(٦) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

ومن الآيات التي نهت عن موالاة اليهود وأمثالهم من المشركين وحذرتهم سماعهم وتصديق أقوالهم، قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله، واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور. ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط﴾[1].

ونهى النبي ﷺ عن سؤال اليهود فيما يتعلق بأمور الدين وأمر المسلمين ان يرجعوا في أمور دينهم الى قرآنهم وسنة نبيهم ﷺ فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ فيه أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه لم يشب وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيّروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسايلتهم ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[2].
وحذر الله سبحانه المسلمين من اتباع اليهود في نهجهم مع أنبيائهم بقصد تعجيزهم وإيذائهم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾[3]. وذهب اليهود في خصومتهم الاسلام والمسلمين الى أبعد من المخاصمة الكلامية فقد حالفوا المنافقين والمشركين وظاهروهم في العداء المكشوف للرسول، وبذلك قربّوا الأمور بسعيهم الى شفى الحرب.

★ تحالف اليهود مع المنافقين:

كان عبدالله بن أبيّ بن سلول الخزرجي على وشك ان يبايعه قومه ملكا على المدينة، عندما انتشر الاسلام في المدينة، ولما أعلن الأنصار إسلامهم تطايرت أحلام ابن أبيّ في الحكم، فحقد هذا على الاسلام والمسلمين، ولما وجد ان المسلمين أقوياء وأن جميع الناس من حوله قد اعتنقوا الاسلام، تظاهر بالاسلام بعد معركة بدر نفاقا ورياء، وظل ينفث حقده كلما واتته فرصة. وجمع هذا حوله أمثاله من ضعاف النفوس

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١١٨-١٢٠.
(٢) صحيح البخاري جـ٣ ص١٥٨، «كتاب الشهادات».
(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦٩.

ممن تظاهروا بالاسلام اما خوفا او رياء ابتغاء غرض من الأغراض وبقيت هذه الفئة تكيد في الظلام لجماعة المسلمين وتتمنى لها الهلاك في كل مناسبة، وكان الرسول ﷺ على علم بهذه الفئة الضالة المضلة، وكان يمنعه من إنزال العقوبة بها عاملان :

الأول : حاجة الرسول الى ابقاء قوة المسلمين كاملة ليوم المواجهة مع كفار قريش وكان يعلم علم اليقين بأن هذا اليوم آت لا ريب فيه.

الثاني: كان الرسول ينظر إلى هذه الفئة نظرة تختلف عن نظرته لليهود وذلك ان المنافقين ومعظمهم من عرب المدينة وقبائلها لا يوافقون بحكم العصبية القبلية على التهاون، امام قريش أو غيرها من القبائل العربية لالحاق الهزيمة بالمدينة او احتلالها. وهم في هذه الناحية يخدمون أغراض الرسول في حماية المدينة من الأعداء، وقد وقفوا هذا الموقف في غزوة الأحزاب كما سنرى. ويدل هذا التصرف على بعد نظر الرسول وحسن تقديره للأمور. لهذه الاسباب تجاوز الرسول ﷺ مواقف المنافقين وعلى رأسهم عبدالله بن أبيّ، ولم يعاقبهم رغم أن بعض الصحابة طلبوا إليه عقاب ابن أبيّ هذا وقتله، وكان جواب الرسول لهؤلاء: «إننا لا نريد أن يقال بأن محمدا يقتل أصحابه»[1]

وقد أشار القرآن الكريم الى تحالف اليهود والمنافقين بالآيات التالية:

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم انما نحن مستهزؤن﴾[2]. ويقصد بالشياطين هنا اليهود، وهذه الآية تصف حال المنافقين مع المسلمين وكيف كانوا على صلة مع اليهود يسيرونهم حسبما شاؤوا.

ومن قوله تعالى: ﴿بشر المنافقين بان لهم عذابا أليما. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا﴾[3].

وجمهور المفسرين متفقون على ان الكافرين هنا هم اليهود، وفي الآية قرينة على صحة ذلك، كما ان فيما بعدها قرينة ثانية. وواضح ان اتخاذ المنافقين اليهود أولياء،

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة، جـ١ ص٥٨٤، جـ٢ ص٢٩٠.
(٢) سورة البقرة، اية: ١٤.
(٣) سورة النساء، الآيات: ١٣٨-١٣٩.

وتوافقهم معهم، انما هما أثر من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الجماعة الاسلامية.

وجاء في قوله تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم، ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم﴾[1].

وجمهور المفسرين يقولون ان الآية الأولى عنت المنافقين وان الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود. وهكذا تكشف هاتين الآيتين عن طبيعة العلاقة أو الرابطة التي تجمع اليهود والمنافقين.

وجاء في سورة المجادلة: ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾[2]. وهذا دليل آخر على تولي احدى الفئتين المعاديتين للمسلمين احداهما للأخرى، وعلى الرغم من ان جمهور المفسرين يرى أن فئة المنافقين هي التي تتولى اليهود، إلا أنني أرى أن اذعان اليهود للمنافقين إنما هو ظاهري، فهم يتظاهرون بالانقياد للمنافقين طالما ينفذ هؤلاء برنامجهم ومخططاتهم، لأن من غير المعقول ان يكون لهؤلاء مكر اليهود وحيلهم، وجاء في قوله تعالى: ﴿ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون﴾[3].

والمقصود بالذين كفروا هم اليهود لأن سياق الآيات بصدد بيان تآمر اليهود وتحالفهم مع المنافقين. ويقرر القرآن في الآيات التالية ما يريده اليهود والنصارى ليكون المسلمون على بينة من أمرهم ولا يخوضون معهم بالجدل والحجاج. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم

---

(١) سورة محمد، الآيات: ٢٥-٢٦.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١٤.

(٣) سورة الحشر، آية: ١١.

يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾[1].

والنهي في هذه الآيات موجه للذين آمنوا من أهل المدينة ليحذروا من اتخاذ اليهود والنصارى أولياءهم، ولما لم يكن نصارى في المدينة فيكون المقصود هم اليهود، وقد روى المفسرون والرواة ان الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين عبدالله بن أبيّ وأحد زعماء المسلمين، اذ قال هذا اني بريء من اليهود، فقال الأول، أما أنا فلا أتبرأ منهم لأني أخشى الدوائر[2].

ويجب ان لا يغرب عن البال ان اليهود كانت لهم محالفات مع القبائل العربية في الجاهلية وكان العرب يتميزون بالوفاء، فكان لهذه التحالفات قوة القانون الملزم اليوم، وقد استغل كل من الفئة المنافقة واليهود هذه المحالفات لاظهار توادهم لبعضهم وتكوين جبهة واحدة ضد المسلمين، وقد تمكنوا من النيل من بعض مواقف المسلمين ممن لا يدركون مقاصد اليهود وحلفائهم المنافقين، أو ممن لم يتمكن الاسلام في قلوبهم. ولذلك نهاهم الله عن اتخاذ اليهود بطانة لهم كما نهاهم عن الاستماع اليهم لئلا يفتنوهم عن دينهم. وقد أبقى الرسول على هذه التحالفات لادراكه قوة العصبية السائدة بين العرب عند الهجرة، وكان واثقا ان الاسلام كفيل باضعاف هذه العصبية مع الزمن. وقد تمكن معظم المسلمين من احلال الرابطة العصبية وهو ما كان يرمي اليه رسول الله ﷺ.

ويخطيء من يظن ان الرسول ﷺ قد تحامل على غير المسلمين من اليهود والنصارى لمخالفتهم الشريعة الاسلامية وتمسكهم بعقائدهم، وذلك لأن الله أوضح في نهيه عدم موالاة اليهود والمنافقين الذين ناصبوا الاسلام العداء، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين، أنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٥١-٥٢.
(٢) انظر محمد عزة دروزة، سيرة الرسول جـ٢ ص١٨١.
(٣) سورة الممتحنة، الآيات: ٨-٩.

فهاتان الآيتان في تحديد الفئات المعادية للمسلمين، وهؤلاء هم الذين قاتلوا المسلمين في دينهم، أي طعنوا في الاسلام وعملوا على تشكيك المسلمين بدينهم وحاولوا فتنتهم عنه وهم الذين تولى الله سبحانه وتعالى فضحهم في آيات متعددة من قرآنه الكريم، وهم اليهود الذين شرحنا أهدافهم على ضوء ما تقدم من القرآن.

وأما الفئة الثانية التي حددتها الآيات ووضعتها في عداد أعداء الاسلام، الذين قاتلوا المسلمين في دينهم وأخرجوهم من ديارهم وهم كفار قريش الذين حاربوا الاسلام والمسلمين في مكة حتى أخرجوهم منها. ويجدر بنا الان الوقوف على طبيعة العلاقات التي سادت بين اليهود أعداء محمد ﷺ في المدينة وبين كفار قريش أعداء محمد ﷺ في مكة، بعد ان أوضحنا بما فيه الكفاية علاقات اليهود مع جماعات المنافقين.

★ **تحالف اليهود مع المشركين :**

لم يكتف اليهود بالتعاون مع المنافقين في المدينة بل اتجهوا الى مشركي قريش في مكة وحزبوهم على المسلمين، وسجل القرآن عليهم موقفهم المخزي عندما فضلوا الوثنية على دين التوحيد الذي يدعو إليه المسلمون، وتباهي اليهود بالدعوة إليه من قبل[1]. وبذلك يكون اليهود قد نقضوا المعاهدة التي أبرموها مع الرسول وشهدوا بموجبها بعدم اجارة قريش او مساعدتها ضد المسلمين. وقد يظن البعض أن نقض المعاهدة جاء متأخرا اعتمادا على الزمن الذي حدثت فيه محادثة وفد من زعماء اليهود مع زعماء قريش - وفي هذه المحادثة زعموا ان الوثنية دين قريش خير من دين محمد كما سيأتي معنا - في مكة قبيل حدوث معركة الخندق، غير أن القرآن يشير الى نقض مبكر لهذه العهود والمواثيق، فدعوة القرآن الى عدم اتخاذهم أولياء أو بطانة للمسلمين، برهان ساطع على عدم تمسك اليهود بهذه الاتفاقيات.

وهكذا نرى ان الرسول ﷺ تمسك بالأهداف والمثل التي رسمها لنفسه وهذه الأهداف تقوم على مسالمة سكان المدينة ومعاملتهم بكل تسامح واحترام مفضلا السلم على الحرب والوفاق على الخلاف، والسلم مثل اسلامي يتمسك به المسلمون في علاقاتهم العامة والخاصة، وتتردد عبارة - السلام عليكم - بين المسلمين في تحيتهم

(١) سنتعرض لهذا في الفصل القادم.

لبعضهم بعضا ولغيرهم عند كل لقاء. فالرسول لم يفرض الاسلام بالسيف والاكراه ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ لادراكه ان العقائد لا تفرض على فكر الناس فرضا لأنها تنبع من الداخل ولا تفرض من الخارج، ولهذا اتبع القرآن سبل الهداية الموصلة للعقل بأساليب عقلية تدل على احترامه لعقول الناس. ولهذا فالاضطهاد يثير التعصب في النفوس ويحدث فيها مقاومة للمضطهدين. وحتى القتال في الاسلام شرعه الله سبحانه وتعالى حفاظا على القيم الانسانية، ومثلها العقلانية، فهو للدفاع عن النفس وحماية المسلمين في أنفسهم ودينهم، وهو بالتالي للحفاظ على أمن الانسان واتاحة الفرصة له لكي يعيش حرا طليقا من كل تهديد، وفتح المجال للمباديء ان تسير حجة بحجة وبرهانا ببرهان دون ان تقف القوى المادية المسلّحة في طريقها، وحتى لا يحجب عنا القتال صفاء الأفكار، ولا ريب فان الاسلام دخل المدينة دون حرب، وجماعة المسلمين الذين أحاطوا بمحمد ﷺ آمنوا جميعهم طواعية ودون إكراه. ولم يكن يدر بخلد الرسول ﷺ ان السيف كفيل بحمل الناس على تغيير معتقداتهم سيما وأنه وصحبه الكرام أصحاب التجربة مع كفار قريش، فلم تفلح وسائل التعذيب والاضطهاد في حمل المسلمين من المستضعفين في مكة على الرجوع عن الاسلام ويكفينا دلالة على ذلك ما تعرض له المستضعفون من المسلمين على أيدي كفار مكة من تعذيب.

الفصـــل السابـــع

الصراع المسلح بين اليهود والمسلمين في العهد النبوي

- أسبـــاب الصـــراع.
- غــزوة بني قينقــاع.
- موقف اليهود بعد جلاء بني قينقاع.
- مقتل كعب بن الأشرف.
- غــزوة بني النضيــر.
- دور اليهود في غزوة الأحزاب.
- غــزوة بني قريظـة.
- أعمال الرسول الاحتياطية قبيل غزوة خيبر.
- غـــزوة خيبـــر.
- زواج الرسول ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب اليهودية.
- يهـــود فـــدك.
- وادي القـــرى.
- تيمـــــــاء.

الفصـــل السابـــع

الصراع المسلح بين اليهود والمسلمين في العهد النبوي

★ أسبــاب الصــراع :

كانت الخصومات الكلامية بين المسلمين واليهود قد بلغت أشدها في المدينة قبيل موقعة بدر، وكان النفور بين الجانبين ظاهرا حتى في الشوارع حيث يترامى الطرفان بقوارص الكلم، ويتشاجر المتخاصمون في بعض الأحيان[1]، وكان الرسول ﷺ قد أمر المسلمين بالصبر على أذى اليهود وجدالهم بالتي هي أحسن رغم سوء أدبهم، فلم يشأ الرسول أن يدخل معهم في قتال، أملا ان يثوبوا الى رشدهم ويدخلوا الاسلام أو يتعاونوا مع المسلمين كشركاء لهم في التوحيد. غير ان الموقف لم يبق على مثل هذه الحال من الخصومات الكلامية بل سارت الأمور سراعا الى ان تفجر الموقف وحمل الجانبان السلاح.

لقد فجّرت معركة بدر الموقف، فقد خضد المسلمون شوكة عدوهم الأكبر قريش في هذه المعركة، ولم يبق الا ان يقلموا اظافر اليهود في المدينة. ، لقد كان لهذه المعركة نتائج عظيمة حقا بالنسبة للمسلمين، فقد أظهرت الجماعة الاسلامية قوية لدرجة ان الرعب قد أصاب المنافقين واليهود، وشعروا بان الاسلام قد انتصر بهذه المعركة. فبدأ اليهود يقومون بالتشكيك والتآمر وتكذيب الأخبار الواردة من بدر. فلما بعث الرسول ﷺ «عبدالله بن رواحة وزيد بن حارثة» بشيرين بالنصر لأهل المدينة وسمع اليهود أخبار النصر من هؤلاء أصابهم الحقد والبغي والحسد وظهرت عداوتهم مكشوفة من أقوالهم بتكذيب البشيرين وكان مما قالوه: «ان محمدا قد قتل وأصحابه قد هزموا، وهذه ناقته نعرفها جميعا «وكان يمتطيها زيد بن حارثة» ولو كان محمد حيا لبقيت راحلته عنده، وانما يقول هذان ما يقولان هذيانا من الفزع والرعب، ولئن كان ما يقولانه حقا لبطن الأرض

---

(١) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٤.

خير من ظهرهـا، بعـد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن». ولم يكتفـوا بهـذه الأقوال بل سافر كعب بن الأشرف الى مكة ينشد الأشعار ويشبب بنساء المسلمين ويرثي قتلى بدر من المشركين[1].

لقد دلت نتائج معركة بدر على حقيقة غفل عن ذكرها بعض المؤرخين، وهي ان اليهـود كانـوا يأملون بخضـد شوكـة المسلمين بسيوف الكفـار من العـرب في الوقت المناسب، ولما يئس اليهود من كل محاولاتهم لاخضاع الرسول وجماعته لأهدافهم لجأوا الى الاتصال بالمنافقين والكفار من القبائل العربية، وكانوا يتصورون ان أمر القضاء على الحركة الاسلامية سهل يسير.

إن اتصال اليهود بالفئات المعادية للرسول اعتبر نقضا للمعاهدات والمواثيق التي عقدها الرسول مع البطون اليهودية. وتذكر معظم المصادر الاسلامية هذه المواثيق وترى ان نقض اليهود لها كان السبب في اعلان الرسول الحرب عليهم[2].

واذا اعتبـرنـا معركة بدر بداية الصراع المسلح بين المسلمين والوثنية في جزيرة العـرب، فان اليهـود اعتبروها ايذانا بالقضاء عليهم وعلى كيانهم المادي والمعنوي، ولذلك وقفوا في صف الوثنية علنا. وأدرك الرسول بأن قريشا ستجمع كل قواها للأخذ بثار بدر، وأن عليه أن يستعد للمواجهة مع قريش في أقرب فرصة. وأول واجباته في هذا الاستعداد، هو تطهير جبهته الداخلية حتى لا تطعن من الخلف. فبدأ الحرب مع اليهود الذين يعيشون داخل المدينة بين المسلمين لحماية مؤخرته في حالة القتال مع قريش.

---

(١) انظر ابن هشام ، السيرة، جـ١ ص٦٤٢. الواقدي: المغازي جـ١ ص١٢٢. ابن سعد: الطبقات «دار صادر ودار بيروت» جـ٢ ص٣٢.

(٢) انـظر ابن هشـام: السيـرة جـ٢ ص٤٧، والـواقدي: المغازي: جـ١ ص١٧٦ وما بعدها، وابن سعد: الطبقات، جـ٢ ص٢٩ والطبري: تاريخ جـ٢ ص٤٧٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٢ ص٩٠، والديار بكري: الخميس فـي احوال أنفس نفيس جـ١ ص٤٠٨، وابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد «المطبعة المصرية ومكتبتها» جـ٢ ص٩١، وابن سيد الناس: عيون لأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف: مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٦هـ، جـ١ ص٢٩٤، ومحمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي: شرح المواهب اللدنية، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٥هـ جـ١ ص٤٥٦، وشمس الدين محمد بن يوسف بن علي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، مخطوط سبق ذكره، جـ٤ «الباب الثاني عشر ـ المخطوط غير مرقم».

★ غزوة بني قينقاع :

كان بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة بين أحياء المسلمين، وهم أول يهود نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ بالموادعة وحاربوا بين بدر وأحد[1]. وأعلنوا حقدهم وحسدهم للمسلمين بعد بدر. ولم يكتفوا بذلك بل اعتدوا على شرف امرأة مسلمة في سوقهم، كانت قد حضرت لبيع سلعة لها، وبينما كانت تجلس الى صائغ يهودي جعلوا يراودونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ اليهودي الى ثوبها فعقده الى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فصاحت المرأة مستنجدة، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله فاجتمع اليهود على الرجل المسلم وقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[2].

وقبل ان يعلن الرسول الحرب على بني قينقاع دعاهم الى اجتماع في سوقهم وخاطبهم قائلا: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم اني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم» وما كان منهم الا ان قالوا: يا محمد إنك ترى انا قومك! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»[3]. أدرك الرسول بعد مقالتهم هذه ان القوم قد أطاشهم الغرور وان النصيحة لا تجدي في هدايتهم، وأنهم لا يبتغون الا الفتنة، وأنهم أصبحوا خطرا عليه وعلى دعوته، وتبين للرسول ان اليهود أصبحوا عيونا ينقلون أخباره الى قريش التي تستعد لحرب محمد وأصحابه. ولذلك كانت تحركات المسلمين في غاية السرية، سيما تحركاتهم الحربية خوفا من تسرب أنباء هذه التحركات الى قريش بواسطة اليهود[4].

---

(١) انظر ابن سعد: الطبقات جـ٢، ص٢٩، والطبري: تاريخ جـ٢ ص٤٧٩، وابن علي الشامي: المخطوط السابق، ونفس الباب.

(٢) انظر المراجع السابقة والصفحات.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ٢ ص٤٧، انظر كذلك ابن علي الشامي، سبل الهدى والرشاد، جـ٤ «الباب الثاني عشر».

(٤) ومثالا على ذلك سرية عبدالله بن جحش الى نخله ـ بين مكة والطائف ـ التي كانت مهمتها التعرف على أخبار قريش، فقد كتب الرسول لقائد هذه السرية كتابا وطلب اليه ان لا يفتحه الا بعد مسيرة يومين، كما طلب اليه ان يتجه بسريته شرقا بدلا من الاتجاه جنوبا وذلك امعاناً في السرية.
أنظر ابن هشام: السيرة، جـ١ ص٦٠١، والواقدي: المغازي؛ جـ١ ص١٣.
ابن سعد: الطبقات جـ٢ ص١٠، والطبري: تاريخ جـ٢ ص٤١٠.

وهكـذا نجـد ان العلاقات بين اليهود والمسلمين كانت تسير نحو الحرب سواء حدثت معركة بدر أم لم تحدث، وقد بدأ اليهود هذه الحرب بإعلان أهدافهم وتحالفهم مع الأعداء وعدم تقيدهم بالعهود والمواثيق. وليس صحيحا ما قيل ان سبب العداء بين المسلمين واليهود هو دعوة الرسول لهم للدخول في الاسلام، لأن المواثيق اليهودية التي كتبها الرسول لهم اعترفت لهم بالحرية الدينية كما ان الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لا اكراه في الدين﴾ وقد ذكرنا من قبل ان العاطفة الدينية لم تكن قوية عند يهود الحجاز لدرجة كافية لاشهار الحرب حفاظا عليها[1]، وكان أجدر باليهود ان يعملوا على دعوة القبائل الوثنية للدخول في دينهم. ولم تذكر المصادر التاريخية اي حوادث تدل على ان اليهود لديهم الاستعداد للتضحية في سبيل نشر عقيدتهم الدينية في شمال الحجاز. وقد ظل اليهود يستغلون الدين استغلالا سيئا طيلة تاريخهم ابتداء من خروجهم من مصر وانتهاء بقيام الدولة اليهودية في فلسطين في العصر الحديث. ويتجلى الاستغلال الديني بأبشع صورة في سياسـة الـدولة اليهودية، فقد ادعت الحركة الصهيونية منذ قيامها بما يعرف بالحقوق الدينية للشعب اليهودي، ولما قامت الدولة تبين ان زعماءها لا يعترفون بأي دين. وفي ما تقدم رد على أولئك الذين حاولوا ان يصوروا للناس ان الحرب التي وقعت بين المسلمين واليهـود انمـا هي بسبب العصبية الدينية عند الرسول ﷺ[2]. فقد قال ولفنسون في هذا الصدد: «ولو وقفت تعاليم الرسول عند محاربته للديانة الوثنية فحسب ولـم يكلف اليهود ان يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطم الأصنام ويقضي على العقائد الوثنية لكن بشرط ان لا يتعرض لهم ولا لدينهم وبشرط ان لا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة، لان العقلية اليهودية لا تلين امام شيء يزحزحها عن دينها وتأبى ان تعترف بانه يوجد نبي من غير بني اسرائيل، بل يعتقدون عقيدة راسخـة انه بعد ان ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد انقضى بعث الرسل وظهور الانبياء سواء كانوا من بني اسرائيل أو من غيرهم»[3]. ويضيف ولفنسون، أن هذه العقيدة يجب أن لا تغـرب عن الاذهان لانها أساس كل ما حدث بين اليهود

(١) انظر ص ١٥٠ من هذا البحث.
(٢) انظر كتابات المستشرقين أمثال بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، الترجمة العربية ص٤٧، وفلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العش، ص٢٣.
(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص١٢٢.

والرسول من خلاف ونزاع ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف[1].

ويتضح من كلام ولفنسون بانه يصف الرسول ﷺ بالتعصب بطريقة ماكرة، ويتجاهل فشل اليهود في اقامة علاقات سلمية مع أي شعب جاورهم أو عايشهم، ففي يثرب نفسها اقتتل العرب واليهود كما اقتتل اليهود انفسهم ولم يطلب اليهم تغيير دينهم، وهذا كله يؤيد ما ذهبنا اليه[2] من أن الأسباب الاقتصادية والتعصب القومي وحب الاستعلاء هي الأسباب الحقيقة في خلافهم مع المسلمين.

وذهب أرنولد توينبي الى أبعد مما سبق بقوله: « إن الشعب اليهودي بعد ان اهتدى الى التوحيد سمح لنفسه ان تفتنه هذه الحقيقة، فترك اليهود لانفسهم العنان لتفتنهم حقيقة ناقصة، نسبية وموقوتة، ومدار تلك الحقيقة اعتبارهم السمو الروحي الذي بلغوه امتيازا خلعه الرب عليهم وحدهم بموجب عهد أبدي يجعل منهم «شعب الله المختار»، وهكذا أضلتهم الحقيقة الناقصة فأردتهم في خطأ مميت»[3].

وهكذا أوجس الرسول خيفة من وجود اليهود أعداء بين ظهرانية فبعد ان ان قطعوا كل صلة حسنة مع المسلمين فأنزل الله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾[4].

كان بنو قينقاع قد ذهب بهم الغرور الى درجة الظن بانهم قادرون على هزيمة المسلمين كما يتضح من مقولتهم السابقة للرسول. وربما كان اليهود يعتمدون في غرورهم هذا على نصرة جماعة المنافقين في المدينة بزعامة عبدالله بن أبيّ بن سلول وباقي الطوائف اليهودية الموجودة فيها، لأنه لا يعقل ان لا يعرف اليهود قوة المسلمين الحقيقية وهم يعيشون معهم في مدينة واحدة، كما لم يمض وقت طويل على هزيمة قريش في بدر من قبل هؤلاء المسلمين. ومهما يكن فقد تكفل الله تعالى بالرد عليهم بقوله: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية

(١) المرجع السابق والصفحة.
(٢) انظر ص١٥٨ من هذا البحث.
(٣) مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، مراجعة محمد شفيق غربال، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط١ ١٩٦٦م، جـ١ ص٥٩.
(٤) سورة الانفال، آية، ٥٨، إنظر كذلك تفسير الطبري، جـ١ ص١٩ وتفسير الرازي: جـ١٥ ص٨٢ بشأن تفسير الآية السابقة.

في فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾[١].

سار الرسول ﷺ على رأس جماعة من المسلمين لحصار بني قينقاع في بيوتهم حتى ينزلوا على حكمه، وبعد حصار استمر خمسة عشر يوما، وافق اليهود على النزول على حكم رسول الله يفعل بهم ما يشاء. فكتفوا تمهيدا لقتل المحاربين منهم، فقام عبدالله بن ابيّ وقال للرسول: يا محمد أحسن في موالي، فأبطأ عليه النبي ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه النبي ﷺ، فأدخل يده في جيب رسول الله ﷺ، فغضب - عليه الصلاة والسلام - حتى رأوا لوجهه ظللا وقال له: أرسلني ويحك، فقال ابن أبيّ لا والله لا أرسلك حتى تحسّن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأسود والأحمر تحصدهم في غداة واحدة، إني امرؤ أخشى الدوائر، فقال ﷺ هم لك على ان يخرجوا من المدينة ولا يجاوروننا بها»[٢]. وقد حاول ابن أبيّ أن يبقيهم في المدينة وذلك بالسعي لدى رسول الله ﷺ، الا أن بعض الصحابة ممن كانوا يقفون على باب الرسول منعوه من الدخول اليه وأدموا وجهه، ولما رأى بنو قينقاع ما أصاب صاحبهم خافوا وقالوا: «والله لا نقيم في بلد تشج فيه يا ابن أبيّ ولا نستطيع عنك دفاعا»[٣].

وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج وزعيما الخزرج يومذاك هما سعد بن عبادة وعبدالله بن أبيّ بن سلول، اما الأول فقد أسلم وحسن اسلامه، ولما شاهد ما يفعله مواليه ذهب الى الرسول وتبرأ منهم، وأما ابن أبي فكان مخلصا لهم ومخلصون اليه فهو رأس المنافقين في المدينة. لم يجرؤ عبدالله بن أبي على نصرة حلفائه يهود بني قينقاع خوفا من مواجهة جميع القبائل العربية في المدينة وبخاصة قبيلته الخزرج التي اعتنق معظم أفرادها الاسلام. ولذلك أراد أن يدفع اليهود لعلهم يستطيعون القضاء على الرسول ودعوته، متظاهرا بأنه إلى جانبهم، وأما بقية البطون اليهودية في المدينة فلم تساعد بني قينقاع في حربهم بسبب علاقات هذه الجماعات اليهودية مع كل من المسلمين واليهود من جهة ولان هذه البطون ربما رأت ان الحق مع محمد ﷺ في حربهم بعد نقضهم

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٢، ١٣. انظر كذلك تفسير الرازي جـ٧ ص٢٠٢.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٤٨، والطبري، تاريخ جـ٢ ص٤٨٠.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص ٤٨.

للعهـود والمـواثيق من جهة ثانية. فقبيلتا النضير وقريظة اليهوديتان ـ وهما أكبر القبائل اليهودية ـ كانتا في نزاع شديد مع بني قينقاع، ولهم عند بعضهم ثارات دموية من قبل يوم بعاث، وزادها يوم بعاث شدة واستعارا. كما ان هذه القبائل كانت ترتبط مع الأوس بعهود ومواثيق ليس من السهل عليها نقضها، وكان معظم الأوس قد اعتنق الاسلام ومنهم عدد كبير كان في حصار بني قينقاع. وأما بقية اليهود في المدينة فكانوا مجموعة من البطون الصغيرة التي يعتقـد بانهـا قبـائـل عربية متهودة ارتبطت مع القبائل العربية من الأوس والخـزرج بأحـلاف، علاوة على ان شعـورهـا القومي أضعف صلتها بالقبائل اليهودية الكبيرة، ومن هنا ندرك ان بني قينقاع لم يكن امامهم الا فرصة الاستسلام والنزول على حكم الرسول، على الرغم من أنهم كانوا أشجع اليهود وأكثرهم ثراء لاشتغالهم بالصياغة والمجوهرات.

ومن الجدير بالذكر ان بعض الباحثين اعتبروا ان ثروة بني قينقاع هي التي جلبت عليهم حرب محمد، أي أن الرسول أعلن الحرب عليهم طمعا في ثروتهم لاستعمالها في تخفيف الضـائقة الاقتصادية التي كان يعاني منها المسلمون وبخاصة المهاجرون الـذين كانـوا في حالة من الفقر تبعث على الشفقة «على زعمهم»[1]. وهذه الفرية لا أسـاس لها من الصحة، سيما وان غنائم بدر قد وسعت على المسلمين وأنقذتهم من الضائقة التي يتحدث عنها هؤلاء.

أمر الرسول ﷺ باخراج بني قينقاع من المدينة، فخرجوا يحملون أمتعتهم على جمـالهم الى وادي القـرى، فأقـامـوا فيهـا زمنا ثم انتقلوا كلهم أو معظمهم الى بلاد الشام[2]، ولم تذكر المصادر التاريخية شيئا عن اخبارهم بعد ذلك، والراجح انهم تفرقوا في بلاد الشام والعراق.

وقد غنم المسلمون ما تبقى من أموال بني قينقاع وأخذ الرسول ثلاث قسي ودرعين وثـلاثـة أسياف وثلاثة رماح، ووجدوا في بيوتهم سلاحا كثيرا وآلات صياغة، وخمّس الـرسول ما أصاب منهم وقسم ما بقي على أصحابه[3]. وكان هذا أول خمس خمّسه

---

(١) انـظر فلهاوزن، المرجع السابق، ترجمة يوسف العش، ص٢٢، ودر منقم، حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، ص٢٣٩. وولفنسون، المرجع السابق، ص١٢٨.

(٢) انظر المقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ص ١٠٥.

(٣) انظر ابن سعد: الطبقات جـ٢ ص٢٩.

لرسول في الاسلام[1]. واستخلف رسول الله ﷺ في غزوة بني قينقاع على المدينة أبا بابة بن عبد المنذر وحمل لواءه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، وكان أبيض ولم كن الرايات يومئذ[2].

وفي ختام حديثنا عن غزوة بني قينقاع يجدر بنا ان نشير الى الملاحظتين لتاليتين:

لأولى: إن اجلاء بني قينقاع من داخل المدينة يدل على تصرف سياسي آية في الدلالة على الحكمة وبعد النظر[3]. وهذه الخطوة لا بد منها للتمكن من مواجهة الأعداء خارج المدينة، وهذا الاسلوب ما زال متبعا في الحروب الى يومنا هذا، وهو ما يدعى «بتأمين الجبهة الداخلية» وسيبقى متبعا الى ما شاء الله.

الثانية: استعمل الرسول ﷺ في حربهم خطة عسكرية في غاية الاحكام، وهذه الخطة تقوم على محاصرتهم في دورهم، ووجد الرسول ان هذه الخطة كفيلة بتحقيق النتائج التي يريدها وهي استسلامهم دون خسائر تذكر. وقد بنى الرسول ﷺ خطته على اعتبارين اثنين هما:

١ - إن بني قينقاع يعيشون مما يصوغونه من حلي ومصنوعات أخرى، وبذلك فهم يعتمدون على غيرهم في تأمين الطعام اللازم والحصار كفيل بقطع الطعام عنهم، فهم والحالة هذه لا يستطيعون المقاومة طويلا.

٢ - أدى الحصار الى إضعاف روحهم المعنوية فقد أصبحوا محصورين من جميع الجهات لا يخف لنجدتهم يهودي أو منافق، وفي مثل هذا الجو تنتشر الاشاعات والمخاوف عما سيحل بهم، فساد بينهم جو من الفزع والرهبة أدى الى استسلامهم. وهكذا اضاف المسلمون نجاحا آخر الى نجاحهم في بدر وكان لهذا الانتصار أثره على المنافقين وبقية اليهود في المدينة، فقد خفت صوت المنافقين

(١) انظر الطبري: تاريخ جـ٢ ص٤٨١.
(٢) انظر المقريزي: إمتاع الاسماع جـ١ ص١٠٥.
(٣) انظر محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص٢٨١.

وقل عددهم، كما أصيب بقية اليهود من قريظة والنضير بالرعب والخوف. وبالنسبة للمسلمين دخل في الاسلام اناس جدد وقويت هيبة المسلمين داخل المدينة وخارجها، وازداد المسلمون منعة بما غنموه من أموال بني قينقاع وأصبحت لديهم القوة المادية والبشرية الكافية للقيام بحروب أكبر اذا تطلب الامر ذلك.

★ موقف اليهود بعد جلاء بني قينقاع :

ازداد المسلمون تمسكا بدينهم بعد هذه النجاحات التي أحرزوها في بدر وفي المدينة، فأصبحوا أكثر استعدادا للتضحية في سبيل ما يؤمنون به، ولذلك ما ان ارتفع صوت عصماء بنت مروان «من بني أمية» بالشعر تؤذي به الرسول ﷺ وتعيب الاسلام، وتحرض على المسلمين حتى سارع اليها عمير بن عدي ـ وهو من المسلمين من بني خطمة وخطمة هي قبيلة زوج عصماء ـ ودخل عليها ليلا ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها[1]. ولقي أبي عفك اليهودي نفس المصير على يد سالم بن عمير بن ثابت، اذ دخل عليه في ليلة صائفة فناء داره، حيث كان ينام أبي عفك، فأقبل سالم ووضع السيف على كبده حتى قتله[2]. وقد وجد المسلمون ان من الأفضل لهم ان يتخلصوا من اعدائهم في الداخل قبل ان تحين ساعة المواجهة مع قريش التي وصلت اخبار استعداداتها للثأر الى المدينة. ولمس المسلمون استعداد اليهود لمساعدة قريش، وقد نزل ابو سفيان وجماعته في غزوة السويق على سلام بن مشكم سيد بني النضير، وقدم هذا اليه الطعام والشراب، كما زوده باخبار المسلمين. وهذه الحادثة ربما تشير الى صلة قديمة بين يهود المدينة وكفار قريش وتآمرهم على المسلمين، اذ لا يعقل ان يخاطر ابو سفيان بنفسه وبمائتي راكب من قريش معه، ويدخل بهم المدينة دون علم بمساعدة اليهود له، وكتمانهم أمره حتى يوقع الأذى بالمسلمين، فقد قتل ابو سفيان احد الأنصار وحليفا له ثم انصرفوا منهزمين ليلا[3].

---

(١) انظر المقريزي: إمتاع الاسماع: جـ١ ص١٠٢.
(٢) انظر المرجع السابق جـ١ ص١٠٣ «تذكر بعض المصادر التاريخية أن أبا عفك، هو عربي من بني عمرو بن عوف وتصفه بعضها بأنه يهودي، ولعله يهودي من اليهود الموالين لقبيلة بني عوف الخزرجية وقد اختلف في تفسير ايهما قتل أولا عصماء أم أبو عفك؟» انظر ابن سعد: الطبقات جـ٢ ص٢٧، ٢٨، والديا بكري، الخميس في أحوال أنفس نفيس، جـ١ ص٤٠٦-٤١٢، والسمهودي: وفاء الوفاء جـ١ ص٢٧٦-٢٧٧.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٤٤، الواقدي: المغازي جـ١ ص١٨١. ابن سعد: الطبقات، جـ٢

★ مقتل كعب بن الأشرف :

وهو من طيء وأمه من بني النضير من اليهود، وكان ميالا لاخواله اكثر من أهله واعتبر من اليهود، كما يستفاد من أكثر الروايات التي تعرضت له. وكان ابن الأشرف شاعرا سخر شعره للطعن بالرسول وجماعة المسلمين وهو الذي قال حين علم بمقتل سادات مكة يوم بدر «هؤلاء اشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها، هؤلاء سراة الناس قد قتلوا وأسروا. وخاطب قومه قائلا فما عندكم؟ قالوا عداوته «أي النبي ﷺ» ما حيينا»[1]. وخرج من المدينة الى مكة ليحرض على محمد وينشد الاشعار ويبكي اصحاب القليب[2]، وهو الذي رجع بعد ذلك الى المدينة وجعل يشبب بنساء المسلمين، وقد ندب الرسول حسان بن ثابت للرد عليه وهجاء من ينزل عليه من كفار مكة، فلا يزال يهجوهم حتى نبذ رحله، فلما لم يجد مأوى عاد الى المدينة ينهش أعراض المسلمين بشعره. وجاء في شرح المواهب اللدنية: «ان ابن الاشرف كان طويلا جسيما ذا بطن وهامة، شاعرا مجيدا، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله فكان يعطي احبار اليهود ويصلهم، فلما قدم النبي ﷺ المدينة جاءه احبار اليهود من بني قينقاع وبني قريظة لاخذ صلته على عادته فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل؟ قالوا: هو الذي كنا ننتظر ما أنكرنا من نعوته شيئا، فقال لهم: قد حرمتم كثيرا من الخير، ارجعوا الى أهليكم فان الحقوق في مالي كثيرة، فرجعوا عنه خائبين، ثم رجعوا اليه فقالوا له: انا تعجلنا فيما أخبرناك به أولا، ولما استوثقنا علمنا أننا أخطأنا وليس هو النبي المنتظر، فرضي عنهم ووصلهم، وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئا من ماله...»[3].

وهذه الرواية تدل على شدة بغضه وعداوته للمسلمين، وكما هو واضح فان سبب هذا العداء يرجع الى مكانة ابن الاشرف في قومه وخوفه على ماله، فهو في موقفه هذا حريص على الجاه والثروة وهي امور يحاربها الاسلام. وقد نصح الناصحون كعب بن الاشرف ان يكف عن أذاه ويؤوب الى رشده ويتعض بما سمعه ورآه، ولكنه تمادى في طغيانه وغدره وأبى أن ينزع عن كيده وفجوره، فأهدر النبي ﷺ دمه[4].

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة «طبعة حجازي» جـ٢ ص٤٣١، والواقدي: المغازي جـ١ ص١٨٥.
(٢) القليب: بئر قديمة القى المسلمون فيها قتلى المشركين في بدر.
(٣) الزرقاني: جـ٢ ص٨.
(٤) انظر محمد سيد طنطاوي: بنو اسرائيل في القرآن والسنة جـ١ ص٣٤٩.

جاء في بعض الاحـاديث: «حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيان، قال عمرو سمعت جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما يقول: «قال رسول ﷺ: من لكعب بن الأشرف فإنـه قد آذى الله ورسوله؟ فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله اتحب ان اقتله؟ قال: نعم قال فاذن لي ان اقـول شيئاً؟ قال: قل فأتاه محمد بن مسلمة، فقال ان هذا الرجل قد سألنـاه صدقة، وأنه قد عنّانا، وإني اتيتك استسلفك، قال وأيضاً والله لتملّنه، قال إنا قد اتبعناه فلا نحب ان ندعه حتى ننظر الى أي شيء يصير شأنه، وقد اردنا ان تسلفنا وسقا او وسقين، وحـدثنا عمرو غير مرة فلم يذكر وسقا أو وسقين، أو فقلت له فيه وسقا أو وسقين[1]، فقال نعم ارهنوني، قالوا أي شيء تريد؟ قال ارهنوني نساءكم، قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال فارهنوني ابناءكم، قالوا كيف نرهنك ابناءنا فيسب احدهم، فيقال رهن بوسق او وسقين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة، قال سفيان: يعني السلاح، فواعده ان يأتيه فجاءه ليلا ومعه ابو نائلة، وهو اخو كعب من الرضاعة، فدعاهم الى الحصن، فنزل اليهم فقالت له امرأته: اين تخرج هذه الساعة؟ فقال انما هو محمد بن مسلمة وأخي ابو نائلة، وقال غير عمرو، قالت اسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم، قال: إنما هو اخي محمد بن مسلمة، ورضيعي ابو نائلة، إن الكريم لو دعي الى طعنة بليل لأجاب، قال ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلان قيل سماهم عمرو؟ قال سمى بعضهم، قال عمـرو: جاء معـه برجلين، وقـال غير عمـرو، أبو عيسى بن جبر والحارث بن اوس وعباد بن بشر، قال عمرو: جاء معه برجلين، فقال إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، وقال مرة ثم أشِمُّكم فنزل إليهم متوشحا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال ما رأيت كاليوم ريحا، اي اطيب، وقال غير عمرو: قال عندي اعطر نساء العرب وأكمل العرب، قال عمرو: فقال اتأذن لي أن أشـم رأسـك؟ قال نعم، فشمه ثم شم اصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال نعم، فلما استمكن منه، قال دونكم فقتلوه، ثم اتوا النبي ﷺ فأخبروه»[2].

وقـد وردت قصـة مقتل ابن الأشـرف بروايات مختلفـة في التفاصيل متفقة في الهـدف، كلها تقول بانتداب محمد بن مسلمة وجماعته من المسلميـن لقتله فقتلوه احتيالا، كما سبق.

---

(١) الوسق: بفتح أو كسر ثم سكون، ستون صاعا، انظر صحيح البخاري جـ٥ ص٧٦ «الهامش».
(٢) صحيح البخاري، جـ٥ ص٧٦-٧٧، وصحيح مسلم جـ٥ ص١٨٤.

وقد دفعت هذه الطريقة في قتل ابن الأشرف بعض المستشرقين ومن في قلوبهم مرض الى القول: ان مقتل ابن الاشرف كان غدرا وغيلة وخيانة.

وقد دفع هذه التهمة جماعة من علماء المسلمين بقولهم: «أولا: كعب بن الأشرف كان قد عاهد النبي ﷺ على ان لا يعين عليه احدا ولكنه نقض العهد، فقد رحل الى قريش بعد بدر ورثى قتلاهم وحرضهم على قتال النبي ﷺ وفضّل دين الجاهلية على دين الاسلام، وجاهر بعداواته للمسلمين.

وجاءت أحاديث متعددة تفيد ان الرسول ﷺ ما اذن في قتل ابن الاشرف الا بعد ان نقض العهد وامعن في ايذاء المسلمين، ومن هذه الاحاديث ما رواه ابن ابي اويس عن ابراهيم بن جعفر بن محمد بن مسلمة عن ابيه عن جابر بن عبدالله ان كعب بن الأشرف عاهد رسول الله ﷺ الا يعين عليه ولا يقاتله ثم نقض عهده ولحق بمكة، ثم قدم المدينة معلنا معاداة النبي ﷺ وكان اول هجائه للنبي ﷺ فندب له الرسول من قتله[1].

وقد جاء اليهود الى رسول الله ﷺ بعد قتل كعب بن الاشرف فقالوا له يا محمد: قد طرق - اي قتل - صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا، قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه، فقال رسول الله ﷺ وسلم، انه لو قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ولكنه آذانا وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا احد منكم إلا كان للسيف»[2].

ثانيا: كعب بن الأشرف بإيذائه للنبي ﷺ وهجائه له، اصبح مهدر الدم ولا يعصم دمه بأمان ولا عهد.

وقد عقد الأمام ابن تيمية - رحمه الله - فصلا ضافيا لتحقيق هذه المسألة فقال ما ملخصه: «الحديث الثالث ما احتج الشافعي على ان الذمي إذا سب الرسول ﷺ قتل وبرئت منه الذمة، وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي»[3] وقد رويت أحاديث عدة كلها تفيد قتل الذمي إذا سبّ الرسول او قصد إيقاع الأذى به[4].

---

(١) انظر ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، دار الفكر - بيروت ص٧١.

(٢) المرجع السابق والصفحة. انظر كذلك القاضي عياض بن يوسف اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى - الباب الثاني في حكم ساب الرسول وشاتمه، مخطوط رقم ٢٥٠/٤٠، خزانة القرويين - فاس - المغرب.

(٣) ذكر ابن تيمية قبل ذلك حديثين استدل بهما على ان من سب الرسول ﷺ يقتل وهذا هو الحديث الثالث. انظر المرجع السابق ص ٧١ وما بعدها.

(٤) انظر القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، المرجع السابق، الباب الثاني في حكم ساب=

وقد بعث قتل ابن الأشرف الذعر في قلوب اليهود والمنافقين ويظهر هذا في قول محمد بن مسلمة معلقا على قتله لكعب: «. . . فأصبحنا وقد خافت اليهود لوقعتنا بعدوّ الله، فليس بها - اي المدينة - يهودي إلا وهو يخاف على نفسه»(١) وروي عن الرسول ﷺ قوله بعد مقتل ابن الأشرف: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه فوثب محيصه بن مسعـود على ابن سنينه وهو من تجاراليهود وقتله. فغضب حويصة وقام يضربه ويقول: أي عدو الله، أقتلته، أما والله لرب شحم في بطنك من ماله، فرد عليه محيصة قائلا: والله لقد امرني بقتله من لو امرني بقتلك لضربت عنقك . . . فقال حويصة: والله إن دينا بلغ بك هذا لعجب! فأسلم حويصة»(٢).

ومن هذه القصة ندرك ان المسلمين كانوا في حالة حرب مع اليهود بين بدر وأحد وأن الرسول اراد ان يقضي على شوكة اليهود ويجعلهم في حال لا يستطيعون معها الوقوف في وجه الدعوة الاسلامية أو مناصرة قريش وأحلافها على ذلك. وقد نجح الرسول ﷺ في بعث الرعب في قلوب اليهود فقدموا إليه وطلبوا منه الأمان فدعاهم إلى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحا حتى لا يتعرضوا لما تعرض له كعب بن الأشرف، فكتبوا بذلك كتابا يعتقد بأنه كان مع علي رضي الله عنه فيما بعد(٣).

★ غزوة بني النضير:

نزل بنو النضير في شمال المدينة عند وادي بطحان او «بطحان» وقد ذكر اهل السير ان اليهود لما قدموا المدينة نزلوا السافلة فاستوخموها فأتوا العالية فنزل بنو النضير بطحان ونزلت بنو قريظة مهزورا وهما واديان يهبطان من حرة هناك تنصب منها مياه عذبة، فاتخذ بها بنو النضير الحدائق والآطام واقاموا بها الى ان غزاهم النبي ﷺ(٤). وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين او ثلاثة وكانت لهم مزارع النخيل والآطام والحصون التي لا زالت بعض آثارها باقية.

=الرسول وشاتمه، وابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص ٧١ وما بعدها.
(١) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٥٧.
(٢) انظر ابن هشام المصدر السابق جـ٢ ص٥٨.
(٣) انظر ابن سعد، الطبقات جـ٢ ص٣٤.
(٤) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ٢ ص٢١٦.

★ تاريخ الغزوة:

ذكرها بعضهم في السنة الثالثة الهجرية قبل احد، وقال الزهري: كانت على رأس ستة اشهر من وقعة بدر قبل احد، وذكرها ابن إسحاق والطبري وابن سعد والواقدي في السنة الرابعة الهجرية بعد معركة احد[1]. وأنا أميل إلى أنها حدثت بعد أحد لاتساق الحوادث التاريخية الدالة عليها.

★ أسباب الغزوة:

تعود اسباب هذه الغزوة الى طبيعة الاحوال التي سادت منطقة الحجاز بين بدر واحد، ففي هذه الفترة اتضح أن الصراع بين محمد وقريش صراع حياة أو موت فحاول كل طرف أن يحشد ما يمكنه من امكانيات وان يتخذ ما يستطيعه من اجراءات تضمن له النصر على خصمه. ولذلك سادت الروح الحربية منطقة الحجاز كلها، وتأثر سكان هذه المنطقة بريح الحرب التي تهب من مكة والمدينة، فقد وجد الرسول ﷺ نفسه ملزما بتأمين قاعدته «المدينة» سليمة وقوية لا ثغرة ضعف فيها، كما تحركت سراياه على طول طريق قريش التجارية الساحلية من مكة الى فلسطين وقد حققت هذه الغزوات هدفين، اولهما تأمين مواصلات المدينة مع الشمال ومنع تهديد القبائل العربية من هذه الجهة وذلك بردع هذه القبائل او بعقد تحالفات معها، وثانيهما حصار قريش حصارا اقتصاديا بتهديد هذا الطريق الحيوي حتى تضطر قريش للخضوع لأهدافه.

وهناك رواية يقول صاحبها بأنها صحيحة الأسناد في سبب غزوة بني النضير ومجملها ان كفار قريش توعّدوا كفار المدينة ومنافقيها إن لم يقاتلوا محمدا ويخرجوه من المدينة، ولما بلغ الرسول ﷺ ذلك، خاطب الكفار والمنافقين الذين اجتمعوا على كيده، وذكّرهم بأنهم إنما يقاتلون أبناءهم وإخوانهم، فتفرق هؤلاء وانصرفوا عن مكيدتهم. ولما علمت قريش بذلك كاتبت اليهود بعد بدر وحرضتهم على محمد واصحابه وتوعدتهم بالقتل وسبي النساء ان لم يقاتلوا محمدا . . . وأجمعت بنو النضير على غدر محمد ﷺ[2].

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص١٩٠. الواقدي، المغازي: جـ١ ص٣٦٣. ابن سعد، الطبقات جـ٢ ص٥٧، وصحيح البخاري جـ٥ ص٧٤. الطبري: تاريخ، حـ٢ ص٥٥٠، والسمهودي وفاء الوفاء جـ٣ ص٢٩٧.

(٢) ابن علي الشامي، سبل الهدى والرشاد، مخطوط سبق ذكره، جـ٤ «الباب الثاني عشر».

وفي مجال عمله ﷺ على تأمين قاعدته الأمينة «المدينة» عقد التحالفات والمعاهدات مع القبائل اليهودية لضمان وحدة هذه القاعدة، وتأكيدا لاحترامه للكيان اليهودي فيها.

وبعد بدر كشف اليهود من بني النضير عن نياتهم الحقيقية واظهروا حقدهم وبغيهم وحسدهم لانتصار المسلمين. وقام كعب بن الأشرف الذي كان ينتمي لبني النضير بما قام به. ونقض بنو النضير عهودهم مع الرسول مرة ثانية عندما آوى زعيمهم سلام بن مشكم، أبا سفيان بن حرب في غزوة السويق[1] وارشده الى مواطن ضعف المسلمين.

ونقض ثالث لهذه المواثيق تظاهر به اليهود عندما كان المسلمون يتجهزون ليوم أحد، فلما وصلت انباء استعدادات قريش لهذه المعركة ارجف اليهود واظهروا غايتهم[2]، ونشطوا في اتصالاتهم مع المنافقين وعلى رأسهم عبدالله بن أبيّ بن سلول. والمعروف ان ابن سلول كان حليفا لبني قينقاع بينما كان بنو النضير وبنو قريظة حلفاء للأوس وكان بين الطرفين ثارات ودماء فتجاوز يهود بني النضير هذه الثارات وهذه الدماء واحسنوا علاقاتهم مع ابن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين، كل ذلك عداء للمسلمين واستعدادا لحربهم. وقد رفضوا الاشتراك مع المسلمين في معركة احد سواء بسلاحهم او بأموالهم او برجالهم، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك في نقضهم للعهد، فقد انضموا الى عبدالله بن أبيّ وشكلوا جيشا مستقلا عن جيش المسلمين وتظاهروا بالخروج مع المسلمين فلما كانوا في ثلث الطريق رجعوا حتى يثيروا الشك في صفوف المسلمين ويبعثوا في نفوسهم الخوف. وكان المسلمون قد انقسموا في رأيهم حول البقاء في المدينة او الخروج لملاقاة العدو خارجها إلى قسمين، وكان رأي ابن ابي التحرز بالمدينة وعدم الخروج وهذا هو رأي الرسول ﷺ. غير ان رأي الرسول ﷺ كان اجتهادا ورأي ابن ابي سلول كان مخالفة للجماعة.

وجد الرسول ان بني النضير لا يختلفون في موقفهم عن باقي القبائل الحربية المعادية التي كانت تتجمع لغزو المدينة بعد احد، فأراد أن يطبق عليهم نفس سياسة

---

(١) أغار أبو سفيان بعد بدر على المدينة ونزل على سلام بن مشكم الذي آواه وساعده، وقد قتل ابو سفيان بمن معه رجلا من الأنصار وحرقوا بيتين ونخيلا ثم انهزموا وفي طريق عودتهم رموا بما معهم من السويق وهو زاد المسافر من طحين الحنطة والشعير بعد تحميصه، وقد يلت باللبن والعسل والسمن، والماء، ومن أجل ذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٠٤.

(٢) انظر الواقدي: المغازي جـ١ ص٢٠٤، وابن سعد: الطبقات، جـ٢ ص٣٧.

الردع التي اتبعها تجاه هذه القبائل. ولذلك كانت غزوة بني النضير عملا وقائيا. وإذا أضفنا إلى ما سبق من أسباب الحالة التي سادت بعد انكسار المسلمين في أحد، وتعرضهم لبعض المصائب في الرجيع وبئر معونه[1]، أدركنا أن هذه الظروف كافية ليعرف المسلمون أصدقاءهم وأعداءهم، ولو لم يتربص اليهود الدوائر بالمسلمين لما غزاهم الرسول في هذه الظروف الحرجة التي توحي بأن عهد فناء المسلمين اصبح وشيكا.

وقد يتبادر الى الذهن ان اليهود لم يكونوا ملزمين بالخروج مع الرسول في يوم احد متعللين بأن الاتفاق لا يلزمهم الا بالدفاع عن المدينة وليس عليهم ان يخرجوا للقتال خارجها، غير انني اجد ان هناك بعض الدلائل التي تشير الى وجود اتفاقية مع بني النضير تلزمهم بمثل هذا الخروج، وذلك للأسباب التالية:

١ - لم يطلب الرسول من بني قريظة ان يخرجوا معه، وهم يهود يسكنون الى جوار بني النضير والاتفاقيات الموجودة بين الطرفين متساوية في الحقوق والواجبات مما يدلنا على وجود اتفاقية خاصة مع بني النضير تلزمهم بالاشتراك مع المسلمين في الحرب خارج المدينة ولا تلزم اخوانهم من بني قريظة.

٢ - خروجهم أول الأمر مع جيش المنافقين الى الثنية للاشتراك مع المسلمين في يوم أحد ثم انخذالهم ورجوعهم من ثلث الطريق. فلو لم يكن هناك اتفاق يلزمهم بالخروج لما خرجوا.

٣ - عندما خرج المسلمون من المدينة لحرب الكفار يوم احد جاء بني النضير مخيريق اليهودي وقال لهم: يا معشر يهود والله لقد علمتم ان نصر محمد عليكم لحق،

---

(١) الرجيع هو الموضع الذي غدرت فيه عضل والقارة بالنفر السبعة الذين بعثهم رسول الله ﷺ لنشر الإسلام بين هذه القبائل، وقال ابن اسحاق والواقدي الرجيع ماء لهذيل قرب الهدأة بين مكة والطائف، وقد ذكره أبو ذؤيب فقال: رأيت وأهلي بواد الرجيع من أرض قيلة برقا مليحا. . ياقوت، معجم البلدان جـ٤ ص٢٢٨-٢٢٩، بئر معونه: وهو بين أرض عامر وحرّة بني سليم، حيث غدر بنو سليم بعدد من المسلمين ممن ارسلهم الرسول مع ابي البراء ملاعب الأسنة لتفقيه اهل نجد بالإسلام. وقال حسان بن ثابت يرثي من قتل غدرا فيها:

على قتلى معونة فاستهلي بدمع العين سحا غير نُزْر
على خيل الرسول غداة لاقوا ولاقتهم مناياهم بقَدْر

ياقوت، معجم البلدان. جـ٨ ص١٠١.

قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم[1]. وقد حارب مخيريق يوم احد حتى قتـل واوصى بأمواله لمحمد وأصحابه، وهذه الحادثة تدل على انهم كانوا ملزمين بالحرب مع محمد ﷺ ولكنهم تعلّلوا بالسبت.

إن ما ذكـرنـاه سابقا لا يتعارض مع الأحاديث التي تقول بالتزام اليهود بالحرب الدفاعية مع المسلمين، وذلك لأن غزوة أحد كانت دفاعاً عن المدينة لأن قريشا وأحلافها كانت في طريقها لمهاجمة المدينة، ولولا خروج المسلمين لملاقاة عدوهم لهاجمهم الأعداء في عقر دارهم تماما كما حدث في غزوة الخندق التي سيأتي تفصيلها.

وهكذا نجد ان كل الدلائل تشير الى نقض بني النضير لعهودهم مع المسلمين وانضمامهم لجانب المشركين والمنافقين. ويذكر بعض المؤرخين قصة اعتبروها السبب المباشر لانفجار الأزمة بين يهود بني النضير والمسلمين وملخص هذه القصة ان جمعا من المسلمين قتل ببئر معونة، وسبب ذلك ان ابا براء بن عازب بن عامر بن مالـك الملقب ملاعب الأسنة، سيد بني عامر بن صعصعة قدم إلى المدينة وعرض على رسول الله ﷺ ان يبعث معـه الى قومه عددا من المسلمين الى اهل نجد للدعوة الى الاسلام، ولما اوجس الرسول خيفة من اهل نجد، قال ابو براء: انا لهم جار. فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلا وقيل اربعين فلما نزل هؤلاء بئر معونة في طريقهم الى نجد، بعثوا رسولا منهم يحمل كتابا من النبي ﷺ الى عامر ابن الطفيل، ولما اتاه لم ينظر الى الكتاب وعدا على حامله وقتله، ثم استصـرخ بني عامـر فلم يجيبوه حتى لا يخفروا ذمة ابي براء، فاستصرخ بني سليم فأجابوه وخرجوا للإحاطة بجماعة المسلمين وقتلوهم عن آخرهم الا رجلا أو رجلين من بينهم عمرو بن امية. وعاد هذا الى المدينة لأخبار الرسول بما اصاب جماعته، وفي طريقه لقي رجلين من بني عامر فقتلهما. ولما اخبر النبي بذلك قال له: لقـد قتلت قتيلين لأديهما وكان هذان الرجلان قد اخذا جوار النبي قبل انطلاقهما من المدينة، فقتلهما عمرو وهو لا يعلم بجوارهما[2].

ولما علم عامر بن الطفيل بمقتل صاحبيه وجوارهما ارسل الى النبي يطلب دية العامريين فخرج الرسول الى حلفائه من بني النضير يستعينهم في امر الدية، وكان معه

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٨٨.

(٢) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ جـ٢ ص١١١، ١١٢، والسهيلي: الروض الأنف، جـ٣ ص٢٣٨ وما بعدها.

عدد من الصحابة. وتظاهر اليهود بتلبية الطلب، وجلس ينتظر وفاءهم بما وعدوا. ولكن اليهود تآمروا على قتله في هذه اللحظة لوجوده بين عدد قليل من اصحابه، والى جانب جدار من ابنيتهم .وقالوا لبعضهم من منكم يصعد هذا الجدار ويلقي عليه صخرةيريحنا منه؟ وتطوع عمرو بن جحاش اليهودي للقيام بهذه المهمة. ولما اوشك ابن جحاش على تنفيذ مهمته أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله بما يراد به من مكيدتهم، فنهض من مكانه وعاد الى المدينة مسرعا. ولما طال انتظار الصحابة وهم يظنون ان الرسول انما ذهب لقضاء حاجة، عادوا ايضا الى المدينة فوجدوا ان الرسول قد سبقهم إليها. فأخبرهم رسول الله الخبر بما عزم عليه اليهود للغدر به وقتله[1].

ينكر ولفنسون هذه القصة ويستدل على انكاره بعدم وجود ذكرلها في سورة الحشر التي نزلت ببني النضير، ويذهب الى ان هذه الحادثة لو صحت غير كافية لأشهار الحرب على جميع بطون بني النضير لأننا نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود ان كل جرم من جهة فرد او عدة افراد يقع وزره على فاعليه، وأهل بيتهم دون ان يمس غيرهم بشيء من الأذى، ويضيف ولفنسون الى رأيه هذا قوله «والذي يظهر لكل ذي عينين ان بني النضير لو كانوا ينوون اغتياله غدرا لما كان هناك ضرورة لالقاء الصخرة عليه من فوق الحائط، بل كان باستطاعتهم ان يفاجئوه وهو يحادثهم إذ لم يكن معه غير قليل من اصحابه»[2].

وجاء في بعض الروايات ان اليهود تواعدت مع الرسول ان يلتقوا في جمع من الطرفين، من كل ثلاثة نفر ليسمعوا منه ويؤمنوا به إن صدقوه، وإنما كانوا يريدون الغدر به، فقد اشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر وارادوا الفتك برسول الله فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير الى اخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته خبر ما اراده بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل اخوها سريعا حتى ادرك رسول الله ﷺ فسارّه بخبرهم قبل ان يصل اليهم، فخرج رسول الله الى المدينة[3].

---

(١) انظر ابن هشام، **السيرة** جـ٢ ص١٩٠، والواقدي: **المغازي**: جـ١ ص٣٦٣ـ٣٦٤، وابن سعد: **الطبقات** جـ٢ ص٥٧، والبلاذري: انساب الأشراف جـ١ ص٣٣٩، **وصحيح البخاري** جـ٥ ص٧٤، والطبري، تاريخ جـ٢ ص٥٥١، وابن الأثير، الكامل جـ٢ ص١١٣.

(٢) **تاريخ اليهود في بلاد العرب** ص١٣٦ـ١٣٧.

(٣) انظر شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الشامي، **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، مخطوط سبق ذكره جـ٤ «الباب الخامس عشر: غزوة بني النضير» ـ المخطوط غير مرقم.

وإزاء ما سبق من روايات لا يسعنا استبعاد محاولة الغدر هذه سيما وان اليهود حاولوا بعد هذه المحاولة اغتيال الرسول بالسم، ولا يوجد سبب يدفعنا الى تكذيب هذه المحاولة التي تتفق واتساق ما قبلها من حوادث. وربما ان اليهود لجأوا إلى طريقة الغدر بالصخرة لاعتقادهم بأنه من السهل عليهم تبريرها فيما بعد، ليتخلصوا من انتقام المسلمين. وربما كان الجدار قديما تعلوه بعض الحجارة الكبيرة المبعثرة مما يسهل عليهم ان يحتجوا بانهيار هذه الحجارة من على الجدار سيما وان الناس كانوا يجلسون عادة على الجدران والسطوح.

يذهب مونتقمري وات إلى أن سبب الغزوة إنما هو لرفع الروح المعنوية عند المسلمين بعد سلسلة من الهزائم التي منوا بها(١).

والذي اراه ان غزوة بني النضير لا تعود لسبب واحد بعينه، وانما هي وليدة مجموعة من الأسباب نتجت عن العلاقات بين المسلمين واليهود، وقد توالت هذه الأحداث من جانب اليهود، بحيث لم يعد بالإمكان السكوت عنها اذا اراد المسلمون لأنفسهم ظهيرا امينا في حربهم المستمرة مع الوثنية في جزيرة العرب.

★ حوادث الغزوة:

بعث الرسول ﷺ محمد بن مسلمة الى اليهود وقال له: اذهب الى يهود بني النضير فقل لهم، ان رسول الله ﷺ أرسل اليكم ان اخرجوا من بلده، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر. وقد اجلتكم عشرا فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه(٢). وأسقط في أيديهم من هذا الإنذار وقالوا لمحمد بن مسلمة: «يا محمد: ما كنا نرى ان يأتي بهذا رجل من الأوس، فأجابهم محمد: تغيرت القلوب(٣)ونزل بنو النضير على حكم الرسول ومكثوا اياما يتجهزون وارسلوا إلى ظُهُر لهم بذي الجدر، وتكاروا من أناس من أشجع إبلا، فأرسل اليهم عبدالله بن ابي: «لاتخرجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم فإن معي الفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم، وتمدكم

(١) انظر "Muhammad prophet & states Man," P. 151
(٢) انظر المقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ص ١٧٨-١٧٩.
(٣) الواقدي: المغازي جـ١ ص ٣٦٧.

قريظة وحلفاؤكم من غطفان»[1]. تغير موقف اليهود، وبعث فيهم قول ابن ابي شجاعة جديدة، فأرسل حيي بن اخطب الى الرسول من يقول له: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك»[2]. وكان بعض اليهود من بني النضير لا يثقون بحيي وصدق مقالته، وقد نصح سلام بم مشكم حيي بعدم الاهتمام بمقالة ابن ابي مذكرا إياه بأنه إنما يريد ان يورط بني النضير في الهلكة ويجلس في بيته كما فعل مع بني قينقاع حلفائه[3]. ولما جد الجد تخلى عنهم ابن ابي، كما ان بني قريظة تمسكت بعهدها مع الرسول ولم تناصرهم، وكان على اليهود ان لا يسمعوا لنصيحة ابن ابيّ الذي نكث بوعده لحلفائه بني قينقاع، فكيف به ينصر من لا زالت سيوفهم تقطر من دم قومه.

ولما انقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم، سار المسلمون اليهم والقوا عليهم الحصار. وقد تحصّن اليهود في آطامهم وحصونهم وعندهم الماء الوافر والطعام الكافي، كما زادوا في تحصين بعض مواقعهم برمي الحجارة في الطرقات والأزقة حتى يمنعوا المسلمين من التقدم. وقد اشار القرآن الكريم إلى تحريض ابن ابيّ لليهود بعدم الخروج بقوله: ﴿ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لأخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب، لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون، لئن اخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولّن الأدبار ثم لا ينصرون﴾[4].

ومما يجدر ذكره ان اليهود عندما يشعرون بالخطر يسارعون إلى الاعتصام بحصونهم وإلى ذلك اشار الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾[5].

مكث الرسول في حصارهم عشرين يوما، وكانت حصونهم مانعة ولذلك لجأ الرسول الى وسيلة اخرى ينهي بها الحصار ويخفف عن المسلمين ويجبر اليهود على الاستسلام، فأمر جنده بأن يقطعوا النخيل ويحرقوه، وهو المورد الرئيسي لرزقهم، واراد

---

(١) ابن سعد: **الطبقات** جـ٢ ص٥٧.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظر برهان الدين الحلبي، **السيرة الحلبية** جـ٢ ص٢٧٨.
(٤) سورة الحشر، الآيات: ١١-١٢. انظر كذلك **التفسير الكبير** للرازي، جـ٢٩ ص٢٨٨.
(٥) سورة الحشر، آية: ١٤.

الرسول من هذا الاجراء احد أمرين: إما أن يخرج اليهود من حصونهم ليقاتلوا عن اموالهم وبذلك يسهل على المسلمين التخلص منهم، أو أن يضعف تعلقهم بأرضهم، وبذلك تضعف معنوياتهم ولا يبقى لديهم شيء يستحق ان يدافعوا عنه بعد ذهاب اشجارهم، وجزع اليهود جزعاً شديداً من هذا الاجراء ونادوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها»[1].وفي ذلك نزل قوله تعالى:﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[2]. وقد تسبب قطع النخل في تسرب اليأس الى قلوب اليهود فاستسلموا ونزلوا على حكم الرسول ﷺ. والذي زاد من يأسهم انهم انتظروا ان يتقدم احد من العرب او اليهود لنجدتهم، ولما لم ينجدوا ادركوا سوء مصيرهم اذا اصروا على متابعة القتال. فسألوا الرسول ﷺ ان يؤمنهم على اموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة، فقبل منهم الرسول على ان يخرجوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من اموالهم إلا الحلقة «السلاح». فاحتملوا من الأموال ما استطاعت الإبل ان تحمل وخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى اذرعات في بلاد الشام، وكان من اشرافهم الذين نزلوا خيبر ودانت لهم اهلها: سلام بن ابي الحقيق وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق، وحيي بن اخطب[3].

وقد نزلت سورة الحشر بمناسبة إجلاء بني النضير تقص ما اصابهم من نقمة الله سبحانه وتعالى وتصف مكرهم ونفاقهم، وهي في نفس الوقت دليل على اهمية انتصار المسلمين في هذه الغزوة وما لها من قيمة على مستقبل الجماعة الإسلامية. وقد اشارت بعض آيات هذه السورة إلى أن اليهود كانوا يخربون بيوتهم قبل ان يرحلوا منها ﴿يُخرْبون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[4].

وأرى أن اليهود كانوا يهدمون بيوتهم حتى لا يستفيد منها المسلمون بعدهم وقد عرفت الشعوب القديمة هذا الاسلوب ولا زالت الشعوب الحديثة تحرص عليه ولا تسمح بوقوع شيء بأيدي العدو يستفيد منه. وقد ذهب البعض في تحليل هذه الظاهرة غير هذا المذهب فزعموا ان اليهود إنما هدموا بيوتهم لحمل اخشابها معهم بزعم ان الأخشاب

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص١٩١، وابن كثير، البداية والنهاية جـ٤ ص٧٥.
(٢) سورة الحشر، آية: ٥.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص١٩١.
(٤) آية: ٢.

كانت نادرة في بلاد العرب فأخذها اليهود معهم ليبيعوها[1] وهـذا الرأي واضح ضعفه، لأن اليهود لم يكونوا قادرين على حمل كل شيء، حيث جُعل لكل ثلاثة منهم بعير واحد، وهذا البعير وحده لا يستطيع حمل المواد الضرورية اللازمة لهم كالأطعمة والأمتعة وغيرها من الأشياء الأثمن من الأخشاب اللازمة والأخف حملا، فكيف تترك هذه الضروريات النفيسة ليحمل بدلها خشب بال!. ومن الباحثين من يرى ان الهدم يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة عند اليهود، وهي ان كل يهودي يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني إسرائيل أن يحتفظوا بإله واحد ولا يبدلوه ولو عذبوا وقتلوا، فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود الى يومناهذا، ويظهر ان يهود بلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة في داخل النجاف خوفا من اتلاف الهواء لها أو من مس الأيدي فلما رحلوا من ديارهم هدموا نجاف السقوف واخذوها[٢].

ومما يلفت النظر ان اليهود اخذوا زينتهم يوم خروجهم كأبهى ما تكون الزينة، وعبروا المدينة في موكب جليل، وفي قطار من الأبل يتكون من ستماية بعير، فوقها النساء والهوادج وعليهن الحرير والديباج وقطف الخز الخضر والحمر، وقد صف لهم الناس، فجعلوا يمرون قطارا في إثر قطار[٣]. لقد أثار سيرهم بهذا الموكب مشاعر المنافقين ومن بقوا على الشرك من اهل المدينة، وكأن اليهود ارادوا من خروجهم بهذا الشكل اثارة الشفقة والحسرة عند هؤلاء، فأخذوا يذكرون كرمهم ونجدتهم وحسن عشرتهم[٤].

وتصور لنا سورة الحشر ما اصاب بني النضير جزاء مخالفتهم الله ورسوله ونكثهم العهد واعتمادهم على المنافقين في المدينة في مواجهة المسلمين الذين ايدهم الله بنصره ومكنهم من إخراج بني النضير كما مكنهم قبل من إخراج يهود بني قينقاع. وأنذر القرآن اليهود بحشر آخر إذا تمادوا في سلوكهم المناهض للدعوة الاسلامية[٥]. وبيّنت هذه السورة أحكام الفيىء ومصارفه بقوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم ،وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب.

---

(١) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص٣٨.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظر ابن هشام السيرة «طبعة حجازي» جـ٣ ص١٩٣، والواقدي: المغازي جـ١ ص٣٧٤.
(٤) انظر الواقدي، المغازي جـ١ ص٣٧٥.
(٥) انظر الآيات: ٢ـ٥.

للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾[1].

وقد حكم الرسول ﷺ في أموال بني النضير حكما يختلف عن حكمه في أموال قريش التي غنمها المسلمون في بدر، لأن هذه الأموال وقعت بيد المسلمين دون قتال فاعتبرت فيئا[2]. قال ابو عبيد: «فأما أموال بني النضير، فإن سفيان بن عيينة حدثنا عن عمرو بن دينار ومعمر بن راشد عن الزهري عن مالك ابن اوس بن الحدثان النصري عن عمر بن الخطاب قال: «كانت اموال بني النضير مما افاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان ينفق منها على اهله نفقة سنة وما بقي جعله في الكراع[3] والسلاح عدة في سبيل الله[4].

ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى أوكل أمر إنفاق الفيىء في الأوجه التي يراها موجبة لمحاربة الفقر وتقريب المستوى الاقتصادي بين طبقات المجتمع الواحد. ولذلك وجد الرسول الفرصة في تطبيق مبدأ المساواة الذي دأب على اعلانه، فوزع ارض بني النضير بين المهاجرين ولم يعط احدا من الأنصار. ورأى أن يدعو الأنصار كلها، فلما حضرت الأنصار تكلم فيهم الرسول وذكر لهم ما صنعوه بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما افاء الله علي من بني النضير. وكان المهاجرون على ما هم عليه من مشاركة الأنصار في السكنى والاشتغال بالأموال، فأجاب الأنصار بأنهم طابوا نفساً عن هذه الأموال وطلبوا الى الرسول ان يقسمها بين المهاجرين، فقسمها الرسول ولم يعط أحداً من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين ـ سهل بن حنيف وأبا دجانة ـ واعطى سعد بن معاذ سيف ابن ابي الحقيق، وكان سيفا له ذكر عندهم»[5]. ومما يجدر ذكره ان الرسول غنم اسلحة كثيرة في هذه الغزوة منها خمسون درعا وثلاثمائة واربعين سيفا[6].

---

(١) الآيتان: ٧ـ٨.
(٢) الفيىء: ما غنمه المسلمون دون حرب من الأعداء.
(٣) الكراع: اسم لجميع الخيل والسلاح. انظر ابو عبيد، الأموال، هامش ص١٤.
(٤) الأموال: رقم ١٧ ص١٤، انظر صحيح البخاري، جـ٤ ص٧٥. وصحيح مسلم جـ٥ ص١٥١.
(٥) انظر الواقدي: المغازي، جـ١ ص٣٧٩.
(٦) انظر الواقدي: المغازي، جـ١ ص٣٧٩.

وقد يرى بعضهم ان توزيع هذا الفيىء على المهاجرين إنما هو استثناء بسبب قرابة الرسول للمهاجرين، وفي هذا القول مخالفة لواقع المهاجرين الاقتصادي، فهم فقراء دون ارض ومال، وهم جند الأسلام في كل وقت، وفي توزيع اراضي بني النضير على المهاجرين منفعة للأنصار لانه جعلهم في غنى عن معونة إخوانهم المهاجرين، وبذلك تحسنت احوال الأنصار المادية، كما ان في هذا الأجراء تطبيق لمبدأ المساواة الذي يدعو إليه الإسلام. وقد وصف الله الأنصار بقوله: ﴿والذين تبوءوا الداروالإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

★ **نتائج الغزوة:**

تركت هذه الغزوة آثارا مختلفة على مستقبل العلاقات بين الملسمين واعدائهم من مشركين ومنافقين ويهود. فبالنسبة للمسلمين وطّد هذا النصر سلطانهم في المدينة وارهب اعداءهم من القبائل العربية الطامعة بهم خارجها، وابعدت عنهم تحالف اليهود والمنافقين في داخل المدينة، واثارة المشاكل والفتن في وجه المسلمين ثم ابعدت ـ الى حين ـ خطر اتفاق هذه الجبهة المعادية داخل المدينة مع القوى المعادية خارجها، ورغم ان هذا الاتفاق كان موجودا من قبل الا انه لم يصل الى درجة التحالف المسلح. هذا بالإضافة الى ان الأموال التي انتفع بها المسلمون بعد بني النضير، قد زادت في منعة المسلمين وجعلتهم قادرين على الصمود اذا ما حوصروا مدة طويلة، هذا مع ما تبعثه القوة المادية من روح معنوية عند اصحابها.

وأما اثارها بالنسبة للمنافقين فكانت شديدة الوقع عليهم اذ افقدتهم حليفا قويا كانوا يعتمدون عليه في رفع اصواتهم، فلما فقدوه خفتت هذه الاصوات وضعف اصحابها.

وأما بالنسبة لليهود فقد اسلم من بني النضير رجلان هما يامين بن عمر وأبو سعد

(١) سورة الحشر، آية: ٩، ومن اراد الاستزادة من مقاصد سورة الحشر فيما يتعلق باليهود فعليه، بمحمد طنطاوي ـ بنو اسرائيل في القرآن والسنة جـ١ ص٣٦٣.

بن وهب اسلما فأحرزا اموالهما وبقيا في المدينة[١]، كما بقيت قبيلة بني قريظة التي تسكن خارج المدينة وبعض البطون المتهودة الصغيرة التي لا نعرف عن مصيرها شيئا، واغلب الظن لم تشارك القبائل اليهودية الكبيرة في حوادثها مع المسلمين وآثرت الالتزام بصلة القربى مع القبائل العربية مضحية بذلك بعقيدتها الدينية.

تجمع زعماء بني النضير في خيبر وكان هؤلاء اشد اليهود عداوة للمسلمين لأنهم كانوا يشعرون بالسيادة على بقية اليهود نظراً للمركز الديني والمادي الذي يتمتعون به على سائر اليهود. لذلك اصبحت خيبر مركزاً لتآمر اليهود الذين يأكل قلوبهم الحقد ويملأ نفوسهم حب الثأر والانتقام من المسلمين، ولذلك جدوا في تحزيب القبائل العربية لمهاجمة المدينة.

ولا بد أن يكون انتصار الرسول ﷺ على يهود بني النضير قد اثار مخاوف قريش التي تتربص بالمسلمين الدوائر، فقد كانت تخشى ان يزداد محمد قوة ومنعة، وشعروا ان قوافلهم التجارية نحو الشمال ستكون تحت رحمة المسلمين، كما لم يكن زعماء قريش وفي مقدمتهم ابو سفيان يرحبون بنجاح محمد، وذلك نتيجة امتداد النزاع التقليدي على الرياسة والسيادة في مكة منذ الجاهلية، بالاضافة الى التهديد الذي يحمله محمد لزعامة مكة في الجزيرة العربية. لذلك سنجد قريشا تسارع لتكوين الحلف الكبير مع اليهود وبعض القبائل العربية الطامعة بخيرات المدينة.

ومن آثار هذه الغزوة ايضا أن الرسول ﷺ كان له كاتب سر من اليهود الى حين إجلاء بني النضير عن المدينة، وذلك ليتسنى له ان يكتب بعض رسائله بالعبرية والسريانية. فلما جلا اليهود عن المدينة خاف النبي ان يستعمل في اسراره غير مسلم، فأمر زيد بن ثابت ان يتعلم اللغتين المذكورتين، وأصبح زيد بن ثابت كاتب سر النبي، وهو الذي جمع القرآن في خلافة عثمان، فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف[٢].

وقد قيلت اشعار كثيرة بمناسبة إجلاء بني النضير، بعضها يمدح فعال بني النضير ويذكر محاسنهم، وبعضها رد من شعراء المسلمين على هؤلاء المادحين. وكان عباس

(١) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص١٩٢.
(٢) انظر محمد حسين هيكل، حياة محمد ص٣١٢.

بن مرداس أشهر الشعراء العرب الذين بكوا بني النضير، وكان مما قاله :ـ

لو ان قطين الدار لم يتحملوا وجدوا خلال الدار ملهى وملعبا
فإنك عمري هل رأيت ظعائنا سلكن على ركن الشطاة فثيأبا[1]
إذا جاء باغي الخير قلن بشاشة له بوجوه كالدنانير مرحبا
وأهلا فلا ممنوع خير طلبته ولا انت تخشى عندنا ان تؤنبا
فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم سلّام ولا مولى حييّ بن أخطبا

وقد رد عليه خوات بن جبير بقصيدة جاء فيها :

تبكي على قتلى يهود وقد ترى من الشجو لو تبكي احب واقربا
إذا السلم دارت في صديق رددتها وفي الدين صدادا وفي الحرب تصلبا
رحلت بأمر كنت اهلا لمثله ولم تلف فيهم قائلا لك مرحبا
فهلا الى قوم ملوك مدحتهم تبنوا من العز المؤثل منصبا
أولئك احرى من يهود بمدحة تراهم وفيه عزة المجد تُرْتُبا[2]

تعكس لنـا هذه الأشعـار حالة المشركين والمنافقين في المدينة بعد اجلاء بني النضير كما تعكس الروح المعنوية للمسلمين بعد هذا النجاح الذي احرزوه.

★ دور اليهود في غزوة الأحزاب :

نزل زعماء بني النضير بعد رحيلهم من المدينة في خيبر، ودان يهودها لهم، وهذا يشير الى ان يهود خيبر لم تكن لهم أحساب يهود بني النضير. لقد جد زعماء بني النضير في العمل على الانتقام والثأر من المسلمين، ولهذا جدوا في تحزيب القبائل العربية وتحريضها على حرب محمد واصحابه ورأوا ان يقيموا حلفا منيعا مع قريش لهذه الغاية. لذلك قام فريق منهم بالذهاب الى مكة فيهم: سلام بن ابي الحقيق النضري، وحيي بن

(١) الظعائن: جمع ظعينة وهي المرأة ما دامت في الهودج، والشطاة بفتح الشين والطاء اسم موضع، ولم يذكر ياقوت مكاناً بهذا الاسم إلا موضعاً في الديار المصرية قرب دمياط، ويغلب على الظن أن الشطاة طريق ساحلية من المدينة الى بلاد الشام أو جزء من هذا الطريق تسمى بهذا الاسم، وثيأب اسم موضع أيضاً، لم يذكره ياقوت، وربما انه مجاور للمكان السابق كما يفهم من الشعر السابق ايضاً.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٢٠١ـ٢٠٢. ترتبا: هو من رتب عند سيبويه. ن.م.

اخطب النضري، وكنانة بن ابي الحقيق النضري، ومعهم نفر من بني وائل هم: هوذة بن قيس الوائلي وابو عمار الوائلي[1]. ولما قدموا الى مكة دعوا اهلها الى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت قريش لهم: «يا معشر يهود انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، افديننا خير ام دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وانتم اولى بالحق منه» [2]

وقد سجل القرآن الكريم على اليهود موقفهم المخزي هذا في قضية الايمان التي كانوا يجاهرون بها ويدّعون انهم اهل التوحيد الاول، وذلك بقوله تعالى: ﴿ألم تَرَ إلى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾[3]

وقد استنكر المؤرخ اليهودي ولفنسون موقف اليهود هذا بقوله «كان من واجب هؤلاء اليهود الا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا امام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام افضل من التوحيد الأسلامي، ولو ادى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون، حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين»[4].

فلما قال زعماء اليهود هذه المقالة سرت قريش ونشطت في الاجابة لما دعوا اليه من حرب محمد رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج اولئك النفر من اليهود ومن معهم حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم الى حرب رسول الله ﷺ، واخبروهم انهم سيكونون معهم عليه، وان قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه[5].

ومن المعروف ان قريشا كانت شديدة الرغبة في القضاء على محمد ولذلك رحب ابو سفيان بالوفد اليهودي وقال لهم: «أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد»[6].

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢١٤، والطبري، تاريخ جـ٢ ص٥٦٥ والمقريزي: إمتاع الاسماع جـ١ ص٢١٦.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢١٤، والطبري، تاريخ جـ٢ ص٥٦٥، وابن كثير البداية والنهاية جـ٤ ص٩٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٥١. انظر ايضاً تفسير الطبري جـ٥ ص١٣٤، وتفسير ابن كثير جـ٢ ص٥١٢، والكشاف للزمخشري، جـ١ ص٥٣٣، وتفسير الجلالين، مكتبة الجمهورية المصرية، مراجعة محمد علي الضباع ص٧١-٧٢.

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٤٢.

(٥) انظر ابن هشام: السيرة، جـ٢ ص٢١٥، وابن سعد: الطبقات جـ٢ ص٦٦.

(٦) انظر الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٤٤٢.

ومما يدل على شدة حقد الطرفين اليهودي والقرشي على المسلمين ان تنادوا الى حلف يعقدونه تحت استار الكعبة، وبعد ان الصقوا اكبادهم بجدارها ـ إمعاناً في توثيق التحالف ـ وحلفوا بالله ان لا يخذل بعضهم بعضا ما بقي منهم رجل حتى يستأصلوا محمدا ﷺ[1]،ساروا الى غطفان وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إذا هم ساروا معهم ومع قريش لحرب محمد[2]، ثم خرجوا حتى جاءوا بني سليم وحرضوهم مثل سابقهم وكذلك فعلوا في بني أسد وأشجع وفزاره وكل القبائل التي لها ثأر عند المسلمين أو لقريش نفوذ عليها.

وهكذا نرى ان اليهود هم الذين بادروا بتحزيب الأحزاب ليوم الخندق ووضعوا كل إمكانياتهم في سبيل القضاء على محمد ودعوته الاسلامية، فوضعوا عقولهم بما خططوه ورسموه، كما وضعوا اموالهم في خيبر لتنفيذ هذه الخطط. وإذا نظرنا الى معركة الاحزاب من زوايا التمهيد والاعداد والتمويل نجد ان هذه الغزوة الخطيرة في حياة الدعوة الاسلامية هي غزوة يهودية في لحمتها ودمها.

لم يكن المسلمون بغافلين عما يحاك ضدهم بالظلام، فقد كانت أنباء استعدادات هذه الأحزاب ونشاطاتها تصل الرسول ﷺ أولا بأول، يحمل هذه الأخبار مسلمون كلفوا بهذه المهمة، او رجالا من العرب اثارتهم العصبية القبلية نحو اخوانهم ممن اسلموا وهاجروا الى المدينة، فألت عليهم عصبيتهم نحو ذوي القربى إلا أن يخبروهم بما يُدَبر لهم.

وحقيقة: كان تيار العصبية هذا يخدم المسلمين في كثير من المواقف الحرجة، كما كان له اثره على وحدة قريش تجاه الجماعة الإسلامية. فقد رأينا هذا الاتجاه يؤدي دوراً هاماً في تثبيط عزائم القرشيين في مسيرتهم الى بدر، اذ برز الاتجاه القائل «ما لنا ولمحمد، فدعوه ان يكن كاذبا ان في العرب لمن يكفيناه ولئن كان صادقا إنا اسعد العرب به إنا للحمته»[3]. غير ان هذا التيار على عظم فائدته لم يقو على منع قريش من محاولة القضاء على الإسلام وأتباعه.

ولا بد ونحن بصدد الحديث عن غزوة الاحزاب ان نذكر الوضع العام في المدينة قبيل هذه الغزوة. فقد كان في المدينة ثلاث فئات، الأولى وهم المسلمون ويشكلون القوة الرئيسية في المدينة من حيث العدد والتماسك والعدة، والفئة الثانية هم اليهود من بني قريظة وكانوا يسكنون في اطراف المدينة الجنوبية، وهم اصحاب أموال وآطام، كما ان عددهم يقل عن عدد المسلمين، والفئة الثالثة هم المنافقون الذين يتظاهرون

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٢) انظر الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٤٤٢، والمقريزي، إمتاع الأسماع جـ١ ص٢١٧.
(٣) انظر الواقدي: المغازي، جـ١ ص٤٢-٤٣.

بالأسلام ويكيدون له في الخفاء، وكان قد خفّ صوتهم بعد إجلاء بني النضير، ثم عاد هذا الصوت ليرتفع عندما اخذت اخبار زحف القبائل العربية وقريش واليهود تصل الى سكان المدينة. ولما تيقن رسول الله ﷺ من اخبار الأحزاب وما عقدوا عليه العزم، جمع اصحابه من ذوي الرأي وعرض عليهم الأمر كما هي عادته عند كل امر يتعلق بالمصلحة العامة. فاستقر رأي الجميع بعدم الخروج من المدينة لملاقاة العدو خارجها. وقد املى هذا القرار عاملان هامان هما.

١ ـ ضخامة جيش العدو الذي يزيد عن عشرة آلاف مقاتل بالنسبة لعدد المقاتلين المسلمين الذين لا يزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل.

٢ ـ الدروس التي استفادها المسلمون من معركة احد. وهم في هذا الاختيار يكسبون جماعة من اهل المدينة ممن لم يسلموا او بعض جماعة المنافقين ممن يدافعون عن المدينة بدافع العصبية، كما ان المدينة توفر لهم الحماية «الاستراتيجية» بفضل المواقع الطبيعية والصناعية المحيطة بها، فالمدينة محاطة بحرات من الغرب والشرق وفي جزء من الجبهة الجنوبية، وتنتشر في هذه المناطق الحجارة البركانية ذات الرؤوس المدببة التي يصعب السير عليها.

وبينما كان الرسول ﷺ يشاور اصحابه في افضل الطرق التي يمكن اتباعها لتحصين المدينة، اقترح سلمان الفارسي حفر الخندق في الجبهة الشمالية التي يخشى دخول الاحزاب منها للمدينة ووافق المسلمون على هذا الاقتراح وبدأوا يعملون في حفر الخندق. وفي الجبهات الاخرى كان المسلمون يرون في اشجار النخيل الكثيفة وفي الحصون والآطام موانع يصعب على جيوش الاحزاب القتال منها. كما اوكل الرسول امر الدفاع عن الجبهة الجنوبية الشرقية ليهود بني قريظة ـ حيث كانت تتشابك حصونهم ـ والذين كانت معاهدة الموادعة تلزمهم بالدفاع عن المدينة في حالة مداهمة الأعداء لها. ولا بد ان الرسول قد اخطرهم بذلك واخذ عليهم عهودا بأن يحافظوا على العهد ولا ينقضوه كما يستدل على ذلك من محاولات حيي بن اخطب سيد بني النضير مع كعب بن اسد سيد بني قريظة لحمله على نقض العهد وتمزيق الصحيفة التي كتبها اليهود مع الرسول بهذا الشأن كما سيأتي ذكره.

وبينما كان المسلمون يحفرون الخندق كل في المكان المخصص له، عرضت صخرة لسلمان الفارسي غلظت عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ ان الصخرة امتنعت على

سلمـان تنـاول المعول منه وضرب الصخرة ثلاث ضربات كانت الصخرة تلمع تحت المعول في كل مرة، فقال سلمان: «بأبي وأمي انت يا رسول الله ما هذا الذي رأيت، لمع تحت المعول وانت تضرب؟ قال: اوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت نعم، قال: أما الأولى, فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق»[1]

لقد اوردت هذه القصة للتدليل على صدق الالهام في احلك الظروف، ثم للتعرف على الوسائل التي استخدمها الرسول في رفع معنويات جماعته والعدو يطبق عليهم من كل جهة، ثم لنتذكر اخيرا كيف اتخذ المنافقون من هذا الحديث سلعة لتثبيط عزائم المسلمين وألفتّ في عضدهم.

لم يشترك اليهود في حفر الخندق بينما يشير القرآن الكريم الى اشتراك المنافقين في الحفر وانسحاب بعضهم من العمل دون إذن الرسول ﷺ خلافا للمسلمين الصادقين الذين كانوا لا يغادرون اماكنهم لو عرضت لهم حاجة الا بإذن من الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضـا، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا، فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[2]، وأما اليهود وان لم يشتركوا في حفر الخندق فقد اعاروا للمسلمين آلات كثيرة للحفر من مساحي وكرازين ومكاتل[3].

وربما كان تقديمهم لهذه الالآت دليلا على تمسكهم بما عاهدوا الرسول عليه ان يقفوا مع المسلمين صفا واحدا لرد الغزاة. ولما اقبلت جيوش الاحزاب ووصلت مشارف المـدينة، دهشت لرؤية الخندق، ولما نظر اليه فرسان الاحزاب قالوا: «والله ان هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها»[4].

---

(١) انظر ابن هشام، جـ٢ ص٢١٩.
(٢) سورة النور، آية: ٦٣.
(٣) المساحي: جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد. الكرازين: جمع كرزن وهو الفأس. المكاتل: جمع مكتل، وهو الزبيل الكبير، قيل إنه يسع خمسة عشر صاعاً، أنظر الواقدي: المغازي جـ٢ هامش ص٤٤٥.
(٤) انظر الطبري: تاريخ جـ٢ ص٥٧٤.

وقد اعتمدت الاحزاب على كثرة عددها وعُدَدِها من جهة وعلى نصرة يهود بني قريظة من جهة اخرى. وكان بنو قريظة على جانب عظيم من القوة، إذ لديهم حوالي سبعمائة مقاتل علاوة على كثرة الأسلحة التي بحوزتهم والأموال الطائلة التي يمتلكونها، وكان وجودهم خلف جيش المسلمين وعلى مقربة من نسائهم واطفالهم يزيد من اهمية الدور الذي قدره كلا الطرفين المسلم والمشرك في نصرة بني قريظة له. وكان حيي بن اخطب يقول لأبي سفيان بن حرب ولقريش في مسيره معهم: « إن قومي قريظة معكم، وهم اهـل حلقـة وافرة، هم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا»[1]. ولما وصل حيي بن اخطب المدينة توجه الى بني قريظة ونشط في حملهم على نكث العهد مع الرسول ﷺ، وكان محمد بن كعب القرظي يحدّث فيقول: «كان حيي بن اخطب رجلا مشؤوما، هو شأم بني النظير قومه، وشأم قريظة حتى قتلوا، وكان يحب الرياسة والشرف عليهم وله في قريش نسبة، ابو جهل بن هشام»[2].

خرج حيي بن اخطب حتى اتى كعب بن اسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، ولما طرق حيي باب كعب ابى ان يفتح له، فاستأذن عليه فأبى ان يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب! افتح لي! قال ويحك يا حيي! انك امرىءمشئوم، وإني عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم ار منه الا وفاء وصدقا، قال ويحك افتح لي اكلمك، قال: ما انا بفاعل، قال: والله ان اغلقت دوني إلا عن جشيشتك[3] ان آكل معك منها، فاحفظ الرجل (أي أغضبه) ففتح له، فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى انزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بذنب نقمى الى جانب أحد، قد عاهدوني على ان لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. قال: فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه[4]، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فدعني وما انا عليه، فاني لم ار من محمد الا صدقا ووفاء. فلم يزل حيي بكعب

---

(١) انظر الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٤٥٤.

(٢) المرجع السابق جـ٢ ص ٤٥٥.

(٣) الجشيشة: طعام يصنع من الجشيش، وهو البر الذي يطحن غليظا وهو الذي تقول له العامة دشيشة والصواب فيه الجيم. انظر ابن هشام: السيرة، ط حجازي جـ٣ ص٣٢٦.

(٤) بجهام هراق ماؤه: الجهام، السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه، وهراق: صب، ويريد أنه خال من المطر: ابن هشام، السيرة. جـ٣ ط حجازي هامش ص٢٣٦. أنظر خارطة الخندق رقم ـ ٣ ـ صر ٣٣٩

يفتله في الذروة والغارب[1] حتى سمح له، على ان اعطاه عهدا من الله وميثاقاً: «لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ان ادخل معك في حصنك حتى يصيبني ما اصابك»، فنقض كعب بن اسد عهده وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ[2].

★ **أثر نقض العهد على المسلمين:**

في الوقت الذي كانت جيوش الاحزاب بآلافها العشرة تحاصر المدينة وتضيق على المسلمين الحصار، والمسلمون في يقظة مستمرة يراقبون تحركات الاعداء يتربصون لكل فارس تسول له نفسه عبور الخندق حذرين من اقتراب الاعداء للخندق خوفا من ردمه وصنع الممرات فيه، فكانوا يبعدونهم عنه بالنبال وبالحجارة، وكان المنافقون يصنعون الأراجيف وينشرون الشائعات وينسلون من صفوف المسلمين زرافات ووحدانا، في مثل هذا الوقت وصلت الأخبار للرسول بنقض بني قريظة لعهدهم واستعداداتهم لطعن المسلمين من الخلف. ابلغ عمر بن الخطاب خبر بني قريظة للرسول ﷺ، فاشتد الأمر عليه وقال: «من نبعث يعلم لنا علمهم؟ ثم ارسل الزبير بن العوام، فنظر هذا خبرهم فوجدهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم»[3]، ولما تأكد الرسول من الخبر استدعى زعماء الأنصار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير، وابلغهم خبر بني قريظة، وطلب اليهم الذهاب بأنفسهم الى يهود بني قريظة والوقوف على حقيقة الموقف عن قرب وموافاة رسول الله ﷺ بالخبر اليقين، دون ان يُعلموا المسلمين بخبرهم اذا كانوا قد نقضوا عهدهم حفاظا على وحدة المسلمين وشجاعتهم من ان يصيبها خور. واراد الرسول من بعث هذا النفر من زعماء الأنصار ان يقفوا بأنفسهم على حقيقة حلفائهم القدامى حتى لا تأخذهم في قتالهم لومة لائم إذا جد الجد وكان لا بد من القتال، كما قصد عليه السلام ان يحاول هذا النفر رأب الصدع وثنيهم عن نكثهم العهد، اذا كان ذلك ممكنا. ولما وصل الوفد الى منزل كعب بن اسد وجدوا القوم قد نقضوا العهد، فناشدوهم الله والعهد الذي كان بينهم ان يرجعوا الى ما كانوا عليه قبل

(١) الذروة والغارب واحد ودخل «في» على معنى تعرف فيه: بأن فتل بعضه دون بعض فكأنه قيل: فتل بعض ما في ذروته، قال الأصمعي: فتل في ذروته أي خادعه حتى أزاله عن رأيه، ويضرب في الخداع والمماكرة.
أنظر أبو الفضل احمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني المتوفي ٥١٨هـ مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م جـ٢ ص٦٩.
(٢) ابن هشام، السيرة ~ ٢ ص٢٢٠-٢٢١، والواقدي: المغازي جـ٢ ص٤٤٥-٤٥٦.
(٣) انظر الواقدي: المغازي جـ٢ ص٤٥٨.

ذلك ان يلتحم الأمر، وسألوهم ان لا يطيعوا حيي بن اخطب، فقال كعب: لا نرده ابدا قد قطعته كما قطعت هذا القبال[1] ـ لقبال نعله»[2]. وعبثا حاول وفد الأنصار إعادة اليهود الى رشدهم فحاولوا ان يبينوا لهم عواقب غوايتهم هذه، وذكروهم بما اصاب اخوانهم من بني قينقاع وبني النضير لما ركبوا رؤوسهم واتبعوا شياطينهم، فلم يزدد القوم الا عنادا، واطلقوا الشتائم على اعضاء الوفد، وتوعدوا المسلمين وهددوهم وانذروهم بعزمهم على القتال. ولما غضب سعد بن عبادة من شتائمهم واراد ان يرد بمثلها قال له سعد بن معاذ: «دعهم فإنا لم نأت لهذا، ما بيننا اشد من المشاتمة ـ السيف»[3] ثم رجعوا الى النبي ﷺ وقال له احدهم: «عضل والقارة» وهي اشارة الى غدر بني قريظة بالمسلمين كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع[4].

كان وقع نبأ بني قريظة على المسلمين اليما فعظم البلاء واشتد الخوف واصبح المسلمون محاصرين من كل جانب، وارتفع صوت المنافقين يقول: «كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر، واحدنا اليوم لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط»[5]. ولما اشتد البلاء على المسلمين رأى الرسول ان يصالح غطفان، فبعث الى زعيمي غطفان عيينه بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المريّ وهما قائدا غطفان في جيوش الاحزاب، واعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن اصحابه «فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح الا المراوغة في ذلك، ولما اراد رسول الله ان يفعل، بعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، امرا تحبه فنصنعه ام شيئا امرك الله به، لا بد لنا من العمل به، ام شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء اصنعه لكم، والله ما اصنع ذلك الا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت ان اكسر عنكم من شوكتهم الى امر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا

---

(١) قبال النعل: زمام ما بين الأصبع الوسطى والتي تليها ـ القاموس.
(٢) انظر ابن هشام، السيرة «مطبعة حجازي» جـ٣ ص٢٣٨، والواقدي، المغازي، جـ٢ ص٤٥٨.
(٣) الواقدي: المرجع السابق جـ٢ ص٤٥٨.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٢٢.
(٥) انظر ابن هشام جـ٢ ص٢٢٢، الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٤٥٩ ـ ٤٦٠، والطبري، تاريخ جـ٢ ص٥٧٢.

يطمعون ان يأكلوا منها ثمرة الا قرى او بيعا[1] ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له واعزنا بك وبه نعطيهم اموالنا! والله مالنا بهذا من حاجة، ولا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا»[2].

إن هذا الاتفاق وإن لم يتم فقد كان له اثره على الأحزاب فلا بد ان يكون خبر قدوم زعماء غطفان الى الرسول ﷺ قد فشا بينهم وانتشر امر الصلح، ومثل هذه الشائعات تلعب دورها في جموع تختلف اهدافها كجموع الاحزاب، فساعدت هذه الشائعات على بذر الشكوك بين الحلفاء انفسهم واصبح كل قائد من قادة الاحزاب يرتاب بنيات الآخر، وكان حيي بن اخطب يحرص كل الحرص على ان لا تفشل هذه الحملة التي افرغ فيها كل ما استطاع من حيل وعدد وأموال.

اخذت جموع الاحزاب تلوم قريظة على تأخرها في مناجزة الملسمين وكان فرسان بني قريظة يغيرون على مؤخرة المسلمين ويعتدون على الحصون التي تضم ذراري المسلمين. وقد قتلت صفية بنت عبد المطلب أحد هؤلاء الفرسان[3] ثم اصبحت سرايا من المسلمين تراقب تحركات بني قريظة وتحرس نساء المسلمين واطفالهم.

وفي هذه الظروف الصعبة التي اشتد البلاء فيها على المسلمين قيّض الله لهم نعيم بن مسعود الغطفاني، جاء هذا الى الرسول واعلمه بإسلامه وقال له: «إن قومي لا يعلمون بإسلامي فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا ان استطعت فإن الحرب خدعة»[4]. فخرج نعيم الى قائد الاحزاب ابي سفيان واعلمه ان بني قريظة قد ندمت على نقض عهدها مع محمد واصحابه وارسلوا اليه انهم سيقدّمون اليه سبعين شريفا من رجال الاحزاب ليضرب اعناقهم وفاء منهم بعهده، ثم اخبر زعماء غطفان بمثل ذلك وطلب اليهم ان يكتموا خبره لانهم يعلمون انه نديم بني قريظة، وجاء نعيم كعب بن اسد القرظي واعلمه ان الأحزاب على وشك الرحيل وترك بني قريظة

(١) القرى: بكسر القاف، الطعام الذي يقدم للضيف، وقيل هو المصدر، يريد ان هؤلاء لم يكونوا ليطمعوا أن يذوقوا ثمر المدينة إلا بأحد سببين إكرامهم اذا نزلوا ضيوفا او شرائه منهم.
(٢) ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٢٣.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص١٩٠، والواقدي: المغازي: جـ٢ ص٤٦٢-٤٦٣.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٢٩، والواقدي المغازي: جـ٢ ص٤٨٠ وما بعدها.

وحدهم امام المسلمين، ثم نصحهم بأن يطلبوا من زعماء الاحزاب سبعين رهينة تبقى لديهم حتى لا يغادروا المدينة الا بعد القضاء على محمد وأصحابه، وكان نعيم غير متهم عند الجانبين، ويظن كل طرف بأنه الناصح الأمين له[1]. ولما طال انتظار الاحزاب وهلك الخف والحافر ولم تكن العرب تعرف الحرب الطويلة، سارع ابو سفيان وزعماء غطفان وارسلوا الى بني قريظة عكرمة بن ابي جهل في نفر من قريش وغطفان وطلبوا اليهم ان تناجز قريظة محمداً القتال وتواعدهم القتال في الغد، وكان يوم سبت فأجابهم اليهود «إن اليوم يوم سبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرّستكم الحرب، واشتد القتال ان تنشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه»[2]. فلما عاد الرسل الى زعماء الاحزاب باخبار بني قريظة تأكدت عندهم اقوال نعيم بن مسعود ورفضوا ان يعطوهم الرهائن وارسلوا الى بني قريظة، إن كنتم تريدون قتال محمد فاخرجوا له، ولا نعطيكم رجلا واحدا رهينة، فوثق رجال بني قريظة بمقالة نعيم بن مسعود وزاد الانشقاق بينهم، وبدأت الشكوك تساورهم والبرد يلفح اجسادهم والريح تسفي مواقدهم والجوع يعضهم ويميت مواشيهم ولم يبق لهم الا الرحيل.

وأرى أن أضيف الى ما سبق من اسباب سببا هاما غفل عن ذكره المؤرخون، وكان لهذا السبب المحل الأول في فشل الأحزاب، وهو اختلاف الأحزاب في أهدافهم ومقاصدهم وضعف الصلات بينهم، ثم عدم الثقة باليهود حلفائهم، ويظهر لي أن الأحزاب كانت تطمع بخيرات اليهود وأموالهم بدرجة لا تقل عن طمعهم بالقضاء على الجماعة الإسلامية، ويتضح ذلك من الحوار بين زعيمي غطفان «عيينه بن حصن الفزاري» و«الحارث بن عوف» بعد عودتهما من عند الرسول ويستفاد من هذا الحوار ان غطفان كانت لا ترغب في ظهور قريش على محمد، لأن ظهورها يجعل الزعامة فيهادون سائر العرب، ولم يكن يهم غطفان من محالفة اليهود الا المغنم المادي، فهذا الحارث بن عوف يرد على قومه الذين قالوا: سيقع حَرُّ محمد على بني قريظة بعد انصراف الأحزاب «بعداً وسحقاً! محمد أحب الينا من اليهود»[3].

---

(١) انظر ابن هشام، المرجع السابق والصفحة.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٣١.

(٣) الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٤٧٩. انظر كذلك محمد شيت خطاب، الرسول القائد، مكتبة الحياة ومكتبة =

ومما يجدر ذكره قبل أن ننهي أخبار الخندق أن بعض المستشرقين يشكوّن فيما أوردته المصادر الإسلامية حول عدم توقيع الرسول على الاتفاقية مع غطفان، ويعتقدون أن فشل الأحزاب يعود إلى هذه الاتفاقية التي صدّعت صفوفهم وحملت غطفان على ترك الحصار. وهذا الاعتقاد لا يدعمه أي دليل، فلم نسمع أن غطفان أخذت شيئا من ثمار المدينة أو طالبت به بموجب الصحيفة المذكورة. كما أننا لا نغفل عوامل أخرى أهم، كان لها الحسم في أمر الأحزاب أراد الله لها أن تكون. ومن هذه العوامل أن الأحزاب كانت بحاجة إلى المؤن لهذا الجيش العرمرم، كما كانوا بحاجة إلى أعلاف لمواشيهم في هذا الحصار الذي طال أمده، ثم إن عوامل القلق على ما تركوه بمكة أخذت تدب في صفوف رجال الأحزاب الذين ما تعوّدوا أن يتركوا بيوتهم كل هذه المدة الطويلة، وأخيرا خدعة نعيم بن مسعود التي باعدت بين يهود قريظة والأحزاب وساهمت في إشاعة الفوضى في صفوفهم وشاء الله أن يزيدهم فوضى على فوضى فأرسل عليهم ريحاً شديدة في ليلة باردة فاقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم وشرّدت جمالهم وخيولهم وقذفت في قلوبهم الرعب حتى ظنوا أن الجن تهاجمهم من كل جانب[1]. فقال أبو سفيان بن حرب: «ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير . . . أيا معشر قريش: إنكم لستم بدار مقام، لقد هلك الخف والحافر[2] وأجدب الجناب، واخلفتنا بنو قريظة ولقد لقينا من الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل»[3].

وهكذا بدأ انسحاب الأحزاب وقبع بنو قريظة في حصونهم آثمين يترقبون قصاصهم العادل جزاء غدرتهم الشنيعة. وكان جلاء الأحزاب نعمة على المسلمين كما أسماها الله في سورة الأحزاب: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله

= النهضة ببغداد ط٢ ١٩٦٠م، ص١٥٤ وما بعدها ففيها تفصيل بسبب فشل الأحزاب.

(١) انظر در منقم، حياة محمد، ترجمة محمد عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي وشركاه بمصر، ص٢٣٨.

(٢) الخف والحافر: الإبل والخيل. وأجدب الجناب: قلت المؤن وانعدمت.

(٣) انظر ابن سعد: الطبقات، جـ٢ ص٦٩.

خارطة رقم -٣-

خارطة معركة الأحزاب

ذو الحليفة
وادي بطحان
خرائب بني النضير
بنو قريظة
بساتين المدينة
قباء
خرائب بني قينقاع
دورية زيد بن حارثة
البقيع
المدينة المنورة
جبل سلع
مراكز دفاع المسلمين
الخندق
حرة الوبرة
وادي العقيق
وادي قناة
أشجع
سليم
غطفان
انسحاب الاحزاب من مواقعهم
فزارة
بنو أسد
قريش
مجمع الاسيال
بئر رومة
جبل أُحُد

ورسوله إلا غرورا. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾(١).

★ غزوة بني قريظة:

دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ودفع إليه اللواء وكان على حاله لم يُحَلّ من مَرْجعه من الخندق، وبعث إلى بلال فأذن في الناس: «إن رسول الله يأمركم ألّا تصلّوا العصر إلا ببني قريظة»(٢).

وسارع المسلمون يلبون النداء فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم: «بل نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف احداً منهم»(٣). وكان الرسول قد لبس درعه والمغفروالبيضه وأخذ قناة بيده وتقلد الترس وركب فرسه. وحف به أصحابه وقد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وكانت ستة وثلاثين فرسا منها ثلاثة أفراس مع الرسول(٤).

ولما وصلت طلائع جيش المسلمين أيقن اليهود بالهلكة فأخذوا يشتمون الرسول وأزواجه بقبيح الشتائم، سمعها علي بن ابي طالب، فرجع حتى لقي الرسول بالطريق وسأله أن لا يدنو من اليهود، فعرف الرسول أن علياً سمع منهم ما فيه أذى له، فدنا رسول الله من حصونهم وقال يخاطبهم «يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل نقمته؟ قالوا: يا أبـا القـاسم ما كنت جهـولا!»(٥). وحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب وأخذت المخاوف تنهشهم من كل جانب واجتمع ساداتهم يتداولون الأمر من جميع وجوهه علّهم يجدون سلامة من هذا المأزق، وطلب اليهود من الرسول ﷺ أن يكلموه فأنزلوا نباش بن قيس، فكلّم رسول الله ﷺ ساعة وقال:

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٩-١٣. وانظر كذلك التفسير الكبير للرازي جـ٥ ص١٩٨ وما بعدها. وانظر ايضا تفسير ابن كثير، طبعة المنار بمصر ١٣٤٧هـ جـ٦ ص٥٠٧ وما بعدها، وانظر ص٥١٨ تفسير قول الله تعالى: ﴿وإذ جاؤكم من فوقكم﴾ اي الاحزاب ﴿ومن اسفل منكم﴾.. تقدم عن حذيفة رضي الله عنه انهم بنو قريظة.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٢٣٤، والواقدي: المغازي: جـ٢ ص٤٩٧، وابن سعد، الطبقات، جـ٢ ص٧٤.

(٣) صحيح البخاري جـ٥ ص٩٣.

(٤) انظر المقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ص٢٤٢.

(٥) ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٢٣٤.

يا محمد ننزل على ما نزلت عليه بنو النضير، لك الأموال والحلقة وتحقن دماءنا، ونخرج من بلادكم بالنساء والذراري ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة، فأبى رسول الله ﷺ، فقالوا: فتحقن دماءنا وتُسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل، فقال رسول الله ﷺ: «لا إلا أن تنزلوا على حكمي»[1]. ولما رجع نباش بجواب رسول الله ﷺ, ازداد اليهود ضيقا وأخذوا يتلاومون فيما بينهم، وعرض عليهم زعيمهم كعب بن أسد الإسلام قائلا: يا معشر بني قريظة والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي الله وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب، حيث لم يكن نبيا من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله، ولقد كنت كارهاً نقض العهد والعقد، ولكن البلاء وشؤم هذا الجالس علينا وعلى قومه (يعني ابن أخطب الذي وفى بعهده وانضم إلى كعب في حصنه بعد انصراف الأحزاب) وقومه كانوا «أشوى» منا»[2]، وذكر لهم كعب البيانات والأدلة على صدق نبوة محمد ثم قال لهم: «تعالوا فلنتابعه ولنصدقه ولنؤمن به، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا فنكون بمنزلة من معه». قالوا: لا نكون تبعاً لغيرنا، نحن أهل الكتاب والنبوة، ونكون تبعاً لغيرنا؟ وعبثاً حاول كعب نصحهم وردهم إلى الصواب، فأبوا أن يفارقوا ما هم عليه على زعمهم أنهم على عهد سيدنا موسى عليه السلام. ولما لم يسمعوا لنصيحة كعب هذه عرض عليهم خطة أخرى, قال: فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج وفي أيدينا السيوف إلى محمد وأصحابه فإن قتلنا قتلنا وما وراءنا أمر نهتم به. وإن ظفرنا فلعمري لنتخذنَّ النساء والأبناء، فتضاحك حيي بن أخطب ثم قال: ما ذنب هؤلاء المساكين؟! وقالت رؤساء اليهود الزبير بن باطا وذووه: ما في العيش خير بعد هؤلاء. قال: فواحدة قد بقيت من الرأي لم يبق غيرها، فإن لم تقبلوها فأنتم بنو استها، قالوا: ما هي؟ قال: الليلة السبت، وبالحري أن يكون محمد وأصحابه آمنين لنا فيها نقاتله، فنخرج فلعلنا نصيب منه غره. قالوا: نفسد سبتنا وقد عرفت ما اصابنا فيه؟ قال حيي: قد دعوتك إلى هذا وقريش وغطفان حضور فأبيت أن تكسر السبت، فإن أطاعتني اليهود فعلوا، فصاحت اليهود، لا نكسر السبت[3]. ثم تساءل اليهود كيف يستطيعون أخذ محمد وأصحابه على غرّة وهم يقظون في الليل والنهار.

(١) انظر الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥٠١.
(٢) اشوى منا: اي احسن حالا منا، انظر المرجع السابق ص٥٠١-٥٠٢.
(٣) الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥٠٣.

واختلف اليهود وأسقط في أيديهم، وندموا على خيانتهم بعد أن أصبح لا ينفع الندم. ولاذ النساء والأطفال بالبكاء عندما أدركوا ضعف أحوالهم وسوء مآلهم. ثم بعثوا إلى الرسول أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبدالمنذر ليستشيروه في أمرهم، وهو من الأوس وكانوا حلفاءهم. فأرسله النبي إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح. وقال أبو لبابه «فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ»، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، وأعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه ابداً . . . وأقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ينتظر أن يتوب الله عليه. وبقي على هذه الحال ست ليالي تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع حتى تاب الله عليه ونزل قوله: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾(1)، وبعد ذلك أطلقه الرسول ﷺ. وأخيرا لجأ اليهود إلى استدرار عطف حلفائهم من الأوس فارسلوا اليهم من يقول لهم: «ألا تأخذون لإخوانكم مثل ما اخذت الخزرج لإخوانهم؟» يريدون أن تقف الأوس وقفة عبدالله بن أبيّ الخزرجي مع بني قينقاع، حتى نجوا من القتل واكتفى الرسول ﷺ منهم بالجلاء عن المدينة. وقد جاء رجال من الأوس إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله: ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج؟ فقال لهم يا معشر الأوس، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم؟ قالوا بلى، قال «فذاك إلى سعد بن معاذ»(2). وقد قبل بنو قريظة اختيار سعد ليحكم فيهم ظناً منهم أن الحلف الذي كان بينهم في الجاهلية سيشفع لهم ويخفف من عقابهم، وهم الذين نصحهم سعد بن معاذ في البداية وخوفهم من يوم كيوم بني النضير بل أشد منه، ونسوا السباب والشتائم التي أطلقوها على الرسول والمسلمين بحضور سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وتناسوا غرورهم ووعيدهم بهلاك المسلمين يومذاك وكان سعد بن معاذ قد أصيب

(1) سورة التوبة، آية: ١٠٢.
(2) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٢٢٧. الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥١٠.
المرجع السابق والصفحات، وصحيح البخاري جـ٥ ص٩٤، وابن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٢ ص٦٠٣ وما بعدها، والطبري تاريخ جـ٢ ص٥٧٥، وابن كثير البداية والنهاية، جـ٤ ص١٢٢-١٢٣.

بجرح بليغ في حرب الخندق، فدعا الله وقال: «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فابقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة»[٢].

وكان سعد بن معاذ يعالج من جرحه في خيمة «رفيدة»[٣] التي أمر بإقامتها الرسول بقرب المسجد ليوضع فيها الجرحى، فلما استدعاه الرسول ﷺ، أحاطت به الأوس يسألونه أن يحسن بيهود بني قريظة ويقولون له: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، ولكن سعداً لم يكن يطمع إلا في رضى الله ورسوله، وأصم أذنيه عن سماع أصوات هؤلاء الذين تحركهم العصبية القبلية، واسترجع في ذهنه ما ارتكبه يهود بني قريظة من غدر وخيانة واستذكر سبابهم للرسول وقبحهم معه ومع الوفد الذي قدم لنصحهم وثنيهم عن نقض العهد، وكان سعد بن معاذ يدرك ما كان يريده هؤلاء اليهود بالمسلمين في المدينة فقد نقضوا عهدهم وعرّضوا المدينة لبطش جيوش الأحزاب، وكان يعرف أنه لولا رحمة الله سبحانه وتعالى وعنايته بالمسلمين لأبيدت الجماعة الإسلامية شرّ إبادة، وقد كان اليهود هم أصحاب هذه الخطة أولاً وآخراً. وبعد هذه المراجعة السريعة التفت سعد بن معاذ إلى أبناء قومه وهم يكثرون الرجاء وقال: «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»[١]. فأدرك القوم أن سعداً سيحكم بهم حكم الإسلام دون مراعاة لعاطفة أو عصبية، ولن يكون حكمهم اقل من الموت فذهب بعضهم ينعي بني قريظة[٢] مسبقا، ولما وصل سعد إلى حيث يجتمع الأوس والرسول أخذ على الجميع عهد الله وميثاقه، أن الحكم في بني قريظة لما يحكم، فوافق الجميع فقال سعد «فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء»[٣]. وأجاب الرسول: «قد حكمت حكم الله ورسوله وفي رواية أخرى، قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (سماوات)[٤].

---

(١) رفيدة: امرأة من أسلم وقيل من الأنصار كانت تقوم بخدمة الجرحى ومداواتهم، وذكرها الواقدي، باسم كعيبة، انظر ابن هشام .السيرة جـ٢ ص٢٢٧. الواقدي **المغازي** جـ٢ ص٥١١.

(٢) انظر ابن هشام .**السيرة** جـ٢ ص٢٣٩. الواقدي **المغازي**: جـ٢ ص٥١١.

(٣) انظر الواقدي، المرجع السابق والصفحة، والطبري. جـ٢ ص٥٨٧.

(٤) انظر ابن هشام، المرجع السابق جـ٢ ص٢٣٩-٢٤٠، والواقدي المرجع السابق جـ٢ ص٥١٢، وابن عبد البر. **الاستيعاب** رقم (٩٥٨) جـ٢ ص٦٠٣، والطبري **تاريخ** جـ٢ ص٥٨٧.

(٥) انظر ابن هشام، **السيرة**، جـ٢ ص٢٣٩ وما بعدها، وابن سعد، **الطبقات** جـ٢ ص٧٥٠.

وقد تولى أمر تنفيذ الحكم ببني قريظة محمد بن مسلمة، فكُتِّفوا ونُحوا ناحية، وأخرج النساء والذرية فكانوا في ناحية أخرى واستعمل عليهم عبدالله بن سلام، وجمع أمتعتهم وما وجد في حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب، فوجد فيها ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفي رمح وألفا وخمسمائة ترس وجحفة، وخمراً وجرار سكر فأهريق كله ولم يخمّس، ووجدوا جمالا نواضح وماشية كثيرة[1] وأما الرجال البالغون ممن تنبت وجوههم الشعر، فخندق لهم الرسول في سوق المدينة الخنادق، ثم بعث اليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالا، وفيهم حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والسبعمائة. وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً:

يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: «أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ. وجيء بحيي بن أخطب و. يه حلة فقاحية موشاة قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها، مجموعة يداه الى عنقه بحبل، فلما نظر الى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها على بني اسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه»[2]. وفيه قال الشاعر جبل بن جوال الثعلبي:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه	ولكن من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها	وقلقل يبغى العز كل مقلقل[3]

وقتلت امرأة واحدة من اليهود، فقد روى عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: «لم يقتل من نسائهم الا امرأة واحدة، قالت: والله انها لعندي تحدث معي وتضحك ظهرا وبطنا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، اذ هتف هاتف باسمها: اين فلانة؟

(١) انظر الواقدي: المغازى: جـ٢ ص٧٥.
(٢) انظر ابن هشام السيرة جـ٢ ص٢٤١. الواقدي المغازي: جـ٢ ص٥١٤.
(٣) قال ابو ذر: «الثعلبي، هو بالتاء المثلثة والعين المهملة، هو من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، قال الدار قطني: له صحبة، وقال ابو عبيد: كان يهودياً فأسلم» انظر ابن هشام السيرة، طبعة حجازي جـ٣ هامش ص٢٦٠، قلقل كل مقلقل: اي ذهب في كل وجه.
انظر الواقدي، المغازي، جـ٢ هامش ص٥١٤.

قالت: أنا والله، قالت: قلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل، قلت: ولم؟ قالت: لحدث احدثته، قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنس عجبا منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت انها تقتل». وهـي المرأة التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته[1].

وقد أظهر اليهود في يومهم هذا تجبرا وصبراً وجلادة، وأقدموا نحو نهايتهم بكل شجاعة، وكانوا قد انكبوا على التوراة والمزامير يقرؤون قصص آبائهم وما تحملوه من العذاب عبر تاريخهم. وربما منحتهم هذه القراءات هذا الجلد الذي أبدوه أمام الموت، ثم انهم عرفوا ان لا مفر من الموت، بعد حكم سعد بن معاذ فيهم، فابدوا تجلدا وشجاعة.

ويستفاد من بعض الروايات ان يهود بني قريظة بلغ بهم اليأس من الحياة الى حد التضامن على الموت، خلف ساداتهم، فقد استوهب ثابت بن قيس بن شماس دم الزبير بن باطا القرظي وزوجته وعياله وأمواله ليد كانت لليهودي عند ثابت يوم بعاث، فأراد ان يجزيه بدل صنيعه به يومذاك، فكان من الزبير الا أن خاطب ثابتا قائلا: «أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي، كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا اذا شددنا، وحاميتنا اذا فررنا، غزال بن سموأل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة، قال: ذهبوا قتلوا؟ قال: فاني أسألك يا ثابت بيدي عندك الا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح[2] حتى ألقى الأحبة، فقدمه ثابت فضرب عنقه»[3].

ولما علم رسول الله ﷺ ان بعض الأوس قد كرهوا قتل بني قريظة، أمر بتفريق أسرى اليهود في الأوس ليكون لهم نصيب في قتلهم، فجعل رجل من المسلمين يضرب بالسيف وآخر يذفف وأحدهما من الأوس[4]، وقد استوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس

(١) انظر ابن هشام، جـ٢ ص٢١٢. الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥١٧ ذكر الواقدي ان المرأة التي قتلت اسمها «نباتة»، المرجع السابق والصفحة.

(٢) فتلة دلو ناضح: واراد بها مقدار ما يأخذ الرجل الدلو اذا اخرجت فيصبها في الحوض يفتلها ويرددها الى موضعها ـ انظر ابن هشام، السيرة ط حجازي بالقاهرة جـ٣ هامش ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص٢٤٣، والواقدي، المغازي جـ٢ ص٥١٩.

(٤) انظر الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥١٥، والمقريزي، إمتاع الأسماع جـ١ ص٢٤٨. يذفف: يجهز على الجريح ـ القاموس.

ابن عمرو أحد اليهود يدعى رفاعه بن سموأل، فوهبه لها الرسول، ولما قالت للرسول إنه سيصلي ويأكل لحم الجمل تبسم الرسول ﷺ ثم قال: «إن يصل فهو خير له، وان يثبت على دينه، فهو شر له» قالت فأسلم[1].

وقد أسلم بعض اليهود وسلمت لهم اموالهم وذراريهم منهم ثعلبة وأسيد ابنا سعيه وأسد بن عبيد عمهم. ويقال ان عمرو بن سعدي وهو من اليهود طلب الى بني قريظة ان تتبع الرسول أو تدفع الجزية، ولم يجيبوه الى واحدة مما طلب، فتركهم وقد أسلم ولا يعلم الى أين توجه[2]. وقال فيه الرسول: «انه كان يأمر بالوفاء وينهى عن الغدر فلذلك نجا»[3].

ولما أتي بكعب بن أسد قائد بني قريظة مجموعة يداه الى عنقه، قال له رسول الله ﷺ: «وما انتفعتم بنصح ابن خراش وكان مصدقا بي، أما أمركم باتباعي وان رأيتموني تقرؤوني منه السلام: قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا ان تعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك ولكني على دين اليهود» ثم ضربت عنقه[4].

★ غنائم بني قريظة:

بعد ان انتهى المسلمون من قتل المقاتلة من بني قريظة جمع الرسول المغانم وقسمها على المسلمين واصطفى لنفسه من السبايا ريحانه بنت عمرو. وقد خمس الرسول مغانم بني قريظة بخلاف ما عمله في اموال بني النضير، ثم أمر الرسول ببيع ما بقي من متاع وسبي فيمن يزيد[5]. وقد أسهم الرسول للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللرجل من ليس له فرس سهم. وكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرسا، وكان أول شيء وقعت فيه السهمان وأخرج منها الخمس، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم، ومضت السنة في المغازي. وكان مع الرسول ثلاثة أفراس فلم يأخذ الا سهما واحدا. وأسهم لخلاد بن سويد بن ثعلبة الذي

---

(١) انظر الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥١٥.

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٤.

(٣) ابو عبيد القاسم بن سلام، الأموال ص١٦٣.

(٤) الواقدي، المغازي جـ٢ ص٥١٦.

(٥) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٤٤، الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥٢١، وابن سعد، الطبقات، جـ٢ ص٧٥، والمقريزي، إمتاع الأسماع، جـ١ ص٢٥٠.

طرحت عليه الرحى من فوق الحصن فقتلته، وأسهم لأبي سنان بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة وكان قد مات أثناء حصار المسلمين لبني قريظة.[1].

وكان عدد المسلمين يومئذ ثلاثة آلاف، فكانت سهمان الخيل والرجال ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهما، وأسهم على الأموال فجزئت خمسة أجزاء، وكتب في سهم منها لله، فخرجت السهمان، وكذلك الرثة «متاع البيت الرديء» والابل والغنم والسبي، ثم فض أربعة أسهم على الناس، وأخذ فيء الرسول ﷺ النساء اللاتي حضرن القتال ولم يسهم لهن. وهن صفية بنت عبدالمطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء الأنصارية، والسميراء بنت قيس الأنصارية، وأم سعد بن معاذ «كبشة بنت رافع بن عبيد بن ثعلبه»[2]، ثم بعث رسول الله ﷺ ببعض السبايا الى نجد «وقيل الى الشام» وابتاع للمسلمين بهم خيلا وسلاحا[3]. وقد اشترى المسلمون بعض السبايا، وكان ممن اشترى ابو الشحم اليهودي، الذي اشترى امرأتين ـ مع كل واحدة ثلاثة أطفال ـ بخمسين ومائة دينار، وجعل يقول: الستم على دين يهود؟ فتقول المرأتان: لا نفارق دين قومنا حتى نموت عليه وهن يبكين. وكان رسول الله ﷺ يعتق من خمسه ويهب ويخدم منه من أراد[4]. وقد نهى محمد ﷺ ان يفرق بين النساء وذراريهن عند البيع أو القسمة فقال: «لا يفرق بين الأم وولدها حتى يبلغوا»[5]. وقد سمح الرسول عليه السلام لليهود من المدينة وخيبر وتيماء بابتياع السبي والخروج به من المدينة[6]. وهكذا نجد أن الرسول ﷺ كان يحافظ على وحدة الأسرة اليهودية، كما تسامح بخروج السبي اليهودي من المدينة الى حيث يقيم اليهود خارجها.

وقد أشار القرآن الكريم الى ما نزل ببني قريظة جزاء نقضهم العهد وتآمرهم على المدينة وسكانها من المسلمين وتعريضهم الدعوة الاسلامية للخطر، قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقا تقتلون

(١) ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٤٤، والواقدي، المغازي جـ٢ ص٥٢١، وابن سعد: الطبقات، جـ٢ ص٧٥، والمقريزي: امتاع الاسماع جـ١ ص٢٥٠.
(٢) انظر الواقدي: المغازي: جـ٢ ص٥٢٢، والمقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ٢٥٠.
(٣) انظر الواقدي، المرجع السابق والصفحة، وكذلك المقريزي ـ المرجع السابق والصفحة.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٢٤٥، والمقريزي، امتاع الاسماع، جـ١ ص٢٥١.
(٥) المقريزي إمتاع الأسماع جـ١ ص ٢٥١.
(٦) الواقدي: المغازي جـ٢ ص٥٢٤.

وتأسرون فريقا، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾[1].

ويعلق ولفنسون على حوادث بني قريظة بقوله: «. . . وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج منذ الساعة الأولى لمجاورتهم لهم في يثرب،وقد بذلت في هذا السبيل جهودا عظيمة في فترات مختلفة ولم توفق حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم وأطماعهم السياسية في وقت كانت خامدة فيه تلك الآمال»[2].

غير ان الباحث المحقق في العلاقات القبلية في الفترة بعد الهجرة يرى ان الأوس والخزرج لم يكونوا مجمعين على القضاء على اليهود في المدينة ذلك الاجماع الذي شاهدناه قبل يوم بعاث، فقد احتفظ اليهود بتحالفاتهم مع البطون الأوسية والخزرجية، ورأينا كيف أن عبدالله بن أبي تدخل لدى الرسول حتى خلص حلفاءه بني قينقاع من القتل، كما رأينا كيف أن الكثيرين من الأوس تدخلوا لدى الرسول ﷺ لانقاذ بني قريظة ، كما حاول هذا النفر من الأوس ان يكون حكم سعد بن معاذ مخففا على حلفائهم من بني قريظة.

وبناء على ما تقدم لا نرى في العداء القبلي القديم بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة ثانية مبررا لما لحق اليهود من نكبات، ذلك لأن الخصومات القبلية كانت مظاهر للحياة الاجتماعية عند العرب وغير العرب في تلك الفترة وما كان بين اليهود والعرب كان بين العرب أنفسهم، وما كان يحدث بين الأوس والخزرج خير شاهد على هذا. وبعد فهل في هذا الحكم الذي نفذه المسلمون ببني قريظة قسوة كما يرى بعض المستشرقين؟[3].

علينا ان نتذكر قبل الاجابة على هذا التساؤل أن اليهود كانت أمامهم فرص الخلاص من القتل، وذلك اما باعلان اسلامهم واتباع الرسول فتبقى لهم حياتهم وأموالهم وأرضهم ويصبحون مثل سائر المسلمين، واما ان يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية للمسلمين مقابل حمايتهم، مثلهم مثل سائر أهل الذمة. ولكن اليهود رغم

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٢٦-٢٧.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص١٥٢.

(٣) انظر واشنجتون، ارفنج، حياة محمد.. ترجمة وتعليق علي حسني الخربوطلي ط٢ دار المعارف بمصر ص١٩٥.

ادراكهم أهمية هذه الفرص وسماعهم نصح بعض إخوانهم لهم باغتنامها، الا انهم كابروا وتعنتوا ورفضوا اغتنام اي منها، وبهذا السلوك لم يكن اليهود منسجمين مع أنفسهم، في تحزيب قريش ودفعها لقتال محمد[1]. وكان أحرى باليهود ان يسجدوا للاله الواحد الذي يؤمنون به ويكونوا مع المسلمين يدا واحدة على الشرك. غير ان هذا المسلك يؤكد طمع اليهود بالسيادة على المدينة بل ربما على بلاد الحجاز كاملة، ووجدوا ان الاسلام يقف بينهم وبين هذا المطمع فأخذوا يكيدون في السر والعلانية ويتآمرون مع الكفار للقضاء على هذا الدين الجديد واتباعه الذين هددوا سلطان اليهود وحرموهم من الوصول الى أطماعهم.

وقد باشر اليهود بانفسهم مؤامرة لو قدر لها النجاح لأبيحت المدينة على أيدي الأحزاب، ولتعرض سكان المدينة الآمنون للذبح الجماعي دونما تمييز بين صغير وكبير ورجل وامرأة، ولسبي من يبقى منهم وبيع كالسوائم، أي أن اليهود دبروا مذبحة جماعية بسابق عزم واصرار «كما يقول الحقوقيون». وهذه الجريمة يعاقب مرتكبوها بالموت لانهم أرادوا الموت لغيرهم. وليس هذا الحكم جديدا فقد اتبعته أمم من قبل وأمم من بعد، ولا تزال عقوبة مثل هذه الجرائم «الاعدام» في معظم بلدان اليوم وهي خيانة عظمى في نظر التشريعات الحديثة.

ومن الغريب ان اليهود يستنكرون ما حصل لهم وينسون أوامر إلههم يهوه بإبادة غيرهم وتقتيل النساء والرجال، فقد زعمت ان الرب امر موسى بمهاجمة المديانيين، فهاجموهم وقتلوا كل ذكر فيهم وسبوا نساءهم وأطفالهم ونهبوا مواشيهم واملاكهم وأحرقوا مدنهم وحصونهم بالنار[2]. وعندما دخل يشوع وجنده اريحا قتلوا الرجال والنساء والاطفال والشيوخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف[3]؛ والمذابح التي ارتكبها اليهود في التاريخ ليس لها حصر، وها هم أولاء في عصرنا الحاضر - عصر التقدم والمدنية - يرتكبون المجازر البشرية الجماعية، فمجازر دير ياسين وكفر قاسم، وقبيه، ونحالين[4]، وغيرها خير شاهد على ان الشعب اليهودي متعطش لدماء الابرياء أكثر من أي شعب آخر

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ ٢ ص ٢٤، المغازي، جـ٢ ص٢٤٢، والمقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ص٢١٧.

(٢) انظر سفر العدد، الإصحاح ٣١: ١-١٢، ومدين شعب كان يستوطن مرتفعات شرق نهر الاردن الجنوبية.

(٣) انظر سفر يشوع، الإصحاح ٦: ٢١-٢٢.

(٤) قرى فلسطينية، هذا وتتعرض القرى والمدن الأردنية واللبنانية في كل يوم لأعمال العنف الإسرائيلية.

لا لذنب ارتكبته هذه الشعوب التي آوتهم وقدمت لهم المساعدة على العيش، اللهم الا شعور النقص الذي يعاني منه اليهود.

ومما يجدر ذكره ان المسلمين لم يباغتوا بني قريظة بالقتل، وانما سبق نصحهم وتحذيرهم على لسان حليفهم سعد بن معاذ بان لا يلجوا هذا الطريق الغادر وان يعتبروا بما حل ببني قينقاع وبني النضير، وأعلموهم ان الله سبحانه وتعالى سيحكّم المسلمين بهم وأنه قادر على هزيمة الأحزاب. ذلك كله حتى لا يأخذهم الغرور ويعودا الى الصواب. ولم تفلح النصائح معهم، كما لم تفلح المواعظ والعبر في ردهم عن غيّهم وعزمهم على خيانة المسلمين وطعنهم من الخلف في أحلك أوقات الشدة التي تعرض لها الرسول وصحبه. ومما يزيد الجريمة بشاعة ان اليهود كانوا معاهدين وملزمين بنصرة المسلمين على أعدائهم، فنكثوا العهد وقلبوا رأس المجن، وانقلبوا الى أعداء بعد ان كان يحسبهم المسلمون أعوانا، وبذلك استحقوا جزاء الله العادل، فقتل المسلمون المقاتلون البالغون وتسامحوا مع النساء والاطفال.

وبعد القضاء على بني قريظة اصبحت المدينة قاعدة امينة للمسلمين، فلم يعد فيها ولا في أطرافها أقوام يخشى شرهم، كما ان المنافقين ضعفت شوكتهم، فساد الأمن داخل المدينة، وزادت هيبة المسلمين في قلوب اعدائهم، وأصبح الجميع يتحدث عن قوتهم ونفوذهم، وأيقنت قريش ان دعوة محمد قد أصبحت قوة لا تقهر. وقد عبر عن هذا رسول الله ﷺ بقوله بعد هزيمة الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير اليهم»[1] وجاء هذا القول مصداقاً لما تبع من أحداث.

★ أثر جلاء اليهود على اقتصاد المدينة :

ذهب بعض الباحثين الى القول بأن المدينة شهدت تدهورا في أحوالها الاقتصادية بعد زوال اليهود منها[2]. ويقصدون بهذا التدهور ما أصاب التجارة والزراعة والصناعة من تأخر، ومع ان في هذا القول نصيبا من الصحة، فقد قصد به الايحاء بعلاقة نهضة المدينة الاقتصادية باليهود.

---

(١) صحيح البخاري، جـ٥ ص٩٢.
(٢) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص١٥٢.

إن المسلمين كانوا مضطرين لحمل السلاح في العهد النبوي وما بعده للدفاع عن انفسهم وحماية دينهم، فلم يكن لهم من الوقت ما يصرفونه على شؤون الزراعة والصناعة. ولم يهمل المسلمون شؤون التجارة، فقد بقيت تجارتهم رائجة، فقد جهز عثمان بن عفان «رضي الله عنه» وحده غزوة تبوك من عائدات تجارته. وأما في الصناعة فلم يهتم بها عرب الحجاز منذ القدم، وجعلوها خدمة للموالي والعبيد اعتقادا منهم بانها مهنة وضيعة.

ومع ذلك فالحالة الاقتصادية في المدينة قد تحسنت وازداد عدد سكانها وأصبحت عاصمة الدولة الاسلامية، وتفوقت على مكة في كافة المجالات. وقد يرى بعضهم ان تحول المسلمين الى مقاتلين انما كان بسبب ما تجلبه الحروب لهم من منافع، وكأن المسلمين اختاروا باب القتال على أبواب الزراعة والتجارة والصناعة، غير ان المسلمين كانوا مضطرين لولوج باب القتال تحقيقا لأغراض دينية وسياسية، فقد أملت عليهم ظروفهم الجديدة حمل السلاح للدفاع عن وجودهم وحماية دينهم.

يفسر ولفنسون الظاهرة السابقة بقوله: «أهمل العرب أعمالهم الزراعية وتركوها بأيدي العبيد الذين جلبوهم من الأمم المغلوبة، ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على العنصر العربي وحده بل نجدها شاملة لكل الأمم في طور الانتقال من الفقر والبداوة الى الملك والاستعمار، فقد نعلم ان الأمة اليونانية اخذت بعد خروج الاسكندر الأكبر لفتح ممالك الشرق تنحط في الزراعة والتجارة وتهمل ما في بلادها من مصادر الثروة طمعا في جلب ما في الممالك الشرقية من المغانم الكثيرة والى مثل هذه الظاهرة تشير كتب تاريخ روما وما بعد قهرها لأمم العالم القديم»[١]. ويعزو ولفنسون انقطاع قوافل مكة التجارية فيما بعد الى تدهور اقتصاد المدينة وتخلي المكيين عن التجارة لاشتغالهم في الفتوح، ويقول بأنه لولا وجود ضريح النبي في المدينة والكعبة لأصبحتا مثل سائر المدن في الجزيرة العربية من حيث الاهمال[٢].

والذي أراه هو أن خروج المسلمين الى خارج الجزيرة انما أملته عوامل الفتوح، وقد استطاع المسلمون ان يحصلوا على بلاد جديدة أكثر خصبا من منطقة الحجاز،

(١) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص١٥٣-١٥٤.
(٢) المرجع السابق والصفحة.

ولذلك اصبحت غلات هذه البلاد بين ايديهم دونما حاجة للقوافل التجارية من مكة والمدينة، ثم ان معظم سكان هذه المدن كانوا عماد الجيش الاسلامي المنتشر في سوريا والعراق وشمال افريقيا، فمن أين الرجال لهذه الزراعة والتجارة التي يتحدث عنها ولفنسون؟!

ولو دخل اليهود في الدعوة الاسلامية أو ظلوا على ولائهم للمسلمين على الأقل لما تأخروا لحظة في الخروج من منطقة الحجاز الى حيث المزارع الوفيرة والمياه والخصوبة في بلاد الشام او العراق او مصر، ولذلك فان ما أصاب الحجاز من تحول اقتصادي انما كان بسبب توسع الرقعة الاسلامية وضم بلدان أكثر خصبا وأوفر غنى من بلاد الحجاز من جهة، ولأن المسلمين تحولوا للفتوح في أرجاء متعددة من جهة أخرى. وقد أثر الفتح في المسلمين فحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

وأما الأثر المباشر لغنائم بني قريظة فكان واضحا في ما ناله كل المسلمين في المدينة من هذه الغنائم.

وقد قيلت أشعار كثيرة في غزوتي الخندق وقريظة عكست لهاتين الغزوتين من أثر في نفوس المتحاربين، ومضمون هذه الاشعار مدح وقدح من الجانبين واطراء لشجاعة المتحاربين، وبكاء على القتلى من الطرفين، ومن هذه الأشعار ما قيل في مدح بني قريظة، وقد برز حسان بن ثابت وكعب بن مالك أخو بني مسلمة للرد على الشعراء الموالين لليهود أمثال ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بني الحارث ومسافع بن عبد مناف بن وهب وجبل بن جوال، ومما قاله حسان في رثاء سعد بن معاذ.

لقد سجمت من دمع عيني عبرة وحق لعيني ان تفيض على سعد
قتيل ثوى في معرك فجعت به عيون ذواري الدمع دائمة الوجد
على ملة الرحمن وارث جنة مع الشهداء وفدها أكرم الوفد[1]

ومما قاله ضرار بن الخطاب يفتخر بحصار يوم الخندق :

فاحجرناهم شهرا كريتا وكنا فوقهم كالقاهرينا
نراوحهم ونغدو كل يوم عليهم في السلاح مدججينا

(١) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٢٥٢-٢٧٣.

فلولا خندق كانوا لديه | لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهم وكانوا | به من خوفنا مشعوذينا
فان نرحل فانا قد تركنا | لدى أبياتكم سعدا رهينا.[1]
وسوف نزوركم عما قريب | كما زرناكم متوازرينا

وجاء في رد كعب بن مالك عليه:

وسائلة تسائل ما لقينا | ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عدْلاً | على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبي وزير صدق | به نعلو البرية أجمعينا

ومما قاله جبل بن جوال يبكي قريظة والنضير:

ألا يا سعد سعد بني معاذ | لما لقيت قريظة والنضير
فأما الخزرجي أبو حباب | فقال لقينقاع لا تسيروا[2]
وبُدلت الموالي من حضير | أسيدا والدوائر قد تدور
وأقفرت البويرة من سلام | وسعية وابن أخطب فهي بور[3]
أقيموا يا سراة الأوس فيها | كأنكم من المخزاة عور[4]

★ **أعمال الرسول الاحتياطية قبيل غزوة خيبر:**

كان لأخبار مقتل رجال قريظة وقع أليم بين يهود الحجاز، وبخاصة يهود بني النضير الذين اشترك قادتهم في غزوة الأحزاب. وقد استقبلت النساء هذه الأخبار بالبكاء والمآتم وشق الجيوب وجز الشعور، وتنادى الرجال الى الاجتماع عند سلام بن مشكم وحضر زعماء اليهود من بني النضير وزعماء خيبر، وتداولوا ما أصاب بني قريظة وتلاوموا وقال سلام بن مشكم: «هذا كله عمل حيي بن أخطب، شأمنا أولا وخالفنا في الرأي، فأخرجنا من أموالنا وشرفنا وقتل إخواننا»[5]. وشعر المجتمعون ان الخطر داهم وان اليهودية في

(١) يقصد سعد بن معاذ الذي جرح في حصار الخندق.
(٢) الخزرجي أبو حباب: عبدالله بن أبي بن سلول الذي تدخل لصالح بني قينقاع.
(٣) سلام: هو ابن مشكم، وسعية ابن أخطب من زعماء بني النضير.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٢٥٢-٢٧٣.
(٥) الواقدي، المغازي، جـ٢ ص٥٣٠، انظر ايضا المقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ص٢٥٣.

بلاد الحجـاز على وشك الزوال وانه لا بد من الرأي والعزم قبل فوات الأوان، وتبادلوا الرأي، وكان رأي ابن مشكم ان يجمع يهود خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى ويسير بهم لحرب محمـد دون الاستعانة بأحد من العرب، وقال مخاطبا حضوره: «فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب بعد ان شرطتم لهم تمر خيبر نقضوا ذلك وخذلوكم، وطلبوا من محمد بعض تمر الأوس والخزرج وينصرفون عنه»(١).

وهكذا رأى اليهود عدم الاعتماد على العرب، وزاد هذا في عزلتهم في بلاد العرب حتى شعروا بالغربة، ولم يكن خذلان العرب لليهود في واقعة الأحزاب بسبب ما قيل عن اتفاق الرسول مع غطفان لينسحبوا مقابل تمر الأوس والخزرج، بل هناك مجموعة من الأسباب سبق ذكرها(٢).

لم يكن اليهود جميعا مع رأي ابن مشكم بالخروج لقتال محمد ﷺ في المدينة، فقـد رأوا أن محمـدا لن يسير اليهم لما يعرفه من مناعة حصونهم في خيبر وربما كان الخوف وراء هذا الفريق. كانت جميع الأخبار المتعلقة بتحركات يهود خيبر تصل الرسول ﷺ، فوجد ان من الحكمة ان يمنع اليهود من تشكيل تحالف جديد من اليهود ومشركي العرب، وأن يؤخر حربه مع يهود خيبر بعض الوقت.

وفي سبيل هذه السياسة وجد ان عليه أن يتخلص من الرؤوس اليهودية المدبرة لهذا التحالف، وفي نفس الوقت يوجه السرايا والغزوات لتأديب القبائل العربية التي يخشى تحالفها مع اليهود. وكانت سياسة الرسول هذه تعتمد على فصم العلاقات بين قريش العـدو اللدود في الجنـوب وبين اليهود العدو اللدود في الشمال. ولذلك بدأ الرسول سلسلة أعمال في الشمال والجنوب دلت على عظم العبقرية النبوية.

١ - مقتل أبي رافع «سلام بن أبي الحقيق».

كان أبو رافع ممن حزبوا الأحزاب لغزو المسلمين، وتواترت الأنباء الى رسول الله ﷺ انه يحرض ويجد في تحزيب العرب واليهود للغزو من جديد، وقد ازداد نشاطه بعد مقتل بني قريظة، كما ازداد في الايذاء لرسول الله ﷺ. وخرج هذا الى غطفان ومشركي

---

(١) الواقدي، المرجع السابق والصفحة.

(٢) انظر ص٣٣٧ من هذا البحث

العرب يؤلبهم على المسلمين ويجعل لهم المال الكثير إن هم نصروه على حرب محمد وأصحابه[1].

وفي الجانب الاسلامي كانت الخزرج تريد ان تتساوى مع الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف، وأحرزوا سبقا عليهم بقتل واحد من أشد أعداء النبي ﷺ. ولما شاعت أخبار أبي رافع بانه يعمل على تأليب الجموع لحرب المسلمين، استأذن نفر من الخزرج رسول الله في قتله. جاء في سيرة ابن هشام: «وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ ان هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج، كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً عن رسول الله ﷺ غناء الا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الاسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، واذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك»[2].

وهكذا وجد الخزرج في أبي رافع تاجر الحجاز[3] المعروف عدوا لرسول الله والمسلمين مساويا في عداوته لكعب بن الأشرف. ولا غرو فأبو رافع التاجر المعروف وصاحب الأموال الكثيرة قد جعلها في سبيل ايقاع الشر بالمسلمين.

ذكر أهل السير والمغازي ان الرسول أذن لعبد الله بن عتيك الخزرجي ومعه أربعة نفر من قومه بقتل أبي رافع، وأذن لهم أن يتخذوا الحيلة والخدعة في تنفيذ مهمتهم، وأوصاهم خيرا بالنساء والاطفال والشيوخ. قدم هؤلاء الى أطراف خيبر، وقيل إن أم ابن عتيك بالرضاعة كانت يهودية[4]، وأنها ساعدتهم بان قدمت لهم الطعام وآوتهم وأرشدتهم الى حيلة يدخلون بها على أبي رافع في حصنه. وتمكن هؤلاء ان يدخلوا بيت أبي رافع بحيلة احتالوا بها على أهل الحصن فأخبروهم بأنهم من العرب جاؤا يلتمسون الميـرة، ودخلوا عليه في فراشه ليلا وكان يرى في الظلام لشدة بياضه، وقد أوجست امرأته خيفة منهم فسارعوا إلى قتل زوجها وامتنعوا عن قتلها حفاظا على وصية الرسول ﷺ[5].

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٧٣. الواقدي، المغازي، جـ١ ص٣٩١. ابن سعد الطبقـات، جـ٢ ص٩١. صحيح البخاري جـ٥ ص٧٧. ابن عبدالبر: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، لجنة إحياء التراث الاسلامي ١٩٦٦م ص١٩٥. ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والسير جـ٢ ص٨١.

(٢) ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٢٧٤.

(٣) انظر برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، جـ٣ ص١٨٣.

(٤) انظر الواقدي، المغازي، جـ١ ص٣٩١. والمقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ص١٨٦.

(٥) ابن هشـام، السيرة، جـ٢ ص٢٧٣. والـواقدي: المغازي، جـ١ ص٣٩١. وابن سعد الطبقات جـ٢ ص٩١، والطبري: تاريخ جـ٢ ص٤٩٣. وابن الأثير، الكامل جـ٢ ص٩٥. وابن عبدالبر: الدرر في اختصار المغازي والسير ص ١٩٥. والمقريزي: امتاع الاسماع جـ١ ص١٨٦.

وهكذا نجح المسلمون في التخلص من زعيم بارز من زعماء اليهود، عرفه شمال الحجاز بشدة عداوته للمسلمين، واشتهر بينهم بأنه الذي يجمع الجموع لحربهم. ولذلك أوقع قتله الرعب في قلوب زعماء اليهود والمشركين من العرب على السواء، وأصبح أحدهم يحتاط في اعلان عداوته للرسول ﷺ، وبعد مقتل أبي رافع بعث رسول الله ﷺ سرية استخبارات أمرها باستطلاع احوال اليهود بعد مقتل أبي رافع ثم الوقوف على تحركاتهم ومعرفة نواياهم. وقد استطاعت بعثة ثلاثية يرأسها عبدالله بن رواحة، من الوقوف على أخبار خيبر، وعرفت ان اليهود أمّرت عليها أسير بن زارم بعد سلام بن أبي الحقيق، وان هذا عازم على اقتفاء أثر سلفه في التحزيب على المسلمين[1].

٢ - مقتل أسير بن زارم اليهودي :

أراد الرسول ان يبعث الذعر في نفوس اليهود ويعطل خططهم، فندب عبدالله بن رواحة على رأس سرية لقتل أسير بن زارم، وكان هذا قد خرج الى غطفان فجمعها ليسير بها الى المدينة[2].

سار ابن رواحة على رأس ثلاثين من المسلمين حتى وصل الى خيبر، وبعثوا الى أسير فآمنهم حتى يأتوه فيما جاؤا له، فأتوه وأخبروه أن الرسول ﷺ بعثهم اليه ليستعمله على خيبر ويحسن اليه، فركب أسير بن زارم مع نفر من قومه يساوي عددهم عدد المسلمين. وفي الطريق أظهر ندمه على سيره. فمال المسلمون عليه وعلى أصحابه وقتلوهم عن آخرهم الا رجلا واحدا فر منهم وحمل خبرهم الى قومه[3].

إن قيام أسير بن زارم مع عبدالله بن رواحه ومسيره معه الى المدينة أمر يبعث على التساؤل، فقد ارتاب بعض الحضور من اليهود في أمر دعوة محمد ﷺ، وقالوا ما كان محمد يستعمل رجلا من بني اسرائيل[4]،ثم إن خيبر لم تكن خاضعة لنفوذ محمد ﷺ حتى يجعل لها عمالا من عنده، فما هو الدافع وراء قيام ابن زارم مع الوفد المسلم؟

---

(١) انظر الواقدي: **المغازي** جـ٢ ص٥٦٦. وابن سعد: **الطبقات**، جـ٢ ص٩٢. والمقريزي: **امتاع الأسماع** جـ١ ص٢٧٠. وبرهان الدين الحلبي، **السيرة الحلبية** جـ٣ ص٢٠٧.

(٢) انظر المقريزي **امتاع الأسماع**، جـ١ ص٢٧١.

(٣) انظر الواقدي: **المغازي** جـ٢ ص٥٦٦ وابن سعد: **الطبقات** جـ٢ ص٩٢. والديار بكري، **الخميس** جـ٢ ص١٥.

(٤) انظر الواقدي، **المغازي** جـ٢ ص٥٦٦.

يرى ولفنسون ان أسير بن زارم انما خرج مع عبد الله بن رواحه ليعقد هدنة مع محمد وليمحو ما علق في قلوب الأنصار من أشياء بسبب اشتراك بعض زعماء خيبر والنضير يوم الخندق[1]. إنني أرى أن تعليل ولفنسون غير كاف في توضيح هذه القضية التي سكتت عنها المصادر التاريخية ولم تعطها ما تستحق من البحث والدرس. وفي تصوري ان يهود خيبر انما قرروا عقد صلح مع المسلمين لتجنب الحرب معهم لأن ما عرف عن يهود خيبر هو ميلهم الى السلام وابتعادهم عن الحوادث التي كان يثيرها زعماء بني النضير، وذلك أنهم كانوا في وضع مستقل في بلاد الحجاز يستثمرون مزارعهم دون ان يكدر صفوهم احد حتى قدم عليهم زعماء بني النضير واخذوا يحرضونهم على حرب محمد. وقد أثبتت الحوادث بين المسلمين واليهود في المدينة عقم الاعتماد على العرب في محاربة المسلمين، لهذا وجد يهود خيبر أن سعيهم للحرب إنما هو مجازفة بثرواتهم الطائلة، فمالوا الى الصلح لاحدى الغايتين التاليتين:

الأولى : تجنب الحرب مع المسلمين وبذلك يضمنون استمرارهم في معيشتهم دون أن يخسروا شيئا.

الثانية: ربما أن يهود خيبر قد ملوا الحرب التي طالت بين المسلمين واليهود، ورأوا أن المسلمين بحاجة إلى السلام، سيما وأن هذا السلام أصبح في نظرهم ممكنا بعد هزيمة قريش ويهود المدينة.

ويغلب على الظن ان يهود خيبر كانوا يتوقون الى السلام ولو لفترة تمكنهم من اعداد أنفسهم لحرب المسلمين من جديد. وتعكس الغايتان المشار اليهما افكار يهود خيبر بعد مقتل أبي رافع، فرأوا انه لا سبيل الى السلام مع المسلمين بعد ما حدث بينهما من دماء، فأرادوا اغتنام الفرصة التي عرضها الوفد المسلم لاتباع أسلوب جديد في حربهم المقبلة، وأرجح هذا الافتراض لأن اتساق الحوادث فيما بعد تؤيده.

وقد يرى البعض في مثل هذه الأساليب من القتل نقيصة تصم المسلمين بالغدر، الا ان حالة الحرب التي سادت العلاقات اليهودية الاسلامية تسمح بذلك. ذلك ان الرسول كان مضطرا لاتباع هذا الاسلوب لانه رأى ان قتل فرد قد يوفر قتل جماعة، وندرك مدى صحة نظرة الرسول هذه اذا عرفنا ان يهود خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى قد نجوا

(١) تاريخ اليهودي في بلاد العرب ص١٥٩.

مما أصاب يهود بني قريظة، هذا فضلا عن إن الرسول كان يتبع سياسة ثابتة من شأنها الحفاظ على أمن وسلامة المسلمين. وبقتل هذين الزعيمين استطاع الرسول ﷺ ان يبعد خطر اليهود بعض الوقت.

٣ ـ السرايا والغزوات الاستطلاعية:

كانت سياسة الرسول ﷺ تقضي بتأديب القبائل العربية الواقعة على الطريق التجاري بين مكة وفلسطين ليحقق بذلك غرضين:

الأول: الضغط على قريش عن طريق حصارهم وجعل تجارتهم تحت رحمة المسلمين، وبهذا يمكن ترويضهم وجعلهم أكثر ميلا لقبول الصلح مع الرسول ﷺ، وكان الرسول يعقد على مثل هذا الصلح آمالا واسعة.

الثاني: إثبات وجود القوة الاسلامية في منطقة الحجاز، وارهاب القبائل البدوية وابعادها عن المدينة، ومنعها من تشكيل تحالفات مع بعضها ومع اليهود في شمال الحجاز بقصد الاغارة على المدينة.

وفي سبيل تنفيذ هذه السياسة لم يسترح المسلمون بعد الخندق الا قليلا، ففي شهر ربيع الأول من السنة السادسة الهجرية بدأ بغزو بني لحيان وفقا لسياسته المرسومة، وحتى ينتقم منهم لأصحاب الرجيع، وقد شتتهم وأبعد خطرهم، ثم تلاها المسلمون بغزوة «ذي قرد» الى بعض بطون غطفان شمال المدينة، وأبعدوا خطرهم وأنزلوا الذعر في صفوفهم. وفي نفس السنة تحركت سرية عكاشة بن محصن الأسدي الى «غمر مرزوق» على الطريق بين مكة والشام فاستاقوا نعم بني أسد وشتتوا شملهم، ثم سار محمد بن مسلمة في سرية الى بني ثعلبة وقتل جميع اصحابه ولم ينج الا هو بعد ان أصيب بالجراح وحمله بعض المارة الى المدينة، وبعث الرسول في الحال سرية اخرى بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح فهربوا منه في الجبال، وسار زيد بن حارثة في سرية الى بني سليم قرب المدينة وأصابوا نعما وشاء وأسرى، ثم سار بنفسه الى موضع العيص قرب المدينة واعترضوا قافلة تجارية لقريش وأخذوها كلها وأسروا أناسا منهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنة الرسول ﷺ وغنموا فضة كثيرة لصفوان بن امية. ثم بعث الرسول سرية بقيادة زيد بن حارثة الى أعراب بني ثعلبة في موضع يقال له: «الظرف» على بعد ستة وثلاثين

ميلا من المدينة وأصاب زيد نعما وشاء وجاء بها الى المدينة، وسار زيد مرة اخرى الى «حسمى» وهو واد وراء ذات القرى وذلك لعقاب بني الضبيب الذين اعتدوا على أحد المسلمين. وفي سبيل الغاية نفسها كانت سرية كرز بن جابر الفهري الى الغرنيين وهم حي من قضاعة وحي من بجيلة. ومن بين السرايا سرية زيد بن حارثة الى وادي القرى، وسرية عبدالرحمن بن عوف الى دومة الجندل لدعوة بني كلب الى الاسلام، أو قتالهم، وقد أسلم أناس منهم. ومن بين هذه السرايا والغزوات ايضا غزوة بني المصطلق وهم بطن من خزاعة، وقد هزمهم المسلمون وغنموا كثيرا منهم، وكان في غنائمهم جويرة بنت الحارث زعيمهم فتزوجها الرسول ﷺ، وإكراما لهذا الزواج أطلق المسلمون ما بأيديهم من السبايا، كما أدى هذا الزواج الى انتشار الاسلام بين بني المصطلق(١).

لقد ذكرنا امثلة من هذه السرايا والمغازي للمثال لا للحصر، لنقف على الجهود التي بذلها المسلمون قبل غزوة خيبر. وهكذا نجد ان الرسول قد حقق هدفين من الأهداف الثلاثة التي رسمها في سياسته، فقد أوقع باليهود وبعث الفوضى والرعب في صفوفهم بعد قتل زعمائهم. كما تمكن من دحر القبائل العربية وبث الرعب في بعضها ونشر الاسلام في بعضها الآخر، ووضع تجارة قريش نتيجة هذه السرايا والمغازي تحت رحمة المسلمين، وبقي عليه ان يسعى لتحقيق الهدف الثالث والبعيد وهو عقد صلح مع قريش تمهيدا لغزو خيبر.

٤ - صلح الحديبية:

كان المسلمون قد ازدادوا عددا وعدة في السنة السادسة الهجرية، فقبل هذه السنة فشلت غزوة الأحزاب، كما تخلص المسلمون من أعدائهم داخل المدينة وانحازت الى جانبهم بعض القبائل العربية وأصبحوا يسيطرون على طرق التجارة بين مكة وبلاد الشام. ويغلب على الظن ان هذه العوامل قد ساعدت دعاة الصلح من قريش أن يرفعوا أصواتهم لتخفيف نقمة قريش على محمد وأصحابه له شأن عظيم. لقد كان الكثيرون من القرشيين يرغبون في الصلح مع محمد تلبية لدوافع القربى والعصبية، ويؤيد هذا ما جاء على لسان الزهري من أن خزاعة كانت عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئا كان بمكة(٢).

(١) انظر ابن هشام، السيرة، طبعة حجازي، جـ٣ ص٣٤٠. الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٥٣٥ وما بعدها. والديار بكري، الخميس، جـ٢ ص٥ وما بعدها.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣١٢، عيبة نصح «أي خاصته واصحاب سره».

ولما تقدم سارعت قريش لمفاوضة محمد عندما قدم للعمرة مع جموع المسلمين واتفقت معه على وضع الحرب لمدة عشر سنين والسماح للمسلمين بالحج الى مكة في السنة المقبلة ـ أي السنة السابعة الهجرية ـ وتركت الحرية للقبائل العربية ان تحالف من ترغب من قريش أو المسلمين(١).

وبهذا الصلح حقق الرسول هدفا كان يتطلع اليه فقد روي عنه أنه قال: «لا تدعوني قريش اليوم خطة يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم إياها»(٢) وبهذا الصلح أمن المسلمون شر قريش وأصبحت لديهم حرية التحرك في كل الاتجاهات. فقد انتشر خبر هذا الصلح بين القبائل العربية وأخذ العرب ينظرون نظرة المساواة لقوة المسلمين مع قوة قريش التي كانت قبائل العرب تخشاها، ولذلك أقبل على الاسلام عدد كبير من أفراد هذه القبائل، ويدلنا على تزايد عدد المسلمين ان عددهم كان عندما خرجوا للحديبية في السنة السادسة الهجرية، الفا وأربعمائة، ثم اصبح عددهم عندما خرجوا لفتح مكة بعد ذلك بسنتين عشرة آلاف(٣).

لقد كان صلح الحديبية آخر الأعمال الاحتياطية التي اتخذها الرسول ﷺ قبل غزوة خيبر، وبعد هذا الصلح أصبح يهود خيبر وحدهم أمام المسلمين. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الصلح وما ترتب عليه من نتائج ومغانم كثيرة(٤) ويرى بعض المفسرين ان مغانم صلح الحديبية فتح خيبر.(٥).

★ غزوة خيبر(٦)

كانت واحة خيبر قديما أخصب مناطق الحجاز، كما كان أهلها من اليهود أنشط

---

(١) انظر شروط صلح الحديبية كاملة عند، محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة** ص ٥٨-٦٣ رقم (١١).

(٢) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣١٧. وابن سعد: **الطبقات** جـ٢ ص٩٦.

(٣) انظر ابن هشام، المرجع السابق جـ٢ ص٣٢٢.

(٤) انظر سورة الفتح، الآيات: ١-٣، ١٠، ٢١، ٢٤-٢٧.

(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ٤ ص ١٩١. والزمخشري، **الكشاف** جـ٣، ص٥٤٦. وسيد قطب **في ظلال القرآن** جـ٧ ص٥٠٦. وتفسير **الجلالين** ص٤٣٣.

(٦) تقع خيبر على مسافة لا تزيد عن ١٨٩كم الى الشمال الشرقي من المدينة المنورة، وهي واحة واسعة غزيرة الماء، تقع في حرّة تعد من اعظم الحرات واوسعها مساحة على مرتفع يبلغ علوه (٨٥٠) مترا عن سطح البحر. وفي المواسم تهطل الأمطار الغزيرة فتتدفق السيول، وترسل ينابيع خيبر كميات من المياه على شكل نهر تقريبا، وتعيش الأسماك في هذا النهر بين الفجوات المغمورة التي تتشكل من الصخور كما ان التمور والقمح والشعير

المزارعين، وقد شادوا السدود لحفظ المياه والتصرف بها حسب حاجات مزروعاتهم[1]. فلا عجب إذن إذا شيّد هؤلاء الحصون المنيعة التي اشتهرت بها خيبر وجعلوها مستودعات كبيرة كدسوا فيها اموالهم وغلالهم وحفظوا مواشيهم وتحصنوا بها اذا ما داهمهم الخطر. والأمر الذي يثير الحيرة عند المؤرخين هو التعرف على موقف يهود خيبر من الصراع الذي كان يدور بين يهود المدينة وبين المسلمين، فلم تذكر لنا المصادر التاريخية شيئا ما عن هذا الأمر الغامض، وأغلب الظن ان هؤلاء اليهود وقفوا على الحياد من هذا الصراع في باديء الامر وذلك لانشغالهم في أمور الزراعة والتجارة، فلم يكن لهم هم الا جمع الثروة كما كان اهتمامهم قليلا بأمور السياسة والحرب. ويمكن ان يقال ايضا ان يهود خيبر كانوا يعتمدون على قوتهم الذاتية لوفرة عددهم وعددهم ومناعة حصونهم، لهذا لم يشغلوا أنفسهم في صراع بعيد عنهم.

لقد ظل يهود خيبر بعيدين عن الصراع داخل المدينة حتى قدم عليهم بنو النضير بعد اجلائهم، ولما نزل عليهم سادات بني النضير «دان لهم أهلها»[2]. وقد كان يهود بني النضير أرفع اليهود نسبا وأرقاهم حسبا ويرون ان لهم السيادة والشرف على جميع فئات اليهود لأنهم «يزعمون» انهم من نسل هارون بن عمران عليه السلام، ولهذا كان يقال لهم ولاخوانهم بني قريظة: «الكاهنان»، لانهم من نسل هارون الذي يسميه اليهود بالكاهن[3]. لذلك كان اليهود يقرون لهم بالسلطة الدينية والسياسية. وقد يكون مركز زعماء بني النضير هذا هو الذي جعلهم اكثر فئات اليهود حقدا على الاسلام والمسلمين، ويعزز هذا ما ورد عند ابن هشام: «قال: حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب انها قالت: كنت احب ولد أبي اليه، والى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما الا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ وسلم المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن

تنمو بكميات وافرة في هذه المنطقة. لقد قيل ان اسم خيبر مشتق من اللغة العبرانية ومعناه «الحصن» وجمعها خيابر «حصون» كما قيل انها سميت نسبة الى خيبر بن قانية بن مهلائيل بن إرم.

أنظر وصف خيبر عند، مصطفى مراد الدباغ، جزيرة العرب ـ منشورات دار الطليعة بيروت ـ ط١ ١٩٦٣ جـ١ ص ١٢٦ـ١٢٧. وعبدالله فلبي، أرض الأنبياء ـ مدائن صالح ـ ترجمة عمر الديراوي ـ المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٢ ص٤٦.

وأنظر تسمية خيبر عند ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٣ ص٤٩٦.

(١) انظر فلبي، أرض الأنبياء، ص٢٦.

(٢) ابن هشام، السيرة جـ٢ ص١٩١

(٣) انظر الأصفهاني، الأغاني، جـ١٩ ص١٩٦.

عوف، غدا عليه أبي، حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلّسين. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت: فهششت اليهما كما كنت اصنع، فوالله ما التفت الي واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لابي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت»[1].

ان هذه الرواية تكشف حرص زعماء بني النضير على مركزهم الديني الذي ضمن لهم السيادة الروحية والمادية على اليهود. وقد بقي حيي بن اخطب العدو اليهودي الذي لا يلين لرسول الله ﷺ.

استطاع بنو النضير أن يجعلوا خيبر وما فيها من عدد وعدة تحت قيادتهم وبذلك تحولت خيبر من حالة الحياد الى مركز التآمر الأول ضد المسلمين. وباشر زعماء بني النضير مع زعماء يهود خيبر اعداد المشروعات لغزو المدينة. وكان رأي سلام بن مشكم ان يحشد جيشا من اليهود ويغزو به المدينة دون الاستعانة بالعرب الذين نقضوا تعهداتهم حسب زعمه. ولكن القائلين بالبقاء في خيبر والتحرز في حصونها غلبوا على رأي ابن مشكم، وموقف اليهود هذا جاء مصداقا لقوله تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾[2].

كانت العلاقات بين المسلمين واليهود قد ساءت لدرجة أن الحالة النفسية عند كلا الجانبين كانت مستنفرة، بحيث كان كل جانب يتوقع هجوم الآخر بين لحظة وأخرى، وفي مثل هذا الجو المشحون بالعداوة يصعب التحدث عن السلام.

كان الرسول ﷺ يتطلع الى ازالة العقبة التي تقف أمام نشر الاسلام في شمال الحجاز، فقد كان وجود خيبر بهذه المنعة والقوة يشجع الأعراب على مقاومة الدعوة الاسلامية وذلك اطمئنانا الى حماية يهود خيبر ذوي العدد والعدة. وقد ذكرت بعض المصادر ان الأعراب كانو يحتمون بخيبر[3]. واذا ما أضفنا إلى ما تقدم تحريض يهود

---

(١) ابن هشام، السيرة، جـ١ ص٥١٨-٥١٩.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٤.
(٣) انظر الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٦٣٧-٧٢٩.

خيبر على التحالف لحرب المسلمين نجد أن أسباب غزو خيبر قد تجمعت ولم يعد بالامكان القعود عن حربهم.

كانت غزوة خيبر الخطوة الأولى نحو فتح مكة، وهي أول فتح اسلامي بالمعنى الصحيح، فقد أضيفت أرض جديدة الى الرقعة الاسلامية. واذا كان فتح خيبر قد اعتبر مقدمة لفتح مكة، فقد اعتبر صلح الحديبية ايضا مقدمة لفتح خيبر. وفي الحديبية وعد الله رسوله بهذا الفتح بقوله: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه﴾[1]. ومن الحديبية بشر الرسول ﷺ أصحابه بدخول المسجد الحرام: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾[2].

سار الرسول الى خيبر بتكتم شديد حرصا من وصول أخباره الى خيبر والأعراب القريبة منها، وكان يهدف من ذلك الى تنفيذ خطة تمنع غطفان من نجدة اليهود، كما كان الرسول حريصا على مفاجأة أعدائه قبل ان يأخذوا الحيطة لذلك، وعندما شعر اليهود الذين في المدينة ان المسلمين يتجهزون لغزو خيبر حاولوا تثبيط عزائم المسلمين وعرقلة تجهيزهم، وأشاعوا في سبيل ذلك الشائعات عن قوة يهود خيبر ومناعة حصونهم. فقد ذكرت بعض الروايات انه لما أخذ الناس يتجهزون لغزو خيبر، شق ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعون لرسول الله ﷺ وعرفوا انهم اذا دخلوا خيبر أهلك الله خيبر كما أهلك بني قينقاع والنضير وقريظة. قال: فلما تجهزنا لم يبق أحد من يهود المدينة له على احد من المسلمين حق الا لزمه، وكان لأبي الشحم اليهودي عند عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله، فلزمه، فقال: أجلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يُغنِّمَهُ إياها. وكان عبدالله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، انا نخرج الى ريف الحجاز في الطعام والأموال، فقال ابو الشحم حسدا وبغيا: «تحسب أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل»[3].

---

(١) سورة الفتح: الآية: ٢٠.

(٢) سورة الفتح: الآية: ٢٧.

(٣) الواقدي: المغازي جـ٢ ص٦٣٤ـ٦٣٥.

سار الرسول بالمسلمين الى خيبر في مطلع السنة السابعة الهجرية[1] وسلك في طريقه على عِصْر فبنى فيها مسجدا ثم أقبل بجيشه حتى نزل في واد يقال له الرجيع بين غطفان وخيبر، وكان يخشى أن تمد غطفان اليهود لوجود حلف قديم بينهم، وبذلك قطع الطريق على مدد غطفان. وقد أوردت بعض المصادر ما يفيد ان غطفان جهزت قوة بقيادة عيينه بن حصن الفزاري لمعونة خيبر، غير ان الرسول ﷺ تمكن من خدع هذه القوة وأظهر لها ان المسلمين أطبقوا على منازل الأهل، فرجعت قوات غطفان مذعورة لحماية موطنها[2].

وخرجت بعثة يهودية قوامها أربعة عشر رجلا برآسة كنانة بن أبي الحقيق تستنصر القبائل العربية فجاءت غطفان وطلبت نصرتها مقابل نصف تمر خيبر سنة. كما طلبت النصرة من قبائل أسد وبني مرة، وقد استجابت غطفان بزعامة عيينه بن حصن الفزاري وأسد بزعامة طليحة بن خويلد الأسدي، وأما بنو مرة فرفضوا دعوة اليهود، وذهب زعيمهم الحارث بن عوف الى عيينة ينصحه عاقبة الأمور ويقول له: «ألم أقل لك إنك توضع في غير شيء والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، يهود كانوا يخبروننا بهذا، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول انا نحسد محمدا على النبوة بحيث خرجت من بني هارون، وهو نبي مرسل ويهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذبحان واحد بيثرب وآخر بخيبر. قال الحارث: قلت لسلام يملك الأرض جميعا؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى وما أحب أن يعلم يهودي بقولي فيه»[3].

وقيل ان قوات من هذه القبائل دخلت خيبر ورابطت الى جانب القوات اليهودية. واذا أخذنا بروايات أهل السير والمغازي فيكون جيش المسلمين ما بين ١٤٠٠-١٦٠٠ مقاتل فقط، بينما بلغ عدد المقاتلين اليهود عشرة آلاف. واذا أضفنا الى هذا العدد الفا

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٢٨. والواقدي، المغازي، جـ٢ ص٦٣٣. وابن سعد: الطبقات جـ٢ ص١٠٦، والبلاذري: أنساب الأشراف جـ١ ص٣٥٢، والطبري: تاريخ جـ٣ ص٩. وابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٢ ص١٤٢. وجرجس بن العميد بن الياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيب، تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام «أبي القاسم» محمد إلى الدولة الأتابكية، مخطوط، مكتبة جامعة مدريد، بدون رقم ص٥.

(٢) ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٣٠.

(٣) انظر الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٧٠٢. وابن القيم الجوزية: زاد المعاد جـ٢ ص١٣٩. وانظر كذلك محمد احمد باشميل، غزوة خيبر ـ سلسلة من معارك الإسلام الفاصلة، بيروت، غزوة خيبر، الكتاب السادس ص١٠٦ وما بعدها.

من غطفان وأسد فيكون قد تجمع في خيبر أحد عشر ألفا من المقاتلين[1].

كان الرسول يعلم انه مقدم على حرب عدو، يفوقه في العدد والعدة ويملك من المكر والدهاء الشيء الكثير، ولذلك حذر أصحابه قائلا: «لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فانكم لا تدرون ما تبتلون به منهم»[2]. ثم تضرع الى الله عز وجل بهذا الدعاء وهو يشرف على خيبر «اللهم رب السماوات وما أظللن ورب الرياح وما أذرين فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله»[3].

زحف المسلمون على أول حصون خيبر وقد استغلوا الفزع الشديد والفوضى التي انتابت اليهود فقال عليه السلام: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[4].

تنقسم خيبر يوم فتحها الى ثلاثة مناطق تتألف كل منطقة من مجموعة من الحصن والقلاع. أما المناطق فهي؛ نطاة والشق والكتيبة ومن حصون النطاة حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير، ومن حصون الشق: حصن أبي وحصن النزار، ومن حصون الكتيبة، حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السلالم وهو حصن بني أبي الحقيق[5].

وقد انتشرت هذه الحصون فوق حرة خيبر المرتفعة، ابتناها اليهود منذ القديم ليكونوا في مأمن من غارات البدو المتتالية وقد جعلوا في جدرانها بعض الفتحات ليتسنى لهم رمي المغيرين بالسهام وهم في داخل حصونهم. وكانت هذه الحصون واسعة من الداخل بحيث تتسع لحفظ الغلال والطعام والمواشي والاسلحة والامتعة وكل ما يحتاجه اليهود في حياتهم. وعندما يتحصنون لا يتركون خارج أسوار حصونهم الا المزروعات

(1) انظر الواقدي المرجع السابق والصفحة. المقريزي: امتاع الاسماع جـ1 ص327. انظر كذلك تاريخ في المغازي والفتوح، لمؤلف مجهول، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم 1455، ص43.

(2) أنظر ابن سيد الناس عيون الاثر في فنون المغازي والسير جـ2 ص132.

(3) انظر ابن هشام، السيرة، جـ2 ص329.

(4) انظر ابن سعد: الطبقات جـ2 ص109. وصحيح البخاري جـ5 ص108. والديار بكري، الخميس جـ2 ص45.

(5) انظر محمد سيد طنطاوي، اليهود في القرآن والسنة جـ1 ص407.

التي في الأرض، كما ان روايات اهل السير والمغازي تفيد ان الماء كان وافرا داخلها، ولا بد أن اليهود أضافوا لحصونهم بعض التحسينات عبر تاريخهم كما أصلحوها وزادوا من مناعتها قبيل غزو المسلمين لهم.

كانت مقاومة اليهود في بداية حصار المسلمين شديدة جدا، بحيث جرح من المسلمين في اليوم الأول خمسون رجلا(١) حول حصون النطاة التي جمع اليهود فيها مقاتليهم وذخائرهم. وقد دخل سلام بن مشكم حصن النطاة رغم مرضه ليشارك في هذه الحرب. وقد مات في هذا الحصن(٢) وبموته تخلص المسلمون من أشهر قادة يهود خيبر. وقد استمر قتال المسلمين حول النطاة سبعة أيام يصبحون الحصن ثم يعودون في الليل الى معسكرهم في الرجيع. وكان المسلمون يشددون الحصار واليهود يردون الهجوم بالنبال والحجارة، ونقل جرحى المسلمين الى المعسكر للتداوي. وحرض الرسول أصحابه وحثهم على الجهاد ورغبهم في الثواب وفرق عليه السلام الرايات ولم تكن هذه الرايات الا بخيبر. وانما كانت قبلها الألوية(٤).

استفاد المسلمون من اليهود الذين يقعون في أيديهم لارشادهم على عورات الحصون ومعرفة أحوال اليهود منها، وقطع المسلمون أشجار النخيل في منطقة النطاة لاجبار اليهود على التسليم، ثم امتنعوا عن قطع هذه الأشجار بنصيحة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه(٥). وقد لحق المسلمون في حصار خيبر جوع شديد حتى أكلوا الحمر الأهلية، فنهى الرسول عن أكلها وامتنع المسلمون عن ذلك منذ ذلك اليوم(٦).

وفي اليوم السادس من الحصار قال ﷺ لمحمد بن مسلمة: «لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، لا يولى الدبر، يفتح الله عز وجل على يديه فيمكنه من قاتل أخيك»(٧). وفي صباح اليوم التالي بعث رسول الله إلـــى علي بن أبي

---

(١) انظر الواقدي: المغازي. جـ٢ ص٦٤٦.
(٢) انظر الديار بكري: الخميس، جـ٢ ص٤٥.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٣١.
(٤) انظر الدياربكري: الخميس، جـ٢ ص٤٥.
(٥) انظر الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٦٤٤، والديابكري، الخميس جـ٢ ص٤٦.
(٦) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٣١. وصحيح البخاري جـ٥ ص١٠٩. وبرهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية جـ٣ ص٥٤.
(٧) انظر المراجع السابقة والصفحات.

طالب رضي الله عنه وكان أرمد العينين، فمسح الرسول على عينيه وسلمه الراية ودعا له بالفتح .

ولما تسلم علي رضي الله عنه الراية قال لرسول الله : «أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا - فقال رسول الله أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم أدعهم الى الاسلام فإن لم يطيعوا لك بذلك فقاتلهم فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم»[1] .

وفي قول الرسول هذا رد على بعض المستشرقين الذين يقولون : ان المسلمين انما غزوا خيبر للحصول على ما فيها من الغنائم، وان الحجة التي تذرعوا بها، هي أن أهلها لم يكونوا على الاسلام، ففي هذا المعنى يقول مارجليوث ان الرسول غيرّ سياسته مع اليهود ومع المشركين ويذهب إلى : «أن سياسة الرسول قد طرأ عليها تطور عظيم منذ أيامه الأولى في المدينة عندما أعلن مساواة اليهود بالمسلمين في المعاملة، وأن يترك الوثنيين لا يتعرض لهم بسؤ، طالما كانوا بعيدين عن إظهار عدائهم للمسلمين . اما الآن فإن مجرد القول بأن جماعة ما مشركة أو يهودية أو غير مسلمة، يعتبر كافيا لشن الغارة عليها . وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد والتي دفعته الى شن غارات متتابعة، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبله ونابليون من بعده»[2] .

والذي أراه أن هذا القول يدل على جهل بمراحل تطور الدعوة الاسلامية، فقد بدأت الدعوة في السر ثم أعلنت في نطاق ضيق، ثم توسعت، ومع توسع نطاق الدعوة كانت تتنوع وسائل نشرها، ولم يكن السلب والنهب والتلصص كما يقول مارجليوث[3] وغيره من المستشرقين هدفا من أهداف الرسول ﷺ . فعندما كان المسلمون يتجهزون في المدينة لغزو خيبر جاءت الأعراب للرسول طالبين إليه أن يشركهم في الغزو، فعرف الرسول ما في نفوسهم من حب المغنم فقال مخاطبا المشركين والمسلمين على السواء «لا تخرجوا إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا! وبعث مناديا فنادى: «لا يخرجن

(١) أنظر البيهقي، أبي بكر احمد بن الحسين، بغية السائل عما حواه كتاب الدلائل مخطوط، المكتبة الظاهرية بدمشق رقم س ٢٨ جـ٢ ص١ . انظر ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مطبعة البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م جـ٣ ص٣٥١ .

(٢) "Muhammad & therise of Islam, PP. 362-363. 3rd ed London, 1932

(٣) Ibid.

معنا إلا راغب في الجهاد فأما الغنيمة فلا»[1]. وعلينا ان نتذكر ان اليهود الذين وادعوا المسلمين ظلوا في المدينة بعد جلاء القبائل اليهودية الثلاث الكبرى، وقد أظهروا عاطفتهم مع اخوانهم من يهود خيبر عندما عرفوا ان المسلمين يستعدون لغزوهم، ومع ذلك لم يتعرض لهم المسلمون بالأذى ولم يكرهوهم على شيء وبقوا على دينهم وأموالهم[2].

وقد تجلى التسامح الاسلامي في حرب خيبر حيث نهى الرسول ﷺ عن اغتصاب أي شيء من اليهود دون ثمنه[3]. وقد وقعت بأيدي المسلمين وهم يفتحون حصون خيبر صحائف من التوراة طلب اليهود إلى الرسول أن يعيدها إليهم، فأعادها إليهم دون أن يلحق المسلمون بها أي تلف[4].

يعلق ولفنسون على الحادثة السابقة الذكر فيقول: «ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان، ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسؤ لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حيث تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ بعد الميلاد. إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس، حيث أحرقوا أيضا صحف التوراة. هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام»[5].

وفي أثناء هجوم المسلمين على حصن ناعم حدثت مبارزة بين أبطال المسلمين واليهود، قتل على أثرها بطل خيبر «مرحب» الذي خرج للبراز مرتجزا.

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينا أضرب ... إذا الليوث أقبلت تحرّب[6]
إن حماي للحمى لا يقرب[7]

---

(١) الواقدي: **المغازي** جـ٢ ص٦٣٤.
(٢) انظر المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظر الواقدي: **المغازي**، جـ٢ ص ٦٩١. وابن سعد **الطبقات** جـ٢ ص١١٥.
(٤) انظر الواقدي: **المغازي** جـ٢ ص٦٨٠-٦٨١.
(٥) **تاريخ اليهود في بلاد العرب** ص ١٧٠.
(٦) تحرّب: اي مغضبة، القاموس.
(٧) انظر ابن هشام. **السيرة** جـ٢ ص٣٣٣. الواقدي: **المغازي**، جـ٢ ص٦٥٤-٦٥٥.

وخرج إليه محمد بن مسلمة وهو يقول:

قد علمت خيبـــر أنـي مــاض حلــو إذا شئـت وسم قـــاض

ويقال: إنه جعل يومئذ يرتجز ويقول:

يا نفس إلا تقتلــي تموتــي لا صبر تلي بعد أبــي النبيـت[1]

وهكذا نكب اليهود بموت سلام بن مشكم ومقتل بطل خيبر مرحب، وبعد موت ابن مشكم تسلم قيادة اليهـود الحارث أبي زينب. وقد قاد هذا هجمات شديدة على المسلمين كان يضطرهم للتراجع عن الحصون، وأخيرا تمكّن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من قتله.

وتتابع أبطال خيبر في المبارزة وقيادة اليهود في حرب شديدة لم يعرفها المسلمون من قبل وذلك لطولها واشتداد الجوع والحر على المسلمين، علاوة على شدة المقاومة التي أبداها اليهود، وبعد أن قتل أسير اليهودي وياسر أخو مرحب قال رسول الله ﷺ: «أبشروا قد ترحبت خيبر وتيسرت»[2]. ثم قتل بعد هؤلاء عامر اليهودي، وبذلك يكون أشهـر أبـطال خيبـر قد قتلوا بالمبارزة مع عدد كبير من اليهود، وقد أثر هذا في الروح المعنوية لليهـود وتوقعوا الهزيمة. وسقط حصن ناعم وهو من أمنع الحصون اليهودية، ولكن المسلمين لم يجـدوا به وافر الطعام الذي يفرج عنهم الجوع، وإذا لم يكن فيه طعام، فقد سهل فتح حصن الصعب بن معاذ الذي وجد به المسلمون أطعمة كثيرة. وقد وصف أحد شهود العيان ما وجدوه في الحصن فقال: «فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن أن هنـاك، من الشعير والتمر، والسمن، والعسل، والزيت، والودك ونادى منادي رسول الله ﷺ، كلوا واعلفوا ولا تحتملوا»[3]. وكان المسلمون قبل فتح هذا الحصن قد بلغ بهم الضنك مبلغا شديدا فتوجه بعضهم الى الرسول ﷺ وشكوا اليه حالهم وطلبوا ما يسد رمقهم، ولم يجدوا عند رسول الله ﷺ شيئا يعطيهم إياه فقال: «اللهم إنك قد عرفت حالهم وان ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعـطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاما وودكا»[4].

---

(١) ابي النبيت: كنية محمود بن مسلمة، انظر الواقدي المغازي جـ٢ ص٦٥٥.
(٢) انظر الواقدي: المغازي جـ٢ ص٦٥٧.
(٣) انظر الواقدي: المغازي جـ٢ ص٦٤٤. الودك: دسم اللحم ـ القاموس.
(٤) أنظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٣٢.

وعندما حاصر المسلمون حصن الزبير امتنع عليهم فجاءهم يهودي وعرض عليهم مساعدته مقابل الآمان له ولعياله، وعندما حصل على الأمان أرشدهم إلى قطع الماء عن المحصورين، وكان هذا الماء يجري في قناة مخفية تحت الأرض ويصل إلى داخل الحصن. واضطر اليهود في قلعة الزبير الى الخروج من القلعة والفرار من آطام الشق[١] ولما سقطت حصون النطاة شعر المسلمون بالراحة وقرب الانتصار لأن أهل النطاة كانوا أحدَّ اليهود وأهل النجدة منهم[٢].

وكان أشد القتال عند حصن النزار من حصون الشق، حيث امتنع به اليهود ورموا المسلمين بالنبل والحجارة، وقد أصابت نبال اليهود ثياب رسول الله ﷺ وسقط الحصن وغنم به المسلمون مغانم كثيرة وكان من جملتها صفية بنت حيي بن أخطب وابنة عمها[٣]. بعد سقوط قلعة الزبير ترك الرسول بقية حصون الشق لقلة أهميتها من الوجهة العسكرية واتجه بالمسلمين الى أرض الكتيبة حيث احتشد أكثر من ألفين من اليهود ومن نسائهم , وذراريهم[٤]. وكان حصن القموص حصن خيبر الأعظم، وهو لبني أبي الحقيق، أحصن حصون الكتيبة، ويقول ولفنسون: «كان لهذا الحصن اسم آخر وهو نزار ومعناه باللغة العبرية «التاج»»[٥].

ويفهم من الأخبار المتفرقة التي ذكرها المؤرخون ان الرسول استعمل المنجنيق وآلات الحرب التي غنمها من الحصون السابقة في ضرب حصون منطقة الكتيبة، ولما سقط الحصن عنوة، أيقن من بقي في حصني الوطيح وسلالم بالهلكة، فسألوا الرسول ﷺ أن «يُسَيِّرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل»[٦].

وهكذا نجد ان المسلمين فتحوا حصون خيبر عنوة إلا ما كان في أمر هذين الحصنين من حصون الكتيبة «الوطيح وسلالم».

ان التفاوت في عدد المقاتلين بين المسلمين يجعلنا نتساءل عن أسباب انتصار

---

(١) الواقدي: المرجع السابق جـ٢ ص ٦٦٦-٦٦٧.
(٢) المرجع السابق والصفحات.
(٣) المرجع السابق والصفحات.
(٤) الواقدي: المرجع السابق جـ٢ ص٦٦٤.
(٥) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٦٨.
(٦) ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٣٧.

المسلمين، ومع اننا نضع في اعتبارنا اتصاف المسلمين بالايمان، وبالقيادة الموحدة، فاننا نرى وجود عوامل أخرى أسهمت في إحراز هذه القلة المسلمة النصر على الكثرة اليهودية وحلفائها. وافترض ان هناك عاملين آخرين ساهما في النصر، أولهما المباغتة فاننا نجد أن أكثر المصادر التاريخية تذكر أن المسلمين صبّحوا خيبر وقد خرج اليهود كالعادة الى أعمالهم ومعهم مكاتلهم وكرازينهم ومساحيهم، فلما رأوا جيش المسلمين أصابهم الهلع والدهشة وصاحوا «محمد والخميس» وعادوا إلى حصونهم[1]. وقد فعلت هذه المفاجأة فعلها في نشر الفوضى والرعب بين صفوف اليهود بحيث حصرتهم مجموعات مجموعات في حصون متعددة، ولم يعطهم المسلمون الوقت لتنظيم صفوفهم.

والسبب الثاني: ان يهود خيبر لم يكونوا يدا واحدة، ويظهر ان حروبا ومنازعات كانت بينهم ولذلك واجهوا جيش المسلمين منقسمين على أنفسهم، فسهل هذا الانقسام هزيمتهم ويقوي هذا الافتراض بعض ما ورد من اشارات في المصادر التاريخية. فقد ذكر الواقدي ان جاسوسا من اليهود أتى النبي وأرشده الى الحصن الذي يحوي السلاح والطعام والودك وقال: «ان فيه آلة حصونهم التي كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضا»[2]. ويذكر في مكان آخر ان الرسول حرض أصحابه على الجهاد وأخبرهم ان اليهود قد أسلمها حلفاؤها وهربوا وأنها قد تجادلت واختلفوا فيما بينهم[3]. والله تعالى يقول فيهم ﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾[4].

ان هذه الافتراضات لا تقلل من أهمية غزوة خيبر، فعلى نتيجة هذه الغزوة يتوقف مستقبل الوجود اليهودي كله في بلاد الحجاز، كما على نتيجتها يتوقف المد الاسلامي في الجزيرة العربية وخارجها، وأهم من ذلك كله مستقبل قريش وزعامتها، لأن ابعاد اليهود من الصراع مع المسلمين يجعل مكة وجها لوجه وحيدة في هذا الصراع. لذلك كان القرشيون يتتبعون أنباء القتال في خيبر باهتمام زائد، وتكشف لنا الروايات التاريخية

---

(١) ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٣٠. والواقدي: **المغازي**، جـ٢ ص٦٤٢. **وصحيح البخاري**، جـ٥ ص١٠٨. والديار بكري، **الخميس** جـ٢ ص٤٥. وسيرة ابن سيد الناس جـ٢ ص١٣١. والمقريزي، إمتاع الاسماع جـ١ ص٣١١.

(٢) انظر الواقدي: **المغازي** جـ٢ ص٦٤٧ ومونتقمري وات، ومحمد في المدينة. الترجمة العربية ص٣٣٢.

(٣) الواقدي، **المغازي**، جـ٢ ص٦٤٦.

(٤) سورة الحشر، آية: ١٤. انظر أيضاً تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣٤٠.

مدى هذا الاهتمام وانشغال قريش به، فقد ذكر ان الحجاج بن علاط السلمي أسلم ورافق الرسول الى خيبر وذلك دون ان تعلم بأمره قريش، وبعد نصر خيبر استأذن الحجاج الرسول بالسفر الى مكة لجمع أمواله الباقية فيها، وأذن له الرسول ان يحتال ما شاء لجمع أمواله، إذ كان الحجاج من تجار مكة. ولما أشرف الحجاج على مكة استقبلته قريش والتفوا حول ناقته وهم يقولون: إيه يا حجاج ماذا حصل بخيبر؟ فاحتال عليهم وأخبرهم بان محمدا هزم هزيمة شنيعة، وان اليهود قادمون به إلى مكة ليقتل فيها بمن قتل من أبنائها، فاستبشر القرشيون وأظهروا الفرحة وأخذوا ينتظرون قدوم محمد إليهم، وقاموا يساعدون الحجاج في جمع أمواله، ولما علم العباس عم الرسول وأقاربه بمقولة الحجاج، امتعضوا أيما امتعاض، وأظهروا الحزن حتى أخبرهم الحجاج الخبر الصحيح، وطلب الحجاج الى العباس ان يشيع ما أخبره به من انتصار الرسول بعد ان يجمع أمواله ويغادر مكة بثلاثة أيام. ولما علم القرشيون من العباس الخبر اليقين، وان الحجاج احتال عليهم قالوا «يا لعباد الله! انفلت عدو الله أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن»[1].

★ صلح خيبر:

أشارت بعض المصادر التاريخية إلى معاهدة كتبت بين الرسول وبين بعض طوائف اليهود بما فيهم يهود خيبر، وقد وصلت الينا وثيقة تاريخية في هذا الصدد من مصدرين فيهما بعض الاختلاف، والمصدر الأول الذي أورد هذه المعاهدة هو البلاذري الذي أورد الوثيقة على صيغة أمان موجه من الرسول ﷺ إلى أهل حبيبة «الصواب حنينة» وأهل مقنا جاء فيه: سلم أنتم فإنه أنزل علي أنكم راجعون إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله، وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم، وكل دم اتبعتم به، لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله، وإنه لا ظلم عليه ولا عدوان. وإن رسول الله ﷺ يجيركم مما يجير منه نفسه، فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله، وإن عليكم

(١) أنظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص٣٤٥-٣٤٧، وابن سعد: الطبقات جـ٢ ص١٠٨. انظر كذلك، الشيخ ابي عبدالله محمد بن عبدالسلام بناني ت ١١٦٣هـ، مغاني الوفاء بمعاني الاكتفاء - ابي الربيع الكلاعي، مخطوط، بمكتبة القرويين - فاس المغرب، رقم ٢٧٥/٤٠ جـ٤ ص٢٦.

بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم[1]، وربع ما اغتزلت نساؤكم وأنكم قد برئتم بعد ذلكم ورفعكم رسول الله ﷺ عن كل جزية وسخرة، فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، ومن ائتمر في بني حبيبة «حنينة» وأهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له، وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله ﷺ. وكتب علي بن أبو طالب في سنة تسع»[2].

ووردت المعاهدة من مصدر آخر غير البلاذري، حيث اكتشف نص معاهدة مكتوب بالخط العبراني واللغة العربية في مخطوطة عثر عليها في إحدى المقابر اليهودية في مدينة الفسطاط بمصر، وهي الآن في جامعة كمبرج، وقد نشر لها هيرشفلد صورة شمسية في بعض مقالاته، ونقلها الدكتور محمد حميدالله إلى العربية وقابلها بما ورد بالمصادر الإسلامية، ونثبتها هنا نقلا عنه[3].

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾[4]

«هذا كتاب من محمد رسول الله لحنينا ولأهل خيبر والمقنا ولذراريهم، ما دامت السماوات على الأرض، سلام أنتم إنني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه أنزل عليّ الوحي إنكم راجعون إلى قراكم وسكنى دياركم، فارجعوا آمنين بأمان الله وأمان رسوله، ولكم ذمة الله وذمة رسوله على أنفسكم ودينكم، وأموالكم ورقيقكم وكل ما ملكت أيمانكم. وليس عليكم أداء جزية ولا تجز لكم ناصية، ولا يطأ أرضكم جيش ولا تحشدون ولا تحشرون ولا تعشرون ولا تظلمون ولا يجعل أحد عليكم رسماً، ولا تمنعون من لباس المشققات والملونات، ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح. ومن قاتلكم فقاتلوه، ومن قتل في حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية، ومن قتل منكم أحد المسلمين تعمداً فحكمه حكم المسلمين، ولا يفترى عليكم بالفحشاء، ولا

(١) عرككم: شباك صيدكم، القاموس.
(٢) البلاذري ،فتوح البلدان ص ٧١-٧٢.
(٣) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٩٣ وما بعدها.
(٤) إن إشارات الاستفهام والتعجب الواردة في النص تشير الى أخطاء نحوية او غيرها، لأننا ابقينا الأخطاء كما هي.

تنزلون منزلة أهل الذمة، وأن استعنتم تعانون وإن استرفدتم ترفدون، ولا تطالبون ببيضاء ولا صفراء ولا سمراء ولا كراع ولا حلقة، ولا شدَّ الكشتيز ولا لباس المشهَّرات، ولا يقطع لكم شسع نعل ولا تمنعون دخول المساجد ولا تحجبون عن ولاة المسلمين، ولا يُولِّى عليكم وال إلا منكم أو من أهل بيت رسول الله، ويوسع لجنائزكم إلا (الى؟) أن تصير إلى موضع الحق اليقين، وتكرموا لكرامتكم ولكرامة صفية ابنة عمكم. وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين ان تكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم؟ ومن سافر منكم، وهو (فهو) في أمان الله وأمان رسوله. ولا إكراه في الدين، ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته كان له ربع ما أمر به رسول الله لأهل بيته تعطون عند عطاء قريش وهو خمسون دينارا. ذلك بفضل مني عليكم، وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما في هذا الكتاب. فمن اطلع لحنينا وأهل خيبر والمقنا بخير فهو أخير له، ومن اطلع لهم بشر فهو شر له. ومن قرأ كتابي هذا، أو قرىء عليه وغيّر أو خالف شيئا بما فيه فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين، وهو بريء من ذمتي وشفاعتي يوم القيامة وأنا خصمه، ومن خصمني فقد خصم الله، ومن خصم الله فهو في النار... وبئس المصير. شهد الله الذي لا إله إلا هو وكفى به شهيداً وملائكته حملة عرشه ومن حضر من المسلمين.

وكتب علي بن أبو (!) طالب بخطه، ورسول الله يملي عليه حرفا حرفا يوم الجمعة لثالث (!) ليال خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة. شهد (عمار) بن ياسر وسلمان الفرارسي(!) مولى رسول الله وأبو ذر الغفاري.

ويتضح من مقارنة نصي المعاهدة أن بينهما علاقة وطيدة مع بعض الاختلافات، فالنص الأول جعل تاريخه سنة تسع بينما أرخ النص الثاني بسنة خمس، واسندت الروايتان كتابة الوثيقة الى علي بن ابي طالب، واشتمل النص الثاني على حقوق وامتيازات أكثر مما اشتمل النص الأول الذي أورده البلاذري، بعد أن أورد النص السابق للوثيقة. إن الوثيقة وصلت إليه من بعض أهل مصر الذين رأوا الصحيفة بعينها، وهي من جلد أحمر دارس الخط، مما يجعلنا نذهب الى القول بأن الصحيفة التي اكتشفت بالمقبرة اليهودية، إنما هي نفسها الصحيفة التي أوردها البلاذري بعد أن أضاف لها اليهود ما شاءوا وحسب الأحوال والمناسبات وقدموا تاريخها منعاً للالتباس.

ذكر محمد حميد الله في تعليقه على هذه الوثيقة أن الكتاب حمل سنة ٤٤٧هـ إلى رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن وزير القائم، فعرضه هذا على الخطيب البغدادي، فقال: «مزوّر لأن فيه شهادة سعد وقد مات قبل فتح خيبر بسنتين، وفيه شهادة معاوية وإنما أسلم سنة بعد خيبر عام فتح مكة.

واستدل بعضهم على تزوير الصحيفة بالقول: «لم تكن الجزية وقت فتح خيبر ولم تنزل آية الجزية إلا بعد سنتين من غزوة خيبر، ولم يكن على أهل خيبر كلف ولا سخرة في زمن رسول الله ﷺ حتى توضع عنهم. ولم يرد نص الكتاب وكان فيه شهادة سعد بن معـاذ ومعاوية بن ابي سفيان وكاتبه علي بن أبي طالب. وفيه إسقاط الكلف والسخرة والجزية، وكأنهم «صححوا» النص الأول الذي جعله الدكتور حميد الله تحت رقم ٣٤/أ وكتبوا أسماء عمار وسلمان وأبي ذر بدل سعد ومعاوية وأبقوا اسم علي ككاتب الصحيفة»[1].

والذي لا شك فيه أن هذه الصحيفة ملفقة، كما لفقت صحائف ومعاهدات كثيرة جداً بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه لأن الذين كانت لديهم وثائق صحيحة أقرهم عليها الخلفاء الراشدون ولم ينقضوا من شروطها شرطاً واحداً[2].

ونحن لا نستبعد أن كثيراً من البطون اليهودية والعربية عمدت بعد وفاة الرسول ﷺ، في عهد الاضطرابات بين بني أمية وهاشم إلى تزوير الكتب باسم الرسول لنيل بعض الحظوة والزلفى عند علي بن أبي طالب وآله بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

ومما يؤكد تزوير هذه الصحيفة اضافة لما سبق، أن جملة الكتب التي بيد اليهود منســوبة إلى خط علي كرم الله وجهه وفي هذا نظر لذي فهم يتأمله، فيبين له أن هذا الكتاب مزور مفتعل والدليل عليه من وجهين أحدهما أن علياً كرم الله وجهه هو الذي اخترع الكلام في علم النحو خشية من اختلاط كلام العرب بكلام النبط، فما كان عليه

(١) محمد حميد الله، نقلاً عن ابن القيم الجوزيه، انظر مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٩٥-٩٦.
أنظر ايضاً السمهودي، وفاء الوفاء جـ١ ص٣٢١.
(٢) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨٠

السلام ليخشى من شيء ويعتمد ما يؤدي إلى الالتباس، والثاني أن صلح رسول الله ﷺ لأهل مقنا إنما كان في غزوة تبوك فكيف ينسب هذا الكتاب إليه وهو غائب؟ ![1].

ويزيد الشك بهذه الصحيفة تاريخها بالسنوات الهجرية مع ان المسلمين لم يكونوا يؤرخون بالهجرية أثناء حياة الرسول[2]، هذا مع الجهل الواضح لكاتب الصحيفة بتاريخ الغزوات، فالمعروف أن تاريخ غزوة خيبر هو سنة سبع من الهجرة وليس سنة تسع.

ومع علمنا بوجود الكتب والأحاديث المزورة على لسان الرسول وأصحابه، فعلينا أن لا نشك بوجود كتب ومواثيق أخرى غير مزورة منحها الرسول ﷺ لبعض القبائل اليهودية والعربية لأيضاح ما لهم وما عليهم أو لمنحهم أمان المسلمين. ثم لا يعقل أن لا يكون هناك اتفاق مكتوب بين الرسول وأهل خيبر بعد أن صالح من صالح منهم، ذلك لأن الرسول ﷺ كان يحرص دائماً على تنظيم علاقاته مع غيره بنصوص مكتوبة وموقع عليها حتى لا يتهرب الجانب الآخر من عهوده ومواثيقه.

والذي أميل إليه أن الوثيقة الأصلية ربما اختفت بعد وفاة الرسول ﷺ، فعمد اليهود إلى تزوير صحيفة على لسانه ليفوزوا بهذه الحقوق والامتيازات الواردة بالصحيفة المزورة، مع أن هذه الامتيازات لم يكن يتمتع بها إلا آل بيت رسول الله ﷺ. وإذا أخذنا بالأقوال المتناثرة في المصادر الإسلامية حول صلح خيبر نرى ان هذا الصلح بمضمونه العام قد نص على ما يلي:

١ - اعلان اليهود الاستسلام والقاء السلاح.

١ - تسليم ما بحوزتهم من مال وحلقة ومتاع دون أن يكتموا المسلمين شيئا منها.

٣ - التخلي للمسلمين عن الأراضي والحصون.

٤ - إبقاء اليهود في خيبر لزراعة الأرض مقابل نصف الثمر، وإخراجهم منها إذا رأى المسلمون ذلك في أي وقت وتعويضهم عن ممتلكاتهم.

---

(١) انظر البلاذري، فتوح البلدان، هامش ص ٧٢.

(٢) هذه المسألة فيها خلاف بين الباحثين حتى الآن.

٥ ـ يتعهد الرسول ﷺ بحقن دماء المقاتلين من اليهود ونسائهم وذراريهم، ويمنع المسلمون من التعدي عليهم واغتصاب شيء من ممتلكاتهم دون ثمن.

وذكر ابن هشام أن محيصة بن مسعود أخا بني حارثة هو الذي سعى بالصلح بين الرسول ﷺ واليهود، وأن أهل خيبر وافقوا على البقاء على أموالهم مقابل النصف، لأنهم أعلم باستغلال ارضهم، كما وافقوا على الخروج من خيبر إذا رأى المسلمون ذلك[١]

وقد غنم المسلمون في خيبر غنائم كثيرة لم يغنم مثلها المسلمون من قبل ومن هذه الغنائم الأسلحة المختلفة الكثيرة، وكميات كبيرة من الذهب والفضة التي اشتهر بجمعها اليهود، كما غنموا انواع الغلال من اطعمة وأعلاف بالإضافة إلى الأمتعة المتنوعة[٢]. وكان أعظم غنم للمسلمين مزارع اليهود وبساتينهم التي كانت تغطي مساحات واسعة من حول خيبر. وإذا علمنا أن منطقة الكتيبة وحدها كان فيها أربعون ألف عذق (شجرة) من النخيل أدركنا حجم الغنيمة التي غنمها المسلمون في أرض خيبر[٣].

وقد قسمت مغانم خيبر على أهل الحديبية لأنها طعمة من الله، من شهد منهم ومن غاب، وكانوا ألفا وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، وقسمت على ألف وثمانمائة سهم، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبدالله فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها[٤].

وقسم رسول الله ﷺ خيبر إلى نصفين، الأول وزعه على أهل الخمس والقائمين على جمع موارد خيبر من المسلمين لأن هذا النصف فتح عنوة وعزل النصف الثاني ـ وهو الذي فتح صلحاً ـ لنوائبه وما يحتاج إليه من المسلمين[٥].

ولا شك أن هذه المغانم قد زادت في توطيد أركان الدولة الاسلامية الناشئة وارتفعت موارد هذه الدولة المالية ارتفاعا ملحوظاً، وأصبح الرسول ﷺ قادراً على الإنفاق على شؤون المسلمين أكثر من أي وقت مضى.

---

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٣٧. والواقدي: المغازي جـ٢ ص٦٩٠.
(٢) انظر المقريزي امتاع الاسماع حـ١ ص٣١٩-٣٢٠.
(٣) المرجع السابق والصفحة.
(٤) انظر ابن القيم الجوزيه، زاد المعاد، جـ٢ ص١٣٧-١٣٨.
(٥) المرجع السابق والصفحة.

★ زواج الرسول ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب اليهودية :

غنم المسلمون صفية وابنة عم لها بعد أن تم لهم فتح حصن القموص «النزار» وكانت السيدة صفية تحت كنانـة بن الربيع بن أبي الحقيق وكانت حديثة عهد بالزواج منه. وخرجت في سهم دحية الكلبي أحد أصحاب الرسول ﷺ. وقد عرض أحد المسلمين أمر هذه السيدة على النبي وقال له: إن هذه سيدة بني قريظة والنضير ولا تصلح إلا لك، فاستصفاها الرسول ﷺ من دحية، فتنازل عنها للرسول ﷺ.

وكان اول ما قام به الرسول تجاه صفية أن أعتقها وخيرها بين البقاء على دينها أو الاسلام فاختارت الإسلام. ولو كانت الدوافع الجسدية ـ كما يتبادر لذهن البعض ـ وراء هذا الزواج لما كانت هناك حاجة لأن يعتقها الرسول ويخيرها بين البقاء على دينها أو الأسلام، ولو اختارت دينها لترك لها الرسول حرية العودة إلى أهلها لأنها أصبحت حرة بعد العتق.

وقد يتساءل الانسان إذن عن دوافع هذا الزواج؟ . . . وأرى بأن الدوافع إنسانية بحتة، فإذا كان عالم اليوم يتخبط في وضع مواثيق الحرب وقوانينها التي تحفظ للأسرى كرامتهم فإن الـرسول ﷺ، ضرب أروع آيات التسامح والمحافظة على كرامة الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين، وبخاصة بعد انتصار المسلمين في خيبر. فقد قويت أركان الدولة الإسلامية، ولم يعد اليهود يشكلون ذلك الخطر على هذه الدولة كما كان الأمر من قبل. وصفية ابنة سيد وامرأة سيد لا توهب هكذا كما توهب السبايا الأخريات، ولهذا أراد الرسول من زواجه منها الحفاظ على منزلتها، تمشيا مع القاعدة القائلة «أكرموا عزيز قوم ذل» وليس أكرم لها وأجبر لخاطرها من أن تكون زوجة النبي ﷺ بدلا من أن تكون مملوكة عند رجل من عامة الناس[1] سيما وقد لحقها من النوائب والمصائب ما يثير عندها أشد الحزن. وقد حسن اسلام صفية وأصبحت من أمهات المسلمين المشهورات وكان الرسول يبالغ في إكرامها ويراعي شعورها كإمرأة عزيزة في قومها فقدت الوالد والزوج والأحبة.

وما دمنا بصدد الكلام عن صفية يجدر بنا التعرض لحادثتين لهما اتصال بالسيدة صفية، وفيهما تسامح اسلامي وخلق نبوي، وأول هاتين الحادثتين أن بلالا مَرَّ بصفية

(١) انظر المقريزي: إمتاع الأسماع جـ١ ص٣٢١. وابن القيم: زاد المعاد، جـ٢ ص١٣٧.

وابنة عمها في الطريق إلى رحل الرسول بقتلى اليهود في خيبر. فصاحت ابنة عمها صياحا شديدا، فكره الرسول ﷺ ذلك وقال مخاطبا بلالا: «ذهبت منك الرحمة تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟ فقال: يا رسول الله: ما ظننت أنك تكره ذلك وأحببت أن ترى مصارع قومها»(١).

والحادثة الثانية تكشف عن كرم معاملة الرسول لها ومنزلتها عنده. فقدذ قالت السيدة صفية: «كنت ألقى من أزواج النبي ﷺ يفخرن علي، يقلن: يا إبنة اليهودي وكنت أرى رسول الله ﷺ يلطف بي ويكرمني، فدخل عليّ يوماً وأنا أبكي، فقال: مالك؟ فقلت: أزواجك يفخرن عليّ ويقلن: يا ابنة اليهودي، قالت فرأيت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال: إذا قالوا لك أو فاخروك فقولي: أبي هارون وعمي موسى»(٢).

وقد خشي أصحاب الرسول عليه ليلة عرسه بصفيه. جاء في سيرة ابن هشام: «ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر أو ببعض الطريق، وكانت جمّلتها لرسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك، فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار، متوشحا سيفه يحرس رسول الله ﷺ، ويطيف بالقبة، حتى اصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: ما لك يا ابا أيوب؟ قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت اباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك»(٣).

لم يكن تخوف المسلمين على الرسول في غير مكانه فقد حاولت زينب ابنة الحارث اليهودية تسميم الرسول انتقاما لأخيها «مرحب» وأبناء قومها الذين قتلهم المسلمون، فقد ذبحت «عنزا» لها وطبختها وسممتها وزادت السم في ذراعي العنز لأنها علمت أن أحب ما في الشاة للرسول الذراعان. وفي مساء أحد الأيام في خيبر عرضت زينب للرسول عند رحله وقدمت له الشاة هدية: فأمر بها رسول الله فوضعت بين يديه، ودعا أصحابه ليأكلوا. فتناول الذراع، وتناول بشر بن براء لحماً من أمامه، وانتهش رسول الله ﷺ، الذراع ولاك منه مضغة فلم يسغها. وقال لأصحابه: كفوا ايديكم فإن هذه الذراع تخبرني انها مسمومة! فقال بشر بن البراء: والله يا رسول الله، وجدت ذلك من أكلتي التي أكلت، فما

(١) انظر المقريزي، امتاع الاسماع جـ١ ص٣٢١. وابن القيم: زاد المعاد جـ٢ ص١٣٧
(٢) انظر الواقدي، المغازي حـ١ ص١٣٧، جـ٢ ص٧٥د.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٣٩-٣٤٠.

منعني أن ألفظها إلا كراهية أن أنغص عليك طعامك. ولما جاءوا بزينب، اعترفت بذلك وقالت: إن الذي حملها على ذلك ما لحق قومها على أيدي المسلمين. وقالت: لقد قلت في نفسي، ان كان محمد ملكاً استرحنا منه وان كان نبياً سيخبر بذلك ولن يصيبه شيء. وكان الرسول يشكو آثار هذا السم حتى توفى بعد ذلك بثلاث سنوات(١).

ولم يقتل المسلمون أحداً بعد صلح خيبر إلا ابني ابي الحقيق كنانة والربيع، وذلك أنهم عاهدوا الرسول أن لا يكتموا عنه شيئا من أموالهم، وغيبوا مسكا «جلد جمل» فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان قد احتمله معه الى خيبر حين أجليت النضير، ولما سألهم عنه الرسول انكروه وادّعوا أنهم انفقوه في الحروب، ولما وجده الرسول ﷺ قتلهم لنكثهم(٢).

وقد اتسمت معاملة المسلمين ليهود خيبر فيما بعد بالتسامح والعدل، وكان رسول الله ﷺ يبعث عبدالله بن رواحة ليخرص عليهم النخل، ولما قتل ابن رواحة بمؤتة خرص عليهم ابو الهيثم بن التيهان قيل: جبار بن صخر وقيل فروة بن عمرو، وجعل المسلمون يقعون في حرث اليهود وبقلهم بعد المساقاة، فشكى اليهود ذلك الى رسول الله ﷺ، فقام رسول الله وخاطب جماعة المسلمين قائلا: «إن يهود شكوا إليّ أنكم وقعتم في حظائرهم وقد أمناهم على دمائهم وعلى أموالهم التي في أيديهم وفي أراضيهم وعاملناهم، وإنه لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها» فكان المسلمون لا يأخذون شيئا من بقولهم إلا بثمن(٣).

تساءل بعض المستشرقين عن سبب هذه المعاملة التي عامل بها الرسول يهود خيبر، بخلاف ما عامل به يهود يثرب؟

والذي أراه أن سبب هذه المعاملة يعود لكون خيبر واحة واسعة الأطراف كثيرة

(١) انظر ابن هشام، **السيرة** جـ٢ ص٣٣٧-٣٣٨. والواقدي: **المغازي** جـ٢ ص٣٣٧-٣٣٨. وابن سعد: الطبقات جـ٢ ص١٠٧، وابن عبدالبر: **الاستيعاب**، جـ١ ص١٦٧ والقاضي عياض: **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، فصل احياء الموتى، مخطوط سبق ذكره. والدياربكري: **الخميس** جـ٢ ص٥٢. وابن القيم الجوزيه: **زاد المعاد** جـ٢ ص١٣٩. والمقريزي: امتاع **الأسماع**، جـ١ ص٣٢١ - ٣٢٢. وبرهان الدين الحلبي: **السيرة الحلبية** جـ٣ ص٦٣
(٢) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٣٧.
(٣) انظر المقريزي: إمتاع الأسماع جـ١ ص٣٢٨.

البسـاتين وأراضيها الزراعية بحاجة إلى عدد كبير من المزارعين، ولم يكن هذا العدد متوفرا عند المسلمين لاشتغالهم بأمر القتال والحروب، فرأى الرسول ﷺ أن بقاء اليهود يعملون في مزارعهم وهم اصحـاب الخبـرة الواسعة في اعمال الفلاحة، سيعود على الخـزانـة الإسـلامية بالخير، ثم إن اليهـود لم يعودوا يشكلون خطرا على كيان الدولة الإسلامية الناشئة بعد ان خضدت شوكتهم في خيبر، وكان النبي ﷺ يرى بثاقب نظره أنه لن يمضي طويل وقت حتى يكون الإسلام قد عم سائر أرجاء الجزيرة العربية. فقد ذكرنا أن فتح خيبر إنما هو مقدمة لفتح مكة حصن الوثنية في الجزيرة، ولما فتح المسلمون خيبـر اصبـح امـر مكة مرهوناً بحفاظها على شروط هدنة الحديبية، وفي الوقت الذي تنقض عهـدهـا لن يقعد عنها المسلمون، وحتى لو لم تنقض مكة عهدها فإن زيارة المسلمين لها في مواسم الحج كفيل بزعزعة الوثنية فيها نظراً لاعداد المسلمين الكثيرة التي ستفد إلى مكة لتؤدي الشعائر فيها وما يتبع ذلك من نشر الأفكار الإسلامية.

وقد اشترط الرسول على اهل خيبر إخراجهم في أي وقت يشاء، لأنه علم أن اليهود لا يحافظون على عهودهم، فوضع هذا الشرط ليكون اليهود على علم بما سيصيبهم إن هم نكثوا عهدهم.

ويذكر ولفنسون سبباً آخر لهذه المعاملة، وهو أن يهود خيبر لم يفعلوا ما يوغر صدر الرسول ويثير حقده عليهم كما فعل غيرهم وكل ما كان منهم لا يعدو اشتراك بعض زعماء بني النضير اللاجئين الى يهود خيبر في تحريض زعماء غطفان وقريش ضد المسلمين يوم الخندق[1]

هذا وإنني أرى في قول ولفنسون السابق نصيباً من الصحة، ذلك أن يهود خيبر لم يعودوا يشكلون خطراً على المسلمين وبخاصة بعد مقتل زعماء بني النضير الذين كانت لهم الـرياسـة على اليهـود وكانوا المحرضين على حرب الرسول، وهذا دليل على أن الـرسـول ﷺ لم يقس على اليهود.إلا حفاظاً على مصلحة المسلمين العامة من خطر اليهود، فلما زال هذا الخطر مدّ لهم يد التسامح والعدل. وقبل أن ننهي الحديث عن يهود خيبر، علينا أن نشير إلى أن هذا الفتح إنما هو نتيجة من نتائج الحديبية ذلك الفتح

(١) تايخ اليهود في بلاد العرب ص ١٦٩.

العظيم الذي قال عنه الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه»[1].

★ يهود فدك[2]

كان معظم سكان فدك من اليهود وإلى جوارهم بنو مرة[3] ولما فتحت خيبر أكبر معاقل اليهود في شمال الجزيرة خافت بقية اليهود في المستوطنات المتفرقة من حول خيبر ان يصلهم جيش محمد ﷺ. وبينما كانت حصون خيبر تتساقط الواحد تلو الآخر، كانت أخبار خيبر عند هؤلاء اليهود، فأراد الرسول ان يستغل خوف اليهود هذا، فبعث إلى يهود فدك محيصة بن مسعود الأنصاري، يدعوهم إلى الإسلام، ويستطلع أخبارهم، ويقف على نياتهم، ويقال بأن رئيسهم يوم ذاك رجل يقال له: «يوشع بن نون اليهودي»[4] ولما بلغهم ان خيبر فتحت وصالحت رسول الله ﷺ، ارسلوا وفداً منهم الى رسول الله صالحه على أمر فدك، ولا يعرف فيما اذا كان وفد فدك قد عقد الصلح في خيبر او الطائف أو بعد عودته في المدينة[5]. وبموجب هذا الصلح صار نصف ارض فدك خالصاً لرسول الله ﷺ، أخذها بغير إيجاف خيل ولا ركاب، وأبقاه بيد أهلها يعملون في الأرض مقابل نصف الثمر[6].

---

(١) ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٢٢.

(٢) فدك إحدى القرى القريبة من خيبر بها ماء ونخل كثير «ويقال لها الخويط» وقال الزجاجي سميت بفدك بن حام وكان اول من نزلها وقد ذكر غير ذلك وهو في ترجمة أجـا وينسب إليها أبو عبدالله محمد بن صدقة الفدكي، سمع مالك بن أنس وروى عنه إبراهيم بن المنذر الخزامي وكان مدلسا . . . قال زهير:

لئن حللت بجزء في بني أسد ... في دين عمرو وحالت بيننا فدك
ليأتينك مني منطق قذع ... باق كما دنس القبطية الودك

أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ٦ ص٣٤٥. ومصطفى مراد الدباغ، جزيرة العرب جـ١ ص١٢٩.

(٣) انظر ابن سعد، الطبقات جـ٢ ص١١٩.

(٤) انظر البلاذري، فتوح البلدان ص٤٢.

(٥) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٥٣.

(٦) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٥٣، والبلاذري فتوح البلدان، ص٤٢ وما بعدها. المقريزي، إمتاع الاسماع، جـ١ ص٣٣١. والدياربكري الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ٢ ص٥٨.

★ وادي القرى[١]

بعد أن انصرف المسلمون من خيبر توجهوا الى وادي القرى وسكانه من اليهود، ولما علموا بمجيء الرسول اليهم تهيؤوا للحرب وخرجوا للقتال، وقد حاصرهم الرسول عدة ليال حتى فتحها عنوة، وأصاب المسلمون فيها أثاثا ومتاعاً فخمس الرسول ﷺ ذلك وترك النخل والأرض في أيدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر[٢].

★ تيمـاء:

عندما علم يهود تيماء ما نزل بإخوانهم من يهود خيبر ووادي القرى وفدك، طلبوا مصالحة الرسول ﷺ، فصولحوا على الجزية وأقاموا على أموالهم[٣]وقد ذكر محمد حميد الله نص الأمان الذي اعطاه محمد رسول الله ﷺ الى يهود بني عاديا من تيماء جاء فيه.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عاديا: إن لهم الذمة وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء الليل مد، والنهار شد. وكتب خالد بن سعيد[٤]:

وقد صالح بقية اليهود في مقنا وجربا وحنينا على مثل ما صالح عليه بقية اليهود[٥]. وهكذا فقد اليهود استقلالهم السياسي ولم يعد لهم ذلك النفوذ الاقتصادي والاجتماعي والفكري في شمال الجزيرة العربية، واخذت حالهم تسوء شيئا فشيئا حتى اجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب من الديار الحجازية.

---

(١) هو مجموعة من القرى في واد خصيب بين المدينة والشام، قال فيه الشاعر:

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادي القرى اني اذا لسعيد
وهل ارين جملا به وهي أيم ... وما رث من حبل الوصال جديد

أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ٨ ص٣٧٥.

(٢) انظر البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٧، والديار بكري، الخميس. جـ٢ ص٥٨. والسمهوري، وفاء الوفاء جـ١ ص٥٨.

(٣) انظر البلاذري، فتوح البلدان ص٤٨.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ص٧٣ وثيقة رقم (١٩).

(٥) المرجع السابق ص ٩٣، وثيقة رقم (٣٤).

ويستشهد ولفنسون على تدهور احوالهم الاقتصادية برواية الواقدي، التي تقول على لسان راويته «كنا بالمدينة والمجاعة تصيبنا فنخرج الى خيبر فنقيم بها ما أقمنا ثم نرجع، وربما خرجنا الى فدك وتيماء، وكان اليهود قوما لهم ثمار لا تصيبها قطعه[1] أما تيماء فعين جارية تخرج من اصل جبل لم يصبها قطعه منذ كانت، وأما خيبر فماء واتن، فهي مُغَفَّرة (مغطاة) في الماء، وأما فدك فمثل ذلك، وذلك قبل الاسلام فقال اصحابي:

ان البلاد ليس كما كانت، نحن قوم مسلمون وإنما نقدم على قوم اهل عداوة وغش للإسلام وأهله، وكنا قبل ذلك لا نعبد شيئا، قالوا: قد جهدنا فخرجنا حتى قدمنا خيبر، فقدمنا على قوم بأيديهم الأرض والنخل ليس كما كانت فقد قتل سراة اليهود وأهل السِّعة منهم . . . وكنا نكون في الشّق يوما وفي النطاة يوما وفي الكتيبة يوما فرأينا الكتيبة خيرا لنا. . . .»[2].

والذي اراه انه لا بد من تقهقر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في منطقة خيبر بعد زوال الكيانات اليهودية، فمن البديهي ان يتبع هزيمة اليهود السياسية والقومية تقهقرا في مجالات الحياة الأخرى. وليس المسلمون هم المسؤولون عما أصاب اليهود من ذل وتخلف، فقد جنوا على انفسهم بمحاربتهم الدعوة الاسلامية وتحالفهم مع الوثنية في سبيل قتل دعوة التوحيد التي نادى بها رسولهم موسى عليه الصلاة والسلام. كما ان ما يقال عن التدهور الاقتصادي في خيبر ليس وقفا عليها، ذلك أن النشاط الزراعي والصناعي في بلاد الحجاز قد اصابه التخلف بوجه عام بسبب انصراف سكان الجزيرة الى الفتوح وانشغالهم عن الاهتمام بشؤون الزراعة والصناعة.

كانت معارك خيبر نهاية الصراع المسلح بين المسلمين واليهود، ولم يعد لليهود بعد هذه المعارك القدرة البشرية والاقتصادية والسياسية للقيام بحروب جديدة لأن غزوة خيبر انهت القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ليهود جزيرة العرب.

وقد ترتب على هذا ان هدأت الخصومة الكلامية ووقف تيار المطاعن والمثالب التي كانت بين الطرفين، ويستشهد بعضهم على ذلك بأن الرسول ﷺ لم ينزل عليه شيء

(١) قطعه : أي قطع الماء.

(٢) الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٦٣٤. تاريخ اليهود في بلاد العرب ص١٧٣.

كثير من الآيات القرآنية التي تتضمن ذم اليهود والطعن فيهم بعد هذه الغزوة على خلاف ما كان من ذلك في الفترة التي كانت بين يوم بدر وغزوة خيبر[١].

ويستفاد من بعض الروايات التاريخية[٢] ان بعض اليهود قد بقوا في المدينة ولم يهجروها، كما ان بعضا من اليهود ممن هاجر منها قد عاد اليها، وقد صرف المسلمون النظر عن هؤلاء العائدين للاستفادة منهم في الأمور الصناعية التي كان يعمل بها هؤلاء من قبل، سيما وأنهم لم يعودوا يشكلون خطرا يخشى منه على الجماعة الإسلامية.

ومما يدلنا على وجودهم في المدينة انه لما توفي عبدالله بن ابيّ بن سلول زعيم الخزرج ورأس المنافقين في المدينة، بكاه اليهود ونثروا التراب على رؤوسهم حزنا عليه[٣]. عاش اليهود عهدا من التسامح في حياة الرسول ﷺ بعد خيبر، فقد منحهم عهود الأمان وكفل لهم حريتهم الدينية والاقتصادية. ولما كانت غزوة تبوك اظهر اليهود عداءهم القديم بتعاونهم مع المنافقين في تثبيط عزائم المسلمين عن الغزو مع الرسول ﷺ، وكان نفر من المنافقين يجتمعون في بيت بعض اليهود فأمر عليه الصلاة والسلام طلحة بن عبيد الله ان يخرب عليهم البيت فخربها[٤].

وفي رجوعه ﷺ من تبوك صالح أهل دومة الجندل وأيله وتيماء وأذرح، فقد اوردت المصادر التاريخية عهودا من الامان والتسامح الى اهل الذمة بعامة بما فيهم اليهود، وذكرت هذه المصادر أن الرسول كتب كتابا إلى يحنه بن رؤبة وأهل ايلة جاء فيه:

«هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤبة وأهل ايله، بسفنهم وسائرهم في البر والبحر. لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معه من اهل الشام واهل اليمن وأهل البحر، ومن احدث حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وانه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل ان يمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقا يريدونه من بر وبحر، هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله ﷺ، ووضع رسول الله ﷺ الجزية على اهل أيلة، ثلاثماية دينار كل سنة، فكانوا ثلاثماية رجل»[٥]

(١) انظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧٥.
(٢) انظر الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٦٣٤ ومابعدها.
(٣) انظر المرجع السابق جـ٣ ص١٠٥٩-١٠٦٠.
(٤) انظر ابن خلدون: تاريخ «مكتبة النهضة المصرية» ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م جـ٢ ص٢٤٤.
(٥) الواقدي: المغازي جـ٣ ص١٠٣١.

وكتب عليه السلام لأهل جربا وأذرج: «انهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة اوقية طيبة وأن الله عليكم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين[1].

كذلك كتب الرسول لأهل نجران من نصارى ويهود، ولأهل اليمن كتبا مماثلة يبين لهم فيها من حقوق وما عليهم من واجبات، ويتضح مما جاء في هذه الكتب ان الجزية فرضت على اهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم، وحددت كتب الرسول مقدار هذه الجزية، كما كفلت هذه الكتب لليهود حرية الدين والعمل وطلبت الى المسلمين مساعدتهم وحمايتهم وعدم الإضرار بهم. ويمكن أن يقال: إن رسول الله ﷺ قد أصدر أمان المسلمين إلى جميع ساكني الجزيرة العربية من اصحاب الديانات وغيرهم، وأخذ على المسلمين معاملتهم بالحسنى ما داموا يحافظون على عهودهم ولا يؤذون المسلمين. وبهذه العهود والمواثيق فتح المسلمون عهداً جديداً من التسامح والعدالة إيذاناً بولادة مجتمع جديد تحكمه قوانين الإسلام العادلة.

---

(١) انظر ابن كثير: البداية والنهاية جـ٥ ص١٦-١٧.

الفصــل الثامــن

العرب واليهود في عهد الخلفاء الراشدين

★ في عهد أبي بكر.
★ اليهود في عهد عمر.
★ اليهود ومقتل الخليفة عمر.
★ الفتنة في عهد عثمان ودور السبئية.
★ السبئية في خلافة علي بن أبي طالب.
★ الاسرائيليات.

الفصل الثامن

العرب واليهود في عهد الخلفاء الراشدين

★ في عهد أبي بكر:

ارتدت كثير من القبائل العربية في عهد الخليفة الأول أبي بكر، وسادت الفوضى وضعف الأمن «واشر أبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق»[1]. وكانت الردة أعظم حدث واجهه أبو بكر رضي الله عنه في صدر خلافته. ويمكن أن يقال ان الردة كانت أعظم حدث هدد كيان الأمة الاسلامية لما نشرته من اضطرابات وأحيته من عصبيات، وبما صدر عن المرتدين من مخالفات لتعاليم الاسلام واصرار على تحريفه والتشكيك فيه.

لم تذكر المصادر التاريخية شيئا يُعْتَد به عن دور اليهود في حوادث الردة، غير أن الباحث المدقق لا يمكنه الاطمئنان (الى) سكوت هذه المصادر، ذلك أن عددا كبيرا من اليهود بقي في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية - في المدينة وخيبر، وفدك، ووادي القرى، وتيماء، وجربا وأيله وفي نجران واليمن وغيرها - كما تفرق الذين خرجوا من بلاد الحجاز في فلسطين وسوريا والعراق. ولا يعقل ان لا يتدخل اليهود في مثل هذه الحوادث التي كادت تودي بالدولة الاسلامية الفتية لولا إرادة الله سبحانه وتعالى وثبات أبي بكر والمسلمين المخلصين من حوله، وفي وسط الاضطراب الذي عم بلاد العرب تصور الكثيرون أن عهد الاسلام قريب الزوال. ونتساءل بعد هذا عن السبب في عدم اشتراك اليهود اشتراكا مسلحا في هذه الأحداث؟!

وقبل الاجابة على هذا التساؤل علينا ان نتذكر أن اليهود لم يتخلوا عن حقدهم على الاسلام والمسلمين، كما لم يتخلوا عن تعاونهم مع المنافقين، فقد رأيناهم بعد خيبر في حياة الرسول ﷺ يبكون عبدالله بن أبي وينثرون[2] التراب على رؤوسهم حزنا

(١) ابن كثير، البداية والنهاية جـ٥ ص٢٧٩.
(٢) انظر ص ٣٨٥ من هذا البحث.

عليه، كما رأيناهم يتعاونون مع المنافقين ويفتحون بيوتهم لهم، ولا شك أنهم كانوا يترقبون الفرص التي تمكنهم من الثأر من المسلمين، ووجدوا هذه الفرصة على أحسن ما تكون في حوادث الردة، فما كان دورهم إذن؟

لم يشترك اليهود في حوادث الردة بالسلاح لأنهم فقدوا هذا السلاح في حروبهم من قبل مع المسلمين، وفقدوا مع سلاحهم ثقتهم بالقبائل العربية، وفقدوا في حروبهم زعماءهم، كما فقدوا ثروتهم وأصبحوا يعيشون على هوامش الاحداث لا يعبأ بهم، ولم تعد لهم تلك الثروة التي يطمع بها العرب، ولا تلك المنعة التي كانوا يمتنعون بها. لذلك فقدوا عناصر القدرة على حرب المسلمين حربا مكشوفة، ولم يبق لهم الا سلاح النفاق والدسيسة، ولا يشك بأنهم استعملوا هذا السلاح. فقد كانت العوامل الأجنبية ومنها الدعاية اليهودية وراء حوادث الردة(١). كما أن حركة الأسود العنسي باليمن أثارتها كثرة الأديان في اليمن بما فيها اليهودية في عهد الرسول ﷺ وبعده(٢).

وذكرت الروايات ان سجاح التميمية كانت قد تنصرت وحقدت على المسلمين وانحدرت الى الجزيزة العربية من جهات الفرات، وكانت تسكن هناك جالية يهودية نشيطة، ربما كانت وراء حركة سجاح هذه، لانه تبين ان سجاح انما تنصرت لتكسب النصاري العرب الى جانب حركتها. لانها ادعت النبوة فيما بعد واتصلت بمسيلمة الكذاب واتفقت معه في نبوءته وتخلت عن نصرانيتها. ويعزز هذا الاتجاه ما ذكرته بعض المصادر من ان المسلمين أسروا امرأة يهودية مع المرتدين أثناء حروبهم كانت قد اشتركت معهم ولجأت الى حصونهم(٣). وقد ذهبت بعض الروايات الى أن أبا بكر رضي الله عنه مات بالسم الذي دسه اليهود في أكلة من اكلاته(٤)، كما ذكرت بعض المصادر التاريخية أن فريقا من اليهود ناصروا طليحة الأسدي الذي ارتد في حياة الرسول وادّعى النبوة واستطار شرّه بعد وفاة الرسول ﷺ. (٥)ولم تذكر هذه المصادر شيئا عن هؤلاء بعد القضاء على فتنة الردة.

---

(١) انظر محمد حسنين هيكل، الصدّيق أبو بكر - الطبعة المصرية، ط٤ ١٩٥٨م ص٨٥.
(٢) المرجع السابق ص ٩٠.
(٣) انظر البلاذري، فتوح البلدان ص ١١١.
(٤) انظر الطبري تاريخ ج٣ ص ٤١٩. الديا بكري، الخميس في أحوال أنفس نفيس ج٢ ص ٢٣٦.
(٥) انظر تاريخ في المغازي والفتوح لمؤلف مجهول، مخطوط سبق ذكره، ورقة ٤٨.

وهكذا نجد أن اليهود كانو يعيشون في غيبوبة في عهد أبي بكر بعد الضربة القوية التي تلقوها في عهد الرسول، لهذا فلم يتمكنوا من استغلال الحوادث أو المساهمة فيها بشكل مؤثر وفعال. وبعد أن أعاد أبو بكر الأمن الى نصابه ونجح في القضاء على الفتن والثورات في طول البلاد وعرضها، ظل اليهود على عهودهم لا يضار أحدهم ولا يفتن يهودي عن يهوديته، يدفعون الى بيت المال ما اتفق عليه من حاصلاتهم أو جزية رؤوسهم[1]. وكتب أبو بكر لأهل نجران كتابا مشابها لكتاب الرسول ﷺ جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم».

«هذا ما كتب به عبدالله أبو بكر، خليفة محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران: أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على أنفسهم وأرضهم وملتهم وأموالهم وماشيتهم وعبادتهم، وغائبهم وشاهدهم، وأساقفتهم ورهبانهم، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يحشرون، ولا يغير أسقف من أسقفيته ،ولا راهب من رهبانيته، وفاء لهم لكل ما كتب لهم محمد النبي ﷺ وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي «عليه السلام» أبدا. وعليهم النصح والصلاح فيما بينهم من الحق.

شهد المسور بن عمرو ـ أحد بني القين ـ وعمرو مولى أبي بكر، وراشد بن حذيفة، والمغيرة وكتب[2]. وقد وجه هذا الكتاب الى نصارى نجران ودخل يهودها فيه[3]

لم تشر المصادر التاريخية بشيء الى أحوال اليهود في سوريا والعراق والراجح ان هؤلاء كانوا يمارسون أعمالهم التجارية والصناعية بكل حرية، وان الذين كانوا في العراق كانوا على جانب كبير من الثراء، ولم يتعرض لهم المسلمون في عهد أبي بكر بشيء يسيء الى نشاطهم الاقتصادي أو الديني، لأن أبا بكر سار على سياسة التسامح التي اتبعها الرسول معهم في خيبر.

★ **اليهود في عهد عمر:**

سار عمر بن الخطاب على سياسة من سبقه في التسامح مع اليهود خاصة وأهل الذمة عامة، ففي عهد هذا الخليفة تم فتح بلاد العراق واستولى المسلمون على كثير من

---

(١) انظر البلاذري: فتوح البلدان ص ٧٧.
(٢) محمد حميدالله، الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ص ١٥٨، وثيقة رقم (٩٨).
(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧٧.

المراكز العراقية التي كان يعيش فيها اليهود، وكان هؤلاء اليهود كسائر أصحاب الديانات الاخرى في نظر الفاتحين المسلمين، فمنهم من دان بالاسلام ومنهم من أقام على تأدية الجزية.

ويظهر أن اليهود والنصارى في العراق استبشروا بالفتوحات الاسلامية وساعدوا الفاتحين المسلمين، وذلك لأنهم كانوا يستثقلون وطأة حكم الفرس الوثنيين ولا سيما في أخريات أيامهم حيث كان الضعف والانهيار قد ظهر في دولتهم[1].

جاء في بعض الروايات ان رأس الجالوت ـ وهو أكبر منصب ديني عند اليهود ـ قدم الى عمر بن الخطاب وقدم له خدمات جليلة أفاد منها المسلمون، ومقابل هذه الخدمات حصل رأس الجالوت على عهود ومواثيق من الخليفة عمر لصالح اليهود[2].

وبعد أن دانت سوريا والعراق ومصر للدولة الاسلامية تغيرت سياسة عمر بن الخطاب من اليهود والنصارى الذين يسكنون ما بين نجران وأطراف سوريا، وانتهج معهم سياسة تقوم على تحويل هذه البلاد الى بلاد اسلامية خالصة وخالية من أصحاب الديانات الاخرى، ومنح لهم حرية العمل والعقيدة في الاقطار خارج الجزيرة العربية وطلب من المسلمين انصافهم وتقديم كل مساعدة يطلبونها او يحتاجون إليها.

وفي سبيل تنفيذ سياسته الاسلامية هذه رأى عمر أن يطهر الأجهزة الادارية في الجزيرة العربية من غير المسلمين، فقد ذكرت بعض الروايات ان عمر طلب الى عامل اليمن أبي موسى الأشعري ان يسرح كاتبه اليهودي ويستبدله بآخر مسلم، وقد تباطأ أبو موسى الأشعري في إجابة الخليفة على طلبه وكان الأشعري يظهر ان الولاية بحاجة الى علمه إلى أن أمره عمر بن الخطاب للمرة الثالثة ان يستغني عنه فاستغنى عنه[3].

وفي سبيل تنفيذ هذه السياسة فقد أمر عمر بن الخطاب باجلاء يهود خيبر، وفي سبيل ذلك خرج الخليفة عمر ومعه أربعة قسّام هم، فروه بن عمرو البياضي، وحباب بن صخر السلمي وأبو الهيثم بن التيهان، وزيد بن ثابت فقسموا خيبر على ثمانية عشر

(١) انظر يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، مطبعة الفرات ط١ ـ بغداد ـ ١٣٤٢هـ، ١٩٢٤م ص١٠١.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) يوسف رزق الله غنيمه، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص١٠١.

سهما، على الرؤوس التي سمى رسول الله ﷺ، فانه سمى ثمانية عشر سهما وسمّى رؤساءهم، ثم جزأوا الشق والنطاة على مثل ذلك، وكان في الشق ثلاثة عشر سهما وفي النطاة خمسة أسهم[1].

ولما فرغ عمر ـ رضي الله عنه ـ من القسمة أخرج يهود خيبر بعد ان جعل لهم مدة يبيعون سلعهم[2]، الى سوريا وأريحا[3]. وذكرت الروايات ان عمر قد سار من خيبر الى وادي القرى ومعه جبار بن صخر بن أمية وزيد بن ثابت وكانا قد اشتركا في قسمة خيبر وهما قاسما المدينة وحاسباها، وقسما السهمان بوادي القرى وفدك ودفع عمر الى يهود فدك نصف القيمة[4].

وقد أجلى عمر رضي الله عنه يهود خيبر وفدك وأبقى يهود تيماء ووادي القرى. ويستفاد من بعض الروايات التاريخية ان نصارى نجران اعتنقوا الاسلام ربما ليبقوا في بلادهم لان المسلمين حرموا على أهل الذمة نشر شرائعهم ما بين نجران في الجنوب وأطراف سوريا في الشمال، ولهم نشرها اذا أرادوا في بلاد الصلح[5]. ثم عاد االنجرانيون وارتدوا عن الاسلام، وكان يساكن النصارى في نجران بعض اليهود، فكتب عمر الى أهل نجران ومعظمهم من النصارى وفيهم يهود كتابا جاء فيه.

«. . . فإنكم زعمتم أنكم مسلمون ثم ارتددتم بعد وإنه من يثب منكم ويصلح لا يضره ارتداده، ونصاحبه صحبة حسنة، فاذّكروا ولا تهلكوا وليبشر من أسلم منكم، فمن أبى الا النصرانية فان ذمتي بريئة ممن وجدناه ـ بعد عشر تبقى من الصوم ـ من النصارى بنجران. ؟ أما بعد فإن يعلى كتب يعتذر ان يكون أكره أحدا منكم على الاسلام أو عذبه عليه، إلا أن يكون قسرا جبرا ووعيدا لم ينفذ إليه منه شيء، اما بعد: فقد أمرت يعلى أن يأخـذ الجـزية منكم نصف ما عملتم من الارض وإني لن أريد نزعها منكم ما أصلحتم.[6]. ويغلب على الظن ان النجرانيين فضلوا الهجرة من بلادهم وطلبوا من عمر

(١) الواقدي: المغازي جـ٢ ص٧١٨.
(٢) انظر ابو عبيد، الأموال ص١٤٣.
(٣) William Muir, "The Calphate its Rise declin & fall" p.158
أنظر كذلك الديار بكري، الخميس في أحوال انفس نفيس جـ٢ ص٥٨.
(٤) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٥٧. الواقدي: المغازي، جـ٢ ص٧٢١.
(٥) انظر ابو عبيد، الأموال، ص ١٤٦.
(٦) أبو عبيد الأموال ص ١٤٥. انظر ايضا محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية . . . ص١٥٩ـ١٦٠.

ان يكتب لهم امانا في مسيرهم بين المسلمين، وكتب لهم عمر ما أرادوا وجاء في هذا الكتاب: هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لأهل نجران، من سار منهم آمن بأمان الله، لا يضره أحد من المسلمين وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه. أما بعد: فمن مرّوا به من امراء الشام والعراق، فليوسعهم من حرث الارض فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله، وعقبة لهم مكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم.

أما بعد: فمن حضرهم من رجل مسلم، فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا، من بعد أن يقدموا ولا يكلفوا الا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم[1]. وأشهد عمر على هذا الكتاب بعض المسلمين ممن حضر منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وربما كان هذا الأمان الموجه الى نصارى نجران يشمل اليهود أيضا، فقد ذكرنا ان اليهود في نجران دخلوا في الصلح الذي دخل فيه النصارى دون ذكرهم في مواد الصلح.[2] وقيل إن عمر بن الخطاب لم يجل نصارى نجران ولكنهم هم الذين طلبوا الجلاء الى بلاد الشام استثقالا لما كانوا يدفعونه من الجزية، فوافق عمر على خروجهم، ثم بدا لهم ان يرجعوا في اتفاقهم فأبى عمر ذلك عليهم، وتخوف منهم على المسلمين فما هو الا أن واتته الفرصة لاخراجهم حتى انتهزها[3].

والرأي الذي يمكن ان يطمئن إليه الباحث هو أن حركة الفتح الاسلامي وخضوع أراضي جديدة وأقوام مختلفة للمسلمين خارج الجزيرة العربية، أغرى أهل الذمة بالخروج من الجزيرة وخاصة أقاليم الحجاز وشمال اليمن، حيث أصبح معظم سكانها من المسلمين وأصبحت سياسة الحكومة الاسلامية تعمل على تطهير هذه الاقاليم من غير المسلمين.

وقد ذكرت بعض الروايات وجود بعض اليهود في أريحا بعد ان اجلوا من الحجاز، فقد التقى بعض آل الحارث أبي زينب المشهورين بقافلة من الأعراب في جهات أريحا

(١) محمد حميدالله، المرجع السابق ص ١٦٠-١٦١.
(٢) انظر البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٧.
(٣) ابوعبيد، الأموال، هامش، ص ١٤٤. انظر البلاذري فتوح البلدان، ص٧٨.

في عودتها من الشام الى خيبر وتكلم ابن الحارث مع أصحاب القافلة كلاما فيه وجدٌ وحنين الى موطنه الأول خيبر، وذكر لهؤلاء الأعراب انه كان يود ان يدخل الاسلام يوم أجلى عمر أسرته حتىلا يبتعد عن أرض اجداده ولكنه خشي من تحقير الخلف له لأنه آثر أسرته ووطنه على دينه، سيما وأنه ابن سيد من سادات اليهود[1].

وبناء على ما سبق نجد ان الوجود اليهودي قد اضمحل من بلاد الحجاز منذ عهد عمر بن الخطاب ولم تعد لهم أية أهمية في الأحداث التي لحقت من بعد لأن الأسر اليهودية التي بقيت في المدينة أو تيماء أو وادي القرى لم تكن تملك القدرة على المساهمة في الأحداث الاسلامية اما سلبا أو إيجابا فآثرت الانصراف لأعمالها الاقتصادية الخاصة، ولا بد للباحث المحقق من التعرض للأسباب التي جعلت الخليفة الثاني يقدم على إجلاء اليهود من أكثر مناطق الحجاز، ولا يعقل ان يقدم عمر على مثل هذا الاجراء دون أسباب موجبة لذلك، لما عرف عن عمر من مقدرة في الأمور الادارية والتنظيمية.

تذكر بعض الروايات ان اليهود ارتكبوا عددا من الجرائم بحق نفر من المسلمين جعلت عمر يسلك هذا الاجراء معهم، فقد كان رسول الله ﷺ يبعث إلى أهل خيبر عبدالله بن رواحه خارصا[2]. بين المسلمين واليهود، فيخرص عليهم فإذا قالوا: تعديت علينا قال إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا، فتقول يهود: بهذا قامت السموات والأرض»[3].

وقد أقام اليهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأسا في معاملتهم حتى عَدَوْا في عهد رسول الله ﷺ على عبدالله بن سهل أخي بني حارثة فقتلوه فاتهمهم رسول الله ﷺ والمسلمون عليه وكان عبدالله قد خرج الى خيبر ليمتار منها تمرا فَوُجِد في عين قد كسرت عنقه ثم طرح فيها. ولما علم أهله بخبره قدم أخوه عبدالرحمن ومعه ابنا عمه حويصه ومحيصه ابنا مسعود، وكان ابن عبدالرحمن من أحدثهم سنا وكان صاحب الدم، فذكروا لرسول الله ﷺ قتل صاحبهم واتهموا اليهود بذلك فقال الرسول: «أتسمون قاتلكم ثم تحلفون عليه خمسين يمينا فنسلمه إليكم؟ قالوا: يا رسول الله ما كنا لنحلف على ما

---

(١) الواقدي المغازي، جـ٢ ص٦٥٤-٦٥٥.

(٢) الخارص: الذي يقدِّر «من التقدير والتخمين» ما على النخل والكرم من ثمر، وهو من الخرص اي الظن لأنه تقدير بظن، ابن هشام جـ٢ ص٣٥٤.

(٣) انظر ابن هشام السيرة. جـ٢ ص ٣٥٤-٣٥٥.

لا نعلم، قال: أفيحلفون بالله خمسين يمينا ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا ثم يبرءون من دمه؟ قالوا: يا رسول الله ما كنا لنقبل أيمان يهود، ما فيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا على إثم، ثم وداه الرسول من عنده مائة ناقة.[1] وقيل ان رسول الله ﷺ قد كتب إلى أهل خيبر يسألهم عن القتيل الذي وجد بينهم، فأنكروا صلتهم بالقتل أو علمهم به وحلفوا بالله على ذلك، ولذلك وداه الرسول من عنده[2].

لقد ذكرنا هذه القصة لنرى حرص الرسول ﷺ على التسامح والعدل مع اليهود، وقد أقر أبو بكر رضي الله عنه، بعد رسول الله ما بأيديهم على المعاملة التي عاملهم بها الرسول حتى توفي ثم أقرها عمر رضي الله عنه صدرامن إمارته. ثم بلغ عمر ان رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي قبضه الله فيه: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» ففحص عمر ذلك، حتى بلغه الثبت، فأرسل الى يهود، فقال: «إن الله عز وجل قد أذن في جلائكم، قد بلغني ان رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمعن في جزيرة العرب دينان، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به، أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود، فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم..[3].

ان قول عمر رضي الله عنه هذا يدل على ان بعض اليهود كان لديهم عهود تحفظهم من الاجلاء ولذلك استثناهم عمر رضي الله عنه من الجلاء كما سنرى.

ذكر ابن اسحاق ان عبدالله بن عمر خرج الى خيبر في خلافة أبيه ومعه الزبير والمقداد بن الأسود وبينما كان عبدالله نائما عُديَ عليه في فراشه ففدعت[4] يداه من المرفقين. فلما أصبح استصرخ صاحباه فأتياه فسألاه: من صنع هذا بك؟ فقال لا أدري، قال: فأصلحا من يدي ثم قدما بي على عمر رضي الله عنه، فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيبا فقال: «أيها الناس ان رسول الله ﷺ كان يعامل يهود خيبر على انا نخرجهم اذا شئنا، وقد عدوا على عبدالله بن عمر: ففدعوا يديه، كما قد بلغكم

(١) انظر ابن هشام، السيرة جـ٢ ص٣٥٤-٣٥٥.
(٢) المرجع السابق ص ٣٥٦. انظر كذلك الواقدي، المغازي جـ٢ ص٧١٤ وما بعدها.
(٣) انظر ابن هشام، السيرة، جـ٢ ص ٣٥٦-٣٥٧.
(٤) فدعت: أي أزيلت مناصلها عن أماكنها.

مع عدوهم على الأنصاري قبله، لا يشك أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به، فاني مخرج يهود فأخرجهم[1].

وأورد الواقدي «أن مظهر بن رافع الحارثي أقبل بأعلاج من الشام يعملون له بأرضه، وهم عشرة، فأقبل حتى نزل بهم خيبر فأقام بها ثلاثة أيام، فدخل بهم رجل من اليهود فقال: أنتم نصارى ونحن يهود وهؤلاء عرب قد قهرونا بالسيف وأنتم عشرة رجال أقبل رجل واحد منهم يسوقكم من أرض الخمر والخمير الى الجهد والبؤس، وتكونون في رق شديد، فاذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه: قالوا: ليس معنا سلاح: فدسوا اليهم سكينين أو ثلاثة، قال: فخرجوا فلما كانوا بثبار قال لأحدهم، ناولني كذا وكذا، فأقبلوا جميعا قد شهروا سكاكينهم، فخرج مظهر يعدو إلى سيفه وكان في قراب راحلته، فلما انتهى إلى القراب لم يفتحه حتى بعجوا بطنه، ثم انصرفوا سراعا حتى قدموا خيبر على اليهود فآووهم وزودوهم وأعطوهم قوة فلحقوا بالشام. وجاء عمر الخبر بمقتل مظهر بن رافع وما صنعت اليهود، فقام عمر خطيبا بالناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس ان اليهود فعلوا بعبد الله ما فعلوا، وفعلوا بمظهر بن رافع مع عدوتهم على عبدالله بن سهل في عهد رسول الله ﷺ، لا أشك أنهم أصحابه ليس لنا عدو هناك غيرهم، فمن كان له بها مال فليخرج فأنا خارج فقاسم ما كان بها من الأموال، وحاد حدودها، ومؤرف أرفها[2] ومجلٍ اليهود منها، فإن رسول الله ﷺ قال لهم: «أقركم ما أقركم الله» وقد أذن الله في جلائهم إلّا أن يأتي رجل منهم بعهد أو بينة من النبي ﷺ أنه أقره فأقره، فقام طلحة بن عبيد الله فقال: قد والله أصبت يا أمير المؤمنين ووفقت! ان رسول الله ﷺ قال: «أقركم ما أقركم الله»، وقد فعلوا ما فعلوا بعبدالله بن سهل في زمن النبي ﷺ، وما حرضوا على مظهر بن رافع حتى قتله أعبده، وما فعلوا بعبدالله بن عمر، فهم أهل تهمتنا وظنتنا فقال عمر رضي الله عنه: من معك على مثل رأيك؟ قال: المهاجرون جميعا والأنصار، فسر بذلك عمر»[3].

ولما رأى عمر رضي الله عنه اجماع الصحابة على رأيه عزم على نفاذه فعلمت يهود بما عزم عليه الخليفة فجاء أحد بني الحقيق إلى عمر وقال له: «أتخرجنا وقد أقرنا محمد ﷺ وعاملنا على أموالنا وشرط ذلك لنا فقال له عمر رضي الله عنه «أظننت أني نسيت قول

(١) انظر ابن هشام،السيرة، جـ٢ ص٣٥٧.
(٢) الارف: جمع ارفه، وهي الحدود والمعالم.. انظر ابن الأثير،النهاية في غريب الهداية جـ١ ص٢٦.
(٣) الواقدي: المغازي جـ٢ ص٧١٦-٧١٧. برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية جـ٣ ص٦٧.

رسول الله ﷺ لك كيف بك إذا خرجت من خيبر يعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة، فقال هذه كانت هزيلة من أبي القاسم، فقال كذبت يا عدو الله، ثم بلغه رضي الله عنه أنه ﷺ قال: لا يبقى دينان في جزيرة العرب وقوله لأخرجن اليهود والنصارى وفي لفظ المشركين من جزيرة العرب وفي رواية أخرى ما تكلم به النبي ﷺ، أخرجوا اليهود من الحجاز، وفي لفظ ان عشت أخرجت اليهود والنصارى من الحجاز أي مكة والمدينة واليمامة وطرقها وقراها كالطائف لمكة وخيبر للمدينة، والمراد بجزيرة العرب بعضها وهو الحجاز خاصة لأن عمر لما أجلاهم ذهب بعضهم الى تيماء وبعضهم إلى أريحا، وتيماء من جزيرة العرب لكنها ليست من الحجاز، وقيل له حجاز لأنه حجز بين نجد وتهامة[1].

وقبل أن نتعرض لاجراءات عمر بن الخطاب في أجلاء اليهود عن الحجاز، علينا ان نتأكد من صحة الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ بهذا الشأن، ثم نذكر العلة في عدم إخراج يهود اليمن وبعض يهود شمال الحجاز، وعلينا أن نستقصي الحكمة من إجلاء اليهود والنصارى عن بلاد الحجاز.

لقد ورد في الصحيحين الحديث بإخراج اليهود، ففي البخاري أن الرسول ﷺ أوصى وهو على فراش المرض بإخراج المشركين من جزيرة العرب فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[2].

وفي صحيح مسلم: «روى زهير بن حرب حدثنا الضحاك بن مخلد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير، انه سمع جابر بن عبدالله يقول أخبرني عمر بن الخطاب انه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما»[3]. وفي رواية للترمذي: «لئن عشت إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب»[4] وجاء في كنز العمال الحديث «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[5]. وحديث «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب».

يشك بعض المستشرقين في صحة هذه الأحاديث ويقولون بأنها قيلت بعد وفاة

(١) انظر برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية جـ٣ ص٦٨.
(٢) صحيح البخاري جـ٤ ص٧٩ (كتاب الجزية ـ باب إخراج اليهود من جزيرة العرب).
(٣) صحيح مسلم، جـ٤ ص١٦٠ (كتاب الجهاد والسير ـ باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب».
(٤) الترمذي، سنن جـ٢ ص٣٩٨، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.
(٥) كنز العمال جـ٢ ص٢٧٤، طبع حيدر اباد «حديث ٥٨٧٣، ٥٨٧٤، ٥٨٧٥».

الرسول ﷺ لأغراض خاصة[١]. ومما يرجح صحة هذه الأحاديث ان الرسول ﷺ كان قد اشترط على يهود خيبر ومن حولها إجلاءهم في الوقت الذي يريده المسلمون، وذلك في المعاهدة التي عقدها معهم، ثم إن أحاديث الرسول بإخراج اليهود والنصارى أو المشركين من جزيرة العرب ثابتة ومسلم بصحتها عند أهل الحديث.

وأما بخصوص إجلاء اليهود عن الحجاز وعدم اجلائهم من باقي اقاليم الجزيرة العربية فقد ذكرت فيه عدة تعليلات. وذلك لأن الأمر باخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب يتعارض في الظاهر مع أمر الرسول لمعاذ بن جبل بأخذ الجزية من أهل اليمن، كما يتعارض مع ما نعرفه من بقاء اليهود في اليمن الى وقت قريب.

وقد أثبت في ملحق خاص[٢] رسالة في هذا الموضوع لاحد العلماء، يرى فيها ان الأمر بالاخراج كان عاما من جزيرة العرب وأن بقاء اليهود في اليمن إنما يعود لكون عثمان وعلي رضي الله عنهما شغلا عن اتمام تنفيذ وصية الرسول بما حدث في عهدهما من فتن.

ان الحكمة الظاهرة لنا من الأمر بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، أو من الحجاز إنما هو حفظ القاعدة الاسلامية متينة ونقية، فقد وجد الرسول عليه السلام أن وجود اليهود بين المسلمين في قاعدتهم فيه مضرة للمسلمين لما عرف عن اليهود من قدرة على الدسيسة وإيقاع الفتن. وربما رأى عليه السلام ان وجودهم في الاراضي المقدسة سيشكل خطرا على المسلمين مع الزمن عندما ينصرف المسلمون الى الفتوح خارج الجزيرة العربية، فينفسح المجال لليهود لنشر مفاسدهم. لذلك اقتضت السلامة العامة إجلاءهم بعد أن اتهموا بحوادث قتل فردية.

ويرى ابن سعد سببا آخر لاجلائهم فيقول إن خيبر بقيت بأيدي اليهود يعملونها على نصف ما يخرج منها، فلم يزالوا على ذلك حتى كان عمر بن الخطاب وكثر في أيدي المسلمين العمال وقووا على عمل الأرض فأجلى عمر اليهود إلى الشام وقسم الأموال بين المسلمين إلى اليوم»[٣].

---

(١) انظر ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨٤.
(٢) انظر الملحق رقم (٣).
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢ ص١١٤.

وقـد أخـذ بهـذا الـرأي ولفنسـون واعتبـره السبب الجوهري لاجلاء اليهود عن الحجاز. ومما قاله بهذا الصدد: «ان إجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر يرجع إلى كثرة الأيدي العاملة من الأسرى الذين كثر عددهم عند العرب بعد فتوح الشام والعراق وفارس وكان هؤلاء الأسرى ذوي خبرة بالأعمال الزراعية كيهود خيبر الذين كانوا يستأثرون بنصف حاصـلات الأرض ويعـطون النصف الآخـر لأصحـاب الأسهم من المسلمين، فرأى المسلمون أن تكون لهم كل هذه الحاصلات ليتمكنوا من تموين أسراهم الكثيرين من جهة وليوجدوا لهؤلاء الأسرى عملاً يقومون به من جهة اخرى، فأشاروا على أمير المؤمنين باجلاء البطون اليهودية التي لم يكن لها عقود خاصة مع الرسول[1].

وهذا الرأي على ما يبدو فيه بعض الصحة ، الا انه ليس السبب الوحيد لتصرف عمر بن الخطاب، لأن الخليفة انما نفذ وصية الرسول ﷺ الذي امر بإخراج اليهود من جزيرة العرب أو من بلاد الحجاز. ثم ان القول برغبة المسلمين في الاستئثار بحاصلات خيبر فيه مبالغة، ذلك أن المسلمين اعتمدوا في اقتصادهم في عهد الراشدين على ما جلبته لهم الفتوح واهملت الزراعة في منطقة الحجاز ولم نعد نسمع عن زراعة خيبر ما يثير الاهتمـام. ولو كان السبب الاقتصادي هو المقصود لما أجلى عمر رضي الله عنه اليهود من خيبر الى مناطق اخرى تعتبر من اقاليم الجزيرة العربية كتيماء وغيرها. والرأي الذي يقبله العقل هو ما ذهبنا اليه وهو الرغبة في ابقاء منطقة الحجاز إسلامية خالصة لا يخالط اهلها مشرك، وهو ما سار عليه حكام الحجاز حتى هذه الأيام.

إن هذا العمل يدل على بعد نظر الخليفة عمر الذي كان ينوي توحيد شعبه دينيا واجتماعيا وثقافيا، وهذا ما تحرص على تنفيذه الأمم المتمدنة الحديثة بمختلف الوسائل[2].

★ اليهود ومقتل الخليفة عمر:

اغتيل الخليفة عمر رضي الله عنه في السنة الثالثة والعشرين من الهجرة على يد غلام فارسي يدعى «أبو لؤلؤة». وكان عمر لا يأذن لسبي بدخول المدينة اذا كان بالغا حتى

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨٥.
(٢) تذهب معظم دول العالم اليوم في هذا الاتجاه، فالولايات المتحدة تبذل قصارى جهدها للقضاء على الفوارق داخل شعوبها، وكذلك الاتحاد السوفياتي وغيرهما.

كتب إليه المغيرة بن شعبه وكان أميراً على الكوفة يذكر له غلاماً عنده صنعا كثيرة ويستأذنه بدخول المدينة لأن فيه منافع كثيرة تعود من صنعه . وأذن له عمر رضي الله عنه بدخول المدينة والإقامة فيها، وكان المغيرة قد ضرب عليه مائة درهم كل شهر - وفي رواية أكثر من ذلك بقليل - فجاء الغلام الفارسي الى عمر يشتكي شدة الخراج الذي ضربه عليه المغيرة . فقال له عمر ماذا تحسن من الأعمال؟ فذكر له الأعمال التي يحسن صنعها ومنها الرحى التي تدور بالريح، فأجابه عمر : ليس خراجك بكثير في كنه عملك، فسخط أبو لؤلؤة، وانصرف متذمرا يولول . وبعد عدة ليال التقى عمر بالغلام الفارسي فناداه وقال له : ألم تقل بأنك تستطيع صنع رحى تطحن بالريح؟ فالتفت العبد ساخطا عابساً الى عمر، - وكان مع عمر رهط من المسلمين - وقال: لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس . فقال عمر: لقد توعدني العبد . فلبث ليالي ثم اشتمل ابو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه وهجم عليه في صلاة الفجر وطعنه في أماكن متعددة من جسده ثم طعن عدداً من المصلين ثم انتحر بخنجره[1] .

إن هذه الرواية تجعل من مقتل عمر بن الخطاب حادثا فرديا سببه نقمة هذا المولى الفارسي الذي تخيل أن عدل عمر لم يسعه وأن الظلم قد لحقه ولا خلاص من هذا الظلم الا بقتل الخليفة عمر . ولكن مقتل عظيم من العظماء إنما يكون عادة من تدبير وتخطيط مجموعة من الناس تناوىء هذا الحاكم وتخالفه في الأسس والأساليب التي ينتهجها فكرا وعملا . وكيف يقتنع الإنسان بأن الحادث إنما هو تدبير فردي من أبي لؤلؤة والشهيد هو الخليفة عمر بن الخطاب الذي أزال ملك الفرس وقضى على سلطانهم، وهو الذي هزّ عرش قيصر واقتطع منه بلاد الشام ومصر، وهو الذي أزال وجود اليهود من بلاد الحجاز، واضطرهم للخضوع لسلطان المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية .

لكل هذه الأسباب كان الحقد يتأجج في قلوب الناقمين من الفرس والروم واليهود على هذه الدولة الإسلامية التي قضت على دولهم وسلطانهم وأمجادهم، ولا يستغرب الانسان إذا حاول هؤلاء الموتورون الانتقام من شخص عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان تاجا لهذه الدولة .

والذي يرجح الاتجاه السابق ان الروايات التاريخية القت بعض الأضواء على

(١) انظر ابن سعد: الطبقات جـ٣ ص ٣٤٥.

الاطراف المشتركة في عملية مقتل الخليفة عمر واوضحت أن أفرادا من الفرس والنصارى واليهود كانوا وراء هذه الجريمة.

فقد ذكرت بعض الروايات ان عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق قد شاهد ابا لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة النصراني والهرمزان وهم يتهامسون فيما بينهم، فلما فاجأهم ارتبكوا وسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه في وسطه، فلما نظر عبدالرحمن الخنجر الذي استعمله أبو لؤلؤة قرر أنه نفس الخنجر الذي شاهده قبل وقوع الجريمة بوقت قصير[1].

ويبدو أن هذه الرواية صحيحة لأن ابن عمر اعتمد عليها في أخذ ثأره من الهرمزان وجفينة وابنة لأبي لؤلؤة[2]. وإذا علمنا ان الهرمزان كان سيدا من سادات الفرس وأن الإسلام قد جرّدة من هذه السيادة، وأن جفينة نصرانى من نصارى الحيرة المتعصبين، أدركنا عدم استبعاد سعاية هؤلاء باغتيال ابرز زعماء الاسلام آنذاك.

وأما علاقة اليهود بالجريمة فتوضحها الرواية التالية: جاء كعب الأحبار إلى أمير المؤمنين عمر وقال له: إنك ميت بعد ثلاثة ايام، فقال له عمر: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل التوراة، قال عمر: الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكني أجد صفتك وحليتك وإنه قد فني أجلك. قال: وعمر لا يحس ألماً ولا وجعا، فلما كان من الغد جاءه كعب، وأخبره أنه قد ذهب يوم من الثلاثة ايام وبقي من اجله يومان، ثم جاء في اليوم الآخر وأخبره انه لم يبق الا يوم وليلة الى صبيحتها[3]. ولما كان الصبح حدث لعمر ما حدث.

وكعب الأحبار يهودي من اليمن، لم يسلم إلا في عهد عمر بن الخطاب[4] وقد نسبت اليه أحاديث كثيرة وروايات مستمدة من الكتب اليهودية، أدخلها في الروايات الإسلامية وعرفت فيما بعد بالإسرائيليات.

ويقول الشيخ الخضري معلقا على رواية كعب الأحبار «ولو صحّت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة في أن لكعب يدا في مقتل عمر، أو أنه

---

(١) انظر ابن سعد، الطبقات جـ٣ ص٣٥٥.
(٢) المصدر السابق والصفحة.
(٣) أنظر الطبري، تاريخ جـ٤ ص١٩١.
(٤) انظر ابن سعد، الطبقات جـ٧ ص٤٤٥.

كان عالما بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر، وربما يقال لو كان كذلك فما يدعو كعبا الى إنباء عمر بهذا النبأ، والجواب على ذلك سهل فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزا عظيما، فإن كثيرا منهم يرون بعد ذلك ان توراته فيها علم كل شيء وانه صادق في كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة في تصديقه بما يوحي إليه، وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الأخبار الإسرائيلية التي لا ندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئا كثيراً هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه»(١).

إن هذه الأدلة تجعلنا نميل الى الاعتقاد بوجود العقل اليهودي المشهور بحبك الدسائس والمؤامرات وراء هذه الجريمة.

والذي اراه انه لا بد ان عمر بن الخطاب قد اتخذ الاحتياطات لنفسه خوفا من الغدر، فقد ادرك ان ابا لؤلؤة يتوعده، ولذلك لم يجد المتآمرون فرصة لقتل عمر إلا وهو محرم في صلاة الفجر، حيث لا ينفع احتياط في مثل هذه المناسبة التي يشترك فيها جميع المسلمين، وقد يتسلل بين صفوفهم في الصلاة الغرباء إنه لم يكن يمنع المسجد على أحد.

★ الفتنة في عهد عثمان ودور السبيئة:

إن من الحقائق المسلم بها انه لكل حكم مؤيدين ومعارضين، وقد وجدت معارضة في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وتباينت آراء المؤرخين في تفسير أسباب هذه المعارضة، وبلغ التباين حداً زاد القضية إبهاماً بدلا من توضيحها. فبعض المؤرخين يرى أن ضعف شخص عثمان ووقوعه تحت تأثير اقاربه هو اول أسباب الفتنة، وطبيعي أن هذا الفريق يرى أن الفتنة ما هي إلا ثورة شعبية ضد حاكم ضعيف، ويخلقون المبررات لهذه الثورة، ويرى فريق آخر أن سبب الفتنة، هو اليد الخفية لابن السوداء «عبدالله بن سبأ» الذي نشر أفكاره ووزع دعاته في مختلف الأمصار حتى أفسد الرعية على الخليفة وجعلها تثور عليه وتقتله.

واذا بحثنا في اسباب الفتنة لا يسعنا الا ان نجمل أسبابها في الأمور الآتية:

١ - الظروف الجديدة التي وجدت في زمن عثمان رضي الله عنه، وهذه الظروف

(١) تاريخ الأمم الاسلامية المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط٨، ١٣٨٢هـ جـ١ ص٢١.

تختلف عن سابقتها في عهد من تقدمه من الخلفاء، فمن المعروف ان حركة الفتوح كانت قد اتسعت وتعاظمت وتقاطرت الخيرات نحو المدينة مما حملته هذه الفتوح من غنائم، فوسع سكان المدينة على انفسهم في المسكن والمأكل والمشرب والملبس، فظهر البذخ على سكان المدينة. وهكذا وجدت ظروف جديدة في عهد عثمان كانت حصيلة التطور السياسي منذ فجر الدولة الاسلامية، وكان من نتائج هذا التطور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجديدة. واذا كانت هذه المظاهر قد بدأت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فلم يكن لها هذا الأثر الذي أحدثته في عهد عثمان، لأنها في عهد عمر كانت بداية اولا ولان عمر اخذها بالشدة المعروفة عنه ثانياً، فكان أن تأجل انفجار الموقف الى عهد عثمان بن عفان. وهذا في نظري اهم الأسباب التي ادت الى الحوادث في عهد عثمان وليست كلها، لأن هناك مجموعة أسباب أخرى ساعدت على الإسراع بهذه الحوادث وتنظيمها.

لم يكن من السهل على المؤرخين القدامى تقدير عامل التطور الحضاري على مثل هذه الحوادث كما يقدره مؤرخوا عصرنا، لأن وسائل البحث القديمة لا تقارن مع وسائله الحالية التي جعلت من عامل الزمن «التطور التاريخي» عاملا حاسما في الاتجاه العام للتطور البشري، كما لا يمكن تفسير بعض الظواهر التاريخية الهامة بدون هذا العامل.

ومن العوامل المساعدة على إثارة الحوادث في عهد عثمان وعلي الحركة السبيئة، وقد استطاعت هذه الحركة ان تستغل الأوضاع الجديدة لصالحها وتسيرها وفق اتجاهها، فما هي هذه الحركة، وما دورها في الأحداث التي أدت الى مقتل عثمان رضي الله عنه؟.

تنسب السبيئة إلى عبدالله بن سبأ، وقيل إنه يهودي من اليمن قدم في عهد عثمان بن عفان إلى المدينة وأسلم[1].

---

(1) انظر الشهرستاني، الملل والنحل جـ١ ص١٧٤. وابن حزم، الفصل في الملل والنحل، طبعة صبيح ـ القاهرة، جـ٥ ص٢٠، ومحمد بن يحيى بن ابي بكر الأشعري المالقي الأندلسي التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تحقيق الدكتور محمد يوسف زايد ـ نشر دار الثقافة، ط١ ١٩٦٤م ص٥٥. وعبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، طبع محمد علي صبيح ص٢٣٣.
ومن الجدير بالذكر ان نهاية هذه الشخصية غامضة ويميل البعض الى ان علياً رضي الله عنه احرق ابن سبأ بالنار مع من احرق.

لقد حاول بعض الباحثين المحدثين انكار وجود شخصية ابن سبأ وحركته، وقد اعتمد السيد «مرتضى العسكري» في إثبات خرافة السبئية على نقده لروايات سيف بن عمر التميمي المتوفى بعد ١٧٠هـ، وذلك بعد ان اعتبر سيفا هذا هو مصدر الروايات جميعها قديمها وحديثها فيما يتعلق بالسبئية[١].

وقد وردت أخبار الفتنة من طرق متعددة بعضها قوي وبعضها الآخر ضعيف والروايات القوية لا يرقى الشك اليها تفيد ان يدا خفية كانت وراء تنظيم المعارضة وتأليبها ضد عثمان بن عفان[٢].

وقد وردت أخبار الفتنة في سبع روايات قديمة كل منها منسوبة الى راوٍ قديم شهد الحادثة بنفسه أو اتصل بأشخاص شاهدوها، وأصحاب هذه الروايات هم:

١ - يزيد بن حبيب (٥٣-١٢٨هـ) وهو مفتي أهل مصر في زمانه.

٢ - محمد بن شهاب الزهري (٥٨-١٢٤هـ) وهو محدث الديار الشامية.

٣ - ابوخنيس سهم الأزدي الذي حضر الحادثة، وعاش حتى عصر عمر بن عبدالعزيز.

٤ - سعيد بن المسيب (١٣-٩٤هـ) احد الفقهاء السبعة في المدينة.

٥ - الأحنف بن قيس (- ٧٢هـ) وهو سيد بني تميم الذي ملأت شهرته الآفاق بما عرف عنه من الحلم والكرم والشجاعة، وقد عاصر الفتنة واشترك في صفين.

٦ - أبو سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري، عاصر الفتنة وعرف أحوالها.

٧ - الزبير بن العوام وهو الصحابي المشهور.

وإذا أخذنا بطريقة اهل الحديث في التعرف على صحة الروايات، فعلينا الاعتماد على روايات ابو خنيس سهم الأزدي والأحنف بن قيس وأبو سعيد مولى أبي أسيد

= أنظر الزركلي: الأعلام - مطبعة كوستاستوماس وشركاه، ١٣٧٣هـ - ١٣٧٨هـ ١٩٥٤-١٩٥٩م، وقد نسب الزركلي الى ابن حجر العسقلاني في التهذيب القول بإحراقه، غير ان الروايات التاريخية لا تثبت ذلك.

(١) انظر عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى، منشورات كلية اصول الدين - بغداد.

(٢) انظر يوسف العش، الدولة الأموية والاحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م ص ٣٠ وما بعدها.

الأنصـاري[1]. للوقوف على تفاصيل الفتنة التي اودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ومن الروايات نلاحظ ان الوفد الذي قدم من مصر محتجا على سياسة عثمان لم يكن بنيتـه اللجـوء إلى سفـك الـدمـاء، فقد استقبل عثمان الوفد واستمع إلى آرائهم ومآخذهم عليه. واستغفر الله وتاب إليه وقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: نأخذ ميثاقك وكتبوا عليه شرطا، وأخذ عليهم الا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم أو كما أخذوا عليه وقال لهم ما تريدون؟ قالوا نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء. قال: لا! إنما هذا المـال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من اصحاب رسول الله ﷺ، فرضوا بذلك واقبلوا معه إلى المدينة راضين. فقام فخطب، فقال: «إني والله ما رأيت وفداً في الأرض هم خير لحوباتي «لحالي» من هذا الوفد الذين قدموا عليّ. وقال مرة أخرى: خشيت من هذا الوفد من أهل مصر، ألا من له زرع فليلحق بزرعه، ومن كان له ضرع فليحتلبه ألا إنه لا مال لكم عندنا، إنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ، فغضب الناس وقالوا: هذا مكر بني أمية»[2].

ومن الحـوار الـذي دار بين زعماء الوفد المصري وبين الخليفة عثمان نجد أن الطرفين قد حكّما كتاب الله بينهما، وأن المصريين قد ارتضوا من عثمان وعادوا بعد ان حصلوا على بعض الشروط[3]. ويظهر ان هذه الشروط تدور في مجملها حول العدالة في توزيع مال الفتوح[4]. والذي أميل إليه هو أن هذه الحركة تصور لنا السخط الذي تبدّى في الأمصار على ارستقراطية بني أمية التي مكن لها عثمان.

وعاد المصريون راضون مما حققوه من مقابلتهم مع الخليفة في ضواحي المدينة، والذي يلفت النظر ان هذا الوفد بعد ان قطع مسافة في طريقه الى مصر عرض له راكب في قصته عجب. فقـد أخـذ الراكب يتعرض لهم تارة ثم يفارقهم أخرى حتى اشتبه المصـريون بأمـره وسألوه عن حاله، فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه إلى عامله بمصر أن يصلبهم أو

---

(١) المرجع السابق والصفحة.
(٢) الطبري، تاريخ جـ٤ ص٣٥٤ـ٣٥٥.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف جـ٥ ص٦١، طبع المطبعة الجامعية ـ القدس ١٩٣٦م.
(٤) المرجع السابق ص ٦٢.

يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. قال: فأقبلوا حتى قدموا المدينة، قال: فأتوا عليا، فقالوا: ألم تر إلى عدو الله: إنه كتب فينا بكذا وكذا، وان الله قد أحل دمه، قم معنا اليه، قال: والله لا أقوم معكم، إلى أن قالوا: فلم كتبت إلينا؟ فقال: والله ما كتبت إليكم كتابا قط، قال: فنظر بعضهم الى بعض، ثم قال بعضهم لبعض: «ألهذا تقاتلون، أولهذا تغضبون! قال: فانطلق علي، فخرج من المدينة الى قرية. قال: فانطلقوا حتى دخلوا على عثمان، فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا! قال: فقال: إنما هما اثنتان: أن تقيموا علي رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت. قال: وقد تعلمون ان الكتاب يكتب على لسان الرجل، وقد ينقش الخاتم على الخاتم. قال: فقالوا: فقد والله احل الله دمك، ونقضت العهد والميثاق، قال: فحاصروه[١].

وهذه الرواية تكشف لنا قصة الراكب، اذ ان هذا الراكب لم يكن رسولاً عادياً أخذ على عاتقه تنفيذ مهمته بسرية دون أن يعلم أمره أحد، فهذا هو شأن المرسلين بالأمور الخطيرة، غيرأن هذا رغم خطورة المهمة التي يحملها كان يريد ان يكتشفه المصريون، حيث كان يرافقهم تارة وينفصل عنهم تارة أخرى، وهو بهذا كان يريد أن يلفت النظر إليه، وعندما سألوه عن حاله، لم يتردد بإخبارهم انه رسول أمير المؤمنين الى واليه بمصر، وبهذا قد القى الشبهة على نفسه. وهو ما يريده لأن غايته أن يكتشف الوفد أمره ويعرف حاله ويصل الى النتيجة التي ارادها مدبروا امر الرسول والكتاب وهي نقض العهد والميثاق وتأليب المصريين على الخليفة، واجبارهم على العودة وتنفيذ المؤامرة الخفية بالخليفة[٢].

ويستفاد من الحوار بين زعماء الوفد والخليفة عثمان، أن أهل الأمصار نقموا على الارستقراطية التي تكونت في المدينة وتجمعت اليها الأموال، ولذلك طالبوا بالعطاء ووقف تأييد الدولة لهذه الطبقة الجديدة، كما نلمح بعض الاشارات التي تفيد ان هذه الارستقراطية وغالبيتها من بني امية اخذت تستحوذ على الأمور السياسية بالاضافة الى الموارد الاقتصادية وضغطت على الخليفة عثمان للوقوف موقفا متصلبا من معارضة اهل

---

(١) الطبري: تاريخ جـ٤ ص٣٥٥-٣٥٦.
(٢) انظر يوسف العش، مرجع سابق ص ٣٧.

الأمصار وعدم الخضوع لمطالبهم. واذا صح هذا الاتجاه فيكون ابن السوداء قد تزعم هذه المعارضة مستفيدا من اصوات بعض الصحابة الداعية الى العدالة الاجتماعية كدعوة ابي ذر الغفاري وغيره.

وهذا لا يمنعنا من القول ان الخليفة لا علم له بأمر الرسول وما يحمله جملة وتفصيلا وإن الكتاب يمكن تزويره كما يمكن تزوير الخاتم باسم الخليفة. والذي يزيد الأمر وضوحا ويجعل عملية التزوير حقيقة لا غبار عليها، أن الوفد المصري عندما قابل علي بن أبي طالب وشرح له قصة الراكب وما يحمله من كتاب باسم الخليفة، طلب إلى علي ان يرافقه الى عثمان لتعنيفه على فعلته، ولما رفض علي ان يرافقهم قالوا له: فلم كتبت الينا؟ ويظهر ان كتبا كانت تكتب على لسان علي بن ابي طالب تصلهم وتطلب اليهم الحضور الى المدينة ومناجزة عثمان، وهذه الكتب غير صحيحة لان علي انكرها بقوله لهم: «والله ما كتبت اليكم كتابا قط».

وهكذا نجد انفسنا امام حقيقة التزوير على لسان الخليفة وبعض الصحابة، وقد ذكرت بعض الروايات الصحيحة الإسناد كما يقول ابن كثير[1] «قال مسروق لعائشة رضي الله عنها هذا «قتل عثمان» عملك، أنت كتبت الى الناس تأمريهم أن يخرجوا اليه فقالت: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا، قال الأعمش: فكانوا يرون انه كتب على لسانها. وهذا إسناد صحيح إليها. وفي هذا وامثاله دلالة ظاهرة على ان المعارضة زورت كتبا على لسان الصحابة الى زعماء الأمصار يحرضونهم على الثورة كما قدمنا بيانه. وقد شك الخليفة عثمان بأمر الكتاب والخاتم، وخاطب الوفد قائلا، انه لم يكتب الكتاب وان من السهل كتابته على لسانه كما انه من السهل نقش الخاتم على شكل خاتمه، وهو بهذا يدمغ الكتاب والخاتم بالتزوير. ولم يكن قصد الرسول الذي حمل هذا الكتاب ايقاع الوفد بأيدي أمير مصر، أي أنه ليس مروان بن الحكم الذي يحمل خاتم الخليفة ويكتب باسمه كما تشير اليه النصوص المروية عن الواقدي وغيره من المؤرخين المضعّفين في هذه الحادثة، فعثمان ينفي أن يكون الكتاب بخاتمه نفسه[2].

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص١٩٥. انظر كذلك البلاذري، أنساب الأشراف جـ٥ ص١٠٣.
(٢) انظر يوسف العش، مرجع سابق ص٣٧.

وبناء على ما تقدم نجد ان اخبار الفتنة وصلتنا عن طرق اخرى غير طريق سيف ابن عمر التميمي، وهذه الروايات بعمومها لا تخالف رواية سيف وإنما تؤكد صحتها وتضيف اليها بعض التفاصيل. واذا كان المؤرخون يأخذون برواية سيف، فلأنهم وجدوا فيها كشفا لليد الخفية التي كانت وراء تنظيم المعارضة على عثمان، وتزوير الكتب واشاعة الأخبار الكاذبة التي تسيء الى الخليفة عثمان، مستغلة بذلك الظروف الجديدة التي وجدت بها خلافة عثمان، والعناصر الناقمة على هذا الخليفة، واستغلت في نفس الوقت لين عثمان وتسامحه واستئثار بني امية بتوجيه الدولة في عهده.

لهذا لا يمكن انكار وجود السبئية في أحداث الفتنة، اذ هي ليست خرافة اخترعها المؤرخون[1]. فهي حقيقة قائمة وإنكارها يعني إنكار فرقة مشهورة من فرق الشيعة المتطرفة، ذكرها قدامى المؤرخين للملل والنحل. ومع وضوح حقيقة وجود السبئية يجب ان لا تخفى عن اعيننا الحقيقة الأخرى وهي انه لولا وجود المعارضة ولديها الاسباب الكافية لوجودها لما تمكن عبدالله بن سبأ من الوصول الى أهدافه.

★ السبئية في خلافة علي بن ابي طالب رضي الله عنه:

مارست السبئية دورها في احداث خلافة علي بن ابي طالب، ونشطت في افساد ذات البين وتوسيع شقة الخلاف، لتعيش الخلافة جواً من الفوضى لا يسمح بإلقاء الأضواء على إفسادها ودسائسها، وأخذها بالعقوبة العادلة.

فقد روى ان حزب السبئية هو الذي أفسد امر الصلح الذي تم بين علي بن ابي طالب وخصومه في واقعة الجمل المشهورة. وكان ذلك أن رأى أفراد هذا الحزب أن نفاذ الصلح سيكون على دمائهم، فاتفقوا على إفساده، فكان رأي بعضهم أن يقتلوا علي ويلحقوه بعثمان فتنتشر الفتن وينسى الناس أمر قتلة عثمان، ولم يأخذ ابن سبأ بهذا الرأي، واقترح على المتآمرين أن ينشبوا الحرب في السر بين الطرفين، فغدوا في الظلام، وانسلوا انسلالا من معسكر علي بن ابي طالب، حيث خرج المضري الى المضري والربعي الى الربعي واليماني الى اليماني، ووضعوا السلاح في ابناء قومهم من معسكر عائشة وطلحة والزبير، وثار كل قوم في وجوه اصحابهم الذين بهتوهم. وبهذه الطريقة نهض الزبير وطلحة ونظموا جيشهم، وباشروا الهجوم على اهل الكوفة وهم

(١) انظر طه حسين، علي وبنوه، طبعة دار المعارف ص٩١.

يقولون ان اهل الكوفة طوقوهم ليلا، وأن عليا غير منته حتى يسفك الدماء(١)، ووضع المتآمرون حارسا منهم بقرب خيمة علي بن ابي طالب ليبلغه ماأرادوه، فلما سمع علي وأهل الكوفة صوت البصريين وهرجهم، سأل عن ذلك، فأجابه الحارس: «إننا ما فجئنا إلا وقوم منهم «أي البصريين» يبيتونا، فرددناهم من حيث جاءوا، فوجدنا القوم على رِجْل فركبونا، وثار الناس(٢). وأمر علي جيشه بالاستعداد، وهو يقول: وقد علمت ان طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة، وانهما لن يطاوعانا»(٣).

وفي مثل هذا الجو يسهل على المتآمرين ان ينفذوا اغراضهم سيما وان على رأس المتآمرين يهودي امتلأ قلبه بالحقد، بقدرة فائقة من الدهاء والذكاء، وقد قدم لذلك بالتظاهر بالاسلام والتقرب من علي بن ابي طالب، واندس بين أنصار الخليفة مرتديا ثوب الورع والتقوى، حتى أجلسه الخليفة تحت درجة منبره(٤).

وهكذا استطاعت قوى المعارضة على اختلافها، اشعال الفتنة الى نهايتها، وركوبها الى منتهاها، فكان ما كان من سفك دماء المسلمين في معركة الجمل، ويوم صفين.

ولم يكتف ابن سبأ في نفث سمومه في الميدان العسكري بل نجد انه تجاوزه الى ميدان العقيدة والاجتماع.

إننا نجد علاقة فكره اليهودي بتعاليمه التي حاول بها ان ينسف العقيدة الاسلامية، فقد اشار بعض الباحثين الى انه هو صاحب القول بالرجعة والوصاية والحلول، وهذه الأفكار الغيبية كان اليهود يقولون بها أكثر من غيرهم، فقد رأينا كيف تنبأ كعب الأحبار بوفاة عمر بن الخطاب، كما نشاهد تنبؤات كثيرة في كتب دانيال(٥).

والشيعة السبئيون هم الذين يعتقدون بالتوقف ويقولون: «ان علياً يجيء بالسحاب وان الرعد صوته والبرق سوطه»(٦) ومثل هذا القول، يقوله اليهود عن إلههم يهوه.

---

(١) أنظر الطبري، تاريخ، جـ٤ ص٥٠٦.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) المرجع السابق والصفحة.
(٤) انظر عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، مكائد يهودية، ط١ دار القلم ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م ص١٦٧-١٦٨.
(٥) أنظر فان فلوتن، الشيعة والإسرائيليات، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم ط٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥، ص١١٣. واحمد أمين، ضحى الإسلام، ص٢٤٣.
(٦) فان فلوتن، المرجع السابق والصفحة.

ويذكر ان ابن حزم شبها لعقائد هؤلاء مع عقائد اليهود القائلين «بأن مليكصدق بن عامر بن ارفخشد بن سام بن نوح والعبد الذي وجهه إبراهيم عليه السلام ليخطب «ريقا» بنت نبؤال بن ناحور بن تارح على إسحق ابنه عليه السلام وإلياس عليه السلام، وفنحاس بن العازار بن هارون عليه السلام أحياء الى اليوم وسلك هذا السبيل بعض تركي الصوفية فزعموا ان الخضر والياس عليهما السلام حيان الى اليوم وادعى بعضهم انه يلقى الناس في الفلوات والخضر في المروج والرياض وانه متى ذكر حضر على ذكره»(١).

ومن الجدير بالذكر ان التآمر اليهودي لم يكن وقفا على مرحلة من التاريخ الاسلامي، او وقفا على المسلمين وحدهم، فقد رأينا كيف تآمر هؤلاء على عرب الأوس والخزرج قبل الاسلام وكيف واصلوا مؤامراتهم في العهد النبوي والراشدي، ثم أخذت حركاتهم طابع المنظمات السرية التي تكيد للاسلام والمسلمين، والحركة الباطنية التي قادها ميمون القداح في الكوفة عام ٢٧٦هـ تقف دليلا على ذلك(٢).

ومارس اليهود اسلوب الدسائس في البلاطات الفارسية والرومية، ولم تخل دولة من دول العالم الحديث من شبكات التجسس والتآمر اليهودي. وحسب الأمة العربية والاسلامية أنها أكثر شعوب الأرض استهدافا لهذا التآمر في عصرنا الحالي.

والنتيجة التي نخلص اليها من كل هذا هو أن التآمر والمكيدة خلق يهودي لم يتخلى عنه اصحابه في مرحلة من تاريخهم، ويكفي هذا ان يكون رداً على أولئك الذين جاهروا بإبعاد اليهود عن الأحداث في عهد الخلافة الراشدة، فأرادوا أن يقطعوا مسلسل التاريخ اليهودي من أوسط حلقاته بحجة حياد الباحث ونزاهته.

★ الاسرائيليات:

الاسرائيليات مشتقة من الالفاظ اللاتينية والسريانية والعبرية بمعنى «ممسوح»، والمراد بالمسح بالزيت المقدس وهو رمز لتتويج الملوك عند الاسرائيليين ومعنى هذه الكلمة ايضا المحرر أو المخلّص الذي بشر به الأنبياء من بني إسرائيل والذي عبده

(١) ابن حزم الظاهري الاندلسي، الفصل في الملل والنحل، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده جـ٥ ص٢٠.
(٢) انظر الحبنكي، مكائد يهودية ص١٧١.

المسيحيون، وألقوا اليه بالمودة في شخص المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. وقد تمسك الناس بهذه العقيدة منذ هبوط آدم عليه الصلاة والسلام[1].

لقد أطلقت التوراة لفظة «المحرر» أو «المخلص» على الملوك والأنبياء والرسل الذين بعثهم الله لتكفير خطايا البشر وانقاذ بني إسرائيل وتخليص العالم مما نزل به من الظلم والاضطهاد. وإذا دققنا النظر وتعمقنا في البحث نجد ان عقيدة المهدي المنتظر لم تكن وقفا على بني اسرائيل وانما كانت منتشرة بين جميع الشعوب، فقد ظهرت في خرافة «تيفون Typhone وهوروس Horus » عند قدماء المصريين، كما نجدها ايضا في «مذرا Mithra » إحدى القصص الفارسية ثم في كتب الصينيين القديمة، وكذا في عقائد الهنود ولا سيما ما يتعلق منها بتناسخ «براهما ولا تزال آثار كلمة «إسرائيليات» على جميع العقائد غير الاسلامية ولا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود والنصارى في الدين الاسلامي منذ القرن الأول الهجري [2].

ومن مظاهر الاسرائيليات التنبؤ ببعض الأشخاص والحوادث المعينة والتنبؤ بمصير العالم، ونجد تشابها بين هذه التنبؤات سواء كان واضعوها من اليهود أو النصارى الذين اعتنقوا الاسلام.

وعن طريق اليهود والنصارى دخلت كتب الكهانة وأساطير الميثولوجيا والتنبؤ بالغيب إلى العرب الذين لم يكن عندهم معرفة بها من قبل. ومن بين هذه الكتب، كتاب «دانيال» الذي يعود تاريخه الى القرن الأول الهجري، وتسمى هذه الكتب «بالكتب القديمة» ومازال بعضها محفوظا في المتاحف الأجنبية، البريطانية والفرنسية والاسبانية. وشاعت كتب دانيال وما بها من التنبؤات بين الناس جنبا لجنب مع كتاب «الجفر» الذي يعزى الى آل البيت وبخاصة إلى علي بن ابي طالب ثم إلى حفيده جعفر بن محمد الصادق[3].

---

(١) انظر السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بن أمية، مرجع تقدم، هامش ص ١٠٨-١٠٩. المرجع السابق والصفحة.
(٢) المرجع السابق والصفحة.
(٣) انظرمقدمة ابن خلدون كتاب الشعب، ص٣٠٠.

وليس غريباً أن يتناقل المسلمون قصص اليهود والنصارى، فهم قد تناقلوا قصص الفرس والروم وتأثروا بعقلية الشعوب المغلوبة. ويرى المسلمون في الإسرائيليات خطورة لاختلاطها في صميم معتقداتهم، اذ لا شك ان اصحاب الإسرائيليات، لم يكونوا ينظرون بارتياح لنجاح الدعوة الإسلامية كما لم ينسوا ما فعله المسلمون بدولهم، وأمجادهم، وربما رأوا ان ولوج هذا الباب هو خير وسيلة لنسف العقيدة الإسلامية من أساسها، لأنهم يرون أن هذه العقيدة كانت السبب في القضاء على اليهودية والنصرانية في بلاد العرب.

لهذا يجدر بالباحث ان يقف عند الإسرائيليات ويخضعها للنقد والتحقيق لأن كثيراً منها نفذ الى ميداني التفسير والحديث وكانت شبها على الاسلام يحتج بها عليه اعداؤه ويضيق بها ذرعاً أولياؤه، والتي أصبحت من المشكلات التي نعاني سيئاتها ويصعب علينا التخلص منها[1].

وقد اذن الرسول ﷺ بالحديث عن بني إسرائيل بما لا يخالف الكتاب والسنة، وحذّر من الكذب على لسانه وقال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[2] ويؤخذ من بعض الروايات أن الرسول لم يكن يطمئن الى أخبار الكتابيين. ولكن الاسرائيليات لم تكن بالخطورة التي يخشى منها في عهد الرسول ﷺ وإنما استشرت واتخذها اعداء الاسلام سلاحا يشهرونه في كل مناسبة ومما زادها انتشارا ظهور الفرق والأحزاب الاسلامية بعد الرسول ﷺ. وأخرج الامام أحمد والبزار ـ واللفظ له ـ عن جابر رضي الله عنه، قال: نسخ عمر كتابا من التوراة بالعربية، فجاء به الى النبي ﷺ، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير، فقال له رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعني»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل

(١) انظر محمود ابو ريه، أضواء على السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث، ط ٣ دار المعارف بمصر ص١٥٧.
(٢) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، طبعة الحلبي، ١٣٧٨هـ، وطبعة المطبعة البهية المصرية ـ كتاب احاديث الأنبياء ـ جـ٦ ص٣٨٨.
(٣) ابن حجر، فتح الباري، جـ١٧ ص٢٠٩.

الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه احدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب، وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: «هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا»، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[1].

وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى كعب الأحبار عن التحديث وأوعده بالنفي إلى بلاده، وقال له: «لتتركن الحديث عن الأول أو لألحقنك بأرض القردة»[2]. والذي أراه أن هذا النهي لا يمكن أن يكون بدون اسباب، فلولا وقوف الرسول ﷺ والصحابة على تسرب أخبار إسرائيلية مخالفة للقرآن والسنة لما كان هذا النهي عن الحديث بالقصص والأخبار الإسرائيلية. ومهما يكن القصد من ترويج هذه الروايات، فلا يجوز إدخالها في علوم القرآن والسنة.

واذا أمعنا النظر في اتجاهات بعض فرق الشيعة في التفسير، نجد انحرافاً مغرضاً في إخراج النص القرآني عن المعنى الذي سيق من أجله. والسبئية احدى فرق الشيعة الغلاة التي رفعت عليا الى مرتبة الألوهية، وجاءت من الأفكار المبتدعة التي كنا قد أشرنا اليها في بداية هذا المبحث. وكانت كباقي الاحزاب الإسلامية تبحث عن سند لهذه الأفكار في كتاب الله وسنة رسوله، فحرفت ما شاء لها التحريف وحمّلت الآيات معاني لا تخفى على ذي بصر.

وجدير بالباحث ان يذكر ان المصادر الإسرائيلية لم تكن متيسرة في العهد الراشدي، ولم يكن الاطلاع عليها ممكنا الا لرجال الدين اليهودي، فنحن نعرف ان الكتب الدينية سواء كتب اليهود ام النصارى، ظلت حبيسة الكنس والأديرة حتى مطلع العصور الحديثة، فكان المسلمون في هذا العهد يتوقون لسماع القصص الديني ويجدون فيه مادة خصبة لإشباع رغبتهم في الاطلاع. ومن هذا الفهم تقبل المسلمون سمين الحديث وغثه، وأثبت الرواة بعض الروايات التي لا يستسيغها العقل كما اثبتوا روايات تخرج عن دائرة القرآن والسنة.

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، جـ٣ ص٢٣٧.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨ ص١٠٨.

وأنا لست معنيا بتقصي الروايات الدخيلة في علوم التفسير والحديث، فهذا شأن رجال الجرح والتعديل والمختصين بالتفسير، وإنما أريد فقط أن أمَسَّ هذا الموضوع الذي نشأ في العهد الراشدي الذي أكتب عنه.

ومن أهم الشخصيات التي كان لهـا يد في نشـر الإسـرائيليات، ودارت حولها الشبهات شخصيّتا كعب الأحبار ووهب بن منبه.

وكعب الأحبار من يهود اليمن ادرك النبي ﷺ واعلن إسلامه في خلافة ابي بكر او عمر، وقيل في زمن الرسول ﷺ[1]. وقد ذكرنا من قبل علاقة هذه الشخصية بمقتل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[2]. وعلى الرغم من ان بعض القدامى قد وثقوه[3] فإن تسلسل المكائد اليهودية، وتنوع اساليبهم يجعل الباحث الحديث يقف إزاء أخبار كعب وقفة حيطة وحذر. وقد قال عنه الشيخ رشيد رضا: «كعب الأحبار الذي أجزم بكذبه، بل لا أثق في إيمانه»[4] وقال: «لننظر كيف تسلسل انخداع الناس بروايات كعب الكذاب، وجعلوا ذنبها على كتب اليهود لا عليه، وأكثرها لا ذكر لها في كتبهم، وإنما هو الذي افتراها تشويهاللإسلام[5]»وقال: ثم ليعلم أن شر رواة هذه الإسرائيليات وأشدهم تلبيسا وخداعا للمسلمين هذان الرجلان: «كعب الأحبار ووهب بن منبه»[6].وقال: كعب الأحبار الذي ادخل على المسلمين شيئا كثيراً من الإسرائيليات الباطلة المخترعة، وخفي على كثير من المحدثين كذبه ودجله لتعبده[7].

ثم إن تهديد عمر بن الخطاب لكعب بالنفي لبلاده إذا لم يترك التحديث، يدل على وقوف عمر رضي الله عنه على غايات كعب المعادية للاسلام، وحتى قصة إسلام كعب تثير الشك وتبعث على الريبة، فعندما سأله العباس عن عدم إسلامه في عهد رسول

---

(١) انظر ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر بيروت ط١ ١٣٢٧هـ، جـ٨ رقم ٧٩٣. وأبوعبدالله شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، ١٣٤٧هـ، جـ١ رقم (٣). انظر كذلك دائرة المعارف الإسلامية الترجمة الانجليزية، مادة كعب الأحبار، ص٥٨٢. ورمزي نعناعة، الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، رسالة دكتوراة، طبع دار القلم ودار الضياء، دمشق - بيروت ١٩٧٠م ص١٦٧.

(٢) انظر ص ٤٠١ من هذا البحث.

(٣) انظر ابن حجر، المرجع السابق والصفحة.

(٤) مجلة المنار، جـ٩ مجلد ٢٧، ص ٦٩٧.

(٥) المرجع السابق والصفحة.

(٦) المرجع السابق، جـ١٠م ٢٧ ص٧٨٢.

(٧) تفسير المنار جـ٨ ص٤٤٩.

الله ﷺ وأبي بكر، قال: «إن أبي كان كتب لي كتابا من التوراة، فقال: اعمل بهذا، وختم على سائر كتبه، وأخذ علي بحق الوالد على الولد ألاّ أفض الختم عنها، فلما رأيت ظهور الإسلام، قلت: لعل ابي غيّب عني علما، ففتحتها، فإذا صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلما»[1].

إن هذا لتبرير واه، ألم يجد كعب الأحبار صفة محمد إلا بكتاب والده؟! فكيف نصدق هذه القصة ثم نقنع بالمديح والثناء عليه، ووصفه بالعالم الحبر؟! ويرى الشيخ رشيد رضا ان سبب توثيق رجال الحديث له، يعود لاعتنائهم بنقد السند اكثر من المتن[2].

ويعلق احد الباحثين على توثيق كعب ووهب بقوله: «ولكن جمهرة من المحققين ارتابت من هذا القول - توثيق كعب ووهب - وشكت في أكثره، والواقع أن أكثر ما روي عن هؤلاء من أخبار وأقوال يشير إلى أنهم لم يكونوا على نحو ما قيل عنهم من العلم، وانهم لم يكونوا اصحاب علم بالتوراة، وأن بعضهم تآمر على الخلفاء بينما كان يتظاهر بخلاف ذلك»[3].

وأما وهب بن منبه فإنه من أصول فارسية كما تذكر الروايات عنه، فوالده من هراة بخراسان انتقل الى اليمن بأمر من كسرى الفرس أنو شروان، وأسلم في حياة الرسول ﷺ، ونشأ وهب في اليمن، وولي القضاء في عهد عمر بن عبدالعزيز، وقيل انه توفي سنة ١١٤هـ[4].

وقد اتهم وهب بالقول بالقدر، وروي عنه انه قال «كنت اقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتابا من كتب الأنبياء في كلها: «من جعل الى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر، فتركت قولي»[5].

---

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، المطبعة الشرقية، ١٣٢٥هـ، ١٩٠٧م جـ٥ ص٣٢٣.
(٢) مجلة المنار جـ٨ م٢٧ ص٦٩٦ وما بعدها.
(٣) جواد علي، مجلة الرسالة - بغداد، عدد ٧٥٧، ٢٣ من صفر ١٣٦٧هـ من يناير ١٩٤٨م، السنة السادسة عشرة مجلد ١٩٤٨ ص٢٦، بعنوان عبدالله بن عباس.
(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ١١ ص٢٨٨. وتذكرة الحفاظ، جـ١ ص٩٣. واليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، طبع الهند ط١ ١٣٣٩هـ ص٢٤٨. والذهبي تاريخ الاسلام، طبع المقدسي - القاهرة ١٣٦٧هـ، ١٩٤٧م جـ٧ ص٤٣٨. وابن قتيبة، المعارف ص ٢٣٣.
(٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ٨ ص٧٩٣.

وأرى في قوله هذا مبالغة واضحة، فمن اين اتى بهذه البضعة وسبعين كتابا من كتب الأنبياء، ونحن في عصر الطباعة والنشر لا نجد مثل هذا العدد من الكتب عن الأنبياء! وقد تعرض وهب بن منبه لسيل من النقد من قبل كتاب قدامى ومحدثين فقد ضعفه عمرو بن علي الفلّاس(١)، وجاء في تفسير السيد رشيد رضا لقوله تعالى: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾(٢) ما نصه: «. . . وفي التفسير المأثور روايات في صفة الثعبان الذي تحولت اليه عصا موسى عليه السلام، وفي تأثيره على فرعون ما هو الا من الإسرائيليات التي لا يصح لها سند، ولا يوثق فيها بشيء ومنها قول وهب بن منبه: أما إن العصا لما صارت ثعبانا حملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون الفا قتل بعضهم بعضا، وقام فرعون منهزما. قال ابن كثير رواه ابن جرير، والإمام احمد بن ابي حاتم وفيه غرابة في سياقه والله اعلم».

وقد أيد رشيد رضا تضعيف عمرو بن علي الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له، وقال: «بل انا أسوأ فيه ظناً على ما روي من كثرة عبادته، ويغلب على ظني انه كان له ضلع مع قومه الفرس الذين يكيدون للإسلام وللعرب ويدسون لهم من باب الرواية ومن طريق التشيع»(٣).

وقال الدكتور عبدالعزيز الدوري بشأنه: «ولم يكن وهب دقيقا بل انه لم يترفع عن الادعاء الكاذب»(٤). وقال فيه آخر: «انه لم يكن على ما يظهر من الروايات المنسوبة اليه يتورع من التلقين، ليثبت انه صاحب علم بأحوال الماضين وبما سيكون، شأنه في ذلك شأن زميليه كعب الأحبار وابن سلام اللذين يليهما بالمنزلة، أقول ذلك علي الرغم من تلك الصورة التي رسمها نفر من المحدثين له وأحيطت بهالة من التبجيل والإحترام، وعلى الرغم من تلك النعوت التي جاء بها عليه نفر من اصحاب كتب الرجال، على حين كانوا يبخلون بمنح بعضها أناساً أوثق منه واصدق بمراتب ودرجات»(٥).

ويغلب على الظن ان توثيق بعض رجال الحديث لهؤلاء إنما كان مبعثه تظاهره

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب جـ٨ ص٧٩٣.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٠٧.
(٣) تفسير المنار جـ٩ ص٤٤.
(٤) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص٢٦.
(٥) جواد علي، مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ١ ص١٤٣.

بالعبادة أولا، وعدم اطلاع رجال الحديث هؤلاء على مصادر الإسرائيليات ثانيا. ولا ينفع القول بأن لم يكذبوا على الرسول ﷺ في رواياتهم، وانما رووها على انها من الإسرائيليات ليس إلا! وأي فائدة يرجوها للمسلمين ذلك الذي يعمل على بث الخرافات ونشر التنبؤات الكاذبة، وكان الأجدر بهؤلاء الذين وصفوا بحسن الإسلام ووفرة العلم ان ينتفعوا بالإسلام الذي يحارب مثل هذه الأكاذيب والخرافات.

وقد ذكر احدهم أن أبرز من عني بالإسرائيليات من المفسرين أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧هـ في كتابه «الكشف والبيان عن تفسير القرآن»، وعلاء الدين ابو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عصر بن خليل الشيحي البغدادي المعروف بالخازن المتوفى سنة ٧٤١هـ في كتابه «لباب التأويل في معاني التنزيل»[١].

ونورد نموذجا من كل من التفسيرين السابقين لندرك مدى تسلل الإسرائيليات الى بعض كتب التفسير، فقد كان في تفسير الثعلبي عندما عرض لتفسير قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿إذ آوى الفتية إلى الكهف. . .﴾[٢]. «روى عن السدّي ووهب بن منبه وغيرهما رواية طويلة فيها ذكر اسماء الفتية واسم كلبهم، وفيها حوار غريب بين الفتية وكلبهم فحاولوا رده، واعجب ما فيها: ان نبينا محمد ﷺ طلب من ربه ان يريه اصحاب الكهف فأجابه بأنه لن يراهم في دار الدنيا، وأمره أن يرسل اليهم اربعة من خيار اصحابه ليبلغوهم رسالته[٣].

ورواية الثعلبي منقولة عن السدّي ووهب وغيرهما وفيها «. . . وأسماؤهم - أي الفتية - مكشلمنيا وهو كبيرهم ورئيسهم، وإمليخا: وهو أجملهم وأعبدهم وأنشطهم، ومكشيثا ومرطوش، ونوانسن، وكيد، وسطنوس، وكلبهم قطمير. . .» ثم قال: «قال كعب: مروا بكلب فتبعهم، فطردوه مرارا، فقام الكلب على رجليه، رافعا يديه الى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا مني انا احب احباب الله، فناموا حتى احرسكم. . .» ثم ذكر من قصتهم ما ذكر إلى أن قال: «وقيل: إن النبي ﷺ سأل الله أن

(١) بدع التفاسير في الماضي والحاضر. . ، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في المملكة الاردنية الهاشمية، ١٩٧٠م ص٣١.
(٢) سورة الكهف، آية: ١٠.
(٣) بدع التفاسير، المرجع السابق والصفحة.

يريه إياهم، فقال: إنك لن تراهم في دار الدنيا، ولكن ابعث اليهم اربعة من خيار اصحابك ليبلغوهم رسالتك، ويدعوهم الى الإيمان، فقال النبي ﷺ لجبريل، كيف أبعثهم؟ فقال: ابسط كساءك وأجلس على طرف من اطرافه أبا بكر، وعلى الآخر عمر، وعلى الثالث عثمان، وعلى الرابع علي بن ابي طالب، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان، فإن الله تعالى يأمرها ان تطيعك، ففعل فحملتهم الريح الى باب الكهف، فقلعوا منه حجرا، فحمل الكلب عليهم، فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بعينيه، وأومأ برأسه ان ادخلوا، فدخلوا الكهف، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد الله على الفتية ارواحهم فقاموا: بأجمعهم وقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله، فقالوا: معشر الفتية ان النبي محمد ابن عبد الله يقرأ عليكم السلام، فقالوا: وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض وعليكم ما ابلغتم، وقبلوا دينه وأسلموا ثم قالوا: اقرئوا محمدا رسول الله عنا السلام، واخذوا مضاجعهم، وصاروا الى رقدتهم...»[1].

وواضح من سياق كلام الثعلبي انه ينقل الرواية دون ان يعمل فكره ولو للحظة واحدة في ما ينقل من اساطير على لسان وهب وغيره.

وجاء في تفسير الخازن في معرض تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣، ٨٤ ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتينا أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ يقول الخازن:

قال وهب بن منبه: «كان أيوب رجلا من الروم، وهو أيوب بن أموص بن تارح بن روم بن عيص بن اسحاق بن إبراهيم، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا، وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال خوارزم مع ارض الشام كلها سهلها وجبلها، وكان له من اصناف المال كله، من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل افضل منه في العدد والكثرة، وكان له خمسمائة فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد إمرأة وولد ومال، ويحمل له آلة كل فدان أتان، لكل أتان

(١) انظر ابو اسحق احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القران، مخطوط ومنه اربعة اجزاء في مكتبة الازهر، تبدأ بأول القرآن وتنتهي عند آخر سورة الفرقان، جـ٤ ص١٢١-١٢٥.
على من أراد الاستزادة من أخبار كعب الأحبار ووهب بن منبه أن يرجع الى، الملطي: في كتابه التنبيه في الرد على اهل الأقوال والبدع، وكتب التفسير والحديث، وخاصة تفسير الخازن، وتفسير الثعلبي، ومحمود أبو ريه في كتابه، أضواء على السنة المحمدية.

من الولد اثنان او ثلاثة او أربعة أو خمسة وفوق ذلك، وكان الله تعالى قد اعطاه أهلا وولداً من رجال ونساء، وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين، يطعمهم، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله، مؤدياً لحق الله، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من العزة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا، . . . وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيثما اراد، حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع، فلما بعث محمد ﷺ حجب عن السموات كلها إلا من استرق السمع، فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه، فأدرك ابليس الحسد والبغض، فصعد سريعا حتى وقف من السماء حيث كان يقف، وقال: إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك، وعاقبته فحمدك، ولو ابتليته بنزع ما اعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك، ولخرج عن طاعتك، قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ماله، فانقض عدو الله حتى وقع على الأرض، فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم: ماذا عندكم من القوة؟ فقد سلطت على مال ايوب، وهو المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال». . . . ثم ذكر أقوالاً غريبة في إفناء مال ايوب اتبعها بقوله: «فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعا حتى وقف الموقف الذي يقف فيه، وسأل الله أن يسلطه على ولده، فقال الله له: انطلق فقد سلطتك على ولده». . . ثم ذكر ما كان من هلاك ولده وعذابهم، ثم جاء ابليس لأيوب وقال له: لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم، ولو رأيت كيف شققت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم، فبكى أيوب وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم لم يلبث أيوب أن تاب إلى ربه، فوقف إبليس خاسئاً ذليلا، وسأل الله أن يسلطه على جسد أيوب، فقال له عز وجل: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله. . فانقض عدو الله إبليس سريعا، فوجد أيوب ساجدا، فعجل قبل ان يرفع رأسه، فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخريه نفخة اشتعل منها جسده، فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل إليات الغنم، ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة حتى قرح لحمه وتقطع، وتغير وأنتن، فأخرجه اهل القرية حتى جعلوه على كناسة لهم وجعلوا له

عريشة، ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته». . . ثم ذكر قصة حوار ايوب مع خلصائه ودعواه لربِّه ان يكشف عنه ما اصابه من الضر والبلاء، ثم استجابة الله سبحانه وتعالى لتضرعه، ومعافاته مما ناله، ثم نقل عن الحسن «أن أيوب مكث مطروحا على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا، يختلف فيه الدود، ولا يقربه احد غير رحمه «اسم زوجته» ثم إن صبر أيوب أعْيا إبليس فاستشار اعوانه فأشاروا عليه ان يأتيه من قبل زوجته، فانطلق إبليس حتى أتى رحمة إمرأة أيوب فتمثل لها في صورة رجل وقال لها: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هوذاك يحك قروحه، وتتردد الديدان في جسده، فأخذ يوسوس لها ويذكر جمال ايوب وشبابه، وما هو فيه من الضر، وإن ذلك لا ينقطع عنه ابدا، فصرخت فعلم أنها قد جزعت، فأتاها بسخلة وقال: ليذبح لي هذه ايوب ويبرأ فجاءت تصرخ: يا أيوب، حتى متى يعذبك ربك؟ أين المال؟ اين الولد؟ أين الصديق أين لونك الحسن؟ أين جسمك الحسن؟ اذبح هذه السخلة واسترح، فقال لها ايوب: أتاك عدو الله فنفخ فيك، ويلك . . . والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله . . . وطردها . . . الى آخر القصة»[1].

ويعلق رمزي نعناعة على ما اورده الخازن بقوله: والعجب ان الخازن ينتهي من هذه القصة، ثم لا يعقبها بأية كلمة تشعر بتكذيبها، أو الشك فيها، مع أنها بلا شك رواية موضوعة مكذوبة، بل ومدسوسة على القرآن، ويمكن دفعها عقلا ونقلا، فالعقل لا يقبل بحال من الأحوال أن يكون أي نبي أو رسول فيه كل هذه المنفرات التي تصد الناس عنه وتباعد بينهم وبينه. والنقل صريح في أن الأنبياء لا بد أن تكون لهم من الصفات البدنية ما يمتازون به، وما يلقي عليهم شيئا من المهابة . . . وإلا فما معنى قوله تعالى في سورة البقرة الآية: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾[2].

وأضيف إلى ما تقدم، أن الأجدر بهذه القصة أن تروى عن أناس يرتادون حانات القمار والمراهنات، وليس على الله وأنبيائه، وهذه القصة وغيرها من الإسرائيليات تكشف عن النية المبيتة لإغراق المعاني السامية الواردة بكتاب الله بوابل من الترهات والأساطير

---

(١) تفسير الخازن جـ٤ ص٢٥٠-٢٥٤.

(٢) بدع التفاسير في الماضي والحاضر، ص٣٧-٣٨.

ليكون كتاب الله محل شك العقلاء والمفكرين. وكتاب الله الذي لم يفرط به من شيء، لا يمكن تفسيره والإحـاطـة بدقائقه في زمان واحد، لأنه كتاب كل زمان، والزمان هو الكفيل بكشف بعض خباياه وأسراره، وكما نجد بعض الإشارات في القرآن إلى معجزات علم العصر الحديث، فستأتي معجزات علم المستقبل دليلا على كمال قوله سبحانه وتعالى ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[1] (صدق الله العظيم).

(١) سورة الأنعام، اية: ٣٨.

★ الخاتمـــة :

هذا بحث يتنـاول دراسة العلاقات العربية اليهودية قبل الاسلام وحتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين من وجهة نظر جديدة. فما زالت دراسة العلاقات العربية اليهودية في هذه الفتـرة تعتـرضها مشكلات متعددة، رغم كثرة ما كتب في هذا الموضوع من قبل مفكري اليهود والنصارى والمسلمين.

وتكشف هذه الدراسة خطأ الاعتماد على التوراة في دراسة تاريخ اليهود، وقد وقع في هذا الخـطأ حتى المؤرخـون المسلمون. لقد كان هدف كتبة التوراة ومن بعدهم مؤرخي اليهـود ومفكريهم التثبيت في الأذهان «عقيدة الارض الموعودة. . وشعب الله المختـار». هذه العقيدة التي اهتـدى اليها زعماء اليهود بعد حياة التشرد والشتات من فلسطين. وهكذا جاء تحريف التوراة ليخدم الأغراض السياسية والاجتماعية لليهود في مواطن السبي، كما جاءت هذه الأفكار لتعطي صورة صادقة للحالة النفسية المضطربة للجماعات اليهودية.

وفي سبيل ابراز الحقائق المتقدمة عني البحث بدراسة التسميات التي أطلقها كتبة التوراة والمؤرخون اليهود وأنصارهم على ما اصطلح على تسميته باليهود. وفي مجال دراسة التسمية «عبراني، عبرانيين» تبين أن لفظ عبراني وعبرانيين لا تدل على أمة بعينها وإنما يدل على حالة من البداوة أطلقتها شعوب الشرق القديم على كل القبائل التي كانت تعيش حياة الترحال والتنقل التي تقتضيها طبيعة الحياة البدوية. ومن خلال استعراض الموضوع السابق تبين ان اليهود يحرصون أشد الحرص على ربط نسبهم بإبراهيم الخليل عليه السلام، مع ان الجموع اليهودية في عصر سيدنا موسى وما بعده، لا تمت بأية صلة لابراهيم عليه السلام، لأن عصر إبراهيم عصر مستقل بمعتقداته ولغته ومميزاته.

وفي معرض دراسة التسمية الثانية «بني اسرائيل» أو الاسرائيليين اتضح من خلال البحث ان كتبة التوراة إنما يريدون تحقيق الهدف السابق ـ ربط نسبهم بإبراهيم ـ غير ان عصر يعقوب «اسرائيل» مكمل لعصر إبراهيم وله مميزاته وصفاته التي تختلف بدورها عن مميزات الجماعة التي خرجت من مصر بقيادة موسى عليه السلام. وفي أثناء الحديث عن الموسويين، «أتباع سيدنا موسى» أثرت عدة ملاحظات منها.

١ - إن الجموع التي قادها موسى عليه السلام لا تنتمي إلى سلالة واحدة.
٢ - لم تكن كل هذه الجموع تدين بدين موسى عليه السلام.
٣ - خرجت هذه الجموع بعد خروج الهكسوس من مصر، واعتبرهم المصريون شركاء للهكسوس في حكم مصر، ولهذا لم يكن خروجهم طوعا وإنما إكراها من المصريين.
٤ - كانت هذه الجموع تبحث عن وطن يفيض بالخيرات ينسيهم العز الذي افتقدوه في مصر.

وقد وجدت هذه الجموع في فلسطين ذات المناخ الجميل والخيرات الوفيرة خير عوض لها عن مصر التي طردوا منها، ولم تكن فلسطين ارضا بدون سكان فقد كان اليبوسيون ثم الكنعانيون قد عمروها منذ أجيال عديدة وأنشأوا فيها حضارة تضاهي حضارات عالم ذلك التاريخ، وان اغلب المدن التي لا زالت قائمة حتى اليوم هي من صنعهم. ولم يستطع اليهود رغم تحريف أسمائها من طمس علاقتها باليبوسيين والكنعانيين. وقد نعمت الجموع التي قادها يشوع - خليفة موسى عليه السلام - الى فلسطين بحياة نسبية من الاستقرار والنعيم جعلتهم يطلقون على فلسطين فيما بعد - ارض الميعاد - بعد ان شردوا منها على ايدي الآشوريين والكلدان والرومان.

وقد اتضح من خلال الدراسة ان تاريخ اليهود يبدأ بالخروج من مصر واستيطان بعض أجزاء من فلسطين، ذلك لأن الجموع الهاربة من مصر قد وحدتها المحن والتقت حول أهداف مشتركة، وتعلق بعضها بشريعة موسى لتحقيق غرضها السياسي والاجتماعي، ثم بدلت شريعة موسى في بلاد ما بين النهرين ببرنامج سياسي يتجلى في التوراة الحالية والتلمود.

وهكذا نجد أن هذه الدراسة تهدم الأساس الذي أقام اليهود عليه تاريخهم، وتفسر حركتهم التاريخية تفسيرا اجتماعيا ونفسيا، وتجعل من هذا التاريخ حركة سياسية مستمرة في تحقيقها لبرامجها. وهذا الرأي الجديد يساعد على تفسير العلاقات العربية اليهودية من وجهة نظر جديدة.

وبناء على ما تقدم فنحن امام حركة سياسية لم تتورع عن تزييف الدين والتاريخ

لتحقيق أغراضها. ولست مبالغا اذا قلت ان هذا الرأي جديد غفل عنه مؤرخونا، فجاء عرضهم للتاريخ اليهودي عرضا متقطعا، مع أن الوقائع التاريخية تثبت دون شك ان الحركة السياسية اليهودية متصلة ومستمرة في تحقيق البرنامج الذي أقره حكماء اليهود منذ عصر الشتات، وان الغايات التي وضعوها نصب أعينهم ما زالت حتى العصر الحاضر هي نفس الغايات التي يعملون على تحقيقها وان تغيرت الخطط والاساليب، ونخلص من هذه الدراسة ايضا الى أن كتبة التوراة وأتباعهم قد سبقوا غيرهم في الدعوة للميز العنصري، عندما اعتبروا شعبهم فوق كل الشعوب، ونظروا البقية مخلوقات الله نظرة ذل واحتقار، وقد أثبتّ أن الجماعات اليهودية لا تنتمي لجنس واحد، ولا يشكلون سلالة نقية.

وفي مجال بحث العلاقات العربية اليهودية خارج الجزيرة العربية قبل الاسلام، أوضحت الأثر العربي في المعتقدات اليهودية وضربت مثلا لذلك عن التأثيرات العربية في بعض أسفار التوراة وخاصة سفر أيوب.

وقد رجحت الرأي القائل بأن موطن ملكة سبأ، كان في شمال الجزيرة العربية على أطراف فلسطين الجنوبية، وليس في اليمن كما كان سائدا بين المؤرخين.

وفي أثناء الحديث عن مملكة اليهود في فلسطين أبرزت دور القبائل العربية وبعض الشعوب المجاورة في حمايتها من الهجمات الخارجية.

وكذلك تطرقت الى علاقة القبائل المعينية التي ذكرتها التوراة باليهود وذهبت الى أن هذه القبائل إنما كانت تسكن في أطراف الجزيرة الشمالية على حدود فلسطين، ولم تكن القبائل العربية في حالة وفاق دائما مع المملكة اليهودية، فقد وقفت هذه القبائل ضد إعادة بناء الهيكل بعد عودة يهود السبي، ذلك ان هذه القبائل رأت في بعث المملكة اليهودية خطرا يتهددها.

وأبرزت في هذه الدراسة أن اليهود كانوا يستغلون الظروف لصالح نشاطهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، سواء أثناء إقامتهم في العراق أو تدمر، أو من خلال علاقتهم مع الشعوب الاخرى.

وأثناء الحديث عن دخول اليهود الى جزيرة العرب ميزت بين فترتين:

الأولى : يعود تاريخها إلى عهد سيدنا موسى ، حيث أقامت جماعة من أتباعه في شمال الجزيرة بعد أن سئمت الحرب وحياة الشقاء والأسفار، ولم تكن هذه الجماعة تتمسك بعقيدة دينية أو أفكار معينة ، بقدر بحثها عن حياة الاستقرار والهدوء، ولذلك سرعان ما ذابت هذه الجماعة في البيئة العربية ولم نعد نسمع عنها أي خبر.

الثانية: ويعود تاريخها إلى ما بعد حوادث السبي ، والجماعات اليهودية التي دخلت الجزيرة العربية ـ بعد هذه الفترة ـ تختلف عن سابقتها بأن لها معتقداتها الدينية والسياسية التي برزت في التوراة والتلمود.

وقد أشرت إلى الغموض الذي يحيط بدخول اليهودية إلى بلاد اليمن وكشفت عن حقيقة العلاقات التي كانت بين اليمن والأحباش، كما عرضت لأطماع الرومان والفرس باليمن. وعند الحديث عن المجتمع اليثربي تطرقت لأشهر البطون اليهودية التي سكنت يثرب، ثم عرضت لطبيعة العلاقات التي كانت تربط هذه البطون مع بعضها، وأشرت إلى انقسام البطون اليهودية على نفسها وأثر هذا الانقسام على مستقبل الحركة اليهودية في الجزيرة العربية. وفي ميدان العلاقات العربية اليهودية في يثرب، بينت الأسباب الحقيقية لهجرات القبائل الأزدية من اليمن، ووقفت عند علاقة الأوس والخزرج باليهود، وأبرزت أثر العوامل الاقتصادية في الصراع بين العرب واليهود أولا ثم الصراع بين الأوس والخزرج ثانيا دون اهمال دور اليهود في الصراع الأخير.

وفي مجال الحديث عن الأثر الفكري لليهودية في بلاد العرب أوضحت أن العرب أثروا باليهود أكثر مما تأثروا بهم، واستشهدت على ذلك بالاشعار اليهودية، ودحضت حجج القائلين «بأن البيئة الجديدة التي حل بها اليهود في جزيرة العرب هي التي شلت قواهم الروحانية وغلبت عليهم العقلية البدوية» وعززت رأيي بأن البيئة الجديدة التي حل بها اليهود إنما كانت أخصب بلاد الحجاز، وفي هذا الميدان تعرضت لبعض العادات، التي قيل أنها تسربت إلى العرب من اليهود، وأوضحت أن هذه العادات كالنسيء والصوفان والختان عادات قبلية قديمة عرفتها الحياة القبلية قبل ظهور اليهود على مسرح التاريخ .

وقد انتقلت بعد ذلك لبحث العلاقات العربية اليهودية في العهد المكي، واستجلاء لحقيقة موقف سكان الجزيرة العربية تجاه الدعوة الاسلامية وجدت لزاما علي ان أتعرض لموقف قريش من هذه الدعوة، ذلك ان قبيلة قريش كانت سيدة القبائل العربية في شمال الجزيرة، دون منازع، ولها صلاتها مع اليهود داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وقد تحكمت في هذا الموقف ثلاثة عوامل :-

١ - مركز مكة في الجزيرة العربية، واهتمام القرشيين بالحفاظ على هذا المركز يتضح من محافظة مكة على علاقتها مع القبائل العربية وغير العربية خارج مكة لضمان نمو حركتها التجارية، واهتمامها بالبيت العتيق - الكعبة - «محج العرب» لاستمرار سلطتها الأدبية على باقي وثني بلاد العرب.

٢ - دور العصبية القبلية التي كان لها اتجاهان، اتجاه يقاوم نجاح الدعوة الاسلامية واتجاه آخر كان يسهم في نجاح هذه الدعوة.

٣ - مركز الرسول ﷺ في مكة، ودور هذا المركز في إنجاح الدعوة الاسلامية.

وقد عقدت مقارنة سريعة بين الدعوة الاسلامية والديانة اليهودية وخلصت من هذه المقارنة إلى أن اليهودية فشلت في أن تكون ديانة العرب رغم دخولها الجزيرة منذ زمن مبكر قبل ظهور النصرانية. وقد عزوت ذلك إلى مجموعة من الأسباب منها.

١ - الغموض الفلسفي الذي اكتنف اليهودية بعد امتزاجها بالتراثين اليوناني والشرقي، وامتزاج الفلسفة بالدين امتزاجا لم يجعلها دينا خالصا ولا فلسفة محضة.

٢ - ان سلوك اليهود أنفسهم انعكس على علاقتهم مع العرب، وكان هذا السلوك قائما على الشك والريبة والميل الى العزلة، وهي صفات ورثها اليهود بعد حوادث الشتات التي تعرضوا لها عبر تاريخهم، وازداد اليهود عزلة بتمسكهم بالمبادىء السياسية التي أثبتها رؤساؤهم في التوراة والتلمود.

٣ - الصراع بين اليهودية والنصرانية في بلاد العرب، أضعف الديانتين وجعل العربي لا يثق بهما.

٤ - نظرة العرب العامة الى كل دخيل عليهم، فاليهود غرباء طارئون على بلاد العرب، وازدادت كراهية العرب لهم بعد أن استأثروا باقتصاد الحجاز، وتعاملوا بالربا مع العرب، وحفظ لهم العرب قصصا لا تحصى في الجشع وعدم الرحمة بالفقراء.

وبعد ذلك تعرضت لحالة المسلمين في مكة والوسائل التي اتبعها زعماء قريش في ايقاع الأذى بهم، مما جعل الرسول يأذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة. وقد تناولت بالتعليل أسباب اختيار الحبشة لتكون أولى مهاجر المسلمين وعزوت ذلك إلى ثلاث احتمالات:

الاول: ما قيل عن عدل النجاشي ملك الحبشة.
الثاني: بعد المسلمين في الحبشة من ان تصلهم عداوة قريش.
الثالث: رغبة المسلمين في العمل والارتزاق بعد أن سدت قريش العمل في وجوه المسلمين.

وخلال بحث موقف اليهود من الدعوة الاسلامية، رأيت أن هناك اتجاهين يحكمان هذا الموقف.

الأول: اتجاه فيه تفاؤل يرى أنه بالامكان جذب محمد ﷺ إلى اليهودية اعتمادا على أن التعاليم التي ينشرها محمد تشابه المعتقدات اليهودية.

الثاني: اتجـاه متشائم يرى في حركة محمد ﷺ خطرا على اليهودية، وأصحاب هذا الاتجاه ممن اطلعوا على البشارات التي جاءت بها الكتب السماوية السابقة، التوراة والانجيل، بمبعث نبي من العرب اسمه محمد. ولم يتبعوه بغيا وحسدا لأنه ليس من بني اسرائيل، وقد قاوم هؤلاء الدعوة الاسلامية منذ ظهورها مقاومة سلبية، بتعليم العرب أساليب الجدل والحجاج التي قابلوا بها محمدا ﷺ.

إن المتتبع للتاريخ اليهودي يجد أن الاتجاه الثاني هو الذي يمثل خط سير اليهود، لأن اليهود لم يكونوا معنيين كثيرا بأمور الدين بقدر ما كان يعنيهم نجاح حركتهم السياسية المتمثلة، بعقيدة الأرض الموعودة وشعب الله المختار.

ورغم التيارات المختلفة التي شهدتها الجزيرة العربية، فقد وجدت المعتقدات

على اختلافها حدا من التسامح في بلاد العرب في البداية، لأن قريشا التي كانت في مركز الزعامة كان يهمها في الدرجة الأولى الحفاظ على مركزها الاقتصادي والأدبي في جزيرة العرب، وتحتفظ بعلاقات حسنة مع الدول المجاورة لجزيرة العرب لنفس الأسباب، وفي نطاق الحديث عن المعتقدات التي أنتشرت في بلاد العرب لم أنس دور الحنيفية بين هذه الأفكار والمعتقدات التي ساهمت في اضعاف الوثنية. وقد ذهبت الى ان جذور الديانات التوحيدية تعود الى عهود موغلة في القدم نبعت من جنوب الجزيرة العربية.

وبناء على ما تقدم لم يكن عرب الحجاز بعيدين عن الافكار السائدة، في منطقة الشرق الأوسط بحكم موقعهم التجاري بين الشمال والجنوب من بلاد العرب. ومن خلال تحليل العوامل المختلفة لمجتمع الجزيرة العربية خلصت الى أن الله سبحانه وتعالى قد هيأ المناخ الملائم لنجاح الدعوة الاسلامية، فاختار لنجاحها الرجل المناسب والزمان المناسب ويسر لها عوامل النجاح، فمحمد ﷺ عزيز في عصبيته، ولم تعد قريش يدا واحدة خلف زعيم واحد، واعتنق الاسلام أناس من بطون مختلفة من قريش مما أضعف اجماع قريش على مقاومة الدعوة الاسلامية، فهذا أبو بكر من تيّم، وعثمان بن عفان من بني أمية، والزبير بن العوام من أسد وعبدالرحمن بن عوف من كلاب، وسعد بن أبي وقاص من بني زهرة من عبد مناف، وغير هؤلاء من بطون مختلفة علاوة على من أسلم من الموالي والعبيد وأصحاب الديانات الأخرى من يهودية ونصرانية.

وعند بحث أسباب إقبال أهل يثرب على الاسلام، ذهبت الى ربط ذلك بأوضاعها الداخلية ورغبة يثرب في منافسة مكة على الرياسة، وضعف الوثنية فيها بفعل الدعوات والأفكار الداعية الى التوحيد.

وقد ابرزت حدث بيعة العقبة الكبرى موضحا نتائجها على الحركة الاسلامية من جهة،وموقف العرب واليهود منها من جهة أخرى. واستنتجت قوة يثرب من خلال هذه البيعة، واستعدادها لمواجهة العرب جميعا لحماية الدعوة الاسلامية، وقد وقف اليهود من هذه البيعة موقفا يبعث على الشك والريبة في صدق نواياهم وقد نظر العرب إليهم نفس النظرة، وكانوا يصفونهم «بالثعالب» وقد كان لهذه النظرة دورها في فشل اليهود في مساعي التآمر على الدعوة الاسلامية، وهي ما زالت في المهد. وهكذا نجد أن العرب تعلموا من

خلال تجاربهم الطويلة مع اليهود ان لا يثقوا فيهم وأن يحذروا مكائدهم.

كانت يثرب على جانب عظيم من القوة ومصدر قوتها إنما يعود الى ثروتها الاقتصادية وموقعها على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، وعلاقة الأوس والخزرج ببقية البطون الأزدية وخاصة الغساسنة الذين استوطنوا سوريا بعد هجرتهم من اليمن.

لقد كانت البيعة الكبرى مقدمة لهجرة الرسول ﷺ وأتباعه إلى يثرب التي دعيت بعد الهجرة «المدينة». وقد أبرز البحث موقف المسلمين من اليهود واليهودية على ضوء التصور القرآني، ورغبة المسلمين في التعاون مع أهل الكتاب في محاربة الوثنية، وقد سقت هذه التقدمة للتدليل على ان المسلمين كانوا صادقين في رغبتهم للتعاون مع أهل الكتاب وازالة كل الشكوك التي قد تقف حائلا دون هذا التعاون. وقد نزلت آيات قرآنية متعددة، تقيم كلها الدليل بعد الدليل لتكون حجة قائمة وكافية على صدق الرسالة المحمدية التي جاءت متممة لما تقدمها من رسائل سماوية.

وقد هاجر الرسول ﷺ الى المدينة وفي ذهنه التصور المتقدم عن أهل الكتاب، ولذلك أحلهم المسلمون في منزلة رفيعة فوق أهل الوثنية، واطلاق تسمية أهل الكتاب عليهم سمو بهم فوق الوثنية واقرار باحترام المسلمين للكتب السماوية والأنبياء الذين بعثهم الله قبل مبعث محمد عليه الصلاة والسلام. ومن هذا المنطلق كان المسلمون يقفون موقف الاشفاق من اختلاف الكتابيين، ويرون في هذا الاختلاف عائقا امام تبليغ الرسالة السماوية. وقد انعكس تصور المسلمين لأهل الكتاب في سلوكهم معهم، فجادلوهم بالحسنى، وكان هدف المسلمين اقناع أهل الكتاب بان دين الله واحد كما ان إله المسلمين وأهل الكتاب واحد، وأظهر المسلمون لأهل الكتاب انهم لا يريدون لهم إلا الخير ولا يبتغون منهم إلا أن يتبعوا الحق الذي اتبعه المسلمون.

وفي الحديث عن أعمال الرسول في المدينة تعرضت للوثيقة «الصحيفة» التي كتبت بين الرسول وبقية البطون اليثربية لتكون أول دستور يتقيد به جميع الأطراف المشتركة في هذه الوثيقة. وقد استقصيت صحة هذه الوثيقة في المصادر التاريخية وكشفت عن المصادر التي أوردتها الينا، ودللت على صحتها اعتمادا على أسلوبها وتشابه ما جاء فيها مع أحاديث الرسول ﷺ. ثم أبرزت أهمية هذه الوثيقة في التاريخ الاسلامي، فهي دليل على تمسك الرسول بمبدأ الشورى أولا واقراره بحق المواطنة لأهل الكتاب في

المدينة ثانيا. وتكفي هذه الوثيقة لتكون خير رد على أولئك الذين يتهمون الاسلام بأنه انتصر بقوة السيف، وان الرعايا في الدولة الاسلامية لا تعامل بدرجة واحدة، ويزعمون ان للمسلمين امتيازات في الحقوق والواجبات حرم منها غيرهم.

لقد اتفقت مع الذين قالوا بأن الوثيقة تتكون من جزئين، الأول خاص باليهود وكتب قبل معركة بدر، والثاني يتعلق بالمهاجرين والأنصار وكتب بعد بدر،وقد غفل المؤرخون عن حقيقة هامة وهم يتعرضون لهذه الوثيقة الخطيرة، فاستثنوا القبائل اليهودية الثلاث الكبيرة منها، وهي قبيلة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وذلك دون تعليل لهذا الاستثناء اللهم إلاالتقليل من أهمية هذه الوثيقة، التي كانت تهدف أساسا إلى تمتين الروابط بين المسلمين واليهود في المدينة وتجعلهم يقفون صفا واحدا ضد الأخطار التي تتهدد مدينتهم، وأي قيمة للوثيقة التي اختصت بموادعة اليهود إذا لم تشترك بها القبائل اليهودية الكبيرة ذات الشأن في المدينة.

وقد حللت مضمون الوثيقة ـ التي أثبت موادها بملحق خاص ـ وخلصت من هذا التحليل إلى أن اليهود بمختلف طوائفهم كانوا ملزمين بنصرة المسلمين اذا ما داهمهم عدو خارجي، كما استنتجت من هذه الوثيقة حرص الرسول على ان تكون قاعدة حكمه في المدينة مستندة على الشورى، وأن يسود مجتمع المدينة روح التسامح الديني والاقتصادي.

ونظرا لأهمية هذه الوثيقة فقد منحتها عناية خاصة، يغلب على الظن أنها لم تنلها من قبل.

وهكـذا نجدأن الرسول ﷺ كان راغبا في التعاون مع أهل الكتاب، ونجد هذه الرغبة واضحة في القرآن الكريم، كما جاءت الموادعة دليلا آخر على صدق الرسول في هذا التعاون. ولذلك عرضت لموقف اليهود بعد الوثيقة وبدلا من أن يستجيب اليهود لهذا التعاون، وجدناهم يكيدون للاسلام والمسلمين، وكان هذا الكيد يختلف في الأسلوب ويزداد في الشدة كلما كان ساعد المسلمين يشتد، مما يؤكد الطابع السياسي للحركة اليهودية التي لا تحيد عن أهدافها التي رسمت في التوراة والتلمود. وهذه الحقيقة تصل بين الدوافع السياسية لليهود منذ عصر التشرد والشتات وبين دوافعهم في العصر الحديث الممثلة بالحركة الصهيونية العنصرية. وأمام إصرار اليهود على تنفيذ مخططاتهم العدوانية

كان لا بد من انفجار الصراع المسلح بينهم وبين المسلمين.

لقد اعتبر بعض المؤرخين معركة بدر سببا في تفجير هذا الصراع بين الطرفين العربي واليهودي، مع ان هذا الرأي يخالف مسلك المسلمين في علاقاتهم مع اليهود، فقد ذكرنا ان تصور المسلمين لأهل الكتاب كان تصورا أساسه المنزلة الرفيعة التي أحلهم القرآن بها . وأضيف الى ما تقدم ان المصلحة الاسلامية كانت تقضي بالتعاون مع أهل الكتاب في محاربة أهل الشرك وإعلاء كلمة الاله الواحد، وفي هذا المجال أثبت حقيقة غفل عن ذكرها المؤرخون، وهي أن اليهود كانوا يأملون القضاء على الدعوة الاسلامية بسيوف كفار قريش، ولما فشلت آمالهم بتحقيق ذلك انبروا بأنفسهم للقيام بالمهمة التي عجزت قريش عن تحقيقها، وهكذا يأتي انفجار العداء بين اليهود والعرب المسلمين دليلا على أن اليهود لم يتخلوا عن نهجهم الذي اتبعوه خلال تاريخهم، وقوامه التعالي على شعوب الأرض والتباهي على العالم بانهم وحدهم دعاة التوحيد، وهم الذين سخر الله لهم بقية مخلوقاته لتخدمهم، ووعدهم فلسطين أرض الميعاد، الى غير ذلك من تعاليم عنصرية تتبدى حاليا في تعاليم الحركة الصهيونية ويكشف عنها سلوك الكيان الصهيوني في فلسطين.

وبناء على ما سبق أبرزت زيف الدعوى القائلة بان سبب العداء بين المسلمين واليهود هو دعوة محمد لهم للدخول في الاسلام، ذلك لأن المواثيق والعهود التي كتبها الرسول لهم اعترفت لهم بالحرية الدينية ولم تطلب اليهم الدخول في الاسلام وذهبت إلى أن الأسباب الاقتصادية والتعصب القومي والعنصري عند اليهود هي الأسباب الحقيقية لخلافهم مع المسلمين.

وقد عرضت للوقائع الحربية بين المسلمين واليهود من وجهة نظر تأخذ بعين الاعتبار دوافع اليهود الحقيقية في صراعهم مع المسلمين، هذه الدوافع التي أتت منسجمة مع مسارهم التاريخي. ثم كشفت عن أساليبهم في هذا الصراع ومساعيهم في جذب المنافقين والمشركين من العرب إلى جانبهم، ورغم ادراك الرسول محمد ﷺ لأهداف اليهود فقد عاملهم في بداية الأمر معاملة تتسم بالتسامح، فسمح لبني قينقاع بالجلاء عن المدينة، كما سمح أيضا لبني النضير بمثل ذلك، رغم نقضهم العهود وتآمرهم على الجماعة الاسلامية.

وقد انتقم المسلمون من بعض رؤوس الفتنة من اليهود تذكيرا لهم بقدرة المسلمين الذين انتصروا على قريش في بدر، وانذارا لهم لوقف كيدهم والعودة الى رشدهم، ولما تمادى اليهود في عدائهم بعد معركة الأحزاب «الخندق» أنزل بهم المسلمون أشد أنواع العقوبة بعد أن وجدوا أن اللين والتسامح يزيدانهم إمعانا في العداوة والتآمر.

ومن خلال بحث مراحل الصراع بين المسلمين واليهود تكشفت أسباب جديدة لم يذكرها المؤرخون، كبعض أسباب غزوة بني النضير مثلا. وفي كل هذه الحروب مع اليهود كان المسلمون في موقف الدفاع عن النفس، لأن اليهود انضموا إلى صفوف الوثنية علنا للقضاء على الدعوة الاسلامية وأتباعها.

لقد جاءت الحوادث في هذا الصراع لترد على أولئك الذين حاولوا تبرئة اليهود من تهمة التآمر على المسلمين تارة وعلى شخص الرسول تارة أخرى.

وفي أثناء بحث هذه المرحلة من العداء بين المسلمين واليهود تعرضت لموقف كل من المنافقين والمشركين والقبائل اليهودية الصغيرة، وأثر هذه المواقف في سلوك القبائل المختلفة في الجزيرة العربية.

وكدليل على صدق ما ذهبت إليه في كشف النوايا الحقيقية لليهود بينت دورهم في الأعداد لغزوة الأحزاب «الخندق» الخطيرة، وكيف تنكر اليهود لديانة التوحيد التي طالما تظاهروا بأنهم أصحابها طوال تاريخهم، حينما شهد زعماؤهم لزعماء قريش الوثنيين، بأن الوثنية التي تتمسك بها قريش خير من الاسلام الذي يدعو اليه محمد. وفي هذا الموقف دلالة أخرى على تغلب النوازع السياسية عند اليهود على الدوافع الدينية، وأنهم انما يتخذون من الدين ستارا ليخفوا وراءه أهدافهم السياسية العدوانية. ويكشف هذا الموقف اليهودية على حقيقتها، فهي لا تقيم وزنا لشرف الوسائل التي تتبعها في محاربة خصومها. وتأتي هذه النتيجة المستخلصة من العلاقات العربية اليهودية في العهد الراشدي مصداقا للنتائج المستخلصة من العلاقات العربية اليهودية في عصرنا الحاضر.

ومن خلال الحروب بين المسلمين واليهود والمشركين استفاد المسلمون خبرة في الفنون الحربية، وتمرسوا بأساليب القتال وازدادوا اعتمادا على أنفسهم وتمسكا بعقيدتهم الاسلامية وبقيادة محمد ﷺ. وفي هذا الصدد فندت بعض الدعاوي القائلة

بان مقتلة اليهود من بني قريظة كانت حلما يراود بطون الأوس والخزرج منذ الساعة الأولى لمجاورتهم في يثرب، وأوضحت أن الأوس والخزرج يعود لهم الفضل في كثير من المواقف في انقاذ اليهود من القتل، كما حدث مع بني قينقاع، ومحاولة الكثيرين من الأوس لانقاذ بني قريظة من القتل. كما رددت على بعض المستشرقين الذين اعتبروا موقف الرسول من بني قريظة فيه قسوة لا مبرر لها، وبينت ضخامة الجريمة التي أقدم عليها بنو قريظة، وانه كان امام بني قريظة طرق عدة للخلاص من المصير الذي آلوا اليه، وتساءلت كيف يحق لليهود أن يستنكروا هذه المذبحة وتاريخهم حافل بالمذابح الجماعية والبشرية، وذلك منذ أقدم تاريخهم وحتى وقتنا الحاضر، واستشهدت بنصوص من التوراة لمثل هذه المذابح الجماعية التي باركها رب اليهود كما تقول التوراة.

والأسلوب اليهودي السابق سياسة يهودية تمسك بها اليهود منذ أقدم العصور وحتى عصرنا الحاضر، فهم يسدلون ستارا على فضائحهم ومذابحهم، ويعظمون ويضخمون أخطاء الآخرين بحقهم، بل يذهبون الى تصوير سيئاتهم فضائل وفضائل غيرهم رذائل، بأساليب إعلامية تمكنوا منها من خلال تسللهم الى السلطة في معظم دول العالم.

وفي الميدان الاقتصادي، تعرضت للأسباب الحقيقية للتحولات الاقتصادية التي طرأت على بلاد العرب مع الفتوحات الاسلامية، ورددت على أولئك الذين قالوا بتدهور حالة المدينة الاقتصادية بعد جلاء اليهود عنها.

وبعد غزوة بني قريظة عرضت لأعمال الرسول الاحتياطية كمقدمة لغزو خيبر، وأوضحت ان هذه الأعمال إنما تدل على حنكة سياسية وبعد نظر قصد منها منع قيام تحالف بين يهود خيبر ومشركي مكة والقبائل الضالعة معها، وبينت كيف نجح الرسول في عقد صلح الحديبية مع قريش مما جعله ينفرد بيهود خيبر الذين كانوا يعدون أنفسهم لغزو المدينة.

وفي الحديث عن غزوة خيبر تعرضت لحوادث الغزوة وأسباب المعاملة الحسنة التي عاملهم بها الرسول بعد ان تم له النصر عليهم، وخلصت من ذلك الى أن الرسول ﷺ لم يكن يوما راغبا في سفك الدماء، ودللت على ذلك بعهود الأمان التي منحها ليهود خيبر وفدك ووادي القرى، ومقنا وغيرها من المستوطنات اليهودية.

وقد جاء هذا التسامح بعد ان أدرك الرسول أن اليهود لم يعودوا يشكلون خطرا على الجماعة الاسلامية. وفي الحديث عن غزوة خيبر حللت الدوافع الحقيقية لهذه الغزوة. ودحضت حجة القائلين بان هذه الغزوة كانت طمعا في حصول المسلمين على الأموال والغنائم، وأظهرت ان هذا الافتراء انما يدل على الجهل بمراحل تطور الدعوة الاسلامية التي لم يكن السلب والنهب والتلصص - كما يدعي بعض المستشرقين - هدفا من أهدافها، واستشهدت على زيف هذه الدعوى بحديث الرسول ﷺ يوم تجهز المسلمون لغزوة خيبر، فقد قال عليه السلام مخاطبا المشركين والمسلمين على السواء:

«لا تخرجوا إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا». وقدناقشت صلح خيبر الذي وردنا من مصدرين، وأوضحت العلاقة بين نصي الصلح، واثبت التزوير الحاصل في هاتين الوثيقتين، والهدف الذي أراده اليهود من وراء هذا التزوير. وقد أوردت رأيي فيما اشتملت عليه وثيقة صلح خيبر على ضوء ما أشارت اليه المصادر التاريخية الموثوق بها.

وخلال حوادث خيبر أبرزت الدوافع الانسانية من وراء زواج الرسول ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب اليهودية، وبينت أن هذا الزواج كان جزءا من سياسة التسامح التي اتبعها الرسول مع اليهود بعد ان خضد شوكتهم العسكرية، وقد أثبت هذه السياسة بالعهود والمواثيق التي تكفل للطوائف اليهودية المختلفة حريتها الدينية والاقتصادية.

وبعد وفاة الرسول ﷺ حاولت الكشف عن الدور الذي قام به اليهود خلال حروب الردة، ورغم انني افترضت اشتراكهم في هذه الأحداث، بأساليب الدس والوقيعة والتآمر الخفي، فان المصادر التاريخية لم تساعد في توضيح الدور الذي لعبوه في هذه الأحداث الخطيرة التي طالما تمنوها منذ أمد بعيد.

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أبرزت دورهم في مقتل بعض الشخصيات الاسلامية، وبحثت الاسباب التي دعت عمر الى اجلائهم عن بلاد الحجاز وأثبت ملحقا خاصا «هو رسالة مخطوطة» تناقش من الناحية الفقهية واللغوية والتاريخية سبب اخراجهم من بلاد الحجاز، وعدم اخراجهم من اليمن، وأشرت الى الحكمة التي أرادها الخليفة عمر من إجرائه هذا، كما أوضحت دور اليهود في مؤامرة اغتيال الخليفة عمر رضي الله عنه.

وفي عهـد عثمـان رضي الله عنه تعرضت للفتنة التي حدثت في عهده، وحللت أسبابها، وكشفت عن دور الحركة السبئية في هذه الفتنة بعد ان بينت طبيعة هذه الحركة وأهـدافها، وخلصت من كل ذلك إلى أن اليهود الذين فشلوا في القضاء على الحركة الاسـلامية بقـوة السلاح لجأوا إلى محاولة القضاء عليها بالتآمر والدسائس، وكذلك تعـرضت لدور السبئية في الأحداث التي وقعت في عهد الخليفة علي بن أبي طالب وكانت السبيئة تهدف إلى تشكيك المسلمين في دينهم وقياداتهم، واستغلال الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للظهور بمظهر المدافع عن حقوق المسلمين، ومنذ ذلك التاريخ واليهودية تتسلل في التنظيمات السياسية لتوجهها الوجهة التي تخدم غرض اليهودية النهائي المتمثل حاليا في الحركة الصهيونية.

وفي نهـاية هذا البحث تعـرضت للاسـرائيليات كدليل لمـا ذهبت اليه، من أن اليهودية اتجهت بعد فشلها العسكري لغزو الفكر الاسلامي، ونسف العقيدة الاسلامية من الداخل بعد أن فشلت في القضاء عليها من الخارج.

وبعد هذا العرض الموجز لما اشتمل عليه البحث من نتائج، فإنني لست ممن يحبون المبالغة بما فعلت، فإنني اعتبر محاولتي بدءا بالأمور من أصولها الأولى ومعالجتها معالجة جذرية، ووقوفا عند أدق المعارف وجمعا لها، وقد حشدت لهذه المجموعة من الحقائق التي توصلت إليها ما استطعت من المصادر المختلفة ليخرج هذا البحث بهذه الصـورة الجـديدة. ونـظرا لأن طبيعـة هذا البحث تقتضي الـدخـول في سلسلة من المشكلات، فقد لا يبلغ الباحث بها كل غايتها ويضع لها جميع الحلول المتوخاة. وذلك لأن مشاكل الدراسة التاريخية بشكل عام ودراسة العلاقات العربية اليهودية عبر عصور طويلة بشكل خاص، ليست بالأمر الهين السهل المنال، نظرا لطابع التعقيد الذي تحمله هذه الدراسة من ناحية، ولنوع المصادر المتوفرة من ناحية ثانية. وهذه الصعوبات لا تساعد دائما على حل واضح لبعض المشكلات القائمة. ولذلك فإن وفقت في عرض بعض المشكـلات في هذه الدراسة المعقدة وأخرجتها من الغموض الى الوضوح، أو جعلتها في مكان التنبيه والاشارة فإنني اعتقد انني افرغت جهدي وقضيت مهمتي وتركت للآخرين مهمة ملاحقة هذه المشكلات وحلها على ضوء ما يتوفر من مصادر جديدة.

وكل دراسة يبدي فيها صاحبها رأيا أو ينتهي الى فكرة أو يصدر عن اتجاه، فإن ذلك لبنة في صرح الحياة العلمية سيرتفع فوقها البنيان.

وإذا كنت لا أحب المبالغة بما عملت فلست أحب كذلك المبالغة في تقويم ما توصلت إليه من نتائج، لأنني لا أجرؤ على تسمية عملي «بالعمل الكامل» لأن في مثل هذا القول وقفا لسيل الحياة المتجدد، وإخمادا للفكر المتوقد. غير أن ما سبق وقلته لا يعفيني من الاشارة إلى أن هذا البحث في موضوعه ومنهجه ومواده التي قام عليها، هو جديد في دراساتنا التاريخية، وأغلب ظني ان هذه الدراسة هي الأولى من نوعها من حيث ربط حاضر العلاقات العربية اليهودية بماضيها، وتقديم هذا التاريخ الطويل من العلاقات بأسلوب هادف وجديد ينتهي بنا الى تصور الأهداف الأخيرة من الصراع العربي اليهودي، ويمنحنا الفرص لأخذ العبر والعظات المستخلصة من ماضي هذه العلاقات لتكون نبراسا لنا يحدد لنا الطريق في صراعنا الحاضر مع الصهيونية.

وختاما فإنني أترك الجهد الذي بذل في هذه الدراسة ليبؤها المكانة التي تستحقها آملا أن تكون مقدمة طيبة ومباركة لدراسات قيمة في هذا الحقل الهام، حتى تستكمل الصورة وتحصل المنفعة، والله أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير، ويجعل عملنا خالصا لوجهه تعالى، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

(الملحق رقم ١)

القبيلة الثالثة عشرة أو «إمبراطورية الخزر اليهودية»

أشارت بعض الصحف العربية إلى أنه صدر أخيرا عن دار النشر «هتشنسن» في لندن كتاب بعنوان «القبيلة الثالثة عشرة» أو «امبراطورية الخزر» للكاتب اليهودي المجري «آرثر ـ كوستلر» أثبت فيه بالبراهين والأدلة التاريخية من مصادر متعددة أن اليهود الغربيين وخاصة «يهود شرق أوروبا» ليسوا من أصل سامي أساسا، وأن الدعوى التي تذرعت بها الصهيونية من أجل العودة إلى إسرائيل ـ على اعتبار أن جميع اليهود قد انحدروا من أصل وجنس واحد هو السامية ـ إن هذه الدعوى لا صحة لها إطلاقا من الناحية التاريخية وكانت أكذوبة كبرى. لقد أعطى هذا الكتاب صورة واضحة لامبراطورية قديمة عرفت عند المؤرخين باسم «دولة الخزر» وكانت تمتد ما بين البحر الأسود وبحر الخزر. أي أنها كانت تقع بين أكبر قوتين في العصور الوسطى، البيزنطيين في الشمال والمسلمين في الجنوب، ونتيجة لضغط هاتين القوتين على دولة الخزر اضطر ملكها وحاشيته إلى استبدال ديانتهم الوثنية بدين آخر لا علاقة له بهاتين القوتين المتصارعتين وذلك ليحتفظ الخزر باستقلالهم ولكي لا يعطوا أيا من القوتين مبررا للتدخل في شؤون دولة الخزر، فاختاروا الدين اليهودي مشكلين في ذلك الوقت قوة عالمية ثالثة ومتخلصين في نفس الوقت من الدين الوثني الذي انتابه الضعف. كان ذلك في القرن السابع الميلادي. ويقول المؤلف: إن اعتناق الخزر اليهودية لم يكن بسبب رغبة دينية وإنما بدافع سياسي، ومع الزمن بدأ شعب الخزر يعتنق دين ملوكه حتى أصبحت اليهودية الديانة الرسمية والشعبية في بلاد الخزر.

وقد أشار المؤلف إلى رسائل متبادلة بين وزير يهودي من قرطبة في عهد الخليفة عبدالرحمن الثالث في الأندلس مرسلة الى ملك الخزر «جوزيف» وفي هذه الرسائل يستفسر الوزير اليهودي القرطبي عن حقيقة ما سمع عن وجود مملكة يهودية مشيرا لملك الخزر أنه سمع ذلك عن طريق التجارالخراسانيين، وتأكد له ذلك عن طريق البعثة الدبلوماسية البيزنطية في الأندلس.

ويستفسر الوزير في رسائله عن شعب الخزر وطريقة الحكم وقوة الجيش ويتضمن استفساره كذلك عن القبيلة التي ينتمي إليها الملك «جوزيف» من القبائل الاثنتي عشرة اليهودية التي جاءت إلى أرض كنعان. ولم يستطع الملك الرد على السؤال الأخير لكونه لا ينتمي إلى أصل هذه القبائل إطلاقا ولا يستطيع إلا أن يخبره عن كيفية اعتناقهم اليهودية قبل ما يقرب من قرنين من الزمان فقط وعن الظروف التي صاحبت ذلك.

ويقول المؤلف بأن نسخا من هذه الرسائل الخطية موجودة في مكتبة «كرايست» في أكسفورد. كما كشف النقاب في نهاية القرن الماضي عن وجود مصادر عبرية في مكتبة جامعة «كمبردج» سميت «بوثائق كمبردج» فيها مراسلات أحد اليهود «الملك جوزيف»، كما عثر في محتويات «كنيس في القاهرة» ـ وهو مخزن ديني يهودي قديم ـ على مراسلات الوزير القرطبي. وأغلب الظن أنها نقلت إلى القاهرة بعد طرد اليهود من إسبانيا، وتحتفظ مكتبة لينغراد العامة، بنسخة من جواب الملك جوزيف وهي تعود إلى القرن الثالث عشر على ما ذكره المؤلف.

وعندما سقطت إمبراطورية الخزر في أواسط القرن العاشر الميلادي على يد الأمير الروسي «سفيثوسلاف» تبعثر شعب الخزر في أطراف أوروبا وخاصة في بولندا وأوروبا الشرقية.

وهكذا يكشف هذا الكتاب أسطورة الشعب المختار على حقيقتها كما يكشف أباطيل الصهيونية بوجوب عودة يهود أوروبا الشرقية إلى فلسطين وهم يشكلون قوة عددية كبيرة. كما ستجردهم هذه الحقيقة من إشهار سيف ادعاء «معاداة السامية» لكل من أراد انتقادهم أو ردعهم في مسألة اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها الحقيقيين [1].

---

(١) انظر جريدة الأنباء المغربية الصادرة بتاريخ ٤/٥/١٩٧٦ ص٨.
أنظر جريدة الأهرام المصرية الصادرة بتاريخ ٢٢ أغسطس «آب» من عام ١٩٧٦، عدد ٣٢٧٦٢ لسنة ١٠٢ ص١٢.

● نشرت لجنة الدراسات الفلسطينية هذا الكتاب بالعربية، ترجمة: حمدي متولي مصطفى صالح، ضمن منشورات: فلسطين المحتلة، بعنوان: امبراطورية الخزر وميراثها القبيلة الثالثة عشرة، ورغم نشر الكتاب بالعربية ابقينا هذا الملحق على حاله لاعتقادنا بفائدته.

(الملحق رقم ٢)

نص الوثيقة أو «الصحيفة» التي كتبت بين الرسول ﷺ وبين اليهود والأنصار والمهاجرين واعتبرت أول دستور في الاسلام[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ - أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣ - المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ - وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ - وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ - وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ - وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ - وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ - وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) نقلنا نص الوثيقة من كتاب «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» للسيد محمد حميدالله، لأنها خلاصة مقارنة الروايات التي أوردت هذه الوثيقة» وذلك في الصفحات ٤١-٤٧.

١١- وبنـو الأوس على ربعتهم يتعـاقلون معـاقلهم الأولى، وكـل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

(١٢ ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثما، أو عدوانا، أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

١٥- وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧- وان سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، الا على سواء وعدل بينهم.

١٨- وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا.

١٩- وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠- وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

(٢٠ ب) وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١- وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به، إلا إن يرضي ولي المقتول (بالعقل)، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢- وأنـه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٣- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

٢٤- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦- وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧ـ وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.
٢٨ـ وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.
٢٩ـ وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.
٣٠ـ وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.
٣١ـ وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، الا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
٣٢ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.
٣٣ـ وأن لبني الشطيبة[1] مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الاثم.
٣٤ـ وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.
٣٥ـ وأن بطانة يهود كأنفسهم.
٣٦ـ وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.
(٣٦ب) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا.
٣٧ـ وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم.
(٣٧ب) وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.
٣٨ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
٣٩ـ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
٤٠ـ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
٤١ـ وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.
٤٢ـ وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
٤٣ـ وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
٤٤ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.
٤٥ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فأنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

---

(١) وردت . . عند حسين مؤنس «بني الشطنة» انظر عالم الاسلام ص١٥٠.

(٤٥ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٤٦- وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البرّ دون الاثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه.

٤٧- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن برّ وأتقى ومحمد رسول الله ﷺ.

(الملحق رقم ٣)

رسالة الامام العلامة صارم الدين بن عبدالقادر بن أحمد «التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب» والرسالة تبحث موضوع إخراج الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اليهود من بلاد الحجاز دون اليمن وذلك من الجوانب المنطقية واللغوية والشرعية، والرسالة موجهة إلى العلامة جمال الاسلام علي إسماعيل النهمي جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله وآله الطاهرين»

قلتم دامت إفادتكم وقع البحث في رسالتي القاضي أحمد بن صالح والقاضي حسين المغربي في تحرير أدلة إخراج اليهود من جزيرة اليمن وأشرتم أن تقرير القاضي أحمد أقوم بمعاني الآثار والذي ظهر حال البحث عكس ذلك، فاما تحرير أدلة القاضي احمد فاشتملت على خمسة أدلة في الاجلاء. الأول: أن اليمن بمثابة الحرم الشريف فيدخل في مدلول قوله تعالى: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾. الثاني: أن اليمن من الحجاز وأن فهم عمر «رضي الله عنه» مسماة لغة غير معمول به فلا ينزل منزلة الراوي. الثالث: أن إعطاء الجزية مشروط برضى الامام فلا يعارض مفهوم الآية. الاخبار الرابع: أن الآية لما دلت على الأمر بالقتال دلت على قوة أحاديث الاجلاء ولم يتكلم على تعارض الآثار بالعموم والخصوص الذي هو مدار البحث في رسالة القاضي حسين المغربي، الخامس: ذكر أقوال أهل المذهب وهي لا تدل الناظر إلى دليل اللهم إلا أن يعضدوها بأدلة مروية عن الآباء معمول بها فصاحب البيت أدرى بالخبر. وأما تحرير أدلة القاضي حسين فبناها على أن أدلة إخراجهم من الجزيرة مخصصة بأمر معاذ بأخذ الجزية في اليمن وأن دلالة الخاص قطعية ودلالة العام ظنية فيقدم الخاص المتقدم على العام المتأخر وقد عضد ذلك عمل السلف من زمن الصحابة فلهم جزاء وأكده أيضا دلالة حذف الأمكنة على العموم في قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ وأن المقام خطابي يكتفي فيه بالظن فهذه الثلاثة الأدلة، أعني تقديم الخاص المتقدم على العام المتأخر ودلالة الحذف على العموم وكون المقام خطابي، الظاهر صحتها، فتفضلوا ببيان

وجهها من الضعف أو أرجحية رسالة القاضي أحمد». . . انتهى كلام العلامة الجمالي حفظه الله ونفع بعلومه».

«وأقول وبالله التوفيق، نتكلم هنا على أصل المسئلة وهو وجوب إخراج اليهود من جزيرة العرب وبه يتضح صحة ما ذهب إليه القاضي أحمد بن صالح من وجوب إخراج اليهود من جزيرة اليمن، فاعلم أنه ذهب أئمتنا عليهم السلام وكثير من العلماء الأعلام الى وجوب إخراجهم من جميع جزيرة العرب التي منها اليمن وجزيرة العرب كما في القاموس وغيره ما أحاط به بحر الهند وبحر الشام ثم دجلة والفرات أو ما بين عدن إلى أطراف الشام طولا ومن جدة الى ريف العراق عرضا وذهب آخرون إلى أن الواجب إنما هو إخراجهم من الحجاز خاصة لنا ما عند البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ اشتد الوجع برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأوصى عند موته بثلاث خصال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب. الحديث» قالوا: المشرك أخص من الكافر والأمر بإخراج الأخص لا يلزم منه الأمر بإخراج الأعم، قلنا: الشرك في الحديث مراد به الكفر مطلقا بدليل ما عند احمد في مسنده موصولاً من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ان لا يترك بجزيرة العرب دينان، والشرك يستعمل في لسان الشارع تارة بمعنى عبادة الأوثان وتارة بمعنى الكفر مطلقا ومن التالي قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، وأيضا فقد أخرج أحمد والبيهقي من حديث عمر رضي الله عنه، ان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لئن عشت الى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما» وأصله في مسلم بدون قوله لئن عشت الى قابل، قالوا: معارض في مفهوم الغاية في قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾، فان الله سبحانه أمر بالمقاتلة لأهل الكتاب إلى غاية وهي إعطاء الجزية ولم يصرح في الآية الكريمة بمكان لا عام ولا خاص، ولا بد من اعتبار المكان إذ كل حديث لا بد له من مكان عقلا والحذف يحتمل ان يكون للتعميم كما ذلك معروف عند من له معرفة ببلاغة الكلام. قلنا مفهوم الغاية في الآية الكريمة يقضي بأنه لا يجوز مقاتلتهم مع تسليم الجزية وهذا المفهوم بعد تسليم كونه حجة يدل على عدم قتالهم الذي هو المغيا بهذه الغاية لا على عدم إخراجهم، فلا يعارض هذا المفهوم أدلة إخراجهم التي صحت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولو سلم دلالة مفهوم

الغاية في الآية الكريمة على ذلك فالمفهوم لا يعارض ما يدل بمنطوقة اتفاقا وكون متن الآية الكريمة قطعي ومتن الآثار المذكورة ظني لا يجدي في المقصود إذ المفهوم هنا من حيث كونه مفهوما ظني «وللعلامة ابن دقيق العيد في معارضته مفهوم القطعي وللمنطوق الظني كلام يحسن نقله هنا، فلم يكن لدي حال الرقم» ايضا على ان تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم وإفادته أصل المعنى عند الشيخ عبدالقاهر والتعميم عند السكاكي اذا كان المقام خطابي مع عدم إرادة الحقيقة أو البعضية إنما تكون عند عدم ذكر المفعول به بلا واسطة أو بها وأما عدم ذكر اللوازم الفعلية للفعل من المكان وهيئة الفاعل والمفعول وغيرها كالآلة فيما يحتاج فيه إليها فلا يجري فيها ما ذكره أهل البيان في ترك المفعول فلا يقال حذف المكان أو الهيئة أو الآلة لقصد التعميم إذ كلامهم في تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم بعدم تقرير المفعول به بلا واسطة أو بها وأما اللوازم الفعلية فهي لازمة لكل فعل متعد أو لازم بحسب ما يقضيه منها وكلامهم فيما يمتنع تصور الفعل المتعدي بدون تصوره قالوا المراد بجزيرة العرب في الحديث الحجاز مجازا من باب إطلاق اسم الكل على البعض بدليل ما عند أحمد والبيهقي وغيرهما من حديث أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ان قال: «أخرجوا يهود الحجاز ـ الحديث». قلنا يحتمل ان المراد بالحجاز في الحديث جزيرة العرب مجازا من باب إطلاق اسم البعض على الكل بدليل الأمر بإخراجهم من جزيرة العرب وكلام المجازين شايع، فاختيار كونه من الأول دون الثاني يحتاج إلى قرينة تعينه لتعارض إرادة المجازين قالوا: فهم عمر وعمله يدل على ما قلناه من المجاز، وعمر من أهل اللسان، قلنا عمل الصحابي وفهمه ليس بحجة مع قيام الدليل على خلاف ما عمل به وفهمه، قالوا: ذلك في الأحكام الشرعية وأما في الأوضاع اللغوية ففهم كل عربي ونقله واستعماله حجة. وقد عمل في الحديث بما فهمه لغة من ان المراد بجزيرة العرب الحجاز وأن المراد بالحجاز مكة والمدينة والطايف ومخاليفها، كيف وهو الراوي لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ولا أترك فيها إلا مسلما». قلنا هذا لا يفيد في المقصود فغايته ان عمر ترك أخراجهم عن بقية الجزيرة، والترك لا ظاهر له. فيحتمل ان عمر رضي الله عنه إنما شرع بإخراجهم من تلك المواضع ونيته على إخراجهم من جميع الجزيرة وما لم ينقل عنه ما يدل على ان جزيرة العرب هي هذه المواضع التي أخرجهم منها فقط حتى يقال أنه فهم ذلك لغة وغايته ان الترك كالفعل لا ظاهر له، فكيف

نترك ما صح عن الشارع لترك محتمل صدر من عمر رضي الله عنه قالوا: لم ينقل عن أحد من الصحابة إنكار لفعل عمر فكان إجماعا، قلنا قول البعض أو فعله وسكوت الباقي قبل تقرير المذاهب ليس باجماع بل ولا حجة عند الجمهور من أئمتنا عليهم السلام وغيرهم لعدم الدليل على أحدهما كما علم في الأصول والاحتمال أن بعضهم سكت هنا لكونه عرف من حال عمر رضي الله عنه أن فعله هذا إنما هو شروع في إخراجهم من جزيرة العرب وأن البعض منهم سكت لعدم بلوغ الأمر إليه بإخراجهم من جميع جزيرة العرب، فما كل الصحابة يعلم جميع ما ورد عن الشارع وأن بعضهم سكت توقفا وغير ذلك من الاحتمالات التي يخرج بها عن كونه حجة ظنية يعارض الأحاديث الصحيحة.

نعم ان علم ان سكوت الباقي رضى بما فعله عمر وعلم أيضا انه بلغ الدليل على إخراجهم من جميع جزيرة العرب إلى كل مجتهد منهم وأنه لم يرجع عن ذلك الرضى، فان علم ذلك كان إجماعا منهم أن المراد بجزيرة العرب في الحديث هي الحجاز خاصة ويكون ذلك من الاجماع القولي لا السكوتي لان الطريق الى العلم بالرضى خفي لا يعلم الا باخبارهم عن أنفسهم وذلك يعيده الى الاجماع القولي، ودون ثبوت هذه مهامه لا سبيل إليها قالوا في حديث أبي عبيدة المتقدم أخرجوا يهود الحجاز، ويهود الحجاز خاصة، قلنا انما يتمشى التخصيص به على مذهب أبي ثور من ان الخاص إذا وافق حكم العام خص به، وأئمتنا عليهم السلام وجماهير العلماء لا يقولون به إلا إذا كان الخاص مفهوم مخالفة كما في نحو، في الغنم زكاة في السايمة زكاة كما تقرر في الأصول وكذا لو قيل ان العموم والخصوص بين الحجاز وجزيرة العرب بناء على ان العام قد يقال على ان اللفظ المخرج عنه والتخصيص قد يقال على قصر اللفظ، إذ ذكر الحجاز على هذا من التنصيص على بعض أفراد العام. قالوا: أخرج أحمد وأبو داوود والنسائي والترمذي والدارقطني وابن حيان والحاكم والبيهقي من حديث مسروق عن معاذ رضي الله عنه «ان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ الجزية من كل حالم دينارا او عدله من المغافر ثياب تكون باليمن»، فهذا الحديث مخصص لليمن من عموم جزيرة العرب ولا يرد ان بعض ما تقدم كان في مرضه عليه الصلاة والسلام وان ارسال معاذ سابق على ذلك لان الخاص المتقدم مخصص للعام المتأخر فان تقدم الخاص قرينة قوية على أنه لم يرد بالعام جميع ما تناوله وإنما أريد به ما لم يتناوله الخاص، فلا يضر تراخي التعميم وذلك للجمع بين الأدلة، قلنا قال أبو داود هو حديث

منكر، وقال وبلغني عن أحمد انه كان ينكره وذكر البيهقي الاختلاف فيه، فبعضهم رواه عن الأعمش عن أبي وايل عن مسروق عن معاذ، وقال بعضهم عن الأعمش عن أبي وايل عن مسروق ان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما بعث معاذا «وأعله»؟ بن حزم بالانقطاع، قالوا حسنه الترمذي، قلنا وقال بعضهم رواه مرسلا وانه أصح، فلو سلم لكان حديثا حسنا مرسلا وهو لا يعارض الصحيح المتصل كما علم حتى يحتاج الى الجمع بينهما بما ذكرتم ولو سلمت المعارضة بقوة هذا المرسل بما في كتاب الأموال لابي عبيد مرسلا، قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أهل اليمن «أنه من كان على يهوديته أو نصرانيته فانه لا يفتن عنها وعليه الجزية على كل حالم.. الحديث» وبما رواه ابن زنجويه في الأموال مرسلا قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذكره، فهذه المرسلات إذا قيل إن كلا منها يقوي الآخر فتقوى بمجموعها على معارضة الأدلة الصحيحة المتصلة، فنقول إن أردتم ان العموم والخصوص بين جزيرة العرب وبين اليمن المفهوم من أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ ان يأخذ من كل حالم دينارا فليست جزيرة العرب ما يصلح له لوضع واحد، وجزيرة العرب ليست كذلك بل هي علم شخصي كاليمن وصنعاء ومكة والمدينة ولو سلم ان العموم والخصوص بين اليمن وجزيرة العرب بناء على ما قدمنا من ان العام قد يقال على اللفظ المخرج عنه، وان لم يكن عاما اصطلاحا فالجواب عنه هو الجواب على الترديد.

الثاني وهو ان العام المتأخر بمدة يسع للعمل ناسخ للخاص المتقدم كما سيأتي بيانه، وإن أردتم أن يهود اليمن خاص بالنسبة الى اليهود المذكورين في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب» وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وغير هذا فمسلم ولكن نمنع ان الخاص المتأخر بمدة يتسع للعمل غير ناسخ بل الصحيح انه ناسخ واليه ذهب جمهور أئمتنا والحنيفية وغيرهم، لان الخاص المتقدم وان كان نصا في الاشخاص وفي زمان وروده، فليس بظاهر في زمان العام المتأخر فضلا عن كونه نصا فيه، والعام المتأخر صار نصا في زمانه وظاهرا في مدلول الخاص، فقابل نص نصا وزاد العام بالظهور في مدلول الخاص فوجب ترجيح العام المتأخر، وحينئذ لا يلزم نسخ الاقوى بالأضعف لأن ورود العام بلا قرينة تدل على خروج الخاص مع ظهوره فيه أبطل قوته، واما قولكم: ان تقدم الخاص قرينة قوية على ان المراد بالعموم المتأخر هو الخصوص فصادره لأن الظاهر ان العموم

المتأخر رفع للخصوص المتقدم فانك لو أمرت عبدك ليشرى شيء معين ثم نهيته بعد ذلك عن شري كل شيىء فانه لو شرى المعين لعده العقلاء مخالفا للنهي غير ممتثل وشراؤه ليس مستندا فيه الى أمرك، ما ذاك إلا أنه قد صار محجورا حجرا عاما وكذا لو قلت له أكرم زيد التميمي، ثم قلت له بعد ذلك لا تكرم تميميا، فانه بعد النهي يكون مصيبا في الترك، واما عدم اخراج الخلفاء لهم من بقية الجزيرة التي منها اليمن، فاما كون أبو بكر رضي الله عنه فقد صرح العلامة محمد بن ابراهيم الوزير رضي الله عنه ورحمه الله بأن أبا بكر انما تراخى عن تنفيذ وصية رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم باخراجهم لهيجان فتنة أهل الردة التي شغلتهم عن ذلك عقيب موت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، واما عمر فقد أجلا جميع من قدر على اجلائه حتى لحق أكثرهم باطراف الشام وبعضهم بسواد الكوفة، قيل وكان (الذي) اجلاهم اربعين الفا من اليهود، وأما أمير المؤمنين كرم الله وجهه فشغله عن ذلك قتال البغاة معاوية وأصحابه، وقد قال في بني تغلب لان مكن الله وطأتي، واما بني امية وبني العباس فلا عبرة بفعلهم ولا تركهم واما الائمة الراشدين من أهل البيت عليهم السلام الذين في اليمن فمن طالع سيرهم وجد بعضهم شغله الجهاد عن ذلك. فان الذهبي ذكر في النبلاء أن الوقعات التي كانت بين الهادي عليه السلام وعلي بن الفضل ثمانون وقعة وبعضهم لم تتمكن وطأته ومن تمكنت وطأته منهم، وهم القليل فيحتمل انه رأى المصلحة في بقائهم فيما عدا الحجاز بناء على ان العلة في الاخراج وعدمه هي المصلحة، وهذا معارض بان العلة هي ما صرح به الشارع، وهي إرادة ان لا يجتمع دينان في جزيرة العرب، ولا يسوغ الاجتهاد في مقابلة النص اتفاقا، نعم يلزم من كونه لا يجتمع دينان في جزيرة العرب مصلحة كما تلزم المصلحة غيره من الأحكام فان جميع الأحكام مبنية على جلب المصالح ودفع المفاسد، على ان الحجة قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلا عبرة بما خالف وما ورد الشارع من قول احد أو فعله، كاينا من كان، وبالجملة فلا دلالة في ترك أخراجهم من بقية الجزيرة التي منها اليمن على عدم جواز

إخراجهم منها، إذ عدم القول ليس قولا بالعدم فضلا عن أن يكون عدم فعلهم دليلا على عدم جواز اخراجهم بجواز عدم التمكن او الفراغ، لذلك كما قدمنا والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[1].

(١) نقلت هذه الرسالة عن صورة المخطوطة بخط المؤلف المحفوظة في مكتبة الامبروزيانا في ايطاليا وكتبها المؤلف في المحرم من سنة ١٢١٩هـ، وقد حصلت عليها خلال عام ١٩٧٢م، كما حصل معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية على صورة مماثلة للتي حصلت عليها وصنفت تحت رقم ١٥٢٩ تاريخ. وقد أثبتها كما وردت في الصورة دون تصحيح للأخطاء اللغوية او النحوية. وجاء في نهاية المخطوطة:

انتهى ما أريد نقله من الام بخط مؤلفها مولانا الامام العلامة
صارم الدين ابراهيم ابن عبد القادر ابن احمد غفر الله ولوالديه ولمن أمر
بنقلها ولكاتبها وقارئها آمين
في شهر محرم الحرام سنة ١٢١٩هـ.

الفهارس العامة*

* لم نفهرس الفاظ: محمد ﷺ، والإسلام، والعرب، واليهود، والنصارى، والوثنية، والمشركون، وما يشتق منها، وذلك لشيوع هذه الألفاظ في ثنايا الكتاب. ولم نفهرس كذلك الأحاديث النبوية في المعاهدات والكتب النبوية، كما لم نفهرس «الصحيفة» أو «الوثيقة» ملحق (٢).

١ - فهرس الآيات الكريمة

الآيـة ورقمها	الصفحة

(سورة البقرة)

(سورة ال عمران)

(سورة النساء)

(سورة المائدة)

(سورة الأنعام)

(سورة الأعراف)

(سورة الأنفال)

(سورة التوبة)

(سورة يونس)

(سورة هود)

(سورة يوسف)

(سورة النحل)

(سورة الاسراء)

(سورة الكهف)

(سورة مريم)

(سورة طه)

(سورة الأنبياء)

(سورة الحج)

(سورة المؤمنون)

(سورة النور)

(سورة الشعراء)

(سورة النمل)

(سورة العنكبوت)

(سورة السجدة)

(سورة الأحزاب)

(سورة سبأ)

(سورة فاطر)

(سورة الزمر)

(سورة غافر ـ المؤمن ـ)

(سورة فصلت)

(سورة الشورى)

(سورة الزخرف)

(سورة الجاثية)

(سورة الأحقاف)

(سورة محمد)

(سورة الفتح)

(سورة المجادلة)

(سورة الحشر)

(سورة الممتحنة)

(سورة الصفّ)

(سورة الجمعة)

(سورة المدثر)

(سورة البروج)

(سورة الأعلى)

(سورة الفيل)

(سورة المسد)

(سورة الإخلاص)

فهرس الأحاديث*

الحـديث	الصفحة

(أ)

* الفهرسة لأحاديث منتخبة، ولا تشمل الأحاديث الواردة في كتب الأمان أو المعاهدات.

(ح)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

(ي)

فهرس الأعـــلام

الأعـــلام	الصفحة

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأمم والطوائف والقبائل

الأمم والطوائف والقبائل	الصفحة

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

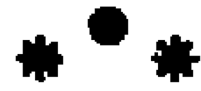
(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)



فهرس الأمـاكـن

الأمـــاكن	الصفحة

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الشعـــر

(م)

(ن)

« فهرس المصادر والمراجع »

أ ـ المخطوطات :

★ ابن اسحاق : محمد (١٥١هـ).

١ ـ مغازي ابن اسحاق، خزانة القرويين ـ فاس ـ المغرب، رقم ٢٠٢

★ الإسرائيلي : يوسف بن جريون.

٢ ـ تاريخ بني اسرائيل، عني بنقله من العبرانية الى العربية زكر بن سعيد اليمني الإسرائيلي، مخطوط مصور، معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية ـ القاهرة، رقم ١٠٥ تا.

★ البصري : أبو جعفر محمد بن حبيب (٢٤٥هـ) «الشهير باسم ابن الوكيل».

٣ ـ أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، دار الكتب المصرية، رقم ٢٦٠٦.

★ البكر : أبو الحسن بن عبدالله بن محمد.

٤ ـ سيرة ابي ذر قبل الإسلام وحديثه عن الجاهلية، خزانة القرويين فاس، المغرب رقم ١٦١١.

★ بناني : محمد بن عبد السلام (١١٦٣هـ).

٥ ـ مغاني الوفاء بمعاني الاكتفاء ـ خزانة القرويين، فاس المغرب،

رقـم $\frac{٥٧٥}{٤٠}$

★ البياسي : جمال الدين ابو الحاج يونس محمد بن ابراهيم الآنصاري.

٦ ـ الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، مخطوط مصور، معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، رقم ٦٥٤ت.

★ البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين (٤٥٨هـ).

٧ ـ بغية السائل عما حواه كتاب الدلائل، المكتبة الظاهرية ـ دمشق رقم س ٢٨.

٨ ـ تاريخ في المغازي والفتوح لمؤلف مجهول، مخطوط مصور، معهد المخطوطات جامعة الدول العربية، رقم ١٤٥٥

★ الخزاعي : ابو الحسن علي بن ذي الوزارتين محمد بن احمد بن موسى.

٩ ـ الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية، دار الكتب المصرية تاريخ تيمور ١٩٣٨ تاريخ.

★ الرازي : احمد بن فارس بن زكريا.

١٠ ـ السيرة النبوية، خزانة القرويين، فاس ـ المغرب، رقم ٦٨.

★ ابن زكري : ابو عبدالله بن محمد بن زكري الفاسي.

١١ـ رشف الضرب في فضل بني إسرائيل والعرب، الخزانة الملكية الرباط ـ المغرب، رقم ١٦٠١.

★ الشامي : شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الحافظ المحدث (٩٤٢هـ).

١٢ـ سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد، خزانة القرويين ـ فاس،

رقـم $\frac{٧٥٨}{٤٠}$

★ صارم الدين : ابن عبدالقادر بن احمد.

١٣ـ التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب، مكتبة الامبروزيانا ـ ميلانو ـ إيطاليا، بدون رقم، كتبت في المحرم من سنة ١٢١٩هـ.

★ الفاسي : تقي الدين الشريف ابي الطيب محمد بن احمد (٨٣٢هـ)

١٤ـ تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام، ج ١، خزانة القرويين فاس ـ المغرب،

رقم ١٢٥٠ / ٨٠

★ القيرواني : أبو زيد.

١٥ـ الجامع في السنة والآداب والمغازي والتاريخ، خزانة القرويين، فاس ـ المغرب، رقم ٦٤٥.

★ المرتضي : أبو حفص.

١٦ـ كتاب الروضات البهية الوسمية في الغزوات النبوية الكريمة، خزانة القرويين، فاس ـ المغرب، رقم ٢٩٦.

ب ـ المصادر العربية والمعربة :

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، طبع مطبعة جامعة كمبردج ـ بريطانيا ١٩٥٢.

★ الأبراشي : محمد عطية.

٣ ـ الآداب السامية مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وخصائصها وثروتها وأسرار جمالها، ط[١]، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

★ ابو تمام : حبيب بن أوس الطائي.

٤ ـ ديوان الحماسة، طبعة الرافعي.

★ ابو رية : محمود.

٥ ـ أضواء على السنة المحمدية، ط[١]، مطبعة دار التأليف بمصر، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

★ ابو عسل : ايلي ليفي.

٦ ـ يقظة العالم اليهودي، مطبعة النظام، ط[١] القاهرة ١٩٣٤م

★ أبو العلاء المعري :

٧ ـ رسالة الغفران، تحقيق محمد عزة نصر الله، دار احياء التراث العربي ـ بيروت (بلا تاريخ).

★ أبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم.

٨ ـ الخراج، المطبعة السلفية، ط[٣]، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

★ ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم.

٩ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة جمعية المعارف بمصر.

١٠ ـ الكامل في التاريخ، دار الفكر ـ بيروت.

★ أحمد أمين:

١١ ـ فجر الإسلام، ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥م

١٢ ـ ضحى الإسلام، ط٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٢م

★ أحمد بن حنبل:

١٣ ـ المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر، ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م.

★ ارفنج : واشنجتون.

١٤ ـ حياة محمد، ترجمة وتعليق علي حسني الخربوطلي، ط٢، دار المعارف بمصر.

★ أرنولد : سيرتوماس.

١٥ ـ الدعوة إلى الاسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.

★ الأزرقي : أبو الوليد. محمد بن عبدالله.

١٦ ـ أخبار مكة، نسخة مصورة عن طبعة المدرسة المحروسة في مدينة غتنغه. ١٢٧٤ هـ.

★ الأشعري : محمد بن يحي بن أبي بكر المالقي الأندلسي

١٧ ـ التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، نشر دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٤م.

★ الإصطخري: أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي.

١٨ ـ مسالك الممالك، طبعة القاهرة.

★ الأصفهانـــــي : أبو الفرج (٣٥٦هـ).

١٩ ـ الأغاني، طبعات مختلفة ذكرت في الهوامش.

★ الأصمعي : عبدالملك بن قُرَيْب (٢١٧هـ).

٢٠ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط[١]، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٠٩م.

★ الأعشـــــى : ميمون بن قيس.

٢١ ـ ديوان الأعشى، شرح وتحقيق محمد محمد حسين، المكتب الشرفي للنشر والتوزيع، بيروت.

★ الأفغانــــي : سعيـــد.

٢٢ ـ عائشة والسياسة، القاهرة، ١٩٤٧م.

★ الألوســـــي : محمود شكري البغدادي.

٢٣ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ط[٣]، دار الكاتب العربي.

★ باشميــــــل : محمد أحمد.

٢٤ ـ سلسلة من معارك الإسلام الفاصلة من ١ ـ ٦، طبع بيروت.

★ البتنونــــي : محمد لبيب.

٢٥ ـ الرحلة الحجازية، ط[٢]، المطبعة الجمالية بمصر، ١٣٢٩هـ.

★ البخــــاري : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل

٢٦ ـ صحيح البخاري، مطبعة الفجالة الجديدة، ١٣٧٦هـ.

★ برستـــــد : الدكتور جيمس هنري.

٢٧ ـ العصور القديمة، ترجمة داوود قربان، ط٢ ، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٠م.

★ بروكلمـــــــان : كـــارل

٢٨ ـ تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف.

٢٩ ـ تاريخ الشعوب الإسلاميةترجمة أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط٥، دار العلم للملايين، ١٩٦٨م.

★ بـــــــري : عبدالله.

٣٠ ـ القومية العربية والقومية اليهودية، مكتبة الحياة ـ بيروت.

★ البغـــدادي : أحمد بن علي الخطيب.

٣١ ـ تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣١م .

★ البغـــدادي : عبد القاهر بن طاهر (٤٢٩هـ).

٣٢ ـ الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة محمد علي صبيح، (بلا تاريخ).

★ البغـــدادي : محمد أمين السويدي.

٣٣ ـ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، مكتبة المثنى ـ بغداد.

★ البكـــري : ابو عبد الله بن عبد العزيز بن ابي مصعب.

٣٤ـ معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٥٤م

★ البـلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩هـ)

٣٥ـ أنساب الأشراف، حـ ١ تحقيق الدكتور محمد حميد الله، نشر معهد المخطوطات ـ جامعة الدول العربية، جـ ٥ مطبعة الجامعة، القدس ١٩٣٦م.

٣٦ـ فتوح البلدان، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، مطبعة السعادة، ١٩٥٩م.

★ البلخــي : ابو زيد احمد بن سهل.

٣٧ـ البدء والتاريخ «نسبه بعضهم الى المقدسي مطهر بن طاهر» مكتبة المثنى بغداد ١٨٩٩م.

★ بودلــي : ر.ف.

٣٨ـ الرسول ـ حياة محمد ـ ترجمة عبدالحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج، طبعة دار الكتاب العربي بمصر.

★ بوست : جورج.

٣٩ـ قاموس الكتاب المقدس، المطبعة الأميركانية ـ بيروت ـ ١٨٩٤م.

★ البيضـاوي : عبدالله بن عمر.

٤٠ـ انوار التنزيل وأسرار التأويل، ط ١، البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.

★ البيهقي : ابو بكر احمد بن الحسين (٤٥٨هـ).

٤١ـ سنن البيهقي، جـ ٩، دار صادر ـ بيروت عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد ـ الهند ١٣٥٦هـ.

★ ترتون : .

٤٢ـ اهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف بمصر.

★ الترمذي : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (ت ٢٧٩ وقيل ٢٧٥هـ).

٤٣ـ سنن الترمذي، تحقيق احمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٧م.

★ توينبي : ارنولد.

٤٣ـ فلسطين جريمة ودفاع، ترجمة عمرالديراوي، ط ٢، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦م.

٤٤ـ مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، ط ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٦م.

★ ابن تيمية : الشيخ احمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام.
٤٥ـ الصارم المسلول علي شاتم الرسول، دار الفكر ـ بيروت.
٤٦ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، بيروت.
★ الجاحظ : عمرو بن بحر.
٤٧ـ البيان والتبيين ، دار الفكر ـ بيروت.
٤٨ـ الحيوان ، القاهرة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.
★ جاد المولى : محمد احمد وعلي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم.
٤٩ـ ايام العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٨م.

★ جرجس : الدكتور صبري.
٥٠ـ التراث اليهودي الصهيوني، ط١، عالم الكتب ١٩٧٠م.
★ الجمحي : ابن سلام.
٥١ـ طبقات فحول الشعراء، دار المعارف بمصر.
★ الجناتي : محمد إبراهيم.
٥٢ـ اليهود قديما وحديثا، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٧م.
★ ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي.
٥٣ـ سيرة عمر بن الخطاب، الطبعة المصرية بالأزهر.
★ الجوهري : الطنطاوي.
٥٤ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم، البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٣٥٠هـ.

★ حافظ : علي.
٥٥ـ فصول من تاريخ المدينة، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ـ جدة.
★ الحاكم : ابو عبدالله محمد بن عبدالله (٤٠٥هـ).
٥٦ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث، جـ٢، مكتبة ومطابع النصر الحديثة الرياض.

★ حتي : فيليب.

٥٧ـ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور جورج حداد، عبدالكريم رافق، دار الثقافة ـ بيروت.

★ حتي : فيليب ، وجبور وجورجي .
٥٨ـ تاريخ العرب المطول، ط ٤، دار الكشاف، بيروت ١٩٥٥م
★ ابن حزم : علي بن احمد (٣٨٤ ـ ٤٥٦).
٥٩ـ جمهرة أنساب العرب، طبعة البروفنسال، دار المعارف بمصر.

٦٠ـ جوامع السيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ والدكتور ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر

٦١ـ الرد على ابن النغريلة اليهودي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٠م.

٦٢ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة.

★ حسن : حسن إبراهيم.
٦٣ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م.

★ الحلبي : علي بن برهان الدين الشافعي.
٦٤ـ إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، المعروفة بالسيرة الحلبية، المطبعة الأزهرية، ط ٣، مصر ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢م.

★ حمدان : الدكتور جمال.
٦٥ـ اليهود أنثروبولوجيا ، دراسة في سلسلة المكتبة الثقافية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، رقم ١٦٩ .

★ الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت.
٦٦ـ معجم البلدان ، طبعة الخانجي، القاهرة.
★ حميدالله : محمد.
٦٧ـ مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، ط ٣، بيروت ١٩٦٩م

★ الخازن : علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي.

٦٨- لباب التأويل في معاني التنزيل، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٣٨١هـ.

★ خان : ظفر الإسلام.
٦٩- التلمود ، دار النفائس، بيروت ١٩٧١م.
★ خان : الدكتور محمد عبدالمعيد.
الأساطير العربية قبل الإسلام «رسالة دكتوراة» لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧.
★ الخربوطلي : الدكتور علي حسني.
٧١- العرب واليهود في العصر الإسلامي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

٧٢- العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود في العصور القديمة والإسلامية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م.

★ ابن خرداذبه : ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله.
٧٣- المسالك والممالك، مكتبة المثنى - بغداد.
★ الخضري : الشيخ محمد.
٧٤- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ط ٨، المكتبة التجارية الكبرى - مصر ١٣٨٢هـ.

٧٥- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، مطبعة الاستقامة ، ط ٧ - ١٩٣٥م.

★ خطاب : محمود شيت.
٧٦- الرسول القائد ، ط٣، ، دار الفكر - القاهرة ١٩٧١م.
★ ابن خلدون : عبد الرحمن.
٧٧- العبر وديوان المبتدأ والخبر - تاريخ - دار الكتاب اللبناني ودار البيان - لبنان، وطبعة فاس «طبعات متعددة اثبتت في الهوامش».

٧٨- المقدمة ، طبعة مصطفى محمد بمصر وطبعة دار الشعب.

★ خلف الله : الدكتور محمد احمد.
٧٩- محمد والقوى المضادة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣م.

★ ابن خياط : خليفة (٢٤٠ هـ).
٨٠- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق اكرم العمري، ط ١، مطبعة الاداب - النجف الأشرف ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.

★ الدباغ : مصطفى مراد.
٨١ـ بلادنا فلسطين، مطبوعات رابطة الجامعيين بمحافظة الخليل.
★ دحلان : احمد زيني (١٢٠٤هـ).
٨٢ـ السيرة النبوية والآثار المحمدية، على هامش السيرة الحلبية.
★ در منقم : إميـل.
٨٣ـ حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر، دار الفكر.
★ دروزة : محمد عزة.
٨٤ـ تاريخ بني إسرائيل من اسفارهم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ١٩٦٩م.
٨٥ـ تاريخ الجنس العربي، المكتبة العصرية، ١٩٦٢م.
٨٦ـ سيرة الرسول ﷺ، مطبعة عيسى الحلبي ط ٢ القاهرة ١٩٦٥م.
٨٧ـ عصـر النبي وبيئته، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ط ٢، بيروت ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤م.
★ ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي (٣٢١هـ).
٨٨ـ الاشتقـاق ، تحقيق عبـدالسلام محمد هارون، مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م.
★ الدوري : الدكتور عبدالعزيز.
٨٩ـ بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٠.
٩٠ـ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦١.
★ الديار بكري : حسين بن محمد بن الحسن.
٩١ـ الخميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهبية، ١٢٨٣هـ.
★ الدينوري : ابو حنيفة احمد بن داود (٢٨٢ هـ).
٩٢ـ الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر.
★ الدينوري : ابن قتيبة عبدالله بن مسلم.
٩٣ـ الإمامة والسياسـة، مطبعة النيل بمصر ـ ١٩٠٤م.
٩٤ـ الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٦م. وطبعات أخرى مثبتة في الهوامش.
٩٥ـ المعارف ، دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ .

★ ديورانت : ول.
٩٦ـ قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦م.

★ الذهبي : أبو عبدالله شمس الدين.
٩٧ـ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزآن ١، ٢ مكتبة القدسي، ١٣٦٧هـ عن نسخة دار الكتب المصرية.

٩٨ـ تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٤٧هـ.
★ الرازي : الفخر.
٩٩ـ التفسير الكبير، طبعة عبدالرحمن محمد، المطبعة البهية المصرية ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م.

★ الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر.

١٠٠ـ مختار الصحاح «قاموس» ط ١، الطبعة الأميرية ١٩١٩م.
★ رزق الله : يوسف.

١٠١ـ نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط ١، مطبعة الفرات ـ بغداد ١٩٢٤م.

★ رزوق: أسعد.

١٠٢ـ التلمود والصهيونية ، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث الفلسطينية ـ بيروت ١٩٧٠م.

★ ابن رسته: ابو علي احمد بن عمر.

١٠٣ـ الأعلاق النفيسة، طبع ليدن، ١٨٩١م.
★ رضا: محمد رشيد.
١٠٤ـ تفسير المنار، ط ٤، القاهرة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م.
١٠٥ـ محمد رسول الله. طبعة البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٩٣٨م.
★ رفعت: إبراهيم.
١٠٦ـ مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، ط١ دار الكتب المصرية ١٩٢٥م.

★ روهلنج : أوغست.
١٠٧ـ الكنـز المـرصـود في قواعـد التلمـود، طبع أخيرا بعنوان اليهودي على حسب التلمـود، ترجمـة يوسف نصر الله ـ دار المعارف بمصر ١٨٩٩م، مؤسسة دار فلسطين للتأليف والترجمة ـ بيروت ١٩٧٠م.
★ الزبيدي : محمد مرتضى.
١٠٨ـ تاج العروس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي.
★ الزعبي : محمد علي.
١٠٩ـ دفائن النفسية اليهودية، بيروت ـ ١٩٦٨م.
★ الزمخشري : محمود بن عمر.
١١٠ـ الكشاف، البابي الحلبي ـ القاهرة.
★ زيدان : جورجي.
١١١ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، طبع دار الهلال.
★ الزيلعي : جمال الدين ابو محمد عبدالله بن يوسف الحنفي (٧٦٢هـ).
١١٢ـ نصب الراية لأحاديث الهداية، جـ٣، ط١ مطبعة المأمون بشبرا عن مطبوعات المجلس العلمي بدابيل ـ سورات الهند، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.
★ سابا : عيسى.
١١٣ـ شعر السموْل، مكتبة صادر ـ بيروت.
★ سركيس : ميشيل.
١١٤ـ النهضة الإسرائيلية وتاريخها الخالد، مطبعة رمسيس بالفجالة، مصر.
★ سرور: الدكتور محمد جمال الدين.
١١٥ـ قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد، دار الفكر، ط ٣، بيروت ١٩٥٩م.
★ ابن سعد : ابو عبدالله محمد.
١١٦ـ الطبقات الكبرى، دار بيروت ودار صادر، ١٩٥٧م.
★ السقاف : ابكار.
١١٧ـ إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، عالم الكتب، ط١ القاهرة ١٩٦٧م.

★ ابن سلام: ابو عبيد.
١١٨ـ الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٨م.

★ السمهودي: نورالدين علي بن جمال الدين ابو المحاسن عبدالله بن شهاب الدين (٩١١هـ).
١١٩ـ وفاء الوفاء بأخبار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٥٥م، و١٩٧١م.

★ السهيلي: ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله (٥٨١هـ)
١٢٠ـ الروض الأنف، مكتبة الكليات الأزهرية.

★ سوسه: الدكتور احمد.
١٢١ـ العرب واليهود في التاريخ، مطبعة وزارةالإعلام العراقية، ١٩٧٢م.

★ سيد قطب:
١٢٢ـ في ظلال القرآن، ط٥، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

★ ابن سيد الناس: فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن عبدالله الأندلسي الإشبيلي المصري.
١٢٣ـ عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٦هـ.

★ سيديو: ل. أ.
١٢٤ـ التاريخ العام، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

★ سيف الدين: إبراهيم نمر والدكتور لبيد إبراهيم احمد.
١٢٥ـ تاريخ العرب، عصر النبوّة، ط١، دار الطباعة الحديثة، جامعة البصرة العراق.

★ السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن (٩١١هـ).
١٢٦ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط٣، القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.

١٢٧ـ لباب النقول في أسباب النزول، على هامش تفسير الجلالين.

١٢٨- المزهر، شرح وتصحيح محمد احمد جاد المولى وزميليه، ط٢، القاهرة.
★ شارويبيم: ميخائيل بك.
١٢٩- الكافي في تاريخ مصر القديم، طبعة بولاق، ط١، ١٣١٥هـ-١٨٩٨م.
★ شحاتة: الدكتور عبدالفتاح علي.
١٣٠- تاريخ العرب وعصر الرسول، ط٣، دار النيل للطباعة، ١٩٥٤م.
١٣١- تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام، مطبعة عطايا - باب الخلق، القاهرة.
★ الشريف: احمد إبراهيم.
١٣٢- دور الحجاز في الحياة السياسية، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٥م.
١٣٣- مكة والمدينة، ط٢، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٨م.
★ شلبي: الدكتور احمد.
١٣٤- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط٥، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.
١٣٥- اليهودية «مقارنة أديان» ط٢، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م.
★ الشهر ستاني: ابو الفتح محمد بن عبدالكريم (٥٤٨هـ).
١٣٦- الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، البابي الحلبي، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
★ الشوكاني: محمد بن علي بن محمد.
١٣٧- نيل الأوطـار شرح منتقى الأخبار من حديث سيد الأخيار، ط٢، مطبعة البابي الحلبي بمصر، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
★ شيخو: الأب.
١٣٨- ديوان السموؤل، بيروت، ١٩٠٩م.
★ الصعيدي: عبدالمتعال.
١٣٩- السياسة الإسلامية في عهد النبوة، دار الفكر العربي - مصر.
★ طبارة: عفيف عبدالفتاح.
١٤٠- اليهود في القرآن، ط٢، مطابع دار الكتب - بيروت ١٩٤٤م.

★ ابن طباطبا: محمد بن علي.
١٤١- الفخري في الأداب السلطانية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
★ الطبري: محمد بن جرير (٣١٠هـ).
١٤٢- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف ١٩٦٠م.
١٤٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر.

★ الطنطاوي: علـــي.
١٤٤- سيرة عمر بن الخطاب، المكتبة العربية ـ دمشق، عبيد اخوان.
★ طنطاوي: الدكتور محمد سيد.
١٤٥- بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ط١، بغداد ١٩٦٨م.
★ طه حسين:
١٤٦- علي وبنوه، دار المعارف ١٩٦٩م.
١٤٧- الفتنة الكبرى «عثمان» ١٩٦٨م.
★ ظاظا: الدكتور حسن.
١٤٨- الفكر الديني الإسرائيلي، مركز البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨.

★ العابدي: محمود.
١٤٩- مخطوطات البحر الميت، جمعية عمال المطابع التعاونية ـ عمان ١٩٦٧م.

★ عابدين: الدكتور عبدالمجيد.
١٥٠- بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة.
★ عاقل: الدكتور نبيه.
١٥١- تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥م.

★ العباسي: الشيخ عبدالرحيم بن احمد (٩٦٣هـ).
١٥٢- معـاهـد التنصيص على شواهـد التلخيص، تحقيق محمـد محي الـدين عبدالحميد، جـ١، مطبعة السعادة، مصر ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.

★ ابن عبد البر: ابو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد.
١٥٣- الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، لجنة احياء التراث الإسلامي، ١٩٦٦م.

١٥٤ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق البجاوي، مكتبة نهضة مصر.
★ عبدالعليم: الدكتور مصطفى كمال،
١٥٥ـ اليهود في مصر «رسالة دكتوراة» مكتبة القاهرة الحديثة، ط١، ١٩٦٨م.
★ عبده: الإمام محمد.
١٥٦ـ تفسير جزء عم، ط ٥، مطابع الشعب.
★ ابن العبري: غريغوريوس الملطي.
١٥٧ـ تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٨م.
★ ابن العربي: القاضي أبو بكر.
١٥٨ـ العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، الدار السعودية للنشر.
★ عرجون: الدكتور صادق إبراهيم.
١٥٩ـ عثمان بن عفان، مطبعة الاستقامة، ط١، القاهرة ١٩٤٧م.
★ ابن عساكر: ابو القاسم على بن الحسن.
١٦٠ـ تاريخ دمشق، جـ١ تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة مصر.
★ العسقلاني: ابن حجر ابو الفضل شهاب الدين احمد بن علي.
١٦١ـ الإصابة في تمييز الصحابة، المطبعة الشرقية، ١٣٢٥هـ.
١٦٢ـ تهذيب التهذيب، دار صادر بيروت، ط١، ١٣٢٧هـ.
١٦٣ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، طبعة الحلبي ١٣٧٨هـ وطبعة المطبعة البهية المصرية.

★ العسكري: مرتضى.
١٦٤ـ عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى، منشورات كلية أصول الدين ـ بغداد.

★ العش: الدكتور يوسف.
١٦٥ ـ الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءا من فتنة عثمان. مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥م.
★ العقاد: عباس محمود.
١٦٦ ـ ابراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧م.
★ علي: الدكتور جواد.
١٦٧ ـ تاريخ العرب في الاسلام ـ السيرة النبوية ـ مطبعة الزعيم ـ بغداد، ١٩٦١م.
١٦٨ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨م.
★ علي: سيد أمير.

١٦٩ ـ روح الاسلام، تعريب عمر الديراوي، ط ٢، دار العلم للملايين ١٩٦٨م.
★ العلي: الدكتور صالح أحمد.
١٧٠ ـ محاضرات في تاريخ العرب، مطبعة الارشاد ـ بغداد.
١٧١ ـ تنظيمات الرسول الادارية في المدينة ـ بغداد.
★ علي: الدكتور فؤاد حسنين.
١٧٢ ـ التوراة الهيروغليفية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة.
١٧٣ ـ المجتمع اليهودي حتى تشريده، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٦م.
★ عمروش: أحمد راتب.
١٧٤ ـ الفتنة ووقعة الجمل، رواية سيف بن عمرو الضبي الأسدي ت ٢٠٠ هـ، دار النفائس ١٩٧٢م.
★ ابن العميد: جرجس بن الياسر بن أبي المكارم.
١٧٥ ـ تاريخ المسلمين، طبعة دار الكتب المصرية.
★ غالب: مصطفى.
١٧٦ ـ تاريخ الدعوة الاسلامية، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر.
★ غلاب: الدكتور محمد سيد.
١٧٧ ـ تطور الجنس البشري، مكتبة الانجلو المصرية، ط ٤، ١٩٧٠م.
★ فارس: حبيب.
١٧٨ ـ الذبائح التلمودية أو صراخ البريء، تحقيق وتعليق عبدالعاطي جلال، (بلا مكان طبع ولا تاريخ).
★ الفاروقي: اسماعيل.
١٧٩ ـ الملل المعاصرة.. في الدين اليهودي، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨م.
★ الفاسي: أبو المكارم عبدالكبير بن أبي المفاخر سيدي محمد الحسني الادريسي الكتاني.
١٨٠ ـ التراتيب الادارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الاسلامية في المدينة المنورة العلية، طبعة الرباط ١٣٤٦هـ.

★ الفاسي : محمد بن أحمد بن علي المكي .
١٨١ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، وبهامشه الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، طبعة البابي الحلبي ، ١٩٥٦م .
★ فان فلوتن :
١٨٢ ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم ، ط ٢ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥م .
★ فروخ : الدكتور عمر .
١٨٣ ـ تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين ـ بيروت .
★ فلهاوزن : يوليوس .
١٨٤ ـ تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، إدارة الثقافة العامة ، ١٩٥٨م .
★ الفيروزبادي : محمد بن يعقوب .
١٨٥ ـ القاموس المحيط ، مطبعة السعادة بمصر .
★ فيصل : الدكتور شكري .
١٨٦ ـ المجتمعات الاسلامية في القرن الأول الهجري ، مكتبة المثنى ـ بغداد ١٣٧١هـ ١٩٥٢م .
★ الفيل : الدكتور محمد رشيد .
١٨٧ ـ اليهود وعلم الأجناس ، مطبعة شفيق ـ بغداد .
★ الفيومي : احمد بن محمد بن علي المغربي .
١٨٨ ـ المصباح المنير ، ط ٣ ، المطبعة الاميرية بمصر ـ ١٩١٢م .
★ القرشي : يحيى بن آدم .
١٨٩ ـ الخراج ، المطبعة السلفية ، ط ٢ ، القاهرة ـ ١٣٨٤هـ .
★ القرطبي : أحمد بن عمر بن ابراهيم بن عمر الأنصاري الأندلسي (ت ٦٢٦ هـ وقيل ٦٥٦ هـ) .
١٩٠ ـ تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» ، مطبعة دار الكتب المصرية ط ١ ١٣٥١ هـ ، ط ٢ ١٣٨٠هـ .
★ القسطلاني : الشيخ أحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب الزراعي .

١٩١ ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المطبعة الشرقية ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٧م.
★ ابن قيم الجوزيه: ابو عبدالله محمد بن ابي بكر ايوب الزراعي.
١٩٢ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد، المطبعة المصرية ومكتبتها.
١٩٣ ـ هداية الحياري من اليهود والنصارى، وبهامشه كتاب الفارق بين المخلوق والخالق لعبدالرحمن بك باجه جي زاده، ط ١، مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٢هـ.
★ ابن كثير: عماد الدين اسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ).
١٩٤ ـ البداية والنهاية، مكتبة المعارف ومكتبة النصر ـ الرياض، ط ١ ١٩٦٦م.
١٩٥ ـ تفسير ابن كثير، دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت.
★ ابن كثير: ابو الفداء عماد الدين اسماعيل (٧٣٢هـ).
١٩٦ ـ المختصر في أخبار البشر، دار المعارف ـ بيروت.
★ الكلاعي: أبو الربيع سليمان بن موسى (٦٣٤هـ).
١٩٧ ـ الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق مصطفى عبدالواحد، مكتبة الخانجي.
★ الكلبي: هشام بن محمد.
١٩٨ ـ الأصنام، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية ١٩٢٤م،
★ كوهين: أهرون.
١٩٩ ـ الشرق العربي، ترجمة جبرا نقولا، دار الجليل بعكا.
★ كييرا: ادوارد.
٢٠٠ ـ كتبوا على الطين، ترجمة د/ محمود حسين الأمين، ط ٢، دار بغداد ١٩٦٤م.
★ لوبون: غوستاف.
٢٠١ ـ اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة الحلبي القاهرة.
★ ليلينتال: ألفرد.
٢٠٢ ـ ثمن اسرائيل، ط ٤ ترجمة حبيب نخولي وياسر هواري.
★ مالك: رمزي حبيب.
٢٠٣ ـ إسرائيل واسماعيل، دار البعث ـ بيروت.
★ المحامي: محمود كامل.

٢٠٤ ـ اليمن شماله وجنوبه، تاريخه وعلاقاته الدولية، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨م.
★ المحلي: الجلال المحلى والجلال السيوطي.
٢٠٥ ـ تفسير الجلالين، طبعة الضباع، مكتبة الجمهورية المصرية.
★ محمد: الدكتور محمد عوض.
٢٠٦ ـ المسألة الصهيونية في نظر العلم، القاهرة ١٩٤٧م.
★ ابن مزاحم: نصر (٢١٢هـ).
٢٠٧ ـ وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط٢ القاهرة ١٣٨٢هـ.
★ المسعودي: ابو الحسن علي بن الحسين (٣٤٦هـ).
٢٠٨ ـ التنبيه والاشراف، دار التراث، ط ١، بيروت ١٩٦٨م.
٢٠٩ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، كتاب التحرير ١٩٦٦م.
★ مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحجاج.
٢١٠ ـ الجامع الصحيح، طبعة شركة الاعلانات الشرقية ـ القاهرة ١٣٨٤هـ.
★ مظهر: جلال.
٢١١ ـ محمد رسول الله، سيرته وأثره في الحضارة، مكتبة الخانجي، ط ١ القاهرة ١٩٤٧م.
★ المغربي: السمؤل بن يحيى (٥٧٠ هـ).
٢١٢ ـ بذل المجهود في إفحام اليهود، مطبعة الفجالة بمصر.
★ مغلطاي: الحافظ علاء الدين بن قليج.
٢١٣ ـ سيرة مغلطاي، مطبعة السعادة، مصر ١٣٢٦ هـ.
★ المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥ هـ).
٢١٤ ـ إمتاع الأسماع، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٢١٥ ـ النزاع والتخاصم بين أمية وهاشم، طبع ليدن ١٨٨٨م.
★ مكاريوس: شاهين.
٢١٦ ـ تاريخ الاسرائيليين، مطبعة المقتطف.

★ ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم.
٢١٧ - لسان العرب «قاموس» دار صار - بيروت.
★ موسكاتي: سبتينو.
٢١٨ - الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
★ مؤنس: الدكتور حسين.
٢١٩ - عالم الاسلام، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.
★ الميداني: عبدالرحمن حسن حبنكه.
٢٢٠ - مكائد يهودية، دار العلم، ط ١ ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
★ ناصيف: عصام حفني.
٢٢١ - محنة التوراة على أيدي اليهود، مطبعة الرسالة، ط ١، القاهرة ١٩٦٥م.
★ ابن نباتة: جمال الدين محمد (٧٦٨هـ).
٢٢٢ - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة.
★ النجار: عبدالوهاب.
٢٢٣ - تاريخ الخلفاء الراشدين، مكتبة وهبة، مطابع دار الكتاب العربي ط ٢ القاهرة ١٩٦٠م.
٢٢٤ - قصص الأنبياء، مطبعة المدني، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
★ ابن النجار: الشيخ محمد بن محمود.
٢٢٥ - الدرة الثمينة في تاريخ المدينة على هامش شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام.
★ ابن النديم: محمد.
٢٢٦ - الفهرست، مطبعة خياط.
★ النسفي: أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود.
٢٢٧ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل، طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
★ نعناعه: رمزي.
٢٢٨ - الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير «رسالة دكتوراه»، دار القلم ودار الضياء، دمشق - بيروت ١٩٧٠م.

٢٢٩ ـ بدع التفاسير في الماضي والحاضر، منشورات وزارة الأوقاف الأردنية ١٩٧٠م.
★ نعناعه: محمود.
٢٣٠ ـ المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢م.
★ هاردنج: لانكستر.
٢٣١ ـ آثار الأردن تعريب سليمان موسى، منشورات وزارة السياحة الأردنية.
★ هامرتون: (وآخرون).
٢٣٢ ـ تاريخ العالم، ترجمة ادارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية.
★ هرتز: حـ. هـ.
٢٣٣ ـ في الفكر اليهودي، ترجمة الفرد يلوز، دار مجلتي للطبع والنشر.
★ ابن هشام: عبدالملك المعافري (١٥١).
٢٣٤ ـ السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ط٢ البابي الحلبي ـ القاهرة.
٢٣٥ ـ التيجان في ملوك حمير، رواية ابن منبه، ط ٢ ١٣٤٧ هـ.
★ الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب.
٢٣٦ ـ صفة جزيرة العرب، طبع ليدن ١٩٦٨م.
★ الهندي: رحمة الله بن خليل.
٢٣٧ ـ إظهار الحق، المطبعة العلمية بمصر ١٣١٥هـ.
★ الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين.
٢٣٨ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال طبع الهند.
★ هونـ: الدكتورة سيجرد.
٢٣٩ ـ شمس الله تسطع على الغرب، أو فضل العرب على اوروبا، ترجمة فؤاد حسنين علي، دار النهضة العربية، مصر ١٩٦٤م.
★ هيكل: الدكتور محمد حسين.
٢٤٠ ـ حياة محمد، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٣، ١٩٦٨م.
٢٤١ ـ الصديق أبو بكر، ط ٤، مطبعة مصر، ١٩٥٨م.
٢٤٢ ـ عثمان بن عفان، مكتبة النهضة المصرية، ط ـ ١٩٦٨م.
٢٤٣ ـ في منزل الوحي، مطبعة النهضة المصرية، ط ٣ ١٩٥٧م.

★ وات: مونتقمري.
٢٤٤ - محمد في مكة تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية - صيدا، وبيروت.
٢٤٥ - محمد في المدينة تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
★ وافي: الدكتور علي عبدالواحد.
٢٤٦ - الأسفار المقدسةقبل الاسلام، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط ١ ١٩٦٤م.
٢٤٧ - اليهود واليهودية - مكتبة غريب.
★ الواقدي: أبو عبدالله محمد بن عمر (٢٠٧هـ).
٢٤٨ - مغازي الواقدي، مطبعة جونز مارسدن.
★ ابن الوردي: زين الدين عمر.
٢٤٩ - تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط ١ ١٩٧٠م.
★ ولفنسون: إسرائيل.
٢٥٠ - تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م.
٢٥٢ - تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، مطبعة الاعتماد، ١٩٢٧م.
٢٥٢ - موسى بن ميمون، ط١، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م.
★ ولز: هـ. جـ.
٢٥٣ - معالم تاريخ الانسانية ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، ط ٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٦م.
★ اليافعي: أبو عبدالله محمد بن أسعد بن علي بن سليمان اليمني المكي (٧٦٨هـ).
٢٥٤ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
★ يعقوب الثالث: اغناطيوس بطريرك انطاكية وسائر المشرق.
٢٥٥ - الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية - بيروت.
★ اليعقوبي: أحمد بن واضح أبي يعقوب (٢٩٢هـ).
٢٥٦ - تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف ١٩٦٤م.

★ يوسيفوس:
٢٥٧ ـ تاريخ يوسيفوس اليهودي، المطبعة العلمية ـ ابراهيم صادر ـ بيروت.

جـ ـ دوائر المعارف والدوريات :
أ ـ دوائر المعارف:

١ ـ دائرة المعارف الاسلامية، الترجمة الانجليزية.
٢ ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدي ـ طبع دائرة معارف القرن العشرين، ١٩٢٤م.

ب ـ الدوريات:

١ ـ مجلة الجامعة المصرية، السنة الثالثة ـ العدد الأول.
٢ ـ مجلة الرسالة ـ السنة السادسة عشرة، العدد ٧٥٧.
٣ ـ مجلة العربي الكويتية، الأعداد: ١٠، ٢٦. ٨٥، ٩١، ١٠٠، ١٠٨، ١٣٦، ١٨٤.
٤ ـ مجلة كلية الامام الأعظم، العدد الأول ١٩٧٢م.
٥ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٧ بغداد ١٩٦٩.
٦ ـ مجلة المنار، مجلد ٢٧ جـ ٨.
٧ ـ مراجع أخرى، وصحف عربية، مختلفة ذكرت في الحواشي.

د ـ المراجع الأجنبية:

1) Baron, Salo. W:

- A Social and Relegious History of The Jews, 2 nd Ed. New York, 1957.

2) Barton, G.A,:

- Archaeology and The Bible 5 th, Ed. 1927.

3) Encyclopedia:

Britannica, vol. 13, 15.

4) Encyclopedia:

The Jewish Encyclopedia, 1905, vol 8.

5) Golteln S.D.:

Jews and Arabs. New York 1964.

6) Graetz. H.:

History of the Jews, Philadelphia, 1956. vol 2,3.

7) Tichtenstedler, Ilse:

- Cultural Relations Between Jews and Arabs In the middle Ages, New York, 1948.

8)

- Some References to Jews in pre-Islamic Arabic Literature proceedings of The American Academy for Jewish Research, vol. 10, 1940.

9) Margollouth D.S.:

- The Relations Between Arabs and Israelets prior To The rise of Islam, London, 1924.

10)

- Muhammed and The Rise of Islam. London, 1932.

11) Muir. Sir William:

- The Caliphate its Rise, Decline and fall. Edinburgh, 1924.

12) Montogemery, watt:

- Muhammad At Mecca, Oxford 1956.

13) Montogemery, walt:

- Muhammad At Medina, Oxford 1956.

14) Montogemery, watt:

- MUHAMMAD Prophet and states man, oxford university.

15) Nicholson:

- Alterary History of The Arabs, Cambridge, 1930

16) O. Fjss Feldet:

- The Hebrew King dom, Cambridge University press 1965, vol, 2.

17) Oleary delacy, D.D.:

- Arabia Before Muhammed - London 1927.

18) Olmestead. A.E.:

- History of palestine and syria.

19) Parks. JaMES:

- A History of the Jewish people penguin Books.

20) philby, H. st. J.B.:

- The Back ground of Islamic-Being, asketch of Arabian History in pre-Islamic Times, Alexandria, 1947.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

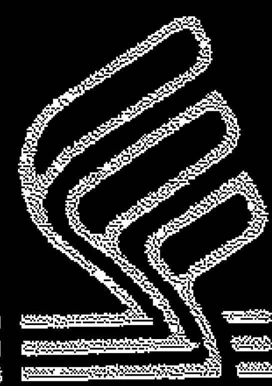
الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن



الأهلية للنشر والتوزيع

عمان - خلف مطاف القدس ☎ ٦٣٨٦٨٨/٦٥٧٤٤٥ ✉ ٧٧٧٢